

# الأصطفاة

في القرآن الكريم  
دراسة موضوعية

إعداد

د. هاني بنج صلاح الدين بن فخرى زرين العابدن

إشراف

د. ساف الكور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي

أستاذ الدراسات القرآنية

كلية المعلمين بالرياض

مكتبة الرشيد  
ناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# الإصطفاء

في القرآن الكريم  
دراسة موضوعية

ح) ام هاني صلاح الدين فخري زين العابدين ١٤٣٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

زين العابدين .ام هاني صلاح الدين فخري

الاصطفاء في القرآن الكريم: دراسة موضوعية/ام هاني صلاح الدين فخري زين العابدين

الرياض ١٤٣٢ هـ

ردمك ١-٧٠٦٧-٠٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامة ٢- الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ١- العنوان

١٤٣٢/٣١٤٠

دبوي ٢٢٩

رقم الإيداع ١٤٣٢/٣١٤٠

ردمك ١-٧٠٦٧-٠٠٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الرشيد - ناشرون

الملكة العربية السعودية - الرياض

الإدارة: مركز البستان - طريق الملك فهد - الدرر الثاني

ص.ب.: ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ - هاتف: ٤٦٠٤٨١٨ - فاكس: ٤٦٠٢٤٩٧

E-mail: info@rushd.com.sa

Website: www.rushd.com.sa



### فروع مكتبة الرشيد

- ★ الرياض: المركز الرئيسي: الدائري الغربي، بين مخرجي ٢٧ و ٢٨ - هاتف: ٤٣٢٩٣٣٢
- ★ الرياض: فرع طريق عثمان بن عفان - هاتف: ٢٠٥١٥٠٠
- ★ فرع مكة المكرمة: شارع الطائف - هاتف: ٥٥٨٥٤٠١ - فاكس: ٥٥٨٣٥٠٦
- ★ فرع المدينة المنورة: شارع أبي ذر الغفاري - هاتف: ٨٣٤٠٦٠٠ - فاكس: ٨٣٨٣٤٢٧
- ★ فرع جدة: مقابل ميدان الطائفة - هاتف: ٦٧٧٦٣٣١ - فاكس: ٦٧٧٦٣٥٤
- ★ فرع القصيم: بريدة - طريق المدينة - هاتف: ٣٢٤٢٢١٤ - فاكس: ٣٢٤١٣٥٨
- ★ فرع أبها: شارع الملك فيصل - هاتف: ٢٣١٧٣٠٧ - فاكس: ٢٢٤٣٤٠٢
- ★ فرع الدمام: شارع الخزان - هاتف: ٨١٥٠٥٥٦ - فاكس: ٨٤١٨٤٧٣
- ★ فرع حائل: هاتف: ٥٣٢٢٢٤٦ - فاكس: ٥٦٦٢٢٤٦
- ★ فرع الأحساء: هاتف: ٥٨١٣٠١٥ - فاكس: ٥٨١٣٠٢٨
- ★ فرع تبوك: هاتف: ٤٢٤١٦٤٠ - فاكس: ٤٢٣٨٩٢٧
- ★ فرع القاهرة: شارع إبراهيم أبو النجا - مدينة نصر - هاتف: ٢٣٧٢٨٩١١ - فاكس: ٢٣٧٣٦٢٥

### مكاتبتنا بالخارج

- ★ القاهرة: مدينة نصر - هاتف: ٢٧٤٤٦٠٥ - موبايل: ٠١١٦٢٨٦١٧٠
- ★ بيروت: بئر حسن - موبايل: ٠٣/٥٥٤٣٥٣ - تلفاكس: ٠٥/٤٦٢٨٩٥

## شكر وتقدير

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والشكر له على جزيل مننه وإحسانه، اختار لي من العلوم أجلّها، وشرفني بالعيش مع صفوة كتبه، والحديث عن صفوة مخلوقاته.

أحمده وأشكره عدد من وَّحَد ودعا، وحفظ آيات كتابه الكريم وتلا، وطاف حول بيته العتيق وسعى، وجاءه من كل فجّ بعيد حنّ قلبه وهفا. أحمدك ربي وأشكرك أن جعلت رسولي خاتم الرسل وسيدهم، وأمتي خير الأمم وأوسطها، وكتابي أتم الكتب وأكملها، ووجهتي إلى خير الجهات، وهديتني إلى أفضل الأزمان. فلك الحمد ولك الشكر، أهل أنت أن تُعبد وأهل أنت أن تُحمد، تعجز الأحرف مهما تشابكت، والكلمات مهما تراصت أن تخط شكراً يليق بعظيم عطائك، وجليل إحسانك.

وصلاتي وسلامي على خير المخلوقين، وصفوة المرسلين، أكمل الصلاة وأتم التسليم، ما أظلم ليل وأشرق نهار، أدّى الرسالة وبلغ الأمانة ونصح الأمة وهدانا إلى سبل السلام، شفيعنا عند ربنا، وفرطنا عند الكوثر، فعليك يا رسول الله أفضل الصلاة وأتم السلام.

ثم الترضي على الصحابة الأبرار، المصطفين الأخيار، الذين نشروا الدين في البلاد، وبلغوه للحاضر والباد، أخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فرضي الله عنهم أجمعين وعن التابعين وتابعيهم إلى يوم الدين.

واقْتداء بقول الرسول ﷺ: (مَنْ لَا يَشْكُرِ النَّاسَ لَا يَشْكُرِ اللَّهَ) (١)، أقدم باقات بألوان من الشكر تفوح بشذا من الحب والود لوالديّ اللذين ربّاني

(١) سنن الترمذي (٢٩٩/٤) حديث رقم ١٩٥٤ وقال: حديث حسن صحيح.

وأولياني كل عناية ورعاية وتوجيه فجزاهما الله عني خير الجزاء وأطال في أعمارهما وأحسن أعمالهما.

وأخص بشكري أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي المشرف على هذه الرسالة، الذي أولاني برعايته وفضله وعلمه، وكان لتوجيهاته البناءة أكبر الأثر في إنجاز هذا البحث وإخراجه بهذه الصورة، فجزاه الله عني خير الجزاء، وبارك في عمره وجهده.

كما أشكر الأساتذة الكرام أعضاء لجنة المناقشة اللذين تكروا بقبول المشاركة في مناقشة هذه الرسالة لتقويم اعوجاجها، واستكمال نقصها فجزاهما الله عني خير الجزاء، وأجزل لهما المثوبة في الدارين.

كما أشكر وزارة المعارف على منحي الفرصة لإكمال دراستي ومنحي التفرغ الكافي لذلك.

وأخص بشكري كلية التربية للبنات بجدة، وعلى رأسها عميدتها الفاضلة، ووكيلاتها الموقرات وأساتذتنا الأفاضل، وشكراً خاصاً لوكيلة الكلية للدراسات العليا التي ما دأبت تتابع وتناصح لإيصال كل صاحبة رسالة إلى نهاية هدفها بقلب رحيم، وصبر جميل. كما أشكر فريق عملها الدؤوب، وشكري البالغ لقسم الدراسات الإسلامية رئيسة وأساتذة وزميلات على ما قدّموه من معونة ودعاء.

وعميق الشكر والتقدير لإخواني وأخواتي الأعزاء الذين آزرُوا وتكبدوا وعانوا، وأخص بالذكر أختي مريم حفظها الله على ما قدمته من جهود في طباعة الرسالة وإخراجها، مع ما تخلل ذلك من تشجيع وإبداء مقترحات بناءة، كما أشكر أختي في الله صباح سعيد سعد العرفي، والتي كانت بمثابة الريح الطيبة التي تدفع سفينتي كلما هدأت حتى وصلت إلى جزيرتها آمنة مطمئنة، فجزاها الله عني خيراً وسهلاً لها طرق العلم وفتح لها أبوابه بحوله وقوته.

والشكر موصول لكل من قدم لي العون، وأفادني بفكرة وتوجيه أو رأي، إلى هؤلاء جميعاً أهدي شكري وتقديري سائلة المولى أن يجزي الجميع عني خير الجزاء، وأن يجمعني بهم في فردوسه الأعلى، وأن يجعلني وإياهم من صفوة عباده؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

# محتويات الرسالة

- ١ - مقدمة الرسالة
- ٢ - سبب اختيار الموضوع
- ٣ - خطة البحث
- ٤ - منهج البحث
- ٥ - الدراسات السابقة





## المقدمة

الحمد لله القائل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]، خلق فسوَّى، وقدَّر فهدى، وأعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ فهدى، سبحانه المتفرد بالخلق والاختيار، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير، لم يشاركه في خلقه نِدٌّ ولا ولد، ولا في اختياره من خلقه أحد، عليم بخلقه، حكيم في اختياره، اصطفى من كل شيء أحسنه وأطيبه، وبأعظم الخصائص ميَّزه، وعن بقية أقرانه فضَّله، وبأنواع من العبادات خصه. والصلاة والسلام على نبينا المصطفى، ورسولنا المجتبي محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته وسار على هديه إلى يوم الدين.

أما بعد، فإن «الاصطفاء» والذي هو فعل الرب الحكيم ثابت بالكتاب والسنة:

ففي الكتاب قال تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَنْبِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وفي السنة عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئل أي الكلام أفضل؟ قال: «مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»<sup>(١)</sup>.

وكما هو معلوم شرعاً أن أفعال الله ﷻ منزَّهة عن العبث واللغو - تعالى الله عما يصفون - قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا﴾ [الأنبياء: ١٦ - ١٧]، وعليه فإن اصطفاء الله ﷻ لبعض مخلوقاته، وتخصيصها

(١) صحيح مسلم (٤/١٦٦٣) حديث رقم ٢٧٣١.

بأنواع من العبادات كان لِحَكْمِ رَبَّانِيَّةِ عَظِيمَةٍ، ظهرت آثارها جلية واضحة لمن علمها وفهم بعضها من أوجه تفضيلها واختصاصها، وآمن باصطفاء الله ﷺ لها، وقام بحققها كما حدد له الشارع الحكيم، فما سادت الأمة المسلمة وعلما شأنها إلا عندما تمسكت بما اصطفاه الله ﷺ لها، وأولته العناية والاهتمام وقامت بحققه دراسة وتربية وتعليماً، وعاشته واقعاً حياً، وما ذلت وهانت إلا بتضييعها لأسباب عزتها ونجاتها وسيادتها.

إن مختارات الله ﷺ هي أداة القوة الوحيدة التي تملكها الأمة المسلمة؛ القوة بمختلف أنواعها، فإما أن تتمسك بها فتكون، وإما أن تهملها فلن تفلح إذاً أبداً.

لقد اصطفى الله سبحانه لهذه الأمة المسلمة الأفضل من كل شيء، اصطفى لها من الشرائع أكملها وأتمها، ومن البقاع أوسطها، ومن الأزمان أشرفها، وخصَّهم بسيد الأنبياء والمرسلين، إلى غير ذلك من أوجه التفضيل والاختصاص. فكانت تلك المختارات<sup>(١)</sup> التي خصَّها بها المولى هي سبيل عزتها وشرفها، ورمز قوتها وشموخها وارتقائها، وهي مادة حياتها والسبيل لحفظ كنهها، وهي شعارها الذي تحيا به، كما إنها البيئة السليمة لتربية أجيال مسلمة تحمل الهوية المسلمة وتحيا معتزة بها؛ أجيال صلبة قوية العقيدة، تحيا مع الناس دون ذوبان، وتتعايش معهم دون أن تضيع، تفهم سر وجودها، وتتحمل تكاليف تبعثها لخير أمة أخرجت للناس.

ومع الواقع الأليم الذي يعيشه المسلمون اليوم وقد تداعت عليهم الأمم كما تداعت الأكلة إلى قصعتها، ومع ما ينادي به أعداؤها من جعل العالم قرية كونية واحدة، وشعباً واحداً وفكراً واحداً، وهو ما يخالف سنة الله ﷺ في خلقه، ويتنافى مع تميز الأمة المسلمة قلباً وقالباً، بات من الضروري الأخذ بأسباب القوة والتمكين والمتمثلة في كل ما اصطفاه الله ﷺ لهذه الأمة، وذلك بدوام التذكير بها، وبيان أهميتها ودورها المهم في حياة المسلمين، وعرضها بالصورة التي رضيها الله ﷺ، وتربية الأجيال على

(١) لفظ المختار قد يقع على الفاعل وعلى المفعول، فيطلق على من قام بالفعل مُختاراً، وعلى من وقع عليه فعل الاختيار كذلك. انظر: مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص ٣٠٢.

معرفتها وحبها والتعامل معها. لذلك رأيت بعد الاستخارة والدعاء والمشورة أن اختار هذا الموضوع لهذه الرسالة العلمية وسميته: «الاصطفاء في القرآن الكريم».

وكان سبب اختياري لهذا الموضوع إضافة إلى ما سبق ذكره ما يلي:

• أن ما كتب في هذا الموضوع لم يجمع في مكان واحد، وإنما كان متناثراً في مؤلفات ذُكرت بعضاً مما اصطفاه الله ﷻ لبيان خصائصه، فبعضها عن البقاع المباركة كمكة المكرمة، والمدينة المنورة، وبلاد الشام، والمساجد، وبعضها عن الأزمنة المختارة كرمضان والأشهر الحرم، وبعضها عن المُصْطَفَيْن من البشر: الأنبياء ﷺ، وأفاضل الصحابة رضي الله عنهم، وأمّهات المؤمنين رضي الله عنهن، والعرب، وأخرى خصّت حديثها عن الدّين المصطفى، وغيرها عن الكتاب المصطفى، إلى غير ذلك. ولما كان الهدف من الرسالة هو بيان أغلب ما اصطفاه الله ﷻ للأمة المسلمة لجلاء مكانتها، وتوضيح أسباب قوتها وعزتها وتميُّزها، رأيت أن يُجمع في مكان واحد حتى تظهر عظمة الأمة المسلمة بعِظَم ما اصطفاه الله ﷻ لها.

• الإسهام في خدمة جانب التفسير الموضوعي، والذي يمكن عن طريقه الكشف عما في القرآن من مفاهيم وقواعد وتشريعات تساعد في حل مشكلات البشر، إذ إنه لا يمكن مجابهة مشكلات العصر ومعطيات الحضارة إلا بأسلوب الدراسات الموضوعية حيث يمكن من خلال فهم النصوص التوصل إلى طرق لعلاج وحل تلك المعضلات.

• المساهمة في تربية جيل مسلم قوي بعقيدته، معتر بممتلكاته، متميز بمبادئه؛ وذلك بعلاج الأمراض التي ظهرت على الأجيال المسلمة الحالية كضياع الهويّة، وحب الانتماء إلى حضارات الغرب والاعتزاز بها. وعلاج الوهن والضعف الناتج عن الحرب النفسية التي شنّها أعداء الإسلام كنوع من أنواع الحروب التي تهدف إلى تذويب شخصية المسلمين ومحو عقيدتهم، وهدم أسباب تميّزهم وقوتهم.

• بيان الرسالة المناطة بالأمة المسلمة، والتكاليف والأعباء التي فرض الله ﷻ عليهم القيام بها، وتذكيرها بأنها الوحيدة التي يجب أن تقود

العالم لأهليتها لذلك، ولا تسلم دفة القيادة لغير المؤهلين أصلاً لذلك.

• بيان بطلان ما تدعو إليه النداءات المعاصرة من جعل العالم قرية كونية واحدة فكرياً وثقافةً، بيان تميز الأمة المسلمة بعقيدها، وأنها يصعب بل لا يمكن أن تذوب في غيرها نهائياً لأن الله ﷻ لم يخرجها لذلك. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

• طلب القرية من الله ﷻ بتذكير العباد بمصطفيات الله ﷻ لهم وما حُصِّت به من خصائص، وبيان ماهية الدور الواجب القيام به حيالها حيث أنه باب عظيم في تحقيق العبودية لله ﷻ.

• الرد على المبتدعة وذلك ببيان الصحيح مما اصفاه الله ﷻ، وبيان الطريقة التي أراد ﷺ أن تعظم به مختاراته بالاستناد إلى الأدلة الصحيحة دون اتباع هوى أو التعصب لمذهب.

• المساهمة في إخراج العبادات من إطار العادة إلى مدار أوسع وأفق أرحب وذلك بإنعاش المعاني الروحية المتصلة بتلك المختارات، والتذكير بما حفها من أحداث عظيمة أظهرت مكانتها عند الله ﷻ مما له عظيم الأثر في أداء تلك العبادات بسعادة كبيرة وروح عالية.

• تعزيز الجانب الحركي للأمة المسلمة للقيام بدورها تجاه العالم وذلك بتقوية مادته وهي القوة الروحية، وإخراج الإيمان من المكنونات والمشاعر إلى واقع تُصنع به الحياة وتصاغ به الأفراد وتُقاد البشرية.

• تجدد حاجات الأمة المسلمة في العصر الحاضر، وذلك عند بروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية [كفكر العولمة] وغيره من الأفكار التي لا يمكن تغطيتها ورؤية الحلول الصحيحة لها إلا باللجوء إلى التفسير الموضوعي.

• المساهمة ولو بشيء يسير في دعم الدراسات القرآنية والعمل على وجودها في الساحة العلمية وتصحيح مسارها وربطها بالواقع الذي تحياه الأمة.

## خطة البحث

قسمت الرسالة إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة:  
المقدمة، وتتضمن:

١ - أسباب اختيار الموضوع.

٢ - خطة البحث.

٣ - منهج البحث.

٤ - الدراسات السابقة.

التمهيد، ويتضمن الحديث عن انفراد الله ﷻ بالخلق والاختيار.

□ الباب الأول: تحرير معاني الاصطفاء في اللغة والاصطلاح ومرادفاته، واصطفاء غير البشر.

ويشتمل على فصلين:

○ الفصل الأول: تعريف الاصطفاء في اللغة والاصطلاح ومرادفاته.

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: معنى الاصطفاء في اللغة.

المبحث الثاني: إطلاقات مادة الاصطفاء في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: الكلمات المرادفة للاصطفاء.

المبحث الرابع: تحرير معنى الاصطفاء.

○ الفصل الثاني: اصطفاء غير البشر في القرآن الكريم.

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: اصطفاء الدين (الإسلام).

المبحث الثاني: اصطفاء الكتاب (القرآن).

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: اصطفاء القرآن الكريم.

المطلب الثاني: اصطفاء الذكر.

المطلب الثالث: اصطفاء اللغة العربية.

المبحث الثالث: الملائكة المصطفاة.

المبحث الرابع: اصطفاء بعض الأزمنة.

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: اصطفاء شهر رمضان المبارك.

المطلب الثاني: اصطفاء الأشهر الحرم.

المطلب الثالث: اصطفاء يوم الجمعة.

المطلب الرابع: اصطفاء ليلة القدر.

المطلب الخامس: اصطفاء الليالي العشر من ذي الحجة.

المبحث الخامس: اصطفاء بعض البقاع.

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: اصطفاء البلد الأمين - مكة المكرمة -.

المطلب الثاني: اصطفاء طابة - المدينة المنورة -.

المطلب الثالث: اصطفاء بلاد الشام.

المطلب الرابع: اصطفاء المساجد.

□ الباب الثاني: المصطفون من البشر.

ويشتمل على ثلاثة فصول:

○ الفصل الأول: منهج القرآن الكريم في الحديث عن اصطفاء

الأنبياء ﷺ، وبيان خصائصهم وصفاتهم.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: منهج القرآن الكريم في الحديث عن اصطفاء

الأنبياء ﷺ.

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: درجات الاصطفاء.

المطلب الثاني: أركان الاصطفاء.  
المطلب الثالث: مراحل الاصطفاء.  
المطلب الرابع: ذكر المُصْطَفِينَ أفراداً وجمَعاً وبيان اللفظ المعبر به  
عن الاصطفاء.

المطلب الخامس: بيان الشيء الذي اصْطَفِي به الأنبياء ﷺ.  
المبحث الثاني: خصائص الأنبياء ﷺ.  
المبحث الثالث: صفات الأنبياء ﷺ.

ويشتمل على ثلاثة عشر مطلباً:

المطلب الأول: كمال عبوديتهم لله ﷻ.

المطلب الثاني: الصُدِّيْقِيَّة.

المطلب الثالث: الصلاح.

المطلب الرابع: الدعاء والخشوع.

المطلب الخامس: التوبة والأوبة والإنابة.

المطلب السادس: الصبر والنصر.

المطلب السابع: أولو العزم.

المطلب الثامن: أولو الأيدي والأبصار.

المطلب التاسع: أصحاب الذكر الجميل.

المطلب العاشر: المسارعة في الخيرات.

المطلب الحادي عشر: الأمانة والفطنة.

المطلب الثاني عشر: الرجولة والبشيرة ومُزاولة أعمال البشر.

المطلب الثالث عشر: من أهل القرى وبلسان قومهم.

○ الفصل الثاني: اصطفاء الله ﷻ رسوله محمداً ﷺ وما خصّه به من

خصائص.

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: التهيئة والإعداد التي أولاها الله ﷻ لرسوله محمد ﷺ.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المرحلة الأولى: الأمور التي تمّ إعدادها وتهيتها للمصطفى محمد ﷺ قبل ولادته.

المطلب الثاني: المرحلة الثانية: من الولادة وحتى البعثة.

المطلب الثالث: المرحلة الثالثة: التهيئة والإعداد بعد مبعثه ﷺ.

المبحث الثاني: خصائص الرسول ﷺ في الدنيا والآخرة.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: خصائص الرسول ﷺ في الدنيا.

المطلب الثاني: خصائص الرسول ﷺ في الآخرة.

○ الفصل الثالث: اصطفاء الصديقين والشهداء والصالحين.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: اصطفاء الصديقين.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تحرير معنى الصديق في اللغة والاصطلاح وأقوال

المفسرين.

المطلب الثاني: صفات الصديقين وخصائصهم.

المطلب الثالث: الصديقون والصدقات في القرآن الكريم والسنة.

المبحث الثاني: اصطفاء الشهداء.

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: دلالة القرآن الكريم على اصطفاء الشهداء.

المطلب الثاني: تعريف الشهيد في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثالث: تربية الأمة على حب الشهادة.

المطلب الرابع: خصائص الشهداء.

المطلب الخامس: أقسام الشهداء.

المبحث الثالث: اصطفاء الصالحين.

ويشتمل على أربعة مطالب:



المطلب الأول: معنى الصلاح في اللغة والاصطلاح وأقوال المفسرين.

المطلب الثاني: إطلاقات الصلاح في القرآن الكريم والسنة.

المطلب الثالث: السبيل إلى الدخول في زمرة الصالحين.

المطلب الرابع: ثمرات الصلاح.

□ الباب الثالث: اصطفاء الأمم.

ويشتمل على فصلين:

○ الفصل الأول: اصطفاء الأمة المسلمة.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: دلالة القرآن الكريم على اصطفاء الأمة المسلمة.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الآيات الدالة على اصطفاء الأمة المسلمة.

المطلب الثاني: إشارات حول مفهوم الأمة المسلمة.

المطلب الثالث: أوصاف الأمة المسلمة في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: خصائص الأمة المسلمة في الدنيا والآخرة.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: خصائص الأمة المسلمة في الدنيا.

المطلب الثاني: خصائص الأمة المسلمة في الآخرة.

المبحث الثالث: تكاليف اصطفاء الأمة المسلمة وتعدد أعبائها.

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: إخلاص العبادة لله ﷻ وعدم الإشراك به.

المطلب الثاني: الشهادة على البشرية والقوامة عليها.

المطلب الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الرابع: الجهاد في سبيل الله ﷻ.

○ الفصل الثاني: عالمية الإسلام والنداءات المعاصرة.

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: عالمية الإسلام، مفهومها وأهدافها.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم عالميّة الإسلام.

المطلب الثاني: أهداف عالميّة الإسلام.

المبحث الثاني: العولمة، مفهومها وأهدافها والموقف منها.

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم العولمة.

المطلب الثاني: مجالات العولمة

المطلب الثالث: أهداف العولمة.

المطلب الرابع: الموقف الرشيد تجاه العولمة.



## منهج البحث

١ - تتبع مادة الاصطفاء في القرآن الكريم - صَفَوَ - ثم جمعت الآيات الواردة فيها، وبينت عدد مرات ورودها وما ذهبت إليه من معان، ثم جمعت الآيات التي حوت مرادفات الاصطفاء، واستنبطت معناها من كتب التفسير واللغة العربية، وبعد ذلك قمت بتفسيرها واستنباط عناصر الموضوع من خلالها، ونسقت بين عناصره فوضعت الأبواب والفصول والمباحث بناءً على ذلك.

٢ - عزوت الآيات الواردة في الرسالة إلى سورها مع ذكر رقم الآية في المتن بجانب الآية.

٣ - اعتمدت المنهج التحليلي للنص القرآني بالاسترشاد في ذلك بفهم المفسرين لتلك الآيات.

٤ - أخذت بقول المتقدم من المفسرين عند توافق أقوالهم في تفسير الآية، مع الاكتفاء بذكره في الهامش إلا في بعض المواضع فأضع أقوال المفسرين جميعها وإن تقاربت أقوالهم للمقارنة.

٥ - اعتمدت في كتابة أسباب النزول على الكتب المتخصصة كأسباب النزول للواحدي ولباب النقول للسيوطي.

٦ - اعتمدت في أغلب الرسالة على الأحاديث الصحيحة الواردة في صحيحي مسلم والبخاري، وأما إن كان في غيرهما فإنني أذكر مصدره وحكم العلماء عليه مع ذكر ما يدل على الجزء والصفحة ورقم الحديث، كما حَرَصْتُ على كتابتها مُسَكَّلَةً حتى تُقْرَأَ بشكل صحيح.

٧ - ترجمت لبعض الأعلام غير المشاهير الذين وردت أسماؤهم في الرسالة بالرجوع إلى الكتب المعتمدة في ذلك.

٨ - بينت معظم الكلمات الغريبة التي وردت في الرسالة بالاعتماد على

كتب معاجم اللغة والتفاسير وشروح كتب الحديث، مع التنبيه إلى أن المعنى قد يوضع مرة في المتن وأخرى في الحاشية وذلك حسب الأصلح لفهم مادة البحث.

٩ - دونت عند التوثيق في الحواشي المعلومات الأساس للمرجع وهي عنوان الكتاب واسم المؤلف ورقم الصفحة والجزء إن وجد.

١٠ - كتبت جميع المصادر والمراجع مع بيانات النشر الكاملة في قائمة المصادر والمراجع وذلك في آخر الرسالة بعد ترتيبها على حروف المعجم بحسب أسماء الكتب.

١١ - حرصت على اتباع ذكر الرسول ﷺ بالصلاة والسلام عليه، والصحابة بالترضي عليهم والعلماء بالترحم عليهم.

١٢ - اعتمدت على كتب السنن وشروحها، لحاجة موضوع الرسالة لذلك، حيث أنه لا يتم بيان المعنى المراد إلا بها، فالقرآن الكريم كتاب شامل شرحته السنة وفصلته وبيّنته، فلم يكن هناك مخرج من ذلك وإلا لاعتبرت الرسالة مبتورة وناقصة، ومثال ذلك اصطفاء الرسل ﷺ؛ جاءت الآية تبين اصطفاء تلك الطائفة المباركة من الناس. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: ٧٥]، ولكن كيف يمكن بيان عددهم، وخصائصهم، والأمور التي اصطفوا بها، ودرجات الاصطفاء، وتنوعه، وارتباط ذلك الاصطفاء بمراتبهم في الآخرة وإلى غير ذلك من الأمور التي كلما تبخرنا في السنة وجدنا فيها المزيد، وعليه وإن كان موضوع الرسالة في القرآن الكريم إلا أنه لا يمكن الاستغناء أبداً عن مصدر شرحه وبيانه وتفصيله وهي السنة المطهرة. فالسنة شارحة للقرآن وموضحة له كما قال السلف.

١٣ - ضَمَّنْتُ الرسالة ما اصطفاه الله ﷻ من مخلوقاته، سواء ثبت ذلك بلفظ الاصطفاء الصريح «اصطفى»، أو بأحد مرادفاته، وما ثبت اصطفاؤه بدون اللفظ الصريح ولا مرادفاته؛ لأنه إن اقتضرت في الرسالة على ما ورد في القرآن الكريم بلفظ الاصطفاء أو أحد مرادفاته فسيكون في ذلك إخلالاً

كبير ولا أدعي الإحاطة بكل ما اختاره الله ﷻ؛ لأن ذلك يتطلب العديد من الرسائل، وإنما حاولت تضمين الرسالة الأمور التي يجب أن يعلمها أفراد الأمة المسلمة لأنهم مأمورون بمعرفتها وتعظيمها والقيام بحقها، حتى يتحقق أثر ذلك في حياتهم، ويؤيد ما ذكرنا سابقاً قول قتادة يرحمه الله في شرح قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦]، قال ﷻ: «إن الله اصطفى صفائاً من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، ومن الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظموا ما عظم الله فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل»<sup>(١)</sup>. فجعل ﷻ الأشهر الحرم من مختارات الله سبحانه مع أنه لم يرد اصطفاؤها لا باللفظ الصريح ولا بمرادفاته.

١٤ - عند ذكر ما اصطفاه الله ﷻ من مخلوقاته ذكرتُ خصائصه، وذلك لبيان الشيء الذي اصطفاه به، إذ إن الاصطفاء مقترنٌ بالترتيب والاختصاص، فالله ﷻ عندما يصطفي فإنه يخص ما اصطفاه بخصائص، وهذه الخصائص هي ما تفضله عن بقية أقرانه، وهذا وإن أدَّى إلى الإطالة في البحث إلا أنه من الضروري ذكره حيث أن المصطفى فُضِّلَ ومُيِّزَ بهذا الوصف الزائد الذي قام به، وهذا الوصف الزائد هو الخصائص البارزة التي تطلبت طبيعة البحث ذكرها، مع بيان أنني لم أذكر إلا بعضاً من الخصائص البارزة خوفاً من الإطالة.

١٥ - اعتمدت الطريقة الأفقية في كتابة البحث حيث حرصت على أن أجمع أكبر قدر من مفردات المادة من مساحتها الواسعة؛ إذ كان هذا هو الهدف من الرسالة، ولم أتمكن من الكتابة الرأسية التي تخدم كل مفردة من مفردات البحث بطريقة أكثر علمية ودقة وتوثيقاً حيث يتطلب ذلك أفراد كل واحدة منها في بحث مستقل.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/١٤٨).

١٦ - جاء تسلسل الرسالة بالحديث عن ما اصطفاه الله ﷺ من غير البشر، ثم بالحديث عن المصطفين من البشر على اعتبار أن ما سبقها اصْطَفِي لها، ثم إلى المجال الأوسع وهو اصطفاء الأمم المترتب وجودها على اصطفاء البشر.

وبما أن كل عمل في حياة المسلم تكتفه بعض الصعوبات إلا أنها تعتبر ذات أهمية بالنسبة له؛ لأنها تُقربه من ربه حيث يتضرع إليه ويسأله ويدعوه فيتعبده بذلك، وتعالجه من الكبر والعُجب حيث تُريه ضعفه وحاجته إلى من هو أقوى منه، كما أنها تعلمه عبودية الشكر لله ﷻ والذي لولاه لما خطا في عمله خطوة واحدة.

ولقد كان من أبرز وأهم الصعوبات التي واجهتني أثناء الكتابة:

- (١) كثرة المفردات التي كان من الصعب الإحاطة بها كلها واستيفائها.
- (٢) تنوع مفردات البحث، فمن الزمان إلى المكان إلى البلاد إلى الرسل والأمم مع ما تخلل ذلك من الحديث عن الأقوام واللغات إلى غير ذلك، وذلك التنوع تطلب الانتقال النفسي والفكري والتقلب المستمر، فبعد العيش مع فكرة معينة يضطرنني البحث إلى ضرورة الاستعداد النفسي للعيش مع فكرة جديدة مختلفة عن السابقة.

(٣) ندرة المراجع وكثرتها؛ ندرتها في الحديث عن الاصطفاء كفكرة موضوعية في القرآن الكريم، وكثرة مراجع المفردات، فهناك مجلدات كثيرة عن الأزمنة الفاضلة، والأمكنة الفاضلة، واللغة العربية، والأمة المسلمة، والرسل والرسالات، إلى غير ذلك، فكان جمع تلك المراجع واستيفائها والبحث فيها يشكل بعض الصعوبة، والله الحمد أولاً وآخراً على ما أعان ويسّر.

### ❖ الدراسات السابقة ❖

لا يوجد - حسب علمي - بعد السؤال والتقصي دراسة جامعية متخصصة كتبت في موضوع الاصطفاء، دراسة مستقلة جمعت ما اصطفاه الله ﷻ من مخلوقاته وما ميزه به عن غيره، وما خصه به من أمور.

ولأهمية هذا الموضوع وأثره في عقيدة المسلم وسلوكه، وكثرة ما انتشر

من بدع في تفضيل بعض المخلوقات، وتخصيصها بأنواع من العبادات بدون دليل، رأيت أنه من الضروري بيان ما اصطفاه الله ﷻ من مخلوقات بالدليل الصحيح، وما خص به من عبادات، وكيف يكون تعظيمه كما حدد الشارع سبحانه.

ولأهمية معرفة ما اصطفاه الله تعالى في تقوية العقائد وشحذ الهمم وربط وتوثيق بالتاريخ وتمييز للأمة ورفع من همتها وجلاء لوهنها، رأيت أن أجمع ما تناثر هنا وهناك من المؤلفات التي كتبت في خصائص المختارات لخدمة الجانب التعبدي، وبعد الجمع أبيت أسباب تفضيلها، والروابط بين تلك المختارات، وأنها جميعها اختيرت لتعمل على الدعم العقدي والتعبدي والأخلاقي للأمة المسلمة، وحاولت الاجتهاد في تنظيمه قدر استطاعتي سائلة المولى أن يجعل فيه الصلاح والخير، ويهدي به العباد وينشره في البلاد، ويجعله بلاغاً للحاضر والباد.







# التمهيد

\* انفراد الله ﷻ بالخلق والاختيار.



## انفراد الله ﷻ بالخلق والاختيار

قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

بيّنت الآية أن الله ﷻ هو الذي يخلق ، والخلق صفة من صفاته الفعلية الثابتة بالكتاب والسنة والتي لا يشاركه فيها أحد من مخلوقاته<sup>(١)</sup>. كما بينت الآية أن الله ﷻ هو الذي يصطفي ويختار من خلقه ما يشاء، ونفت أن يكون لغيره حق في الاصطفاء والاختيار<sup>(٢)</sup>.

وإنما اقتصرنا في التمهيد على هذه الآية الكريمة لأنها جمعت المحاور الثلاثة الأساس التي تقوم عليها أركان البحث وهي:

المحور الأول: انفراد الله ﷻ بالخلق.

المحور الثاني: انفراده ﷻ بالاختيار.

المحور الثالث: نفي حق الاختيار عن البشر.

وسيتم الحديث إن شاء الله تعالى عن هذه المحاور الثلاثة في هذا التمهيد.



(١) الخلق صفة من صفات الله ﷻ الفعلية الثابتة بالكتاب والسنة، وهي مأخوذة من اسميه: الخالق والخالق، وأصل الخلق هو إيجاد الشيء من غير أصل ولا احتذاء، وليس الخلق الذي هو الإيجاد إلا لله تعالى، ولهذا قال ﷻ في الفصل بينه وبين غيره: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

(٢) الْمُصْطَفِي والمُخْتَارُ اسمان من أسماء الله الحسنی، الزائدة على التسعة والتسعين المشهورة، انظر موسوعة: «له الأسماء الحسنی» للشرباصي (٧٣/٢ - ١٠٥)، ولقد ورد في القرآن الكريم إثبات فعل الاختيار والاصطفاء لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَنَا آخَرْتَكَ﴾ [طه: ١٣] وقال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى﴾ [آل عمران: ٣٣].

## أولاً: انفراد الله ﷻ بالخلق:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلِ افْتَحَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أُولِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ سَوَى الظُّلُمَتِ وَالنُّورِ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ [الرعد: ١٦]. وقال ﷻ: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ [الزمر: ٦٢]. وقال ﷻ: ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان: ١٧].

نصّت الآيات السابقة على أن الله ﷻ هو وحده المنفرد بالخلق فلا خالق سواه، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ فالله ﷻ خالق الأشياء كلها وهو ربها ومليكها والمتصرف فيها، وكلها تحت تدبيره وقهره وتقديره، وأزمة الأمور بيده الواحد الأحد. فكلمة ﴿كُلِّ﴾ من الألفاظ الدالة على العموم، فدلّت على أن كل شيء - كبيراً وصغيراً - هو من خلقه وحده، فمن المحال أن يخلق شيء من الأشياء نفسه، كما أنه من المحال أن يوجد من يخلق غيره؛ فتعين أن الله ﷻ القهار هو وحده الخالق، دون غيره؛ فالقهر والتوحيد متلازمان لله وحده، فلا موجود إلا به، وهو في وجوده، مستغن عن الموجودات كلها<sup>(١)</sup>.

ولما كانت قضية الخلق هي الفاصل القاطع بين الخالق الحق ومدعي الألوهية فقد بيّن الله ﷻ خطأ من اتخذ من دونه آلهة، ببيان عجزها عن الخلق؛ لأن القدرة على الخلق من الصفات الدالة على الألوهية، فمن عجز عن أن يكون خالقاً لا شك أنه لا يصلح أصلاً لأن يكون إلهاً، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣].

ثم تحداهم بأن يخلقوا أهون الخلق وأحقره حتى يرشحهم ذلك لأن يستحقوا أن يكونوا آلهة تعبد من دونه سبحانه الواحد القهار، قال تعالى:

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٣/٣٠٧)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/٤)

(٤٤٦)، تفسير الكريم الرحمن للسعدي (٤/٩٩).

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْأَلُهمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

فضعف الطالب، وضعف المطلوب، وتجلت القدرة الإلهية، وخارت قوى الآلهة المزعومة. وللتأكيد على انفراد الله ﷻ بهذا الفعل فقد حارب الشرع كل من ادعى أنه يخلق كخلق الله ﷻ، بل جعل التصوير من أكبر الظلم، ومن الكبائر التي يعاقب عليها فاعلها أشد العقوبة، معللاً أن علة التحريم أنهم يضاؤون خلق الله ﷻ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ بِخَلْقِ خَلْقًا كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»<sup>(١)</sup>.

فتحداهم الله ﷻ أن يخلقوا ذرة في روح تتصرف كالذرة التي خلقها الله تعالى، وتحداهم أن يخلقوا حبة حنطة أو شعير فيها طعم، تؤكل، وتزرع، وتنت، ويوجد فيها ما يوجد في حبة الحنطة والشعير ونحوها من الحب الذي يخلقه الله تعالى، وهذا أمر تعجيز.

إن القضية لا تتوقف على القدرة على الخلق وعدمها فحسب، وإنما تمتد إلى ما وراء الخلق، وما يترتب على الخلق من أمور ملازمة له من الهداية والكلاءة والتقدير وغيرها من الأمور التي يعجز المخلوقون - ولو اجتمعوا - عن القيام بها، فلهذا الحمد أولاً وآخراً.

- قال ﷻ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ١ - ٣].

- وقال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢].

- وقال ﷻ: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ٦٢].

- وقال جل وعلا: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

- وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

(١) صحيح مسلم (٣/١٣٣١) حديث رقم ٢١١١.

إن الآيات السابقة في مجموعها تدل على أن الله ﷻ هو وحده الخالق، وأنه ﷻ عندما خلق خلقه لم يتركهم هملاً، وإنما تعهدهم فأعطى كل مخلوق ما يليق به، وما يناسبه من الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك، فسواء وهياً لما يصلح له، لا خلل فيه ولا تفاوت، فالله ﷻ وحده هو الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها، وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق متضمن للأحكام الكونية القدرية، والأمر متضمن للأحكام الدينية الشرعية، فالله ﷻ له الخلق لأنه الخالق، وله الأمر لأنه يأمر في خلقه بما يشاء.

والله ﷻ هو الوكيل على خلقه، وهو القيم عليهم بالحفظ والكلاءة، فالأشياء كلها موكولة إليه وهو القائم بحفظها، وكلها تحت تدبيره وقهره وكلاءته، ولو كالاته التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلاً عليه، وإحاطته بتفاصيله، ولا بد له من قدرة تامة على ما هو وكيل عليه ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه، ولا بد من حكمة ومعرفة بوجوده التصرفات ليصرفها ويدبرها على ما هو الأليق، فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله، لذلك قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١). وأن الخلق بعد ذلك راجعون إليه لأنه مالكهم المتصرف فيهم، وهو ﷻ لم يخلقهم عبثاً، فإذا ثبت كل ذلك لله ﷻ وحده من خلق وملك وقدرة وعلم وقهر وتصريف وتدبير، ثبت له وحده القدرة على الاختيار من الخلق.

### ثانياً: انفراد الله ﷻ بالاختيار:

إن لفظ الاختيار الوارد في الآية الكريمة ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ يعطي معنى الانتقاء والاصطفاء من بين الخلق، فالله ﷻ عندما خلق خلقه اختار منهم لأنه وحده الأعلم بهم، وليس لغير الخالق حق في الاختيار، قال ابن قيم الجوزية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لفظ الاختيار في القرآن مطابق لمعناه في اللغة، وهو اختيار الشيء على غيره، وهو يقتضي ترجيح ذلك المختار وتخصيصه وتقديمه

(١) انظر: معالم التنزيل للبخاري (٦/٧١) (٣/٢٣٦)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤/

١٩٩)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٦/٤٨٩)، (٣/٣٩).

على غيره، وهذا أمر أخص من مطلق الإرادة والمشیئة. قال في الصحاح: «الْخَيْرَةُ» الاسم من قَوْلِكَ: «حَارَ اللَّهُ لَكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ»، وَالْخَيْرَةُ أَيْضاً: يُقَالُ مُحَمَّدٌ خَيْرٌ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَخَيْرَةُ اللَّهِ أَيْضاً بِالتَّسْكِينِ، وَالْاِخْتِيَارُ: الْاِضْطِفَاءُ، وَكَذَلِكَ التَّخْيِيرُ وَالْاِسْتِحَارَةُ: طَلَبُ الْخَيْرَةِ، يُقَالُ: اسْتَخِرَ اللَّهُ يَخِرُ لَكَ، وَخَيْرْتُهُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ: فَوَضْتُ إِلَيْهِ الْاِخْتِيَارَ. فهذا هو الاختيار في اللغة، وهو أخص مما اصطاح عليه أهل الكلام. ومن هذا قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: اختار منهم (١).

قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]. دلت الآية الكريمة على انفراد الله ﷻ بالاختيار لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾ فنفت حق الاختيار عن المخلوقين وأثبتته للخالق وحده دون سواه.

ولقد اختلف المفسرون في بيان معنى (ما) الموجودة في قوله تعالى:

على قولين:

١ - أن ﴿مَا﴾ بمعنى «الذي»، تقديره: ويختار الذي لهم فيه خيرة، وهو اختيار ابن جرير الطبري (٢).

٢ - وقيل إنها للنفي: أي ليس إليهم حق الاختيار، وليس لهم أن يختاروا على الله ﷻ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]. فيكون قوله تعالى: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ هي نهاية الخبر عن خلق الله واختياره، ثم يكون الكلام بعد ذلك مستأنفاً بمعنى: لم تكن لهم الخيرة إنما الخيرة لله وحده (وهو الصحيح)؛ لأن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والاختيار، وأنه لا مشارك له في ذلك لذا حُتمت الآية بقوله تعالى:

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن قيم الجوزية ص ٧٥، وانظر: الصحاح للجوهري (١/٥٣٦).

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/١٢٢).

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين (١).

قال الزجاج: «أجود الوقوف على «ويختار»، وتكون «ما» نفيًا. المعنى: ربك يخلق ما يشاء، وربك يختار ليس لهم الخيرة، وما كانت لهم الخيرة: أي ليس لهم أن يختاروا على الله، ويجوز أن تكون ما في معنى الذي فيكون المعنى: ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة. ويكون معنى الاختيار ههنا ما يتبعدهم به؛ أي: ويختار ما يدعوهم إليه من عبادته ما لهم فيه الخيرة، والقول الأول أجود - [أي] أن تكون «ما» نفيًا» (٢).

وقيل في سبب نزولها وجهان:

أ - أنه عني بذلك قومًا من المشركين جعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا الله بزعمهم وهذا لشركائنا فنزل ذلك فيهم.

ب - أنها نزلت جواباً للوليد بن المغيرة حين قال ما حكاه الله ﷻ عنه في سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) [الزخرف: ٣١]. يعني نفسه وعروة بن مسعود الثقفي ﷻ، فقال الله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ خَيْرَةٌ﴾؛ أي: أن يتخيروا على الله الأنبياء، وأنه لا يبعث الرسل باختيارهم (٣). وإنما يثبت حق الاختيار لله ﷻ وحده لأنه هو وحده الخالق، ولأنه وحده ﷻ صاحب الملْك والعلم والقدرة؛ فالملْك وحده هو المتصرف، والعليم وحده هو الذي يمكنه اختيار الأصلح. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ (٣٢) [النساء: ١٢٦]. كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٣) [لقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْأَمْثَالِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ] (٣٤) [الحجر: ٨٦ - ٨٧].

(١) انظر: معاني القرآن الكريم للزجاج (١٥١/٤)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٢٩٤)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٥١/٦)، بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٣/٣٥٦)، فتح القدير للشوكاني (٤/٢٢٦).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١٥١/٤).

(٣) أسباب النزول للواحد ص ٣٤٩.



فالله ﷻ له تصريف ما في السموات والأرض وما بينهما، ينفذ حكمه فيهم، ويمضي قضاؤه، يخلق ما يشاء ويوجده، ويخرجه من حال العدم إلى الوجود، لا يستعصي عليه شيء، فكل شيء بمشيئته النافذة التي يحكم بها في عبادته وخلقه بما يشاء.

فالجميع ملكه وعبيده وخلقه، وهو المتصرف في جميع ذلك، خلقاً وملكاً وتدبيراً، يختار من يشاء وما يشاء، لا راد لما قضى ولا معقب لما حكم، ولا يُسأل عما يفعل لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته، فعلمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية من عبادته، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا تخفى عليه ذرة فيما تراه للنظر وما توارى<sup>(١)</sup>.

والعالم كله واقع مشهود تظهر فيه آثار اختيار الله ﷻ لمخلوقاته على اختلاف أنواعها من البشر والأديان والكتب والأزمان والبقاع وغيرها؛ فالمتأمل في الكون من حوله يجد آثار اختيار الله ﷻ واضحة بينة لا يختلف عليها اثنان ولا يُنكرها عاقل، فمن ذلك اختيار الله ﷻ لأنبيائه ورسله من بين جميع الناس من لدن آدم ﷺ وحتى قيام الساعة، ومن ذلك اختيار الله ﷻ لبلاد الشام وأرض الحجاز دون غيرها لتكون أرض النبوات ومستقر الرسالات، وكذلك اختيار المساجد الثلاثة: المسجد الأقصى، والمسجد الحرام، والمسجد النبوي. واختيار الأشهر الحرم ورمضان، إلى غير ذلك من المختارات التي حُصت بمزيد التفضيل والتعظيم، فكان لها الحب في القلوب والدفاع باللسان واللسان، فلقد أشرب الله ﷻ القلوب حبها وتعظيمها، فيا ترى من علم القلوب حب كعبته وأشربها الشوق إليها، والالتفاف حولها؟ فما هذا إلا آثار اختياره ﷻ لما شاء.

فهو يخلق ما يشاء من خلقه من البشر وغيرهم، ويختار من بين مخلوقاته ما يشاء مما يصلح له جنس ما منه الاختيار. قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله تعالى: «إن الله اصطفى صفائاً من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً،

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٤/٢٢٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/

٦٨)، (٤٢٤/٢)، تفسير البيضاوي (١/٣٩٦).

ومن الناس رسلاً، واصطفي من الكلام ذكره، واصطفي من الأرض المساجد، واصطفي من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفي من الأيام يوم الجمعة، واصطفي من الليالي ليلة القدر، فعظموا ما عظم الله، فإنما تُعظم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل»<sup>(١)</sup>.

فهو وحده لا غيره يخلق ما يشاء، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه، وهو سبحانه دون غيره ينتقي ويصطفي ما يشاء انتقاءه واصطفاه، فيصطفي مما يخلقه شفاء ويختارهم للشفاعة، ويميز بعض مخلوقاته ﷺ على بعض ويفضله عليه بما شاء، وما كان لهؤلاء المشركين أن ينتقوا ويصطفوا ما شاءوا ويميزوا بعض مخلوقاته تعالى على بعض ويجعلوه مقدماً عنده على غيره لأن ذلك يستدعي القدرة. فليس لهم إلا اتباع اصطفاه الله تعالى.

فالخلق والاختيار، والإعزاز والإذلال مفوض إليه، ليس لأحد فيه شركة ولا منازعة، قال الألوسي<sup>(٢)</sup>: «وإن شئت فنزل الفعل منزلة اللازم، وقل: المعنى وربك لا غيره يخلق ما يشاء خلقه، وهو سبحانه لا غيره يفعل الاختيار والاصطفاء فيصطفي بعض مخلوقاته لكذا، وبعضاً آخر لكذا، ويميز بعضاً منها على بعض ويجعله مقدماً عنده تعالى عليه، فإنه سبحانه قادر حكيم لا يسأل عما يفعل وهو جلٌّ وعلا أعظم من أن يُعترض عليه وأجلُّ»<sup>(٣)</sup>. فلله وحده يثبت عموم خلقه لسائر المخلوقات؛ ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانفراده باختيار من يختاره ويختصه، من الأشخاص، والأوامر والأزمان، والأماكن، وأن أحداً ليس له من الأمر والاختيار شيء، فالاختيار من الخلق ثابت له وحده ﷻ على اختلاف ما يختار وهو سبحانه لا يختار إلا الطيب المحبوب له.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٤٨/٤).

(٢) هو محمد بن عبد الله الحسيني الألوسي، مفسر من المجددين، سلفي الاعتقاد، مجتهد تقلد الإفتاء ببلده. من كتبه: «روح المعاني» في التفسير تسع مجلدات كبيرة، و«دقائق التفسير» و«نسبة الأسرة الألوسية إلى جزيرة (ألوس) في وسط نهر الفرات»، توفي سنة ١٨٥٤م. انظر: الأعلام للزركلي (١٧٦/٧).

(٣) روح المعاني للألوسي (١٠٥/٢٠).

عن كعب<sup>(١)</sup> يرحمه الله تعالى قال: «اختار الله الزمان وأحب الزمان إلى الله الأشهر الحرم، وأحب الأشهر الحرم إلى الله ذو الحجة، وأحب ذي الحجة إلى الله العشر الأول»<sup>(٢)</sup>. وهذه الحقيقة كثيراً ما ينساها الناس، أو ينسون بعض جوانبها؛ إن الله يخلق ما يشاء، لا يملك أحد أن يقترح عليه شيئاً ولا أن يزيد أو ينقص في خلقه شيئاً، ولا أن يعدل أو يُبدل في خلقه شيئاً. وإنه هو الذي يختار من خلقه ما يشاء ومن يشاء لما يُريد من الوظائف والأعمال والتكاليف والمقامات، وهذا عام في جميع خلقه واختياره ولا وجه للتخصيص، فالأولى حمل قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ على العموم.

قال القنوجي في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾: «أي التخير، وهي كالطيرة فإنها التطير؛ اسمان يستعملان استعمال المصدر وبمعنى المتخير كقولهم: محمد خيرة الله من خلقه. وقيل: المراد من الآية أنه ليس لأحد من خلق الله أن يختار شيئاً اختياراً حقيقياً بحيث يقدم على تنفيذه بدون اختيار الله، بل الاختيار هو إلى الله ﷻ، يختار لطاعته أو لنبوته، أو المعنى يخلق محمداً ويختار الأنصار لدينه، وقيل: اختار من النعم ضامناً ومن الطير حماماً، ولا وجه للتخصيص والعموم أولى»<sup>(٣)</sup>.

فالله هو صاحب الحق المطلق في الاختيار المستحق للحمد والعبادة، وفي الآية إثبات حرية الخلق والاختيار لله ﷻ دون موجب عليه ولا مانع له؛ إذ لا قاهر يقهره على فعل ولا مانع يمنعه عن فعل؛ فهو مختار بحقيقة معنى الاختيار. فله تعالى أن يختار في مرحلة التشريع من الأحكام والقوانين ما يشاء، كما أن له أن يختار من الخلق ما يشاء، فلا تقصر قدرته عن خلق شيء

(١) هو كعب بن ماته الحميري اليماني العلامة الحبر. أسلم بعد وفاة النبي ﷺ. جالس أصحاب الرسول ﷺ، وأخذ السنن عنهم، وحسن إسلامه. له خبرة بكتب اليهود وذوق في معرفة صحيحها من باطلها. كان يغزو مع الصحابة. توفي في طريقه للغزو في خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٤٨٩).

(٢) انظر: لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي ص ٣٠٩.

(٣) فتح البيان للقنوجي (١٠/١٤٢).

ولا يمنعه شيء عما يشاؤه، ومشيتته سبحانه لا تفارق حكمته. وبعبارة أخرى: لا يمتنع عن مشيتته شيء لا بنفسه ولا بمانع يمنع. وهذا هو الاختيار، والبشر لا اختيار لهم إذا اختار الله سبحانه لهم شيئاً، وليس لهم إلا أن يرضوا باختياره ﷺ لعلمه وقدرته ﷻ ولجهلهم وعجزهم.

ولقد بين ابن القيم رحمه الله هذا الاصطفاء والاختيار أوضح بيان، حين قال رحمه الله: «وإذا تأملت أحوال هذا الخلق رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته، وكمال حكمته وعلمه وقدرته، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلق كخلقه، ويختار كاختياره، ويدبر كتدبيره، فهذا الاختيار والتدبير والتخصيص المشهود أثره في هذا العالم من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله، وصدق رسله، نشير منه إلى يسير يكون منبهاً على ما وراءه دالاً على ما سواه. فمن هذا اختياره من الملائكة المُصْطَفَيْنِ على سائرهم كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل.

وكذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم عليه وعليهم الصلاة والسلام، واختياره الرسل، واختياره أولي العزم منهم، وهم خمسة، واختار منهم الخليلين: إبراهيم ومحمداً صلى الله عليهما وآلهما وسلم.

ومن هذا اختياره سبحانه ولد إسماعيل من أجناس بني آدم، ثم اختار منهم بني كنانة من خزيمة، ثم اختار من ولد كنانة قريشاً، ثم اختار من قريش بني هاشم، ثم اختار من بني هاشم سيّد ولد آدم محمداً ﷺ.

وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين، واختار منهم السابقين الأولين، واختار منهم أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، واختار لهم من الدين أكمله ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها.

واختار أمته ﷺ على سائر الأمم، وظهر أثر هذا الاختيار في أعمالهم وأخلاقهم وتوحيدهم، ومنازلهم في الجنة، ومقاماتهم في الموقف، فإنهم أعلى من الناس، على تل فوقهم يشرفون عليهم.

ومن تفضيل الله ﷻ لأمته واختياره لها أن وهبها من العلم والحلم ما لم يهبه لآمة سواها.

ومن هذا اختياره ﷺ من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها وهي البلد الحرام، فإنه ﷺ اختاره لنبية ﷺ وجعله مناسك لعباده، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق.

ومن هذا تفضيل بعض الأيام والشهور على بعض. فخير الأيام عند الله يوم النحر، ومن ذلك تفضيل شهر رمضان على سائر الشهور، وتفضيل عشره الأخير على سائر الليالي، وتفضيل ليلة القدر على ألف شهر.

والمقصود أن الله ﷻ اختار من كل جنس من أجناس المخلوقات أطيبه واختصه لنفسه وارتضاه دون غيره، فإنه تعالى طيب لا يحب إلا الطيب، ولا يقبل من العمل والكلام والصدقة إلا الطيب، فالطيب من كل شيء هو مختاره تعالى<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: عجز المخلوقين عن الخلق والاختيار:

قصدنا بالمخلوقين الإنسان دون غيره من المخلوقات لأنه صاحب العقل والتمييز، ولأنه المكرم بذلك دون غيره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

والقصد من العجز عن الاختيار: ما كان فوق حدود قدرته، كاختياره على اختيار الله ﷻ؛ لأن الله ﷻ إنما جعل له القدرة على الاختيار في الحدود التي أعطاها له الشارع، وفيما سيحاسب عليه، فقد وهبه الله ﷻ من الوسائل ما يعينه على ذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨ - ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

كما أرسل إليه رسله، وأنزل عليه كتبه فصار بذلك مُختاراً يمكنه اختيار طريقه إما إلى الخير أو الشر، ولكننا هنا في هذا المبحث نقصد عجز الإنسان عن الاختيار الخارج عن حدود قدرته؛ كالاختيار على اختيار الله ﷻ

(١) انظر: زاد المعاد لابن قيم الجوزية (١/٤٢ - ٦٥) باختصار.

والاعتراض على ذلك بإبداء الرأي والتدخل في خصوصياته ﷺ، فليس لأحد - كائناً من كان - أن يكون له حق الاختيار وحق إبداء الرأي في مختارات الله ﷻ، لأن الله هو المتَّصف بصفات الكمال المطلق، والإنسان متَّصف بالنقص والضعف والجهل أمام الله ﷻ، فهو عاجز عن جلب النفع لنفسه، ودفع الضرر عنها.

وقد كشف الله ﷻ للإنسان عن هذا القصور في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ سَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] وهذا عام في الأمور كلها، فقد يحب المرء شيئاً، وليس له فيه خيرة ولا مصلحة، والله ﷻ وحده هو الأعلم بعواقب الأمور؛ وأخبر بما فيه صلاح الدنيا والآخرة، ومن فصاحة القرآن الكريم العموم في بعض ألفاظه، فيطرد هذا النظر في كل ما يكرهه المرء<sup>(١)</sup>.

والآية تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه من حُسن العاقبة. كما أنها تقتضي أن لا يقترح على ربه ويختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلا يختار على ربه شيئاً بل يسأله حُسن الاختيار له وأن يرضيه بما يختار، فلا أنفع له من ذلك، وليعلم أنه إذا فوّض أمره إلى ربه ورضي بما يختاره له أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات، التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه. والرضا باختيار الله ﷻ يريح العبد من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، فلو رضي باختيار الله، أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه. لأنه مع اختياره لنفسه، ومتى صحَّ تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره<sup>(٢)</sup>.

ولما كان الإنسان قاصراً العلم، محدود القدرة، لزم ذلك أن يكون عاجزاً عن اختيار الأصلح لنفسه، لذلك علّم معلم البشرية ﷺ أمته الاستخارة

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٢/٢٨)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/٥٧٣).

(٢) انظر: الفوائد لابن قيم الجوزية ص ٢٤٧.

في الأمور كلها، صغيرها وكبيرها، وعلمه في الاستخارة أن يُقر بعدم علمه وقدرته أمام علم الله ﷻ وقدرته، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَالسُّورَةِ مِنَ الْقُرْآنِ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي. وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْ عَنِّي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ. وَيُسَمَّى حَاجَتَهُ» (١).

فمن محض عبودية العبد لسيِّده وخالقه، وإيمانه بأنه على كل شيء قدير، وأنه العليم بالخير، القادر على جلبه، أن يطلب منه، فإنه إن لم يقدره له فهو عاجز، وإن لم ييسره له فهو صعب عليه، وإن لم يسِّفه إليه فهو متعذر عليه، وعليه فإن كان مؤمناً حقاً أن يرضى بكل ما يقضيه الله ﷻ، فذلك هو محض الإيمان ومحكه الحقيقي قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] فليس لأي مؤمن أو مؤمنة إذا حكم الله ورسوله أمراً أن يختاروا آخر، وإنما عليهم الامتثال لأمر الله ورسوله.

وفي سبب نزول الآية ما روي عن قتادة رحمه الله تعالى: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٣٨٢.

خَطَبَ زَيْنَبَ وَهُوَ يُرِيدُهَا لِزَيْدٍ فَظَنَّتْ أَنَّهُ يُرِيدُهَا لِنَفْسِهِ، فَلَمَّا عَلِمَتْ أَنَّهُ يُرِيدُهَا لِزَيْدٍ أَبَتْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ...﴾ الآية، فَرَضِيَتْ وَسَلَّمَتْ<sup>(١)</sup>.

## فضل الْمُصْطَفَيْنِ الْمُخْتَارِينَ:

لا بد من بيان أن ما اختاره الله ﷺ من الخلق لا يتساوى مع بقية أقرانه البتة، ويكفي في بيان فضله وتميزه أن الله ﷻ اصطفاه واختصه دون غيره مما أوجب له الأفضلية والتميز شرعاً وعقلاً، قال ابن القيم: «فكل ما اختاره الله ﷻ له من المزية والاختصاص على غيره ما أوجب له الاصطفاء والاجتباء، ولم يُوفَق لفهم هذا المعنى من سَوَى بين الأعيان والأفعال والأزمان والأماكن، وزعم أنه لا مزية لشيء منها على شيء، وإنما هو مجرد الترجيح بلا مرجح، وهو قول باطل لأن مذهباً يقتضي أن تكون ذوات الرسل كذوات أعدائهم في الحقيقة، وإنما التفضيل بأمر لا يرجع إلى اختصاص الذوات بصفات ومزايا لا تكون لغيرها. وكذلك نفس البقاع واحدة بالذات ليس لبقعة على بقعة مزية البتة، وإنما هو لما يقع فيها من الأعمال الصالحة، فلا مزية لبقعة البيت، والمسجد الحرام وغيرها مما اختاره الله ﷻ على أي بقعة سميتها من الأرض، وإنما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة لا يعود إليها، ولا إلى وصف قائم بها، والله سبحانه قد ردَّ هذا القول الباطل بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي: ليس كل أحد أهلاً ولا صالحاً لتحمل رسالته، بل لها محالٌ مخصوصة لا تليق إلا بها، ولا تصلح إلا لها، والله أعلم بهذه المحال منكم، ولو كانت الذوات متساوية كما قال هؤلاء، لم يكن في ذلك رد عليهم، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٤٢٣)، التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٢١/

٢٨)، لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ٢٣٧.



أَهْتُولَاءَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]؛ أي: هو سبحانه أعلم بمن يشكره على نعمته، فيخصه بفضل، ويمن عليه ممن لا يشكره، فليس كل محل يصلح لشكره، واحتمال مننه، والتخصيص بكرامته. فذوات ما اختاره واصطفاه من الأعيان والأماكن والأشخاص وغيرها مشتملة على صفات وأمور قائمة بها ليست لغيرها، ولأجلها اصطفاه الله، وهو سبحانه الذي فضلها بتلك الصفات، وخصها بالاختيار، فهذا خلقه وهذا اختياره: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

وما أظهر بطلان رأي يقضي بأن مكان البيت الحرام، مساوٍ لسائر الأمكنة! وذات الحجر الأسود مساوية لسائر حجارة الأرض! وذات رسول الله ﷺ مساوية لذات غيره، وإنما التفضيل في ذلك بأمر خارجة عن الذات والصفات القائمة بها، وهذه الأقاويل وأمثالها من الجنيات التي جناها المتكلمون على الشريعة، ونسبوا إليها وهي بريئة منها، وليس معهم أكثر من إشراك الذوات في أمر عام، وذلك لا يوجب تساويها في الحقيقة؛ لأن المختلفات قد تشترك في أمر عام مع اختلافها في صفاتها النفسية، وما سوى الله تعالى بين ذات المسك وذات البول، ولا بين الماء والنار، والتفاوت البين بين الأمكنة الشريفة وأضدادها، والذوات الفاضلة وأضدادها أعظم من هذا التفاوت بكثير، فبين ذات موسى ﷺ وذات فرعون من التفاوت أعظم مما بين المسك والرجيع، وكذلك التفاوت بين نفس الكعبة وبين بيت السلطان أعظم من هذا التفاوت أيضاً بكثير، فكيف تُجعل البقعتان سواء في الحقيقة والتفضيل باعتبار ما يقع هناك من العبادات والأذكار والدعوات؟<sup>(١)</sup>



(١) انظر: زاد المعاد لابن قيم الجوزية (١/٥٢ - ٥٤) باختصار.



# الباب الأول

## تحرير معاني الاصطفاء في اللغة والاصطلاح ومرادفاته واصطفاء غير البشر

ويشتمل على فصلين:  
الفصل الأول: تعريف الاصطفاء في اللغة والاصطلاح ومرادفاته.  
الفصل الثاني: اصطفاء غير البشر في القرآن الكريم.



# الفصل الأول

## تعريف الاصطفاء

### في اللغة والاصطلاح ومرادفاته

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: معنى الاصطفاء في اللغة.

المبحث الثاني: إطلاقات مادة الاصطفاء في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: الكلمات المرادفة للاصطفاء.

المبحث الرابع: تحرير معنى الاصطفاء.



## معنى الاصطفاء في اللغة

الاصطفاء في اللغة: من صفا يصفو اصطفاءً. قال ابن فارس: الصاد والفاء والحرف المعتل أصل واحد يدل على الخلوص من كل شوب<sup>(١)</sup>.

والصَّفْوُ: نقيض الكدر، وصفوة كل شيء خالسه وخيره<sup>(٢)</sup>. ومنه من قرأ كلمة «صواف» في الآية بالياء مفتوحة غير منونة «صوافي»، من صفا يصفو أي: خالسه<sup>(٣)</sup>، قال عَلِيٌّ: ﴿وَالْبَدَنُ جَعَلْنَهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٌ فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

الصَّفَا: اسم للبراءة من الكدر، يقال: صفا الجو: إذا لم تكن فيه لطفة غيم، وصفا الماء: إذا راق، وصفا اليوم: إذا خلص من الكدر، ويوم صافٍ وصَفْوَانٌ: إذا كان صافي الشمس لا غيم فيه ولا كدر، وسمي صفوان لصفاء الهواء فيه من الغيم<sup>(٤)</sup>.

والصفا اسم لموضع مخصّص، وهو اسم أحد جبلي المسعى. وأصل الصفا: الحجر الأملس الصلب، الذي لا ينبت، وهو الصفوان والواحدة صفوانة؛ لأنها تصفو من الطين والرمل، قال ابن عطية: ويشترط فيه البياض والصلابة<sup>(٥)</sup>.

ومنه المِصْفَاة: أي الرّاوق، وهي: اسم آلة لكل ما يصفى به الشراب

(١) معجم المقاييس في اللغة لابن فارس ص ٥٦٩، مادة (صَفْو).

(٢) العين للفراهيدي (١٦٢/٧).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٣٧٠/٧)، إعراب القراءات الشواذ للعكبري (١٢٥/٢).

(٤) معجم المقاييس في اللغة لابن فارس ص ٥٦٩، لسان العرب لابن منظور (٣٧٠/٧)،

القاموس المحيط للفيروزآبادي ص ١٦٨٠.

(٥) المحرر الوجيز لابن عطية (٢٨٨/١ - ٣٥٧).

وغيره، يقال: صفاه صَفِيَةً أزال عنه القذى<sup>(١)</sup>. ويقال: الصَّفِيّ والصَّفِيَّةُ وتطلق على النخلة الكثيرة الحمل، والناقة الكثيرة اللبن، والغزيرة الدر؛ سميت بذلك لأن صاحبها يصطفئها<sup>(٢)</sup>، قال ﷺ: (نَعَمَ الْمَنِيعَةُ اللَّفْحَةُ الصَّفِيُّ مِنْحَةً، وَالشَّاءُ الصَّفِيُّ، تَغْدُو بِإِنَاءٍ وَتَرْوُحُ بِإِنَاءٍ)<sup>(٣)</sup>.

الصَّفِيّ والصَّفِيَّةُ والجمع صَفَايَا، وإنما سُمِّيت كذلك؛ لأن صاحبها يصطفئها، والصَّفِيّ: هو الخالص من كل شيء، وهو الحبيب المصافي، وفي الحديث: قال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ إِذَا ذَهَبَ بِصَفِيهِ فَصَبَّرَ وَأَحْتَسَبَ بِثَوَابِ دُونَ الْجَنَّةِ)<sup>(٤)</sup>.

صَفِيّ الإنسان: أخوه الذي يصفاه الإخاء والود ويخلصه، وهو الصديق المختار.

صَفِيّ الغنم: شيء نفيس كسيف أو أمة، كان النبي ﷺ يختاره من الغنيمة، فيخلص له دون أصحابه ﷺ. والصفِيّ فسرّه محمد بن سيرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما أخرجه أبو داود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسناد صحيح عنه قال: كان يُضْرَبُ للنبي ﷺ بسهم مع المسلمين، والصفِيّ يؤخذ له رأس من الخُمْس قبل كل شيء، ومن طريق عامر الشعبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان للنبي ﷺ سهم يدعى الصفِيّ إن شاء عبداً، وإن

(١) انظر: مجمل اللغة لابن فارس (٥٣٥/٢)، الصحاح للجوهري (٣٨٢/٦)، لسان العرب لابن منظور (٣٧٠/٧)، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص ١٦٨٠، المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين ص ٥١٧.

(٢) انظر: العين للفراهيدي (١٦٣/٧)، معجم المقاييس في اللغة لابن فارس ص ٥٦٩، الصحاح للجوهري (٣٨٢/٦)، لسان العرب لابن منظور (٣٧٠/٧)، عمدة الحفاظ للسمين الحلبي (٣٤٥/٢)، المصباح المنير للمقري ص ١٧٩، مجمع بحار الأنوار للكجراتي (٣٣٧/٣).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٢٦٢٩.

(٤) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي ص ١٦٨٠، لسان العرب لابن منظور (٧/٣٧٠)، والحديث رواه النسائي (٣٢٣/٤) حديث رقم ١٨٧٠، وبمثله روى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: (يقول الله تعالى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ اخْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةَ) صحيح البخاري ص ١٣٥٨، حديث رقم ٦٤٢٤.



شاء أمةً، وإن شاء فرساً يختاره من الخمس، وعن طريق قتادة رضي الله عنه كان النبي ﷺ إذا غزا كان له سهم صاف يأخذه من حيث شاء، وكانت صفية رضي الله عنها من ذلك السهم، وقيل إن صفية رضي الله عنها كان اسمها قبل أن تسبى زينب، فلما صارت من الصفي سُميت صفية، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: فاصطفاها رسول الله لنفسه، يعني «صفية بنت حيي» كانت من غنيمة خيبر<sup>(١)</sup>، ولا يصح الصفي لغيره ﷺ ولم يأخذه الخلفاء الراشدون<sup>(٢)</sup>.

الصَّفَاء: مصدر الشيء الصافي وهو ضد الكدر. والكدر: امتزاج الطيب بالخبيث<sup>(٣)</sup>.

والصَّفْوَةُ والصَّفْوَةُ والصَّفْوَةُ: من كل شيء خيَّره وخالِصُه وما صفا منه، والأنبياء المصطفون، والصَّفْوَةُ هم المتصفون بالصفاء عن كدر الغيرية، والعلاقة بين الصفاء والاصطفاء أن من صفا وظهَّرَ وخلِّصَ لربه فقد تقبله واختاره واصطفاه، وأن المؤمن متى بلغ ذروة الإيمان؛ اجتباه الله ﷻ واصطفاه وجذبَه إليه<sup>(٤)</sup>.

اصطفى: افتعل من الصفوة معناه تخيَّر الأصفى، واصطفى الشيء لنفسه: خلَّصه من شوب شركة غيره له فيه<sup>(٥)</sup>، واستصفى الشيء: استخلصه وأخذ منه صفوه واختاره واتخذه صفيًا.

الاصطفاء: تناول صفو الشيء، كما أن الاختيار تناول خيره، والاجتباء

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦٠٩/٧) والحديث في صحيح البخاري ص ٤٣٨ حديث رقم ٢٢٣٥.

(٢) انظر: عون المعبود في شرح سنن أبي داود لأبي الطيب (١٨٠/٨).

(٣) انظر: العين للفراهيدي (١٦٣/٧)، المحيط في اللغة لابن عباد (١٩٨/٨)، معجم المقاييس في اللغة لابن فارس ص ٥٦٩، الصحاح للجوهري (٣٨٢/٦)، مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص ٤٨٧.

(٤) انظر: معجم المقاييس في اللغة لابن فارس ص ٥٦٩، الصحاح للجوهري (٣٨٢/٦)، لسان العرب لابن منظور (٣٧٠/٧)، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص ١٦٨٠، التعريفات للجرجاني ص ١٣٤، موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي (١٤٢/٦)، تهذيب مدارج السالكين لابن القيم ص ٤٧٧.

(٥) المحرر الوجيز لابن عطية (٢١٢/١)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣١/١)، تهذيب مدارج السالكين لابن القيم، (١٤٨/٣).

تناول جابته، واصطفاء الله لبعض عباده يكون بإيجاده تعالى إياه صافياً من الشوب الموجود في غيره<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا العرض يمكن تلخيص المعاني اللغوية التي تأتي عليها كلمة «صَفَوُ» ومشتقاتها في الآتي:

- ١ - الشيء الصافي النقي الذي لا يخالطه كَدْرٌ.
- ٢ - الشيء النفيس الذي يصطفيه الرسول ﷺ لنفسه، ولا يستقيم أن يشاركه فيه غيره<sup>(٢)</sup>.

٣ - الحجر الصلب الضخم الذي لا ينبت وهو الصافي من الرمل والطين.

٤ - اسم آلة لكل ما يُصَفَّى به الشراب وغيره.

٥ - اليوم الصافي الذي لا غيم فيه ولا كَدْرٌ.

٦ - النخلة كثيرة الحمل.

٧ - الناقة كثيرة الدر.

٨ - الحبيب المصافي الذي يصدقك الحب والود.

٩ - القوة والصلابة.

١٠ - الوضوح والجلاء.

١١ - الصفاء والنقاء.

إن المتأمل في المعاني اللغوية السابقة يجد أنها دارت جميعها حول معان طيبة خيرة، وانصرفت كلها إلى معان جميلة، غنية بالخير والنفعة، ولم ينصرف معنى واحد إلى غير ذلك، فهو تخييراً الأصفى وتميزه كما أنه الاستخلاص، والتفضيل، والإيجاد للشيء صافياً من كل شوب.



(١) انظر: الصحاح للجوهري (٣٨٢/٦)، مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٨٧، لسان العرب لابن منظور (٣٧٠/٧)، عمدة الحفاظ للسمين الحلبي (٣٤٥/٢)، بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (١٧٧/٢)، الكلبيات لأبي البقاء الكفوي ص ١٣٠.

(٢) بعض كتب اللغة ذكرت لفظ الإمام ولم تحدد الرسول ﷺ، انظر: مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص ٤٨٨، لسان العرب لابن منظور (٣٧٠/٧)، معجم المقاييس ص ٥٦٩، والصواب أنه خاص بالرسول ﷺ فقط. والله تعالى أعلم.



## المبحث الثاني

### إطلاقات مادة الاصطفاء في القرآن الكريم

وردت مادة (صَفَوَ) بتصاريدها المتعددة سبع عشرة مرة في القرآن الكريم، وسيكون الحديث عنها بصورة مختصرة في هذا المبحث، وذلك لورودها بشكل مفصل في المباحث القادمة إن شاء الله، وفيما يلي بيان معانيها وما انصرفت إليه على ضوء أقوال المفسرين:

#### ١ - اصطفاء الدين:

قال تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَنْبِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

أي: إن الله اختار واجتنبى لكم هذا الدين الكامل، الذي هو صفوة الأديان؛ وهو دين الحنيفية المسمى دين الإسلام، ثم خصكم وفضلكم به؛ لأن قوله تعالى: ﴿اصْطَفَى لَكُمُ﴾ دلّت على أنه ادّخره لأجلكم، ووفقكم للأخذ به، وأغناكم عن تطلبه وإجالة الفكر فيه، فلقد اختاره لكم رحمة بكم وإحساناً إليكم<sup>(١)</sup>.

#### ٢ - اصطفاء الرسل:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

ذكر المفسرون في هذه الآية الكريمة أن الله ﷻ يختار من الملائكة

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١/٧٨٠)، التفسير الكبير للرازي (٢/٤٣٥)، نظم الدرر للبقاعي (١/٢٤١)، روح البيان للبروسوي (١/٢٣٨)، روح المعاني للألوسي (١/٣٨٩)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١/٧٢٩)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/١٤٢).

رُسلًا إلى الأنبياء كجبريل وميكايل ﷺ، كما يختارُ من الناس رسلًا يبعثهم لإصلاح خلقه وإبلاغ رسالاته<sup>(١)</sup>. وقال السعدي<sup>(٢)</sup> رحمته: «إن الله يختار ويجتبي من الملائكة ومن الناس رسلًا يكونون أذكى ذلك النوع، وأجمعه لصفات المجد، وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق»<sup>(٣)</sup>.

### ٣ - اصطفاء جملة من الأنبياء ﷺ :

ولقد ورد ذكرهم في سورة «ص» قال تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص: ٤١]. وقال تعالى: ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: ٤٨]، وهم داود، سليمان، أيوب، إبراهيم، إسحاق، يعقوب، إسماعيل، اليسع، وذو الكفل ﷺ. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٦ - ٤٧]. ولقد أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يذكرهم بأحسن الذكر، ويشني عليهم أحسن الثناء، فإن كلاً منهم من الأخيار الذين اختارهم الله ﷻ من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال من الأعمال والأخلاق والصفات الحميدة، ثم اصطفاهم لنبوته ورسالته، وخصهم بذكر الدار الآخرة فكانت في قلوبهم يذكرونها صفوة أوقاتهم، ويذكرون بها غيرهم<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٦٠/١٠)، المحرر الوجيز لابن عطية (١٣٤/٤)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٥٤/٥)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٣٢٨/٥).

(٢) هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي: مفسرٌ من علماء الحنابلة، من أهل نجد، مولده ووفاته في عنيزة بالقصيم وهو أوّل من أنشأ مكتبةً فيها (سنة ١٣٥٨هـ)، له نحو ثلاثين كتاباً منها: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، والقواعد الحسان في تفسير القرآن، والخطب المنبرية، والوسائل المفيدة للحياة السعيدة وغيرها، توفي سنة ١٣٧٦هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٣/٣٤٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٣٢٨/٥).

(٤) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٤/١١)، معاني القرآن للزجاج (٤/٣٣٦).

#### ٤ - اصطفاء إبراهيم عليه السلام :

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣١]، نَصَّ اللهُ ﷻ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ قَدْ اخْتَارَ خَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، واجتباها من سائر الخلق، وذكره بمظهر العظمة في قوله: ﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾ تعظيماً له فإن العبد يشرف بشرف سيده، وتشريفاً لاصطفائه فإن الصنعة تجل بجلالة مبدعها. وللمفسرين عدة أقوال في الأمور التي اصطفى الله ﷻ بها إبراهيم عليه السلام وهي كالآتي:

١ - اختياره للرسالة والنبوة والإسلام.

٢ - تصيره إماماً لمن بعده.

٣ - تكثير الأنبياء من نسله فجعله أبا الأنبياء.

٤ - اتخاذه خليلاً.

٥ - إظهار المناسك له وتعريفه الملة التي هي جامعة للتوحيد والعدل والشرائع.

٦ - بناء البيت واتخاذ مقامه مصلى وأذانه بالحج<sup>(١)</sup>.

#### ٥ - اصطفاء آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران عليه السلام<sup>(٢)</sup>:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣]، قال الطبري رحمه الله: «إِنَّ اللَّهَ اجْتَبَىٰ آدَمَ وَنُوحًا واختارهما لدينهما، وآل إبراهيم، وآل عمران، لدينهم الذي كانوا عليه؛ لأنهم

= نظم الدرر للبقاعي (٣٩١/٦)، روح المعاني للألوسي (٢٣/٢١١)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣/٢٧٩)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٦/٤٢٩).

(١) انظر: جامع البيان للطبري (١/٧٧٨)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/٤٨٠)، البحر المحيط لأبي حيان (١/٥٦٦)، نظم الدرر للبقاعي (١/٢٤٥)، محاسن التأويل للقاسمي (٢/٢٦١)، التفسير المنير لوهبة الزحيلي (١/٣١٧).

(٢) ذكر بعض المفسرين تفصيلاً دقيقاً في مسألة اصطفاء هؤلاء الأنبياء عليهم السلام المذكورين يُرجع للاستزادة إلى: الكليات لأبي البقاء ص ١٣٠، البحر المحيط لأبي حيان (٢/٤٤٩)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٣٣).

كانوا أهل الإسلام، فأخبر الله ﷻ أنه اختار دين من ذكرنا على سائر الأديان التي خالفتها<sup>(١)</sup>، وقال السعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ من عباده أصفياء، يَصْطَفِيهِمْ ويختارهم ويمنُّ عليهم بالفضائل العالية، والنعوت السامية، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار وما احتوت عليه من كَمَلَةِ الرجال الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير تسلل في ذراريهم، وشمل ذكورهم ونساءهم، وهذا من أجلِّ مننه، وأفضل مواقع جوده وكرمه، وهو يعلم من يستحق الفضل والتفضيل، فيضع فضله حيث اقتضت حكمته»<sup>(٢)</sup>. وبالجمع بين أقوال المفسرين يكون الاصطفاء لهم كأشخاص بلغوا مراتب الكمال، ولدينهم، وهو الإسلام.

## ٦ - اصْطِفَاءُ مُوسَى ﷺ :

قال تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَاطَبَ مُوسَى ﷺ بِأَنَّهُ اصْطَفَاهُ عَلَىٰ عَالَمِي زَمَانِهِ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلِمَاتِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ»<sup>(٣)</sup>، وفي بيان معنى قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ النَّاسِ﴾ الأقوال الآتية:

- ١ - المقصود بها أن اصطفاه ﷺ كان على عالمي زمانه.
- ٢ - لفظ الاصطفاء عام، والمعنى أنه اصطفاني على الناس في مجموع الدرجتين؛ الرسالة والكلام.
- ٣ - لفظ عام يراد به الخصوص، فيمن شارك موسى ﷺ في الإرسال، فإن الأنبياء المرسلين كلهم مشاركون له في الرسالة<sup>(٤)</sup>.

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٣/٣١٧).  
(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٣٧٥).  
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٤٧٣).  
(٤) انظر: تنوير المقباس لابن عباس ص ١٧٩، المحرر الوجيز لابن عطية (١/٥٦٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٤٧٣)، مفاتيح الغيب للرازي (٧/٢٧٥)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/٢١٢١)، نظم الدرر للبقاعي (٣/١٠٩)، روح البيان للألوسي (٣/٢٣٨).

## ٧ - اصطفاء الطبقة العليا من الخلائق :

قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] بَيَّنَّتْ آيَةُ سَلَامِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمُصْطَفَيْنِ مِنْ عِبَادِهِ، وَالرَّسُلِ أَفْضَلَهُمْ، وَهِيَ الطَّبَقَةُ الْعُلْيَا مِنَ الْخَلَائِقِ، وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ تَخَيَّرَهُمْ وَاصْطَفَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَصَفْوَةَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالسَّلَامُ مِنْهُ ﷺ عَلَيْهِمْ لِرَفْعِ ذِكْرِهِمْ وَلِلتَّنْوِيهِ بِقَدْرِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ مِنَ الشَّرِّ وَالْأَذْنَانِ وَسَلَامَةٌ مَا قَالُوهُ فِي رَبِّهِمْ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْعِيُوبِ<sup>(١)</sup>، وَالْمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ ﷺ: ﴿عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ الْآتِي:

١ - اللفظ عام لجميع بني آدم وفي مقدمتهم الرسل والأنبياء - صلاة الله وسلامه عليهم - وأتباعهم وهم الطبقة العليا من الخلائق، ويشمل ذلك المؤمنين من عباد الله السابقين واللاحقين<sup>(٢)</sup>.

٢ - اللفظ خاص بأصحاب محمد ﷺ وأُمَّتِهِ الَّذِينَ اجْتَبَاهُمْ لِنَبِيِّهِ، فَجَعَلَهُمْ وَرَاءَ عَلَى الدِّينِ الَّذِي بَعَثَهُ بِالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ<sup>(٣)</sup>.

ولا تناقض بين الرأيين حيث أن أصحاب محمد ﷺ وأُمَّتَهُ هُم أَتْبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ.

## ٨ - اصطفاء أمة محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ لِلَّذِينَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وَهُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ ﷺ وَمَنْ بَعْدَهُمْ إِلَى

(١) انظر: بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٣/٣٤٣)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٩٨٩/٥).

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٢٦٦)، بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٣/٣٤٣)، البحر المحيط لأبي حيان (٧/٨٤)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٩/٢٠)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥/٥٨٩).

(٣) تنوير المقباس لابن عباس ص ٤٠٢، جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/٤)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٢٠١).

يوم القيامة؛ لأن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلا لأمة محمد ﷺ، حيث أن الله ﷻ اصطفاهم على سائر الأمم، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب؛ القرآن الكريم، وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله ﷺ.

## ٩ - اصطفاء مريم بنت عمران ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْفَاكِ عَلَيَّ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم ﷺ عن أمر الله لهم بذلك: أن الله قد اصطفاهَا؛ أي: اختارها لكثرة عبادتها، وزهادتها، وشرفها، وطهرها من الأكدار والوسواس، واصطفاهَا ثانياً مرةً بعد مرةً لجلالتهَا على نساء العالمين»<sup>(١)</sup>، وفي تحديد معنى اصطفائها على العالمين قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: «إن جعلنا ﴿الْعَالَمِينَ﴾ عاماً فيمن تقدم وتأخر، جعلنا الاصطفاء مخصوصاً في أمر عيسى ﷺ، وأنها اصطفتيت لتلد من غير فحل، وإن جعلنا (الاصطفاء) عاماً، جعلنا ﴿الْعَالَمِينَ﴾ مخصوصاً في عالم ذلك الزمان»<sup>(٢)</sup>.

عن أنس رَحِمَهُ اللهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى عَلَيَّ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ أَرْبَعاً: أُسَيَّةَ بِنْتِ مُزَاحِمٍ، وَمَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ)<sup>(٣)</sup>، وعن علي بن أبي طالب رَحِمَهُ اللهُ عن النبي ﷺ قال: (خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ)<sup>(٤)</sup>.

ولقد بيّن المفسرون المراد بالاصطفاء الأول والثاني الآتي:

### المراد بالاصطفاء الأول:

١ - أن الله ﷻ قد اختارها بالإسلام<sup>(٥)</sup>.

- (١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٩/٢).
- (٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٤٣٣/١).
- (٣) الدر المنثور للسيوطي (٤٣/٢). أخرجه ابن مردويه عن أنس رَحِمَهُ اللهُ. ومثله في صحيح البخاري ص ٧٨٠ حديث رقم ٣٨١٥.
- (٤) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٨١٥.
- (٥) تفسير بحر العلوم للسمرقندي (٢٣٧/١).



٢ - أن الله ﷻ اختارها واجتباها لطاعته وعبادته، وما خصّها به من كرامته<sup>(١)</sup>.

٣ - أنه ﷻ قد اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها، وطهرها من الأكدار والوسواس<sup>(٢)</sup>.

٤ - أنه ﷻ قد تقبلها من أمها، وكفاها أمر رزقها، وفرغها لعبادته، عندما قبل تحريرها مع كونها أنثى ولم يحصل هذا لغيرها.

والمراد من كونها مُحرّرة؛ أي: عتيقة خالصة لله مفرغة لعبادته ولخدمة المسجد، غير منشغلة بشيء من أمور الدنيا، ولا يد لأحد عليها، ولم يكن يقدّم إلى ذلك إلا الذكور<sup>(٣)</sup>. فتقبلها الله ﷻ بالقبول الحسن، وأنبتها النبات الحسن، وكفلها من رأى بعلمه أنه الأنسب لذلك، وهذا كله كان من التهيئة والإعداد الذي لقيته مريم ﷺ قبل الاصطفاء الثاني، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٦ - ٣٧]

المراد بالاصطفاء الثاني:

١ - أن الله ﷻ اصطفاه على نساء أهل دهرها<sup>(٤)</sup>.

٢ - أن الاصطفاء الثاني تأكيدٌ للاصطفاء الأول ورفعٌ لشأنه<sup>(٥)</sup>.

٣ - أنها مُصطفاة على النساء دون الرجال<sup>(٦)</sup>.

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٣/٣٧٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٣٩).

(٣) انظر: معالم التنزيل للبيهقي (٢/٣٦)، الكشاف للزمخشري (١/٥٥٧)، اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٥/٢١٥).

(٤) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٣/٣٥٧)، معالم التنزيل للبيهقي (٢/٣٦).

(٥) النكت والعيون للماوردي (١/٣٩٢)، اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٥/٢١٤).

(٦) زاد المسير لابن الجوزي (١/٣١٥).

٤ - أن الاصطفاء الأول للعبادة، والثاني لولادة عيسى ﷺ بدون أب<sup>(١)</sup>.

٥ - أن الاصطفاء الأول عام للعبادة، والثاني خاص، إذ إن سببه خاص وهو ولادتها لعيسى ﷺ دون أب<sup>(٢)</sup>.

٦ - أن الله اصطفاهما بالتحريم في المسجد ولم تحرر أنثى غيرها<sup>(٣)</sup>.

١٠ - اصطفاء طالوت (سبط بنيامين بن يعقوب ﷺ):

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧]

لقد اختاره الله ﷻ واصطفاه من بينهم وميزه بالملك والإمرة، إذ إنه ﷺ أعلم بالمصالح منهم، وما كان اختياره ﷻ إلا حجة قاطعة على ذلك. فوجه اصطفائه عليهم، وفرة العلم الذي هو ملك الإنسان والذي يتمكن به من معرفة أمور السياسة، كما أن جسامته البدن تعظم خطره بالقلوب، وتعينه على مقاومة الأعداء، ومكابدة الحروب. ولقد بينت الآية أن الإمامة مستحقة بالعلم والدين والقوة، لا بالنسب، حيث إن طالوت كان من أجناد بني إسرائيل من سبط بنيامين بن يعقوب وسبط بنيامين بن يعقوب، لم يكن فيهم ملك ولا نبوة، كما أنه لم يؤت كثيراً من المال<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٣/٣٥٧)، معاني القرآن للزجاج (١/٤١٠)، بحر العلوم للسمرقندي (١/٢٣٧)، النكت والعيون للماوردي (١/٣٩٢)، معالم التنزيل للبغوي (٢/٢٩)، الكشف للزمخشري (١/٥٤٨)، زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (١/٣١٤)، اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٥/٢١٥).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان (٢/٤٧٦).

(٣) انظر: معالم التنزيل للبغوي (٢/٣٦).

(٤) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢/٨١٨)، معاني القرآن للزجاج (١/٣٢٨)، جامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/١٨٧)، القرآن العظيم لابن كثير (١/٦٦٦)، فتح البيان للقنوجي (٢/٧١)، محاسن التأويل للقاسمي (٣/٣٠٣)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٣٠٦).

وَمُلَّخَّصَ قِصَّةَ طَالُوتَ - كما ذكر المفسرون -: أنه كان رجلاً دباغاً، وقيل: كان سقاء، وكان من سبط بنيامين بن يعقوب، وهذا السبط لم يكن فيه نبوة ولا ملك. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان في بني إسرائيل سبطان أحدهما للنبوة والآخر للملك، فلا يُبعث نبي إلا من الواحد ولا ملك إلا من الآخر، فلما بعث طالوت من غير ذلك، قالوا مقاتلهم»<sup>(١)</sup>. ثم إن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً؛ لينقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة؛ ولا يبقى لقائل مقال، وإن نبيهم خشي؛ أن طلبهم هذا، مجرد كلام لا فعل معه فأجابوا نبيهم، بالعزم الجازم؛ وأنهم التزموا ذلك التزاماً تاماً. وأن القتال متعين عليهم، حيث أنه وسيلة لاسترجاع ديارهم، ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم.

وعندما عيّن لهم نبيهم بأمر الله ﷻ واختياره طالوت ملكاً؛ يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة رفضوا ذلك واستغربوا تعيينه لطالوت؛ وثمّ من هو أحق منه بيتاً وأكثر مالا متجاهلين السبب الأقوى وهو قدر الله وقضاؤه السابق، وأنه مالك الملك، فاحتج عليهم نبيهم ﷻ بالحجة القاطعة، وبين لهم أولاً: أن ملاك الأمر هو اصطفاء الله تعالى. وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم.

وثانياً: أن العمدة فيه وفور العلم ليتمكن به معرفة أمور السياسة، وجسامة البدن ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الحروب، وقد خصّه الله تعالى منهما بحظ وافر ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ﴾ في الدنيا من غير إرث أو مال. إذا لا يشترط في حقه تعالى شيء، فهو الفعال لما يريد ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ يوسع على الفقير ويغنيه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يليق بالملك ممن لا يليق به. وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة، قال مجاهد رضي الله عنه: «معنى الملك في هذه الآية الإمرة على الجيش»<sup>(٢)</sup>.

وفي هذه القصة، عبّر كثيرة للأمة منها: فضيلة الجهاد في سبيله،

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١/٣٣٢).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (١/٣٣٢).

وفوائده وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال. وأن المجاهدين، ولو شقت عليهم الأمور، فإن عواقبهم حميدة، كما أن الناكلين ولو استراحوا قليلاً، فإنهم سيتعبون طويلاً، ومنها: الانتداب لرئاسة من فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين؛ إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق. وأن من اجتمع فيه الأمران، فهو أحق من غيره<sup>(١)</sup>.

## ١١ - اصطفاء الله ﷻ ما يشاء من مخلوقاته:

قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، ذكر المفسرون أن الله ﷻ لو أراد أن يتخذ ولداً، لامتنع ذلك حقيقة ولم يتأت إلا بأن يصطفي ويختار من جملة خلقه ما يشاء أن يصطفيه، ولا يصح أن يكون المخلوق ولداً للخالق، لعدم المجانسة بينهما. فمعنى الآية: لو أراد الله ﷻ أن يتخذ ولداً لوقع منه شيء ليس هو من اتخاذ الولد، بل إنما هو الاصطفاء لبعض مخلوقاته، ولهذا نزه ﷻ نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق فختم بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ أي: تنزيهاً له عن ذلك، فهو المستجمع لصفات الكمال المتوحد في ذاته فلا مماثل له، القهار لكل مخلوقاته<sup>(٢)</sup>.

## ١٢ - نفي اصطفاء الله ﷻ للبنات على البنين:

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِبْنِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَىٰ الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الصافات: ١٥١ - ١٥٤].

جاءت الآية الكريمة تردُّ على إفك المشركين حين ادعوا أن الملائكة بنات الله ﷻ، «تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً»، فأعاب عليهم حكمهم بأن جعلوا لله ما لا يرضونه لأنفسهم، فلا شيء يحمله ﷻ على أن يختار البنات

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٣٣٢/١)، محاسن التأويل للقاسمي (٣/٣٥٠)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٣٠٥ - ٣٠٩).

(٢) انظر: الكشف للزمخشري (٥/٢٨٧)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٥١٨)، البحر المحيط لأبي حيان (٧/٣٩٩)، فتح البيان للفتوح (١٢/٨٠).

دون البنين: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (١٥٦)، وفي الاستفهام معنى الزجر والتوبيخ، فكيف يقولون أن الله ﷻ اختار البنات على البنين وهم لا يختارون إلا البنين؟! (١).

### ١٣ - إعطاء الصفة للغير وإيثاره بها:

قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (الإسراء: ٤٠)، قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِنَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (الزخرف: ١٦).

وقد ورد هذا اللفظ: (أَصْفَى) مرتين في القرآن الكريم لقضية واحدة، وهي زعم المشركين أن الله ﷻ قد اختار البنات لنفسه، وأن الملائكة هي بناته ﷻ، وأنه أصفاهم وآثرهم بالبنين، فرد عليهم ﷻ بأسلوب استفهامي موبخاً لهم، ومنكراً عليهم ذلك. وقوله: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ تنبيهاً لهم على استحالة الولد ذكراً كان أو أنثى، فالكل خلقه، ولا يستقيم للمخلوق أن يكون ولداً لخالقه، وإن فُرض اتخاذه ﷻ للولد، فكيف يختار ﷻ لنفسه الأدنى على حد تفكيركم، ويخصكم بالأعلى؟ (٢).



ومن الألفاظ التي انصرفت إليها مادة (صفو) في القرآن الكريم دون أن تكون داخلية في معنى الاصطفاء مباشرة وإنما تدل على صفات تكون في المصطفى كالصفا والتصفية من الشوب وغيره.

### ١٤ - الصِّفَا والصَّفْوَان:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٥٨).

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/١٢٧)، تفسير القرآن للسمعاني (٤/٤١٨)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/٤٢).

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٣/٧٢)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٨/٥٢)، البحر المحیط لأبي حيان (٨/١٠)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٥/١٠٨)، فتح البيان للفتوح (١٢/٣٣٥).

الصفاء جمع صفاة، وهي الصخرة الملساء، وقالوا: أن الصفا واحد، وأنه يثنى صَفَوَان، ويُجمع أصفياء وِصْفِيًّا وَصِفِيًّا وهو نظير عصا وعُصَيٍّ، وهي الحجارة الصلبة الصلدة التي لا تنبت شيئاً<sup>(١)</sup>، ومن شروط الصفا البياض والصلابة، ولقد عنى الله ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ في هذا الموضع الجبلين المسميين بهذين الاسمين، اللذين في حرمه دون سائر الصفا والمرو؛ ولذلك أدخل فيهما الألف واللام، ليُعلم عباده أنه عنى بذلك الجبلين المعروفين بهذين الاسمين دون سائر الأصفياء.

وورد ذكر الصفوان في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوهَا صَدَقْتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾ [البقرة: ٢٦٤].

والصفوان هو الحجر الكبير الأملس، وهو واحد وجمع؛ فمن جعله جمعاً فالواحدة صفوانة، ومن جعله واحداً جمعه صفوان وِصْفِيًّا وَصِفِيًّا، ولقد ضرب الله ﷻ بذلك مثلاً لأعمال المنافقين، فهي بمنزلة الصفوان الذي كان عليه تراب، فأصابه الوابل من المطر فتركه لا تراب عليه، فهم كذلك يراهم المسلمون في الظاهر، أن لهم أعمالاً كما يرى التراب على الصفوان، فيظنه الغطان أرضاً مُنْبِتَةً طيبةً، فإذا كان يوم القيامة، وصاروا إلى الله ﷻ اضمحل ذلك كله، وانكشف سرهم وظهر أنهم لا قدر لصدقتهم ولا معنى، ويذهب ما ظُنَّ أنه أرضاً<sup>(٢)</sup>.

## ١٥ - مُصَفَّى :

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ زَبَبِهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ [محمد: ١٥].

- (١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٥٩/٢)، معاني القرآن للزجاج (٢٣٣/١).  
 (٢) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٩١/٣)، (٦٠/٢)، المحرر الوجيز لابن عطية (٣٥٨/١).

في الآية الكريمة ذكرَ الله تعالى من أنواعِ النعيمِ المادي الذي أعده لمن اتقاه وأخلصَ نيته ووصفى توحيده من كل شائبةٍ وكدرٍ أنهاراً من عسل في غاية الصفاء؛ صُفِّي ونُقِّي من القذى والكدر والعكر، صفَّاه الله ﷻ من الأقداء التي تكون في عسل أهل الدنيا، والذي لا يصفو إلا بعد المعالجة بالتصفية لأنه يكون في الشمع، أما عسل الجنة فقد خلقه الله جلَّت قدرته في الأنهار ابتداءً؛ سائلاً صافياً جارياً سيل الماء واللبن، فهو من أجل ذلك مصقَّى<sup>(١)</sup>.



---

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٦٥/١٣)، تفسير القرآن للسمعاني (١٧٤/٥)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣١٣/٧).







## الكلمات المرادفة<sup>(١)</sup> للاصطفاء

### المرادفة الأولى: الإيثار:

في اللغة: أثره إيثاراً، اختاره وفضله، والاستئثار بالشيء التفرد به دون غيره، وأثر الله ﷻ فلاناً تنبيهاً على أنه اصطفاه، وخص به نفسه ﷺ، وتفرد به من دون الورى تشريفاً له<sup>(٢)</sup>.

وفي التنزيل: قال تعالى: ﴿قَالُوا أَوَإِنَّمَا أَنْتَ تُؤسِّفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكِ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف: ٩٠ - ٩١]، ذكر المفسرون في تفسير الآية أن إخوة يوسف ﷺ قد اعتدروا إليه بقولهم: لقد فضلك الله علينا، واختارك وآثرك بأنواع العطايا، وما كنّا في صنعنا بك إلا مخطئين ومذنبين<sup>(٣)</sup>.

وفي الحديث: عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: اجتمع أناسٌ من الأنصار فقالوا: آثر علينا غيرنا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فجمعهم، ثم خطبهم فقال ﷺ: (يا معشر الأنصارِ ألم تكونوا أذلةً فأعزكم اللهُ؟) قالوا: صدق اللهُ ورسولُهُ. قال ﷺ: (ألم تكونوا ضلّالاً فهداكم اللهُ؟) قالوا: صدق اللهُ

(١) الترادف لغة: التابع. واصطلاحاً: تعدد الألفاظ واتحاد المعنى الأصلي. أما المعاني التكميلية فإن كل لفظ له دلالة الخاصة به من الحيثية. انظر: التعبير في علم التفسير للسيوطي ص ١٠٠، قواعد التفسير للسبب (٤٥٩/١).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم للأصفهاني ص ٦٢، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص ٤٣٦، لسان العرب لابن منظور (٩٢/٢)، جواهر القاموس للزبيدي (١٠/٦).

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (٧٣/٨)، معالم التنزيل للبغوي (٢٧٤/٤)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٠٨/٤)، اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٢٠٤/١١).

ورسوله . قال ﷺ: (أَلَمْ تَكُونُوا فُقَرَاءَ فَأَغْنَاكُمْ اللهُ؟) قالوا: صدق الله ورسوله .  
ثم قال ﷺ: (أَلَا تُجِيبُونَنِي، أَلَا تَقُولُونَ: أَتَيْنَنَا طَرِيداً فَأَوْيْنَاكَ، وَأَتَيْنَنَا خَائِفاً  
فَأَمَّنَّاكَ، أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ والبُقْرَانِ - يعني البقر - وتَذْهَبُونَ  
بِرسولِ اللهِ ﷺ فتَدْخِلُونَهُ بُيُوتَكُمْ، لو أَنَّ النَّاسَ سَلَكَوا وَاذِياً أَوْ شُعْبَةً، وَسَلَكَكُمْ  
وَاذِياً أَوْ شُعْبَةً، لَسَلَكَتْ وَاذِيَكُمْ أَوْ شُعْبَتَكُمْ، لَوْلا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرءاً مِّنَ  
الْأَنْصَارِ، وَإِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُمَّةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ)<sup>(١)</sup>،  
وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال ﷺ: (سَتَرُونَ بَعْدِي أُمَّةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى  
تَلْقَوْنِي)<sup>(٢)</sup> .

### المرادفة الثانية: الاجتباء:

في اللغة: الاجتباء أن تأخذ الشيء بالكلية، واجتبي الرجل الرجل: إذا  
قربه، واجتباها: اصطفاه واختاره؛ لأن من جمع شيئاً لنفسه فقد اختصه  
واصطفاه، وهو من جبوة الله وصفوته، واجتباء الله ﷻ العبد يكون بتخصيصه  
إياه بفيض إلهي<sup>(٣)</sup> يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك

- (١) مسند الإمام أحمد (١٠٥/١٨) حديث رقم ١١٥٤٧، تحقيق شعيب الأرنؤوط  
وأخرين، وقال: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير إبراهيم بن خالد،  
ورياح: وهو ابن زيد الصنعائين، فمن رجال أبي داود والنسائي، وهما ثقتان.
- (٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٢٣٧٧، والأثر: بفتح الهمزة والمثناة، وهو الانفراد  
بالشيء المشترك دون من يشركه فيه وأشار بذلك إلى أن الأمر يصير في غيرهم  
فيختصون دونهم بالأموال - وكان ذلك عندما وزع الرسول ﷺ غنائم الكفار يوم فتح  
مكة على من لم يتمكن الإيمان من قلبه، ولم يقسم للأنصار لحكمة يعلمها هو ﷺ  
فغضب الأنصار ثم بين لهم الرسول ﷺ ما خفي عليهم من الحكمة فرأوا أن الغنيمة  
العظمى إنما هي فوزهم بالرسول ﷺ فاعتذروا عما بدر منهم وسلوا عن الشاة والبعير  
والسبايا وغيرها بما حازوه من الفوز العظيم ومجاورة الرسول الأكرم ﷺ. ولقد أشار  
الرسول ﷺ بقوله: (سَتَرُونَ بَعْدِي أُمَّةً) إلى ما وَقَعَ من استنثار الملوك من قريش عن  
الأنصار بالأموال والتفضيل في العطاء، وغير ذلك، فهو من أعلام نبوته ﷺ. انظر:  
فتح الباري شرح صحيح البخاري (٦٢/٥)، (٦١/٨).
- (٣) لا بد من التنبيه على أن ذلك لا يكون إلا لمن وافق عمله الشرع، وكان  
خالصاً لله ﷻ.

للأنبياء ﷺ، وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء<sup>(١)</sup>.

وفي التنزيل: قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣] قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: «إن الله ﷻ يجتبي من خلقه من يشاء اجتباه، وقد بين ﷻ في مواضع أُخِر من القرآن الكريم مَنْ شَاء اجتباه من خلقه، فبين أن منهم المؤمنين من هذه الأمة، وبين في موضع آخر أن منهم آدم ﷺ، وذكر أن منهم إبراهيم ﷺ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اجتباه بعض الخلق بالتعيين»<sup>(٢)</sup>.

وبتتبع آيات الاجتباه في القرآن الكريم نجدها كالاتي:

#### ١ - آدم ﷺ:

قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لهُمَا سَوْءَ نُفُوسٍ وَكُفِرَا بِمَا كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٠﴾ وَرَقَّ الْجَنَّةُ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٣١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَى عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٢١ - ١٢٢]

لقد اصطفى الله ﷻ آدم ﷺ، وتخيرته من بعد معصيته إياه، ورجع به من حال المعصية إلى حال الندم، واختاره بالحمل على التوبة، والتوفيق لها وهدها لصلاح الأقوال والأعمال<sup>(٣)</sup>.

#### ٢ - إبراهيم ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْنَبَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢١].  
والمعنى أن الله اصطفاه واختاره لخلته ولنبوته، وأرشده إلى الطريق المستقيم،

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور (١٧٥/٢)، الكلبيات للكفوي ص ٤٩، مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص ١٨٦، العين للفراهيدي (١٩٢/٦)، أساس البلاغة للزمخشري ص ٥١، الصحاح للجوهري (٢٢٥/٦).

(٢) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (١٨٣/٧).

(٣) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٧٨/٩)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٦٨)، فتح البيان للقنوجي (٢٨٨/٨).

وذلك دين الإسلام لا اليهودية ولا النصرانية<sup>(١)</sup>.

### ٣ - يونس ﴿٥٥﴾:

قال تعالى: ﴿فَأَصْرَبْ لِرَبِّكَ رَيْكٌ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْمَوْثِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٥٨﴾  
لَوْلَا أَن تَدَارَكُمُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّي لَأَنِدَ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٥٩﴾ فَأَجْنِبْنَاهُ مِنَّا فَجَعَلَهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٥﴾ [القلم: ٤٨ - ٥٠] والمعنى أن الله ﷻ اصطفاه واختاره لنبوته، واصطفاه بالتوبة، ونقاه من كل كدر<sup>(٢)</sup>.

### ٤ - يوسف ﴿١٠١﴾:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْجِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠١﴾ [يوسف: ٦] والمعنى أن الله يصطفيك ويختارك للنبوته، ولحسن الخلق والخلق، وترك الانتقام<sup>(٣)</sup>، وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْجِيكَ﴾ قال: «بتأويل الأحاديث»<sup>(٤)</sup>.

### ٥ - الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنِبَتَهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ [الأنعام: ٨٧]، والمعنى أن الله تخيرهم وأرشدهم إلى الإيمان، والفوز برضاه، وهداهم إلى طريق الحق المستقيم القويم، الذي لا عوج فيه، وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشرك، وقد ذكر الله أصولهم وفروعهم وذوي طبقتهم، وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم<sup>(٥)</sup>. قال الرازي رَحِمَهُ اللهُ: «إن الاجتباء في الآية يفيد النبوة؛ لأن الاجتباء إذا ذكر في حق الأنبياء ﷺ لا يليق به إلا الحمل على النبوة والرسالة»<sup>(٦)</sup>. وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٤٨/٨).

(٢) انظر: تنوير المقباس لابن عباس ص ٦١١، جامع البيان لابن جرير الطبري (١٤/٥٥)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٤٥٥/٧).

(٣) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (١٧٨/٢)، النكت والعيون للمارودي (٨/٣).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٢١٠٢/٧).

(٥) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٣١٨/٢)، البحر المحيط لأبي حيان (١٦٦/٤)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٩٨/٣).

(٦) مفاتيح الغيب للرازي (٣١٣/٦).

عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّنَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ [مريم: ٥٨]، وقد خُصُّوا بهذه المنازل لهداية الله تعالى لهم، ولأنه اختارهم للرسالة<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَفَاتِمُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾ [آل عمران: ١٧٩].

إن الله ﷻ يجتبي من رسله من يشاء فيصطفيه، ويطلعه على بعض ما في ضمائر بعضهم بوحيه ذلك إليه، ويخبر على ألسنتهم ما يريد من المغيبات، لأن الاطلاع على الغيب من خواص الأنبياء، فالله ﷻ يصطفي منهم من يشاء، فيعلمهم أن هذا مؤمن وهذا منافق، ويحتمل أن الله يجتبي من رسله من يشاء فيمتحن خلقه بالشرائع على أيديهم حتى يتميز الفريقان بالامتحان، وذكر بعض المفسرين أن المجتبي هو محمد ﷺ<sup>(٢)</sup>.

#### ٦ - اجتناء الأمة الإسلامية، أمة محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ بَلَّةَ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ [الحج: ٧٨]، إن أمة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين هم المجتبون، الذين اجتباهم الله ﷻ إليه، وجعلهم أهله وخاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين والمرسلين، اختارهم لدينه، واصطفاهم لحرب أعدائه والجهاد في سبيله<sup>(٣)</sup>.

وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: (سببُ الأمرِ إلى أن تكونوا جنوداً

(١) الباب في علوم الكتاب للحنبلي (٨٤/١٣).

(٢) انظر: تنوير المقباس لابن عباس ص ٨٠، جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٥٠/٣)، مفاتيح الغيب للرازي (٥٨٧/٤)، البحر المحيط لأبي حيان (١٣٢/٣)، نظم الدرر للبقاعي (١٨٧/٤).

(٣) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٦٨/١٠)، بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٢٢١/٣).

مُجَنَّدَةً، جُنْدٌ بِالشَّامِ وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ)، قال ابن حوالة رضي الله عنه (١): خِرَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَدْرَكَتُ ذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: (عَلَيْكَ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا خَيْرَةٌ اللَّهُ مِنْ أَرْضِهِ، يَجْتَبِي إِلَيْهَا خَيْرَتُهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ فَعَلَيْكُمْ بِبَيْمَنِكُمْ وَاسْقُوا مِنْ غُدْرِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ) (٢).

### المرادفة الثالثة: الاختيار:

في اللغة: حَارَ الشَّيْءَ وَاسْتَحَارَهُ: انتقاه واصطفاه، والاختيار: الاصطفاء، وفلان خَيْرِي مِنَ النَّاسِ، أَي: صَفِي (٣).

وفي التنزيل: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

ولقد ورد في القرآن الكريم اختيار الله ﷻ لبعض عباده بالتعيين:

#### ١ - موسى ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣] والمعنى: أَنْ اللَّهَ ﷻ نَادَى عَبْدَهُ الَّذِي اخْتَارَهُ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ خَلْقِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، مُوسَى ﷺ بِقَوْلِهِ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ وَاجْتَبَيْتُكَ لِرِسَالَتِي إِلَيَّ مِنْ أَرْسَلْتُكَ إِلَيْهِ، فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنِّي، وَلَقَدْ جَاءَكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ فَتَأَهَّبْ لَهُ، وَاجْعَلْ كُلَّ خَاطِرِكَ مَصْرُوفًا إِلَيْهِ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤] (٤).

(١) هو عبد الله بن حوالة الأزدي كنيته أبو حوالة، ويُقال: أبو محمد، له صحبة، روى عن النبي ﷺ. نزل الأردن، ويقال: سكن دمشق ومات سنة ثمان وخمسين وهو ابن ٧٣ سنة. قال في التقريب: صحابي. انظر: الطبقات لابن سعد (٤١٤/٧)، تهذيب التهذيب لابن حجر (١٢٨/٣).

(٢) سنن أبي داود (٤/٣) حديث رقم ٢٤٨٣، صحيح الجامع الصغير (٦٨٢/١) حديث رقم ٣٦٥٩، وقال الألباني: صحيح.

(٣) انظر: الصحاح للجوهري (٣١٤/٢)، عمدة الحفاظ للسمين الحلبي (٥٤٧/١)، لسان العرب لابن منظور (٢٥٧/٤)، القاموس المحيط لفيروزآبادي ص ٤٩٧، مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص ٣٠١.

(٤) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٨٥/٩)، القرآن العظيم لابن كثير (٥/٢٧٦)، تفسير المراغي (٩٧/١٦).

## ٢ - بنو اسرائيل:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢]، والمعنى أن الله ﷻ اختار بني اسرائيل على علم منه بأنهم أهل الاختيار، فهو عالمٌ بهم وبأحوالهم، وما يقتضي اختيارهم من قِبَلِ خلقهم، ولقد كان اختيارهم على عالمي زمانهم، وذلك زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن أمة محمد ﷺ مفضلة عليهم<sup>(١)</sup>.

## المرادفة الرابعة: الإخلاص:

في اللغة: الخاء واللام والصاد، أصل واحد مطرد، ومعناه: تنقية الشيء وتهذيبه، وخُلَاصَةُ الشيء بالضم: ما صفا منه، وأخْلَصَ الشيء: اختاره وأصفاه ونفاه من شوبه، وأخْلَصَ فلاناً: اختاره واختصه، والمُخْلِص: هو من أخلصه الله ﷻ وجعله مختاراً خالصاً من الدنس، والمُخْلِصون هم المختارون، وقوله ﷻ عن موسى ﷺ: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا﴾ [مريم: ٥١] مخلصاً بالفتح؛ أي: أن الله أخلصه واصطفاه<sup>(٢)</sup>.

وفي التنزيل: قال تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤١﴾﴾

[ص: ٤٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «في هذه الآية يخبر الله ﷻ عما أخلص له أنبياءه ورسله من اختصاصهم بالآخرة، وفيها قولان:

أ - أن المعنى نزعنا من قلوبهم حب الدنيا، وذكرها وإيثارها، والعمل بها.

ب - أنا أخلصناهم بأفضل ما في الدار الآخرة، واختصصناهم به عن العالمين<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «المعنى اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين،

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦٣/١٣)، البحر المحيط لأبي حيان (٨/

٣٨)، بدائع التفسير لابن القيم (١٣٩/٤).

(٢) اللسان لابن منظور (١٧٣/٤)، عمدة الحفاظ للسمين الحلبي (٥٢٠/١)، الكليات

للكفوي ص ٦٤، معجم المقاييس في اللغة لابن فارس ص ٣٢٧.

(٣) بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٤٣/٤).

فأفردناهم بمفردة من خصال الخير، ثم أبان عنها بقوله ﷺ: ﴿ذَكَرَى الدَّارِ﴾<sup>(١)</sup>.

وفي الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما: قال ﷺ: (إِذَا أُشْتُكِي الْمُؤْمِنُ أَخْلَصَهُ اللَّهُ كَمَا يُخْلَصُ الْكَبِيرَ خَبَثَ الْحَدِيدِ)<sup>(٢)</sup>، وأخلصه: أي نقاها وهذبه من ذنوبه.

### المرادفة الخامسة: الاضطناع:

في اللغة: الاضطناع: المبالغة في إصلاح الشيء، واصطنع فلاناً لنفسه: اختاره واتخذته، وصنعه على عينه: إذا تولى توجيهه في جميع أطوار حياته<sup>(٣)</sup>.

وفي التنزيل: قال تعالى: ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي آيَةٍ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِمَّنِي وَلِصْنَعِ عَلِيِّ عَنِّي﴾ [طه: ٣٩]، وقال ﷺ: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، والخطاب في الآيتين لموسى عليه السلام، فقد اختاره الله ﷻ بعلمه وحكمته، وجعله موضع الصنعة ومقر الإجمال، والإحسان، واصطفاه لوحيه ورسالته، ليتصرف على إرادته ومحبته وما يريده ﷻ، وهو مجاز عن قرب منزلته وذنوه من ربه ﷻ؛ لأن أحداً لا يصطنع إلا من يختاره. وقوله ﷻ: ﴿لِنَفْسِي﴾ فيها إضافة تشريف، وهي كما يقال بيت الله ونحوه، وعبر بالنفس عن شدة القرب، وقوة الاختصاص<sup>(٤)</sup>.

(١) زاد المسير لابن الجوزي (٣٢/٧).

(٢) الترغيب والترهيب للمنزدي (٢٨٧/٤)، باب الترغيب في الصبر لمن ابتلي في نفسه أو ماله حديث (٢)، وصحيح الأدب المفرد للبخاري بقلم ناصر الدين الألباني ص ١٣٦، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢٥٦/٣) حديث رقم ١٢٥٧. وصحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني (١٢٣/١) حديث رقم ٣٤٤ وقال: صحيح.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن لأصفهاني ص ٤٩٣، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص ٩٥٥، لسان العرب لابن منظور (٤١٩/٧)، عمدة الحفاظ للسمين الحلبي (٣٥٥/٢)، معاني القرآن للفراء (٢٩٣/٥)، زاد المسير لابن الجوزي (٢٦٠/٥)، المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى ص ٥٢٥.

(٤) انظر: معالم التنزيل للبغوي (٢٧٤/٥)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤٥/٤)، اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٢٤٦/١٣).



## المرادفة السادسة: الاتخاذ:

في اللغة: التاء والخاء والذال كلمة واحدة اتخذت الشيء واتخذته، والاتخاذ من اتخذ يَتَّخِذُ تَخْذًا، وتخذ بمعنى اتخذه خليلاً، وتخذت زيدا خليلاً بمعنى جعلته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ﴾ مجاز عن اصطفاؤه واختصاصه؛ أي: أنه ﷺ قد اصطفاه وخصه وأحبه محبة كاملة تامة<sup>(١)</sup>.

وفي «الوجوه والنظائر»: اتخذ في القرآن الكريم على ثلاثة عشر وجهاً منها: اختار وذلك في قوله ﷺ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] أي: أنه ﷺ اختار إبراهيم ﷺ مضافياً، وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُدَّهِبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقوله ﷺ: ﴿مَا اتَّخَذَ﴾ في الآية أي: ما اختار<sup>(٢)</sup>.

وفي التنزيل: قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. لقد اتخذ الله ﷺ نبيه ورسوله إبراهيم ﷺ خليلاً، والخلة: صفاوة المودة، وهو مجاز عن اصطفاؤه واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، ولقد شرفه الله ﷺ بذكر الخلة، وسمّاه الله ﷺ خليلاً؛ إذ كان ﷺ في خلوصه وعبادته واجتهاده على الغاية التي يجري إليها المحب المبالغ في حبه لحبيبه، وكان لطف الله ﷺ به ورحمته ونصرته له بحسب ذلك<sup>(٣)</sup>.

وفي الحديث: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ أَمَنَّ

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج (١١٢/٢)، البحر المحيط لأبي حيان (٢٧٢/٣)، أساس البلاغة للزمخشري ص ٣٧، المصباح المنير للفيومي ص ٤٢، معجم المقاييس في اللغة لابن فارس ص ١٦٨.

(٢) الوجوه والنظائر للدماغاني ص ٢١.

(٣) انظر: تفسير القرآن للسمعاني (٤٨٤/١)، المحرر الوجيز لابن عطية (١١٧/٢)، البحر المحيط لأبي حيان (٣٧٢/٣).

النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ. وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أَخُوَّةُ الْإِسْلَامِ. لَا تُبْقِيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةَ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ<sup>(١)</sup>.

### المرادفة السابعة: الرضا والارتضاء:

في اللغة: رضيتُ الشيءَ ورضيتُ بهِ رضاً: اخترته وارتضيتَه، وارتضاه لُصحبته وخدمته اختاره<sup>(٢)</sup>.

وفي التنزيل: قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَبَشَّرْتُكُمْ بِرِضْوَانِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، والمعنى: أن الله ﷻ اختار الإسلام من بين الأديان واصطفاه لكم ديناً، وقد نُظر في الرضا معنى الاختيار، والرضى بالشيء هو الركون إليه وعدم النفرة منه، ويقابله السخط فقد يرضى أحد شيئاً لنفسه، فيقول رضيت بكذا، وقد يرضى شيئاً لغيره فهو بمعنى اختياره له واعتقاد مناسبه له<sup>(٣)</sup>.

وفي الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا. فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَلَا تَفَرَّقُوا. وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ)<sup>(٤)</sup>.

### المرادفة الثامنة: الاختصاص:

في اللغة: حَصَّ التخصيص والاختصاص والخصوصية، والتخصيص: تفرد بعض الشيء بما لا يشاركه فيه الجملة، وذلك خلاف العموم. وخصان

(١) صحيح مسلم (٤/١٤٧٨) حديث رقم ٢٣٨٢.

(٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/٤٤١)، روح البيان للبروسوي (٢/٣٤٣)، المصباح المنير للفيومي ص ١٢٠، جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي (١٩/٤٦٢).

(٣) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (١/٤٢٦)، روح البيان للبروسوي (٢/٣٤٣)، روح المعاني للألوسي (٦/٦١)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٢/٢٤٢).

(٤) صحيح مسلم (٣/١٠٨٠) حديث رقم ١٧١٥.

الرجل: من يختصه بضرب من الكرامة، وخصّ كذا لنفسه: اختاره فهو خاص، واختص الشيء: اصطفاه واختاره<sup>(١)</sup>.

وفي التنزيل: قال تعالى: ﴿مَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٤]، إن نعم الله ﷻ لا تدرك بالأمانى، ولكنها مواهب منه يختص بها من يشاء من خلقه، والاختصاص عناية تبلغ المختص مرتبة يفرد بها دون غيره. والله ﷻ صاحب الفضل المطلق، والخير كله بيده يؤتبه من يشاء من عباده؛ وقد اختص الله ﷻ المؤمنين من الفضل بما لا يحده ولا يوصف بما شرف به نبيهم محمد ﷺ على سائر الأنبياء وهداهم به لأحمد الشرائع<sup>(٢)</sup>.

وفي الحديث: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «... فَقُلْتُ لَهَا حِينَ بَكَتْ أَخْصَكَ رَسُولُ اللَّهِ بِحَدِيثِهِ دُونَ مَا نُمُّ تَبْكِينَ؟...»<sup>(٣)</sup>، وفي رواية أخرى: فقلت لها: «خَصَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ بِالسَّرَارِ نُمُّ أَنْتِ تَبْكِينَ»<sup>(٤)</sup>. وذلك حين أخبر الرسول ﷺ ابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بقرب أجله ﷺ، وأنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ستكون أول أهله لحوقاً به.



(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن الكريم للأصفهاني ص ٢٨٤، المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين ص ٢٣٧، معجم ألفاظ القرآن (١/٣٣٨).

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١/٦٦٤)، القرآن العظيم لابن كثير (٢/٦٠)، محاسن التأويل للقاسمي (٢/٢١٧)، التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٣/٢٦٢).

(٣) صحيح مسلم (٤/١٥١٤) حديث رقم ٢٤٥٠.

(٤) صحيح مسلم (٤/١٥١٥) حديث رقم ٢٤٥٠.





## تحرير معنى الاصطفاء

بيّنت الآيات التي ورد فيها لفظ الاصطفاء أو مرادفاته، وأقوال المفسرين ضوابط هامة قيّدت مفهوم الاصطفاء وحدوده، وما ينصرف إليه معناه، وما يمكن أن يندرج تحته منها ما يأتي:

١ - إن فعل الاصطفاء في القرآن الكريم لم ينسب إلا إلى الله ﷻ وحده، ولم ينسب إلى غيره كما وقع في بعض مرادفاته، كالاختيار، قال تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذتَهُمُ الرِّجْفَةَ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَأَىٰ أَنَّهُمْ لَمَّا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١٥٥] فنسب الله ﷻ فعل الاختيار إلى موسى ﷺ.

٢ - فعل الاصطفاء مرتبط بالمشيئة المطلقة التي لا يقيدتها شيء، ومشيئته لا تفارق حكمته سبحانه، وهي الحجة القاطعة، وملاك الأمر كله، فليس لأحد من عباده أن يعترض عليه، قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤]، كما قال ﷻ: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقال ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِيٰ إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِيٰ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

٣ - حُتِمت آيات الاصطفاء بأسماء الله وصفاته، الدالة على انفراد الله ﷻ وحده بالاصطفاء، وأنه من أفعاله التي لا يشاركه فيها أحد من عباده، ولا

يقترح فيها على الله ﷻ بالاعتراض وإبداء الرأي، فهو من أفعاله القائمة على منتهى علمه، وكمال حكمته ﷻ، ومن تلك الآيات:

قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِنَّا بَخْلًا مِمَّا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤١﴾﴾ [الزمر: ٤].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧].

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٣٤].

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [الحج: ٧٥ - ٧٦].

٤ - وقع الاصطفاء في القرآن الكريم سواء أكان بلفظه أو بمعناه الدال عليه على مفردات مختلفة، فقد اصطفى الله ﷻ من البشر الأنبياء والمرسلين ﷺ، وغيرهم من خيرة عباده ﷻ، كما اصطفى من الأديان الإسلام، ومن الأمم الأمة المسلمة، إلى غير ذلك، فهي مفردات مختلفة ليست من جنس واحد.

٥ - دلت بعض آيات الاصطفاء على وجود عنصر التهيئة قبل الاصطفاء، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤١﴾﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٦ - ٤٧] قال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: «صفيانهم عن شوب النفوس، وكدورة حظوظها وجعلناهم لنا خالصين بالمحبة الحقيقية»<sup>(١)</sup>. وقال المراغي<sup>(٢)</sup> رَحِمَهُ اللهُ:

(١) محاسن التأويل للقاسمي (١٧٩/١٤).

(٢) هو أحمد بن مصطفى المراغي: مفسر مصري، من العلماء، كان يدرس الشريعة الإسلامية له كتب منها: الحسبة في الإسلام، الوجيز في أصول الفقه، تفسير المراغي. توفي بالقاهرة سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وألف ميلادي. انظر: الأعلام للزركلي (٢٥٨/١).

«شرفناهم بطاعتنا، وقويناهم على العمل لما يرضينا، وآتيناهم البصيرة في الدين، والفقہ في أسرارہ، والعمل النافع منه»<sup>(١)</sup>.

٦ - دلت بعض الآيات على وجود عنصر التكليف بعد الاصطفاء، قال تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكَ وَلَهُكَ وَطَهَّرَكَ وَاصْطَفَى لَكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [٤٢] يَمْرِمُ أَقْنِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ [٤٣] ﴿[آل عمران: ٤٢ - ٤٣].

قال ﷺ: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [٤٤].

٧ - إن وقوع الاصطفاء على المُصطفى هو محض فضل من الله ﷻ، لا يوجهه عليه ﷻ شيء، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكَتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

٨ - اختلاف أسباب الاصطفاء حسب ما بينته الآيات؛ فاصطفاء الرسل للرسالة، ليس كاصطفاء طالوت للملك، واصطفاء مريم للحمل بعيسى ﷺ - هذا على سبيل المثال لا الحصر -.

٩ - تباين درجات الاصطفاء، حتى بين أفراد الجنس الواحد؛ فاصطفاء الرسل عليهم الصلاة والسلام اختلفت درجاته باختلاف ما حُصَّ به كل رسول عن غيره من الرسل، فاصطفاء محمد ﷺ ليس كاصطفاء غيره من الرسل صلوات الله عليهم جميعاً، وذلك لما خصه الله ﷻ به من خصائص عظيمة ما اجتمعت لغيره.

١٠ - وقوع فعل الاصطفاء من الله ﷻ يوجب على المكلفين دوراً تجاه ما اصطفى، كما تقدم<sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير المراغي (١٢٧/٢٣).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٤٨/٤).

ولقد عرّف علماء المسلمين الاصطفاء بأنه: تناول صفو الشيء، واصطفاء الله لبعض عباده يكون بإيجاده تعالى إياه صافياً عن الشوب الموجود في غيره<sup>(١)</sup>.

والاصطفاء: حال يستحقه العبد بكونه صالحاً، كما أنه اختصاص الله ﷻ ببعض العبيد بولايته ونبوته بخصوصية فيه<sup>(٢)</sup>، وهو الاختيار للرفع إلى مكانة سامية ولأداء دور جليل وهو عمل الله ﷻ وحده<sup>(٣)</sup>. وعرّف الاصطفاء كذلك بأنه: اختيار الشيء على غيره، مما يقتضي ترجيح المختار، وتخصيصه وتقديمه على غيره<sup>(٤)</sup>.

ومن أنواع الاجتباء لغير الأنبياء ﷺ أن يعصم الله ﷻ عبده وهو مستشرف للجفاء، بتنجيس الشهوات، وتعويق الملاذ، وسد مسالك العطب<sup>(٥)</sup>.

لذلك ينبغي عند وضع تعريف جامع للاصطفاء أن تُحصَر مفرداته المختلفة، ويبين ما يجب علينا تجاه تلك الاصطفاءات الربانية، وعليه:

فالاصطفاء هو: اختيار الله الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته، بإرادته المطلقة وحكمته البالغة ما يشاء من شرائعه ومخلوقاته، بتهيئته قبل الاصطفاء تهيئة يتحصل منها ترجيح ذلك المصطفى وتقديمه على غيره، وتخصيصه بخصائص قد يشاركه فيها غيره ممن اصطفاه الله ﷻ وقد لا يشاركه فيها غيره بل تكون خاصة به، وإلزام المكلفين القيام بحق ذلك المصطفى كما حدده الشرع.

ويمكن القول باختصار أكثر أن الاصطفاء: هو اختيار الله ﷻ وتفضيله لبعض الأفراد المتساوية في أوصافها، بسبب وصف أو أوصاف زائدة خصَّ الله ﷻ بها المصطفى دون غيره.

(١) مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص ٤٨٨، الكليات لأبي البقاء ص ١٣٠، بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (١٧٨/٢).

(٢) محاسن التأويل للقاسمي (١٠٣/٢)، (٢٦٠/١).

(٣) من هدي سورة آل عمران لحنان لحام ص ٦١.

(٤) شفاء العليل لابن قيم الجوزية ص ٧٦.

(٥) تهذيب مدارج السالكين ص ٤٧٧ هذب عبد المنعم صالح العلي العزي.



ولقد أردنا من خلال ذلك أن نبيِّن المعاني الآتية:

١ - أن الاصطفاء من أفعال الله الدالة على وحدانيته وتفرده ﷻ، في الخلق والاختيار، وأنه لا يشاركه فيه غيره من مخلوقاته.

٢ - أن الاصطفاء يكون لشيء معين، يخص به الله ﷻ المصطفى لا يشاركه فيه غيره.

٣ - أن الاصطفاء يقع على البشر وعلى غيرهم.

٤ - أن الله لا يصطفى من مخلوقاته إلا من وهبه سبحانه خصائص ومميزات يفوق بها أقرانه.

٥ - أن ما يصطفيه الله ﷻ من مخلوقاته يتطلب من المكلفين القيام بحق ذلك الذي اصطفاه على الوجه المبين في الشرع، وكما حدده، وذلك للبعد عن كل ما يتدعه أصحاب الأهواء.

٦ - أن ما يصطفيه الله ﷻ بحكمته وعلمه، له آثاره الإيجابية الكبيرة على المكلفين إن قاموا بحقه وعظموه.

٧ - أن الاصطفاء قد يكون للمصطفى ذاته، أو أنه يصطفى لغيره، أو أنه يصطفى لذاته ويصطفى له، ويصطفى لغيره، وقد يجتمع فيه كافة الأمور السابقة.

٨ - أن للاصطفاء أركاناً فهناك المصطفى، والمُصطفى له، والمصطفى منه، وسيتم بيان تلك الأركان في الباب الثاني إن شاء الله.





## الفصل الثاني

### اصطفاء غير البشر في القرآن الكريم

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: اصطفاء الدين (الإسلام).

المبحث الثاني: اصطفاء الكتاب (القرآن).

المبحث الثالث: الملائكة المصطفاة.

المبحث الرابع: اصطفاء بعض الأزمنة.

المبحث الخامس: اصطفاء بعض البقاع.





## اصطفاء الدين (الإسلام)

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢]

قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]

قال ابن فارس: «الدال والياء والنون أصل واحد يرجع إليه فروعه كلها، وهو جنس من الانقياد والذل، فالدين: الطاعة، يقال: دان له يدين ديناً، إذا أصحب وانقاد وطاع، وقوم دين، أي: مطيعون متقادون»<sup>(١)</sup>.

وهو اسم لجميع ما تعبد الله ﷻ به خلقه، وأمرهم بالإقامة عليه، والذي به يجزون، والذي أمرهم أن يكون عاداتهم<sup>(٢)</sup>.

كما أنه وضع إلهي يُرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات<sup>(٣)</sup>.

إن الله ﷻ الحكيم العليم، خلق خلقه وفطرهم على ما يضمن لهم البقاء والسلامة في حياتهم الدنيا، وهو العليم بما يصلحهم، وما يصلح لهم، وما تقوم به حياتهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

والدين الحنيف هو المتضمّن كمال الحب، والذل، والطاعة لله ﷻ، ومن أجل ذلك خلق الله ﷻ خلقه، وأرسل رسله، وأنزل شرائعه. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَرِيمُ وَلَكِن بَشَرٌ تَلَفَتْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ص ٣٧٢.

(٢) معاني القرآن للزجاج (١٤٨/٢).

(٣) وظيفة الدين في الحياة للدكتور محمد الزحيلي ص ١٠.

والمراد بفطرتهم على الدين؛ أنه ﷺ خلقهم قابلين لأحكامه، وجعل تعاليمه مناسبة لخلقهم غير مجافية لها<sup>(١)</sup>، ويؤكد ذلك المعنى ما ورد في الحديث عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمَجَاشِعِيِّ<sup>(٢)</sup>؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي حُطْبَتِهِ: (أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُمْ مَا جَهَلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، فِي مَقَامِي هَذَا؛ كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا، حَلَالٌ. وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ. وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمُ عَنْ دِينِهِمْ. وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا)<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا يتأكد لنا حقيقة ثابتة؛ وهي أن حاجة الإنسان إلى الدين ليست حاجة ثانوية، ولا هامشية، إنها حاجة أساس أصيلة؛ ذلك لأن التدين فطرة في الإنسان، وكل ما فطر الله ﷻ عليه عباده لا بُد وأن يُشَبَّعَ وإلا لتعرض الإنسان إلى الهلاك. يقول الدكتور (فيكتور): إن الحاجة إلى التدين عنصر دفين في النفس البشرية ولو حاولنا إخفاءه على عقولنا الواعية، لتعرضت لصراع داخلي عنيف، وأنه من العسير على الناس الآن أن يواجهوا كوارث الحياة والحروب بغير عقيدة دينية صحيحة قوية: تشجعهم وتعينهم وتواسيهم<sup>(٤)</sup>.

ومن أعظم منن الله ﷻ على أمة محمد ﷺ: أن الله ﷻ اختار لهم دين الإسلام الذي هو صَفْوَةُ الأديان، وشرَّعه لهم ووقفهم للأخذ به، وأمرهم أن لا يفارقوه أيام حياتهم؛ لأنَّ أحداً لا يدري متى تأتيه منيته فيكون على غير الذي اصطفاه له ربه فيموت وهو ساخط عليه<sup>(٥)</sup>. ولأهمية الدين للإنسان كفرد

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٨٩/٢١).

(٢) هو عِيَّاضُ بْنُ حِمَارٍ الْمَجَاشِعِيُّ التَّمِيمِيُّ، روى عن النبي ﷺ وكان صديقاً رفيقاً له. كان إذا قدم مكة لا يطوف إلا في ثياب الرسول ﷺ. سكن البصرة، وعاش قرابة الخمسين. انظر: تقريب التهذيب للعسقلاني ص ٣٧٣، الاستيعاب (١٢٩/٣).

(٣) صحيح مسلم (١٧٤١/٤) حديث رقم ٢٨٦٥.

(٤) نقلاً من كتاب معلمة الإسلام لأنور الجندي بتصرف ص ٩٩ - ١٠٦.

(٥) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٧٨١/١)، بحر العلوم للسمرقندي (١٢٢/١)،

معالم التنزيل للبغوي (١٥٣/١)، زاد المسير لابن الجوزي (١٢٩/١)، روح المعاني =

وكمجتمع فقد جاء الأمر لجميع الأنبياء والرسل بإقامته قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ، كما أمر الرسول ﷺ بذلك في أكثر من موضع في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٥٥] [يونس: ١٠٥] وقال ﷺ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَائِمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]

وقال ﷺ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَائِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] ، والمقصود بالوجه في الآية: المنحى والمقصد؛ أي: اجعل طريقك واعتمادك للدين والشرع، واستمر على الذي شرعه الله ﷻ لك من الحنيفية السمحة ملّة إبراهيم، مستقيماً غير معوج، وأخلص العبادة له.

وقوله تعالى: ﴿لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ﴾ أي: لدين الله. والدين والفطرة: هو الإسلام<sup>(١)</sup>. ولقد ثبت أن النبي ﷺ، كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى: «أُصْبِحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ أَوْ أَمْسَيْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»<sup>(٢)</sup>.

إنّ لفظ الدين الوارد في الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ﴾ عني به الإسلام، والدليل على ذلك: ما حُتِمت به الآية بعد بيان اصطفاء الدين بقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا إِبْرَاهِيمَ بِدِينِهِ

= للألوسي (٣٨٩/١)، أضواء البيان للشنقيطي (٧٤/١)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢١٨/١١).

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٢٨/٧)، المحرر الوجيز لابن عطية (٣/١٤٦)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٠٠/٤).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤٠٦/٣)، مجمع الزوائد للهيتمي (١٥٦/١٠) حديث رقم ١٧٠٠٣، وقال: رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح، وبنظر: كتاب الأذكار للنووي ص ٧١ رقم ١٩٢.

وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾  
 [البقرة: ١٣٢]، كما أن صيغة الحصر في الآية الآتية تدلُّ دلالة صريحة  
 على ذلك فالدين عند الله ما هو إلا الإسلام قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ  
 عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] والطالب لغير الإسلام ديناً فهو مردود  
 عليه قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ  
 مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ ﴿١٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥].

وعليه يثبت الآتي: أن الله اصطفى الدين؛ والدين عنده هو الإسلام  
 فيكون الدين المُصطفى من عند الله هو الإسلام بمعناه العام؛ وهو ما اتفق  
 عليه الأنبياء والمرسلون، وإن كان لكل واحد منهم شرعة ومنهاج. قال  
 رسول الله ﷺ: (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ)، قَالُوا:  
 كَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عِلَاتٍ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ  
 وَاحِدٌ، فَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ)<sup>(١)</sup>. وهو الحنيفية السمحة، ملة إبراهيم ﷺ، أحب  
 الأديان وأحسنها عند الله، قال ﷺ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ  
 وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ﴿١٦٥﴾ [النساء: ١٢٥]  
 فهذا هو الدين الذي اختاره الله ﷻ لعباده، ودلهم عليه وأرشدهم إليه،  
 وأمرهم بالتمسك به، وهو الذي من أجله خلقهم، وهو الذي به سيجزون  
 ويحاسبون، ومن أجله خلق جنته وناره.

عن أبي بن كعب قال: انتسب رجلان على عهد رسول الله ﷺ، فقال  
 أحدهما: أنا فلان بن فلان فمن أنت؟ لا أم لك. فقال رسول الله ﷺ:  
 (انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى ﷺ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ حَتَّى عَدَّ  
 تِسْعَةً فَمَنْ أَنْتَ؟ لَا أُمَّ لَكَ. قَالَ أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، ابْنُ الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَأَوْحَى اللَّهُ  
 إِلَى مُوسَى ﷺ أَنْ قُلْ لَهُذَيْنِ الْمُنْتَسِبِينَ: أَمَا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنْتَمِي أَوْ الْمُنْتَسَبُ  
 إِلَى تِسْعَةٍ فِي النَّارِ، فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ، وَأَمَا أَنْتَ يَا هَذَا الْمُنْتَسِبُ إِلَى اثْنَيْنِ فِي  
 الْجَنَّةِ، فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ)<sup>(٢)</sup>.

(١) صحيح مسلم (٤/١٤٦٥) حديث رقم ٢٣٦٥.

(٢) مسند الإمام أحمد (٥/١٢٨)، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/٢٦٦) رقم ١٢٧٠ ط، =



وبعد بيان معنى الدين ننتقل إلى بيان مفهوم الإسلام في اللغة والاصطلاح: قال ابن فارس: السين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية، فالسلامة أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى، والإسلام هو الانقياد؛ لأنه يسلم من الإيذاء والامتناع<sup>(١)</sup>، وهو يتضمن الاستسلام والسلامة التي هي الإخلاص<sup>(٢)</sup>.

والإسلام بمعناه العام في الاصطلاح الشرعي يقصد به: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك<sup>(٣)</sup>. ولا يتحقق ذلك كما بين شيخ الإسلام رحمته الله إلا بطاعة الله في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت<sup>(٤)</sup>، وهو التعبد لله بما شرع منذ أن أرسل الله الرسل إلى أن تقوم الساعة<sup>(٥)</sup>.

### الإسلام دين الكون:

إن الإسلام والذي هو الاستسلام الكامل لله تعالى والانقياد والامتثال للخالق وسننه في خلقه وأمره بلا اعتراض إنما هو حال الكون كله من حولنا، ما عرفنا منه وما لم نعرف، فكل من في السماوات والأرض مسلم بهذا المعنى. قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

قال الطبري رحمته الله: «وله خضع من في السماوات والأرض، فخضع له بالعبودية، وأقر له بإفراد الربوبية، وانقاد بإخلاص التوحيد»<sup>(٦)</sup>، ولقد جمع الإمام البغوي رحمته الله في تفسيره عدداً من الأقوال في معنى الآية منها: قال

= قال الألباني: هذا إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين غير يزيد بن زياد بن أبي الجعد، وهو ثقة.

(١) معجم المقاييس لابن فارس ص ٤٨٧.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٦٢٣/٧).

(٣) الأصول الثلاثة وأدلتها للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٠.

(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٨٩/٣).

(٥) شرح ثلاثة الأصول للشيخ محمد بن العثيمين ص ٢٠.

(٦) جامع البيان لابن جرير الطبري (٤٥٥/٣).

الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أسلم أهل السماوات طوعاً وأسلم من في الأرض بعضهم طوعاً وبعضهم كرهاً خوفاً من السيف والسبي»، وقال مجاهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «طوعاً المؤمن وكرهاً الكافر»، وقال قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «المسلم أسلم طوعاً فنفعه، والكافر أسلم كرهاً في وقت البأس فلم ينفعه»<sup>(١)</sup>.

ومن المعلوم أن كل شيء في الكون منقاد لقاعدة معينة وقانون خاص لا يخرج عنه ولو قيد شعرة. هذا القانون الشامل الذي يستسلم له ولا ينفك عن طاعته شيء في هذا الكون من أكبر سيارة في السماء إلى أصغر ذرة من الرمل في الأرض، من وضع ملك جليل مقتدر، فإن العالم كله مطيع له متبع لأمره؛ وعليه فإن الإسلام هو دين الكون كله<sup>(٢)</sup>.

### الإسلام دين الأنبياء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

إن الإسلام بمعناه العام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، وهو ما أثبتته القرآن الكريم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فهذا نوح الذي غرق أهل الأرض بدعوته، وجعل جميع آدميين من ذريته يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين»، ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وكان دعاء الخليل عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلِمْتُ رَبِّي أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٢٩] وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١ - ١٣٢] كما ردَّ الله عَلَيْهِمُ السَّلَامَ افتراءات أهل الكتاب في كون إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام يهودياً أو نصرانياً، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقال تعالى على لسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ الْإِنْسَانِ فِي الْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

(١) معالم التنزيل للبغوي (٢/٦٣).

(٢) مبادئ الإسلام للمودودي ص ٦ بتصرف.

وعن موسى ﷺ قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُقَوْمِ إِنِ كُنْتُمْ ءَامِنِينَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وعن السحرة الذين آمنوا بموسى ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا نَعْبُدُ مِنَّا إِلَّا آتَ ءَامِنًا يَا أَيَّتُهَا رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا فَأَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُّسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وعن سليمان ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠ - ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُّسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢].

وعن أنبياء بني إسرائيل قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَجْعَلُكُم بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّحِيمُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وعن الحواريين أصحاب عيسى ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامِنًا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُّسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] فهؤلاء الأنبياء وأتباعهم كلهم نصَّ الله ﷻ في كتابه على أنهم مسلمون<sup>(١)</sup>.

وبعد ظهور آخر رسالة على يد الرسول الخاتم محمد ﷺ، التي هي تجميع لخصائص النبوات كلها في نبوة واحدة، ورسالة خاتمة تخرج إلى الوجود كله كاملة وافية، انتهت تلك القافلة المباركة، قافلة الأنبياء والمرسلين، وهي تحمل الدين المصطفى، الذي وصل إلى الغاية الأخيرة المنشودة التي لا غاية بعدها؛ هذا الدين الذي جاء به خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]. حمله المصطفى ﷺ مصفى بمصفاة الوحي الإلهي إلى آخر الأمم وخيرها، صافياً نقياً بلغ من الصفاء ذروته ومن الكمال نهايته، أتم به البناء العظيم الذي شارك في إعلانه

(١) التفسير الكبير لابن تيمية (٣/٢٢٩).

خيرة الخلق وصفوتهم، حتى جاء آخرهم ليتمه أحسن التمام فيبلغ به من الحسن منتهاه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُطِيفُونَ بِهِ يَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا بُيْتًا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا إِلَّا هَذِهِ اللَّيْنَةُ. فَكُنْتُ أَنَا تِلْكَ اللَّيْنَةُ) (١).

إنه الدين الذي كتب الله له أن يظهر ويعلو على كل دين وأن ينعم به على هذه الأمة فتسمى باسمه، قال السيوطي: «إن الإسلام خاص بهذه الملة الشريفة، ووصف المسلمين خاص بهذه الأمة المحمدية ولم يوصف به أحد من الأمم السابقة سوى الأنبياء فقط فشرفت هذه الأمة بأن وصفت بالوصف الذي كان يوصف به الأنبياء تشريفاً لها وتكريماً وهذا هو القول الراجح نقلاً ودليلاً» (٢). ولعل السيوطي رحمته الله قصد بالإسلام في كلامه، الإسلام الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في صورته الأخيرة والذي أتمه الله تعالى وأكمله ورضيه للمسلمين أمة محمد صلى الله عليه وسلم لأن الله ارتضاه لهم وحدهم وكمله لهم وخصهم به فله الحمد والمنة على ذلك.

هذا هو الإسلام بمعناه العام والذي هو دين جميع الأنبياء، أما معناه الخاص فهو يختص بما بعث به محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم نسخ جميع الأديان السابقة، فصار من اتبعه مسلماً، ومن خالفه ليس بمسلم (٣).

إنه الدين الذي بعث الله تعالى رسوله محمداً بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بأصوله الاعتقادية، وتكاليفه التعبدية، وتعاليمه الخلقية، وأحكامه التشريعية وهو المقصود في قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْتَصِمَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]. فلقد اصطفى الله تعالى الإسلام في صورته الأخيرة، واختاره ليكون هو الدين الخاتم لكل الأديان السماوية السابقة، ولقد تضافرت نصوص

(١) صحيح مسلم (٤/١٤٢٨) حديث رقم ٢٢٨٦.

(٢) إتمام النعمة في اختصاص الإسلام بهذه الأمة للإمام جلال الدين السيوطي ص ٧.

(٣) شرح ثلاثة الأصول لفضيلة الشيخ محمد بن العثيمين ص ٢٠.

القرآن الكريم مؤيدةً هذه الحقيقة وموضحةً لخصائص هذا الدين، نذكر منها -  
على سبيل المثال لا الحصر - الآتي:

- إن الدين عند الله الإسلام:

لقد سَدَّ اللهُ ﷻ جميع الطرق إليه ﷻ إلا من جهته أي: (الإسلام) الذي  
جاء به محمد ﷺ، فمن لقي الله ﷻ بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير  
شريعته فليس بمتقبل<sup>(١)</sup>.

لأنَّ من أصول الاعتقاد المعلومة من الدين بالضرورة والتي أجمع عليها  
المسلمون أنه لا يوجد على وجه الأرض دين حق سوى دين الإسلام، وأنه  
خاتمة الأديان وناسخ لجميع ما قبله من الأديان والملل والشرائع، فلم يبق  
على وجه الأرض دين يتعبدون الله به سوى الإسلام، والإسلام بعد بعثة محمد  
هو ما جاء به دون ما سواه من الأديان<sup>(٢)</sup>. قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ  
الإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بَقِيًا بَيْنَهُمْ  
وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٨﴾ [آل عمران: ١٩]. وفي  
قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾ صيغة حصر تقتضي حصر المسند  
إليه وهو «الدين»، في المسند وهو «الإسلام»؛ أي: لا دين إلا الإسلام، وقد  
أكد هذا الانحصار بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾. والحصر مؤول إما باعتبار وقت  
الإخبار، ولا شك أن وقت الإخبار ليس فيه دين صحيح غير الإسلام، إذ  
عرض لبقية الأديان الإلهية من خلط الفاسد بالصحيح، وإما باعتبار الكمال  
فيكون الحصر باعتبار سائر الأزمان والعصور، إذ لا أكملَ من هذا الدين،  
حيث كان كل دين مضى على مقدار الحاجة في أمة معينة في زمن معين<sup>(٣)</sup>.

وهذا يؤكد تأكيداً صريحاً اصطفاً الله ﷻ للإسلام بمعناه الخاص، إذ  
إن حصر الدين عنده في الإسلام، وحصر الإسلام في هذا الزمان في الدين  
الذي جاء به محمد ﷺ بجميع أصوله وفروعه ليدل دلالة واضحة على ما قلنا.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٢٥).

(٢) فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية رقم ١٩٤٠٢ بتاريخ ١/٢٥/١٤١٨ هـ.

(٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/١٨٨).

- رفض جميع الأديان سوى الإسلام في صورته الأخيرة - دين محمد ﷺ :-

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَاهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

[آل عمران: ٨٥ - ٨٩].

تدُلُّ الآية دلالة واضحة على أن الدين المقبول هو الإسلام بمعناه الخاص والذي جاء به الرسول ﷺ خاتماً لما قبله من الرسالات، حيث أن الله ﷻ قد حكم بالكفر والخلود في النار للجاحدين لنبوته محمد ﷺ وللدن الذي جاء به، قال الحسن البصري وقتادة رحمهما الله تعالى: «نزلت في اليهود لأنهم كانوا يبشرون بالنبى ﷺ، ويستفتحون على الذين كفروا فلما بعث عاندوا وكفروا، فأنزل الله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾<sup>(١)</sup>».

لقد حكم الله ﷻ على من اتخذ غير دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ديناً بالخسران وأنكر عليهم كفرهم بمحمد ﷺ وقد جاءتهم البينات بصدقه وصدق ما جاء به، فحكم عليهم بالظلم، وقرر مصيرهم وهو الخلود في النار وتشديد العذاب، وسبب ذلك هو أنهم ابتغوا لهم ديناً سوى الإسلام، وفي الربط بين رفض الإسلام والكفر بمحمد ﷺ دلالة واضحة على أن المقصود بالإسلام هو الدين الذي جاء به في صورته الأخيرة التامة والكاملة.

- الإسلام هو الدين الكامل المُصطفى للأمة المصطفاة:

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] إن الله ﷻ قد أكمل للأمة المسلمة الدين فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وأتمه فلا ينقصه أبداً، ورضيه فلا يسخطه أبداً، ولم يزل يصرف نبيه وأصحابه في درجات ومراتب، حتى أكمل لهم شرائعه

(١) انظر: التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٣/٢٨٨).

ومعالمه، وبلغ بهم أقصى درجاته ومراتبه<sup>(١)</sup>.

ولابن القيم رحمه الله في تفسير الآية كلام نفيس حيث قال: «ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها؛ فهي نفسها الشاهد والمشهود له والحجة والمحتج له والدعوى والبرهان. وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيداناً بدوامها واتصالها وأنه لا يسلبهم إياها بعد أن أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار؛ وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة وحسن اقتران الكمال بالدين وإضافة الدين إليهم؛ إذ هم القائمون به المقيمون له، وإضافة النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها، والمنعم بها عليهم فهي نعمته حقاً وهم قابلوها، وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة، فجاء ﴿وَأَتَمَّمْتُ﴾ في مقابلة ﴿أَكْمَلْتُ﴾، و﴿عَيْتَكُمْ﴾ في مقابلة ﴿لَكُمْ﴾، و﴿نَعَمَتِي﴾ في مقابلة ﴿دِينَكُمْ﴾، وأكد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنعمة بقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وكان بعض السلف يقول: يا له من دين لو أن له رجالاً<sup>(٢)</sup>.

ولا بد أن نشير إلى أن الكمال حاصل في كل شرع شرعه الله ﷻ؛ كمال في الوقت الذي أنزل فيه وللقوم الذين خصوا به، إلا أن الإسلام وحده هو القادر على القيام بمهمة الوفاء بكل ما تحتاجه البشرية في كل وقت حتى قيام الساعة. ولقد قدّم الدليل على صلاحيته عندما أتيح له أن يطبق في دنيا الواقع فكانت تلك الفترة فترة فاضلة، لم تنعم البشرية بمثلها، ولن تنعم إلا إذا سارت على ما سار عليه السلف الصالح، وعندها فقط سيكون الإسلام منارة تضيء لأجيال الإنسانية الخير والسلامة والأمان المنشود، ويحقق لها سعادة الدارين.

قال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٠٦/٤)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (٤٢٦/١)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٨/٢).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية (١/٤٢٤ - ٤٢٥).

بَعْدَ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور: ٥٥] .

وفي ذكر «الرضى» الإلهي عن الدين الإسلامي في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾، دليل على اصطفاء الدين الإسلامي في وضعه النهائي بأبلغ صيغ المدح الجليلة التي تنم عن عظمة هذا الدين عند الله ﷻ؛ لأن الرضى بالشيء يعني قبوله، ورضيت لك هذا الشيء أي: اخترته لك وأنا راضٍ به، وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ﴾ أي: اخترت لكم، وباستيعاب هذه الحقيقة وظلالها نعلم كم هي عظمة تلك المنحة:

أولاً: لعظمة مانحها وواهبها، وهو الله ﷻ.

ثانياً: لاختصاص أمة محمد ﷺ بها دون غيرهم بقوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾.

ثالثاً: اختيار لفظ «رضيت» دون غيره، وهو لفظ مركب متمزج فيه ألوان من المعاني التي تدل على عظمة هذا الدين والنتيجة عن عظمة من اصطفاها للأمة بل رضيه لها.

فهل بعد رضاه تعالى لنا حُجَّة في عدم قبوله والعمل به والدفاع عنه؟! وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ يقتضي أنه اختارهم أيضاً - أي: الأمة المسلمة - ليكونوا أتباع هذا الدين لفضلهم وشرفهم، ونعمته عليهم وتمكين الدين لهم، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة في أنفسهم وقلوبهم، وفي غيرهم، وفي تصريف الحياة وتدبيرها. فقد وعدهم الله بأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض، وينتشر في القبائل والأمم، ويكثر متَّبَعوه، ولقد استعير معنى التمكين الذي حقيقته التثبيت والترسيخ لمعنى الشيوع والانتشار؛ لأنه إذا انتشر لم يخش عليه الانعدام، فكان كالشيء المثبت المرسخ. ولقد بلغت هذه الأمة في تمكين هذا الدين الغاية القصوى، مما أظهر الله على أيديهم من الفتوح والعلوم التي فاقوا فيها جميع العالم من لدن آدم إلى زمان هذه الملة المحمدية. وقد قدم الله ﷻ قوله: ﴿لَهُمْ﴾ في الآية على قوله ﷻ: ﴿دِينَهُمْ﴾ إيماءً إلى العناية بهم؛ أي: بكون التمكين لأجلهم. وفيه إشارة إلى أن الموصوفين بهذه الصفة هم الذين ينشرون هذا



الدين في الأمم لأنه دينهم فيكون تمكنه في الناس بواسطتهم<sup>(١)</sup>.

- الإسلام هو الأحسن على الإطلاق:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥) ﴿[النساء: ١٢٥] قال ابن عباس رضي الله عنهما: خير الله بين الأديان بهذه الآية<sup>(٢)</sup>، وقضى الله ﷻ للإسلام وأهله بالفضل على سائر الملل، حيث نفى ﷻ أن يكون هناك من هو أحسن ديناً، وأصوب طريقاً وأهدى سبيلاً ممن أسلم وجهه لله ﷻ<sup>(٣)</sup>.

قال ابن تيمية يرحمه الله: نفى أن يكون دين أحسن من هذا الدين، وأنكر على من أثبت ديناً أحسن منه؛ لأن هذا استفهام إنكار، وهو إنكار نهي وذم لمن جعل ديناً أحسن من هذا. قال قتادة والضحاك، وغيرهما: إن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا؛ فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٣) ﴿[النساء: ١٢٣]﴾<sup>(٤)</sup>، فلما استشعر المسلمون أنهم مجزيون على السيئات ولا يغني عنهم فضل دينهم بين بعد ذلك فساد دين الكفار من المشركين وأهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (١٢٤) ﴿[النساء: ١٢٤]﴾. فبين أن العمل الصالح إنما يقع الجزاء عليه في الآخرة مع الإيمان. فوقع الرد على الكفار من جهة جزائهم بالسيئات، ومن جهة أن حسناتهم لا يدخلون بها الجنة إلا مع الإيمان. ثم بين بعد هذا فضل الدين

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (١١٨/٦)، نظم الدرر للبقاعي (٢٧٩/٥)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨٧/١٨)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٤٣٩/٥)، في ظلال القرآن لسيد قطب (٢٥٢٩/٤).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٢٩٢/٢).

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (٤٠١/٤).

(٤) انظر: أسباب النزول للواحي ص ١٨٤.

الإسلامي الحنفي بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] فجاء الكلام في غاية الإحكام<sup>(١)</sup>.

- الإسلام هو الدين الحق المهيمن على كل الأديان:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]. وقرر ﷺ وبنفس اللفظ في سورتي الفتح والصف فقال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، وقال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩] والآية واضحة في اصطفاء ديننا على سائر الأديان. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يبعث الله محمداً ليظهره على الدين كله، فديننا فوق الملل<sup>(٢)</sup>. وعبر عن الإسلام ﴿بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ تنويهاً بفضله وتعريضاً بأن ما هم عليه ليس بهدى ولا حق. ومعنى «يظهره»: يُعليه وينصره على سائر الأديان. والإظهار مشتق من ظهر؛ بمعنى: بدا، فاستعمل كناية عن الارتفاع الحقيقي، ثم أطلق مجازاً على الشرف، فصار المعنى: ليشرفه على الأديان كلها، ويطلق على التفضيل والإعلاء المعنوي. وفعل الإظهار إذا عدي بعلى كان مضمناً معنى النصر أو التفضيل؛ أي: لينصره على الأديان فيكون أشرفها وأغلبها، ويكون الإظهار بالسيف والسنان، وبالذليل والحجة، فلا دين يصمد أمام النقاش العلمي والعقلي غير الإسلام، كما يكون بنسخه لجميع الأديان السابقة، وأنه لا يعبد الله إلا به.

ومما يجب التنبيه إليه أن ظهور الدين على غيره وصف ملازم له في كل وقت، وما يزال ظاهراً من حيث هو دين، فهو القوي بذاته، القوي بطبيعته، فوعد الله قد تحقق وما يزال متحققاً، وما يزال هذا الدين ظاهراً على الدين كله في حقيقته، بل إنه هو الدين الوحيد الباقي القادر على العمل والقيادة في

(١) التفسير الكبير لابن تيمية (٤٦٦/٣) باختصار.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١٧٨٦/٦).

جميع الأحوال. لقد ظهر هذا الدين وملك أهله أمماً كثيرة؛ فلا دين بخلاف الإسلام إلا وقد قهرهم المسلمون وظهروا عليهم في بعض المواضع، وإن لم يكن كذلك في جميع المواضع، فقهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب، وغلبوا النصارى على بلاد الشام، وغلبوا المجوس على ملكهم، وغلبوا عباد الأصنام على كثير من بلادهم<sup>(١)</sup>.

ومن معاني الظهور والغلبة ما ورد في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَنَّاعًا هَؤُلَاءِ وَإِبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤] قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَكْفِيكُمْ لَمُعْقَبِ الْحَكِيمِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] فقد حكمت الآيات بظهور الإسلام على الكفر، بما يفتح الله ﷻ على المسلمين مما يزيد في أرض أهل الإسلام، وذلك أن المسلمين كانوا يغزون كافة البقاع فيفتحونها حتى دانت لهم الناس، وهذا هو حكم الله وحده الذي لا راد له. وقال الطبري رحمه الله: «إن ذلك يكون بظهور المسلمين من أصحاب محمد ﷺ عليها وقهرهم أهلها، وكان الحسن البصري رحمه الله يقول في الآية: هو ظهور الإسلام على الكفر»<sup>(٢)</sup>.

ثم إن المتأمل في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن الرسول ﷺ ليجد أن حكم الله بنصر الإسلام وإظهاره والوارد في الآية السابقة، قد أخبر به الرسول ﷺ في الحديث: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرْضُونَ، وَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ، فَلَا يَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ

(١) جامع البيان لأبي جرير الطبري (١٥٠/٦)، القرآن العظيم لأبي حاتم (١٧٨٦/٦)، النكت والعيون للماوردي (٣٥٦/٢)، تفسير القرآن للسمرقاني (٣٠٤/٢)، معالم التنزيل للبخاري (٣٩/٤)، المحرر الوجيز لابن عطية (٢٦/٣)، روح البيان للبروسوي (٤١٦/٣)، فتح البيان للفتوحاني (٢٨٩/٥)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٨٩/١٠) - (٢٠١/٢٦) - (١٩٢/٢٨)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٣٧٠/٧)، في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٣٣٠/٦).

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري، (٢٢٥/٨)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/٣٤٥)، نظم الدرر للبقاعي (١٦٢/٤).

وَعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا. وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا)<sup>(٢)</sup>. ولذلك أمر الله ﷻ الأمة المسلمة التي رضي لها الإسلام أن تقاتل عن دينها وتنافح عنه حتى لا يبقى في منبته دين يشاركه فيخلص الدين لله ﷻ، ثم ينطلق قوياً صافياً في أرجاء المعمورة. قال تعالى: ﴿وَقَبِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، قال تعالى: ﴿وَقَبِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلِمَةُ اللَّهِ فَإِنْ أُنتَهَوْا فَإِنَّكَ أَنتَهُوهُم بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرَةً﴾ [الأنفال: ٣٩]. المقصود من هذا هو تخليص بلاد العرب من دين الشرك، وعموم الإسلام لها؛ لأن الله اختارها لأن تكون قلب الإسلام ومنبع معينه فلا يكون القلب صالحاً إذا كان مخلوط العناصر، وبيان أن الله ﷻ اختار لها الإسلام بصورته الأخيرة التي جاء بها محمد ﷺ، ففي الآية أمر من الله ﷻ بقتال المشركين حتى لا يكون شرك بالله، وحتى لا يعبد دونه أحد، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما<sup>(٣)</sup>؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ. فِإِذَا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ).

- الإسلام هو الدين الأول والأرفع والأظهر:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَارْتَبِعُوا صَلَاتَهُ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْتَأْذِنُوا مِنْهُ حَتَّى يُؤْتُوا مِنْهُ حَتَّى يَتَذَكَّرُوا لِمَا بَدَعُوا قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُلْ أَصْحَابُ الْأَنْعَامِ﴾ [الأنعام: ١٤] وجاء هذا المعنى بنفس اللفظ في قوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ

(١) صحيح مسلم (١٢٠٨/٣) حديث رقم ١٩١٨.

(٢) صحيح مسلم (١٧٥٤/٤) رقم الحديث ٢٨٨٩.

(٣) صحيح مسلم (٥٨/١) حديث رقم ٢٢. والمراد بالناس في الحديث كما ذكر الخطابي هم أهل الأوثان، دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥٦/٢).

مُسْتَقِيمٍ دِينًا فِيمَا نَزَّلَهُ لِإِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣]، وقوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١٦٤﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الزمر: ١١ - ١٢] وفي الآية أول من أسلم؛ هو الإسلام الخاص الذي جاء به القرآن وهو زائد عما جاء به الرسل من قبل؛ بما فيه من الوضوح والبيان والسماحة. والأول: كناية عن الأقوى والأمكن في الإسلام؛ لأن الأول في كل عمل هو الأحرص عليه والأعلق به، والأولوية تستلزم الحرص والقوة في العمل ولأن من أحب شيئاً أسرع إليه فجاءه أول الناس، وفي الرتبة بالنسبة إلى من تقدمه من الأنبياء وغيرهم؛ لأن جميع الأنبياء قبله كانت دعوتهم إلى الإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الأبدية، ولا تزال قائمة منصوره، وأعلامها مشهورة إلى قيام الساعة<sup>(١)</sup>.

وكونه ﷺ هو الأول على سبيل الإطلاق في الزمان، فإن الإسلام الذي جاء به هو الأول والأرفع والأظهر على كل ما سبقه من الأديان، وإلا لما حاز المصطفى ﷺ هذه الرتبة التي لا يكون فوقها أحد سواه ﷺ. ولقد أمر بأن يعلن إسلامه أمام العالمين معتزلاً به، مُعلنًا رفضه لكل المساومات التي تعرض عليه للتنازل عن هذا الدين؛ لأنه أرسل بدين الحق ليظهره على الدين كله، قضية واحدة محددة، لا تقبل ليناً ولا تميحاً. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [غافر: ٦٦]، حيث ورد في سبب نزولها عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة<sup>(٢)</sup> قالوا: «يا محمد ارجع

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/٢٤٢)، القرآن العظيم لابن كثير (٣/٣٨٠)، نظم الدرر للبقاعي (٢/٧٥٣)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/١٥٩)، (٨/٢٠٠).

(٢) هو شيبة بن ربيعة بن عبد شمس: من زعماء قريش في الجاهلية. أدرك الإسلام، وقتل على الوثنية وهو من الذين جعلوا دأبهم في أيام موسم الحج أن يصدوا الناس عن النبي ﷺ ولما كانت وقعة بدر، حضرها شيبة مع مشركيهم، ونحر الذبائح لإطعام رجالهم، وقتل فيها. انظر: الأعلام للزركلي (٣/١٨١).

عما تقول، وعليك بدين آبائك وأجدادك». فأنزل الله الآية<sup>(١)</sup>.

- أهل الإسلام هم صفوة الله وخيرته وأحسن خلقه:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، فقد أثنى الله ﷻ على المسلمين الذين افتخروا بالإسلام واعتزوا به، والاعتزاز به عمل صالح، لكنه خص بالذكر لأنه أريد به غيظ الكافرين. وهذه المرتبة تمامها للصديقين الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم وحصلت لهم الورثة التامة من الرسل، وليس المعنى أنه تكلم بهذا بل جعل الإسلام معتقده، لا يخاف في الله لوم لائم، وإن سماه أبناء زمانه جافياً غليظاً.

عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا...﴾ إلى نهايتها فقال: «هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته، وقال: إنني من المسلمين».

إنه الأمر بإعلان القضية المهمة والأولى في حياة الإنسان أمام الملائكة بكل صراحة ووضوح وعزة. إنها القضية التي لا ترتضي أنصاف الحلول. والاعتزاز بالدين مهم لأنه لا ينبع إلا من صدق الاعتقاد وصدق الرضى، وصدق المحبة. إن الاعتزاز بما يؤمن به الإنسان على أرض الواقع وأمام المعارضين له إنما هو في الواقع الصفحة المقروءة، والمرأة الصادقة للعقيدة التي يحملها صاحبها، والتي تظهر من خلال أقواله وأعماله مع كل من حوله وما حوله؛ إنه بذلك يحوز مرتبة الصفوة بعد الأنبياء والمرسلين.

إنه الأمر الإلهي لهذه الأمة الخيرة للتمسك بالإسلام. قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وهي نفس الوصية التي وصى بها إبراهيم ويعقوب ﷺ أبناءهما. قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ولكنها الآن من الله ﷻ؛ مما يعطيها ظلالاً من

(١) لباب القول في أسباب النزول للسيوطي ص ٢٥٧.

العظمة، ويتطلب من المخاطبين بها قوة في الأخذ والتمسك. إنه النهي عن مفارقة الإسلام سائر أحيان الحياة، والوصية بالمحافظة على الإسلام حال الصحة والسلامة، ليموت عليه صاحبه؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه، فمن أراد ألا يموت إلا مسلماً فعليه أن يلتزم بالإسلام في كافة أحواله. تلك هي تكاليف الاصطفاء لمن خصهم الله ﷺ بهذه الأمانة.

لقد خص الله ﷺ الإسلام بمعناه الخاص بأمور لم يشاركه فيها غيره من بقية الأديان السابقة، وهذا ما بينته الآيات السابقة ويمكن تلخيصها في الآتي:

### ١ - القبول:

إنَّ الله ﷻ لن يقبل سوى الدين الإسلامي بمعناه الخاص، وفي قبول الشيء على غيره ورفض ما سواه، بل ومعاقبة الطالب لغيره بالخسران الدائم، يدل دلالة صريحة على اصطفائه وحده دونما سواه من بقية الشرائع؛ حيث إنَّ شريعته هي الخاتمة، والباقية إلى قيام الساعة، والمنزلة إلى الناس كافة.

### ٢ و ٣ و ٤ - الإكمال والإتمام والرضا:

إنَّ الله ﷻ ارتضى هذا الدين، والرضا بالشيء اختياره واصطفاه على نظائره. ولقد ارتضاه الله في صورته الأخيرة عندما أنزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِيْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] على رسوله ﷺ بعد أن بلغ من الكمال منتهاها، فلم تند عنه من حياة الناس لا صغيرة ولا كبيرة، فقد بلغ من الشمول ما جعله يستوعب الزمن كله. إنها رسالة الماضي والمستقبل، والحياة كلها، والإنسان كله، حيث شملت روحه وعقله وجسمه وأفكاره، كما شملت جميع مراحل حياته ووجوده. إنها الرسالة التي تخاطب كل الأمم والأجناس. لقد رضي الله لنا الدين ونحن رضيناه لأنفسنا؛ رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

### ٥ - التمكين:

إن الله قضى بحكمه الذي لا رادَّ له أن يمكِّن لهذا الدين بكل ما تعنيه كلمة التمكين من دلالات واسعة؛ لقد كتب الله له التمكين في القلوب

والنفوس، مكن في القلوب لأنه تعامل مع الفطرة، فهو الدين القادر على إتيان النفوس من أبوابها الطبيعية والتغلغل فيها عن طريق مؤثراتها الفطرية التي لا تجد النفس السويّة مناصاً من التسليم والاستجابة لها.

كما أن من تمكين الله لدينه أنه جعل فيه قوة ذاتية ومناعة في ذاته ضد الزوال، وهذا ثابت بالنصوص بالتاريخ الذي مرّ به الإسلام، فهو الإسلام بثباته في أصوله وأهدافه، حيث يستعصي على الذوبان والميوعة والخضوع لأي اعتداء أو تبديل. وهذه هي سنة الله في دينه المصطفى الذي كُتب له البقاء إلى قيام الساعة.

ونذكر بعضاً من المقالات التي أوردها الدكتور عماد الدين خليل في كتابه «قالوا عن الإسلام»، من باب الاستثناس:

أ - «الواقع أنه ليس من دين من أديان العالم البشري حافظ على جوهره وقاعدة تعاليمه كالدين الإسلامي، وهذا ما يمتاز به الإسلام عن الديانتين اليهودية والمسيحية».

ب - «إن الإسلام دين حي، حي في قلوب أتباعه ومريديه. وهو دين كلما تقدمت به الأيام زادت حيويته، وقوي أمره وتبسط سلطانه وفشت دعوته، ولولا ذلك لما أمكنه أن يعيش وأن يظل محتفظاً بقوته وتأثيره وحب أتباعه له»<sup>(١)</sup>.

## ٦ و ٧ - الظهور والانتشار:

إن الله ﷻ كتب لهذا الدين أن يظهر ويعلو ويرتفع على سائر الأديان؛ فقد نسخ به جميع الأديان السابقة، وحفظ أصوله ومصادره فلم تصب بتحريف، كما حكم له بالزيادة والغلبة والإقبال، والانتشار والاتساع. وإن الناظر اليوم في حال الإسلام وانتشاره في أماكن نائية بعيدة لا تدين حكوماتها بالإسلام، يجد الإسلام هناك في قراها النائية يدين أفرادها به؛ إنه ينبت مباركاً في كل بقعة من بقاع الأرض، بما وضع فيه الله من قوة ذاتية تكمن فيه

(١) نقلاً عن كتاب قالوا عن الإسلام للدكتور عماد الدين خليل الصفحات (٢٠١) - (٢٢٤ - ٤٦٨).



وفي جوهر عقيدته، وإن ظن أعداؤه أنهم قد استأصلوه. إنها رسالة ممتدة ما دامت البشرية تواصل حياتها على هذا الكوكب؛ لأنه الدين المؤهل لإنارة الطريق أمام الإنسان وقيادته نحو الخير والصلاح. ولا بد من التنبيه على أن هناك كثيراً من المبادئ والمذاهب والتيارات ظهرت وانتشرت في فترة زمنية ولكنها زالت بعد ذلك وإن طالت فترة بقائها؛ لأن البقاء من خصائص الإسلام وحده.

## ٨ و ٩ - البقاء والارتقاء:

لقد اختصَّ الله ﷻ الدين الإسلامي بمزية مزدوجة وهي البقاء لهذا الدين حتى قيام الساعة، وهذا إنما تحقق بتولي الله القوي لحفظ أصوله من التحريف والضياع؛ فكان باقياً ببقائها وحفظها. وخص كذلك بمزية الإرتقاء؛ فهو بمشروعية الاجتهاد الصحيح المستند إلى القواعد السليمة أعطى هذا الدين القدرة على الارتقاء، والمرونة مع سير الزمان، فلبى بذلك جميع حاجات الإنسانية في كل زمان، وسوف يلبيها حتى قيام الساعة، وذلك بما خص به من مزية البقاء في أصوله والارتقاء في فروعه.

وخلاصة القول: إنَّ المسلمين الذين اختاروا الإسلام والتزموا به في حياتهم، قد تحروا الصواب. قال الله ﷻ في كتابه الكريم على لسان الجن: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا أَلْقَسُطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤] فهم المسلمون الذين أسلموا بالله ورسوله، ووقعوا في الإسلام كله، بأن أسلموا ظاهرهم وباطنهم، للدليل من الجن وغيرهم؛ فأولئك العالو الرتبة توخوا وقصدوا مجتهدين الصواب والسداد، وفي ذلك إيماء لطيفة بليغة المدلول فالمسلم عادل مصلح، يقابله القاسط الجائر المفسد. والتعبير بلفظ «تحروا» يوحي بأن الاهتداء إلى الإسلام معناه الدقة في طلب الرشد والدقة في تحري الصواب واختياره عن معرفة وقصد بعد تبين ووضوح، وليس هو خبط عشواء ولا انسياق بغير إدراك، ومعناه أنهم وصلوا فعلاً إلى الصواب حين اختاروا الإسلام<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٨/١٩١)، في ظلال القرآن لسيد قطب (٦/٣٧٣٣).

ولقد جعلَ اللهُ ﷻ علامةَ سعادةِ العبدِ ودلالةَ توفيقه، انشراح صدره لقبول الإسلام، وقبوله لأحكامه وتسليمه لها، قال اللهُ ﷻ في كتابه الكريم: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وعليه فمن يرد اللهُ أن يهديه للإيمان به، وبرسوله، وما جاء به من عند ربه وفقه له، وفسح صدره لذلك، وهونه عليه وسهله له بلطفه ومعونته، حتى يستنير الإسلام في قلبه فيضيء له، ويجعل لنفسه ولعقله استعداداً وقبولاً لتحصيل الإسلام، ويوطنه لذلك حتى يسكن إليه ويرضى به، وإذا حل نور التوفيق في القلب كان كالمتسع؛ لأن الأنوار توسع مناظر الأشياء<sup>(١)</sup>.



(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٣٥/٥)، التحرير والتنوير لابن عاشور

(٥٨/٨).

## المبحث الثاني

### اصطفاء الكتاب (القرآن)

- ويشتمل على ثلاثة مطالب:
- المطلب الأول: اصطفاء القرآن الكريم.
  - المطلب الثاني: اصطفاء الذكر.
  - المطلب الثالث: اصطفاء اللغة العربية.

## اصطفاء القرآن الكريم

عندما ازدان المكان ببناء بيت الله ﷺ في أرض البشرية، وصفا الزمان بولادة خير البرية ﷺ، تهيأت السماوات بالحرس الشديد والشهب، واحترارت الجنُّ أشرُّ أريدَ بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم الرشد! وتطلَّعت أعين أهل الكتاب، وخفقت قلوبهم إلى النبيِّ المرتقب، وتساءل الدجال: أو قد بُعث؟ عندما أضاءت الأنوار، وأشرقت العربية بارتداء أرقى الحلل، ووصل التاريخ إلى خير القرون، وحطَّ رحاله في خير البقاع، عندما تهيَّأت كل تلك الظروف، واستعدَّ الكون لاستقبال الحدث العظيم، قام نافضاً عنه غبار الآلام، ووَحْشَةَ الظلام، عندها فقط كان ﴿أَقْرَأُ﴾ كتاباً لا يغسله الماء، محفوظاً في الصدور قبل السطور، ولو كان كتاباً غيره سيرت به الجبال، وقطعت به الأرض جناحاً وأنهاراً، وكُلِّمت به الموتى في قبورها، لكان هذا الكتاب العظيم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَلَمْ يَأْتِصِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ [الرعد: ٣١].

كتاب نوره لا يُطفأ وتأثيره لا يُغلب، لا يقف أمامه الأعداء مهما بلغوا، من فرط خوفهم من جماله الأخاذ، وتأثيره الغلاب، توأصوا عدم السماع: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوَىٰ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ [فصلت: ٢٦]؛ لعلمهم بضعف نفوسهم عن الميل له، وقلوبهم عن الانجذاب إليه، وعقولهم عن التأكيد على علوه. وقد فضح القرآن أحوالهم، فما بين مادم له سراً، ومتسلل خفية ليستمتع بروعته، وما بين ساجد عند تلاوته. لقد امتدحه ألد أعدائه بوصفٍ سجله التاريخ في

صفحاته، وشهادة الأعداء تدل على تأثيره فيهم؛ قال الوليد بن المغيرة:  
ووالله إنَّ لقوله لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّه لمنير أعلاه مشرق أسفله،  
وإنَّه ليعلو وما يُعلَى عليه وإنَّه لِيَحْطُم ما تحته<sup>(١)</sup>.

والقرآن الكريم عند أهل السنة والجماعة: هو كلامُ الله ﷻ، منزَّل غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود. معنى إليه يعود إما:

أ - أنه يسرى عليه في ليلة فيصبح الناس ليس بين أيديهم قرآن؛ لا في صدورهم ولا في مصاحفهم يرفعه الله ﷻ، وهذا عندما يعرض عنه الناس إعراضاً كلياً، لا يتلونه لفظاً ولا يكون عقيدة ولا يعملون به عملاً، فيرفع لأنه أشرف من أن يبقى بين يدي أناس هجروه وأعرضوا عنه فلا يقدرونه حق قدره.

ب - أو أنه يعود إلى الله ﷻ وصفاً، فلا يوصف به أحد سواه، فيكون المتكلم بالقرآن هو الله ﷻ، وهو الموصوف به، وهو دال على كمال ربوبيته؛ لأن فيه كمال رحمته، قال ﷻ: ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [فصلت: ٢]، فالقرآن رحمة للعباد، وربوبية الله ﷻ مبنية على الرحمة<sup>(٢)</sup>، وهو وصية المصطفى ﷺ للأمة المحمدية. عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى حُمًا. بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. وَوَعَّظَ وَذَكَرَ. ثُمَّ قَالَ: (أَمَّا بَعْدُ. أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ! فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأَجِيبُ. وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورَ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ) فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ... الحديث<sup>(٣)</sup>.

### خصائص القرآن الكريم:

لقد اصطفى الله ﷻ القرآن، وخصَّه بخصائص انفراد بها عن بقية الكتب الإلهية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الآتي:

(١) انظر: لباب القول في أسباب النزول للسيوطي ص ٣١٩.

(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد العثيمين (١/٤٢٧).

(٣) صحيح مسلم (٤/١٤٩٢) حديث رقم ٢٤٠٨.

## الخاصية الأولى: معجزة باقية على مر الدهور محفوظة من التغيير والتبديل:

لقد هياً الله ﷻ لحفظ كتابه وسائل عديدة منها: أن الله ﷻ تولى حفظه بنفسه. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، فحُصَّ القرآن بخصيصة عظيمة لم ينل شرفها أيُّ من الكتب السماوية السابقة، وهي أن الله ﷻ تولى مهمة حفظه، ولم يعهد بها لأحد سواه، لذلك بقي محفوظاً إلى الأبد، محروساً من الزيادة والنقصان، ومحموظاً من استراق الشياطين، كما حُفظ من المُعَارِضة، وفي هذا مظهر من مظاهر تكريم الله ﷻ لهذه الأمة وتفضيله لها، إذ تكفل بحفظ كتابها، كما أنه مظهر من مظاهر فضل القرآن على سائر كتب الله السابقة. وقد شهد بذلك الأعداء، فإن أقوالهم عن القرآن، وإن كانت ليست هي المعتمدة لكنها تُحرِّك قلوبنا حُزناً على وضع أبناء الأمة الإسلامية الذين فطن غيرهم إلى ما يجب أن يفتنوا إليه، وأن يبرمجوا عليه كافة أمور حياتهم. فهو حبل الله المتين، وطريقه المستقيم؛ يقول المستشرق لوبلوا: «إن القرآن هو الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر». كما تقول الدكتورة لورا فيشيا فاغلييري: «الكتاب العزيز الذي لم يحرفه قط لا أصدقاؤه ولا أعداؤه، لا المثقفون ولا الأميون، ذلك الكتاب الذي لا يبليه الزمان، ولا يزال إلى يومه كعهده يوم أوحى الله به إلى الرسول الأمي البسيط آخر الأنبياء. إلى هذا المصدر الصافي، دون غيره، سيرجع المسلمون، حتى إذا نهلوا مباشرة من معين هذا الكتاب المقدس فعندئذ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب»<sup>(١)</sup>.

ومن الوسائل التي اختارها الله ﷻ لحفظ كتابه العزيز اختيار تهيئة أفضل البشرية لحمل القرآن الكريم وتبليغه؛ فلقد اصطفى الله ﷻ الرسول محمد بن عبد الله أطهر البشرية قلباً، وأسماهم روحاً، وأعلاهم خلقاً، وأزكاهم نفساً، وأشرفهم نسباً، ليكون محلاً لكتابه العظيم، ثم هيأه بالكثير من أنواع التهيئة الخاصة في صغره وكبره<sup>(٢)</sup>، فَعَنَ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ

(١) نقلاً عن كتاب خصائص الدعوة الإسلامية، لمحمد أمين حسن ص ٤٣ - ٤٤.

(٢) سنتعرض لهذه التهيئة التي أولاها الله لنبيه في مبحث اصطفاء الرسول ﷺ إن شاء الله ﷻ في الباب الثاني الفصل الثاني.

الْمَجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي حُطْبَتِهِ: (... وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَلِأَبْتَلِي بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرُؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانِ)<sup>(١)</sup>، ولا يغسله الماء معناه: محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على مر الأزمان محفوظاً للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حالتَي النوم واليقظة، وقيل المعنى: إِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأه بيسر وسهولة<sup>(٢)</sup>، حفظه في قلب النبي الأمي الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة فإذا به أعظم المعلمين، وشيخ القراء والمفسرين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كما اصطفى الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحفظ كتابه الكريم أمة لها من الخصائص والمميزات الشيء الكثير<sup>(٣)</sup>، أهمها أنها أمة قوية الحافظة تشهد لها بذلك أسواقها الأدبية التي كانت تقيمها في كل عام، ولا يذكر أن هناك أية حضارة كانت تقام فيها مثل تلك الأسواق الأدبية التي تميّزوا فيها بسرعة البديهة، وجمال الأدب، وروعة البلاغة، وحسن التأليف، وقوة الحافظة، فالحمد لله الذي حفظ لهم مواهبهم الفريدة ونمّأها لهم بنزول ما هو أحق بالاهتمام والحفظ، فكانت صفحات قلوبهم بيضاء صافية جلية، وصفحات عقولهم لم يدنسها أي نوع من الفلسفة والعلوم الكلامية وغيرها، بل كانوا بسطاء على وجه البسيطة، لهم آذانٌ جليةٌ دقيقةٌ حاكمةٌ على جوهر الكلام ورزاقته؛ فقد كانوا الأدباء والشعراء والكتّاب والحكام والنقاد في آن واحد، وعندما نزل فيهم كتاب الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهد بذلك كفارهم، وآمن بذلك من أسلم منهم فتلقوا القرآن تلقي الشغوف المحب المدرك لعظمته المتذوق لحلاوته حتى استقر في صميم قلوبهم وأصبح منهج حياتهم.

ولقد اصطفى الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير البشر بعد الأنبياء والرسول لإرث هذا الكتاب العظيم - صحابة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكُتُبَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ

(١) صحيح مسلم (١٧٤١/٤) رقم ٢٨٦٥.

(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٩٥/١٧).

(٣) سيفرد الباب الثالث - إن شاء الله - للحديث عن الأمة المسلمة وخصائصها.

عِبَادَنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي اللَّهَ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٦﴾ [فاطر: ٢٦]، يحفظونه في صدورهم، ويحرسونه بأبصارهم وبصائرهم، ويخدمونه بقلوبهم، ويفدونه بأرواحهم، وفي مقدمة تلك الكوكبة الإيمانية المتألقة صحابة الرسول ﷺ الذين لم يشهد لهم التاريخ مثيلاً، والذين كان لهم الفضل بعد الله ﷻ ورسوله ﷺ في المحافظة على القرآن الكريم، باقتراح الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، الذي أعزَّ الله به الإسلام والمسلمين، وجزاه عن الأمة الإسلامية خير الجزاء؛ فقد أفرغه موت القراء والحفاظ وهم يؤدون دورهم الباسل في الجهاد ويقدمون أرواحهم رخيصة في سبيل إعلاء كلمة الله فعزم الفاروق ﷺ على جمع القرآن الكريم، ووافقه الخليفة الصديق ﷺ الذي قام بخبرته وحنكته باختيار الصحابي الكفاء، للقيام بهذا الدور، فوقع اختياره على زيد بن ثابت ﷺ.

ولقد اختار الخليفة الصديق ﷺ من وسائل التثبيت، وشروط الجمع والتدوين، أدقها وأعظمها بصورة لم يشهدها التاريخ في التوثيق والتثبيت. ويكفي في ذلك أنه أمر الفاروق ﷺ بشدته وهيبته أن يجلس عند باب المسجد هو وزيد بن ثابت ﷺ ليتقدَّم إليهما كل من يحفظ شيئاً من القرآن الكريم، وأن يكون معه شاهد على ما يحفظ حتى تمَّ جَمْعُ القرآن الكريم كله، آية آية، وسورة سورة، بطريقة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، حيث تحركت مدينة كاملة بعد قرار رشيد صادر من قيادتها للقيام بهذه المهمة السامية التي قام بها فرسان مدرسة النبوة الشريفة، يتسارعون للإدلاء بما لديهم والمشاركة في ذلك حتى جمع القرآن كاملاً لهذه الأمة المباركة المصطفاة في مكان واحد، ثم تمَّ له الجمع الثاني على مصحف واحد، في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ بإجماع الصحابة كلهم على ذلك، خوفاً من اختلاف المسلمين في كتابهم كما اختلفت اليهود في ذلك، فكتبت مصاحف على عدد الأمصار وأرسل الخليفة إلى كل مصر قرآناً ومعه من يُقرئه، وأمر بحرق جميع المصاحف دونه؛ فجمعت الأمة على مصحف واحد، وحفظ القرآن من الاختلاف في ألفاظه ومعانيه ومبانيه.

ومن أعظم ما هيا الله لقرآته من وسائل الحفظ تواتر نقله، واتصال سنده،



فلا يوجد على وجه الأرض كتاب تصح نسبه إلى الله ﷻ سوى القرآن الكريم ولا يوجد علم من العلوم اشترط في نقله المشافهة إلا القرآن الكريم، وهي خصيصة تألفت بين الكثير من الخصائص التي انفرد بها القرآن عن بقية الرسالات؛ فالقرآن منذ أن نزل على الرسول ﷺ وتلقاه سماعاً من جبريل عليه السلام، وحتى وقتنا الحاضر، تناقلته الأفواه متعلماً عن عالم، وهو الكتاب الوحيد الذي لا يصح تناقله إلا بهذه الطريقة العظيمة التي ضمنت حفظه، وخصص له علم عظيم يسمّى «علم القراءات»، الذي حفظ لنا القرآن الكريم غصاً طرياً كما نزل.

وكان الاعتماد في نقل القرآن الكريم على حفظ القلوب والصدور، لا على حفظ المصاحف والسطور فقط، وهذه خصيصة تشرفت بها الأمة المسلمة عن غيرها من الأمم، فقد أخبر الله أنه سينزل على رسوله كتاباً لا يغسله الماء، محفوظاً في الصدور يقرؤونه في كل حال، كما ذكر من صفاتهم (أناجيلهم في صدورهم) ولقد خص الله ﷻ له أئمة ثقات تجردوا لتصحیحه، وبذلوا أنفسهم في إتقانه بعد أن تلقوه من النبي ﷺ حرفاً حرفاً، لم يهملوا منه حركة ولا سكوناً؛ فهو متواتر اللفظ في جميع الكلمات والحروف والأسلوب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَتْرَأَ الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر: ٢٢] وهذه وسيلة من وسائل الحفظ، فاليسر: هو السهولة وعدم الكلفة في تحصيل المطلوب من الشيء وإذا كان القرآن كلاماً فمعنى تيسيره يرجع إلى تيسير ما يراد من الكلام، من حيث معانيه وألفاظه؛ فمن جانب المعاني فيما تحتوي عليه من المقاصد التي سبقت لها، فقد سهّل الله ﷻ ويسّر على القارئ فهم المعاني التي عنها ﷻ بدون كلفة، ومن جانب الألفاظ بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات والتراكيب، بحيث يخف حفظها على الألسن، لذلك كان القرآن الكريم أسهل العلوم على الإطلاق حفظاً وتفسيراً<sup>(١)</sup>.

إنَّ الله ﷻ قد يسّر القرآن لقارئه وحافظه ومتدبّره، ولعلَّ الإعجاز ظاهرٌ في ذلك، فحُفَّظ القرآن من صغار السنّ وكباره، ومن العرب ومن العجم،

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٧/١٨٨).

ومن المتعلمين والأميين، ومن أهل العلوم الشرعية، ومن غيرهم، من المبصرين وغيرهم، حتى أصحاب الإعاقات الشديدة سهل الله ﷻ لهم حفظه، وهي معجزة كبيرة، تحققت من تيسير الله حفظ هذا الكتاب، يتعلمه القريب من ديار الحرمين والبعيد عنها، فقد فتح أبوابه واسعة لكل من طرقها، وعلى مساحات كبيرة، ولم يحدد شرطاً واحداً من التي يضعها أصحاب العلوم الأخرى، فهل من طالب له فيعان عليه؟ لقد سهل الله ﷻ قراءته، ويسرها على الألسن، ولولا ذلك ما استطاع أحد أن يتكلم به وأن يتلوه.

### الخاصية الثانية: التصديق والهيمنة:

قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]. وقال ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧]، وقال ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلٌ لِّلْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧]، وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١]، قال ﷻ: ﴿قَالُوا يَنْفَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

والآيات السابقة في مجملها تبين أن الله ﷻ أنزل القرآن مُصَدِّقًا لكل ما أنزله من الكتب السماوية السابقة، مُصَدِّقًا لها في العقيدة، قال ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ومهيماً عليها، وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْمُهَيِّمُ: الْأَمِينُ، الْقُرْآنُ أَمِينٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ<sup>(١)</sup>، فَهُوَ أَمِينٌ وَشَاهِدٌ وَحَاكِمٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ. وَأَشَارَتِ الْآيَاتُ

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٩٧٨.

السابقة إلى حالتي القرآن بالنسبة لما قبله من الكتب، فهو مؤيد لبعض ما في الشرائع، مقرر له، ومبطل وناسخ لبعضها.

### الخاصية الثالثة: الحسن والجودة على الإطلاق:

قال ﷺ: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]، كما قال ﷺ: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بِغَتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٥]، كما قال ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٨١﴾﴾ [الزمر: ١٨]، قال شيخ الإسلام: «والمراد بالقول: القرآن الكريم كما فسره بذلك سلف الأمة»<sup>(١)</sup>، والقرآن كله حسن. فقد أنزل الله كتاباً منها التوراة والإنجيل والزيور، ثم أنزل القرآن الكريم، وأمر باتباعه، فهو الأحسن وهو المعجز؛ لأنه ناسخ قاض عليها كلها، وهي منسوخة به، إنه أكملها بياناً وأكثرها أحكاماً وأشملها بياناً، إذ هو الذي جاء بالشرعة الوافية لكل البشرية حتى قيام الساعة، فقد أثبتت فيه كل الأحكام النهائية الخالدة التي تصلح في كل زمان ومكان.

### الخاصية الرابعة: العالمية:

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، اصطفى الله كتابه الكريم، القرآن، آخر الكتب السماوية، وخصه بصفة لا تثبت لغيره نهائياً؛ فكل رسالة جاءت إلى قوم معينين، وفي زمن معين، لكن الرسالة الخاتمة شاء الله أن تكون باقية إلى قيام الساعة، وشاء أن تكون هي الناسخة لما قبلها من الشرائع، والعامّة للثقلين، لذلك أكسبها الله ﷻ صفة العالمية.

إنه كتاب الدين كله؛ فهو عمدة الملة، وروح الوجود الإسلامي، منه

(١) التفسير الكبير لابن تيمية (٢٩/٦).

تستمد العقيدة، وتؤخذ العبادة، وتلتبس الأخلاق، وتتوخى أصول التشريع والأحكام. وهو كتاب الزمن كله؛ ليس له فترة محددة ولا عصر معين إنه الرسالة الأخيرة. وهو كتاب الإنسانية كلها؛ فهو ليس لجنس دون جنس ولا للون دون آخر<sup>(١)</sup>.

لقد استمدَّ القرآن عالميته من عالمية الرسول ﷺ الذي أرسل للناس كافة؛ من يستظل بالخضراء ومن يستقل الغبراء. قال ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿سبأ: ٢٨﴾.

إنَّ القرآن العظيم مهما امتدَّ بنا الزمن، وتطوّرت إمكانات الإنسان وعلومه، يبقى هو المهيمن الذي له الإحاطة والاحتواء، وهو المؤهل الوحيد بين يدي كل فترة مطبقة وضلال عام، وظلام شامل، أن ينهض بالبشر من كبوتهم، وينقذ النوع الإنساني من جديد، ويعود بهم إلى القيم والمبادئ الحقّة بنضارة الحياة والقوة والتجديد، فهو موئل البشرية عند اشتداد الأزمات، والعروة الوثقى لدى انحلال المجتمعات، والنور الساطع المضيء إذا احتدمت أمواج الظلمات<sup>(٢)</sup>.

إن هذه الخاصية للقرآن الكريم تعطي لأهله التميّز الكامل، الذي لا يصلح معه الانخراط أو الذوبان مع غيرهم في العقيدة والتشريع والأخلاق والسلوك، كما يحتمُّ على أهله المؤمنين به تحكيمه في كل أمور حياتهم كبيرها وصغيرها، ويقلدهم دوراً مهماً وهو تطبيق هذا الشرع في الأرض كلها. إنها ليست قضية هامشية، إنها قضية أسّ لا يملك فيها المسلمون حق الاختيار أو التفكير، إنها الاستسلام الحق لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك، وتطبيقه واقعاً حياً في الحياة، وتبليغه إلى الضعفاء من الناس الذين لا يحملون حقداً على الإسلام ولا المسلمين، وإجبار الطواغيت الكفرة لزوم تطبيقه على من تحت أيديهم من خلق الله عملاً بالكتاب والسنة ورفعاً لراية الجهاد وإعلاناً صريحاً لقيمه الثابتة؛ التي من أهمها إخراج العباد من عبادة

(١) انظر: كيف نتعامل مع القرآن للدكتور يوسف القرضاوي ص ٤٩.

(٢) انظر: الإسلام والرتق الحضاري للدكتور عبد الرحمن العيسى ص ٢٠ وما بعدها باختصار.

العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. إنها مسؤولية تقلدها المسلمون، وبهذا المقياس الجلي وهذا الميزان الحساس تستطيع أمة القرآن أن تقرر الحدود والمجالات التي يمكنها أن تنخرط فيها مع المجتمعات غير المسلمة في عصر العولمة.

#### الخاصية الخامسة: مخالفته للمعجزات في طبيعته:

فهو وحي أوحاه الله إلى محمد ﷺ، أما بقية المعجزات فكانت معجزات حسية، قال الرسول ﷺ: (مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)<sup>(١)</sup>، وليس المقصود حصر معجزاته ﷺ في القرآن، بل المقصود أن هذا القرآن الذي خص به دون غيره، ليس له مثل، لا صورة ولا حقيقة، بخلاف غيره من المعجزات فإنها لا تخلو من مثل ذلك، كذلك لا يتطرق إليه تخيل فلا يقدر أحد أن يأتي بما يتخيل من التشبيه به، بخلاف غيره فإنه قد يقع في معجزاتهم ما يقدر الساحر أن يخيل شبهه فيحتاج من يميز بينهما إلى نظر، والنظر عرضة للخطأ.

وقيل: المراد إنَّ معجزات الأنبياء انقضت بانقراض عصورهم، فلم يشاهدها إلا مَنْ حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة.

وقيل: إنَّ المعجزات الماضية كانت حسية بالأبصار ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة؛ لأن ما يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض المشاهدة، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً.

وكل المعاني السابقة صحيحة بالنسبة للقرآن الكريم، لذلك رتب الرسول ﷺ على ما تقدم من معجزة القرآن أن يكون أكثرهم تبعاً لكثرة فائدة القرآن وعموم نفعه، فعَمَّ نفعه من حضر ومن غاب، ومن وجد ومن سوجد، وقد تحققت رجوى الرسول ﷺ؛ فإنه أكثر الأنبياء تبعاً<sup>(٢)</sup>.

قال الله ﷻ: ﴿أَوْلَمَ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِيَّاكَ فِي

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٩٨١.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (٨/٩).

ذَلِكَ لَرَحْمَةٍ وَذِكْرٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ [العنكبوت: ٥١]، ومما ترتب على هذه الخاصية سرعة انتشار القرآن الكريم في الآفاق والأزمان، بحيث لم يختص بإدراك إعجازه فريق خاص في زمن خاص.

وكونه مما يتلى فهو أرفع من المعجزات المرئية؛ لأن إدراك المتلو إدراكاً عقلياً أعلى من المدركات الحسية؛ وبذا يستطيع إدراك خصائصه<sup>(١)</sup>.

#### الخاصية السادسة: الخلود والبقاء:

إنَّ السبب الوحيد والرئيس لخلود القرآن وبقائه؛ أنه صفة الله، وصفة الشيء باقية ببقائه، دائمة بديموميته، والله ﷻ حي لا يموت، قال ﷻ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، آل عمران: ٢]، وقال ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبيراً﴾ ﴿٥٨﴾ [الفرقان: ٥٨]، إنَّ القرآن الكريم هو كلام الله ﷻ لفظاً ومعنى، وكلامه صفة من صفاته القائمة به.

فقد اختار الله ﷻ أن تكون معجزة الإسلام شيئاً يصلح للبقاء فكانت كلاماً يتلى في أذن الدهر، وحديثاً يُقرأ على سماع الزمان.

إن القرآن الكريم هو كتاب الخلود، ليس لعصر معين أو لجيل أو أجيال، ثم ينتهي أمره، بل هو باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وعلى المسلم أن يقرأ القرآن بهذه الروح، فلا ينبغي أن يفرض عليه ثقافة عصر معين، أو نحمله قسراً على أفكار جيل خاص، فما تضمنه من تعاليم دائمة باقية، ما دامت الحياة وبقي المكلفون<sup>(٢)</sup>.

لقد أثار القرآن بالإيمان قلوب الكبار والصغار من أمة محمد ﷺ، وبثه روحاً عاماً؛ فهذا القرآن هو وحده سر نهضتهم، ونور هدايتهم، والروح الساري لإحياء العالم بدعوته، عن طريق أسلوبه المعجز الذي كسب النفوس والمشاعر، وملك القلوب والعقول، وكان له من السلطان ما جعل أعداءه - منذ نزوله إلى اليوم - يخشون بأسه وصورته، ويخافون تأثيره وعمله أكثر مما

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٤/٢١)، تفسير الكريم الرحمن للسعدي (٩٨/٦).

(٢) انظر كيف نتعامل مع القرآن الكريم د. يوسف القرضاوي ص ٦٣.

يخافون الجيوش الفاتحة والحروب الجائحة<sup>(١)</sup>.

### الخاصية السابعة: انفراده في طريقة نزوله:

امتاز القرآن عن بقية الرسالات السماوية في طريقة نزوله وعدد مراتها؛ فقد نزل منجّماً على مدار ثلاثة وعشرين عاماً، حسب الوقائع والأحوال والمناسبات، بينما نزلت الرسالات السابقة؛ جملة واحدة، وقد كان ذلك محطّ تساؤل معيب للكفار فقالوا: لِمَ لَمْ يَنْزِلِ الْقُرْآنُ جَمَلَةً وَاحِدَةً؟ وَعَدُّوا ذَلِكَ مِنْ عِيُوبِ هَذَا الْكِتَابِ وَمِنْ أَوْجِهِ النِّقْصِ الَّتِي فِيهِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢]، فَأَبَانَ اللَّهُ ﷻ سِرَّ ذَلِكَ وَحِكْمَتَهُ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكَبِّ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ولم يدروا أن في ذلك تثبيتاً لقلب المصطفى ﷺ، وتسلياً له، ورحمة بأفراد الأمة المسلمة؛ لتسهيل حفظه، وتثبيت العقيدة في صدورهم، ليسهل عليهم بعد ذلك تطبيق الحلال والحرام، ولو نزل أول ما نزل الحلال والحرام ما امتثل الناس لذلك. فلله الحمد وله المنة على رحمته بعباده، واختيار الخير لهم وما يصلح لهم، وما يصلحهم؛ فهو خالقهم والعالم بنفوسهم قال ﷻ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وكما خصّ القرآن عن بقية الكتب في عدد مرات نزوله؛ فقد تميز بأن له نزولين:

أولهما: نزوله جملة واحدة - وفي هذا مشاركة له بقية الكتب في طريقة نزولها - منزل من اللوح المحفوظ في السماء السابعة جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا.

ثانيهما: نزوله منجّماً على الرسول ﷺ حسب الوقائع والأحداث والمناسبات.

ويظهر لنزول القرآن جملة واحدة حكمٌ عديدة:

١ - تعظيم شأن القرآن وتفخيم أمره.

(١) انظر: مناهل العرفان للزرقاني ص ٣٦١، ص ٤٣٥ - ٤٣٦.

- ٢ - تعظيم شأن الرسول ﷺ وتشريفه وتفضيله .  
 ٣ - تكريم أمة محمد ﷺ وتعريف الملائكة بفضلها ومكانتها .  
 ٤ - إعلام أهل السماوات أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الأنبياء<sup>(١)</sup> .

### الخاصية الثامنة: تعدد أسماء القرآن وأوصافه:

- إن أسماء القرآن الكريم وصفاته لا يمكن حصرها . ولقد أسهبت كتب كثيرة في الحديث عنها<sup>(٢)</sup> . وكثرة الأسماء إنما تدل على عظم المسمى، واتساع دلالاته ووفرة معانيه .

قال الفيروزآبادي رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدتها وصعوبتها، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايته؛ وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي ﷺ دلت على علو رتبته وسمو درجته، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه وفضيلته»<sup>(٣)</sup> .

ومن أسمائه التي استمدها العلماء من القرآن نفسه:

- القرآن: لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة: ٧٧] وروعي في تسميته قرآناً كونه متلوّاً بالألسن .

- الكتاب: قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢] وروعي في تسميته كتاباً كونه مُدَوَّنًا بالأقلام .

وفي تسميته بهذين الاسمين (القرآن والكتاب) إشارة إلى أن من حقّه

(١) دراسات في علوم القرآن للدكتور فهد الرومي، ص ٥٨ وما بعدها باختصار .  
 (٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/١٦٤)، لمحات في علوم القرآن للصباغ ص ٣٦، البيان في علوم القرآن للدكتور سليمان القرعاوي، ود. محمد الحسن ص ٢٠، خصائص القرآن الكريم للدكتور فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن للدكتور فهد الرومي ص ٢٥، الثقافة الإسلامية للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني وآخرين ص ٩، مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ص ١٧، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ١٧ .

(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (١/٨٨) .



العناية بحفظه في موضعين: في الصدور والسطور. وكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه.

- الذكر: قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

- الفرقان: قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

- النور: قال تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [النبا: ٨].

وبين أسماء القرآن الكريم الكثيرة اشتراكٌ وامتيازٌ؛ فهي تشترك في دلالتها على ذات واحدة هي القرآن الكريم نفسه، ويمتاز كل واحد منها بدلالته على معنى خاص؛ فكلُّ اسم للقرآن يدل على حصول معناه فيه، فتسميته بالهدى يدلُّ على أنَّ الهداية فيه، وتسميته بالتذكرة يدل على أن فيه ذكرى<sup>(١)</sup>.

ولقد وُصف القرآن الكريم بالكثير من الصفات التي دلت على تميزه وعلو شأنه واصطفاء الله ﷻ له من بين سائر الكلام نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الصفات الآتية:

أولاً: عليٌّ حكيم:

إن قيمة الشيء إنما تُقدَّر بقيمة صاحبه، وبمن أعلاه ورفعه، فهل هناك أعلى وأجل من الله ﷻ؟ فإن كان القرآن علياً عنده، فأى درجة بلغ من العلا ورفعة الشأن والمكانة! فهو عليٌّ في قدره، وشرفه، ومحلّه، حكيمٌ فيما يشتمل عليه من الأوامر، والنواهي، والأخبار، قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّكُمْ فِي أَرْأْسِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، فكان القرآن ذو الشرف والمكانة، الرفيع المقام والمنزلة، مشتملاً على أعلى المعاني النافعة لصالح الناس؛ فكل من طلب مقصوده وجده، وكل من لاذ به أغناه، كيف لا وهو كلام رب العزة والجلال! لذلك فهو أحق ما يفرح به الناس، قال ﷻ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقتادة رحمهما الله: فضله الإسلام ورحمته القرآن، والصواب أن كلاً منهما فيه الوصفان، والله إنما رفع من رفع بالكتاب والإيمان، وأغنانا الله بالفرح

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤٩٤/٢٠).

بفضله ورحمته، وهما القرآن والإيمان، عن الفرح بما يجمعه أهل الدنيا<sup>(١)</sup>.  
ثانياً: قرآن كريم:

والكريم هو من كل شيء أحسنه، ووصف الله ﷻ كلامه بالكريم يقتضي حسن القرآن، وكثرة خيره ومنافعه، وجلالته، وفي ذلك تفضيل له على أفراد نوعه، بأنه فاقها في استيفاء أغراض الدين، وأحوال المعاش والمعاد، وإثبات المعتقدات بدلائل التكوين، والإبلاغ في دحض الباطل دحضاً لم يشتمل على مثله كتاب سابق، فهذا وصف للقرآن بالرفعة على جميع الكتب، فهو كريم لا يهون بكثرة تلاوته<sup>(٢)</sup>. وكان القسم به عظيماً، كما بين الله ﷻ في كتابه: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّكُمْ لَقَسُّمْ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّكُمْ لَقَرَّانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٨٠] حيث أقسم الله بمواقع النجوم المعروفة لما فيها من الدلالة على كمال القدرة في هذا الانتظام البديع، وما فيها من مناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن المحفوظ بواسطة الشهب، وقد يكون القسم بأجال نزول القرآن ومنه قولهم نزل القرآن منجماً<sup>(٣)</sup>.

ثالثاً: قول ثقيل:

قال ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الرِّزْمُ ﴿١﴾ فُرُّ أَيْلٍ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٢﴾ يَضْفَعُهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَزَّلَ الْقُرْآنَ تَرْيَلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المزمل: ١ - ٥].  
وفي كونه ثقيلاً عدة تأويلات:

- ١ - أنه ثقيل في الميزان يوم القيامة، قال عبد الرحمن بن زيد رضي الله عنه: «كما ثقل في الدنيا، ثقل يوم القيامة في الموازين»<sup>(٤)</sup>.
- ٢ - إنه ثقيل، أي: كريم مأخوذ من قولهم: فلان ثقيل عليّ أي: كريم عليّ، قاله السدي رضي الله عنه.

(١) بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٢/٤٠٤).

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٥/٣٢٣)، بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٤/٣٦٢)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٧/٣٣٣).

(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد شرح الشيخ محمد العثيمين (٢/٣٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/٢٥١).

٣ - أن يكون الثقيل بمعنى الثابت؛ لثبوت الثقيل في محله، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبداً.

٤ - العمل به ثقيل في فروضه وأحكامه وحلاله وحرامه، قاله الحسن وقتادة رحمهما الله<sup>(١)</sup>.

٥ - قال ابن عطية: «قالت جماعة من المفسرين: لما كان يحل في رسول الله من ثقل الجسم حتى أنه كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته بركت به، وحتى كادت فخذته أن ترض، وقال حذاق العلماء: معناه ثقيل المعاني من الأمر بالطاعات والتكاليف الشرعية من الجهاد ومزاولة الأعمال الصالحة»<sup>(٢)</sup>.

٦ - عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدِّدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] يقول: «لو أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله، ومن خشية الله، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع»<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن جرير الطبري رحمته الله: «وأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: إن الله وصفه بأنه ثقيل، فهو كما وصفه به ثقيل محمله، ثقيل العمل بحدوده وفرائضه»<sup>(٤)</sup>.

قال د. صلاح الخالدي: «ثقل في طبيعته، ورسالته، وجهاده ومواجهته، وتشريعاته وأحكامه، يسري الثقل من القرآن إلى المؤمن الذي يحمله، والأمة التي تنطلق به، وتعيش في ظلاله، ثقل الاهتمامات الجادة والمقاصد المهمة والمطالب العالية»<sup>(٥)</sup>.

رابعاً: كتاب مبارك:

من أوصاف القرآن المميزة له أنه مبارك، وهي صفة ذات دلالة بينة

(١) للفقرات الثانية إلى الرابعة انظر: النكت والعيون للماوردي (١٢٦/٦).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٣٨٧/٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧٨/٨).

(٤) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٥٨/١٤).

(٥) هذا القرآن، للدكتور صلاح الخالدي ص ٩١.

على طبيعته، قال الله ﷻ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

إنها البركة التي هي الزيادة والنماء والشمول والسعة والاستيعاب، والقرآن كله خير وبركة، يفيض من ذلك على قارئه ومتدبره في كل لحظة، مبارك أصله ومصدره؛ لأنه من عند الله، مبارك حامله جبريل ﷺ، ومبارك محله؛ قلب الرسول ﷺ، مباركة تلاوته، وعلومه، ومعارفه، ومعانيه، ودلالاته، وآثاره العظيمة، وآثاره الحركية، وأهدافه الواقعية، مبارك لأنه شفاء لما في الصدور قال الله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، مبارك في اتباعه إذ به صلاح الأعمال الظاهرة والباطنة، مبارك في آثاره العظيمة؛ فقد جاهد المسلمون به بلاد الكفر ففتحوا مشارق الأرض ومغاربها قال الله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] (١).

خامساً: ذو الذكر:

قال ﷻ: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

وُصف بذلك لما فيه من المواعظ وأخبار الأمم الماضية، وهو المستحق أن يكون ذكراً للعالمين، يذكر على الدوام في الألسنة والقلوب والأذهان، في كل زمان ومكان، ويظل دوماً كذلك لا يبلى ولا يخلق، فهو في ذاته ذو الذكر، ويلبس صاحبه المؤمن به والعامل بمقتضاه هذه الصفة فيكون ذا شرف ورفعة ومكانة؛ لأن فيه الشرف والعزة والذكر، فقد رفع العرب به إلى المنازل العالية، وألبسوا تاج العزة المرصع بجواهر المجد والفخار، ومسكوا قيادة البشرية، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، لقد فجّر الطاقات الكامنة فيهم، وحولهم أساتذة العالم، وقادة الشعوب، منارات للهدى، وحكاماً للعدل، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً،

(١) شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد العثيمين (١/٤٢٧) وما بعدها، لطائف قرآنية د. صلاح الخالدي ص ١٥ وما بعدها.

يسعون إلى أهداف سامية منها إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. ولقد نوّه ﷺ إلى عظمة هذا الكتاب الكريم حين أقسم به ﷺ، فزاده قيمة وتشريفاً.

سادساً: قرآن مجيد:

قال الله ﷻ: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ [ق: ١]، الشريف الكريم، الرفيع المقام العلي المنزلة، الكثير الخير، ذو المجد والشرف الكامل على سائر الكتب، المشتمل على أعلى المعاني النافعة لصالح الناس، وكمال مجده يكمن في أنه يفوق أفضل ما أبلغه الله ﷻ للناس من أنواع الكلام الدال على مراده ﷻ؛ فهو أعلى منزلة مما أوحى الله به لنبيه في الأحاديث القدسية<sup>(١)</sup>.

سابعاً: قرآن عجب يهدي إلى الرشده:

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١ - ٢]

عجب في معانيه ومبانيه، والوصف بالمصدر فيه مبالغة في التعبير، كأن ذات الشيء صارت عين مفهوم المصدر، فهنا يقوم التصور على أن ذات المقروء من كثرة عجائبه صارت عجباً، فلا شيء من عناصره وأجزائه إلا هو عجب، ولا يكون عجباً في مبانيه ومعانيه إلا إذا كان معجزاً متفرداً متميزاً عن كل كلام آخر، فلا تستطيع الخلائق أن تأتي بمثله. والوصف الثاني: يدل على السلوك الفكري والنفسي والعملية الموافق للحق والصواب، وهو وصف يجمع كل ما اشتمل عليه القرآن من دعوة إلى الحق والخير وما هو الأفضل والأحسن والأأنف والأبعد عن الضرر والأذى حالاً ومستقبلاً، قريباً وبعيداً إلى يوم الدين<sup>(٢)</sup>.

(١) الحديث القدسي هو المنسوب إلى الذات القدسية وهو ما نُقلَ إلينا عن النبي ﷺ مع إسناده إياه إلى ربه ﷻ، وينسب الحديث إلى القدس أو إلى الرب لأنه صادر عن الله ﷻ من حيث أنه المتكلم به أولاً والمنشئ له، وأما كونه حديثاً فلأن الرسول ﷺ هو الحاكي له عن الله تعالى. انظر: علوم الحديث للدكتور محمد عجاج الخطيب ص ٣٣، تيسير مصطلح الحديث للدكتور محمود الطحان ص ١٢٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦/٢٧٦)، معارج الفكر ودقائق التدبر للميداني (٥٦٧/٥).

## الخاصية الثامنة: امتياز هدايته عن سائر الكتب المنزلة:

إن لهداية القرآن الكريم ميزة ترفعها إلى مرتبة تنفرد بها، لا تشاركها في ذلك هداية من الهدايات؛ لتتناسب مع خلود كتابها وصلاحيته لتحقيق مطالب الحياة في سائر أطوارها الفكرية، والاجتماعية، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ فَاَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَسَبَلُوكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبَقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ [المائدة: ٤٨]، وبقاء القرآن ببقاء رسالته يقتضي أن تكون هدايته أكمل في تحقيق مصالح العباد، قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ [الإسراء: ٩]، وفي قوله ﷻ في الآية «أقوم»، أفعال، تفضيل يقتضي اشتراك غير القرآن معه في أصل الهداية، ويقتضي أن طريقة القرآن في الهداية أسد وأرجح<sup>(١)</sup>، وفيه دلالة على أن القرآن يهدي هداية أقوم من هدي كتاب بني إسرائيل في قوله ﷻ: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا ﴿٢﴾ [الإسراء: ٢]، وفيه إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم<sup>(٢)</sup>.

ومما تميَّز به القرآن الكريم اشتماله على كل عناصر هداية الإنسان التي تضمن له صلاح الدنيا وفوز الآخرة.

وترجع أصول الهداية في القرآن الكريم إلى عشرة أصول: العقيدة؛ والتشريعات التعبدية، وسياسة الخلق، والشوائب الاجتماعية بين الأفراد والجماعات، وإيقاظ العقل الإنساني وتحريره، وعوامل الدفع القيادية في المجتمع الإسلامي، وبيان مكانة العلم في الحياة، والتربية السلوكية الشاملة للأخلاق والآداب والحقوق، وحفظ المجتمع البشري من عوامل الانحلال. كل ذلك بإعجاز بياني رائع.

(١) انظر: القرآن العظيم لمحمد صادق عرجون فقد ذكر تلك الأصول بتوسع من ص ١٧ إلى ص ١٢٢.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٤٠/١٤).

كما ذكر العلماء للقرآن خصائص أخرى كحرمته روايته بالمعنى، وتعيين قراءته في الصلاة فليس لأحد أن يقرأ غيره مع قراءته ولا بدون قراءته، فلا تُقبل الصلاة بدونه، وكذلك لا يقوم غير الفاتحة مقامها، والتعبد بقراءته، وتسمية الجملة منه آية، والآيات المخصصة منه سورة، وهو شافع لصاحبه يوم القيامة، كما أنه هدى وشفاء للمؤمنين المعتقدين به، ولقد تضمن المنهج المتكامل الذي لا تقوم الحياة إلا به قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] (١).

إن مسؤولية الأمة الإسلامية تجاه كتابها تعتبر من أخطر المسؤوليات، فهو الذي أحياها بعد موتها، وبث فيها من القيم والمبادئ والروابط ما وحّد صفوفها، ولولا هذا القرآن ما خرج العرب من جزيرتهم، ولا صاروا هداة للعاملين، ولولاه لم يكن لهم ذلك الشرف العظيم والذكر الحسن والصيت الذائع، ولولاه لما ترقّت معارج المجد... لذا فإن المسؤولية على الأمة المسلمة وأفرادها جميعاً مسؤولية كبرى لا يقبل فيها عذر لمعتذر، وتتأكد تلك المسؤولية على الدعاة والمربين لتبليغه ونشره وتنشئة الأجيال المسلمة على مبادئه وحب تلاوته والرضى بالعمل به، ومن ثمّ حمله إلى شعوب العالم أجمع (٢).



(١) انظر: التفسير الكبير لابن تيمية (١١٩/٧)، أصول الحديث للدكتور محمد الخطيب ص ٣٣.

(٢) انظر: المعجزة الخالدة للدكتور حسن عتر ص ٣٩٠ بتصرف.

## اصطفاء الذكر

قال تعالى: ﴿أَمَالٌ وَالْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] وقال ﷺ: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

لقد لاقت هذه الأمة الخيرة المباركة، العناية الإلهية الكاملة التامة، المتمثلة في إكمال الدين وإتمام النعمة؛ فلم يترك هذا الدين الكامل التام شاردة ولا واردة إلا وأرشد الأمة الإسلامية إليها، فلقد اصطفى الله ﷻ لهم من جملة الكلام بعد القرآن الكريم، ذكراً ﷺ، أفضل ما انشغل اللسان به وردده ليوصلهم إلى استثمار أوقاتهم، وصيانة ألسنتهم، وحفظ عقولهم، وزيادة أجورهم.

وقد أمر الله ﷻ عباده بذكره في كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، ووعد عباده الذاكرين بأفضل ما وعد به العباد فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

والذكر، خلاف النسيان، وهو الشيء يجري على اللسان، وله معنيان: أولهما: التلطف بالشيء، وثانيهما: إحضاره في الذهن بحيث لا يغيب عنه. ويُجمَعُ على أذكار، وهو الإتيان بالفاظ وَرَدَ الترغيب فيها، ويطلق ويراد به المواظبة على العمل بما أوجبه ﷻ أو نذب إليه كالتلاوة، وقراءة الأحاديث، ودرس العلم، والنفل بالصلاة<sup>(١)</sup>.

أما الباقيات الصالحات، فهي التسبيح الوارد في الكتاب والسنة، قال

(١) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي ص ٥٠٧، الصحاح للجوهري (١/٥٤٤)، الكليات لأبي البقاء الكفوي ص ٤٥٧.



جمهور المفسرين: إن المقصود بالباقيات الصالحات، هي الكلمات المأثور فضلها: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)<sup>(١)</sup>. وقال الحسن رضي الله عنه: «لا إله إلا الله، والله أكبر والحمد لله وسبحان الله هن الباقيات الصالحات»<sup>(٢)</sup>، وعن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومجاهد رحمهما الله: «هي قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»<sup>(٣)</sup>.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اسْتَكْبَرُوا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ) قيل: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: (الملّة)، قيل: وما هي؟ قال: (التكبيرُ والتَهْلِيلُ والتَسْبِيحُ والتَّحْمِيدُ ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله)<sup>(٤)</sup>.

وقيل: إن الباقيات الصالحات لفظٌ عام يشمل كل أعمال الخير، كما قال الشنقيطي رحمته الله: «والتحقيق أن الباقيات الصالحات لفظ عام يشمل الصلوات الخمس، والكلمات الخمس المذكورة، وغير ذلك من الأعمال التي ترضي الله تعالى؛ لأنها باقية لصاحبها غير زائلة ولا فانية»<sup>(٥)</sup>. ولا تناقض بين القولين فالتسبيح من الباقيات الصالحات.

وسُميت بالباقيات لبقاء ثمراتها، واستمرار نفعها للإنسان في حياته وبعد مماته، فالتعبير بالباقيات يُعطي معنى البقاء بكل أبعاده ومُوحياته؛ فهي باقية ببقاء نفعها، باقية ببقاء ثوابها وعظيم أجرها لمن داوم عليها، فمنعه بعد ذلك عارض من مرض وموت وغير ذلك، فهي لذلك الأخير الأفضل والأبقى.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾ يُعطي معنى التفضيل، فالله صلى الله عليه وسلم قد فضّل الباقيات الصالحات على غيرها ممّا يعمله الإنسان ويُقدّمه، والتفضيل من المولى صلى الله عليه وسلم ليس كتفضيل غيره، فالشيء إنما يَعْظُمُ بِعَظْمَةِ من اختاره وفضّله، واختيار الله

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/٥٢٠).

(٢) التفسير للحسن البصري (٢/١٠١).

(٣) معالم التنزيل للبغوي (٥/١٧٤).

(٤) المستدرک للحاکم (١/٥١٢) صححه الحاکم، ووافقه الذهبي وقال: صحيح.

(٥) أضواء البيان للشنقيطي (٤/١٢٠).

سبحانه لفظ: ﴿خَيْرٌ﴾ على غيره من الألفاظ يُوحى بمعنى الخيرية والاختيار الذي هو الانتقاء، فخار الشيء واختاره: انتقاه، وتخييره: أي اختاره، والاختيار هو الاصطفاء وكذلك التخيير<sup>(١)</sup>.

وتظهر منزلة الذكر ومكانته في الشرع من نواحٍ كثيرة، منها:

أَنَّ الله أمر به في كافة الأوقات:

وَقَتَّ اللهُ ﷻ العبادات بالموافقت إلا الذكر فإنه أمر به في كل وقت، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَفَعُودًا وَعَلَىٰ خُبُوبِكُمْ فَإِذَا أطمأنتم فَأقيموا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣] والصلاة ذكر واتصال بالله ﷻ، ولكن الله سبحانه أمر بعد الانتهاء منها بالبدء بذكره، بالتسبيح والتحميد والتهليل والتمجيد على كل حال، وقد خصت صلاة الخوف بذلك للدلالة على أن الذكر الدائم لله ﷻ هو السبيل إلى الأمن النفسي، وقوة القلب، وحصول الفلاح، والظفر والظهور على الأعداء.

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وشبه ﷻ ذكره بذكر الآباء؛ لأن من عادة العرب المفاخرة بالآباء والأنساب في أماكن التجمع، فأراد الله ﷻ استبداله بذكره سبحانه ليحل بالقلب ما هو خير من ذلك.

ان الله ﷻ أمر به بنبيه ﷺ في مواطن كثيرة:

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنِّي وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَسَيِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩]، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠] وقال ﷻ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

(١) انظر: الكليات للكفوي ص ٤٢٣، لسان العرب لابن منظور (٤/٢٥٧).

رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ [الطور: ٤٨]. إن المتأمل في جميع الآيات السابقة يجد أن الله ﷻ قد عطف التسبيح على الصبر، ففي كل مرة يأمر ﷻ نبيه محمداً ﷺ بالصبر، يثني بالأمر بالتسبيح بحمده ﷻ تسبيحاً متصلاً دائماً في كل وقت؛ ولعل في هذا الربط بين صفة عظيمة اتصف بها أولو العزم وتميَّزوا بها عن غيرهم من الرسل، وأمر الرسول محمداً ﷺ أن يلزمها، قال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وبين التسبيح علاقة قوية، فالتسبيح الدائم لله ﷻ هو الطاقة التي تشحذ الهمم، وهو قوت القلوب، وهو باب الفرج؛ ألم يقل الله ﷻ عن نبيه يونس ﷺ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٣﴾ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤]، فقد نادى ﷻ في الظلمات بقوله: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

قال سيد قطب<sup>(١)</sup> رَحِمَهُ اللهُ: «فعلى مدار اليوم؛ عند اليقظة من النوم، وفي ثنایا الليل، وعند إدبار النجوم في الفجر، هنالك مجال الاستمتاع بهذا الإيناس الحبيب. والتسبيح زاد وأنس ومناجاة للقلوب، فكيف بقلب المحب الحبيب القريب؟»<sup>(٢)</sup>. وقال محمد بن كعب القرظي: «لو رخص الله لأحد في ترك الذكر لرخص لذكركيا لأنه منعه من الكلام وأمره بالذكر»<sup>(٣)</sup>. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران: ٤١]

(١) هو سيد بن قطب بن إبراهيم: مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية «موشا» في أسبوط ١٣٢٧ = ١٩٠٩م، تخرج بكلية دار العلوم (بالقاهرة)، وعمل في جريدة الأهرام، وكتب في مجلتي، الرسالة، والثقافة، وطالب ببرامج تنمسي والفكرة الإسلامية، وانضم إلى الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة، وتولى تحرير جريدتهم وسجن معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها. وكتبه كثيرة مطبوعة متداولة منها: العدالة الاجتماعية في الإسلام، والمستقبل لهذا الدين، وفي ظلال القرآن وغيرها. توفي سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وألف هجرية. انظر: الأعلام للزركلي (١٤٧/٣).

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٦/٣٤٠٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٢/٦٤٦).

أَنَّ اللَّهَ ﷻ قَبْلَهُ عَلَى كَافَةِ الْهَيْئَاتِ:

لأهمية الذكر ومنزلته عند الله ﷻ فقد قبله على كافة الهيئات، بل وأثنى على من تلبس بالذكر كافة أحيانه؛ فأينما حلَّ وارتحل لازمه، وكلما تقلب في حياته كان معه لا يفارقه. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وُقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، امتدح الله ﷻ هؤلاء الذاكرين المتفكرين، أصحاب العقول النيرة المهتدية بهدي الله ﷻ، الذين استغرق الذكر جميع أوقاتهم، وجميع أحوالهم في القيام والعود والاضطجاع، وتدل الآية على أن الله ﷻ لم يفرض على عباده هيئة خاصة لذكره بل رغب إليه في جميع الأحوال.

ومن نِعَمِ الله على عباده أن جعل آلة الذكر، اللسان، عضواً لا يعتره الملل ولا يُصيبه التعب كبقية الجوارح، لذلك أخبر الرسول ﷺ أن خير حالات المرء أن يكون لسانه رطباً من ذكر الله، وأن أفضل حالاته عند فراق الدنيا أن يفارقها ولسانه رطب من ذكر الله<sup>(١)</sup>.

قال حيان<sup>(٢)</sup>: «والظاهر أنَّ الذكر هو باللسان مع حضور القلب، وأنه التحميد والتهليل والتكبير ونحو ذلك من الأذكار، وهذه الهيئات الثلاثة هي غالب ما يكون عليه المرء، فاستعملت والمراد بها جميع الأحوال»<sup>(٣)</sup>.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ أَحْيَانِهِ<sup>(٤)</sup>. قال النووي: «وهذا الحديث أصل في جواز ذكر الله تعالى بالتسبيح والتهليل

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٤٧٤).

(٢) هو: محمد بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي، من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات. وُلد في غرناطة سنة ٦٥٤هـ. أقام بالقاهرة، وتوفي فيها. اشتهرت تصانيفه في حياته وقرئت عليه. ومن كتبه: البحر المحيط في تفسير القرآن، وتحفة الأريب، ومنهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك. توفي بالقاهرة سنة سبعمائة وخمس وأربعون (٧٤٥) هجرية. انظر: الاعلام للزركلي (٧/١٥٢).

(٣) البحر المحيط للأندلسي (٣/١٤٥).

(٤) صحيح مسلم (١/٢٣٦) رقم الحديث ٣٧٣.

والتكبير والتحميد، وشيئها من الأذكار، وهذا جائز بإجماع المسلمين، والمقصود أن الرسول ﷺ كان يذكر الله تعالى مُتَطَهَّرًا وَمُحَدِّثًا وَجُنُبًا وَقَائِمًا وَقَاعِدًا وَمُضْطَجِعًا وَمَاشِيًا، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

تفضيله على سائر الكلام ما عدا القرآن الكريم:

قال ﷺ: (أَفْضَلُ الْكَلَامِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ)<sup>(٢)</sup>، ففي كونها أفضل الكلام دلالة واضحة على منزلته ومكانته من بين سائر الكلام، وإذا كان الذكر أفضل الكلام فإن القرآن الكريم أفضل الذكر، وهذا النص صريح في اصطفاء التسبيح على غيره إذ إن الرسول ﷺ جعله الأفضل على الإطلاق بقوله: (أَفْضَلُ الْكَلَامِ أَرْبَعٌ)، والتفضيل يعني: التخصيص بمزايا لا يشاركه فيها غيره، وهذا يدل على الاصطفاء.

أنه أحب الكلام إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ:

أحب الكلام إلى الله ﷻ وإلى رسوله ﷺ ذكرُ الله، وهذا يدل على اصطفائه؛ فالشيء المحبوب هو الذي يصطفى دون غيره من أفرادهِ. فالذكر بالتسبيح هو أحب الكلام عند الله ﷻ.

فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ؟) قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أُخْبِرُنِي بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ. فَقَالَ: (إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ)<sup>(٣)</sup>.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ)<sup>(٤)</sup>، وتأمل معنى الحديث وما يفيدهِ من معانٍ عظيمة غفل عنها كثير من المسلمين، إلا من امتنَّ الله ﷻ عليهم بذكرهِ، واختصَّهم بذلك

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٤/٢٩٠).

(٢) صحيح البخاري ص ١٤٠٤ باب ١٩.

(٣) صحيح مسلم (٤/١٦٦٣)، حديث رقم ٢٧٣١.

(٤) صحيح مسلم (٤/١٦٤٦)، حديث رقم ٢٦٩٥.

من بين عبادته، وألهمهم دوام التسبيح. فهذه الجمل الأربع أحبُّ إلى الله ﷻ، وإلى الرسول ﷺ الذي غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ممّا طلعت عليه الشمس، وقوله ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ؟) تشويق للسامع، وتنبية له على ما يريد قوله، وهذا من بلاغة الرسول عليه الصلاة والسلام، كما يدل ابتدار الرسول عليه الصلاة والسلام الصحابي ببيان أحب الكلام إلى الله ﷻ قبل أن يسأله على أهمية المخبر عنه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

إن الله ﷻ فطر الكون كله على تسبيحه:

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١٩١﴾﴾ [الإسراء: ٤٤] قال مجاهد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كل الأشياء تسبح لله، حياً كان أو ميتاً أو جماداً، وتسبيحها سبحان الله وبحمده»<sup>(١)</sup>، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ»<sup>(٢)</sup>.

إنه تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنتفض روحاً حية تسبح الله ﷻ، فإذا الكون كله حركة وحياة، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رضية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال. إنه لمشهد كوني فريد، حين يتصور القلب كل حصة وكل حجر، كل حبة وكل ورقة، كل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل إنسان، كل دابة على الأرض، وكل سابحة في الماء والهواء .. ومعها سكان السماء .. كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه؛ إن الوجدان ليرتعث وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه، كل الكون يسبح بطريقته ولغته: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) معالم التنزيل للبخاري (٩٦/٥).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٥٧٩.

(٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/٢٢٣٠).

## اصطفاؤه على سائر الكلام:

إن الذكر الوارد في القرآن والسنة كثير، وقد بينت الأحاديث أن الله ﷻ قد اصطفى ذكراً معيناً، ولا شك أن هذا التحديد وبلفظ الاصطفاء، يعطي ذلك الذكر قدراً، وتمييزاً واضحاً عن بقية أنواعه. فعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ)<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ الْكَلَامِ أَرْبَعاً: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عِشْرِينَ حَسَنَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ عِشْرِينَ سَيِّئَةً، وَمَنْ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَنْ قَبِلَ نَفْسِهِ، كُتِبَتْ لَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً، وَحَطَّ عَنْهُ ثَلَاثُونَ سَيِّئَةً)<sup>(٢)</sup>.

ومن الأمور التي يجب توضيحها:

١ - أن هذا الاصطفاء محمول على كلام الآدمي، وإلا فالقرآن الكريم كلام الله ﷻ أفضل منه، حيث أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح، والتهليل المطلق، أما المقيد بوقت أو حال أو نحو ذلك فالأولى الاشتغال به<sup>(٣)</sup>.

٢ - قد يكون المقصود اصطفاؤه على عامة كلام الناس، وليس على عامة الذكر؛ لأن الظاهر من لفظ الحديث الأول هو السؤال عن أفضل الكلام، وليس السؤال عن أفضل الذكر، وفي الحديث الثاني قال الرسول ﷺ: إن الله ﷻ اصطفى من الكلام، ولم يقل من الذكر.

(١) صحيح مسلم (١٦٦٣/٤) حديث رقم ٢٧٣١.

(٢) المسند للإمام أحمد (٣٠٢/٢)، (٣٥/٣)، المستدرک للحاکم (٥١٢/١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيتمي (٩٩/١٠) حديث رقم ١٦٨٣٧ ورجالهما رجال الصحيح.

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٥٠/١٧).

٣ - وقد يكون المعنى اصطفاؤه بمزيد الأجر وعظيم النفع، ويظهر هذا من وصية الرسول ﷺ لابنته فاطمة وزوجها علي ﷺ، بهذا الذكر خاصة دون غيره.

٤ - قد يكون اصطفاؤه «سبحان الله وبحمده» لمغفرة الذنوب، وإن كانت مثل زبد البحر، واصطفاء «التسبيح المعروف» ليكون الذكر الثابت بعد الصلوات المكتوبات - والله تعالى أعلم بمراده -. والمقصود هنا أن تنتبه إلى ما اصطفاه الله خاصة من أنواع الكلام، وأن نتمسك به طالبين للأجر، مؤمنين بالنفع، مقتدين بالسنة، مبتعدين عن البدعة.

### فضل الذكر:

لا شك أن في التسبيح من الحكم والفوائد الكثيرة، والهبات العظيمة، ما لا يمكن حصره، ولذلك اصطفاه الله ﷻ لعباده، وهذه الفوائد قد تكون نفسية روحية تُضفي على الروح الصفاء والشفافية، وعلى القلب قوة الإرادة والعزم، وقد تكون عقلية تُضفي على العقل العلم والفهم والبصيرة، وقد تكون جسدية تُضفي على العين جلاء البصر وقوته، وعلى البدن قوة الجسم ومناعته؛ ألا نجد ذلك في وصية المصطفى ﷺ، لابنته فاطمة ﷺ، عندما جاءته تطلب منه خادمة لتعينها، بعدما اشتكت ما تلقى من الرّحى في يدها، فقال لها الرسول ﷺ الرؤوف الرحيم، طيبب البشرية: (أَلَا أَعْلَمُكُمْ خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا، إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمْ، أَنْ تُكَبِّرَا اللَّهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، وَتُسَبِّحَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ خَادِمٍ)، قَالَ عَلِيٌّ بِنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: مَا تَرَكْتُهُ مِنْذُ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، قِيلَ لَهُ: وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ؟ قَالَ: وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ. ألا نجد في ذلك علاجاً نافعاً لما نعانيه هذه الأيام من كثرة المشاغل، وتعدد الأعباء، وقلة البركة في الأوقات؟!.

وللذكر فوائد عظيمة جمع ابن القيم منها أكثر من نيف وسبعين فائدة<sup>(١)</sup>

منها:

(١) انظر: كتاب الوابل الصيب لابن قيم الجوزية من ص ٧٢ إلى ص ١٦٤.



## ١ - الفوز بذكر الله تعالى في الملا الأعلى:

قال ﷺ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال الربيع<sup>(١)</sup> رحمه الله والسدي رحمه الله: المعنى اذكروني بالدعاء والتسبيح ونحوه<sup>(٢)</sup>. وقال الحسن البصري وأبو العالية<sup>(٣)</sup> والسدي والربيع بن أنس رحمهم الله: أن الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره<sup>(٤)</sup>.

قال صاحب الظلال: «يا للتفضل الجليل الودود! الله ﷻ يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مكافئاً لذكرهم له في عالمهم الصغير، وهم أصغر من أرضهم الصغيرة! وذكر الله ليس لفظاً باللسان، إنما هو انفعال القلب معه أو بدونه، والشعور بالله ووجوده، والتأثر بهذا الشعور تأثراً ينتهي إلى الطاعة في حده الأدنى، وإلى رؤية الله وحده ولا شيء غيره»<sup>(٥)</sup> وذكر الله يكون بالشواحب، وإفاضة الخير، والسعادة والعزة والمفاخرة عند الملائكة في الملا الأعلى.

## ٢ - عظم العطاء والفضل والاجر والمنوبة:

التي ترتبت على الذكر ولم تترتب على غيره من الأعمال، رغم سهولته وقلة مشقته. والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ)<sup>(٦)</sup>.

(١) هو الربيع بن أنس بن زياد البكري، الخراساني، المروزي. بصري، سمع أنس بن مالك والحسن البصري وغيرهم، وكان عالم (مرو) في زمانه، توفي سنة تسع وثلاثين ومائة للهجرة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧٠/٦).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٢٢٦/١).

(٣) هو ربيع بن مهران، الإمام المقرئ الحافظ المفسر، أبو العالية الرياحي البصري، أحد الأعلام أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب، أسلم في خلافة أبي بكر الصديق، ودخل عليه وسمع من عمر، وعلي، وأبي، وأبي ذر، وابن مسعود وخلق غيرهم كثير، حفظ القرآن وقرأه على أبي بن كعب، وتصدّر لإفادة العلم، وبعُد صيته. وكان ثقة كثير الحديث. مات سنة ثلاث وتسعين. انظر: الطبقات لابن سعد (١٢٢/٧)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠٧/٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٦٥/١).

(٥) في ظلال القرآن لسيد قطب (١٣٩/١).

(٦) البخاري ص ١٤٠٥ حديث رقم ٦٦٨٢.

### ٣ - أن الذكر غراس الجنة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَغْرِسُ غَرْسًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى غَرْسٍ خَيْرٍ لَكَ مِنْهُ؟) قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: (سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ يُغْرِسُ لَكَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ شَجْرَةً<sup>(١)</sup>). وقال ابن قسيم الجوزية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها، لَكَفَى بِهَا فَضْلًا وَشَرَفًا<sup>(٢)</sup>.

### ٤ - حصول الخيرية المطلقة للذاكرين:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الْأَمْوَالِ بِالدرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ. وَلَهُمْ فَضْلُ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا، وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ. فَقَالَ: (أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِمَا إِنْ أَحَدْتُمْ بِهِ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَلَمْ يَدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ؟) تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا، فَقَالَ بَعْضُنَا: نُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ. فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: (تَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلُّهُنَّ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ)<sup>(٣)</sup>.

### ٥ - الفوز والسبق الدائمين بالأجر والمثوبة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ، فَقَالَ: (سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ. سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ) قَالُوا: وَمَا الْمُفْرَدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ: (الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ)<sup>(٤)</sup>.

### ٦ - حصول طمانينة القلب وأمنه:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

(١) أخرجه الحاكم (٥١٢/١)، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) الوابل الصيب لابن قيم الجوزية، ص ٨٣.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٨٤٣.

(٤) صحيح مسلم (١٦٣٧/٤) رقم ٢٦٧٦.

الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُ ﴿٢٩﴾ [الرعد: ٢٨ - ٢٩] قال ابن قيم الجوزية: (وذكر العبد ربّه هو الذي يطمئن إليه القلب، فإذا اضطرب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكره وهو القرآن).

وقال رحمه الله: «وفي «ذكر الله» هاهنا قولان: أحدهما: أنه ذكر العبد ربّه، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب وقلق، فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله. والقول الثاني: أن ذكر الله ههنا القرآن، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله، به طمأنينة قلوب المؤمنين، فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن، فإن سكون القلب وطمأننته من يقينه واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين وهو القول المختار»<sup>(١)</sup>.

#### ٧ - الفوز بصلاة الله وملائكته:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٤] الصلاة من الله ﷻ الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار والدعاء للمؤمنين. وفي الآية حثّ على الذكر؛ إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا﴾ إن الله لم يفرض فريضة إلا عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على تركه، فقال ﷻ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣]، بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال، وقال ﷻ: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: ٤٢] فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٤٩٧/٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٣٣/٦).

## اصطفاء اللغة العربية

إنَّ لغة الأمة ميزان دقيق ومعيارٌ أساس في عزتها وحفظ هويتها، وتحديد ذاتها، وإذا أضاعت أمة لسانها أضاعت تاريخها وحضارتها. لقد استطاعت لغة القرآن أن تحقق متطلبات المجتمع التاريخية عبر الأحقاب المختلفة وبكل المستويات.

ولقد اصطفى الله ﷻ اللغة العربية ليكون البلاغ بها أميناً دقيقاً، وكذلك التلقي، لذا فعظمة هذه اللغة ظهرت باختيار الله لها، واصطفائها دون غيرها لكتابه ولدينه، فأصبحت لغة العبادة، ووعاء الذكر، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام: ١٢٤]، والاصطفاء لا ينحصر في الرسل أو الكتب أو الأزمان والأمكنة، بل يقع على اللغة التي ستصطفى للرسالة، وهذا يدل على المميزات العظيمة والطاقات الكبيرة، التي تمتلكها هذه اللغة العربية، يقول بروكلمان: الإسلام عند ظهوره وجد لغة مثالية صافية مصطفاة موحدة، جديرة بأن تكون أداة التعبير عند خاصة العرب، يفهمها ويعرفها العرب جميعاً. وهكذا نرى أن الإسلام ظهر في بلد مُصْطَفَى، ولأمة مُصْطَفَاة، وفي لغة مُصْطَفَاة، وعلى رسول مُصْطَفَى<sup>(١)</sup>.

إنَّ اختيار الله ﷻ للغة العربية وعاءً لكتابه ولكلامه؛ أعطاهما من الخصائص والمميزات ما لا يُمكن حصره، ومن تلك الخصائص، على سبيل المثال، الآتي:

(١) نقلاً عن كتاب معلمة الإسلام لأنور الجندي (١/٣٤٣).

## الخاصية الأولى: الحفظ:

لقد حفظ الله ﷺ القرآن الكريم؛ وفي حفظه حفظ للغته التي نزل بها، وكان للقرآن دور كبير مع اللغة العربية، حيث أنه هذبها، وسما بأسلوبها، فأحالتها لغة صافية جذابة، كما أنه أضاف إليها مجموعة من المصطلحات الإسلامية التي نمت باللغة وزادتها شمولاً واتساعاً كالإسلام والإيمان، وصانها من التحريف، وحال دون سريان اللهجات المحلية وانتشارها، فاستنقذ القرآن العرب من شتات اللهجات القبلية الكثيرة، فكان سداً منيعاً حافظ عليها من الوهن والضعف، وزاد في حماية اللغة العربية كذلك، أن التعبد بتلاوة القرآن لا يكون إلا بنصه العربي.

إن اللغة العربية لا يمكن القضاء عليها نهائياً لأنها لغة القرآن، الذي تعهد الله ﷺ بحفظه بنفسه؛ فهي محفوظة بنا أو بغيرنا، وما خلود هذه اللغة رغم ما واجهته من حملات تشكيكية من أعدائها من الداخل ومن الخارج إلا بسبب ما تحمله في جوهرها من عناصر البقاء المتمثلة في اختيار الله لها وعاءٍ لدينه<sup>(١)</sup> وبناء على ذلك فإنه لا ينطبق على اللغة العربية ما ينطبق على غيرها من لغات العالم. ولا بد من التنبيه على أن أعداء الإسلام قد أدركوا أهمية العربية فكادوا لها وتآمروا عليها بطرق مختلفة منها: الدعوة إلى إحلال اللهجة العامية محل اللغة العربية، والكتابة بالأحرف اللاتينية، والقيام بتدريس العلوم في الجامعات باللغات الأجنبية ظناً منهم بأن ذلك سيؤدي إلى محو العربية، ولكن اختيار الله لها لتكون الوعاء الذي يحفظ كتابه وسنة رسوله ﷺ هو السبب الرئيس في بقائها ويقع على المربين دورٌ كبير في تعليم أبناء المسلمين لغتهم كما أن لهم دوراً هاماً في غرس الاعتزاز بها<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: المعجزة الخالدة لحسن ضياء الدين عتر ص ٣٧١، علوم القرآن للدكتور عدنان زرزور ص ٢٥، خصائص القرآن للدكتور فهد الرومي ص ٦٠ باختصار وتصرف.

(٢) نشرت جريدة الشرق الأوسط البيان التالي تحت عنوان «نصف لغات العالم مهددة بالانقراض»: أشار أغلب علماء اللغة في العالم إلى أنه بنهاية القرن الحالي سينقرض أكثر من نصف لغات العالم، بل إن الخبراء في معهد «ورلد ووتش» الأمريكي في واشنطن توقع اندثار ٩٠٪ من لغات العالم مستقبلاً. وقد اختفت بالفعل بين ٤ و ٩ آلاف لغة من على وجه الأرض خلال القرون الخمسة الماضية، إما بسبب حروب =

### الخاصية الثانية: الهيمنة:

إذا كان القرآن الكريم قد اختصَّ بصفة الهيمنة على الرسالات السماوية السابقة خاصة، وعلى جميع كتب البشر عامة؛ لأنَّ الهيمنة تقتضي الحكم والفصل والتصويب للرسالات والكتب من جميع الجوانب المختلفة، لتبيُّن صحتها من سقيمها، فإذا كان هذا القرآن هو المهيمن، وهو معيار التصويب والفهم للرسالات السابقة، واللغة العربية هي المُختارة لهذا العمل فهي الهيمنة بدورها على سائر اللغات، فهي اللغة الأستاذة، واللغة الإمام.

ومن مفاهيم الهيمنة، القوة والعلو وعدم الغلبة، فقد تحدَّى الله الخلق - إنسهم وجنهم - بالإتيان بمثل هذا القرآن ولو بآية واحدة منه، فعجزوا عن ذلك، مع أنه باللغة التي بها ينطقون ويتخاطبون ويتنافسون، وهم أهلها والأنجم في سمائها، وأصبح كبراًؤهم موضع السخرية والاستهزاء من قومهم عندما حاول أحدهم أن يأتي بمثل آية من القرآن الكريم، كمسيلم الكذاب وغيره.

### الخاصية الثالثة: العالمية:

لقد فرضت عالمية الرسالة على اللغة صفة العالمية، فطبيعة اللغة مُستمدَّة من طبيعة الرسالة، ولا شك أن اللغة التي يختارها الله ﷻ للبشرية لتكون لغة الاتصال به، وعبادته، وإقامة فريضة الصلاة بها، لا شك أنها الأجدر بأن تكون أكمل اللغات وأجملها، إنها اللغة المختارة التي اصطفها الله ﷻ وأنزل

= الإبادة والتطهير العرقي، أو تحريم استخدام اللغة بسبب العرق أو الدين، أو اندماج الأقليات العرقية بالأغلبية، حسبما يشير بايال سمبات الباحث في معهد «ورلد ووتش» الذي نشر بحثاً حول اندثار اللغات، ضمن تقرير أصدره المعهد تحت عنوان «فايتال ساينز ٢٠٠١»، وهو تقرير عن أهم التغيرات المقبلة في العالم. ويشير البحث إلى أن ٦٠٠ لغة من لغات العالم فقط ستمكّن من النجاة من الاندثار، لأنها لا تزال تدرس للصغار، وتظل لغة المندرين الصينية أكثر اللغات انتشاراً، إذ يتعامل بها ٨٨٥ مليون شخص، ثم الإسبانية، ثم الإنجليزية، ثم العربية، ثم لغة البنغال، واللغة الهندية، والبرتغالية، والروسية، ثم اليابانية والألمانية. ويتكلم بالإنجليزية التي أضحت اللغة العالمية للتجارة والتكنولوجيا، ٣٥٠ مليون شخص كلغة ثانية، إضافة إلى ٣٢٢ مليون شخص من الذين يعتبرونها لغتهم الأم «جريدة الشرق الأوسط السنة الثالثة والعشرون، العدد ٨٢١٥، السبت ٣ ربيع الأول ١٤٢٢هـ، ٢٦ مايو/ أيار ٢٠٠١م.

بها القرآن، قال ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. يقول إرنست رينان: «من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، وصعب حل سره انتشار اللغة العربية، فقد كانت غير معروفة، وبدأت فجأة في غاية الكمال سلسة، غنية كاملة لم يدخل عليها أي تعديل، فليس لها طفولة ولا شيخوخة». وتقول د. زيغريد هونكة: «كيف يستطيع أن يقاوم جمال هذه اللغة ومنطقها السليم وسحرها الفريد، فجيران العرب أنفسهم في البلدان التي فتحوها سقطوا صرعى سحر تلك اللغة، فلقد اندفع الناس الذين بقوا على دينهم في هذا التيار يتعلمون اللغة العربية بشغف، حتى أن اللغة القبطية ماتت تماماً، بل إن اللغة الآرامية لغة المسيح قد انحلت إلى الأبد عن مركزها، لتحتل مكانها لغة محمد، وقالت: وهكذا تحولت لغة قبيلة في خلال مائة عام إلى لغة عالمية»<sup>(١)</sup>.

#### الخاصية الرابعة: البيان والاستقامة:

لقد ورد ذكر اللسان العربي في القرآن من باب التركيز على الخصوصية التي تمتعت بها اللغة العربية بالمقارنة مع غيرها من اللغات، قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال ﷺ: ﴿يَلِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، إن كلمة مبين في الآيتين السابقتين وصف للسان العربي، وفي قوله ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقوله ﷺ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، كلمة «عربياً» فيها إشارة إلى ما في العربية من بيان ووضوح يمكن القارئ المتدبر لآياته من أن يعقل ويفهم القرآن. إن اللغة العربية هي اللغة الصحيحة قال ﷺ: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]، ولقد وصف الله كتابه العظيم فقال ﷺ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، فمن المؤكد أن يكون غير ذي عوج، واللغة العربية هي التي اختارها الله ﷺ لقرآن غير ذي عوج، وبها يتحقق البيان. ولا شك أن اللسان

(١) نقلاً عن كتاب: الظهور الإسلامي فجر دائم لعبد الملك الشيباني ص ٢١٧ - ٢١٨.

العربي إنما يحافظ على هذه الخصوصية ما دام مستقيماً على المسار الصحيح، من غير انحراف ولا اعوجاج ولا خروج عن قواعده الثابتة المقررة<sup>(١)</sup>. ومن استقام لسانه بالعربية استقام بكل لغة أو لسان آخر، ولا عكس، والسبب في ذلك أن الاستخدام لجهاز النطق الإنساني يكون في النطق بلغة العرب؛ فهي تستوعب كل الجهاز الصوتي من بداية التجويف الحلقوي وحتى الشفتين، وكان لهذا التوزيع والاستيعاب نتائج منها: انفراد العربية بحرف الضاد لذلك تُسمى اللغة العربية بلغة الضاد، وأنها الأقدر على استيعاب كتاب الله لاحتوائها على جميع الأصوات من أقصى الحلق إلى الشفتين، وأن العربي قادر على إتقان أي لغة دون عناء بينما غيره يجد صعوبة في النطق بكثير من الأصوات العربية<sup>(٢)</sup>.

إنَّ اللغة العربية لغة مستهدفة من أعدائها؛ لأن اللغة مَعْلَمٌ بارزٌ في تحديد الهوية وإثبات الذات، بل هي لغة القرآن ولسان الإسلام. إنَّ أي أمة تروم التقدم والقوة والعزة لا يمكنها ذلك إلا عندما تُعَلِّم ذلك كله بلغتها وتتصدى لخطر الإذابة بالعمل المنظم والمشاركة في البناء، بحيث تكون اللغة الفصحى هي المستخدمة في المؤسسات وخطاب الناس، ولا سيما الإعلام، ولا تفصل عن الجيل بحصرها في مناهج معينة لسنوات محدودة، بل يجب أن تكون هي لغة الحياة كلها. إنَّ قوة اللغة واستمرارها يعتمد بالدرجة الأولى على قناعة أصحابها بصلاحياتها وقيمتها وحرصهم على دعايتها وحمايتها. إنَّ الأمة بحاجة إلى الأمن اللغوي كما هي بحاجة إلى الأمن الفكري.



(١) انظر: اللغة العربية أصل اللغات لعبد الرحمن البوريني ص ٣٢، وللاستزادة والتوسع انظر: بحوث ومقالات في اللغة للدكتور رمضان عبد التواب الفصل الأول.  
(٢) انظر: أضواء على الصلات بين العروبة والاسلام لرجا عرابي ص ١٦١، مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه للدكتور عدنان زرزور ص ١١.



## الملائكة المصطفاة

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنَ النَّاسِ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] اصطفى الله ﷻ من ملائكته رسلاً لتبليغ عباده ما يشاء من شرعه وقدره. والملائكة، والملك أصله: مألِك، والمألِك والمألِكة والألوك: الرسالة. والملائكة تقع على الواحد والجمع، قال ﷻ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنَ النَّاسِ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]<sup>(١)</sup>. والتعريف اللغوي للملائكة يفيد أن الملائكة سفراء الله ﷻ إلى العباد.

وفي الاصطلاح: هي أجسام نورانية لطيفة مسكنها السماوات، ليس لها من خصائص الربوبية والألوهية شيء، أعطاهها الله القدرة على التشكل، وجعلها طائعة متذلة عابدة له، من أعظم جنوده، منقادة لأمره، قادرة على تنفيذه، لكل منها وظائف خصت بها<sup>(٢)</sup>.

وقال الله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحٍ مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ [فاطر: ١].

لقد أجرى الله ﷻ عليهم صفة أنهم رسل لمناسبة المقصود من إثبات الرسالة؛ أي: جاعلهم رسلاً إلى المرسلين من البشر للوحي بما يراد أن يبلغوه للناس. وفي تخصيص ذكر الملائكة من بين سكان السماوات والأرض

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص ٨٢، الصحاح للجوهري (٤/٣٤٦).

(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية للشيخ ابن عثيمين ص ٥٩، شرح الطحاوية لابن أبي العز تحقيق شعيب الأرنؤوط والتركي (٢/٤٠٧)، شرح ثلاثة الأصول للشيخ العثيمين ص ٩٠، مباحث العقيدة في سورة الزمر للدكتور ناصر الشيخ ص ٤٣٥.

لشرفهم بأنهم سكان السماوات، وعظيم خلقهم، وقد جعلهم الله أصحاب أجنحة، منهم من له اثنان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، يزيد في خلق الملائكة ما يشاء، كيف يشاء من ضخامة الأجسام، وتفاوت الأشكال، وتعدد الأجنحة، وقوة الطيران، والسرعة.

وفي تعدد الأجنحة إشارة إلى كمالية استعداد بعض الملائكة على بعض، وتفاوت ما لهم من المراتب والقوة، وإنما جعلوا رسلاً أولي أجنحة؛ ليكونوا أسرع لإنفاذ الأمر، وسرعة إنفاذ القضاء، فإن المسافة بين السماء والأرض لا تقطع بالأقدام إلا في زمن طويل، فجعلت لهم الأجنحة حتى يصلوا المكان البعيد في الوقت القصير.

إن الله ﷻ قدير على زيادة ما يشاء من ذلك فيما يشاء، ونقصان ما شاء منه ممن شاء، وغير ذلك من الأشياء كلها، لا يمتنع عليه فعل شيء أرادہ ﷻ (١).

ولقد انقسم المفسرون في اصطفاء الملائكة إلى قسمين:

القسم الأول: لم يسمّ الملائكة المصطفّاء، وإنما توقف مع النص، واكتفى بقوله: إن الله ﷻ اختار من ملائكته رسلاً إلى الأنبياء ﷺ وغيرهم، فيما يشاء من شرعه وقدره وحسبما ورد في الأحاديث (٢).

القسم الثاني: سمّى الملائكة المصطفّاء على النحو التالي:

١ - جيريل وميكائيل (٣).

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٣٧/١٢)، معاني القرآن للنحاس (٤٣٥/٥)، القرآن العظيم لابن كثير (٥٣٢/٦)، زاد المسير لابن الجوزي (٢٥٤/٦)، التفسير الكبير للرازي (٢٢/١٣)، البحر المحيط لأبي حيان (٢٨٦/٧)، روح البيان للبروسوي (٣١١/٧)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤٨/٢٢)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٢٩٩/٦).

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١٣٤/٤)، القرآن العظيم لابن كثير (٤٥٤/٥)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٤٥٩/٢)، الجواهر الحسان للثعالبي (٢/٤١٣)، نظم الدرر للبقاعي (١٧٧/٥)، محاسن التأويل للقاسمي (٦٤/١٢)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٤٤/١٧)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٣٢٨/٥).

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٦٦/١٠)، التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٢٧٥/٧).

٢ - جبريل وميكائيل وإسرافيل<sup>(١)</sup>.

٣ - جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت<sup>(٢)</sup>.

٤ - جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت والحفظة<sup>(٣)</sup>.

٥ - جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت والملائكة المتعاقبون،  
والملائكة المسددون حكام العدل وغيرهم<sup>(٤)</sup>.

نجد من خلال العرض السابق أن الملائكة التي أجمع على ذكرها أغلب  
المفسرين هم الملائكة الثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل صلوات الله عليهم  
أجمعين، وهو ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ  
يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [الأنعام: ١٢٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في معنى الآية: «ليس كل أحد أهلاً ولا صالحاً  
لتحمّل رسالته، بل لها محال مخصوصة لا تليق إلا بها، ولا تصلح إلا لها،  
والله أعلم بهذه المحال منكم<sup>(٥)</sup>. ومن هذا اختياره من الملائكة المصطفين  
منهم على سائرهم «كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل»: عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ  
عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ: بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ يَفْتَتِحُ  
صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ (اللَّهُمَّ رَبَّ  
جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.  
أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ

(١) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي (٧٤١/١)، مدارك التنزيل للنسفي (٤٥٥/٢).

(٢) تنوير المقباس لابن عباس ص ٣٥٧، معاني القرآن للنحاس (٤٣٥/٥)، معاني القرآن

للزجاج (٤٣٩/٣)، تفسير القرآن للسمعاني (٤٥٦/٣)، معالم التنزيل للبخاري (٥/٥)

(٣) زاد المسير لابن الجوزي (٣٢٩/٥)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/٧)

(٤) باب التأويل في معاني التنزيل للخازن (٢٦٥/٣)، فتح القدير للشوكاني (٣/٣)

(٥) فتح البيان للفتوحي (٢١٧/١١).

(٦) بحر العلوم للسمرقندي (٤٧١/٢)، تفسير الكبير للرازي (٣٢٩/١١)، روح البيان

للبروسوي (٣١٢/٧)، فتح البيان للفتوحي (٨٦/٩)، مراج لبيد لنووي الجاوي

(٧/٢).

(٨) البحر المحيط لأبي حيان (٢٨٥/٧).

(٩) زاد المعاد لابن قيم الجوزية (٥٣/١).

بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»<sup>(١)</sup>، فذكر هؤلاء الثلاثة لكمال اختصاصهم، واصطفائهم، وقربهم من الله. وكم من ملك غيرهم في السماوات لم يسمهم، إلا هؤلاء الثلاثة؛ فهم أفضل الملائكة المقربين ورؤسائهم، وكلهم موكلون بما فيه حياة؛ فجبريل موكل بالوحي الذي فيه حياة القلوب والأرواح وهي وظيفته، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربهم، يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب ﷻ، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور للقيام من القبور والحضور يوم البعث والنشور، ليفوز الشكور، ويجازى الكفور، فذاك ذنبه مغفور وسعيه مشكور، وهذا قد صار عمله كالهباء المنثور، وهو يدعو بالويل والثبور، ولهذا كان النبي ﷺ يتوسل بربوبية الله لهم في دعاء الاستفتاح في صلاة الليل: (اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ...) الحديث<sup>(٢)</sup>.

وبالنظر في آيات الكتاب الكريم، نجد أن الله ﷻ قد خص الله ﷻ جبريل وميكائيل بالذكر في قوله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٧ - ٩٨]، وهو من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة. ولقد أعاد الله ﷻ ذكرهما مع أنهما من الملائكة بلا خلاف، لخصوصية فيهما، إما لأمر اختص الله ﷻ بعلمه بهما اقتضى تخصيصهما، أو لأن جبريل روح الله وأمينه على وحيه وهو رسول ملكي، ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل. فحكم عليه بالكفر المحقق. وميكائيل أمينه على خزائن فتحه ورحمته، أو لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم<sup>(٣)</sup>، فأعلمهم أن من

(١) صحيح مسلم (٤٤٩/١) حديث رقم ٧٧٠.

(٢) شرح العقيدة الواسطية للشيخ العثيمين (٥٩/١)، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز حقيق عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط (٤٠٧/٢)، البداية والنهاية لابن كثير (١/٤٦)، مباحث المفاضلة في العقيدة د. الشظيفي ص ٣٥١، العقيدة الإسلامية للشيخ حنكة الميداني ص ٢٤١، والحديث في صحيح مسلم (٤٤٩/١) حديث رقم ٧٧٠.

(٣) انظر: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ١٦.

عادي واحداً منهما فقد عادي الآخر وعادي الله أيضاً، وعادي جميع ملائكته ورسله؛ لأن الذين سمّاهم الله ﷺ في هذه الآية هم أولياء الله وأهل طاعته<sup>(١)</sup>.

ولقد كان لبعض المفسرين رأي في تفضيل جبريل على ميكائيل، وإن خصصا بالذكر في آية واحدة؛ قال الإمام الرازي: ويجب أن يكون جبريل ﷺ أفضل من ميكائيل لوجوه:

أحدهما: أنه تعالى قدم جبريل في الذكر.

ثانيهما: أن جبريل ﷺ ينزل بالقرآن والوحي والعلم وهو مادة بقاء الأرواح، وميكائيل ينزل بالخصب والأمطار وهي مادة بقاء الأبدان، ولما كان العلم أشرف من الأغذية وجب أن يكون جبريل أفضل من ميكائيل.

ثالثهما: قوله ﷺ في صفة جبريل: ﴿مُطَاعٌ تَمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ٢١]، ذكره بوصف المطاع على الإطلاق، وظاهره يقتضي كونه مطاعاً بالنسبة إلى ميكائيل فوجب أن يكون أفضل منه<sup>(٢)</sup>. وقال الألويسي: «وأنا أقول بالأفضلية وليس عندي دليلٌ عليها إلا مزيد صحبته لحبيب الحق بالاتفاق، وسيد الخلق على الإطلاق، وكثرة نصرته وحبه له ولأمته، وقد أثنى الله عليه بما لم يثن على بقية الملائكة»<sup>(٣)</sup>.

بيان أدلة اصطفاء الله تعالى لجبريل ﷺ:

١ - إن المهمة التي اصطفى لها جبريل ﷺ، هي من أشرف المهمات وأعظمها، كيف لا وهي تبليغ وحي الله ﷻ لإحياء الأرواح والقلوب، والارتقاء بالنفوس إلى أعلى المقامات! ولقد خص الله ﷻ جبريل ﷺ بخصائص عظيمة أهّلته للقيام بهذه المهمة الشريفة على أكمل الوجوه، وذلك هو اختياره ﷻ المبني على كمال علمه، وعظيم إحاطته بخلقه، وبالمحال الصالحة للقيام

(١) انظر: بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (١/٣٣٢)، الفوائد المشوق لابن قيم الجوزية القاعدة الثلاثون (الاختصاص) ص ٢٢٦، جامع البيان لابن جرير الطبري (١/٦٠٦)، المحرر الوجيز لابن عطية (١/٣٤١)، القرآن العظيم لابن كثير (١/٣٤١).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢/٢٧١).

(٣) روح المعاني للألويسي (١/٣٣٤).

بالمهمات الجليلة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وقد ذكره الله ﷻ بلفظ الجماعة تعظيماً له، وسمّاه بروح القدس، وخصه وحده بهذا الاسم دون غيره، ووصفه بأوصاف عظيمة لم يوصف بها غيره من أفراد نوعه تشرifaً له، وتعظيماً لمكانته، وللمهمة التي اصطفى للقيام بها، قال الله ﷻ: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (النحل: ٢).

وقال قتادة رضي الله عنه: «بل هو من السادة والأشراف معتنى به، انتخب لهذه الرسالة العظيمة»<sup>(١)</sup>، والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات وأشرف الرسائل كما أنه مقرب عند الله ﷻ، له مكانة ومنزلة رفيعة فوق منازل الملائكة كلهم، وخصيصة من الله اختصه بها، ولهذا كان هو السفير بين الله ورسله<sup>(٢)</sup>.

والمقصود بالملائكة في قوله تعالى: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ جبريل عليه السلام وحده، قال أبو حيان: وهو قول الجمهور<sup>(٣)</sup>. ويسمى الواحد بالجمع إذا كان الواحد رئيساً مقدماً، تعظيماً له، ورفعاً لشأنه. والمعنى أن الله ﷻ ينزل جبريل عليه السلام بالوحي، على من يشاء من عباده دون بعضهم لأن ذلك نتيجة فعله بالاختيار، فاخصهم بصفات أهلتهم لذلك؛ أي: أنه ينزل الوحي على من اختاره، ومن هو أهل لذلك<sup>(٤)</sup>.

٢ - تسمية جبريل عليه السلام بروح القدس ولقد جاء في أربعة مواطن من القرآن الكريم:

- (١) القرآن العظيم لابن كثير (٣٣٩/٨).
- (٢) انظر: تفسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٧٨/٧)، أصول الإيمان للشيخ محمد بن عبد الوهاب تحقيق د. باسم الجوابرة ص ٩١.
- (٣) البحر المحيط لأبي حيان (٤٥٩/٥).
- (٤) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٠٣/٨)، الوجيز في الكتاب العزيز للواحدي (٦٠٠/١)، معالم التنزيل للبغوي (٨/٥)، المحرر الوجيز لابن عطية (٣٧٨/٣)، نظم الدرر للبقاعي (١٣/٦)، بحر العلوم للسمرقندي (٢٦٥/٢)، روح البيان للبروسوي (٣/٥)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٩٨/١٤)، فتح البيان للفتوحاني (٢٠٦/٧).

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ أَيْدِيهِمْ بِالرُّسُلِ وَإِنَّا لَعَلِيمُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقال ﷻ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَإِنَّا لَعَلِيمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ إِنِّي أَدْخُرُكَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ وَإِنَّهُمْ لِرَبِّكَ لَكَاذِبُونَ﴾ [البقرة: ١١٠].

وقال تعالى ﷻ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

قال الطبري: «أولى التأويلات عندي بالصواب قول من قال أن الروح في هذا الموضع جبريل»<sup>(١)</sup>، ووافق ابن عطية والماوردي.

وسُمِّي بالروح لأنه ذو روح من جملة روح الله ﷻ الذي بثه في خلقه، ولأنه يجري من الهدايات والرسالات ومن الملائكة أيضاً مجرى الروح من الأجساد لشرفه ومكانته، وللطافته ورقته، ولأن الغالب على جسمه الروحانية، وكذلك سائر الملائكة، وإنما خص به جبريل ﷺ تشريفاً له، ولأن روحانيته أتم وأكمل، ولأنه المتولي إنزال الوحي الذي هو سبب حياة القلوب؛ لأنه بمنزلة الأرواح للأبدان.

والقُدُس: هو الطهر أو الموضع المُطَهَّر. والمراد به هنا معناه الحقيقي والمجازي، الذي هو الفضل وجلالة القدر، فكأن جبريل أضيف إلى الأمر المطهر بإطلاق، والإضافة للاختصاص، وللمبالغة في كثرة ملابسته له واختصاصه به، ولنزوله بما يظهر النفوس من القرآن والحكمة والفيض الإلهي<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٥٦٩/١)، المحرر الوجيز لابن عطية (١/١٧٦)، النكت والعيون للماوردي (١/١٥٦).

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٥٦٩/١)، النكت والعيون للماوردي (١/١٥٦)، تفسير القرآن للسمعاني (١/١٠٦)، معالم التنزيل للبغوي (١/١٢٠)، المحرر الوجيز لابن عطية (١/١٧٦). (٣/٤٢١)، التفسير الكبير للرازي (٢/٢٤٣)، روح المعاني للألوسي (١٤/٢٣١)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٤/٢٨٥)، محاسن التأويل للقاسمي (١٠/١٥٩)، أضواء البيان للشنيطي (٣/٣٣٦).

٣ - وصف الله ﷺ جبريل ﷺ بصفات عظيمة وردت في القرآن الكريم. وهذه تهيئة ربانية من الله ﷻ أهلته للقيام بتلك المهمات، قال ابن القيم: «ووصفه بهذه الصفات يدل على عظمة شأن المرسل، والرسول، والرسالة، والمرسل إليه؛ حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده، المطاع في الملاء الأعلى، الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف ذوي الأقدار والرتب العالية»<sup>(١)</sup>. .

صفات جبريل ﷺ في القرآن الكريم:

أولاً: شديد القوى:

قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥].

شديد الأسباب، شديد القوى الظاهرة والباطنة؛ قوة في الإدراك، قوة في الحفظ، قوة في الأمانة، قوة في العلم، قوة في إيصال الوحي، قوة على تنفيذ ما أمره الله به من الأعمال العظيمة وفيه تأكيد لقوة جبريل ﷺ، معلم الرسول ﷺ، فهو أفضل الملائكة الكرام، وأقواهم، وأكملهم. وفي ذلك تنبيه على أمور:

- أن جبريل بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه، وأن ينالوا منه شيئاً، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

- أن من عادى الرسول ﷺ فقد عادى صاحبه جبريل ﷺ ذا القوة، فهو عرضة للهلاك.

ولقد ورد في الأحاديث ذكر عظم خلق جبريل ﷺ، مما ينم عن عظيم قوته وقدرته، قالت السيدة عائشة ؓ: (مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ، وَلَكِنْ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَخَلْقِهِ سَادًّا مَا بَيْنَ الْأَفْقِ)<sup>(٢)</sup>.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ؓ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (١٨) قَالَ: (رَأَى رُفْرَفًا أَخْضَرَ سَدًّا أَفْقَ السَّمَاءِ)<sup>(٣)</sup>.

(١) بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (١٣٤/٥).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٢٣٤.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٢٣٣.



وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٩)؛  
 أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتْمَانَةُ جَنَاحٍ <sup>(١)</sup>. وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه؛ أَنَّهُ قَالَ  
 فِي هَذِهِ آيَةِ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (١٢)، قَالَ رضي الله عنه: (رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ  
 الْمُنتَهَى، عَلَيْهِ سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ، يَنْتَثِرُ مِنْ رِيشِهِ النَّهَائِيلُ: الدُّرُّ وَالْبَاقُوتُ) <sup>(٢)</sup>.

ثانياً: ذو مِرَّة:

قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ (٦) [النجم: ٦].

والمقصود: صحة الجسم، وشدته، وقوته، وسلامته من الآفات  
 والعاهات، وذو حصافة؛ يعني استحكام في عقله ورأيه ومثابته في دينه، لا  
 يمكن تغييره ولا نسيانه، جميل المنظر، حسن الصورة، ذو جلاله، بل هو من  
 أجمل الخلق وأقواهم، كما له قدرة على القتل والتلوي والمعالجة في التعليم  
 حتى يبلغ غاية ما يريد من تمكين العلم فيمن يعلمه. وتطلق المِرَّة على قوة  
 الذات وعلى متانة العقل وأصالته، وتخصيص جبريل بهذا الوصف يشعر بأنه  
 الملك الذي ينزل بفيوضات الحكمة على الرسل والأنبياء <sup>(٣)</sup>.

ثالثاً: رسول كريم:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٨) [التكوير: ١٩].

الكرم اجتماع كمالات الشيء اللائقة به، ووصف بالكريم لكرم أخلاقه،  
 وخصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبةً عند ربّه، فهو كريمٌ على  
 مُرسله، كريمٌ من الله، كريم على الله، انتفت عنه وجوه المذامّ كلها، وثبتت له  
 وجوه المحامد كلها، فهو جواد شريف النفس ظاهر عليه معالي الأخلاق،

(١) صحيح مسلم (١٣٨/١) حديث رقم ١٧٤.

(٢) المسند للإمام أحمد (٣١/٧) حديث رقم ٣٩١٥. تحقيق شعيب الأرناؤوط وقال:  
 إسناده حسن.

(٣) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٥٦/١٣)، تفسير البيان لابن كثير (٤٤٤/٧)،  
 بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٢٧٩/٤)، اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (١٨/  
 ١٥٩)، روح البيان للبروسوي (٢١٤/٩)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٩٥/٢٧)،  
 معارج التفكير للميداني (١٠٦/٢).

فلذلك هو يفيض بالخيرات بإذن ربه، فيؤدّي ما أرسل به كما هو لقيامه بالرسالة قيام الكرام، فلم يُغيّر فيها شيئاً لا أصلاً ولا فرعاً حتى يمكن غيره أن يحرف أو يغير، وفي هذا تعديل لسند الوحي.

رابعاً: عند ذي العرش مكين:

قال تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠].

بمعنى المكانة؛ أي: له مكانة ووجاهة، ومنزلة رفيعة، وخصيصة من الله ﷻ اختصّه بها. وهو من أقرب الملائكة وأفضلهم عند الله ﷻ؛ وكان الله ﷻ يخصه بأمر لم يخص بها سواه من الملائكة.

فقد ثبت أن الله ﷻ يناديه من بين ملائكته إذا أحب عبده، ويقول له: يا جبريل إني أحببتك فأحبه. وذلك لأن حب الله ﷻ للعبد إنما يكون بتطبيق وحيه المنزل عن طريق جبريل ﷺ، قال ﷺ: (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأُحِبُّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأُحِبُّهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ)<sup>(١)</sup>.

وعندما خلق الله ﷻ الجنة ناداه، قال ﷻ: (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ ﷻ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ وَرَبٍّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا؛ ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ وَرَبٍّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ)<sup>(٢)</sup> وذلك لأن الجنة جزاء العاملين بالوحي.

وفي قوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ إشارة إلى علو منزلة جبريل؛ إذ كان قريباً من ذي العرش، مكيناً عند رب العرش العظيم، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مَثَا إِلَّا لَّهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي: في العبودية وتسخيره فيما يريدته تعالى منه.

(١) صحيح البخاري رقم ٣٢٠٩.

(٢) سنن أبي داود (٢٤٥/٥) حديث رقم ٤٧١١، سنن الترمذي (٥٩٨/٤) حديث رقم ٢٥٦٠، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

## خامساً: مطاعٌ ثمَّ أمينٌ:

قال تعالى: ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينَ﴾ [التكوير: ٢١].

تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المُطاعين في قومهم، فلم ينتدب الله ﷺ لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المُطاع، فهو مُطَاعٌ في الملأ الأعلى، وله وَجَاهَةٌ، تطيعه الملائكة؛ حيث إنَّ طاعته على أهل السماوات واجبة كطاعة محمد ﷺ على أهل الأرض. وقال الله ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٧٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤] أمين عند الله ﷻ على وحيه ورسالته وغير ذلك ممَّا ائتمنه الله ﷻ عليه، وهذا أمرٌ عظيم في أن يُزَكِّي الله ﷻ عبده ورسوله جبريل ﷺ كما زكَّى عبده ورسوله محمداً ﷺ<sup>(١)</sup>.

## سادساً: موالاته للرسول ﷺ:

أنه موالٍ للرسول ﷺ ومعاضد له، قال الله ﷻ: ﴿إِنْ نُوَبِّأْ إِلَى اللَّهِ فَدَدَ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [التحریم: ٤]، ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره وأعوانه ومعلميه فهو المنصور والمهدي، والله هاديه وناصره<sup>(٢)</sup>. والمعنى: أن الملائكة مع جبريل، وصالح المؤمنين أعوانٌ على مَنْ آذاه وأراد مساءته. وذكر جبريل ﷺ عموماً وخصوصاً، إظهاراً لشدة محبته وموالاته للنبي ﷺ، وقرن ذكر الله ﷻ بجبريل مفرداً له من دون الملائكة تعظيماً له وإظهاراً لمكانته<sup>(٣)</sup>. إن المتأمل في سيرة المصطفى ﷺ ليجد قوة الصلة ومتانة العلاقة بين

- 
- (١) صفات جبريل ﷺ من ٣-٦ انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٥/١٠٠)، بحر العلوم للسمرقندي (٣/٥٣١)، تفسير القرآن للسمعاني (٦/١٦٩)، القرآن العظيم لابن كثير (٨/٣٣٨)، بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٥/١٣٤)، اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٢٠/١٨٨)، نظم الدرر للبقاعي (٨/٣٤٣)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧/٥٧٨).
- (٢) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٣/٥٦)، زاد المسير لابن الجوزي (٧/٢٧٤)، التفسير الكبير للرازي (١٤/٦٢٨)، بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٤/٢٧٩)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٧/٩٥)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧/٢٠٤).
- (٣) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٤/١٠٥)، التفسير الكبير للرازي (١٥/٥٩٠)، البحر المحيط لأبي حيان (٨/٢٨٦)، نظم الدرر للبقاعي (٨/٤٧)، روح المعاني للألوسي (٢٨/١٥٣).

جبريل عليه السلام الرسول الملكي، وبين محمد صلى الله عليه وسلم الرسول البشري، تلك الصلة التي لم تتوقف عند حد التبليغ وحسب، وإنما كان عليه السلام يحبه ويحب أمته، يزوره، ويؤمّه، ويرقيه، ويجاهد معه، وينافح عنه ويؤيد من ينافح عنه. وكان صلى الله عليه وسلم يبادله هذا الحُبّ العظيم، ويشتاق إلى رؤيته، ويطلب منه مزيد النزول، وتكرر الزيارة.

ولقد دلت الأحاديث الصحيحة على ذلك، وهذا ممّا يؤكّد اضطفاء جبريل عليه السلام بما خصّه الله صلى الله عليه وسلم به من عظيم الصفات للقيام بأعظم المهمات للمصطفين من العباد، ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتمهم وسيدهم:

- فكان جبريل عليه السلام إمامه في الصلاة؛ قال صلى الله عليه وسلم: (نَزَلَ جِبْرِيلُ فَأَمَّنِي فَصَلَّيْتُ مَعَهُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ) <sup>(١)</sup>.

- وكان صاحبه في الإسراء والمعراج. قال صلى الله عليه وسلم: (.. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا) <sup>(٢)</sup>.

- وكان يجاهد معه ويؤازره في حروبه. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ («يَوْمَ بَدْرٍ»: هَذَا جِبْرِيلُ أَخَذَ بِرَأْسِ فَرَسِهِ عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ) <sup>(٣)</sup>، وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ شِمَالِهِ، يَوْمَ أُحُدٍ، رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيَاضٍ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ. يَعْنِي: جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ <sup>(٤)</sup>.

- وكان يؤيد من ينافح ويدافع عن الرسول صلى الله عليه وسلم، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ لِحَسَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ)، وَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: (هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى) قَالَ حَسَّانُ:

- (١) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٢٢١.
- (٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٤٩.
- (٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٩٩٥.
- (٤) صحيح مسلم (١٤٣٧/٤) حديث رقم ٢٣٠٦.

وَجِبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ فِيْنَا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءٌ<sup>(١)</sup>  
 - وكان ينزل عليه عند همّه وضيقه قال ﷺ: (... فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ  
 عَلَى وَجْهِهِ فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ  
 قَدْ أَظْلَنْتَنِي، فَتَنَظَرْتُ فِيهَا فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ... الحديث<sup>(٢)</sup>.  
 - وكان ﷺ يرقيه عند شكواه، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى  
 النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: (يَا مُحَمَّدُ! اسْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: (نَعَمْ). قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ  
 كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ. بِاسْمِ اللَّهِ  
 أَرْقِيكَ). الحديث<sup>(٣)</sup>.

ولقد كان الرسول ﷺ يُحِبُّهُ وَيَأْنَسُ بِنَزُولِهِ عَلَيْهِ، وَكَانَ يَقُولُ لَهُ: (أَلَا  
 تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟) فنزلت: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا  
 خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]<sup>(٤)</sup>.

ولقد نعى الرسول ﷺ عند موته إلى جبريل ﷺ؛ لأنه هو الذي كان  
 يأتيه بالوحي صباحاً ومساءً، فإذا فقد الرسول عليه الصلاة والسلام فقد نزل  
 جبريل إلى الأرض بالوحي؛ لأنه انقطع بموت الرسول ﷺ، عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ  
 عَنْهُ قَالَ: لَمَّا ثُقِلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَعَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَآكْرَبَ أَبَاهُ.  
 فَقَالَ ﷺ: (لَيْسَ عَلَى أَبِيكَ كَرْبٌ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ)، فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ!  
 أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ. يَا أَبَتَاهُ! مَنْ جَنَّتُهُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ. يَا أَبَتَاهُ! إِلَى جِبْرِيلَ  
 نَعَّاهُ<sup>(٥)</sup>.

إن تعظيم هذا الرسول إنما يكون بتعظيم خالقه ﷻ، خوفاً ورهبةً،  
 تعظيماً وإجلالاً. فهو بعظمته هذه إنما هو مخلوق من مخلوقات الله ﷻ،  
 فكيف بخالقه ﷻ، وكما يكون تعظيمه بتعظيم من أرسل إليه وهو المصطفى ﷺ

- (١) صحيح مسلم (١٥٣٧/٤) حديث رقم ٢٤٩٠.
- (٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٢٣١.
- (٣) صحيح مسلم (١٣٧١/٤) حديث رقم ٢١٨٦.
- (٤) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٢١٨.
- (٥) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٤٦٢.

تصديقاً به، وحباً له، واتباعاً لسنة، فإن ما جاء به إن هو إلا وحي  
أوحاه الله ﷻ إليه عن طريق جبريل ﷺ، ويكون كذلك بتعظيم ما جاء به  
قراءةً وتدبراً، عملاً وتطبيقاً.

إن الإيمان بالغيب، ومنه عالم الملائكة الأبرار، ليعطي لحياة صاحبه  
قيمة جوهرية عميقة غير تلك القيمة الظاهرية التي يعيشها منفصلاً عن كل ما  
حوله من الوجود؛ إنه يعطيه عمقاً في الفهم وتأصيلاً لمعنى الوجود.

إن الإنسان لا يحيا وحده في هذا الكون فيشعر بالوحشة، وإنما يؤمن  
بوجود من يلازمه منذ نفخ الروح فيه، وحتى قبضها منه نهاية أجله، فيقدر  
هذا، ويؤمن به ويعمل بمقتضاه؛ وهكذا يكون تعظيم تلك المخلوقات؛ لأن  
الأمور إنما تعظم بتعظيم الله لها.



## المبحث الرابع

### اصطفاء بعض الأزمنة

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: اصطفاء شهر رمضان المبارك.

المطلب الثاني: اصطفاء الأشهر الحرم.

المطلب الثالث: اصطفاء يوم الجمعة.

المطلب الرابع: اصطفاء ليلة القدر.

المطلب الخامس: اصطفاء الليالي العشر من ذي الحجة.

## توطئة

إِنَّ اللَّهَ وَكَذَلِكَ هُوَ وَحْدَهُ الْمَنْفَرِدُ بِالْخَلْقِ وَالْإِخْتِيَارِ دُونَ غَيْرِهِ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الفصص: ٦٨]؛ أي: ليس لأحد من خلقه حق الاختيار، إنما هو من فعل الله وَكَذَلِكَ وَحْدَهُ؛ فإنه بعلمه وحكمته أعلم بمواقع الاختيار، وليس لنا إلا التسليم والرضا باختيار الله وَكَذَلِكَ، مع اليقين الكامل بأنه هو الأصلح، وإن لم تُدرِك عقولنا كافة وجوه الحكمة الإلهية من ذلك الاختيار. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]. والله وَكَذَلِكَ لَا يَخْتَارُ لِعِبَادِهِ وَيَصْطَفِي لَهُمْ إِلَّا مَا يُصْلِحُهُمْ، وَمَا يُصْلِحُ لَهُمْ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأُخْرَتَهُمْ؛ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

اصطفى الله وَكَذَلِكَ مِنَ الزَّمانِ أَشْرَفَهُ، وَاصْطَفَاءُ اللَّهِ لِبَعْضِ الْأَزْمَنَةِ - كَمَا بَيَّنَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ - إِمَّا لِيَخْصَّهَا بِأُمُورٍ تَعْبُدِيَّةٍ وَأَحْكَامٍ خَاصَّةٍ يَفْرُضُهَا اللَّهُ وَكَذَلِكَ عَلَى النَّاسِ لَا تَقَامُ إِلَّا فِيهِ، أَوْ بِحَدَثٍ عَظِيمٍ يَقَعُ فِيهِ، وَقَدْ يَصْطَفِيهِ لِيَخْصَّ بِهِ بَعْضَ خَلْقِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ، كَمَا خَصَّ الْأُمَّةَ الْمَحْمُودِيَّةَ بِيَوْمِ الْجُمُعَةِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ، فَيَكُونُ شَرَفُ ذَلِكَ الزَّمانِ خَاصًّا بِهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَقَدْ يَجْتَمِعُ فِيهِ كُلُّ مَا ذَكَرْنَا سَابِقًا وَاللَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يَرِيدُ، وَلَهُ وَكَذَلِكَ أَنْ يَمَيِّزَ بَعْضَ الزَّمانِ بِمَا لَمْ يَمَيِّزْ بِهِ غَيْرَهُ فَيَخْصُّهُ بِمَزِيدِ التَّعْظِيمِ، وَمُضَاعَفَةِ الْحَسَنَاتِ، وَتَكْثِيرِ الثَّوَابِ؛ لِتَبَادُرِ النُّفُوسِ إِلَى الْعَمَلِ فِيهِ بِمَا شَرَعَ اللَّهُ وَكَذَلِكَ، وَلِتَخْصَّهُ بِمَزِيدٍ مِنَ الْجَهْدِ.

ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ فِي «لَطَائِفِ الْمَعَارِفِ» وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَنْشُورِ» عَنِ كَعْبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «اخْتَارَ اللَّهُ الْبُلْدَانَ، فَأَحَبُّ الْبُلْدَانِ إِلَى اللَّهِ الْبَلَدُ الْحَرَامُ، وَاخْتَارَ اللَّهُ الزَّمانَ، فَأَحَبُّ الزَّمانِ إِلَى اللَّهِ الْأَشْهُرُ الْحَرَمُ، وَأَحَبُّ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ إِلَى اللَّهِ ذُو الْحِجَّةِ، وَأَحَبُّ ذُو الْحِجَّةِ إِلَى اللَّهِ الْعَشْرُ الْأَوَّلُ مِنْهُ، وَاخْتَارَ اللَّهُ الْأَيَّامَ، فَأَحَبُّ الْأَيَّامِ إِلَى اللَّهِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَأَحَبُّ اللَّيَالِي إِلَى اللَّهِ



ليلة القدر، واختار الله ساعات الليل والنهار فأحبَّ الساعات إلى الله ساعات الصَّلوات المكتوبات، واختار الله الكلام، فأحبَّ الكلام إلى الله: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله»<sup>(١)</sup>.

وعن قتادة أنه قال: «إنَّ الله اصطفى صفايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظموا ما عظم الله فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل»<sup>(٢)</sup>.

إن منهج المسلم تجاه ما اصطفاه الله ﷻ، هو الوقوف مع النصوص الصحيحة لا يتخطاها إلى غيرها، ولا يُشرع ما لم يأذن به الله، فيقع في البدع التي وقع فيها كثير من الناس وذلك بتعظيمهم بعض الأزمنة، وتخصيصها بعبادات، فَضَلُّوا وَ أَضَلُّوا.

إنَّ الحديث عن اصطفاء الله ﷻ لبعض الزمان ما هو إلا لتسليط الضوء على ذلك الزمان، وبيان ما خصه الله به، للقيام بواجب ذلك الزمان وتعظيمه بما عظمه الله ﷻ؛ فإنما تعظم الأمور بتعظيم الله لها.

ولقد جاء في كتاب الله ﷻ بيانُ الأزمنة التي اصطفاه الله ﷻ:

- من الأشهر : شهر رمضان.
- الأشهر الحرم.
- ومن الأيام : يوم الجمعة.
- ومن الليالي : ليلة القدر.
- : الليالي العشر من ذي الحجة.

(١) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي ص ٣٠٩، الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي (٤٢٥/٣).

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦٤/٦)، المحرر الوجيز لابن عطية (٣١/٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٤٨/٤)، الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي (٤٢٥/٣).

## اصطفاء شهر رمضان المبارك

- قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومعنى الشهر: من الشُّهُرة، يقال: شهر فلان سيفه إذا أخرجه من غمده، وشهر الشهر إذا طلع هلاله<sup>(١)</sup>. ورمضان: اسم لهذا الشهر المخصوص (شهر رمضان) وهو الصحيح<sup>(٢)</sup>.

وفي سبب تسميته بـرمضان:

- أن العرب سموا الشهور بالأزمنة التي وقعت فيها وقت التسمية، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحرف فسمي به<sup>(٣)</sup>.

- وسُمِّي بذلك من الرَّمْضاء (بسكون الميم)، وهو مطر يأتي قبل الخريف يُطَهِّرُ وَجْهَ الأَرْضِ مِنَ الغبار، والمعنى فيه: أنه كما يغسل المطر وجه الأرض ويُطَهِّرُها، فكذلك شهر رمضان يغسل أبدان هذه الأمة من الذنوب ويُطَهِّرُ قلوبهم، فهو يرمض الذنوب أي: يحرقها، والمعنى أنها تتلاشى في جنب رحمة الله ﷻ حتى كأنها احترقت<sup>(٤)</sup>.

- لأن القلوب تحترق فيه من الموعظة<sup>(٥)</sup> لما يكون فيها من الشفافية والخشوع.

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢/١٩٥).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (١/١٩٨).

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢/١٩٥)، معالم التنزيل للبغوي (١/١٩٨)، اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٣/٢٧٣)، روح البيان للبروسوي (١/٢٩٢).

(٤) التفسير الكبير للرازي (٣/٧٣).

(٥) اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٣/٢٧٣).

ولقد خصَّ اللهُ ﷻ شهرَ رمضانَ المباركَ بخصائصٍ (١) ميزته عن بقية الأشهر نذكر منها على سبيل المثال الآتي:

**الخاصية الأولى: نزول القرآن الكريم فيه:**

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، بدأ اللهُ ﷻ الآية بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، وهي جملة فيها تنبيهٌ على فضل هذا الشهر العظيم، وتميُّزه عن بقية الشهور، بابتداء نزول النعمة العظمى على هذه الأمة فيه، وخصَّه بأعظم آيات الربوبية، فكان هو الزمان المصطفى لابتداء نزول القرآن الكريم.

إنَّ حدثاً كهذا يعد الأكبر من نوعه عبر التاريخ، حيث اتصلت فيه الأرض بالسماء، بحبل الله ﷻ المتين، الذي أنقذ الإنسانية من الهلاك، وتربت على آياته خير أمة أخرجت للناس، فكانت متميِّزة بين الأمم، ولم تكن قبل ذلك شيئاً مذكوراً، فأشرفت خيراً على الناس، فكانت شمساً ساطعة لم ير معها نجم ولا قمر.

امتدح اللهُ ﷻ في الآية الكريمة شهرَ الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره لإنزال القرآن العظيم فيه، فاخترَ هذا الشهر لأنه شُرِّفَ بنزول القرآن الكريم فيه، والذي أنزله اللهُ هُدىً لقلوب العباد ولمصالحهم الدينية والدينية، وجعله دلائل وحججاً بينةً واضحةً لمن فهمها وتدبَّرها، دالةً على ما جاء به من الهدى المُنافي للضلال، والرُّشد المخالف للغى، ومفرِّقاً بين الحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة وأهل الشقاوة (٢).

**الخاصية الثانية: فرض صيامه كاملاً:**

قال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

إنَّ ممَّا خصَّ به شهر رمضان كذلك هو فرض صيام أيامه كاملةً، شكراً لله ﷻ على ما منَّ به على هذه الأمة بنزول القرآن الكريم. قال الرازي:

(١) خصائص شهر رمضان كثيرة مباركة أفردت في كتب ومجلدات، يصعب ذكرها هنا خشية الإطالة وللفادة يرجع إليها في مظانها التي أسهبت في الحديث عنها.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/٥٠١)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٢٢٢).

«يمكن أن يقال: الفاء هاهنا للجزاء، فإنه تعالى لما بيّن كون رمضان مختصاً بالفضيلة العظيمة التي لا يشاركه سائر الشهور فيها، فبين أن اختصاصه بتلك الفضيلة يناسب اختصاصه بتلك العبادة؛ ولولا ذلك لما كان لتقديم بيان تلك الفضيلة هاهنا وجه، كأنه قيل: لما علم اختصاص هذا الشهر بهذه الفضيلة فأنتم أيضاً خصّوه بهذه العبادة»<sup>(١)</sup>.

إن هناك مناسبة بين نزول القرآن الكريم في شهر رمضان وفرض صيامه، فحينما كان الشهر مختصاً بنزول القرآن، وجب أن يكون مختصاً بالصوم، وذلك أن الله خصّه بأعظم آيات الربوبية؛ وهو إنزال القرآن فيه. فلا يبعد أيضاً تخصيصه بنوع عظيم من آيات العبودية وهو الصوم. فالصوم من أقوى أسباب إزالة العلائق البشرية، وفيه حُسن تلق لمعنى القرآن الكريم ويسر في تلاوته. وإنّ من أعظم المقاصد من الصيام تصفية الفكر لأجل فهم القرآن، حيث أن مفتاح الهدى إنما هو الجوع، وأنّ الأعضاء متى أوهنت لله ﷻ نور الله القلب وصفّى النفس؛ وقوى الجسم، كما أنّ الانصراف عن الشهوات المادية يساعد الفكر والروح على الارتقاء، فتزداد النفس صفاء والقلب ضياءً، وتتوثق صلة العبد بربه، وهو يشعر بضعفه وحاجته إلى خالقه. وفيه إعلان بذكر ما يجده الصائم من نور قلبه وانكسار نفسه، وتهيئة فكره لفهمه؛ ليشهد تلك البيّنات في نفسه. فحقيقٌ بشهر عظيم هذا فضله، وهذا إحسان الله على الأمة فيه، أن يكون موسماً للعبادة، ومفروضاً فيه الصيام<sup>(٢)</sup>.

وتجلّى مناسبة قوله تعالى: ﴿وَلْتَكْبُرُوا لِلَّهِ عَلٰنَ مَا هَدٰنٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥] أنّ الله ﷻ لمّا هدى هذه الأمة إلى كلّ أبواب الخير، وأرشدّها إلى الصواب، وادّخر الأنفس والأصلح لها دائماً - دون غيرها من بقية الأمم - استوجب منها أداء الشكر لله ﷻ على كلّ هذه النعم. ولقد بيّن الله في الآية أن شكره على هذه النعمة العظيمة، إنما يكون بالتكبير له وحده لا لغيره.

(١) التفسير الكبير للرازي (٣/٨٠).

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢/١٩٥)، التفسير الكبير للرازي (٣/١٧٧)، نظم الدرر للبقاعي (١/٣٤٦)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢/١٧٧)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٢٢٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلْيُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي: لِيُعْظَمُوهُ بالذكر له على ما أنعم عليكم به من الهداية التي لم يوفق إليها غيركم من أهل الملل الذين كتب عليهم مثل الذي كتب عليكم فيه فضلوا بتبديل أيام صيامهم ، وخصَّكم بكرامته فهداكم له دون سائر الملل، ووفَّقكم لأداء ما كتب عليكم من صومه، ويسَّر لكم شرائع هذا الدين فهيَّأكم للزومها ودوام التمسُّك بعراها، والإرشاد إلى ما رضي به من صوم شهر رمضان وخصَّكم به دون سائر أهل الملل. ولعل هذا هو سرُّ الاهتمام بالصيام من الخاصِّ والعام، ثم إنَّ التكبير بعد نهاية تلك الطاعة يوجب أن يكون له خصوصية زائدة على التكبير الواجب في كل الأوقات<sup>(١)</sup>.

وقوله ﷺ: ﴿هَدَيْتُكُمْ﴾: لفظ عام تندرج تحته كل معاني الهداية ومفاهيمها، والتي منها الهداية إلى صيام شهر رمضان، وجعل صيامه ركناً من أركان الإسلام الخمسة، ومنها الهداية بنزول القرآن الكريم والذي تحصل به كل أنواع الهداية.

#### الخاصية الثالثة: تحديد ميقات العيد:

إنَّ من الأمور المهمة التي خص بها شهر رمضان هو تحديد ميقات العيد بعده مباشرة، وهو - كاصطفاء الرسل - أمره إلى الله ﷻ وحده، ولقد شرع لغايات كبيرة، إذ ارتبط بزمن معين بعد شهر الصيام، وفي ذلك حكمٌ عظيمةٌ، منها التعبير عن الفرح والسرور بنعمة الهداية التي خص الله بها هذه الأمة، ومنها الترويح عن النفس، وتجدد القوى، ومكافأة النفس بعد أداء هذه العبادة، فتنشط لأداء بقية العبادات، ويطردها عنها السَّامة والملل والفتور.

إنَّ العيد يذكر الأمة بنزول الرسالة الخالدة للإنسانية عامة، وبالذور المناط بها في نشر الحق وإقرار العدل، فهي المسند إليها إصلاح العالم أجمع، ولن يكون ذلك إلا بإعلاء كلمة «الله أكبر» استشعاراً بعظمتها، وإدراكاً لمدلولها وأبعادها وأهدافها، وإيداناً بتأسيس حياة إنسانية وعالمية جديدة.

إنَّ العيش بدون الماضي المجيد، يجعل الإنسان يحيا صغيراً وضعيفاً؛

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢/١٩٥)، التفسير الكبير للرازي (٣/١٧٧)،

نظم الدرر للبقاعي (١/٣٤٦)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢/١٧٧)، تيسير الكريم

الرحمن للسعدي (١/٢٢٢).

لأنه يعيش بدون ماضيه القوي الضارب بجذوره في أعماق الأرض، والشامخ بقيمه إلى عنان السماء، هذا التاريخ الذي سطره الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم. فالدور المناط بورثة هذه الرسالة عظيم، والطريق الوحيد للقيام بمهمتهم العظمى هو الاستعانة بالله الكبير الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والذي تتضاءل أمامه قوى الباطل المنتشرة.

إنَّ العيد بميقاته الزمني الرباني، وبمشروعية التكبير فيه، إنما هو طاقة روحية عظمى، ومولد إيماني سنويّ ضخم، إذ تلهج كل الألسنة المسلمة على وجه الأرض بهذا النداء العظيم، بكلمة «الله أكبر».

#### الخاصية الرابعة: ليلة القدر إحدى لياليه:

ومما خصَّ به شهر رمضان المبارك وجود ليلة عظيمة هي ليلة القدر، وهي الليلة التي اضطفاها الله من بين ليالي العام كلها، ثم اصطفاها من بين ليالي شهر رمضان المبارك، ثم اصطفاها من عشره الأواخر، لتكون وقت نزول القرآن الكريم إلى السماء الدنيا. وسيأتي الحديث عن تلك الليلة وما خصت به عن مثيلاتها في نهاية هذا المبحث.

#### الخاصية الخامسة: قبول التوبة الصادقة ومغفرة الذنوب وإجابة الدعاء:

خص الله ﷻ شهر رمضان بأنَّ من صامه محتسباً فإنَّ الله ﷻ يغفر له جميع ذنوبه مهما عظمت، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ قَامَهُ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (١).

كما خص هذا الشهر بإجابة الدعاء حيث ذكر الله ﷻ آية الإجابة متخللة بين أحكام الصيام ليرشد إلى الاجتهاد في الدعاء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

#### الخاصية السادسة: تفرد الصائمين بباب خاص من أبواب الجنة:

من عظيم ما خص الله ﷻ به (شهر الصيام) أنه ﷻ جعل للصائمين باباً خاصاً لا يدخل منه إلا هم، وإن كان يدخل منه كل من صام رمضان وغيره،

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٠٠٨.

ولكنه أكد في صيام رمضان لالتزام الجميع به، وبما أن الصيام مرتبط بهذا الشهر الفاضل فإن هذا الباب عنوان له.

عن سهل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ؛ فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ)<sup>(١)</sup>.

الخاصية السابعة: أنه شهر الانتصارات الحاسمة:

من خلال قراءة التاريخ الإسلامي، نجد أن الله عز وجل قد امتنَّ على الأمة المسلمة بأن جعلَ أعظم انتصاراتها على أشرس أعدائهم في هذا الشهر المبارك، ومن أمثلة ذلك الانتصار الساحق للمسلمين في غزوة بدر الكبرى، وفتح مكة المكرمة، وفتح الأندلس، وانتصارهم على التتار في معركة عين جالوت إلى غيرها من المعارك<sup>(٢)</sup>.

الخاصية الثامنة: اختصاصه بمجموعة من الفضائل:

حُصِّ رمضان بمجموعة من الفضائل لم تجتمع في غيره من الأشهر، ففيه تُصَفد الشياطين وتُسَلْسَل، وتُغلق أبواب النار، وتُفتح أبواب الجنان. عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فَتُحَتَّ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلِّسَتِ الشَّيَاطِينُ)<sup>(٣)</sup>. كما أن العمرة فيه تعدل حجة مع الرسول صلى الله عليه وسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً أَوْ حَجَّةً مَعِي)<sup>(٤)</sup>.

الخاصية التاسعة: اختصاصه بالفطور والسحور:

وهذا مما حُصِّ به شهر رمضان المبارك، فقد سُنَّ فيه الفطور والسحور، وكان هذا فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ١٨٩٦.

(٢) كانت غزوة بدر في السابع عشر من رمضان السنة الثانية من الهجرة، وفتح مكة في أول شهر رمضان السنة الثامنة من الهجرة. انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري ص ٢٣٦، ٤٤٧.

(٣) صحيح البخاري ص ٣٧٥ حديث رقم ١٨٩٩.

(٤) صحيح البخاري ص ٣٦٩ حديث رقم ١٨٦٣.

قَالَ: قَالَ ﷺ: (فَصُلِّ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَكَلَةُ السَّحْرِ)<sup>(١)</sup>.

الخاصية العاشرة: اختصاصه بشئنة الاعتكاف:

ومما حُصِرَ به شهر رمضان المبارك سنُّ الاعتكاف فيه، وهو مأخوذ من عَكَفَ عَلَى الشَّيْءِ، وَأَصْلُهُ: لَزُومُ الشَّيْءِ وَالْمُدَاوِمَةُ عَلَيْهِ، وَفِي الشَّرْعِ: لَزُومُ مَسْجِدِ لِبَاطِنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا اخْتِصَاصَ رَمَضَانَ بِسُنَّةِ الْاِعْتِكَافِ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ إِنَّمَا تَتَلَقَّى مِنْ فِعْلِ الرَّسُولِ ﷺ وَلَمْ يَعْتَكِفِ الرَّسُولُ ﷺ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ، وَكَذَلِكَ صَحَابَتُهُ رَضُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «والذي يظهر لي أن الإنسان لو اعتكف في غير رمضان فإنه لا ينكر عليه، ولكن خير الهدى هدى محمد ﷺ ولو كان الرسول ﷺ يعلم أن في الاعتكاف في غير رمضان بل وفي غير العشر الأواخر منه مزية وأجرًا لبيته للأمة حتى تعمل به»<sup>(٢)</sup>.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ». عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ اِعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ)<sup>(٣)</sup>.

الخاصية الحادية عشرة: اجتماع المسلمين في صلاة القيام ولا يُصَلِّي القيام جماعة إلا فيه:

حُصِرَ شَهْرُ رَمَضَانَ بِصَلَاةِ التَّرَاوِيحِ، وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَصَلُّونَهَا جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةً فَجَمَعَهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى قَارِيٍّ وَاحِدٍ، عَلَى أَبِي بِنِ كَعْبٍ<sup>(٤)</sup>، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ بِرَمَضَانَ: (مَنْ قَامَهُ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)<sup>(٥)</sup>.

(١) صحيح مسلم (٦٣٣/٢) حديث رقم ١٠٩٦.

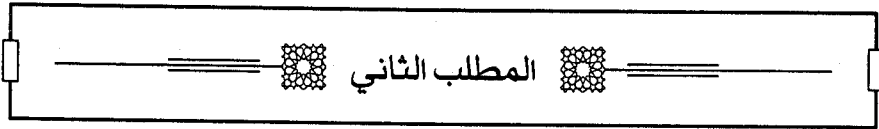
(٢) الشرح الممتع على زاد المستنقع شرح الشيخ محمد العثيمين (٥٠٧/٦).

(٣) صحيح البخاري ص ٣٩٩ حديث رقم ٢٠٢٥، ٢٠٢٦.

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم ٢٠١٠.

(٥) صحيح البخاري، حديث رقم ٢٠٠٨.





## اصطفاء الأشهر الحرم

قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَدْ لِمُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْبَلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦].

بَيَّنَّتِ الْآيَةُ أَنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَهُ ﷺ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمُ وَرَجَبٌ، هَذِهِ الْأَشْهُرُ اصْطَفَاهَا اللَّهُ ﷻ مِنْ بَقِيَّةِ أَشْهُرِ السَّنَةِ، وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ﴾؛ أَي: أَنَّهُ اخْتَارَهَا مِنْ بَيْنِهَا اخْتِيَارًا حَكِيمًا، لِتَكُونَ هِيَ وَبِهَذَا التَّرْتِيبِ مَحَلَّ التَّشْرِيفِ وَالتَّفْضِيلِ وَالاخْتِصَاصِ. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ قَالَ: «ثُمَّ اخْتَصَّ مِنْ ذَلِكَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ جَعَلَهُنَّ حُرْمًا، وَعَظَّمَ حُرْمَاتَهُنَّ، وَجَعَلَ الذَّنْبَ فِيهِنَّ أَعْظَمَ، وَجَعَلَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالْأَجْرَ أَعْظَمَ»<sup>(١)</sup>. فَخَصَّ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْبَعَةَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ بِالذِّكْرِ، وَنَهَى عَنِ الظُّلْمِ فِيهَا تَشْرِيفًا لَهَا، وَإِنْ كَانَ مِنْهَا عَنْهُ فِي كُلِّ الزَّمَانِ.

قال الامام ابن عادل الحنبلي<sup>(٢)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هذا المعنى غير مستبعد في الشرائع، فإنه مَيَّزَ الْبَلَدَ الْحَرَامَ عَنِ سَائِرِ الْبِلَادِ بِمَزِيدِ الْحُرْمَةِ، وَمَيَّزَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَنِ سَائِرِ الْأَيَّامِ بِمَزِيدِ الْحُرْمَةِ، وَمَيَّزَ يَوْمَ عَرَفَةَ عَنِ سَائِرِ الْأَيَّامِ بِعِبَادَةِ مَخْصُوصَةٍ، وَمَيَّزَ شَهْرَ رَمَضَانَ عَنِ سَائِرِ الشُّهُورِ بِمَزِيدِ حُرْمَةٍ، وَبَعْضُ سَاعَاتِ

(١) التفسير العظيم لابن أبي حاتم (٦/١٧٩١).

(٢) هو عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، أبو حفص سراج الدين، صاحب التفسير الكبير: اللباب في علوم الكتاب، توفي عام ثمانين وثمانمائة هجرية. انظر: الأعلام للزركلي (٥/٥٨).

اليوم واللييلة بوجوب الصلاة فيها، وميز ليلة القدر عن سائر الليالي، وميّز بعض الأشخاص بإعطاء الرسالة، فأبي استبعاد في تخصيص بعض الشهور بمزيد الحرمة!«<sup>(١)</sup>.

لقد خلق الله ﷻ الزمان بهيئة معينة، ثم عبثت به أيدي الجاهلين بالنسيئة، فقدموا وأخروا وغيروا فيه ما يحقق لهم مصالحهم، متجاهلين حكم الله وشرعه. ويعود تاريخ النسء عند العرب لما بدأ القلمس<sup>(٢)</sup> يحل ويحرم من الشهور ما يريد ويتبعه بذلك قومه، ثم قام بعده على ذلك ابنه (عباد) بن حذيفة، وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فحرّم الأشهر الحرم الأربعة: رجباً، وذا القعدة، وذا الحجة، والمحرم. فإذا أراد أن يُحلّ منها شيئاً أحلّ المحرم فأحلّوه، وحرّم مكانه صفر فحرّموه، ليواطئوا عدة الأربعة أشهر الحرم<sup>(٣)</sup>.

ثم أراد الله ﷻ بحكمته وقوته أن يستدير الزمان كهيئته يوم خلق السماوات والأرض، فرجعت الأشهر إلى ما كانت عليه من الحل والحرمة، كما كان عليه العهد يوم خلق الله الخلق، وعاد الحج إلى ذي الحجة كما كان، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبٌ مُضَرٌّ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ)<sup>(٤)</sup>. والمراد باستدارته وقوع تاسع ذي الحجة في الوقت الذي حلت فيه الشمس برج الحمل حيث يستوي الليل والنهار.

(١) تفسير اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٨٥/١٠).

(٢) القلمس بن أمية بن عوف الكناني من بني الحارث بن مالك بن كنانة: آخر من نسا الشهور في الجاهلية، ويقال: كان اسمه «جنادة»، والقلمس لقبه، ومعناه: السيد أو الداهية البعيد الغور، يلقب به كل من تولّى نسء الشهور. وهو من الخطباء، الوعاظ قبل الإسلام. قال ابن الجوزي: كان يخطب بفناء الكعبة، وكانت العرب لا تصدر عن مواسمها حتى يعظها ويوصيها. انظر: الأعلام للزركلي (٢٠٣/٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤٤/١).

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٦٦٢.

ولقد بين ابن حجر رحمته الله معنى الحديث في «الفتح»: فالمعنى إنَّ الزمان استدار مثل صفته يوم خلق الله تعالى السماء، فالمراد بالزمان: السنة، والزمان اسم لقليل الوقت وكثيره، والسنة: اثنا عشر شهراً أي: السنة العربية الهلالية. وفي قوله تعالى: (ثلاث متواليات) هو تفسير الأربعة الحرم وفيه إبطال لما كانوا يفعلونه في الجاهلية من تأخير بعض الأشهر الحرم، حيث كانوا يجعلون المحرم صفرأ، ويجعلون صفرأ المحرم، لثلا يتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يتعاطون فيها القتال، فلذلك قال متواليات.

وفي قوله تعالى: (رجب مضر) إضافة إليهم لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه بخلاف غيرهم. فمعنى الحديث أن الأشهر رجعت إلى ما كانت عليه وبطل النسيء<sup>(١)</sup>، والمعنى: وذلك هو الحساب الصحيح، والعدد المستوفى، والقضاء القيم، والشرع المستقيم من امثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم<sup>(٢)</sup>.

ولقد اختلف المفسرون في الوقت المنهى فيه عن ظلم النفس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظَلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ على قولين:

١ - أن النهي عن ظلم النفس في الأشهر الأربعة الحرم، وليس معنى ذلك أن يكون الظلم مباحاً في غيرهن، بل هو حرام في كل وقت وزمان، ولكن الله تعالى عظم حُرمة هذه الأشهر، وشرفهنَّ على سائر شهور السنة، فخصَّ الذنب فيهنَّ بالتعظيم كما خصَّهن بالتشريف، فكان النهي عن الظلم فيهنَّ تعظيماً لحقهنَّ، وتغليظاً للذنب فيهن، وهو الأظهر، وبه قال أكثر المفسرين<sup>(٣)</sup>.

٢ - أن النهي عن الظلم في الأشهر كلها<sup>(٤)</sup>.

ولعل الرأي الأول هو الأولى بتفسير الآية - والله تعالى أعلم -، إذ إن

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤١٤/٨).

(٢) انظر: معاني القرآن للنحاس (٢٠٤/٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٤٨/٤).

(٣) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦٦/٦)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/

٤٤٥)، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي حق الأنصاري ص ٥٣٩.

(٤) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦٦/٦).

موضوع الآية خاصٌّ بالأشهر الحرم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة: ٣٦]، فقوله ﷻ: ﴿فِيهِنَّ﴾ عائد إلى الأشهر الأربعة الحرم، ولا شك أن الظلم محرّم في كل زمان، ولكن تخصيصه في هذه الآية بهذه الأشهر إشعار بأن ظلم النفس بتعدي حرّمات الله ﷻ فيها أعظم وأكبر، وفي ذلك تعظيم لتلك الأشهر، وإعطاؤها مزيداً من الاهتمام والتخصيص عن غيرها، ممّا يستوجب تعظيمها في قلب المسلم، ومراعاة حقّها ومعرفة كيف يكون تعظيمها. فالطباع مجبولة على الظلم والفساد، وامتناعهم على الإطلاق شاقٌّ عليهم، فخصّ الله ﷻ بعض الأوقات والأماكن بمزيد التعظيم والحُرمة حتى أنّ الإنسان ربما امتنع في تلك الأزمنة والأمكنة عن القبائح والمنكرات، وذلك الامتناع المؤقت يوجب أنواعاً من الفضائل؛ فهو يقلل القبائح، ويُعوّل على تركها، إذ إن تركها في تلك الأوقات يكون سبباً لميل الطبع إلى الإعراض عنها مطلقاً. كما أنّ العاقل من النَّاس لا يرضى ضياع ما تحمله من مشقّة وعناء في أداء الطاعات في تلك الأوقات والبُعد عن القبائح فيصير ذلك سبباً لاجتناب المعاصي بالكلية.

كما أنّ تخصيص بعض الأزمنة والأمكنة بأحكام من العبادات تقتضي ترك المحرّمات فيها، ويكون ذلك تنشيطاً للنفوس على زيادة العناية بما يزيكها ويظهرها، فقد جرّت عادة الإنسان أن يسأم الاستمرار على حال واحدة تشق عليه، فجعل أياماً معدودات من ذي الحجة مخصوصة لأداء المناسك، وجعل ما قبلها وما بعدها من الأيام الحُرْم استعداداً للسفر لأداء النسك، وحرم رجب في وسط السنة، لتقليل شرور القتال، وتخفيف أوزاره ولتسهيل السفر فيه (١).

إنّ المسلم إذا تأمّل بعقله، واستشعر بقلبه، عظمت هذه الأشهر، فلن يظلم فيها نفسه، ولن يقاتل فيها غيره، وكأنّ هذه الأشهر بهذا الميقات الزمني

(١) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (٨/٤١٣)، التفسير الكبير للرازي (٧/٦٥٥)، تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي (١٠/١١٥).

الحكيم الموزع على فترات العام واحات من الأمن الزمني تعيش فيها الإنسانية طمأنينة. تقضي فيها أوطارها. قال ابن حجر: «قيل الحكمة في جعل المحرم أول السنة أن يحصل الابتداء بشهر حرام ويختم بشهر حرام وتتوسط السنة بشهر حرام وهو رجب، وإنما توالى شهران في الآخر لإرادة تفضيل الختام، والأعمال بالخواتيم»<sup>(١)</sup>.

إنَّ تعظيم هذه الأشهر فيه تحقيق لمعاني العبودية القلبية؛ فالمسلم يستشعر بقلبه معاني التعظيم لهذه الأشهر، ويسترجع ما خصت به من أحداث، وما سن فيها من عبادات.

فشهر الله المحرم الذي يبدأ به العام الهجري خصَّ بأعظم حدث ألبس الأمة الإسلامية ثوب التميُّز، فكان تحديداً لتاريخ خاص بها، ارتبط بالهجرة النبويَّة المؤذنة بإنشاء النواة الأولى للدولة المسلمة فقد رجح عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يبدأ التاريخ من الهجرة لأن الله تعالى فرَّق بها بين الحق والباطل، فجعل مبتدأ السنين في الإسلام سنة الهجرة؛ لأنها هي السنة التي كان فيها قيام كيان مستقل للمسلمين، وفيها تكوَّن أول بلد إسلامي يسيطر عليه المسلمون، فاتَّفَق فيه ابتداء الزمن والمكان، ولأنه الشهر الذي يلي ذا الحجة الذي فيه أداء الناس حجهم الذي به تمام أركان الإسلام.

ولقد كتب السلف والخلف في هذا الحدِّث العظيم كتابات قيمة، وما تحتاج إليه أمتنا هو ترجمة تلك المعاني العظيمة واقعاً نحياء قلباً وفكراً، فيتجدد الشعور بالنصر والتأييد الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم ولدعوته، ولكل من حمل راية الدفاع عن دينه، وهجر كل ما يكون سبباً لتقاعس المسلم عن أداء مهمته.

إنَّ شهر الله المحرم تتضح فيه معاني القوة العظمى، قوة الله تعالى رب الأرباب ومسبب الأسباب، والذي أمره يتجلى في قوله: ﴿كُنْ﴾ حيث نجى بني إسرائيل من الطاغية فرعون، وفي سنِّ صيامه لهذه الأمة إحياءً بمَدَى الرابطة الوثيقة بين الأمة المسلمة وجميع أنبياء الله ورسله؛ فهم الشهداء على الناس في الدنيا والآخرة.

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١٣٦/٨).

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ تُعَدُّهُ الْيَهُودُ عِيدًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (فَصُومُوهُ أَنْتُمْ) (١).

وَسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ فَقَالَ: مَا عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَامَ يَوْمًا يَطْلُبُ فَضْلَهُ عَلَى الْأَيَّامِ إِلَّا هَذَا الْيَوْمَ (٢).

لقد كان رسول الله ﷺ يخصُّه بتفضيل صيامه على سائر الشهور ما عدا شهر رمضان، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمِ) (٣).

أما بالنسبة لشهر ذي الحجة، شهر الله المُحَرَّم الذي تكون به نهاية العام، فقد خُصَّ بفريضة الحج، خامس أركان الإسلام، وما تضمنه من أحكام عظيمة أرسدت القواعد النهائية للدولة المسلمة التي اكتمل دينها وتمت عليها نعمة ربها في أعظم وأحب الأيام تعبدًا إلى الله ﷻ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: (مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامِ أَفْضَلِ مِنْهَا فِي هَذِهِ)، قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ؟ قَالَ: (وَلَا الْجِهَادُ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ) (٤).

وفي اجتماع الأمة المسلمة من مشارق الأرض ومغاربها فيه تأكيد على أنها أمة التوحيد التي تجمعها عقيدة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، حدودها الأرض، وأهلها الناس، وجنسياتهم الإسلام.

إن هذا الشهر الحرام يُعلِّم الأمة المسلمة أنه لا سبيل لفوزها ونصرها إلا بالاجتماع على صعيد واحد، وفي ظل راية واحدة، وتحت إمام واحد.

كما أن نهاية العام بهذا الحَدَث الكبير الذي يجمع الأمة كلها، قادتها ودعاتها ورجال الفكر فيها وعلماءها على صعيد واحد، يهتفون بصوت واحد

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٢٠٠٥.

(٢) صحيح مسلم (٦٥٥/٢) حديث رقم ١١٣٢.

(٣) صحيح مسلم (٦٧٦/٢) حديث رقم ١١٦٣.

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم ٩٦٩.

«الله أكبر» في عيد الأضحى المبارك، له اعتباره عند أعداء الأمة المسلمة الذين يهابونها، ويحسبون لها كل حساب.

إن نهاية العام بهذا الاجتماع، وذلك التكبير ليُوحى لأفراد الأمة أنَّ النَّصْر إنما سيكون لهذه الأمة لا لغيرها عندما تجتمع وتتآلف وتمحو كافة الخلافات بينها، وما هذه الشرائع والشعائر، - زمانها ومكانها - إلا الطاقة المؤلدة لقوة المسلمين، المُجدِّدة لعزائمهم، التي تدكِّرهم بهُويتهم، وأصالتهم، وعِراقة ماضيهم المتَّصل بحاضرهم والممتد عبر السنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا هو الشهر الحرام الذي جاء فيه الأمر بتطهير الجزيرة العربية من كل الأديان سوى الدين المُصطفى، دين الإسلام، وإقصاء الكفر وأهله من الأرض الحرام، فيُوحى بإقصائهم من قلوب المسلمين فتطهر القلوب كما تطهر الأرض من رجسهم ونجسهم.

وما حُتمت به سورة الحج فيه من الموحيات الكبيرة لهذه الأمة التي اجتباها الله ﷻ لتجاهد في الله حقَّ جهاده، فإن العبء المُلقى على عاتقها ليس باليسير، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ [الحج: ٧٧ - ٧٨].

ومما حُصَّ به هذا الشهر الحرام أنه كان الميقات الزمني لعيد الأضحى المبارك، وحصول أكبر نعمة لهذه الأمة، وهي إكمال الدين وإتمام النعمة والرضا باضطفاء الدين الإسلامي، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْتَصِمَةٍ غَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِيمَانٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

ولقد أُرشدنا الله باتِّخاذ هذا اليوم عيداً شكرياً له على هذه النعمة، والمُتمثلة في القيام بمسؤولية هذا الدين، والدفاع عنه من شرِّ اليهود الحاسدين ومنِّ والاهم؛ فعندما نزلت هذه الآية قالوا لعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ: يَا أَمِيرَ

المؤمنين آية في كتابكم تَقْرُؤُوهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعَشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ  
 الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي  
 وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. قَالَ عُمَرُ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ  
 فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ (١).

تلك الموحيات وغيرها يعيشها المسلم في الأشهر الحرم، ليحرك مشاعر  
 التعظيم والإجلال لتلك الأزمان فيؤدي حق العبودية لله ﷻ، المتمثلة في  
 الرضى باصطفائه واختياره.

على المسلم أن يحرص على أن لا تنقلب عبادته إلى عادة يؤديها ليلقي  
 عبثها من على كتفه، ولا يكون ذلك إلا بحمل النفس على الربط بين الماضي  
 والحاضر، وتذكر صور العظماء الذين اصطفاهم الله ﷻ ليكونوا الممثلين  
 لأهم الأدوار الإيمانية، الذين تتخذهم الأمة بعد ذلك القدوة ليس في حركاتهم  
 فقط، ولكن فيما كانت تحمله قلوبهم من أكمل معاني الثقة والإيمان واليقين  
 بالله ﷻ، رب الأرباب ومسبب الأسباب.

إنه موسم عبادة تصفو فيه الروح، وتستشعر قربها من الله ﷻ، وتستروح  
 الذكريات التي تحوم عليه وترف كالأطياف؛ فهذا طيف إبراهيم ﷺ وهو يضع  
 فلذة كبده وأمه، ويتوجه بقلب خافق واجف إلى ربه ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ  
 دَرْبَتَيْ يَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾، وطيف هاجر، وهي تستروح الماء  
 لنفسها وطفلها لتعود بعد أن أضناها الإشفاق على الطفل وهذها التعب لتجد  
 ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجذب، وطيف إبراهيم ﷻ وهو يضحي  
 بفلذة كبده دون تَوَانٍ امتثالاً لله ﷻ، ورحمة الله التي تجلّت في الفداء. فهل  
 يشعر كل مُصْحِحٍ لله بعمق هذا الحَدَثِ، وأبعاده المتمثلة في أعلى صور الامتثال  
 والطاعة؟ وطيف إبراهيم وإسماعيل وهما يَبِينَانِ ويرفعان القواعد من البيت في  
 إنابة وخشوع. وتظل تلك الأطياف وتلك الذكريات ترفُّ وتتابع، حتى يلوح  
 طيف عبد المطلب، وهو ينذر ابنه عبد الله ليذبحه وفاءً بنذره، وأهل مكة  
 يعرضون عليه الفداء، فينجو عبد الله من الذبح ليودع رجم أمنة أظهر نطفة،

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٥.



وأكرم خلق على الله ﷻ. ثم تتواكب الأطياف والذكريات حتى تصل إلى محمد ﷺ وهو يرفع الحجر بيديه الكريمتين ليُتمَّ بناء أبيه إبراهيم ﷺ<sup>(١)</sup>.  
إنَّ على الأمة المسلمة أن تجعلَ لنفسها وجوداً وكياناً مُستقلين مُستمدين من روح الدين الإسلامي، وأن تكونَ متميِّزة عن غيرها في كل ما ينبغي أن تتميزَّ به من الأخلاق والآداب والمعاملات، لتبقى أمةً بارزةً مرموقةً لا تابعةً لغيرها.



---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/٢٤١٩) بتصرف.

## اصطفاء يوم الجمعة

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَوَدَّىٰ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ [الجمعة: ٩].

اصطفى الله ﷻ يوم الجمعة من بين الأيام ليخصَّ به آخر الأمم وأفضلها، وليكون هذا اليوم هو يومهم الذي يُعظَّمونه بالعبادة، ويوم اجتماعهم ولقائهم، فحازوا بذلك قصب السبق على غيرهم من الأمم الذين أمروا به فضلوا عنه، وادخره الله ﷻ لهذه الأمة المحمدية - والشيء المدخر عادة ما يكون هو الأنفس والأفضل - وفي ادخاره لنا وإضلال من قبلنا عنه من الحكيم الربانية العظيمة الشيء الكثير، ويكفي في بيان قدر هذا اليوم وعظيم مكانته أن سورة كاملة نزلت باسمه، تحدثت عن اليهود والنصارى، ثم ختمت بالحديث عن آخر الأمم وما خصَّها الله ﷻ به.

لقد بين الرسول ﷺ أن هذا اليوم قد افترضه الله ﷻ على من قبلنا من الأمم، ولكنهم بعضيانهم، واختيارهم على اختيار الله ﷻ لهم، استحقوا بذلك العقوبة بإضلالهم عن الأحسن، وادخاره لهذه الأمة الفاضلة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيِّنَةٌ أَنَّهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِنَا وَأَوْتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ. وَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَذَا اللَّهُ لَهُ. فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبِعَ، فَالْيَهُودُ عَدَا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ عَدِي<sup>(١)</sup>).

قال ابن حجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والمراد بالسبق هنا: إحراز فضيلة اليوم السابق بالفضل، وهو يوم الجمعة. ويوم الجمعة وإن كان مسبوقاً بسبت قبله أو أحد، لكن لا يتصور اجتماع الأيام الثلاثة متوالية إلا ويكون يوم الجمعة سابقاً.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٨٧٦، صحيح مسلم (٤٩٠/٢) حديث رقم ٨٥٥.

والمراد بفرضه عليهم في الحديث هو فرض تعظيمه، فاختلّفوا فيه، فهدانا الله ﷻ إليه، فحصلت الهداية للجمعة بجهتي البيان والتوفيق، فهو لنا بهداية الله ﷻ. وإنّ سلامة الإجماع من الخطأ خاص بهذه الأمة، وفيه بيان واضح لمزيد فضل هذه الأمة على الأمم السابقة<sup>(١)</sup>.

وفي سبب تسمية هذا اليوم بيوم الجمعة عدة أقوال منها: أن خلق آدم جُمع فيه. قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ وهذا أصح الأقوال<sup>(٢)</sup>.

إنّ المسلم عندما يوسّع دائرة تفكيره، وينظر إلى أمور الشرع - مواقيتها وكيفيتها - بمنظار غير منظار العادة، ويطلق للروح شفافيتها، عندها فقط سيرى أن هذا الاجتماع الأسبوعي الذي جعله الله ﷻ فرضاً لازماً على رجال الأمة المسلمة المكلفين القادرين على تحمّل المسؤوليات، ليستمعوا إلى ما يستجد من الأمور المهمة، وما يتعلق بصلاح دينهم ودنياهم، يستمعون، مستجيبين لأمر الله ﷻ لهم بالسعي إلى ذكره، والانصراف الجسمي والعقلي عن الدنيا وزينتها، فسيشعرون أنه يوجهه إلى الدار الآخرة؛ لأنها هي الدار الباقية. ولو استشعر أحدهم عظيم الأجر في البكور إلى يوم الجمعة، وفي التهيئة لها بالاغتسال والتطيب، لأنّها حَيَواً، وكان لها استعداد خاص في نفسه ينعكس على فعله.

إنّ السماح للروح بالانطلاق لتتأمل ما وراء العالم المشهود، فتؤمن بالغيب المتمثل في حضور الوفد الكريم من الملائكة في هذا اليوم العظيم، ليجعل في حضور المسلم للجمعة قيمة أخرى، ومعان عظيمة تنعكس على روحه فتفيض إيماناً، وعلى نفسه قوة باستشعاره معيّة الملائكة الأعلى له. قَالَ ﷺ: (مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ، ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً. فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذُّكْرَ)<sup>(٣)</sup>.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٢/٤٥٠).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٢/٤٤٩).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٨٨١.

إِنَّ الْأَرْمَانَ إِنَّمَا تَعْظُمُ بِتَعْظِيمِ اللَّهِ ﷻ لَهَا، وَلَوْ اسْتَشْعَرَ الْمُسْلِمُ ذَلِكَ لَكَانَ مَرْدُودَهُ عَلَى نَفْسِهِ كَبِيرًا، وَاسْتِجَابَتُهُ إِلَى نِدَاءِ اللَّهِ ﷻ أَكْثَرَ تَعْظِيمًا، إِنَّهُ بِالتَّأَكِيدِ سَيَعْلَمُ أَنَّ يَوْمًا خَلَقَ اللَّهُ ﷻ فِيهِ آدَمَ لِعِبَادَتِهِ، وَأَخْفَى فِيهِ سَاعَةَ الْإِجَابَةِ بِحِكْمَتِهِ، وَاسْتَقُومَ فِيهِ السَّاعَةَ بِأَمْرِهِ، حَرِيًّا بِالتَّعْظِيمِ وَالتَّبَجِيلِ وَالِاجْتِهَادِ وَالسَّعْيِ الْحَثِيثِ إِلَى إِرْضَاءِ اللَّهِ ﷻ؛ قَالَ ﷺ: (فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ)<sup>(١)</sup>، وَفِي إِخْفَائِهَا حَتْ عَلَى اسْتِغْلَالِ كَافَةِ الْيَوْمِ بِالذِّكْرِ وَالدَّعَاءِ، تَعْظِيمًا لِهَذَا الْيَوْمِ، وَشُكْرًا لِلَّهِ ﷻ عَلَى هِدَايَتِهِ لَنَا، وَاخْتِصَاصِنَا بِهِ دُونَ غَيْرِنَا.

لَقَدْ اخْتَصَّ اللَّهُ ﷻ هَذَا الْيَوْمَ بِخِصَائِصٍ عَظِيمَةٍ، ذَكَرَ ابْنُ الْقَيْمِ مِنْهَا اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ خِصُوصِيَّةً<sup>(٢)</sup>. وَوَرَدَ فِي الْحَدِيثِ ذِكْرُ بَعْضِ مِنَ الْخِصَائِصِ الَّتِي جَعَلَتْ لِهَذَا الْيَوْمِ مَكَانَةَ مَيِّزَتِهِ عَنْ سَائِرِ الْأَيَّامِ؛ عَنْ أَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ<sup>(٣)</sup> قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَيِّدُ الْأَيَّامِ وَأَعْظَمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ يَوْمِ الْأَضْحَى وَيَوْمِ الْفِطْرِ. فِيهِ خَمْسُ خِلَالٍ: خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ آدَمَ، وَأَهْبَطَ اللَّهُ فِيهِ آدَمَ إِلَى الْأَرْضِ، وَفِيهِ تَوَفَّى اللَّهُ آدَمَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يَسْأَلُ اللَّهُ فِيهَا الْعَبْدُ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ مَا لَمْ يَسْأَلْ حَرَامًا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ. مَا مِنْ مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا سَمَاءٍ وَلَا أَرْضٍ وَلَا رِيَّاحٍ وَلَا جِبَالٍ وَلَا بَحْرٍ إِلَّا وَهَنَ يُشْفِقُنَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ)<sup>(٤)</sup>.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٩٣٥.

(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزية (١/٣٧٥)، يرجع إليه للاستزادة.

(٣) أبو لبابة بن عبد المنذر بن رفاعة بن زبیر بن أمية قيل أن الرسول ﷺ ردَّ أبا لبابة من الروحاء حين خرج إلى بدر واستعمله على المدينة، وضرب له بسهمه وأجره. وكان كمن شهدا وشهد أحداً وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، وروى عن رسول الله ﷺ أحاديث، وتوفي بعد قتل عثمان بن عفان. وربط أبو لبابة إلى موضع الأسطوانة المعلقة في مسجد النبي ﷺ، حين أصاب الذنب يوم بني قريظة حتى تاب الله عليه. انظر: الطبقات لابن سعد (٣/٤٥٧)، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٢/٧٧).

(٤) سنن ابن ماجه (٨/٢) حديث رقم ١٠٨٤، صحيح الجامع الصغير للألباني (١/٤٥٣)

حديث رقم ٢٢٧٩، وقال: حديث حسن.

قال الإمام البوصيري<sup>(١)</sup> تعليقاً على الحديث: «إنَّ هذه القضايا جميعها فضائل؛ لأن خروج آدم سبب وجود الذرية من الرسل والأنبياء والأولياء، والساعة سبب تعجيل جزاء الصالحين، وموت آدم سبب لنيل ما أعد له من الكرامات»<sup>(٢)</sup>.

إنَّ اجتماع المسلمين في هذا اليوم العظيم، يُحقِّق لهم من الفوائد العظيمة، ومن المنح الربانية الشيء الكثير، نذكر منها الآتي:

١ - إتاحة الفرصة لطرح كافة القضايا المستجدة على الساحة، ومناقشتها ليكون المسلم على بينة بما حوله من أحداث؛ لأنه هو صاحب المسؤولية الأولى على هذه الأرض.

٢ - تعزيز روح التكاتف والتعاون بين أفراد الأمة المسلمة. ولقد كان يوم الجمعة، يشدُّ انتباه أعداء الأمة المسلمة لأنهم رأوا فيه حصناً ضخماً، إذ إنه يعد عاملاً أساسياً في تجمُّع المسلمين، وتوحدتهم. ومما يدل على عدم غفلتهم عن هذا اليوم ما صرَّح به أحدُ ساسة بريطانيا «السير جلادستون» في مجلس العموم البريطاني، إذ أعلن أن القرآن والجمعة والأزهر هم الدعائم الثلاث التي يجتمع عليها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، وأنه لا قضاء على الإسلام وهذه الدعائم قائمة<sup>(٣)</sup>.

٣ - تعويد المسلمين على السمع والطاعة والاستجابة، إذ فرض عليهم الالتزام والإنصات إلى الإمام وعدم العبث، ولقد أعطوا على ذلك الأجر العظيم. عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَنْ اغْتَسَلَ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَصَلَّى مَا قُدِّرَ لَهُ، ثُمَّ أَنْصَتَ حَتَّى يَفْرُغَ الْإِمَامُ مِنْ خُطْبَتِهِ. ثُمَّ يُصَلِّيَ مَعَهُ، غُفِرَ لَهُ

(١) هو أحمد بن أبي بكر (عبد الرحمن) بن اسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناشي الشافعي، أبو العباس. من حفاظ الحديث، عمل في نسخ الكتب، ومن كتبه: فوائد المنتقى لزوائد البيهقي، وزوائد ابن ماجه. توفي سنة أربعين وثمانمائة للهجرة. انظر: الأعلام للزركلي (١/١٠٤).

(٢) سنن ابن ماجه بشرح السندي، وبهامشه تعليقات مصباح الزجاجة للإمام البوصيري (٨/٢).

(٣) نقلاً عن كتاب: دليل الخير في الإسلام لأحمد الحناوي ص ٦٤.

مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْآخَرَى، وَفَضْلُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ<sup>(١)</sup>.

٤ - دعم الروح المعنوية للمسلمين، بإيمانهم بمشاركة قوى أخرى لهم في تعظيم هذا اليوم، وهي قوة الملأ الأعلى المتمثلة في حضور الملائكة معهم وإنصاتهم حتى انصراف الإمام، فيؤمنون - وهم يقومون بدورهم الكبير. ومهمتهم العظمى - أنهم موصولون بمدد من السماء، وفي هذا تعزيز كبير لأرواحهم، ودعم لقوتهم، وشحن لهمهمهم؛ إنهم ليسوا وحدهم ولكن الله ﷻ معهم، بجنوده التي لا يعلمها إلا هو.

٥ - التذكير بيوم القيامة، يوم اجتماع الناس لرب العالمين، وهذا اليوم كأنه ميزان دقيق يعيد الأمور الإيمانية في حسّ المؤمن إلى نصابها الصحيح. قال ابن القيم رحمته الله: «إنه يوم اجتماع الناس وتذكيرهم بالمبدأ والمعاد، والثواب والعقاب، ويتذكرون به اجتماعهم يوم الجمع الأكبر قياماً بين يدي ربّ العالمين، وكان أحق الأيام بهذا الغرض المطلوب اليوم الذي يجمع الله فيه الخلائق، وذلك يوم الجمعة، فادّخره الله لهذه الأمة لفضلها وشرفها، فشرع اجتماعهم في هذا اليوم لطاعته، وقدر اجتماعهم فيه لنيل كرامته. فهو يوم الاجتماع شرعاً في الدنيا وقدرأ في الآخرة، فشرع لهم ذلك اليوم ليذكروهم بحكمة الخلق وما خلّقوا له، وبأجل العالم، وطبّي السماوات والأرض، وعوّد الأمر كما بدأه سبحانه وعدأ عليه حقاً، وقولاً صدقاً<sup>(٢)</sup>.

إنّ شرف هذا اليوم ونفعه يمتدّ بأهله حتى اليوم الآخر، إذ يسIRON في نوره حتى يدخلون الجنة، رائحتهم المسك؛ هم أهله، وهو لهم باختيار الحكيم العليم.

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رحمته الله: (إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ الْأَيَّامَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى هَيْئَاتِهَا، وَيَبْعَثُ الْجُمُعَةَ زَهْرَاءَ مُنِيرَةً، أَهْلُهَا يَحْفُونَ بِهَا كَالْعُرُوسِ تُهْدَى إِلَى كَرِيمِهَا، يَمْشُونَ فِي ضَوْئِهَا، أَلْوَانُهُمْ كَالثَّلْجِ بَيَاضاً، وَرِيحُهُمْ يَسْطَعُ كَالْمِسْكِ، يَخُوضُونَ فِي جِبَالِ الْكَافُورِ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمُ الثَّقَلَانِ لَا يَطْرُقُونَ تَعْجُباً، حَتَّى

(١) صحيح مسلم (٤٩٢/٢) حديث رقم ٨٥٧.

(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزية (٤٢١/١).

يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، لَا يُخَالِطُهُمْ أَحَدٌ إِلَّا الْمُؤَدَّبُونَ الْمُحْتَسِبُونَ<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩].

إنَّ هذه الأمة محسودة على ما آتاها الله من فضله، يتربص بها أعداؤها ويقعدون لهم كل مَرَصِدٍ، وليس مجالنا الحديث عن خططهم ومؤامراتهم، فالقرآن قد بيَّن ذلك في كثير من آياته، والتاريخ بأحداثه يشهد على ذلك؛ إنهم يهابون الإسلام وأهله؛ وما يفعله اليهود اليوم من منع الشباب المسلم حضور الجمع في المسجد الأقصى، وما يأخذونه من الاستعدادات المكثفة بعد كل خطبة، وما يعانیه المسلمون في كافة أنحاء الأرض من الهجمات الغادرة والتي لا تكون إلا في الجمع والجماعات، لهو أكبر دليل على أن الأمة الإسلامية محسودة من أعدائها.

قال الله ﷻ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيYِينَ وَرَهْبَانًا وَآنَهْم لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

وقال ﷻ: ﴿هَتَأْتُمْ ءَوْلَاءَ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُم وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَابِلَ مِنَ الْفِطْنِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

إنَّ هذا الواقع الأليم ليجعل ليوم الجمعة والاجتماع فيه قيمة كبيرة في نفوس من توجهم الله ﷻ شرف هذا اليوم، وأضلَّ عنه من كان قبلهم، فكانوا هم الآخرون زماناً، السابقون شرفاً ومكانةً.



(١) المستدرک للحاکم (٢٧٧/١)، صحیح الجامع الصغیر للألبانی (٣٨١/١) حدیث رقم ١٨٧٢، وقال: حدیث صحیح.

## اصطفاء ليلة القدر

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ الْوَيْحَ فِيهَا يَأْذِنُ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [القدر: ١ - ٥]

إنَّ الله ﷻ اصطفَى من الليالي ليلةً عظيمة، اختارها لتكون ليلةً القدر العظيمة، وسُمِّيت بذلك ليدلَّ اسمها على ما لها من القدر والمكانة التي بيَّنها الله ﷻ في كتابه الكريم، فقد أنزل سورة تتلى في شأن تلك الليلة، تحدث عن فضلها بحيث عظمها الكثير من العلماء.

إنها ليلة اصطفاهها الله ﷻ لتكون هي الليلة المباركة التي تشرفت بحديث فريد من نوعه، عظيم في شأنه، وهو نزول القرآن الكريم من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ قَالَ: «أَنْزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»<sup>(١)</sup>.

قال البقاعي<sup>(٢)</sup> ﷻ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾: «إضماره - أي: القرآن - أدل على العظمة من إظهاره، فهو لا يحتاج إلى التصريح به، فقال مفحماً له بأمور، وهي: إضماره، وإسناد إنزاله إليه. ولما عظمه بذلك زاده عظماً بالوقت الذي اختار إنزاله فيه، وهي الليلة التي لها قدر عظيم وشرف

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٣٢٨/١٥).

(٢) هو إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، مؤرخ أديب، أصله من البقاع في لبنان، له «عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران»، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور». توفي سنة خمس وثمانين وثمانمائة. انظر: الأعلام للزركلي (٥٦/١).



كبير، والأعمال فيها ذات قدر وشرف، فكانت بذلك كأنها مختصة بالقدر فلا قدر لغيرها»<sup>(١)</sup>. وقيل: إن المعنى في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ﴿١﴾ أي: أن الله ﷻ أنزل قرآنًا في شأن ليلة القدر، وفي فضلها، وهو كقول عائشة رضي الله عنها: «لأنا أحقر في نفسي أن ينزل في قرآن»<sup>(٢)</sup>.

ومما يدل على عظمة ليلة القدر تعدد أسمائها؛ لأن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى وكماله، ومن أسمائها التي استنبطت من الأمور العظيمة التي تحدث بها الآتي:

### ١ - ليلة الحكم:

فلقد سُميت ليلة القدر بليلة الحكم، لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ﴿١﴾ [الدخان: ٤]<sup>(٣)</sup>.

### ٢ - ليلة القضاء:

وليلة القضاء: لأن الله ﷻ يُقدِّر في تلك الليلة ما يكون من السنة إلى السنة القابلة<sup>(٤)</sup>.

### ٣ - ليلة التعظيم:

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يُسميها بليلة التعظيم<sup>(٥)</sup>.

### ٤ - الليلة المباركة:

وهي الليلة المباركة التي ذكرها الله ﷻ في كتابه: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ ﴿٣﴾ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٤﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٥﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٦﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧﴾﴾

(١) نظم الدرر للبقاعي (٤٩٠/٨).

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٠٤/٥)، اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٤٢٦/٢٠).

(٣) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٣٢٧/١٥)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣٤٧/٥).

(٤) بحر العلوم للسمرقندي (٥٧٧/٣).

(٥) النكت والعيون للماوردي (٣١١/٦).

[الدخان: ١ - ٦]، والبركة هي: النِّماء والزيادة واليُمْن، وهي بلا شك أبرك الليالي على العالمين، بما نزل فيها من القرآن والهدى والنجاة من الضلالات، أنزل فيها الكريم أفضل كتبه على أفضل رسله، بأفضل الليالي، على أفضل الأمم.

## ٥ - ليلة القدر:

وفي سرِّ تسميتها بليلة القدر عددٌ من الأقوال نُوجزها كالاتي:

- ١ - لأنَّ العمل الصالح فيها يكون ذا قدر عند الله ﷻ؛ لكونه مقبولاً.
  - ٢ - لأنها ليلة تقدير الأمور والأحكام. قال ابن عباس وقتادة: لأن الله يُقدِّر فيها الآجال والأرزاق، وحوادث العالم كلها، ويدفع ذلك إلى الملائكة لِمَمْتَلِهِ.
  - ٣ - لأنَّ الله ﷻ قدَّر فيها إنزال القرآن الكريم، فأنزل فيها كتاباً ذا قدر على رسول ذي قدر على أمة ذات قدر.
  - ٤ - لأنَّ للطاعات فيها قدراً عظيماً وثواباً جزيلاً.
  - ٥ - لأنَّ الأرض تضيق من الملائكة، ففسر القدر هنا بالضيق<sup>(١)</sup>.
- لقد بيَّن الله ﷻ لرسوله ﷺ عِظَمَ هذه الليلة، وَأَذْرَاهُ مكانتها وما خُصَّتْ به من الفضائل العِظَام، قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا كَانَ فِي الْقُرْآنِ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فَقَدْ أَعْلَمَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يُعْلِم. وفيه تنبيه للرسول ﷺ على فضلها، وحثاً له على العمل فيها<sup>(٢)</sup>.

ولما ثبتت عظمة هذه الليلة بتنبه الله ﷻ لنبيه ﷺ في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أي: وأيُّ شيء أعلمك لولا مَنَّة الله ﷻ عليك بهذا القرآن الكريم.

وذكر الشيخ محمد العثيمين أسباب تسميتها بليلة القدر كالاتي:

«أولاً: أنه يقدر فيها ما يكون في تلك السنة، فيكتب فيها ما سيجري في

(١) انظر: النكت والعيون للماوردي (٣١١/٦)، معالم التنزيل للبلغوي (٤٨٥/٨)، المحرر الوجيز لابن عطية (٥٠٤/٥)، زاد المسير لابن الجوزي (٢٩٥/٨)، اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٤٢٦/٢٠).

(٢) صحيح البخاري، باب فضل ليلة القدر ص ٣٩٧، معاني القرآن للفراء (٢٨٠/٣).

ذلك العام، وهذا من حكمة الله ﷻ، وبيان إتقان صنعه وحلقه فهناك:

الكتابة الأولى: وهذه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة في اللوح المحفوظ، وهذه كتابة لا تتغير ولا تبدل لقول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩] أي: أصله الذي هو مرجع كل ما يكتب.

الكتابة الثانية: عُمرية فيكتب على الجنين ما يعمله، ومآله، وما رزقه، وهو في بطن أمه.

الكتابة الثالثة: الكتابة السنوية، وهي التي تكون في ليلة القدر، وعليه فسميت ليلة القدر؛ لأنه يقدر فيها ما يكون في تلك السنة من خير وشر، عام أو خاص، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْمُبَرِّكَاتِ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٢﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [الدخان: ٣ - ٤] ويفرق أي: يفصل ويبين كل أمر حكيم، وأمر الله كله حكيم.

ثانياً: وقيل: سميت ليلة القدر، من القدر وهو الشرف، كما تقول فلان ذو قدر عظيم، أي: ذو شرف لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ [القدر: ١ - ٣] وليلة خير من ألف شهر قدرها عظيم لا شك.

ثالثاً: وقيل: لأن للعبادة فيها قدر عظيم، وهذا لا يحصل إلا لهذه الليلة فقط، فلو أن الإنسان قام ليلة النصف من شعبان، أو ليلة النصف من رجب، أو ليلة النصف في أي شهر، أو في ليلة لم يحصل له هذا الأجر<sup>(١)</sup>.

### خصائص ليلة القدر:

الخاصة الأولى: كونها خير من ألف شهر:

قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿١﴾﴾ والمعنى على الأوجه

الآتية:

١ - أن ليلة القدر خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع للشيخ محمد العثيمين (٦/٤٩٤).

٢ - والعمل فيها بما يُرضي الله ﷻ خيرٌ من العمل في غيرها ألف شهر، وهذا هو أشبه الأقوال بظاهر التنزيل<sup>(١)</sup>.

٣ - أن العابد فيما مَضَى لا يُسمَّى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر، فَجَعَلَ اللهُ ﷻ لهذه الأمة - أمة محمد ﷺ - عبادة ليلة خيراً من ألف شهر كانوا يعبدونها، وكأنَّ اللهُ ﷻ من على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر. ولقد خُصَّتْ هذه الأمة بهذه الفضيلة لما رأى محمد ﷺ أعمار أمته فتقاصرها<sup>(٢)</sup>.

إن ليلة كهذه الليلة خير من ألف شهر مضت على الأمم وهم في ظلمات الضلال، فليلة يتنزل فيها الهدى، خيرٌ من ألف شهر من شهور الظلام والشرك والوثنية، فجعل منهم أمة تُحرِّرُ الناس من استعباد القياصرة، وجبروت الأكاسرة، والله تعالى يفضِّل ما شاء من زمان ومكان لمعنى من المعاني تدعو إلى التفضيل، وله الحكمة البالغة.

#### الخاصة الثانية: نزول الملائكة وعلى رأسهم جبريل ﷺ:

قال تعالى: ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾.

تنزل الملائكة ومعهم جبريل ﷺ، بإذن الله من كل أمر قضاة في تلك السنة من رزقٍ وأجل وغير ذلك. عن قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قوله: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ قال: «يقضي ما يكون في السنة إلى مثلها»<sup>(٣)</sup>.

إنَّ إيمان الإنسان بأنَّ اللهُ ﷻ هو الأمر الناهي، وهو الحاكم القاضي، وهو وحده الذي بيده أزمّة الأمور، وهو الرزاق مالك خزائن السموات والأرض، لا يُشاركه في ذلك أحدٌ من عباده، وأمره ﷻ بين الكاف والنون، وأنه ﷻ قد كتب في سابق علمه ما هو كائنٌ لعباده من أمور معاشهم وأرزاقهم

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٣٢٧/١٥).

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٠٤/٥)، اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٢٠/٤٢٦)، فتح البيان للفتوح (٣٢١/١٥)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٦٥٤/٧)، ولم أقف من خلال بحثي على نصٍّ صحيح يدل على أن الأمة المحمدية خصت بليلة القدر من بين بقية الأمم - والله تعالى أعلم -.

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (٣٢٧/١٥).

قبل أن يخلقهم، فجميع تلك الحقائق تُثبت الإيمان وتُرسخ العقيدة وتقوي النفس، فتعلم أنّ ما أصابها لم يكن ليخطئها وأنّ ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأنه ليس لأحد من الخلق قدرة على المنع والعطاء البتة في جميع الأمور عظُمت أو دقّت، عندها فقط سيّجّه المؤمن إلى الله ﷻ بعقيدة صحيحة سليمة وسيفرده بالتوجه والطلب والسؤال، ومن المواطن التي يسن فيها الإكثار من الطلب والدعاء وصدق اللجوء إلى الله هي ليلة القدر التي يُفرق فيها كل أمر من عند الله ﷻ.

### الخاصة الثالثة: سلامتها من الشرور:

قال تعالى: ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ﴾ (١).

- ١ - ليلة القدر سلام من الشرّ كله من أولها إلى طلوع الفجر من ليلتها، قال قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هي خيرٌ كلها حتى مطلع الفجر»<sup>(١)</sup>.
- ٢ - قال مجاهد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو أذى»<sup>(٢)</sup>.

٣ - قال عطاء بن أبي رباح المكي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «سلام على أولياء الله وأهل طاعته».

- ٤ - قال الشعبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هو تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر»<sup>(٣)</sup>.
- ٥ - سلامة هذه الليلة لأمة محمد ﷺ<sup>(٤)</sup>.

### الخاصة الرابعة: لها علامات مقارنة وعلامات لاحقة:

أما العلامات المقارنة فهي:

- ١ - قوة الإضاءة والنور في تلك الليلة، وهذه العلامة في الوقت الحاضر لا يحسُّ بها إلا من كان في البرِّ بعيداً عن الأنوار. زيادة النور في تلك الليلة.

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٣٢٧/١٥).

(٢) القرآن العظيم لأبي حاتم (٣٤٥٢/١٠).

(٣) للفقرة الثالثة والرابعة انظر: معالم التنزيل للبغوي (٤٩١/٨).

(٤) بحر العلوم للسمرقندي (٥٧٧/٣).

٢ - الطمأنينة؛ أي: طمأنينة القلب، وانسراح الصدر من المؤمن، فإنه يجد راحة وطمأنينة وانسراح صدر في تلك الليلة أكثر مما يجده في بقية الليالي.

٣ - أن الرياح تكون فيها ساكنة أي: لا يأتي فيها عواصف أو قواصف، بل يكون الجو مناسباً.

٤ - أنه قد يُري الله الإنسان الليلة في المنام، كما حصل ذلك لبعض الصحابة.

٥ - أن الإنسان يجد في القيام لذة أكثر مما في غيرها من الليالي.

أما العلامات اللاحقة:

فمنها: أن الشمس تطلع في صبيحتها ليس لها شعاع، صافية ليست كعادتها في بقية الأيام، وأما ما يذكر أنه يقل فيها نباح الكلاب، أو يعدم بالكلية، فهذا لا يستقيم، ففي بعض الأحيان ينتبه الإنسان لجميع الليالي العشرة، فيجد أن الكلاب تنبح ولا تسكت<sup>(١)</sup>.

الخاصة الخامسة: ورود دعاء خاص بها:

فالذي وَرَدَ عن النبي ﷺ منه: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفْوٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي) لحديث عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: قُولِي: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفْوٌ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي)<sup>(٢)</sup>، فهذا من الدعاء المأثور، وكذلك الأدعية الكثيرة الواردة عن النبي ﷺ.

إن ليلة القدر هي ليلة التقدير الإلهي لما يجري للناس في عامهم المقبل؛ فلماذا لا تكون هذه الليلة هي ليلة القرارات الحاسمة للإنسان المسلم، القوي المتصل بربه وخالقه، المُستشعر لقيمة تلك الليلة؟! فلعل الله أن ينظر إلى ما نَوَاهُ من أعمال فيعينه عليها ويوفقه للأخذ بها. إنَّ من المهم أن يوقَّت الإنسان المسلم المُدرك الموقِّق تلك الليلة الفاضلة الأساس لوضع كل قراراته المصيريَّة، المتعلقة بدينه وأخراه، فتشمل طموحاته في كل المجالات.

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع شرح الشيخ محمد العثيمين (٤٩٩/٦).

(٢) سنن الترمذي (٤٩٩/٥) حديث رقم ٣٥١٣ قال: حديث حسن صحيح، المستدرك

للحاكم (٥٣٠/١) قال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

## اصطفاء الليالي العشر من ذي الحجة

قال الله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَليَالِ عَشْرِ ﴿٢﴾﴾ [الفجر: ١ - ٢].  
 وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أَفْضَلُ أَيَّامِ الدُّنْيَا الْعَشْرُ) <sup>(١)</sup>.  
 أقسم الله ﷻ بليالي عشر من ذي الحجة، وقسم الله ﷻ فيه عظيم إشارة  
 إلى فضيلة المقسم عليه، وبيان أهميته ومنفعته، تعظيماً له ورفعاً لشأنه <sup>(٢)</sup>، ولم  
 يقسم الله ﷻ بليال سواها، فهي أفضل الأيام عنده <sup>(٣)</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَالِ  
 عَشْرِ ﴿٢﴾﴾، والمرادُ بها العشر من ذي الحجة <sup>(٤)</sup>، وعن الضحاك بن  
 مزاحم <sup>(٥)</sup> رَضِيَ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيَالِ عَشْرِ ﴿٢﴾﴾، قال: عشر الأضحى،  
 أقسم بهنَّ لفضلهن على سائر الأيام <sup>(٦)</sup>.

(١) الترغيب والترهيب للمنذري (٣٠/٣) حديث رقم ١٦٩٣، صحيح الجامع الصغير  
 وزيادته للألباني (٢٥٣/١) حديث رقم ١١٣٣.

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٣٠٣، قواعد التفسير للسبت (٤٧٤/١).  
 (٣) اختلف العلماء في أي الليالي أفضل؛ العشر الأخيرة من رمضان، أم العشر الأولى  
 من الحج؟ قال ابن قيم الجوزية: الصواب أن يقال: ليال العشر الأخيرة من رمضان  
 أفضل من ليالي عشر ذي الحجة، وأيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام عشر  
 رمضان، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه، ويدل عليه أن ليالي العشر من رمضان إنما  
 فضلت باعتبار ليلة القدر، وهي من الليالي، وعشر ذي الحجة إنما فضل باعتبار  
 أيامه، إذ فيه يوم النحر، ويوم عرفة، ويوم التروية. زاد المعاد لابن قيم الجوزية  
 (٥٧/١).

(٤) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢١١/١٥).

(٥) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو محمد صاحب التفسير كان من أوعية العلم حدث  
 عن ابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وثقه أحمد بن حنبل، ويحيى بن  
 معين وغيرهم. وحديثه في السنن لا في الصحيحين، وإنما لقي سعيد بن جبيرة بالرِّيِّ  
 فأخذ عنه التفسير. مات سنة اثنتين ومئة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٩٨/٤).

(٦) الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي (٥٨٠/٦).

جاء القسم بها بصيغة التنكير الدال على التعظيم، وذلك لأنها مخصوصة بفضائل ليست لغيرها، ولأنها يقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع بغيرها، قال ابن عاشور<sup>(١)</sup> رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هي ليال معلومة للسامعين، موصوفة بأنها عشر، واستغنى عن تعريفها بتوصيفها بعشر، وإذ قد وُصفت بهذا العدد تعيّن أنها عشرٌ متتابعة، وِعَدَلْ عن تعريفها مع أنها معروفة؛ ليتوصّل بترك التعريف إلى تنوينها المفيد للتعظيم، وليس في ليالي السنة عشرٌ ليالٍ متتابعة عظيمة مثل عشر ذي الحجة التي هي وقت مناسك الحج»<sup>(٢)</sup>.

ليال عظيمة بدأت منذ ذلك الزمان البعيد، بصوت الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وهما يناديان الله ربهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]، هناك في ذاك الوادي البعيد، صور التاريخ أعظم صورةً للامتثال والاستجابة، صورة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ينتقل بين جنّات مكة مؤدّباً مناسك دينه، كما علّمه إياها ربه ﷻ، مُطِيعاً مُخْبِتاً قَانِتاً لربه، ذاحراً لعدوه، مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

بقيت مناسك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إرثاً لخير رسول وأفضل أمة، عن يزيد بن شيبان<sup>(٣)</sup> رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أتانَا ابن مربع الأنصاري، ونحن وقوف بالموقف فقال: إني رسول الله إليكم يقول: (كُونُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ

(١) هو محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور، نقيب أشراف تونس وكبير علمائها، ولي القضاء ثم الفتيا سنة ١٢٧٧هـ، فنقابة الأشراف. وتوفي بتونس. له كتب منها: شفاء القلب الجريح، وهدية الأريب، وتفسير التحرير والتنوير، الذي قضى في كتابته تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر بمنزله ببلدة المرسي شرقي مدينة تونس، وتوفي سنة أربع وثمانين ومائتين وألف للهجرة. انظر: الأعلام للزركلي (١٧٢/٦).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣١٣/٣٠).

(٣) هو يزيد بن شيبان الأزدي، وقيل: الديلي. قال ابن أبي حاتم: له صحبة. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٧٢٠/٤)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٦٥٩/٣).



إِبْرَاهِيمَ<sup>(١)</sup>، تبعته هذه الأمة المسلمة فكانوا بذلك أولى الناس بإبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

أمر الله ﷻ خليله بأن يُؤدّن في الناس بالحج، فتعالى صوت النداء من ذلك الوادي البعيد، إن ربكم قد اتخذ له بيتاً وأمركم أن تحجوه: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [٢٧] لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [٢٨] [الحج: ٢٧ - ٢٨]، فتواضع كل شيء لله ﷻ، ولبي كل من سمع النداء: «ليبك اللهم ليك».

جاء الحديث عن تلك الليالي العظيمة في القرآن الكريم بأسلوب ينبئ عن أهميتها وفضلها، فسماها الله ﷻ بالمعلومات؛ لأهميتها وفضلها، وللحث على استغلالها والعمل الجاد فيها، فأجرها عظيم، وخيرها كبير، فهي معلومة لا تضيع.

قال تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، الأيام المعلومات: عشر ذي الحجة آخرهنّ يوم النحر، وهذا قول أكثر أهل العلم قيل لها معلومات للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها.

جاءت في القرآن الكريم بصيغة التدقيق والإحكام لأهميتها. وهذا التدقيق في بيانها؛ للتنبيه على علمها بحسابها لأهميتها، ولأهمية ما انطوت عليه من المشاعر العظيمة؛ ففيها ركن الإسلام الأخير وهو الحج، وأيامه أفضل الأيام عند الله ﷻ، ويوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، ويوم عَرَفَةَ<sup>(٢)</sup>.

(١) سنن الترمذي (٢٣٠/٣) حديث رقم ٨٨٣، وصحيح سنن الترمذي للألباني (٢٦٢/١)

حديث رقم ٨٩٠، صحيح سنن ابن ماجه للألباني (١٧٢/٢) حديث رقم ٣٠١١.

(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزية (٥٦/١).

والأيام المعدودات: أيام التشريق، وهي أيام منى، ورمي الجمار، وسُميت معدودات لقلتهن. فروي عن عمر وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنهما كانا يكبران بمنى تلك الأيام خلف الصلاة وفي المجلس وعلى الفراش وفي الطريق، ويكبر الناس بتكبيرهما والتكبير إدار الصلاة مشروع في هذه الأيام في حق الحاج وغير الحاج عند عامة العلماء.

قال ابن جرير: «إن الأيام المعدودات هي: أيام منى وأيام رمي الجمار لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فيها: إنها أيام ذكر الله عز وجل»<sup>(١)</sup>. وأفردت بالذكر لمزيتها وشرفها، وكوّن بقية المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافاً لله فيها، وللذكر فيها مزية ليست غيرها، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (أيامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامٌ أَكُلُ وَشَرِبُ وَذَكَرُ اللَّهِ)<sup>(٢)</sup>. فتكون الفائدة التحريض على هذه الأيام واغتنام فضلها، فهي مخصوصة بالفضل، وليست كغيرها، ويدخل في ذكر الله فيها: ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيّد عقب الفرائض، وقال بعض العلماء: يُستحبُّ فيها التكبير المطلق كالعشر وليس ببعيد<sup>(٣)</sup>.

وأيام التشريق ثلاثة بعد يوم النحر، سُميت بذلك لتشريق الناس لحوم الأضاحي فيها، وهو تقديدها، ونشرها في الشمس. وفي الحديث استحباب الإكثار من الذكر في هذه الأيام من التكبير وغيره<sup>(٤)</sup>.  
ما خصّت به هذه الأيام العشر دون غيرها:

١ - العمل الصالح فيها أفضل من العمل في غيرها:

حيث أنّ العمل الصالح في هذه الأيام، أفضل من العمل الصالح في كل أيام العام، وما هذا إلا لعظيم شأنها عند الله عز وجل.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: (مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلُ مِنْهَا فِي

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٤١٥/٢).

(٢) صحيح مسلم (٦٥٨/٢) حديث رقم ١١٤١.

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (٤١٥/٢).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح للنووي (٢٥٩/٨).

هَذِهِ، قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ؟ قَالَ: (وَلَا الْجِهَادُ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ)<sup>(١)</sup>.

٢ - شمولها لأفضل الأعمال والأيام، ومنها:

• ركن الإسلام «الحج»:

قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

هذه الأيام هي الوقت الذي اختاره الله ﷻ بعلمه وحكمته ليكون وقت أداء الحج، والذي هو أفضل الأعمال على الإطلاق بعد الإيمان بالله ﷻ والجهاد في سبيله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: (جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: (حَجٌّ مَبْرُورٌ)<sup>(٢)</sup>، والذي ليس له جزاء إلا الجنة. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ)<sup>(٣)</sup>. وَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَغْزُو أَوْ نُجَاهِدُ مَعَكُمْ، فَقَالَ: (لَكِنَّ أَحْسَنَ الْجِهَادِ وَأَجْمَلَهُ الْحَجُّ، حَجٌّ مَبْرُورٌ)، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَلَا أَدْعُ الْحَجَّ بَعْدَ إِذْ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(٤)</sup>.

وفي هذه العشر يتحقق معنى التلبية إلى الله ﷻ قولاً وعملاً «لبيك اللهم لبيك» إجابة صادقة لنداء إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، وإعلان التوحيد المتجرد لله ﷻ «لا شريك لك لبيك» وتجديد العهد مع الله في كل وقت وكل حين أنه لا شريك له في القلوب، فهو الله الواحد الأحد، الذي تهفو إليه النفوس من كل فج عميق ليذكروه، ويعبدوه، وقيموا شعائره التي

(١) صحيح البخاري، رقم ٩٦٩.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ١٥١٩.

(٣) صحيح البخاري، رقم ١٧٧٣.

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم ١٨٦١.

افترضها عليهم، بل يشاركونهم في تلك البيعة كل من حولهم، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا مِنْ مُلَبٍّ يُلَبِّي إِلَّا لَبَّى مَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، مِنْ حَجَرٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ مَدْرٍ حَتَّى تَنْقَطِعَ الْأَرْضُ مِنْ هَهُنَا وَهَهُنَا) <sup>(١)</sup>.

ولقد برزت مظاهر التوحيد في هذا الركن بشكل واضح فإله ﷻ قد أمر بأداء الحج والعمرة خالصين له دون غيره، فقال سبحانه: ﴿وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَذِيئَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ شُكٌّ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٦٦﴾ [البقرة: ١٩٦]، فقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ تأكيد على أهمية التوحيد والإخلاص به دون غيره، وفي مشروعية رفع الأصوات بعد الإحرام بالتلبية لله، ونفي الشرك عنه، وإعلان انفراده بالحمد والنعمة والملك (لييك اللهم لييك، لييك...) فيه إبراز للتوحيد، فلم يشرع رفع الصوت والإعلان عن النية في العبادة إلا في هذا الركن، ولقد شرع في يوم عرفة المبارك أعظم الذكر، وأفضل ما قال الرسول والنبيون عليهم الصلاة والسلام: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك...)، كما قال ﷺ: (خَيْرُ الدُّعَاءِ عَرَفَةٌ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

ومن أجل مظاهر التوحيد: الطواف حول البيت العتيق، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢١﴾ [الحج: ٢٩]. فلا يجوز الطواف ببيت غيره على وجه الأرض، ولا بالأضرحة، ولا بالأشجار، والأحجار.

ومن مظاهر توحيد العبادة في السعي بين الصفا والمروة أن العبد يسعى بينهما امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ سَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ [البقرة: ١٥٨]. ومن مظاهر توحيد العبادة في الحج: ما شرعه الله يوم العيد، وأيام

(١) سنن ابن ماجه (٤٢٢/٣) حديث رقم ٢٩٢١، وصحيح سنن ابن ماجه للألباني (٢/

٥٥) حديث رقم ٢٩٢١.

التشريق من ذكر الله وحده، قال ﷺ: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وذكر الله يتجلى في الأعمال العظيمة التي تؤدى في أيام منى: من رمي الجِمَار، وذبح الهدي، وأداء الصَّلوات الخمس في هذا المشعر المبارك، والأيام المباركة؛ فكل هذه الأعمال ذكرُ الله. قال ﷺ: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَهُمْ لَهَا وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْهِيمَةٍ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

### • يوم عرفة:

الذي يُباهي فيه الله ﷻ بِخَلْقِهِ الذين جاءوه سُعْتًا غُبْرًا يريدون رضاه ويطلبون قضاء حوائجهم ويتنزَّل ﷻ إلى السماء الدنيا فيكثر فيه من عتق الرقاب، ويكون فيه الشيطان أصغر وأدحر ما يكون، ويكون فيه أعداء الإسلام أغبط وأخوف ما يكونون؛ إذ فيه يرى التجمُّع الحقيقي للأمة الإسلامية على عقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله باختلاف الألسنة والأجناس والألوان.

عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتَقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟) (١).

### • يوم النحر:

وهو أفضل الحج، قَالَ ﷺ: (إِنَّ أَعْظَمَ الْأَيَّامِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمُ النَّحْرِ، ثُمَّ يَوْمُ الْقَرِّ) (٢)، والقَرُّ: هو اليوم التالي ليوم النحر لأن الناس يقرون فيه بمنى. عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سئل: أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (الْعَجُّ وَالشُّجُّ) (٣).

(١) صحيح مسلم (٨٠١/٢) حديث رقم ١٣٤٨.

(٢) سنن أبي داود (٤٢٥/٢) حديث رقم ١٧٦٢ تحقيق محمد عوامة، صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني (٢٤٢/١) رقم ١٠٦٤.

(٣) سنن الترمذي رقم الحديث (٨٢٧) مجلد: (١٨٩/٣)، سنن ابن ماجه رقم الحديث (٢٩٢٤) مجلد: (٤٢٣/٣).

والعَجُّ: هو رفع الصوت بالتلبية، والشُّجُّ: سيلان دماء الهدي والأضاحي التي يحبُّ الله أن تُراق دماؤها قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ وَتَقْوَى. وهو أفضل الحج، وأعظم المناسك التي تُجَدِّدُ الْإِيمَانَ وَتُقَوِّيه، وذلك عندما يذكرون إبراهيم ﷺ وهو يطيع أمر ربِّه في ذبح ابنه إسماعيل ﷺ، ويستشعرون رحمة الله ولطفه بقصة الفداء، وما آلت إليه حالته وحالة ابنه بعد ذلك البلاء، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا بَتِ أَعْمَلُ مَا تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٢٣﴾ وَتَلَبَّثَهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ ﴿١٢٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٥﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْءَدُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الصفات: ١٠٢ - ١٠٦]، قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَلْبُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَإِنَّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الحج: ٣٧].

### • التكبير المطلق:

وممَّا خُصِّصَتْ بِهِ هَذِهِ الْأَيَّامُ الْمُبَارَكَاتُ دُونَ غَيْرِهَا، مَشْرُوعِيَّةُ التَّكْبِيرِ الْمُطْلَقِ، حَيْثُ شَرَعَ مِنْذُ أَوَّلِ يَوْمٍ فِيهِ وَحَتَّى نِهَائِهِ الْأَيَّامِ الْمَعْدُودَاتِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر. والتكبير المطلق هو الذي لا يكون مقيداً بأعقاب الصلوات، إنما على مدار اليوم والساعة كما ورد عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما كانا يخرجان إلى السوق فيكبران ويكبرُّ الناس بتكبيرهما؛ وفي هذا عظيم بيان لفضل هذه الأيام وتميُّزها عن غيرها بما خُصِّصَتْ بِعَظِيمِ الْعِبَادَاتِ.

### ٣ - اجتماع أمهات العبادات فيها:

كالصلاة والصيام والصدقة والذكر والذبح والحج وجميع أعماله الفاضلة من طواف وسعي إلى غير ذلك، قال ابن حجر: «والذي يظهر أن السبب في امتياز عشر ذي الحجة؛ لمكان اجتماع أمهات العبادات فيه، وهي الصلاة والصيام والصدقة والحج ولا يأتي ذلك في غيره»<sup>(١)</sup>.



(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٢/٥٨٥).

## المبحث الخامس

### اصطفاء بعض البقاع

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: اصطفاء البلد الأمين «مكة المكرمة».

المطلب الثاني: اصطفاء طابة «المدينة المنورة».

المطلب الثالث: اصطفاء بلاد الشام.

المطلب الرابع: اصطفاء المساجد.





واصطفى الله ﷺ من بلاد الشام أرض فلسطين، ثم اصطفى منها مكان المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ليخصه بما شاء من أحداث عظام في ماضي البشرية وحاضرها ونهايتها، كما سيأتي معنا في الحديث عن المسجد الأقصى.

لقد ربط الله بين تلك البقاع المختارة برباط وثيق في كتابه الكريم؛ قال ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التين: ١ - ٣]، أقسم الله بهذه الأماكن الثلاثة العظيمة المقدسة التي اختارها، وابتعث منها أفضل الأنبياء وأشرفهم، التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة، فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما، وهو أرض بيته المقدس، فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً. ولا ينافي أن يكون منبته مراداً فإن منبت هاتين الشجرتين حقيقاً بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة، فيكون القسم قد تناول الشجرتين ومنبتهما، وهو مظهر عبده ورسوله وكلمته وروحه عيسى ابن مريم ﷺ، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى ﷺ، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون. ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة المكرمة، مظهر خاتم أنبيائه وسيد ولد آدم، وترقى القسم من الفاضل إلى الأفضل، ونظيرها بعينه في التوراة التي أنزل الله ﷻ على موسى: (جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران)، فتضمن إقسامه بتلك الأماكن الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته وعنايته بخلقه، ذكرهم الله حسب الترتيب الزمني؛ ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما<sup>(١)</sup>.

ومما يدلُّ على الرباط المُحكَّم الوثيق بين هاتين الأرضين المختارتين ما ورد في السنة عن فرج بن فضالة<sup>(٢)</sup> رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن لقمان بن

(١) بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٥/٢٦٩)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/٤٣٤)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧/٦٤٨).

(٢) هو فرج بن فضالة بن النعمان بن نعيم التنوخي الحمصي، ويقال الدمشقي. يُكنى أبا فضالة، كان من أهل الشام، قدم بغداد، وولي بيت المال في أول خلافة المهدي، ومات بها سنة سبع وسبعين ومائة، وقيل ست وسبعين ومائة هجرية. انظر: الطبقات لابن سعد (٧/٣٢٧)، تهذيب التهذيب لابن حجر (٤/٤٨١).

عامر<sup>(١)</sup> رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ<sup>(٢)</sup> رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ: مَا كَانَ أَوَّلَ بَدْءِ أَمْرِكَ؟ قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عَيْسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ)<sup>(٣)</sup>، فبمولده رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أشرق نور الهدى على أرض الجزيرة العربية، وسرى نوره المبارك إلى بلاد الشام، بؤابة العالم بالنسبة للجزيرة العربية، ومنطلق الدعوة الإسلامية إلى الآفاق؛ وهذا قد يكون أحد الأسباب التي من أجلها كان الرسول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يشير على صحابته إلى الشام؛ لأن الناظر إلى موقع بلاد الشام من الجزيرة في خريطة العالم، يلاحظ أنها البوابة العظمى لها للانطلاق إلى العالم كله، فكان ذلك النور الذي رآته أم الرسول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مؤصلاً لتلك الرابطة المتينة التي تربط بين تلك البقعتين.

كما أن منع الملائكة للدجال من دخول مكة والمدينة وتوجيهه إلى أرض الشام، فيه كذلك من الحكمة التي تعطي الرابطة بين الأرضين، قوة ومعنى آخر، فتوجيه الملائكة للدجال ناحية بلاد الشام بدلاً عن قتله مباشرة؛ لأن مهلكه سيكون في تلك الديار المباركة في بلاد الشام على يد عيسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: (يَأْتِي الْمَسِيحُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، هَمَّتُهُ الْمَدِينَةُ، حَتَّى يَنْزِلَ دُبُرُ أُحُدٍ. ثُمَّ تَصْرِفُ الْمَلَائِكَةُ وَجْهَهُ قِبَلَ الشَّامِ. وَهَنَالِكَ يَهْلِكُ)<sup>(٤)</sup>، فتدفعه تلك البقعة التي اضطفاها الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وتهلكه البقعة الأخرى

(١) هو لقمان بن عامر الوصابي، أبو عامر الحمصي. روى عن أبي الدرداء، وأبي هريرة، وجماعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أجمعين.، ذكره ابن حبان في الثقات. انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (٦٠٦/٤).

(٢) هو أبو أمامة الباهلي، صاحب رسول الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، نزيل حمص، واسمه صدي بن عجلان، روى علماً كثيراً. وحدث عن عمر، ومعاذ، وأبي عبيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وزوي أنه بايع تحت الشجرة. توفي أبو أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سنة ست وثمانين وقيل سنة إحدى وثمانين للهجرة. انظر: الطبقات لابن سعد (٤١١/٧)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٥٩/٣).

(٣) مسند الإمام أحمد (٢٦٢/٥)، الطبقات لابن سعد (١٠٢/١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٥٥٨/٤) حديث رقم ١٩٢٥. وقال الألباني: أخرجه ابن سعد بإسناد رجاله ثقات.

(٤) صحيح مسلم (٨١٦/٢)، حديث رقم ١٣٨٠.

المُصْطَفَاة، وكأنهما وحدة واحدة في هلاك الشر في نهاية الزمان، كما كانتا وحدة في انتشار الخير.

وكما ارتبطت الأرضان المباركتان برباط مُحْكَم وثيق، ارتبط كذلك المسجدان برباط الله ﷻ لهما في أَجَلِّ المهامِّ وأعظمها؛ وهو التوجُّه إلى الله بالصلاة، فكلاهما كان قبلة للمسلمين، وما وصله الله لا يقطع.

إن المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى سرُّ القوة التي أعطاهها الله للأمة المسلمة، وقاعدة انطلاق الحق، وكل تلك المساجد خاصة بالإسلام والمسلمين لا غيرهم؛ فقد جمع الله بينها في سورة كاملة في قلب القرآن الكريم، وثلاثتهم القلب النابض بالحياة للأمة المختارة المكلفة وبدون ملكيتهم وانطلاق الحق منهم لا حياة للأمة المسلمة على الإطلاق.

قال الله ﷻ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

إنَّ فلسطين عامة والقدس خاصَّة، ترتبطان بالإسلام ديناً وعقيدة؛ فمسيرة الأنبياء والرسل ظلت ممتدة إليها مع الزمن، حتى كانت مسيرة خاتم النبيين، التي انطلقت من مكة إلى المدينة إلى أبواب القدس. وقبلها كانت رحلة الإسراء المُبَشِّرَة بأنَّ القيادة لذلك المكان، وكل مكان على وجه الأرض إنما هو في عنق أمة محمد ﷺ؛ الذي أمَّ جميع الأنبياء والمرسلين، وكانهم سلموه القدس المباركة له ولأمته المسلمة، لا ما تدَّعيه الشرذمة المفسدة من المُشْرِدِين، والمطرودين من كل البلاد أنها لهم، بدليل أن مساعيهم الجادة ليس للحفاظ على أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وإنما هدفهم الأعظم هو هدم ذلك المكان الطاهر ومحوه من الوجود! فهل تعي الأمة المسلمة الشاهدة ما وعاه الفاروق ﷺ، والقائد المجاهد صلاح الدين الأيوبي ﷺ!؟

لقد كان من الممكن أن يكون معراج المصطفى إلى السماء من مكة المكرمة، ولكن الإرادة الإلهية شاءت أن يكون من المسجد الأقصى، وأن تكون إمامته ﷺ للأنبياء هناك، ليشير إلى المكانة المهمة لهذا المسجد بعد

بعثته ﷺ، وأن كلا المسجدين وما بينهما من البقاع الطاهرة هي ملك للإسلام والمسلمين. وفي الآية إشارة إلى أن بين المسجدين سيكون مسجد ثالث لا يقل أهمية عن سابقيه وهو المسجد النبوي الشريف.

لقد أطلق الله ﷻ على كليهما اسم المسجد، والمسجد مكان خاص بعبادة المسلمين لا غير، وفي ذلك بيان قرآني أن المسجد الأقصى خاص بأصحاب الحق السائرين على الصراط المستقيم، دون تحيز إلى عرق أو جنس أو لون، وأصحاب الحق - كما ذكرنا في مبحث الإسلام - هم المتمسكون بالإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ؛ فيكون الإسراء رمزاً إلى أن الإسلام جمع كل ما جاءت به الرسالات السابقة.

وبإمامته ﷺ ولأنبياء جميعاً ﷺ في ذلك المكان إشارة إلى أنه وأمته هم المسؤولون عن تلك البقاع المصطفاة، وهي لهم وبها تكمن سر قوتهم، وإلا لماذا تسلّم عمر بن الخطاب رضي الله عنه مفاتيح المقدس بيديه ولم يسند هذه المهمة إلى غيره؟ ولم يذكر أنه تسلّم مفاتيح غيرها من المدائن التي فتحت في عهده. ولماذا جاهد صلاح الدين الأيوبي لتخليصه من أعداء الإسلام والمسلمين؟ كان ذلك لإيمانهم بأنه من مختارات الله ﷻ للأمة المسلمة.

إنّ هذه المساجد الثلاثة وبقاعها الطاهرة، خصّها الله ﷻ بمزيد فضل، وميّزت بأمور تربط بينها بروابط عديدة لم يشاركها فيها غيرها من البقاع، قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: تحديد مكان هذه المساجد كان بوحى من الله ﷻ أو شبه وحي، وبنائها أو شارك في بنائها رسل الله عليهم الصلاة والسلام، وثواب الأعمال فيها مضاعف<sup>(١)</sup>، كما أنها اشتركت في أن الرجال لا تشد إلا إليها، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ: (لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدٍ: مَسْجِدِي هَذَا، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)<sup>(٢)</sup>، وهذه خاصية لهذه المساجد الثلاثة لا غيرها.

لقد كان لاختيار الله ﷻ لهذه المساجد دون غيرها سرّ عجيب أشرب

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٨/٥٥٢).

(٢) صحيح مسلم (٢/٨٢٣) حديث رقم ١٣٩٧.

في قلوب المسلمين؛ فقد كان حبُّها أمراً فطرياً جُبلت عليه قلوبهم، وكان الحنين والشوق إليها يزداد كلما ذكرت وشُهدت، ولا يتسرب الملل من تكرار زيارتها، كما أنها تُفدى بالأرواح والمهج.

هبات ربانية للمسلمين أعطت نفوسهم السكينة والأمن، وأرواحهم الشفافية والأنس، وعقيدتهم الثبات والقوة، يحطّون عندها رجال الأحزان والهموم والكرب، ويسكبون عندها العبرات، ويستشفون من أمراض قلوبهم وأبدانهم. وصلت حاضرهم بماضيهم الأصيل فاكتمت قوة ورسوخاً، ووضعت أقدامهم على خطى سيد الأنبياء وصحابته الكرام، فازدادت استقامةً وثباتاً، وأيديهم على موطن مسّته يد سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ، فتجددت البيعة بحبه والحفاظ على سنّته وأتباعها، في كلِّ مرة تتجدّد بزيارتها. والنظر فيها، إنها معالم القدرة الإلهية التي لا تُضاهى والتي هي بمثابة إشارات ورموز لتجديد الإيمان والقوة في قلب المسلم العارف بربه.

إنّ المتأمل في هذه البقاع الطاهرة وما خصها به المولى ليجد نفسه أمام حقيقة عظيمة جليلة لها أبعادها الدينية والتاريخية، بيّن الله ﷻ لنا منها إشارات تستشعرها الأرواح وتشرق أنوارها على النفوس كلما عاشت ذلك الماضي البعيد بفهم وتحليل دقيق لأبعاده ومغزاه، فيرتفع المسلم من عالم المادة البحت الذي قد يطغى على الإنسان فيجعل حساباته للأمور رياضيةً بحتةً، وينسى أن هناك قوةً عظيمةً تتناثر معها الأرقام والحسابات، جعل الله لنا منها مشاعر ومواطن تزيد الإيمان واليقين والعقيدة، وتربط المسلم بربه ﷻ، وبمصدر القوة الحقيقي، فيزداد شموخاً وعزة واستعلاء على الباطل، فيمشي على الأرض ثابت الخطى، شامخ الروح، عزيز النفس؛ إذ جعل الله ﷻ لهذه البقاع خصوصية يستمد من خلالها أبناء الأمة - المختارة لأداء أعظم وأجلّ مهمة على وجه الأرض، قوة على المضي في رسالتهم.



## اصطفاء البلد الأمين «مكة المكرمة»

قال الله تعالى: ﴿لَا أُقِيمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ جِلُّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾  
[البلد: ١ - ٢].

وقال ﷺ: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْآمِينَ ﴿٣﴾﴾  
[التين: ١ - ٣].

أقسم الله ﷻ بأفضل البلدان وخيرها، وقذف حبها في قلوب من اختارهم، فكانت شريفة بنفسها، وازدادت شرفاً بحلول الرسول ﷺ فيها، فجمعت بين شرفين: إقسام الله ﷻ بها، وولادة الرسول ﷺ وإقامته بها، فهي أفضل البلدان، ويكفي شاهداً على ذلك أنها أحب الأرض إلى الله.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْحَمْرَاءِ<sup>(١)</sup> رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ وَاقِفًا بِالْحَرُورَةِ يَقُولُ: (وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَبِيبُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ اللَّهُ، وَاللَّهِ لَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ)<sup>(٢)</sup>.

اختار الله ﷻ بحكمته أرض الجزيرة العربية، واختار أرض البلد الأمين فكانت منطقة الأمن الوحيدة في الكرة الأرضية، ثم اصطفى بحكمته بقعة مُحدَّدة لتكون مقراً لبيته العتيق، ولعل الخلق لو اجتمعوا في ذلك الزمان، وفي كل زمان إنسهم وجنهم ليختاروا بقعة يُبنى عليها بيت الله ﷻ في أرضهم، لما

(١) هو عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أبو عمر، ويقال: أبو عمرو، عِدَادُهُ فِي أَهْلِ الْحِجَازِ، وَقِيلَ إِنَّهُ ثَقْفِي حَالَفَ بَنِي زَهْرَةَ، رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (٣/٣٠٧).

(٢) سنن الترمذي (٦٧٩/٥) حديث رقم ٣٩٢٥، وقال: حديث حسن غريب صحيح، مسند الإمام أحمد (٤/٣٠٥)، سنن ابن ماجه (٣/٥١٧) حديث رقم ٣١٠٨، صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/١١٩٢) حديث رقم ٧٠٨٩، قال: الألباني حديث صحيح.

اختاروا ذلك الوادي السحيق، المُقفر من الناس ومن كل مقومات الحياة، ليكون مثابةً ومرجعاً ومأوىً للناس، يتقاطرون عليه من كل البقاع ليجدوا - مهما بلغت أعدادهم - جميع احتياجاتهم الأساسية في ذلك الوادي المحدود، ولكنها الحكمة الإلهية التي شاءت أن يكون في ذلك المكان العظيم، وهيأت الأسباب كلها لذلك عبر سنين طويلة، وتضحيات عظيمة، وأحداث أقرب ما تكون لعالم الخيال، فاصطفى الله ﷻ خيرة عباده لأدائها، وهياهم لذلك تهيئةً بالغةً فكانوا أهلاً للقيام بذلك.

أذن الله ﷻ في وقت هو خير الأوقات في عمر البشرية، ببناء بيته المبارك في الأرض، أول بيت وضع للعبادة، فحاز بذلك أولوية الشرف والتعظيم والسبق.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوْلَى؟ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ)، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى)، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: (أَرْبَعُونَ سَنَةً. وَأَيْنَمَا أَدْرَكْتِكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ فَهُوَ مَسْجِدٌ)»<sup>(١)</sup>.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ أَوْلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَكَتْهُ مَبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦].

قال ابن قيم الجوزية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذكرت الآية محاسن البيت وَعِظَم شأنه، مما يدعو النفوس إلى قصده وحجّه وإن لم يطلب منها ذلك، فوصفه بخمس صفات:

- ١ - أنه أسبق بيوت العالم وضعاً في الأرض.
- ٢ - أنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أدوم وأنفع للخلائق.
- ٣ - أنه هدى، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة حتى كأنه هو نفس الهدى.
- ٤ - ما تضمنه من الآيات البيّنات التي تزيد على أربعين آية.
- ٥ - الأمن لداخله».

(١) صحيح مسلم (٣١٠/١) حديث رقم ٥٢٠.

ثم قال ﷺ: «وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرين الديار، وتناوت بهم الأقطار، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات، وهذا يدل على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه ﴿... وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ...﴾ [الحج: ٢٦] لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفاً، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، فهو المثابة للمحبين يثوبون إليه، ولا يقضون منه وطراً أبداً؛ كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حباً وإليه اشتياقاً»<sup>(١)</sup>.

كما بين شيخ الإسلام ﷺ: أن الأعيان إذا أضيفت إلى الله، فإما أن تضاف بالجهة العامة التي يشترك فيها المخلوق مثل كونها مخلوقة ومملوكة له ومقدوره ونحو ذلك، فهذه إضافة عامة كقوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾، وقد يضاف لمعنى يختص بها مثل «ناقة الله» و«بيت الله»؛ فمن المعلوم اختصاص ناقة صالح بما تميّزت به عن سائر النياق، وكذلك اختصاص الكعبة، فإن المخلوقات اشتركت في كونها مخلوقة مملوكة مربوبة لله يجري عليها حكمه وقضاؤه وقدره، وهذه الإضافة لا اختصاص فيها ولا فضيلة للمضاف على غيره، وامتاز بعضها بأن الله ﷻ يحبه ويرضاه ويصطفيه ويقربه إليه ويأمر به، أو يعظمه ويحبه، فهذه الإضافة يختص بها بعض المخلوقات كإضافة البيت والناقة<sup>(٢)</sup>.

لقد قامت الدراسات - قديماً وحديثاً - للتعرف على أسرار اختيار العليم الحكيم لهذا الموقع دون غيره، ورسمت الخرائط للعالم، وحددت نقطة ارتكازه ودورانه، ومكان الجاذبية الأرضية وغيرها من الدراسات العلمية الدقيقة<sup>(٣)</sup>، التي أعطت القليل من أسرار الحكمة من وراء اختيار مكان البيت

(١) انظر: بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٢٠٥/١)، بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (٤٦/٢).

(٢) الجواب الصحيح لابن تيمية (١٥٩/٢) باختصار.

(٣) للاستزادة ومعرفة الدراسات العلمية التي قام بها الباحثون، ومشاهدة الخرائط القديمة والحديثة التي رسمت لهذا الموقع فظهرت من أسرار إعجاز اختيار المكان الشيء =



الحرام ويبقى الكثير الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ ولكن يجد المسلمون أثره على أرواحهم وأنفسهم.

اصطفى الله ﷻ بعلمه وحكمته بقعة هي خير بقاع الأرض، لتكون مقراً لبيته العتيق، الذي شاء الله أن يعتقه من الغرق، ومن الجابرة فلم يغلب عليه جبار قط، ولم يملك موقعه قط، وهو بيت كريم لرب كريم، تُعتق فيه الرقاب من العذاب، وتُعتق فيه الأنفس من الهموم والأحزان، جاء جبريل ﷺ إلى السيدة هاجر، وقال: «لا تخافوا الضيعة، فإن هذا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله»<sup>(١)</sup>، فالكعبة بيت الله ﷻ، وقبله المسلمين، أذن الله برفعها، وخصها بخصائص عظيمة، منها ربطها بركنين من أركان الإسلام، هما الصلاة والحج، ولا تزال معمورة بالخير منذ أن بناها نبي الله إبراهيم ﷺ.

اصطفى الله ﷻ بعلمه وحكمته مكان البيت وأعلم به خليه المُجتبى، ورسوله المصطفى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦]، فلقد أعلمه الله ﷻ به، ووطأه له، وأرشده إليه، لينيه هو وابنه، فشرف هذا البيت بشرف ملكه، وموقعه، وبانيه، ومساعدته.

وهكذا اصطفى من البشر إبراهيم ﷺ الخليل المُجتبى ليكون باني البيت، واصطفى ابنه إسماعيل ﷺ ليكون مساعده في البناء، قال إبراهيم ﷺ: «يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِي أَنْ أُبْنِيَ لَهُ بَيْتًا، قَالَ: أَطَعِ رَبَّكَ، قَالَ: إِنَّهُ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ. قَالَ: إِذْ أَنْفَعَلُ، فَقَامَا فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ بَيْتِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

= الكثير، يرجع إلى كتاب (الكعبة مركز العالم) للدكتور سعد المرصفي فهو كتاب جمع فيه مؤلفه الكثير من المعلومات الهامة والخرايط التوضيحية وغير ذلك من المعلومات الهامة والمفيدة، ويرجع كذلك إلى (كتاب الاعتداء على بيت الله الحرام) لرزق السيد هبية، وكتاب (المنهج الايماني للدراسات الكونية) للدكتور عبد العليم خضر.

(١) انظر: صحيح البخاري، حديث رقم ٣٣٦٤.

[البقرة: ١٢٧]<sup>(١)</sup>. وهذه كلها اصطفايات حكيمة من ربِّ عليم لهذا البيت المبارك؛ فكان المكان الوسط بالنسبة للكعبة الأرضية، وهي مركز العالم، ومحور ارتكاز الجاذبية الأرضية التي تحميها من الانفلات بإذن الله<sup>(٢)</sup>، وفي ذلك إيحاء أن سبيل استقرار البشرية، وأتزانها، وهدوءها، وثباتها إنما هو بالتفافها حول بيت الله ﷻ، تستمد منه قوتها وكل ما يعينها على السير المُتَّزن في المسار الصحيح. فالكعبة هي النواة بالنسبة للأرض، كالنواة بالنسبة للذرة التي تحيط بها الإلكترونات؛ والتي كلما ازدادت منها قريباً ازدادت شحنتها، وكذلك الإنسان كلما ازداد قريباً من الكعبة ازداد قوة في الإيمان واليقين، باتصاله بالله ﷻ، وازداد ثباتاً وعزة وشموخاً.

قال تعالى ﷻ: ﴿أَوَلَمْ نُنَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: ٥٧].

اصطفى الله ﷻ مكان بيته ليكون منطقة الأمان لكافة مخلوقاته، ولقد أشرب الله ﷻ قلوب العرب جميعاً حُرمة هذا البيت وتعظيمه، لا يضاهيه أي مكان في عالمنا مهما بلغ ما يحاط به من أدق وأقوى سياجات الأمن التي توصلت إليها البشرية جمعاء. إنَّ الذي حرم هذه المنطقة إنما هو الله ﷻ مالك الملك، صاحب الأمر والنهي؛ حرمها منذ ذلك الماضي البعيد يوم أن خلق السماوات والأرض.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَتَحَ مَكَّةَ: (لَا هِجْرَةَ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ. وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا). وَقَالَ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَتَحَ مَكَّةَ: (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...) <sup>(٣)</sup>.

إنَّ القلب إذا استشعر حرمة ذلك المكان، وعظمة من خصَّه بتلك الحرمة، والوقت الذي فرضت فيه، ما وسعه أن يمشي إليه وفيه وبين جنباته إلا مطأطئ الرأس، موطئ الكنف، لين الجانب، خافض الصوت، هادئ

(١) انظر: صحيح البخاري، حديث رقم ٣٣٦٥.

(٢) انظر: الكعبة مركز العالم للدكتور سعد المرصفي ص ٢٠٤.

(٣) صحيح مسلم (٨٠٤/٢) حديث رقم ١٣٥٣.

الخطي، خاشع القلب، ساكن الجوارح، مُقرأً لله ﷻ بالعبودية، مُؤدياً حق بيته، مُدرِكاً قيمة ومعنى الحرمة التي أمن بأثرها كل شيء على نفسه، حتى الطير والوحش، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْثَالًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]. إنها البقعة التي اصطفاه المولى؛ لتكون البلد الآمن للبشر في زحمة الصراع، وفي وسط المعركة المُستعرة بين المتحاربين من جميع الأنواع والأجناس، فتحل الطمأنينة مكان الخوف، وتدريب النفس البشرية في واقعها العملي على هذه المعاني. إنها منطقة الأمان في الضمير البشري، ومنطقة المران وتدريب النفس، لتصفو وترقى فتتصل بالملا الأعلى<sup>(١)</sup>.

قال الله ﷻ: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْحَرَامَةَ بَيْتًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكِلُ شَيْئًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٩٧].

قال ابن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كان الناس كلهم فيهم ملوك، يدفع بعضهم عن بعض، ولم يكن في العرب ملوك، فجعل الله تعالى لهم البيت الحرام قياماً، يدفع بعضهم عن بعض»<sup>(٢)</sup>. إن نظام العالم مرتبط في باطن أمره ببيت الله الحرام؛ حيث جعل الله الكعبة عماد حياة الناس، وعماد هذا العالم البشري، إنه مرتبط ببيت الله الحرام، وبال دعوة التي أقيم لها. وهذه الآية تفرض على المسلمين مسؤولية كبيرة، إذ أنهم يُمثّلون بيت الله وما قام له في كل بلد يقطنونها<sup>(٣)</sup>.

اضطفى الله ﷻ بيته، واضطفى له مناسك خصّها به لا تقام إلا فيه، كما خصّه بآيات بيّنات لم توجد إلا في أرضه، من تلك المناسك الحج وهو «الركن الخامس» من أركان الإسلام، فليس هناك بقعة تقصد للحج إلا هذا المكان، وكل من حاول سلب البيت هذه الخاصية قصمه الله ﷻ.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَيْحٍ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧] فنأدى إبراهيم ﷺ: أيها الناس إن الله كتب

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/٩٨٢).

(٢) جامع البيان للطبري (٥/١٠٥)، التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٧/٧١).

(٣) تأملات في القرآن الكريم لأبي الحسن الندوي ص ٤١ - ٤٢ باختصار وتصرف.

عليكم الحج إلى البيت العتيق فحجوا، فسمعه ما بين السماء والأرض، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أفلا ترى أن الناس يجيئون من أقصى الأرض يلبون<sup>(١)</sup>.

لقد اختاره الله ﷻ لنبيه ﷺ، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق، فلا يدخلونه إلا متواضعين خاشعين متذللين، كاشفي رؤوسهم، متجردين عن لباس أهل الدنيا، وجعله حرماً آمناً، ولم يرض لقاصده ثواباً دون الجنة. فلو لم يكن البلد الأمين خيراً بلاده، وأحبها إليه، ومختاره من البلاد، لما جعل عرصاتنا مناسك لعباده، فرض عليهم قصدها، وجعل ذلك من أكد فروض الإسلام، وجعل قصده مكفراً لما سلف من الذنوب، ماحياً للأوزار، حاطاً للخطايا، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: (مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ عَادَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)<sup>(٢)</sup>.

ولقد أقسم الله ﷻ به في موضعين من كتابه فقال ﷻ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١] وقال ﷻ: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣].

كما خص البيت الحرام باحتوائه على قبلة أهل الأرض كلهم، فلا توجد قبلة سواها، وليس لأحد أن يطوف إلا حولها، وقد ظهر سر هذا التفضيل في انجذاب الأفئدة إليه<sup>(٣)</sup>.

واختص الله ﷻ بيته بآيات بينات، يراها الإنسان وهو يتنقل بين جنبات البيت الحرام.

قال الله ﷻ: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَى سَبِيلٍ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٧].

قال الطبري رحمته الله: «منهنَّ المقام، ومنهنَّ الحجر، ومنهنَّ الحطيم»<sup>(٤)</sup>.

وقال ابن عطية رحمته الله: «المقام وأمن الداخل جعلاً مثلاً مما في حرم الله من الآيات، وخصاً بالذكر لعظمهما، وأنها تقوم بهما الحجة على الكفار، إذ

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٨٧/١٠).

(٢) صحيح البخاري ص ٣٦٠ حديث رقم ١٨١٩.

(٣) زاد المعاد لابن قيم الجوزية (٤٦/١ - ٥٢) باختصار.

(٤) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٧/٣).

هم مدركون لهاتين الآيتين بحواسهم. ومن آيات الحرم والبيت كذلك أمر الفيل، ورمي طير الله عنه بحجارة السجيل، ومن آياته كف الجابرة عنه على وجه الدهر، ومن آياته: الحجر الأسود، وما أشربت قلوب العالم من تعظيمه قبل الإسلام، ومن آياته: حَجَرُ المَقَام. ومن آياته: زمزم وحفر عبد المطلب لها بعد دثورها، ونفع ماء زمزم لما شرب له. ومن آياته: الأمانة الثابتة فيه على قديم الدهر، وأمن الحيوان وسلامة الشجر، وذلك كله للبركة التي خصّه الله بها، ودعوة الخليل، وإذعان نفوس العرب وغيرهم لتوقير هذه البقعة دون ناه ولا زاجر. ومن آياته: كونه بواد غير ذي زرع، والأرزاق من كل قطر تجيء إليه عن قرب وعن بعد<sup>(١)</sup>.

ونحن نقف على بعض الآيات البيئات التي خص بها الله ﷺ بيته وبلده الحرام، وأثر تلك الآيات على من استشعر عظمتها، وربطها بأصل وجودها، ومعرفة الحكمة من بقائها، وأولى تلك الآيات:

### ١ - مقام إبراهيم ﷺ :

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّكَاتٍ لِلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْخَبَأُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا لَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكْبِتِينَ وَارْكَعَ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

مقام إبراهيم ﷺ هو المقام المعروف به والموجود بجوار الكعبة المشرفة، وهو أولى الأقوال بالصواب عند ابن جرير الطبري<sup>(٢)</sup> رحمه الله أنه الحجر الذي كان إبراهيم ﷺ يعلوه وهو ينفذ أمر ربه عندما ارتفع البناء وأعياه إكماله، جعله الله ﷻ من أول الآيات البيئات لبيته المحرم، وأمر باتخاذهُ مُصَلًّى، وفي ذلك تمييز وتشريف لهذا الحجر؛ اصطفاه الله ﷻ واختصه بما لا يشاركه فيه غيره، فأمر باتخاذهُ مصلى، كما جعله رمزاً باقياً لباني البيت الذي ساخت أقدامه الشريفة في الصخرة الصلدة الصماء وهو حافي الأقدام، قال مجاهد: مقام إبراهيم من الآيات البيئات وأثر قدميه في

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١/٤٧٥).

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (٣/١٦).

المقام آية بينة<sup>(١)</sup>. قال أبو طالب:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل<sup>(٢)</sup>

فكان حجراً وثائقياً عبر القرون والأحقاب لخليل الرحمن، الذي وقع عليه الاصطفاء ليكون أعظم مهندس تقلد وسام الشرف لبني بيت الله ﷺ في أرض عبیده، فكافأه الله ﷻ أعظم ما يكافئ السيد عامله، وجزاه أعظم الجزاء، فجعل موقفه رمزاً للسمع والطاعة، ورمزاً لدين هذا المكان ودين بانيه، قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «أمر الله أن يتخذ مقام إبراهيم مُصَلًى، ولولا أمره لم يكن له ذلك؛ لأن الله يختص ما يختصه من الأعيان والأفعال بأحكام تخصه يمتنع معها قياس غيره عليه؛ وذلك إما لمعنى يختص به لا يوجد بغيره على قول أكثر أهل العلم، وإما لمحض تخصيص المشيئة على قول بعضهم، وقد كان لإبراهيم وآل إبراهيم من محبة الله وعبادته والإيمان به وطاعته ما لم يكن لغيرهم، فخصهم بأن جعل لبيته الذي بنوه خصائص لا توجد لغيره وجعل ما جعله من أفعالهم قدوة للناس وعبادة يتبعونها فيها»<sup>(٣)</sup>

## ٢ - الحجر الأسود:

من آيات البيت البينّات الحجر الأسود<sup>(٤)</sup>، وله من الشرف العظيم، والمجد القديم، ما خصّه الله ﷻ به دون سائر الأحجار، ويتلخص ذلك في الآتي:

- (١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٣/١٥).
- (٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٧٩).
- (٣) انظر: الفتاوى لابن تيمية (٣١/٢٨٣، ص ٤٨٢) باختصار.
- (٤) الحجر الأسود معروف، وهو غير الركن اليماني، وسُمّي يمانياً؛ لأنه من جهة اليمن، ويطلق عليه هو والحجر: الركنان اليمانيان. فالكعبة ذات أركان أربعة: الحجر، والركن اليماني، والشمال والغربي، فيستلم الركن اليماني والحجر، ولا يستلم الركن الشمالي والغربي. انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع شرح الشيخ العثيمين (٧/٢٨١).

١ - أنه من الجنة قال ﷺ: (الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ مِنَ الْجَنَّةِ)<sup>(١)</sup>، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال ﷺ: (نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام هَذَا الْحَجَرَ مِنَ الْجَنَّةِ، فَتَمَتَّعُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَا تَزَالُونَ بِخَيْرٍ مَا دَامَ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ فَيَرْجِعَ بِهِ مِنْ حَيْثُ جَاءَ بِهِ)<sup>(٢)</sup>.

٢ - حُطُّهُ لِلخَطَايَا لِمَنْ اسْتَلَمَهُ بِحَقِّ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير رضي الله عنه<sup>(٣)</sup> أنه سمع أباه يقول لابن عمر: «ما لي لا أراك تستلم إلا هذين الركنين، الحجر الأسود والركن اليماني؟ فقال ابن عمر: إن أ فعل فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أَنَّ اسْتِلاَمَهُمَا يَحُطُّ الْخَطَايَا)<sup>(٤)</sup>.

وعن ابن عمر رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ: (إِنَّ اسْتِلاَمَ الرُّكْنَيْنِ يَحُطُّانِ الذُّنُوبَ)<sup>(٥)</sup>.

٣ - شهادته على كل من استلمه موقناً بفضلته متبعاً سنة نبيه ﷺ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في الْحَجَرِ: (لَيَأْتِيَنَّ هَذَا الْحَجَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، يَشْهَدُ عَلَيَّ مَنْ يَسْتَلِمُهُ بِحَقِّ)<sup>(٦)</sup>.

(١) سنن النسائي (٢٤٩/٥) حديث رقم ٢٩٣٥، صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني (٦٠٦/١) رقم ٣١٧٤ وقال الألباني: صحيح.

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي (٥٤٢/٣) حديث رقم ٥٤٨٥، وقال: رواه الطبراني في الكبير ورجال رجال الصحيح.

(٣) هو عبد الله بن عبيد بن عمير بن قتادة الليثي من العلماء المكيين، يكنى أبا هاشم، كان أفصح الناس من أهل مكة. روى عن عائشة بنت أبي بكر الصديق، وابن عباس، وابن عمر رضي الله عنه، وقد وثقه أبو حاتم (وكان ثقة صالحاً). مات سنة ثلاث عشرة ومائة، له أحاديث. انظر: الطبقات لابن سعد (٤٧٤/٥)، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥٧/٤).

(٤) مسند الإمام أحمد (٣/٢)، صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني (٤٣٧/١) حديث رقم ٢١٩٤ وقال الألباني: صحيح.

(٥) مسند الإمام أحمد (١٩١/٨) رقم ٤٥٨٥، تحقيق شعيب الأرنؤوط وغيره، قال: إسناده حسن.

(٦) سنن ابن ماجه (٤٣٤/٣) حديث رقم ٢٩٤٤، صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني (٩٤٤/٢) حديث رقم ٥٣٤٦، قال الألباني: صحيح.

٤ - احتفاء الرسول ﷺ به، واستلامه وتقبيله، والتزامه، ولو كانت هذه هي الخاصية الوحيدة التي خصَّ بها هذا الحجر لكفته شرفاً، وتقديساً، وتعظيماً، ولقد كان فعل الرسول ﷺ سُنَّةً اقتدى بها أفضل الخلق بعد المصطفى ﷺ، صحابته رضوان الله عليهم؛ تحقيقاً رائعاً لمبدأ الاتباع والافتداء الأمثل دون اعتراض ولا تشكيك ولا تزعزع.

عَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ<sup>(١)</sup> كَتَبَ اللَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ قَبْلَ الْحَجَرِ وَالتَّرَمَةَ، وَقَالَ - أي عمر -: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِكَ حَفِيًّا<sup>(٢)</sup>، وَسَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ إِسْتِلَامِ الْحَجَرِ؟ فَقَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَسْتَلِمُهُ وَيَقْبَلُهُ»<sup>(٣)</sup>.

٥ - انفراده من بين جميع المقامات بمشروعية تقبيله والتزامه، قال شيخ الإسلام كَتَبَ اللَّهُ: «ولا يقبل شيء من مقامات الأنبياء، ولا المساجد، ولا الصخرة ولا غيرها، ولا يقبل ما على وجه الأرض إلا الحجر الأسود»<sup>(٤)</sup>، كما قال ابن القيم كَتَبَ اللَّهُ: «وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه، وتُحط الخطايا والأوزار فيه غير الحجر الأسود والركن اليماني»<sup>(٥)</sup>.

إنَّ هذا الاختصاص ليس له مثيل لغير هذا الحجر على وجه الأرض، وإن المتأمل في هذه المنح الربانية للأمة المسلمة يشعر بعظيم فضل الله عليها، وأنها لم توهب لها إلا لحكم بالغة عظيمة، قد لا نحيط بجعلها، ولكن من المؤكد أن هناك من الحكم والأسرار والقوى ما لا يدرك كُنْهه إلا الله ﷻ، يكون مردوده على من قبله والتزمه بحق، وهو يصل الماضي البعيد بالحاضر،

(١) هو سويد بن غفلة بن عوسجة بن عامر، الإمام، القدوة، يُكنى أبا أمية الجُفَفي الكوفي، أسلم في حياة النبي ﷺ، وشهد اليرموك. صحبَ أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلياً، وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين. شهد مع علي صيفين، توفي بالكوفة سنة إحدى أو اثنتين وثمانين للهجرة في خلافة عبد الملك بن مروان، وهو ابن مائة وثمان وعشرين سنة. انظر: الطبقات لابن سعد (٦٨/٦)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٦٩/٤).

(٢) صحيح مسلم (٧٥٤/٢) حديث رقم ١٢٧١.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ١٦١١.

(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤٧٦/٣١).

(٥) زاد المعاد لابن قيم الجوزية (٤٨/١).



مستشعراً عظمة هذه النعمة ومقدارها التي اكتسبتها من الأيدي المباركة الطاهرة القوية التي اصطفها الله لبناء هذا البيت، ووضعت حجر الأساس فيه، يد أبينا إبراهيم عليه السلام ومحبنا ومسمّينا والداعي لنا ببعثة خير الأنبياء إلينا محمد صلى الله عليه وآله، ويد من جاء استجابة من الله ﷻ لتلك الدعوة المباركة، والذي شاءت إرادته أن يصطفى من بين كل العرب ليتشرف برفع ذلك الحجر الأسود إلى مكانه ليتّم بناء إبراهيم عليه السلام، ويبقى لنا الله ﷻ بفضلته ومنته تلك المقامات المباركة شعاراً للتوحيد وللإسلام المجيد، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، قال الشاعر عمر بهاء الأميري:

قَبَّلْتُ مَا قَبَّلَهُ ثَعْرُهُ النَّا طِقُ بِالْوَحْيِ ابْتِغَاءَ الصَّلَاةِ

ففي تقبيل الحجر الأسود صلة وسند عال متّصل بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله بدون واسطة<sup>(١)</sup>، فينبغي لمن أراد أن يصل إلى الحجر الأسود أن يستحضر تلك المواقف، ويتذكر تلك المشاعر المؤثرة، وليلبس رداء الوجل، ويخطو خطى الأمل، وليتأمل أنه يقبل موضعاً تشرف بتقبيل النبي صلى الله عليه وآله له، وليكن به حفيماً، وليتذكر معاني البيعة المباركة، وليستشعر أنه يجدها كلما مس ذلك المكان الطاهر، وليسكب عنده العبرات، قال الإمام الذهبي: «وقبل حجراً مكرماً نزل من الجنة، وضع فمك لائماً مكاناً قبله سيد البشر بيقين، فهناك الله بما أعطاك، فما فوق ذلك مفخر». ثم قال: «حجر مُعظّم بمنزلة يمين الله في الأرض مسّته شفتا نبينا صلى الله عليه وآله لائماً له»<sup>(٢)</sup>.

٣ - ماء زمزم:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

من آيات البيت النبّات: ماء زمزم المبارك، اختار الله ﷻ مكانها، وهياً

(١) نقلاً عن كتاب (فضل الحجر الأسود) لسائد بكداش ص ٤٢.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٢/٤ - ٤٣).

الأسباب لخروجها، فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، يترك زوجته وابنه بواد غير ذي زرع، مُنْفِذاً لأمر ربه، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ الرَّمْزِمْ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، وَتَرَكَ عِنْدَهَا جَرَاباً فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَمَى مُنْطَلِقاً، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ وَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا فِي هَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أُنَيْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ وَكَرَّرَتْ ذَلِكَ مِرَاراً، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ: اللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَأَنْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الشَّمْرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]. فشربت من الشنة حتى نفذ الماء فعضشت هي وصبيها، فكانت تسعى بين الصفا والمروة وتنظر إلى ابنها، فإذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت، وهي تسعى، فإذا أتت بحكمة الله وإرادته سبعة أشواط، سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ: أَغَثٌ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ. فَإِذَا جَبْرِيلُ عليه السلام، فَقَالَ بِعَقِبِهِ هَكَذَا، وَعَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الْأَرْضِ، فَأَتْبَقَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ، وَيَدِرُ لَبْنُهَا عَلَى صَبِيهَا<sup>(١)</sup>.

إنَّ المتأمل في القصة السابقة يرى أن أحداثها كانت بأمر الله ﷻ وحكمته وتدييره؛ فاختيار المكان كان من عند الله، ومن البدهي أن الماء والزاد لم يكن ليكفي السيدة هاجر وابنها، فأراد الله أن تسعى بين الصفا والمروة، وأن تُتم سعيها سبعة أشواط كاملة، ومن ثم كان اختيار البقعة المُحدَّدة التي هَمَزَهَا جَبْرِيلُ عليه السلام بجناحه ليفيض ذلك الماء، ولتكون تلك المعجزة الباقية على مدى الأزمان.

اصطفى الله ﷻ هذا الماء المبارك ليغسل به قلب سيد البشرية محمد ﷺ مرتين ليهيئه إلى المهمات العظمية التي كانت تحتاج إلى هذا الغسل، وبهذا الماء الذي اصطفاه الله ﷻ خاصة لهذه المهمة، فهل يتعادل هو وأي ماء آخر وجد على وجه البسيطة؟

(١) انظر: صحيح البخاري، حديثي رقم ٣٣٦٤، ٣٣٦٥.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصْرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءٍ زَمْزَمَ ثُمَّ لِأُمَّهُ <sup>(١)</sup>.

وكانت المرة الثانية قبل أن يعرج به إلى السماء، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَعَهَا فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدَيَّ فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ) <sup>(٢)</sup>.

إنَّ ماءَ زمزم هو الماء المختار لغسل خير قلبٍ وأطهره، تهيئة له لتلقي وحي الله، وللاتصال بالملا الأعلى، وفي ذلك إشارة إلى فضل ماء زمزم في تنقية النفس، وشفاء الروح، وقوة القلب، وغير ذلك مما ثبت من السر العجيب الذي أودعه موجد فيه من علاج أمراض الأبدان والأنفس، والكثير الكثير من الأمراض التي عجز عن علاجها أمهر الأطباء وأحدث الأدوية، ليبقى المعجزة الباقية على مرِّ الدهور الدالة على وحدانية الله تعالى.

قال ابن القيم رحمته الله: «ماء زمزم هو سيد المياه وأشرفها، وأجلها قدراً، وأحبها إلى النفوس، وأنفسها عند الناس، وهو همزة جبريل، وسقيا الله لإسماعيل عليه السلام» <sup>(٣)</sup>.

إنَّ من الخصائص التي خصَّ الله تعالى بها هذا الماء المبارك، أنه طعام طعم وشفاء سقم، وأنه لما شرب له، تُخَبَّرُ بشربه العقيدة، ويبتلى الإيمان، واليقين، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ <sup>(٤)</sup> قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: خَرَجْنَا مِنْ

(١) انظر: صحيح مسلم (١٣١/١) حديث رقم ١٦٢.

(٢) صحيح مسلم (١٣١/١) حديث رقم ١٦٣.

(٣) زاد المعاد لابن قيم الجوزية (٤/٣٩٢).

(٤) هو عبد الله بن الصامت الغفاري البصري ابن أخ أبي ذر الغفاري رضي الله عنه الصحابي المعروف، ويكنى أبا النصر، روى عن أبي ذر، وعمر، وعثمان، والحكم، ورافع، وابن عمرو، وحذيفة، وابن عمر، وعائشة - رضي الله عنهم - وذكروه ابن حبان في =

قَوْمِنَا غِفَارٍ، وَكَانُوا يُجَلِّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، فَخَرَجْنَا أَنَا وَأَخِي أَنَيْسُ وَأُمَّنَا، فَذَكَرَ قِصَّةَ إِسْلَامِهِ وَدُخُولِهِ مَكَّةَ، وَفِيهِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ لَهُ: (مَتَى كُنْتَ هَهُنَا؟) قَالَ: قَدْ كُنْتُ هَهُنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ، قَالَ: (فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ؟) قَالَ: مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ، فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُنُقُ بَطْنِي، وَمَا أَجِدُ عَلَى كَيْدِي سَحْفَةَ جُوعٍ، قَالَ: (إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامٌ طُعِمَ) ثُمَّ ذَكَرَ بَقِيَةَ الْحَدِيثِ (١).

وَعَنْ أَبِي جَمْرَةَ (٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَدْفَعُ النَّاسَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَاحْتَبَسْتُ أَيَّامًا، فَقَالَ: مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ: الْحَمَى، قَالَ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (هِيَ الْحَمَى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِمَاءِ زَمْزَمَ) (٣).

اصطفى الله ﷻ ماء زمزم، والمكان الذي يخرج منه، والزمان الذي يخرج فيه، والمَلِكُ الذي سيخرجه، والطريقة التي سيخرج بها، والعباد الذين يخصهم به، والمزايا التي سيخصه بها دون سواه من أنواع المياه، فهي ماء مباركة، أوجدها القادر في ذلك الوادي السحيق، المُقْفَر لِيَكُونَ نَوَاةً لاسْتِجَابَةِ اللَّهِ لِدَعَاةِ الَّذِي خَرَجَ مِنْ قَلْبٍ يَنْفَطِرُ حَنَانًا وَحِبَابًا وَشَفَقَةً، قَالَ اللَّهُ ﷻ عَلَى لِسَانِ خَلِيلِهِ وَمُصْطَفَاهُ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]. فكانت زمزم السبب لِقُدُومِ الْقَبَائِلِ وَالْعَيْشِ مَعَ السَّيِّدَةِ هَاجِرَ، وَرِعَايَةِ ابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ ﷺ، لِلْقِيَامِ

= الثَّقَاتِ، وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ: كَانَ ثِقَّةً، وَهُوَ أَحَادِيثُ. مَاتَ مَا بَيْنَ السَّبْعِينَ إِلَى الثَّمَانِينَ. انظر: الطبقات لابن سعد (٢١٢/٧)، تهذيب التهذيب لابن حجر (١٧٢/٣).

(١) صحيح مسلم (١٥٢٥/٤) حديث رقم ٢٤٧٣.

(٢) هو نصر بن عمران الضَّبْعِيُّ البَصْرِيُّ، أَحَدُ الْأَئِمَّةِ الثَّقَاتِ، رَوَى عَنْ أَبِيهِ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ عَمْرٍو، وَأَنْسَ بْنَ مَالِكٍ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَجْمَعِينَ، ذَكَرَهُ ابْنُ جَبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ، وَكَانَ ثِقَّةً مَأْمُونًا. مَاتَ سَنَةَ ثَمَانَ وَعِشْرِينَ وَمِائَةَ لِلْهِجْرَةِ. انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (٦١٨/٥)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٤٣/٥)، الأعلام للزركلي (٢٧/٨).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٢٦١.

بالدور المنتظر للمشاركة في بناء البيت العتيق، فَهَوَتْ بِذَلِكَ أَفئدة الناس إليهم، وقد أمن لهم الملك صاحب البيت ما يكفيهم جميعاً من ماء زمزم المبارك، طعام طعم وشفاء سقم، يشربون، ويحملون إلى بلادهم وديارهم أجمل هدية من الرحمن، من بيت أكرم الملوك، الله رب العالمين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «صلوا في مُصَلَّى الأخيار، واشربوا من شراب الأبرار. قيل لابن عباس: ما مُصَلَّى الأخيار؟ قال: تحت الميزاب، قيل: وما شراب الأبرار؟ قال: ماء زمزم»<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - الصفا والمروة:

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨] أخبر الله ﷻ أنهما من شعائره التي جعلها أعلاماً لطاعته والطواف بينهما أحب إليه. ومعنى الشعائر أي مما أشعركم بفضله، وقد أمر الله ﷻ بتعظيم شعائره: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٢١٦﴾﴾ [الحج: ٣٢].

فالصفا والمروة علمان بارزان اختارهما الله ليكونا محلاً لمناسك دينه، سعت بينهما السيدة هاجر سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، وفعلت ذلك سبع مرات، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا)<sup>(٢)</sup>.

في تلك البقعة المشرفة بين الصفا والمروة سعت أم إسماعيل، متذلة خائفة وجللة، مضطرة فقيرة إلى الله ﷻ، حتى كشف كُرْبَتَهَا، وأنس غربتها، وخرجت من شدتها، وأنبع لها ماء زمزم؛ فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره، وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله ليزيح ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبت عليه إلى مماته، وأن يحوله من حاله الذي هو

(١) انظر: (فضائل مكة) للدكتور الغبان (٧٤٣/٢) حديث رقم ٤٠٢، وقال: إسناده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٣٦٤.

عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسَّداد والاستقامة، كما فعل بهاجر. ولقد خصهما الله بالذكر إشارة إلى بركة الإقبال عليهما على ما شرع الله، بما أنزل على الرسول ﷺ من الكتاب والحكمة الباقيين إلى آخر الدهر شفاءً للقلوب، وزكاة للنفوس، وزيادة للنعمة بصفة الشكر.

وفي تقديم الصفا إشارة إلى أن الصابر لله ﷻ ينبغي أن يجمع قلبه بين الصلابة والصفاء فيكون بصلابته مانعاً من القواطع الشيطانية، وبرقته جامعاً للواعم الرحمانية<sup>(١)</sup>.



---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/٤٧١ - ٤٧٢)، نظم الدرر للبقاعي (١/٢٨٣).

## اصطفاء طابة «المدينة المنورة» (١)

البلدة التي اصطفاه الله ﷺ لتكون مهاجر رسوله ومُصطفاه ﷺ، والتي ساقط الهجرة إليها بالكثير من الاختيارات الربانية الحكيمة التي سبقتها وتخللتها وأعقبها.

اختار الله ﷺ الوقت الذي يكون فيه الانتقال إلى المدينة المصطفاه، قال ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: (عَلَى رِسْلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُوَدَّنَ لِي) حتى إذا جاء الوقت المحدد من الله خرج الرسول مُتَقَنَّعًا، وقال له: (فَأِنِّي قَدْ أَدِنُّ لِي فِي الْخُرُوجِ) (٢)، فكان هو الوقت المصطفى لتأريخ التاريخ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: مَا عَدُّوا مِنْ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا مِنْ وَفَاتِهِ، مَا عَدُّوا إِلَّا مِنْ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ (٣)، فاصطفى الله ﷺ ذلك الوقت ليكون بداية التاريخ الخاص بالأمة المسلمة.

(١) (المدينة): هي عَلَمٌ على البلدة المعروفة التي هاجر إليها النبي ﷺ، ودُفِنَ فيها، ولقد ورد اسم المدينة في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [المنافقون: ٨]، فإذا أطلقت تبادر إلى الفهم أنها المراد، وإذا أريد غيرها بلفظ المدينة فلا بد من قيد، فهي كالنجم للثريا، وكان اسمها قبل ذلك يثرب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ [الأحزاب: ١٣]، ويثربُ اسم لموضع منها سُمِّيت كلها به، وقيل أن بعض المنافقين يسميها يثرب، واسمها الذي يليق بها المدينة. وفهم بعض العلماء من هذا كراهة تسمية المدينة بيثرب، وقالوا: ما وقع في القرآن إنما هو حكاية عن قول غير المؤمنين، وسبب هذه الكراهة لأن يثرب إما من التشريب الذي هو التوبيخ في الملامة، أو من الثرب وهو الفساد، وكلاهما مُستقبح. (وطابة) من أسمائها كذلك، والطاب والطيب لغتان بمعنى واحد، واشتقاقهما من الشيء الطيب، وقيل: لطهارة تربتها، وقيل: لطيبها لسكانها، وقيل: من طيب العيش بها. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤/١٠١ و١٠٨).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٩٠٥.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٩٣٤.

واصطفى الله ﷺ لرسوله صاحبه في الهجرة إلى البلد المختار، أول من آمن به من الرجال، أبا بكر الصديق ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْكَافِرِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعْنَا فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠]، حيث أطلع الرسول ﷺ صاحبه على الإذن في الهجرة فقال له: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله، فكان نعم صاحب المصطفى لأعظم هجرة شهدها التاريخ.

واصطفى له البلد التي أوحى له بها، لتكون دار الهجرة ونواة الإسلام، المدينة المنورة، عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا اليمامةُ أَوْ هِجْرًا، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ)<sup>(١)</sup>، وهذا يشير إلى أن اختيار المدينة المنورة إنما كان من عند الله ﷻ لقوله ﷺ: (فَذَهَبَ وَهَلِي) أي: أنه ﷺ لم يكن يعلم أي دار سيوجهه الله ﷻ إليها، حتى أراه الله رؤيا، ورؤيا المرسلين حق، قَالَ ﷺ: (أَرَيْتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ وَهُمَا الْحَرَّتَانِ)<sup>(٢)</sup>، وفي الحديث الآخر قَالَ ﷺ: (أَمْرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقَرْيَ يَقُولُونَ: يَثْرِبُ، وَهِيَ الْمَدِينَةُ تَنْفِي النَّاسَ، كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ)<sup>(٣)</sup>.

(١) صحيح البخاري، باب رقم ٤٥.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٩٠٥. واللابتان: وهما الحرَّتَانِ؛ والحرَّة: أرض حجارتها سود.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ١٨٧١. قوله ﷺ: «أَمْرْتُ بِقَرْيَةٍ» أي: أمرني ربي بالهجرة إليها أو سكنها، ومعنى «تأكل القرى» أي: تغلبهم، وكنتي بالأكل عن الغلبة لأن الأكل غالب على المأكول، وقيل المعنى: أن أكلها وميرتها من القرى المفتوحة، وإليها تساق غنائمها وقوله ﷺ «تنفي الناس»، قال عياض: وهذا مختص بزمنه لأن لم يكن يصبر على الهجرة والمقام معه بها إلا من ثبت إيمانه، وقال النووي: ليس هذا بظاهر؛ لأن عند مسلم: «لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكبير خبث الحديد»، وهذا والله أعلم زمن الدجال. انتهى. ويُحتمل أن يكون المراد كلاً من الزمنين. ومعنى قوله ﷺ: «الكبير» أكثر أهل اللغة على أن المراد بالكبير حانوت الحداد والصائغ، والخبث، أي: وسخه الذي تخرجه النار، والمراد =



فنزّل بها النبي ﷺ مُسَلِّماً راضياً باختيار ربه ﷻ، سائلاً ربه أن يرزقه قمة الرضا والتسليم لأمره حتى في ميل قلبه، ضارباً بذلك أعظم مثال في تحري الامتثال والتسليم لأمر الله ﷻ، قَالَ ﷺ: (اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ)<sup>(١)</sup>، فكان من حبه لها دعاؤه لها بمثل ما في مكة من الخير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: كَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاؤُوا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَإِذَا أَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (اللَّهُمَّ! بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدْنَا! اللَّهُمَّ! إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيَّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيَّكَ. وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ)<sup>(٢)</sup>.

لقد كانت بركة الاصطفاء الإلهي لهذا البلد الطيب تحيطه في كل جانب من جنباته، ومن ذلك أن الله ﷻ اختار لهذه البلدة المصطفاة اسمها التي تُسَمَّى به، وفي ذلك قمة العناية بتلك البقعة الخيرة، فلقد اصطفى الله اسم طابة ليخص به مدينة رسوله ﷺ ودار هجرته.

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى الْمَدِينَةَ طَابَةَ)<sup>(٣)</sup>.

اصطفى الله ﷻ مسجد قباء ليكون مقام الرسول ﷺ في بداية نزوله بالمدينة المنورة، قال الله ﷻ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ حُجُبَ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء، وصرح بذلك جماعة من السلف، وهو الأليق بالقصة<sup>(٤)</sup>.

= أنها لا تترك فيها من في قلبه دغل، بل تميزه عن القلوب الصادقة وتخرجه كما يميز الحداد رديء الحديد من جیده. واستدل بهذا الحديث على أن المدينة أفضل البلاد. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١٠٨/٤).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ١٨٨٩.

(٢) صحيح مسلم (٨١٢/٢) حديث رقم ١٣٧٣.

(٣) صحيح مسلم (٨١٧/٢) رقم ١٣٨٥.

(٤) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٨٢/٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢١١/٤).

قال شيخ الإسلام رحمته الله: ثبت في الصحيحين أنه ﷺ كَانَ يَأْتِي قُبَاءَ كُلِّ سَبْتٍ رَاكِبًا وَمَاشِيًا، ثُمَّ قَالَ: ومسجد قباء أسس على التقوى، وبسببه نزلت الآية، ومسجد الرسول ﷺ أحق بأن يكون هو المؤسس على التقوى، فقوله تعالى يتناول مسجده ومسجد قباء، وكل مسجد أسس على التقوى<sup>(١)</sup>، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاءٍ، رَاكِبًا وَمَاشِيًا. فَيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ<sup>(٢)</sup>.

ومن اختيار البلدة الطاهرة، واصطفائها لتكون مقر الهجرة، ونواة الإسلام التي تفجر منها الحق إلى أرجاء الأرض، إلى اصطفاء بقعة أشد اختصاصاً وفضلاً، إنه اختيار البقعة الفاضلة التي يقام عليها مسجده النبوي، فكان مكانه باختيار الله ﷻ، وكان بناؤه بمشاركة الرسول ﷺ، وخيرة رجال الدنيا بعد الأنبياء والرسل، فنال بذلك خصائص عظيمة توجته حلة التمييز، وتاج الشرف، وعنوان البقاء؛ فالله هو الذي حدّد بعلمه وحكمته الموقع، والرسول ﷺ هو الباني له بيديه الشريفتين، والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين هم المساهمون بأنفسهم وأموالهم في ذلك البناء الطاهر، فهل يوجد على وجه البسيطة مسجد حاز ذلك الشرف بعد مكة المكرمة؟

إن المسلم عندما يتوجه إلى المدينة لا بد وأن يرجع إلى التاريخ العريق يقرؤه، ويستشعر روعته، ويعيش بمشاعره الإيمانية هناك، مع تلك الصفوة المختارة المتوجة شرف الدنيا والآخرة، ويرى نفسه لو كان معهم وقتها، فيا ترى ما هو فاعل؟ فما يكاد أن يصل إلى البلدة المصطفاة إلا وقد اقشعر بدنه وارتجف قلبه وفاضت عيناه، هيبة وفرحاً ووجلاً، وما أن يقترب من المسجد النبوي إلا وتسكب العبرات، عبرات الشوق لنبيه المصطفى، وعبرة الشعور بمصيبة فقده، وحاجة أمته إليه، ووضعها الآن، وما آل إليه حال المسلمين في أرجاء الكون، تفيض العبرات حزناً وأسى، ويتمزق الصدر وحشةً وألماً، يستنشق رائحة الإيمان والحب والنصرة، وعبق الأخوة الصادقة، ومسك

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤٦٨/٣١).

(٢) صحيح مسلم (٨٢٤/٢) حديث رقم ١٣٩٩.

الشهادة، وروعة تقديم المهج إلى الرسول ﷺ حياً ونصرةً، ودفاعاً وبيعةً، فيلهج لسانه بالصلاة عليه، وقلبه بالشوق إليه، وكفه بالبيعة له، وروحه بالفداء له ولدينه، صدقاً ويقيناً.

ركب الرسول ﷺ راحلته، فسار يمشي معه الناس، حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وكان يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربداً للتمر لغلامين يتيمين في حجر سعد بن زرارة<sup>(١)</sup> رضي الله عنه، فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ حِينَ بَرَكَتْ نَاقَتُهُ: (هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْمَنْزِلُ)، وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبَنَ فِي بُيُوتَانِهِ وَيَقُولُ:

(هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْبَرُ هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرُ  
اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْأَخِرَةِ فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ)<sup>(٢)</sup>

لقد اتخذ الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، من مسجد الرسول ﷺ مقراً للدولة الكبرى التي كانت النواة الخُصبة لقيام الدولة المسلمة على وجه البسيطة، ففيه انعقدت ألوية الجهاد لنشر منهج الله ﷻ في الأرض، والذي يجب أن يحكم به كل الناس عربهم وعجمهم، فالأرض أرض الله والخلق خلقه، وإليه وفدت وفود الأمم لعقد المعاهدات مع الرسول ﷺ، وفيه كانت تقام دروس التربية والتعليم على مبادئ الدين الإسلامي القيم، ومنه تخرجت الكوكبة الإيمانية المباركة التي نشرت النور والهدى للناس، التي كانت الأمانة للناس، نالوا شهادات الامتياز ومراتب الشرف وأوسمة التمييز، فكانوا بفضل الله ﷻ، ثم بتربية رسوله ﷺ، وعلو المنهج، وشرف المكان، كانوا كالنجوم، أئمة لمن بعدهم.

(١) هو سعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنيم بن مالك بن النجار. وهو الذي نزل عليه مصعب بن عمير رضي الله عنه عندما أرسله الرسول ﷺ ليفقه أهل المدينة في دينهم. انظر: الطبقات لابن سعد (١١٨/٣)، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٨٦/١).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٩٠٦. والمقصود «باللبن»: أي الطوب المعمول من الطين الذي لم يُحرق، وقوله ﷺ: «هذا الحمال»، أي هذا المحمول من اللبن، «أبر عند الله»: أي أبقى ذخراً، وأكثر ثواباً، وأدوم منفعة، وأشد طهارة من جمال خبير، أي التي يُحمل منها التمر والزبيب ونحو ذلك. انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (٣١٣/٤).

اضطفى الله لرسوله ومُصطفىاه هذه البلدة الطاهرة ليكون ترابها هو الذي يوارى خير جسد، وأطهر إنسان فكان قبره الشريف في المدينة المنورة، وفي مسجده الشريف، واصطفى له من يجاوره في مثواه الأخير، صاحبيه أبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، فطابت طيبة بأطيب رسول، وطاب ترابها بأطيب جسد ﷺ. هذه طابة التي أكرم الله ﷻ بها الأمة المسلمة لتكون القلب النابض بأنها الأمة الحق، وأن أهلها هم أهل الحق، وأن دورهم باق ببقاء طيبة، التي شهدت أرضها سيرة قائد روح الخير والعدل للإنسانية جمعاء ﷺ.

لقد حازت هذه البقعة المباركة هذا الفضل، فكانت موطناً متميزاً بخصائص عظيمة منها:

١ - مضاعفة أجر الصلاة في المسجد النبوي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيَمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ)<sup>(١)</sup>.

٢ - تحريم الرسول ﷺ لها، فصارت بذلك حَرَمًا كَمَكَةَ الْمَكْرَمَةَ، قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: (اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَإِنِّي أَحْرَمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا)<sup>(٢)</sup>.

٣ - مضاعفة البركة بها ضِعْفِي مَا بِمَكَةَ الْمَكْرَمَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفِي مَا بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ)<sup>(٣)</sup>.

٤ - حلول السلامة والصحة والبركة بها بدعاء الرسول ﷺ لها، قَالَ ﷺ: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدَّنَا وَصَحْحَهَا لَنَا وَانْقُلْ حُمَاهَا إِلَيَّ)

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ١١٩٠.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٣٦٧، واللابتان: الحرتان، وواحدتهما: لابة - بتخفيف الموحدة - وهي الحرة أو الأرض الملبسة حجارة سوداء، وللمدينة لابتان: شرقية وغربية وهي بينهما. وقوله ﷺ: «وإني أحرم ما بين لابتَيْها»، معناه: اللابتان وما بينهما، والمراد تحريم المدينة ولابتَيْها. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٣٩/٩)، وفتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١٠٣/٤).

(٣) صحيح مسلم (٨١٠/٢) حديث رقم ١٣٦٩.

٥ - تحصينها من عداء المعتدين وحقد الحاقدين أبد الدهر، وإيقاع أشد العقوبات على من تحدته نفسه بالكيد لها أو لأهلها. قال ﷺ: (الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مِنْ كَذَا إِلَى كَذَا، لَا يُقَطَّعُ شَجَرُهَا، وَلَا يُحَدَّثُ فِيهَا حَدَثٌ، مَنْ أَحَدَثَ فِيهَا حَدَثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)<sup>(٢)</sup>، وقال ﷺ: (لَا يَكِيدُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَحَدٌ إِلَّا انْمَاعَ كَمَا يَنْمَاعُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ)<sup>(٣)</sup>.

٦ - تحصينها من الطاعون والدجال، عليها حرس من جند الله ﷻ، قَالَ ﷺ: (عَلَى أَنْفَابِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ، لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ وَلَا الدَّجَالُ)<sup>(٤)</sup>.

٧ - تعظيم أجر الساكن بها، والصابر على لأوائها حباً للمصطفى ورغبة في البقاء بدار الهجرة، لا يستبدل بها شيئاً من كنوز الأرض مهما بلغت، ولا أرضاً مهما فتحت، عن عامر بن سعد<sup>(٥)</sup> عن أبيه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنِّي أَحْرَمُ مَا بَيْنَ لَابَتِي الْمَدِينَةَ أَنْ يُقَطَّعَ عِضَاهُهَا، أَوْ يُقْتَلَ صَيْدُهَا)، وَقَالَ: (الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، لَا يَدْعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ١٨٨٩. والجحفة: قرية قديمة، ميقات لأهل الشام، سُميت بذلك لأنَّ السيل أجحفها في وقت، وهي على نحو ثلاث مراحل من مكة المكرمة. على طريق المدينة. حلَّ بها الوباء الذي دعا النبي ﷺ أن ينقله من المدينة إلى الجحفة؛ لأن تلك البلاد كانت بلاد كفر، ولما صارت مكاناً غير مناسب للحجاج جعل الناس بدلها رابعاً، فمن أحرم من رابع فقد أحرم من الجحفة وزيادة. انظر: شرح النووي (٣٢١/٨)، الشرح الممتع على زاد المستقنع للشيخ محمد العثيمين (٥٠/٧).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ١٨٦٧.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ١٨٧٧. [انماع] أي: ذاب. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١١٧/٤).

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم ١٨٨٠.

(٥) هو عامر بن سعد بن أبي وقاص بن أهب بن عبد المناف بن زهرة، إمام ثقة، مدني، سمع أباه، وأسامة بن زيد، وعائشة، وأبا هريرة وجابر بن سمرة ؓ. وأمه أم عامر، كان ثقة كثير الحديث. توفي بالمدينة في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة أربع ومائة هجرية. انظر: الطبقات لابن سعد (١٦٧/٥)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٤٩/٤).

إِلَّا أَبَدَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ. وَلَا يَبْتُتُ أَحَدٌ عَلَى لَأَوَائِهَا وَجَهْدِهَا إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً، أَوْ شَهِيداً، يَوْمَ الْقِيَامَةِ<sup>(١)</sup>.

٨ - شهادة الرسول ﷺ لها بأنها خير البلاد، وخير مكان يطلبه الناس لهم ولأهلهم، وهذه الخيرية التي شهد بها المصطفى ﷺ ليست في شيء ظاهر من الخيرات يراه الناس؛ لأنهم حين تفتح لهم البقاع يشجع بعضهم على الرحيل عن دار الهجرة طلباً للرزق والسعة في الحياة، وهذا يكون بميزان الدنيا، ولكن الميزان الآخر الذي ذكرناه بعيداً عن الحسابات الدنيوية، يقرر حقيقة قد يسخر منها أهل الدنيا الذين لا يؤمنون؛ إنه الميزان الإيماني الذي يقرره صاحب الشريعة الصادق المصدوق، والذي لا يؤمن بصدقه ويعمل بنصحه إلا من ألغى تدييره وتخطيطه أمام تديير رسوله ﷺ وتخطيطه واختياره. ولعل الخيرية التي يشهد بها المصطفى لهذه الأرض هي خيرية الدنيا والآخرة، تهدي للإنسان عندما يوقن بشهادة الرسول ﷺ أنها الخير، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَدْعُو الرَّجُلُ ابْنَ عَمِّهِ وَقَرِيْبَهُ: هَلُمَّ إِلَى الرَّخَاءِ! هَلُمَّ إِلَى الرَّخَاءِ! وَالْمَدِيْنَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ فِيهَا خَيْرًا مِنْهُ. أَلَا إِنَّ الْمَدِيْنَةَ كَالْكَبِيْرِ، تُخْرِجُ الْحَيِّثَ. لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَنْفِي الْمَدِيْنَةَ شِرَارَهَا، كَمَا يَنْفِي الْكَبِيْرُ خَبَثَ الْحَدِيْدِ)<sup>(٢)</sup>، وقال ﷺ: (تُنْفَعُ الْيَمَنُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبْسُونَ، فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيْهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِيْنَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. وَتُنْفَعُ الشَّامُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبْسُونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيْهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِيْنَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. وَتُنْفَعُ الْعِرَاقُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبْسُونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيْهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِيْنَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)<sup>(٣)</sup>، وفي قوله ﷺ: «لو كانوا يعلمون»:

(١) صحيح مسلم (٨٠٩/٢) حديث رقم ١٣٦٣. [لأوائها وجهدها] قال أهل اللغة: اللأواء بالمد: الشدة والجوع. وأما الجهد فهو: المشقة. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٤٠/٩).

(٢) صحيح مسلم (٨١٦/٢) حديث رقم ١٣٨١.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ١٨٧٥. [يَبْسُونُ] بفتح أوله وضم الموحدة وبكسرهما من =

إشارة إلى أن العالمين بهذه الحقيقة هم المؤمنون الصادقون الذين ثبت الإيمان في قلوبهم، وإن كان يخالف ما تراه أعينهم، وهذا هو قمة التصديق بالرسول ﷺ وبقوله كما فعل الصديق في حادثة الإسراء.

٩ - عودة الإيمان إلى المدينة، فكما انطلق منها فإنه يعود ويأرز إليها كما بين ذلك المصطفى قال ﷺ: (إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا)<sup>(١)</sup>، وكيف لا يأرز في هذا المكان الطاهر الذي كان فيه الفداء والعطاء، والتضحيات التي لم يعهد لها مثل، ولم يشهد التاريخ لها مثيلاً؟! ولن يشهد حتى قيام الساعة. إنها الصفوة من الخلق التي بايعت المصطفى ﷺ على تقديم كل شيء رخيصاً أمام الحفاظ على المصطفى ودعوته، وكانت يد الله فوق أيديهم، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ تَكَفَّ فَإِنَّمَا يَكُفُّ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ

= بسّ يبسّ، معناه يسوقون دوابهم، والبس: سَوَّقُ الإبل، تقول: بس بس عند السوق وإرادة السرعة. والمعنى: يزجرون دوابهم فيسبون ما يطؤونه من الأرض من شدة السير فيصير غباراً، ويشهد لهذا حديث أبي هريرة عند مسلم: (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَدْعُو الرَّجُلُ ابْنَ عَمِّهِ وَقَرِيْبِهِ: هَلُمَّ إِلَى الرَّحَاءِ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ). وقال النووي: الصواب أن معناه الإخبار عن خروج من المدينة متحملاً بأهله بأساً في سيره مسرعاً إلى الرخاء والأمصار المفتوحة. «لو كانوا يعلمون» أي: بفضلها من الصلاة في المسجد النبوي، وثواب الإقامة فيها وغير ذلك، والحال أن الإقامة في المدينة خير لهم لأنها حرم الرسول ﷺ وجواره ومهبط الوحي، ومنزل البركات، لو كانوا يعلمون ما في الإقامة بها من الفوائد الدينية والعوائد الأخروية التي يستحقرونها بما يجدونه من الحظوظ الفانية العاجلة بسبب الإقامة في غيرها. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١١٤/٤).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ١٨٧٦. [يأرز] معناه: ينضم ويجتمع، أي: أنها كما تنتشر الحية من جحرها في طلب ما تعيش به فإذا راعها شيء رجعت إلى جحرها، كذلك الإيمان انتشر في المدينة، فكل مؤمن له من نفسه سائق إلى المدينة لمحبهته للنبي ﷺ، وذلك في كل الأزمنة لأنه في زمن النبي ﷺ للتعلم منه ﷺ، وفي زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم للاقتداء بهديهم، ومن بعد ذلك لزيارته ﷺ، والصلاة في مسجده، والتبرك بمشاهدة آثاره، وأثار أصحابه رضوان الله عليهم. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١١٦/٤).

عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ [الفتح: ١٠]، فكان جزاؤهم أن دفن الحبيب بينهم ولم يدفن في مكة التي كان يحبها وتعلق قلبه بها، إنها الديار التي فتحت يديها للحبيب واحتضنت دعوته.

١٠ - احتواء أرضها على روضة من رياض الجنة، وهذا من أعظم المنح التي خص الله ﷺ بها أمة المصطفى ﷺ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمَنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمَنْبَرِي عَلَى حَوْضِي) (١)، قال ابن كثير: «ولا يوجد في الأرض بقعة من بقاعها ورد أنها من الجنة إلا هذه البقعة الشريفة، وهي التي بين منبره وبيته ﷺ، وهذه خاصية ومزية تضاف إلى مزايا هذه الأمة» (٢).

هذه طيبة الطيبة، صارت باصطفاء الله لها، خير البلاد وأشرفها وأكرمها عند الله وعند رسوله ﷺ، بارك الله في صاعها ومدها وجعلها حرماً آمناً، طيبة على مدى الأيام، تطهر نفسها فتنتفي خبثها، وتبقى طيبة بطيب جسد من واراها ترابها الطيب. فيها قصر محمد ﷺ أبيض كالثلج، وفيها منبره الذي علا بصوت الحق والعدل، وفيها روضة من رياض الجنة جعلها الله ﷺ بقدرته في الأرض يستروح فيها المؤمن عقب الجنان، فتسمو روحه وتحلق بعيداً عن ثقل الأرض وأعبائها، ويعلم أن وراء التعب راحة، ووراء الضيق فسحة، ووراء الشتات التثام، وبعد الموت حياة، وبعد الفراق التقاء بالمصطفى ﷺ. وما هي إلا خطوات تباعدنا عن الركب الطاهر، لنلقاهم هناك على أرض الجنان، هم السابقون ونحن بإذن الله ﷺ اللاحقون، ولكن حمل الأمانة شاق، وتكاليها باهظة، ومشوارها طويل، لذلك كانت هذه المنح الربانية والمختارات الإلهية لهذه الأمة تقرب لها البعيد، وتيسر لها العسير، وتلهب ألسنة الشوق، وتجدد البيعة وتوضح الطريق، قال الله ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

(١) صحيح مسلم (٢/٨٢٠) حديث رقم ١٣٩١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/١١١).



إنَّ للحرمين الشريفين مكانة دينية، تاريخية، وفكرية عظيمة لها أثرها الكبير على الإسلام والمسلمين، ولقد ظهر ذلك بأمر الله ﷻ لرسوله بالتوجه إلى البيت العتيق قبله لصلاته بدلاً عن المسجد الأقصى، ليعيد لأمة التوحيد - متمثلة في الأمة المحمدية - قيادة البشرية وهدايتها قال ﷻ: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فأصبحت الكعبة قبله للمسلمين ورمزاً للتوحيد، ومظهراً حقيقياً للإيمان تشرّب إليها القلوب، وتتناول إليها الأعناق، ومنذ ذلك الوقت تصدرت الكعبة الصدارة في الكون كله، ثم عاش الرسول ﷺ بقية حياته في المدينة المنورة يرسي قواعد الدولة متخذاً من مسجده الشريف مقراً لإدارة الدولة ومدرسة لتربية أصحابه، ومن هنا احتلت المدينة المنورة ومسجد المصطفى ﷺ الصدارة بعد مكة المكرمة، وصار ثاني الحرمين الذي تشد إليه الرحال من كل فج ليشارك الحرم الأول رسالته السامية. إن الحرمين معنيان من المعاني الخالدة، التي لا تقوم للمسلمين قائمة بدونهما، بل لا تكتمل الشخصية القانونية والشرعية لدولة إسلامية إن لم يكن الحرمين الشريفان أساساً للانطلاق<sup>(١)</sup>.



---

(١) انظر: مجلة البحوث الإسلامية العدد ٢٤، (المكانة التاريخية والفكرية للحرمين)، للدكتور محمد زغروت ص ٣١١ وما بعدها بتصرف.

## اصطفاء بلاد الشام

قال الله ﷻ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٧١﴾﴾ [الإسراء: ١].

وقال ﷺ: ﴿وَلَسَلَيْتَنَّ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِي إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١].

وقال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرَهُ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِرُّوا فِيهَا لَيْالِي وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبا: ١٨].

عَنْ أَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: (صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ أَرْضِهِ الشَّامُ، وَفِيهَا صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ)<sup>(١)</sup>، اصطفى الله أرض الشام لتكون مهاجر أبي الأنبياء إبراهيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومعادن الأنبياء، ومسرى الرسول ﷺ، ومحل تشريفه وتشریف أمته بإمامته لجميع الأنبياء والرسل، وبوابة معراجه إلى السماء، وموطن المسجد الأقصى المبارك، ومهلك الدجال.

أرض مباركة، أخبر المصطفى ﷺ بخيريتها، وخيريتها من فيها من الصالحين، وكان يُوصي بالهجرة إليها دون غيرها من البلاد، ففي الحديث عن ابن حوالة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: (سَيَصِيرُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً، جُنْدٌ بِالشَّامِ، وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ، وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ)، قَالَ ابْنُ حِوَالَةَ: خِرُّ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ، فَقَالَ: (عَلَيْكَ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا خَيْرَةٌ اللَّهُ مِنْ أَرْضِهِ، يَجْتَنِي إِلَيْهَا خَيْرَتُهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ فَعَلَيْكُمْ بِبَيْتِنَا، وَاسْفُؤا مِنْ

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٩٤/٨) حديث رقم ٧٧٩٦، صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني (٧٠٣/٢) حديث رقم ٣٧٦٥. وقال: حديث صحيح.

عُدْرِكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَوَكَّلْ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ»<sup>(١)</sup>، لقد جاءت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ تبين فضل بلاد الشام. والفضائل الماثورة في أرضها وأبنائها تبين سبب اهتمام أعداء الله بالسيطرة على أرضها، كما دلت الأحاديث أن على أرضها سيحسم خطر اليهود، وعلى أرضها سيقتل الدجال، وعلى أرضها سينزل عيسى عليه السلام، وعلى أرضها تستقر الخلافة الراشدة على منهج النبوة، وعلى أرضها ينتهي خطر يأجوج ومأجوج.

ويظهر من حديث رسول الله ﷺ أن جيوش الإسلام ستتمركز في ثلاثة محاور رئيسية، وأن أفضلها محور بلاد الشام، وأن الرسول ﷺ قد اختار بلاد الشام، ونصح بالانضمام إلى جندها، كما أخبر النبي ﷺ أن أهل الشام ومن يأتيهم للإقامة فيها هم خيرة الله من عباده، وذلك لقيامهم على حراسة دينه، ورفع رايته، فالخيرية ثابتة لفضيلة الثبات، والجهاد، والاستقامة.

قال العز بن عبد السلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وهذه شهادة من الرسول باختيار الشام، وتفضيلها، وباصطفاء ساكنيها. وقد رأينا بالمشاهدة، فإن من رأى صالحى أهل الشام، ونسبهم إلى غيرهم، رأى بينهم من التفاوت ما يدل على اصطفائهم واجتباؤهم»<sup>(٢)</sup>، وقد قال ﷺ: (لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ، وَلَا مَنْ خَدَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ)، قال مالك بن يخامر<sup>(٣)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَمِعْتُ مُعَاذًا يَقُولُ: وَهُمْ بِالشَّامِ»<sup>(٤)</sup>.

لقد نصَّ القرآن الكريم في العديد من آياته على خيرية هذه الأرض

(١) سنن أبي داود (٤/٣) حديث رقم ٢٤٨٣، صحيح الجامع الصغير وزيادته للالباني (٦٨٢/١) حديث رقم ٣٦٥٩. وقال: حديث صحيح.

(٢) «ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام» للعز بن عبد السلام ص ٢٠.

(٣) هو مالك بن يخامر، ويقال له: ابن أخامر السكسكي الحمصي. صحب معاذ بن جبل وروى عنه وعن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ أَجْمَعِينَ، وغيرهم. وذكره ابن حبان في الثقات التابعين، وقال ابن سعد: كان ثقة. ومات سنة سبع وسبعين، وقيل: اثنتين وسبعين. انظر: الطبقات لابن سعد (٤٤١/٧)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣/٣٥٨)، تهذيب التهذيب لابن حجر (٥/٣٦٢).

(٤) صحيح البخاري حديث رقم ٧٤٦٠.

وبركتها دون غيرها من البلاد فلم يرد ذكر هذه الأرض إلا واقترنت بذكر البركة التي خصها الله بها، ووصفها بالبركة ثابت في القرآن الكريم. قال الدكتور صلاح الخالدي:

١ - التعبير عن البركة بالفعل الماضي (باركنا) فيه إشارة إلى أن البركة أصيلة راسخة أصيلة ممتدة في أعماق الزمن الماضي.

٢ - إسناد الفعل إلى الله ﷻ يدل على أنه هو الذي باركها، والبركة لا تكون إلا منه، ولا يملك أحد نزعها.

٣ - المنطقة التي باركها الله وبارك فيها هي المسجد الأقصى والأرض الواقعة حوله، وهي شاملة لبلاد الشام كلها (فلسطين وسوريا والأردن ولبنان).

٤ - لفظ البركة عام فيبقى على عمومته، ولا يجوز أن تقصر على واحدة منها، ومن مظاهرها:

البركة في الموقع باعتبارها قلب العالم، والبركة في المناخ في طقسها وتربتها التي تحقق خصباً اقتصادياً وإنتاجاً زراعياً، البركة الإيمانية باعتبارها أرض النبوات ومهد الرسالات، والبركة الإسلامية باعتبارها أرض الإسلام منذ الإسراء والمعراج، والفتح الإسلامي<sup>(١)</sup>.

إن الله ﷻ جعلها لخيرة عباده، فقد كانت مهاجر إبراهيم ولوط ﷺ، قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٧١]، ولو لم تكن مفضلة عند الله عن غيرها لما اصطفاها دون غيرها لتكون مهاجر خليله ﷺ، فالنجاة لا تكون إلا إلى مكان يثبت فيه الصلاح والخير، وفي هذا إشارة إلى خيرية هذه الأرض ومكانتها، وفي قوله تعالى: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى عموم بركتها بما انطلقت منها من النبوات، قال ابن عطية: «هي أرض الشام وهو قول الجمهور، وهي الأرض التي بارك الله فيها بالنبوة من جهة، وهي من جهة أخرى أطيب بلاد الله أرضاً، وأعذبها ماءً، وأكثرها ثمرة ونعمة»<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: لطائف قرآنية للدكتور صلاح الخالدي ص ١٢١.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٨٩).

وقد جعلها الله ﷺ ميراثاً لبني إسرائيل، وفي كلمة: ﴿وَأَوْزَنَّا﴾ إيحاء لطيف ببركة هذه الأرض، وقيمتها، وإلا كيف يورثها الله ويجعلها جزاءً لبني إسرائيل، ومكافأةً لهم على صبرهم وإيمانهم، وخاصةً إن كان المورث هو الله ﷻ الغني القادر؟! قال ﷻ: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَضَعِفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرَكُنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومعلوم أن بني إسرائيل إنما أورثوا مشارق أرض الشام ومغاربها، بعد أن أغرق الله فرعون في اليم، وهي مهاجر إبراهيم، وميراث بني إسرائيل، ومملكة سليمان، وفيها الطور الذي كلم الله عليه موسى، والمسجد الأقصى، وفيها مبعث أنبياء بني إسرائيل، وإليها مسرى الرسول ﷺ، ومنها معراجه، وبها ملكه، وعمود دينه وكتابه، والطائفة المنصورة من أمته، وإليها المحشر والمعاد، كما أن من مكة المبدأ، والشام إليها يحشر الناس، فمكة مبدأ وإيلياء معاد في الخلق، وكذلك بدأ الأمر، فإنه أسري بالرسول ﷺ من مكة إلى إيلياء، ومبعثه ومخرج دينه من مكة، وكمال دينه وظهوره وتمامه، حتى يملكه المهدي بالشام. فمكة هي الأول والشام هي الآخر في الخلق والأمر، في الكلمات الكونية والدينية. وأخبر الرسول ﷺ أن خيار أهل الأرض أوزمهم مهاجر إبراهيم، وهي الشام، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: (سَيَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ، فَخِيَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ الَّذِينَ أَلَزَمَهُمْ مُهَاجِرَ إِبْرَاهِيمَ، وَيَبْقَى فِي الْأَرْضِ شِرَارُ أَهْلِهَا تَلْفُظُهُمْ أَرْضُهُمْ، وَتَقْدُرُهُمْ نَفْسُ الرَّحْمَنِ وَتَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْقَرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ)<sup>(١)</sup>، وقد تكفل الله بالشام، وملائكته باسطة أجنحتها عليها<sup>(٢)</sup>.

وفي بيان فضل أهل هذه البقعة المباركة، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)<sup>(٣)</sup>، وقال الألباني رحمه الله: «واعلم أن المراد بأهل الغرب - في هذا

(١) سنن أبي داود (٤/٣) حديث رقم ٢٤٨٢، تخريج أحاديث فضائل أهل الشام ودمشق للألباني ص ٨٢، وقال: حديث حسن.

(٢) انظر: كتاب مناقب الشام وأهله لابن تيمية من ص ٧٣ إلى ص ٨٦ باختصار.

(٣) صحيح مسلم (١٢١١/٣) حديث رقم ١٩٢٥.

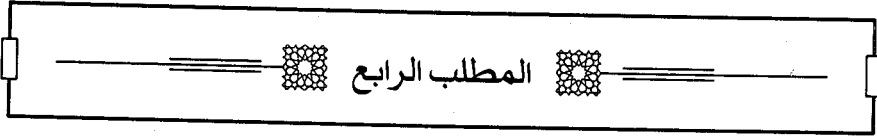
الحديث - أهل الشام؛ لأنهم يقعون في الجهة الغربية الشمالية بالنسبة للمدينة التي فيها نطق عليه الصلاة والسلام بهذا الحديث الشريف، وفيه بشارة عظيمة لمن كان فيها من أنصار السنة المتمسكين بها، الذابئين عنها والصابرين في سبيل الدعوة إليها»<sup>(١)</sup>.

ومن الأمور التي خصَّ بها الشام وأهله: ما ذكره ﷺ في حديثه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف الرقاع، فقال ﷺ: (طُوبَى لِلشَّامِ)، فقلنا: لأيِّ ذلك يا رسول الله؟ قال: (لأنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ بِأَسْطَ أَجْنَحَتِهَا عَلَيَّهَا)<sup>(٢)</sup>، ففي الحديث دعاء الرسول ﷺ لهم بالراحة وطيب العيش، وبسط ملائكة الرحمة أجنحتها على الشام بالمحافظة عليهم وحراستهم، كما أن حفَّ الملائكة للشام وأهله يكون سبباً في إنزال البركة وجلب الخير، والخيرية إنما تكون للمؤمنين العاملين بكتابه والمهتدين بسنة نبيه، ولذلك فهي لا تشمل العاصين، وحين يتكفل الله ﷻ بقوم، رعاية وحفظاً وعناية، واصطفاءً واختياراً، فهل يتطرق الشك إلى قلب إنسان مؤمن أن الله ﷻ سيضيعهم؟<sup>(٣)</sup>.



---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/٦٩٠)، شرح حديث رقم ٩٦٥.  
(٢) صحيح سنن الترمذي، تخريج الألباني (٣/٢٥٤) حديث رقم ٤٢٣٢.  
(٣) انظر: المؤامرة الكبرى على بلاد الشام لمحمد فاروق الخالدي من ص ٢١ إلى ص ٣٢ باختصار وتصرف.



## اصطفاء المساجد

قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

ومن ذلك اختياره من البقاع أفضلها وأحبها إليه؛ ألا وهي المساجد، أظهر ساحات الدنيا، وأنقى بقاع الأرض. وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَيَّ اللَّهُ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَيَّ اللَّهُ أَسْوَاقُهَا)<sup>(١)</sup>. اختارها الله ﷻ، واصطفاهما على غيرها لتكون محال عبادته، وذكره، وأضافها إلى نفسه فزادها بهذه الإضافة تشريفاً وتعظيماً وتقديساً، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، فهي تُنسب إلى الله ملكاً وتشريفاً وتكريماً، كما تبين اختصاص المساجد بالله وحده أي: عبادته. والمساجد صيغة عموم تشمل عموم المساجد، وهي ما خُصص للصلاة، فنسبت إلى الله بصيغة التوكيد والعموم، فكل مساجد الأرض هي لله وحده، وفي هذه النسبة رفعة وتخصيص لهذه الأماكن عن غيرها، اختارها الله ﷻ من جميع بقاع الأرض وبيوتها لتكون له وحده، وهذا ما لا يختلف عليه عاقل، فلا يرى المسجد إلا ويعلم أنه بيت الله المخصص لعبادته وتوحيده، قال قتادة: «واصطفى من الأرض المساجد»<sup>(٢)</sup>.

إن المساجد هي وحدها بيوت الله الصحيحة الباقية إلى قيام الساعة، وكل ما نسب اليوم إلى الله من كنائس ومعابد فباطل؛ والأمر كما ذكرنا سابقاً أن الله اصطفى الإسلام في صورته الأخيرة التي جاء بها الرسول الأخير

(١) صحيح مسلم (٣٨٨/١)، حديث رقم ٦٧١.

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦٤/٦)، المحرر الوجيز لابن عطية (٣١/٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٤٨/٤)، الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي (٤٢٥/٣).

محمد ﷺ، وكل ما عداه من الأديان فباطل، وكذلك البيوت التي خصصت لعبادة الله ﷻ فلا تُنسب إلى الله سوى المساجد التي يذكر فيها اسم الله على الوجه الصحيح الذي ارتضاه دون غيره، فلا يجوز القول: إن الكنائس بيوت الله، ولا القول بأن أهلها يعبدون الله عبادة صحيحة مقبولة عند الله؛ لأنها عبادة على غير دين الإسلام، بل هي بيوت يكفر فيها بالله، قال شيخ الإسلام: «ليست - أي: البيع والكنائس - بيوت الله، وإنما بيوت الله المساجد، بل هي بيوت يكفر فيها بالله، وإن كان قد يذكر فيها؛ فالبيوت بمنزلة أهلها وأهلها كفار فهي بيوت عبادة الكفار»<sup>(١)</sup>.

إن الأمكنة والأزمنة إنما تتشرف بذكر الملوك لها، ولقد ذكر الله ﷻ المساجد في كتابه مرات كثيرة؛ حدد وظيفتها وهدفها التي من أجلها وضعت، وهو العبادة الخالصة له دون سواه قال ﷻ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ فتفرد للصلاة والدعاء والعلم وكل ما خلص لله، وقضى الله بأمره النافذ ومشيتته الماضية أن تُرفع هذه البيوت بكل معاني الرفع الحسية والمعنوية؛ رفعة المكانة والقيمة، رفعة الشأن والهدف، رفعة عمارها وروادها والقائمين عليها، والقائمين بحقها. وفي اهتمام الرسول بالمرأة السوداء التي كانت تقم المسجد، ووقوفه ﷺ على قبرها والصلاة عليها دليل على ما قلنا، والرفعة في الذكر إذ ورد في الحديث: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَزْتَادُ الْمَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِخَيْرٍ»، والرفعة في الأجر فما ترفع قدم سائرة إلى المسجد ولا توضع إلا ويثبت الأجر، ومن الرفعة المطلوبة: أن ترفع مكانتها في القلوب، فلا يدخلها المسلم إلا وهو يستشعر أنها بيت الملك العظيم فيعظمه ويحفظ مكانته في قلبه، ويتحلى بكل ما يتحلى به زوار بيوت ملوك الأرض - والله المثل الأعلى - قال ﷻ: ﴿فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «المساجد بيوت الله في الأرض، وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض»<sup>(٢)</sup>.

(١) فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، فتوى رقم ١٩٤٠٢ في ١/٢٥ هـ ١٤١٨.

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٤٩/٦).



وقد ضرب الله تعالى مثلاً لقلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاج الصافية المتوقد من زيت طيب، وذلك كالقنديل، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥]، ثم ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله من الأرض، وهي بيوته التي يُعبد فيها ويُوحد. ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد، ذكرها مُنوِّهاً بها؛ فهي بيوت عظيمة فاضلة، هي أحب البقاع إليه، فأمر ووصى بعمارها الحسية والمعنوية، وأمر الله وإذنه نافذ، فهي مرفوعة قائمة مُطَهَّرة يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق في السماوات والأرض، وتتهياً بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله من أصحاب القلوب الوضيئة الطاهرة المسبحة، الواجفة، المصلية<sup>(١)</sup>.

إنَّ مما يدل على اصطفاء المساجد واختصاصها أن الله ميَّز عمارها وأهلها بصفات معينة، فهي أماكن مصطفاة، وأهلها هم صفوة خلقه من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من المؤمنين، الذين شهد الله لهم بالإيمان، والقيام بالأعمال الصالحة. المصدِّقون بوحدانية الله، المُخلصون له العبادة، المصدِّقون باليوم الآخر، المداومون على صلاتهم المؤدِّون لذكواتهم، الذين لا يخشون أحداً إلا الله، هؤلاء هم عمَّار مساجد الله لا غيرهم، وهذه هي الصفات التي جعلها الله شروطاً لقبول صاحبها معماً لبيته. إنهم صفوة العباد الذين تجردوا قلباً وقالباً عن الدنيا، آمنوا بالله وتطلَّعوا إلى اليوم الآخر، فأدوا ما عليهم من حقوق بكلِّ أمن وطمأنينة لم يخشوا عدوان الحاقدين على المسلمين، وهم مؤمنون برَّبِّ هذا البيت الذي يعمرونه، وأنه مُتكفِّل بهم وبآجالهم، الذي يرزقهم، فهم لا يخشون سواه في هذا الكون. وهنا لفتة مهمة: أن هذه المساجد جامعات للتربية الإيمانية على العقيدة الجليلة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٦٢)، في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/٢٥٢٠)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥/٤٢٢).

الواضحة، يتخرج منها المؤمنون الصادقون الذين تقوم بهم مصالح البلاد والعباد، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَصْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

لقد اصطفى الله ﷻ المساجد من بقاع الأرض لذكر اسمه العظيم، وهذا الهدف الأساس تكرر في كل الآيات الخاصة بالمساجد، قال ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦]، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَائِعُ وَيَبَعُ وَصَلَاتٍ وَمَسْجِدٍ يُذَكَرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيُنصَرُنَّ اللَّهُ مِنْ بَصَرَةٍ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في الآية الأخيرة: «قال العلماء: هذا ترقُّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد، وهي أكثر عمَّاراً، وأكثر عبَّاداً، وهم ذوو القصد الصحيح»<sup>(١)</sup>.

إن المساجد هي عِلْمُ الأمة المسلمة، وشعارها المرفرف بعقيدة التوحيد، إنها منارات الهدى التي يتحقق فيها الهدف من خلق الإنسان في أسْمَى صورته، بماأذنها الشامخة العزيزة المشيرة إلى السماء، ونداء الحق المنطلق بـ«لا إله إلا الله محمد رسول الله»، بالجمع والجماعات، وتلاحم الصفوف من كل الأجناس والطبقات، وعظم الطاعة والانقياد، بأصوات التكبير والتهليل، وصورة التوحيد في الخضوع والركوع والسجود. إنها البقاع التي اصطفاه الله، واصطفى لها دورها، واصطفى عمَّارها لتكون بيوته في الأرض، وليذكر فيها اسمه.



(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٣٦/٥).

# الباب الثاني

## المُصْطَفَوْنَ مِنَ الْبَشَرِ

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: منهج القرآن الكريم في الحديث عن اصطفاء الأنبياء ﷺ وبيان خصائصهم وصفاتهم.

الفصل الثاني: اصطفاء الله ﷻ رسوله محمداً ﷺ وما خصه به من خصائص.

الفصل الثالث: اصطفاء الصديقين والشهداء والصالحين.



## الفصل الأول

منهج القرآن الكريم في الحديث

عن اصطفاء الأنبياء ﷺ

وبيان خصائصهم وصفاتهم

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: منهج القرآن الكريم في الحديث عن اصطفاء

الأنبياء ﷺ.

المبحث الثاني: خصائص الأنبياء ﷺ.

المبحث الثالث: صفات الأنبياء ﷺ.

## تمهيد

المنعم عليهم من صفوة العباد، هم النبيون والصدّيقون والشهداء والصالحون، أصحاب الصراط المستقيم، بهم سُمي ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فهم أعلامه ورموزه، من أراد الانضمام إليهم فسيب له سلوك هديهم، ولزوم سنتهم، فهو طريق واضح لموكب إيماني واحد، وفقنا الله ﷻ إلى الدعاء بالهداية إليه في كل صلاة، فهو آية من آيات أم الكتاب<sup>(١)</sup> التي لا تقبل الصلاة بدونها ولا يجزىء عنها غيرها. ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧].

هذا الدعاء يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها، وهي ليست إلى

(١) سورة الفاتحة أم الكتاب، أعظم سورة في كتاب الله ﷻ، هي السُّبْحُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، عن أبي سعيد بن المعلّى ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾» [الأنفال: ٢٤] ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ»، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ «لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟» قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هِيَ السُّبْحُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَالْحَدِيثُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ ص ٩٢١ حَدِيثٍ رَقْم ٤٤٧٤، وَالرَّوَايُ [هُوَ أَبُو سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى وَأَصْحَ مَا قِيلَ اسْمُهُ: الْحَارِثُ بْنُ نَعْبَعِ بْنِ الْمُعَلَّى الْأَنْصَارِيُّ وَهُوَ صَحْبَةٌ وَلَا يَعْرِفُ إِلَّا بِحَدِيثَيْنِ، أَحَدُهُمَا: كُنْتُ أَصَلِّي فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ أَعْلَاهُ، وَالثَّانِي قَالَ: كُنَّا نَعْدُو إِلَى السُّوقِ... أَسَدُ الْغَابَةِ فِي مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ لِابْنِ الْأَثِيرِ (١٤٢/٥)]. وَاخْتَلَفَ فِي تَسْمِيَّتِهَا «مَثَانِي»، فَقِيلَ: لِأَنَّهَا تُثْنَى فِي كُلِّ رَكْعَةٍ أَيْ: تُعَادُ، وَقِيلَ: لِأَنَّهَا يُثْنَى بِهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقِيلَ: لِأَنَّهَا اسْتَنْثِيَتْ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَمْ تَنْزَلْ عَلَى مَنْ قَبْلَهَا، وَقَوْلُهُ: «الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ»: دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْفَاتِحَةَ هِيَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٢٠٠/٨).

مَلِكٍ مُقَرَّبٍ، وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، بَلْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ <sup>(١)</sup> بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ <sup>(٥)</sup> قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ <sup>(٦)</sup> صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ <sup>(٧)</sup> قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ <sup>(٢)</sup>).

والصراط المستقيم هو ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون مستقيماً، سهلاً، مسلوكاً، واسعاً، موصلاً إلى المقصود، وهو الشريعة التي جاء بها خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم. فالمراد: الهداية إلى الصراط المعين الذي نصبه الله صلى الله عليه وسلم لأهل نعمته، وجعله طريقاً إلى رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه. لذلك أضيف الصراط إلى الموصول المبهم ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾ دون أن يقال صراط النبيين والمرسلين؛ لأن استحقاق كونهم من المنعم عليهم هو بهدائيتهم إلى هذا الصراط، فبه صاروا من أهل النعمة.

وفي تعدية الفعل ﴿أَهْدِنَا﴾ بنفسه دون حرفه دلالة على أن طالب الهداية إلى هذا الطريق؛ هو طلب من الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفه إياه، ويبينه له، ويلهمه إياه، ويقدره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرد الفعل ليتضمن كل هذه المراتب، وحتى لا ينحصر معناه بمعنى الحرف الذي عدي به. وفي اختصاص أهل السعادة بالهداية دون غيرهم، بيان أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان لا يشركهم فيها سواهم، ومطلق النعمة عام للخليفة كلهم <sup>(٣)</sup>.

وذكر العلماء أنَّ أصحاب الصراط المستقيم في سورة الفاتحة هم المنعم

(١) قال العلماء: والمراد بالصلاة في الحديث: فاتحة الكتاب، سُميت بذلك لأن الصلاة

لا تصح إلا بها. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٣٢٤/٤).

(٢) صحيح مسلم (٢٤٨/١) حديث رقم ٣٩٥.

(٣) انظر: بدائع التفسير لابن القيم من (١/٢٢٣ - ٢٥٦) باختصار.

عليهم<sup>(١)</sup> من صفوة العباد في سورة النساء، قال ابن عباس رضي الله عنهما وجمهور المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: إنه أراد صراط النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وانتزعوا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيئًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَجِدُهُمْ مِنْ دِينًا أَوْ جَرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٩]، فالآية تقتضي أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب في آية الحمد<sup>(٢)</sup>.

وبعد العلم بمعنى الطريق المستقيم وجب معرفة أصحابه؛ إن قادة الطريق ومقدمته هم النبيون، قال عليه السلام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ [مریم: ٥٨]، تلي تلك الكوكبة الأولى زمرة الصّديقين الصّادقين في اقتفاء الأثر وتبعية الركب، بكمال علمهم، وصدق متابعتهم، سبقوا فتلوا الصفوة من النبيين، فلم يفرقهم عن أحبّابهم شيء، فما بينهم إلا النبوة والاصطفاء بها، ثم تأتي كوكبة الأنوار المضرجون بدماء الكفاح في الوصول، الصادقون بالعهد حتى نالوا الشهادة، فكانوا شهداء الحق والحقيقة، تليهم بعد ذلك جموع الصالحين السائرون سيراً حثيثاً إلى أطراف أصحاب الهمم، المحزونون على فراق أصحابهم وأحبّابهم، المبشرون بالانضمام إليهم ومعيتهم بأداء شرط ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ

(١) أنعم بمعنى أفضل وزاد، والنعمة هي الصنيعة والمنة، ونعمة الله ﷻ؛ منة وما أعطاه لعبده [مما لا يمكن لغيره أن يعطيه إياه]، فكل فضل وإحسان من الله ﷻ على عباده فهو نعمة. ونعم الله ﷻ قسمان: نعمة عامة تكون للمؤمنين ولغيرهم، وهي ما تقوم به الأبدان، ونعمة خاصة وهي ما تصلح به الأديان من الإيمان والعلم والعمل الصالح. انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ص ١٠٣٥، اللسان لابن منظور (٢٠٧/١٤)، العقيدة الواسطية (١٥٣/١).

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٧٥/١)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن للشعالبي (٤٢/١).



فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ  
أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

لذا فإن حديث هذا الباب سيكون عن تلك الفئات الأربع؛ مبتدئين

بحسب منزلة كل منهم:

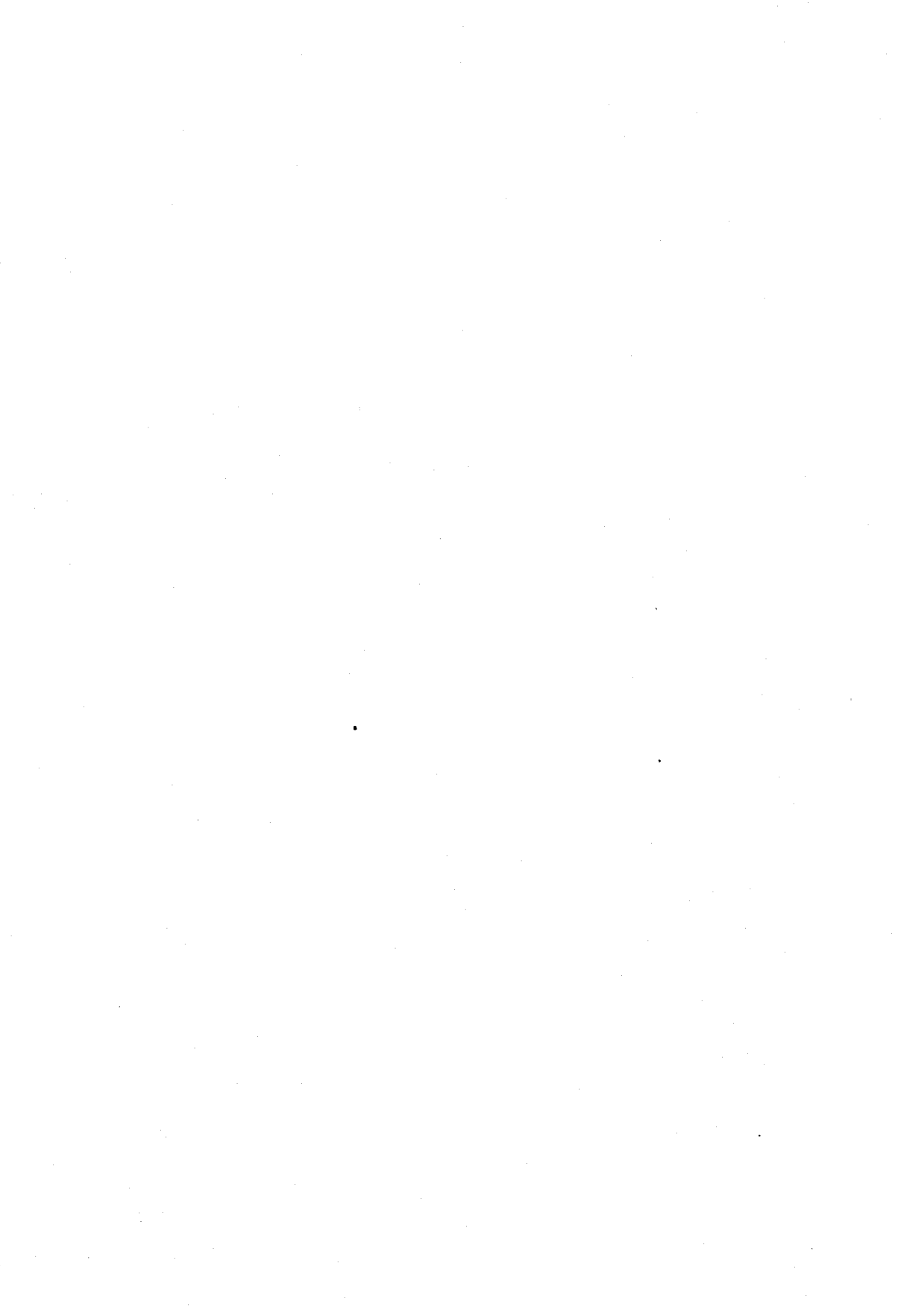
أولاً: اصطفاء الأنبياء ﷺ.

ثانياً: اصطفاء الصديقين.

ثالثاً: اصطفاء الشهداء.

رابعاً: اصطفاء الصالحين.





## المبحث الأول

# منهج القرآن الكريم في الحديث عن اصطفاء الأنبياء ﷺ

- ويشتمل على خمسة مطالب:
- المطلب الأول: درجات الاصطفاء.
- المطلب الثاني: أركان الاصطفاء.
- المطلب الثالث: مراحل الاصطفاء.
- المطلب الرابع: ذكر المُصْطَفَيْنِ أفراداً وجمَعاً وبيان اللفظ المعبر به عن الاصطفاء.
- المطلب الخامس: بيان الشيء الذي اصْطُفِيَ به الأنبياء ﷺ.

## توطئة

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

الطبقة الأولى والعليا على الإطلاق، وأفضل الخلق عند الله ﷻ هم الأنبياء المصطفون على الناس، سلم الله ﷻ عليهم في العالمين، قال تعالى: ﴿قُلِ لَعَمْرُ لِلَّهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]، وخصَّهم بوحيه، واختصهم بتفضله، وارتضاهم لحمل رسالته، وجعلهم أزكى العالمين نفوساً، وبراًهم من كل وضم وعيب وخلق دنيء، وجعلهم أمناء على رسالته، والواسطة بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كراماته، ولم يجعل لأحد من عباده وصولاً إليه إلا من طريقهم، ولا دخولاً إلى جنته إلا باتباعهم، ولم يكرم أحداً منهم بكرامة إلا على أيديهم<sup>(١)</sup>.

وعليه فإن الاصطفاء للنبوّة محض فضل من الله ﷻ، لم ينسب في القرآن الكريم لغيره ﷺ، فهو من أفعاله التي يختص بها وحده، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: ٧٥] فهو يختار من يشاء بعلمه ليكون مقر رسالته ومستودع وحيه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، قال قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تنزل بالرحمة والوحي من أمره ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيصطفى منهم رسلاً»<sup>(٢)</sup>.

وعليه فإنَّ القرآن عندما حدّد القاعدة في اصطفاء الله ﷻ لأنبيائه أبطل

(١) انظر: التفسير الكبير لابن تيمية (٤/٢٢٣)، مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/١١٧) طريق الهجرتين لابن القيم ص ٥٧٠.

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (٨/١٠٤).

كل الدعاوي في اختيار غيرهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. وأثبت في المقابل أنَّ الاصطفاء بالنبوة هو محض فضل وامتنان من الله ليس لأحد أن يصل إليه بكسب أو عمل. قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]. ولقد امتن الله ﷻ على الكثير من عباده بهذا الاصطفاء فالأنبياء الذين اصطفاهم الله ﷻ جم غفير لا يعلمهم إلا هو ﷻ وما يميزهم أنهم، مرتبطون برباط العقيدة والمهمة والهدف والصفاء والاصطفاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الأنبياء إخوةٌ من علاتٍ، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحدٌ)<sup>(١)</sup>.

والسبب في كونهم أفضل الخلق على الإطلاق هو اختيار الله ﷻ لهم من بين خلقه، واصطفائهم عليهم، فهو لا يختار لرسالته إلا صفوة البشر وأفضلهم، لذلك فقط أضافهم إليه في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]، فنالوا شرف تلك الإضافة، فكل ما يضاف إليه فإن له من التفضيل والاختصاص والاصطفاء ما ليس لغيره، كما نالوا شرف العبودية لله ﷻ والتي هي أعلى المراتب على الإطلاق.

وكما هي سنة الاصطفاء المعلومة أن الله عندما يصطفى من مخلوقاته فإنه يخص ذلك المصطفى لا يشاركه فيه غيره، فعندما اصطفاهم الله ﷻ أكرمهم وخصهم بالاتصال به عن طريق الوحي، قال تعالى: ﴿يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]. في الآية دلالة على علوهم حيث بلغوا من الإعداد والتهيئة ما مكنهم من الاتصال بالوحي، فكانوا بذلك هم الأدلاء على الله ﷻ، وحملة العلم النافع، الذي أريد به نفع الإنسان وتوجيهه إلى كيفية التعامل مع خالقه

(١) صحيح مسلم (٤/١٤٦٥) حديث رقم ٢٣٦٥. والعلات بفتح المهملة: الضرائر، وأولاد العلات: هم الإخوة لأب من أمهات شتى. ومعنى الحديث: أن أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة فهم متفقون في أصول التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/١١٩)، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٦٠٥).

ابتداءً، ثم مع نفسه، ثم مع ما حوله تعامللاً يضمن له السلامة في جميع الجوانب، الجسدية والنفسية والروحية والعقلية، حيث أن الشريعة التي يحملها الأنبياء ﷺ يحتاجها الإنسان أشد من حاجته إلى الهواء والطعام والشراب؛ لأن غاية ما يحدث عند عدمها هو موت بدنه، أما ما يحدث عند عدم الشريعة فهو فساد روحه وقلبه، وهلاك الأبد.

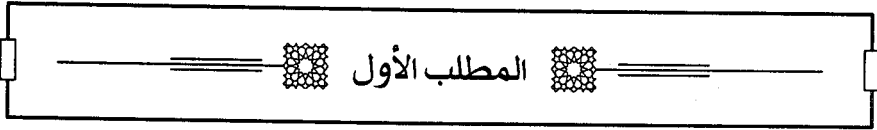
ومن هنا يُعلم اضطرار العباد - فوق كل ضرورة - إلى معرفة الرسول وما جاء به، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيديهم، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث إلا من جهتهم، ولا ينال رضى الله ﷻ إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به؛ فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى والضلال<sup>(١)</sup>، وعليه فبإرسالهم قد أقام الله ﷻ الحجة على خلقه وأعذرهم، فهو ﷻ يحب العذر، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ﷻ، قال رسول الله ﷺ: (لَا أَحَدَ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، وَمَنْ أَجَلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُنْذِرِينَ وَالْمُبَشِّرِينَ)<sup>(٢)</sup>. قال القاضي عياض رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: المعنى بعث المرسلين للإعذار والإنذار لخلقهم قبل أخذهم بالعقوبة، وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]<sup>(٣)</sup>.

وللقرآن الكريم نهج خاص في الحديث عن اصطفاء الأنبياء، وبتتبع الآيات يتضح لنا هذا المنهج والذي يتمثل في المطالب الآتية:

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/٤٢٩)، فقه السيرة من زاد المعاد لابن قيم الجوزية ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٧٤١٦.

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١٣/٤٩٥).



## درجات الاصطفاء

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

إنَّ الاختلاف في نوعية الاصطفاء هو سبب التفاضل بين الأنبياء ﷺ، ودليل ذلك أَنَّ الرسول ﷺ عندما عُرج به وجد موسى ﷺ في السماء السابعة وسبب ذلك أنه مكلم فكان اصطفاءؤه بالكلام سبباً لتفضيله، فقال ﷺ: (وموسى في السابعة بفضل كلامه لله)؛ أي: أن موسى ﷺ رفع إلى السماء السابعة، ثم إن الله ﷻ رفع محمداً ﷺ بما فضله وميَّزه عن بقية الأنبياء فوق مقام موسى ﷺ، وعلا به فوق ذلك بما لا يعلمه أحدٌ إلا الله ﷻ، فقال موسى ﷺ: (رَبِّ لَمْ أَظُنْ أَنْ تَرْفَعْ عَلَيَّ أَحَدًا) ولم يكن ذلك حسداً من موسى ﷺ - معاذ الله - فإن الحسد في ذلك العالم منزوع من آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاه الله تعالى؟ بل كان ذلك أسفاً على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة، ولهذا كان من اتبعه في العدد دون من اتبع نبينا محمداً ﷺ مع طول مدتهم بالنسبة للأمة الإسلامية<sup>(١)</sup>.

قال ابن بطال<sup>(٢)</sup> رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فهم موسى ﷺ من اختصاصه بكلام الله تعالى

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١٣/٥٩٠) (٧/٢٦٨)، صحيح البخاري ص ١٥٧٧، رقم ٧٥١٧.

(٢) هو عليُّ بن خلف بن بَطَّالِ البكري، القرطبي، شارح «صحيح البخاري»، العلامة أبو الحسن، من أهل العلم والمعرفة، عُني بالحديث عناية تامة. توفي في صفر سنة تسع وأربعين وأربعمائة هجرية، كان من كبار المالكية. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٧/١٨).

له في الدنيا دون غيره من البشر لقوله تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ أَنَّ المراد بالناس هنا البشر كلهم، وأنه استحقَّ بذلك أن لا يرفع أحداً عليه، فلما فضَّل الله ﷺ محمداً عليه - عليهما الصلاة والسلام - لما أعطاه من المقام المحمود وغيره، ارتفع على موسى ﷺ وغيره بذلك<sup>(١)</sup>.

والاصطفاء إذا عدِّيَ بعلى حُمِّلَ معنى التَّفضيل، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: فضَّلْتُك عليهم، ولا شك أن الله ﷻ قد اصطفى كل الأنبياء على السواء، ولكنه فاضل بينهم بما خصَّ به بعض أنبيائه بما لم يشاركه فيه غيره. فالتفاضل إنما يكون في الفوارق بين المتفاضلين لا فيما تساوا فيه<sup>(٢)</sup>.

ذكر المفسرون أن التفضيل يكون على ثلاثة أوجه بـ:

١ - أن يكون دلالة نبوة الرسول أكثر.

٢ - أن تكون أمته أكثر.

٣ - أن يكون هو بنفسه أفضل<sup>(٣)</sup>، وهذه الأنواع الثلاثة بلغ محمد ﷺ ذروتها بفضل الله ﷻ وحده، فقد ثبت أنه ما أوتي نبيُّ آية إلا أوتي نبينا ﷺ مثل تلك الآية، وفضَّلَ بآيات أخر مثل: انشقاق القمر بإشارته، وحنين الجذع إليه عند مفارقتة له، وتسليم الحجر والشجر عليه، وكلام البهائم والشهادة برسالته، ونبيع الماء من بين أصابعه الشريفة، وغير ذلك من المعجزات والآيات التي لا تحصى، وأظهرها القرآن الكريم الذي عجز أهل السماء وأهل الأرض عن الإتيان بمثله<sup>(٤)</sup>.

(١) المشهور في الروايات أن الذي في السماء السابعة هو إبراهيم ﷺ، وقيل: إن موسى كان في حالة العروج في السادسة، وعند الهبوط كان ﷺ في السابعة لأنه كلم الرسول ﷺ فيما فرض الله على أمته من الصلاة، والسماء السابعة هي أول شيء انتهى إليه حالة الهبوط، ويحتمل أن يكون لقي موسى في السادسة فأصعد معه إلى السابعة تفضيلاً له على غيره من أجل كلام الله تعالى. انظر: فتح الباري لابن حجر (١٣/٥٩٠).

(٢) للإفادة ينصح بالرجوع إلى كتاب مباحث المفاضلة في العقيدة، للدكتور الشظيفي الباب الثاني الفصل الأول.

(٣) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (١/١٩٢).

(٤) انظر: معالم التنزيل للبغوي (١/٣٠٨).



وقال مجاهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: هي إشارة إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه بُعث للناس كافة، وأُعطي الخمس التي لم يعطها أحد قبله، وهو أعظم الناس أمةً، وختم الله به النبوات، إلى غير ذلك من الخلق العظيم الذي أعطاه الله، ومن معجزاته وباهر آياته<sup>(١)</sup>.

كما أجمع المفسرون على أنه عني بالآية السابقة محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث أرسل إلى الناس كافة، وليس شيء من الآيات التي أعطيتها الأنبياء إلا والذي أعطيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر منه؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَلَّمْتَهُ الشَّجَرَةَ، وَأَطْعَمَ مِنْ كَفِّهِ التَّمَرَ خَلْقاً كَثِيراً، وَأَمَرَ يَدَهُ عَلَى شَاةٍ أُمَّ مَعْبَدٍ فَدَرَّتْ وَحَلَبَتْ بَعْدَ جَفَافٍ، وَانْشَقَّ لَهُ الْقَمَرُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى الْآيَاتِ فِي الْأَرْضِ كَمَا رَأَاهَا فِي السَّمَاءِ، وَالَّذِي جَاءَ فِي آيَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرٌ<sup>(٢)</sup>.

### التفضيل بين الأنبياء ثابت بالكتاب والسنة:

ومما يدل على أن الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد فاضل بين أنبيائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ الَّذِينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٥]، وفضلته على غيره تفضيلاً: إذا حكمت له بذلك أو صيرته كذلك، وأصل الكلمة إنما يدل على زيادة في شيء، وفضله تفضيلاً، أي: مرآه<sup>(٣)</sup>، والتفضيل<sup>(٤)</sup> بينهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في الآتي:

١ - التخصيص بمنقبة لا يشاركه فيها غيره؛ قال قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اتخذ الله

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١/٣٣٨).

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/٣٣٤).

(٣) انظر: لسان العرب لابن منظور (١٠/٢٨٠)، القاموس المحيط للفيروزآبادي ص ١٣٤٨، معجم المقاييس في اللغة لابن فارس ص ٨٤٨، الصحاح للجوهري (٢/١٣٣٤).

(٤) التفضيل بين الأنبياء ثابت بالكتاب والسنة، ونهي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه إنما كان من عدة أوجه منها: ١ - أن لا يكون التفضيل مبنياً على الدليل، ٢ - أن يكون في موطن المجادلة والمخاصمة، ٣ - أن يكون التفضيل بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة، ٤ - أن يكون التفضيل في حق النبوة نفسها كقوله تعالى: ﴿لَا تَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ﴾ ولم ينع عن تفضيل بعض الذوات على بعض لقوله: ﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٥٥١/٦) باختصار.

إبراهيم خليلاً، وكلم موسى تكليماً، وجعل عيسى عليه السلام كمثلاً لآدم خلقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون، وهو عبد الله ورسوله، ومن كلمة الله وروحه، وأتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وأتى داود زبوراً، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر<sup>(١)</sup>.

٢ - التأييد بالبيئات وبروح القدس، كما في عيسى عليه السلام، فلقد كان في روحانيته أعظم، وإن كان التأييد بروح القدس عاماً لغيره من المرسلين، ولكن ما لعيسى عليه السلام أعظم مما لغيره لهذا خصّه بالذكر.<sup>(٢)</sup> قال عليه السلام: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

٣ - رفع الدرجات، قال عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢] أي: ومنهم من رفعه الله عليه السلام على غيره من الرسل بمراتب متباعدة ومن وجوه متعددة<sup>(٣)</sup>، قال مجاهد رضي الله عنه: هي إشارة إلى محمد<sup>(٤)</sup>.

٤ - كثرة الآيات والمعجزات، فمن كان أعظم آيات وأكثر معجزات وأكثر أمة واتباعاً كان أعلى في درجة الاصطفاء كمحمد<sup>(٥)</sup>.

٥ - إرسال بعضهم إلى بعض الخلق، وبعضهم إلى الجميع<sup>(٦)</sup> وهو ما خُصَّ به محمد عليه السلام.

٦ - ما أسند إليهم من المهمات، وما ابتلوا به من أنواع البلاء والاختبار، وبما واجهوا عليهم الصلاة والسلام من صنوف التكذيب والعذاب، قال ابن تيمية رضي الله عنه: «الرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى وبالنصر والقهر كما كان نوح وإبراهيم»<sup>(٧)</sup>.

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢٩/٩).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٣١١/١).

(٣) انظر: روح المعاني للألوسي (٢/٣).

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٣٣٨/١).

(٥) سيأتي بيان ذلك في الفصل الثاني إن شاء الله عليه السلام.

(٦) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢٩/٩).

(٧) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣١/١٥).

٧ - الشرائع التي أنزلت عليهم فمنهم من شرع ومنهم من لم يشرع، فكل من آتاه الله ﷻ شريعة جديدة من الأنبياء فهو أفضل، وكلما كانت الشريعة أكمل وأتم فصاحبها أفضل.

ويستنتج مما سبق أن هناك درجات للاصطفاء. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وأفضل أولياء الله هم أنبيأؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ، وأفضل أولي العزم: محمد ﷺ خاتم النبيين وإمام المتقين، وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا...»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «لا خلاف أن الرسل أفضل من الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضل، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن. ولا خلاف أن محمداً أفضلهم ثم إبراهيم ثم موسى ﷺ»<sup>(٢)</sup>.

كما قال الشيخ محمد العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: الاصطفاء على درجات أعلاها اصطفاء أولي العزم من الرسل، ثم اصطفاء الرسل، ثم اصطفاء الأنبياء<sup>(٣)</sup>، وبناءً على ما سبق يكون الاصطفاء على درجات:

#### الدرجة الأولى: اصطفاء أولي العزم من الرسل:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال أشهرها: أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ»<sup>(٤)</sup>، سَمَّاهُمُ اللهُ ﷻ في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، فذكر أول الرسل بعد آدم، وهو

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ص ٥٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨٧/٥).

(٣) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد مع شرحه للشيخ العثيمين (٤٣٧/١).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٠٥/٧).

نوح عليه السلام، وآخرهم محمد عليه السلام، وبينهم من أولي العزم، وهم: إبراهيم وموسى وعيسى عليه السلام، ووجه تخصيص هؤلاء بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء ومشاهيرهم وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة<sup>(١)</sup>.

ولقد ورد ذكرهم في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ خَمْسَةٌ وَمُحَمَّدٌ عليه السلام سَيِّدُ الْخَمْسَةِ: نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ صلوات الله وسلامه عليهم)<sup>(٢)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما هم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، أصحاب الشرائع، فهم مع محمد عليه السلام خمسة<sup>(٣)</sup>، وهم من حُفِظَتْ لَهُمْ مع قومهم شدة ومجاهدة.

وصفهم الله جل جلاله بأنهم أصحاب العزائم والقوى، فنالوا شرف إسناد المهمات الشاقة إليهم، وواجهوا ألواناً من الكفاح لم يواجهه غيرهم، ودفعوا أعاصير الفتن بعزائم لا مثيل لها، وقد أمر الله تعالى نبيه عليه السلام بالاعتداء بهم، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَنْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وأعلاهم على الإطلاق محمد بن عبد الله عليه السلام<sup>(٤)</sup>، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وذلك بفضل الله تعالى، وبما أوكل إليه من مهمات، وبما حُصِّصَ به من خصائص؛ وما أسند إليه من مهمات فهو دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبشارة عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ [الصف: ٦]، ولفضله وشرفه عليه السلام جعل الله تعالى بعثته إلى الناس مئة منه عليهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ

(١) انظر: تفسير روح البيان للبروسوي (٢٩٦/٨).

(٢) المستدرک للحاکم (٥٤٦/٢) قال: هذا حديث صحيح الإسناد وإن كان موقوفاً على أبي هريرة، ووافقه الذهبي وقال: صحيح.

(٣) معالم التنزيل للبخاري (٢٧٢/٧)، شرح العقيدة الطحاوية للدكتور التركي (٤٢٤/٢).

(٤) سيأتي الحديث عن اصطفاؤه عليه السلام مفصلاً في الفصل الثاني من نفس الباب إن شاء الله.

اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ  
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤].

الدرجة الثانية: اصطفاء الرسل:

منهم من نصَّ القرآن على أسمائهم، ومنهم من ذكروا إجمالاً، قال  
تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ  
مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]. ومجموع الرسل الذين نصَّ القرآن الكريم  
على أسمائهم خمسة وعشرون، وردوا في الآيات الكريمة الآتية:

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [هود: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [مريم: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ [ص: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن  
نِّسَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا  
هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ  
بَجَّزَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ  
وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ  
وَأَجْنِبَتِهِمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٧].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية: «فهؤلاء من الدرجة العليا، بل هم  
أفضل الرسل على الإطلاق، فالرسل الذين قصَّهم الله في كتابه، أفضل ممن لم  
يقصص علينا بأهم بلا شك»<sup>(١)</sup>.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ وهذه تسمية الأنبياء الذين نصَّ على أسمائهم في القرآن،  
وهم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٢/ ٤٣٠).

ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس  
واليسع وزكريا ويحيى وعيسى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم  
محمد ﷺ<sup>(١)</sup>. وخص هؤلاء بالذكر لشرفهم وكرامتهم على الله ﷻ<sup>(٢)</sup>.

ونحن نؤمن بمن ذكر لنا تفصيلاً، وبمن لم يُذكر لنا إجمالاً، ومن ذكروا  
لنا هم في درجة الاصطفاء أعلى من الذين لم يذكروا في القرآن الكريم؛  
لأن الله ﷻ اختارهم وقدمهم في الذكر على غيرهم من الذين لم ترد  
قصصهم، وله كمال الحكمة في ذلك ﷻ.

قال القرطبي رحمه الله: «إن الله تعالى لما قصَّ في كتابه بعض أسماء أنبيائه،  
ولم يذكر أسماء بعض، ولمن ذكر فضل على من لم يذكر، قالت اليهود: ذكر  
محمد الأنبياء ولم يذكر موسى، فنزلت الآية: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾<sup>(٣)</sup>.

#### الدرجة الثالثة: اصطفاء الأنبياء ﷺ:

إن مجيء الأنبياء في الدرجة الثالثة بعد الرسل سببه أن مهمة الرسل أشق  
من مهمة الأنبياء بلا شك، وعليه فإن من يختاره الله ﷻ إلى مقام الرسالة  
يكون أعلى درجة في الاصطفاء ممن يختار إلى مقام النبوة؛ لأن الرسالة قدر  
زائد على النبوة؛ فهي نبوة ورسالة. وعلى هذا الأساس قسّم ابن القيم -  
رحمه الله تعالى - طبقات المكلفين، حيث بدأ بمرتبة الرسالة وأعلاهم أولو  
العزم من الرسل، ثم من عداهم من الرسل على مراتبهم من تفضيل بعضهم  
على بعض، وجعل الطبقة الثالثة الذين كانت لهم النبوة دون الرسالة فاختصوا  
عن الأمة بإيحاء الله إليهم<sup>(٤)</sup>.

ولقد أطال العلماء الحديث عن الفرق بين النبي والرسول، ولكنني وجدت  
في كلام شيخ الإسلام رحمه الله بياناً شافياً لمن أراد الوصول إلى النتيجة الواضحة  
السهلة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «النبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبيء بما أنبأ الله  
به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليلبغه رسالة من الله فهو رسول،

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٤٦٩).

(٢) التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٦/٣٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣/١٦١٤).

(٤) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ص ٥٧٢.

وأما إذا كان يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج: ٥٢]، وقوله: ﴿مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فذكر إرسالاً يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى قوم خالفوا الله كنوح عليه السلام وقال: فالأنبياء ينبتهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، وهم ينبتون المؤمنين بما أنبأهم الله به من الخير والأمر والنهي، ثم قال ﷻ: فقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ دليل على أن النبي مرسل، ولا يُسمَّى رسولاً عند الإطلاق؛ لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم، ولهذا قال النبي ﷺ: (إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ)<sup>(١)</sup>، وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف عليه السلام كان رسولاً وكان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان عليهما السلام كانا رسولين، وكانا على شريعة التوراة<sup>(٢)</sup>.

وما ذكره ابن تيمية لا يختلف فيه كثيراً عن بقية العلماء، فقد ذكروا أن النبي هو من نبأه الله ﷻ بخبر السماء كالرسول، ولكنه وجد في قوم مؤمنين، فهو قدوة بينهم يدعوهم ويذكرهم ويوجههم، ووجوده بينهم إحياء لشرع الله ﷻ. وعليه فالرسول أخص من النبي، فكل رسول هو نبي ولا عكس. إنَّ الرسالة تعم الأنبياء والرسل، فالكل مرسل لأن النبوة جزء من الرسالة، والرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها<sup>(٣)</sup>.

(١) سنن الترمذي (٤٧/٥) حديث رقم ٢٦٨٢ قال أبو عيسى: ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وليس هو عندي بمتصل هكذا: حدثنا محمود بن حواش بهذا الإسناد. وإنما يُروى هذا الحديث عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن الوليد بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ، وهذا أصح من حديث محمود بن خراش، ورأي محمد بن إسماعيل هذا أصح. مجمع الزوائد للهيتمي (١/٣٣٥) حديث رقم ٥٢٣ وقال: رواه البزار ورجاله موثقون.

(٢) انظر: النبوات لابن تيمية ص ٢٨١ باختصار وتصرف.

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز بتحقيق الأرئوط والتركي (١/١٥٥).

## أركان الاصطفاء

سبق وأن ذكرنا أن للاصطفاء أركاناً<sup>(١)</sup>، وهذه الأركان إنما استنبطت من ارتباط الفعل بحروف المعاني المختلفة، ومما هو معلوم أن الفعل إذا تعدى بحروف المعاني المختلفة<sup>(٢)</sup>، فإن ذلك يعطيه معناه الأصلي، مضافاً إليه معنى أو معانٍ أخرى، تزيد من قيمته، وعمق معناه، ودقة تحديده، وبيان المتطلبات المترتبة عليه، وبتعقب الأحرف التي تعدى بها الفعل «اصطفي» يمكننا معرفة المعاني التي انصرف إليها، ومن خلال ذلك يمكننا التعرف على أركان الاصطفاء، وإنما أردنا هنا تطبيق أركان الاصطفاء على اصطفاء الله ﷻ لرسوله ﷺ فظهرت كالآتي:

١ - المُصْطَفِي: وهو القائم بالفعل، ولم يُنسب في القرآن الكريم إلا إلى الله ﷻ وحده، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فهو الذي يختار، وهو وحده الذي يصطفي؛ لأنه المتفرد بأوصاف الكمال المبرأ من كل نقص وعيب يترتب عليه خطأ في الاصطفاء، ولا اعتراض على اختياره، وهذا الركن فيه رد على جميع المعترضين على الرسل، فقد بين الله ﷻ أن الاختيار من اختصاصه وحده، وأنه راجع إليه، وليس للقاصرين من عباده القدرة على الاختيار مهما ظهرت لهم من أمور.

(١) يرجع إليها في الباب الأول.

(٢) حروف المعاني هي المفيدة لمعنى معين، سُميت بذلك لأنها توصل معاني الأفعال إلى الأسماء، فالحرف يرد في صور من الاستعمال كثيرة يتعدد معها المعنى المقصود به، وهذا يعرف بالتضمنين، والفعل المعدى بالحروف المتعددة لا بد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، وهي قاعدة شريفة تستدعي فطنة ولطافة في الذهن. انظر: قواعد التفسير للسير (١/٣٨٦)، وما بعدها باختصار.



٢ - المصطفى: وهم الأنبياء ﷺ الذين وقع عليهم فعل الاصطفاء قال ﷺ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]، وقال ﷺ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٧٥) [الحج: ٧٥] فمن تلك الأعداد الغفيرة التي لا يحصيها إلا هو، اختار الله ﷺ الأخيار، الذين استحقوا - بفضل الله أولاً وآخرأ ثم بما كانوا عليه من الأخلاق الفاضلة - أن يفوزوا بذلك الانتقاء الدقيق الرائع لتلك المهمة الفذة فعليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم.

٣ - المصطفى عليه: وهي الفئة التي اصطفى الله ﷺ عليها أنبياءه ﷺ، فإما أن يكون على أهل زمانه، أو على الناس كافة كما هو شأنه مع محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣) [آل عمران: ٣٣]، فبينت الآية أن الله ﷺ إنما اصطفى هذه الطائفة الطيبة المباركة على عالمي زمانهم، وبين أنه قد يصطفى أحد الرسل على الناس جميعاً - المتقدمين والمتأخرين - باختصاصه بأمر معين كما هو الحال مع الكليم موسى ﷺ فقد اصطفاه على العالمين جميعهم باجتماع درجتي الرسالة والكلام، قال تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤) [الأعراف: ١٤٤]. ففي الآية الأولى كان الاصطفاء على عالمي زمانهم، وفي الثانية كان الاصطفاء على الناس بمجموع الرسالة والكلام، ولكن لم يثبت الاصطفاء المطلق على العالمين إلا لسيد الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ فهو وحده المصطفى على العالمين المتقدمين منهم والمتأخرين، فالحمد لله أن اختارنا من أمته وشرفنا بالنسبة إليه وفضلنا بذلك على جميع الأمم.

٤ - المصطفى به: وهو الشيء الذي أثر به المصطفى دون غيره، ولقد اصطفى الله ﷺ الرسل ﷺ بالرسالة دون غيرهم، كما اصطفى الله ﷺ كل نبي من أنبيائه بأمرٍ خُصَّ بها وحده دون غيره، وإن اشتركوا جميعاً في الوحي، وإنما قصدنا بيان أن الذي اصطفى به الرسل جميعاً هو الوحي الذي انفردوا به عن غيرهم من بقية الناس، ولقد بين الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥]. أن هذا الإلقاء مُخْتَصَّ بالبعض من الخلق، وأن هذا الاختيار تابع لمشيئته ﷺ.

٥ - الْمُصْطَفَى مِنْهُ: وهو الجنس أو النوع الذي أراد الله ﷻ بعلمه وحكمته أن يكون محل اختياره، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ [الحج: ٧٥ - ٧٦]. فرسل الله ﷻ اصطفاهم من جنس الملائكة، ومن جنس الناس.

٦ - المصطفى له: وهو المخصوص بفعل الاصطفاء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وهذا يعطي معنى الرعاية والعناية من الله ﷻ بمن خصهم باختياره، لعلمه بهم وبما يصلح لهم، فيشير فعل الرب إلى ظلال وارفة من اللطف والرفقة والرحمة، فهو مع استغنائه عنهم يختار لهم، كما يشير إلى أهمية المُختصين باصطفاء الرب ﷻ، فمن أجلهم اصطفى لهم الرسل فتطلب ممن نالهم هذا الشرف الاهتمام والحرص والتمسك بتعاليم رسلهم في كل حركاتهم وسكناتهم، وفي مختلف مناحي حياتهم حباً لهم، ورضى بهم، وتعظيماً لمن أرسلهم إليهم.



## مراحل الاصطفاء

مرَّ اصطفاء الأنبياء بعدة مراحل، فقد اختارهم الله عنده منذ الأزل، ثم هيأ لهم الظروف من حولهم، ورعاهم بنعمته، ورباهم على عينه، وعلمهم، وآتاهم رشدهم لكونه عالماً بهم وبصلاحتهم، وبأنهم أهل لذلك، وصهرهم في بواتق الابتلاء، حتى كانوا أهلاً لرسالته، وأمدهم بالعون والتأييد والنصر. ولقد برزت مراحل الاصطفاء في قصة الكليم موسى عليه السلام<sup>(١)</sup>، وهي كالآتي:

### المرحلة الأولى: إرادة الله تعالى ومشيتته:

شاء الله تعالى أن يجعل في الأرض خليفة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، خلقهم ليبلوهم، وأمرهم بعبادته، وأرسل إليهم رسله، فكانوا في كل أمة، وعلى كل فترة واختارهم عليه السلام من جنسهم، ومن أختيارهم، قال عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]، أي: أنه عليه السلام أهل للنبوّة، والرشد عام في هدايته من النبوّة فما دونها لأنه أهل لذلك وكفاء له، فاختار أنقاهم قلوباً، وأطهرهم نفوساً، وكتب ذلك عنده، وخطه بقلمه؛ فهم مختارون من الأزل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اِحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى. فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ! أَنْتَ أَبُوْنَا، خَيْبَتْنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ. فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتْلُومُنِي عَلَى أَمْرِ قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ

(١) سيتم كتابة المرحلة أولاً، ثم إلحاقها بما يناسبها ويدل عليها من قصة موسى عليه السلام لتكون أكثر وضوحاً وبياناً لمراحل الاصطفاء، حيث إن قصة موسى عليه السلام هي أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم، وكانت في كل مرة تخدم هدفاً مغايراً، ومن تلك الأهداف إبراز مراحل الاصطفاء ووضوحها.

أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى)<sup>(١)</sup>، فقد قدرَ الله ﷻ خروجَ آدمَ من الجنة، كما قدرَ اصطفاةَ موسى ﷺ بالرسالة.

ولقد برزت إرادة الله الكاملة ومشيتته النافذة في هذه المرحلة من قصة موسى ﷺ، فقد ولد في العام الذي أمر فيه بقتل الولدان، لبداية الإعلام بالمشيئة النافذة المدبرة، فهو تحت رعاية الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧]، إِنَّ الْفَاعِلَ هُوَ اللَّهُ ﷻ وحده، فقد قرر بقوته النافذة أنه ﷻ سيرده لأمه، وأنه سيجعله من المرسلين، قال تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ثم أمر الله ﷻ بالقاء موسى الرضيع بالساحل، قال تعالى: ﴿فَلْيَلْقِهِ إِلَيْمٌ بِالسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٩] قال الشنقيطي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «صيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿فَلْيَلْقِهِ﴾ أريد بها الأمر الكوني القدري؛ فالبحر لا بد أن يلقيه بالساحل؛ لأن الله أمره بذلك كوناً وقدرًا»<sup>(٢)</sup>، فجعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع لأمر ربه، ليتحقق مراد الله ﷻ، فيأخذه عدوه وعدو رسوله ﷺ بالأمر الكوني.

قال تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ﴾ [طه: ٣٩]، وقوله ﷻ: ﴿يَأْخُذْهُ﴾ يدل على أن التقاط آل فرعون لموسى ﷺ قد جرى عليه القلم؛ لأن العاقبة التي أرادها الله ﷻ لا بد وأنها كائنة لا محالة، قال تعالى: ﴿فَالنَّقْطَةُ مَالٌ﴾

(١) صحيح مسلم (١٦٢١/٤) حديث رقم ٢٦٥٢. ومعنى (خيبتنا): أوقعتنا في الخيبة، وهي الحرمان والخسران، ومعناه: كنت سبب خيبتنا، وإغوائنا بالخطيئة التي ترتب عليها إخراجك من الجنة، ثم تعرضنا نحن لإغواء الشياطين. والغني: الانهماك في الشر، وقوله: (اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده) أي: اختصك وأثرك بذلك، وقوله ﷻ: (فحج آدم موسى) أي: غلبه بالحجة، وظهر عليه بها، ومعنى كلام آدم: أنك يا موسى تعلم أن هذا كُتب عليّ قبل أن أخلق، وقُدِّر، فلمَ تلومني على ذلك؟ وإذا تاب الله تعالى على آدم، وغفر له زال عنه اللوم. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٤١٦/١٦).

(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٤/٤٤٠).

فَرَعُونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَخُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ [القصص: ٨]، والالتقاط: وجود الشيء بدون طلب له، واللام للعاقبة والصورورة، فالتقطوه لتكون نهاية ملكهم على يديه ﷺ، فالتقطوه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]، قال السعدي: «لا يشعرون ما جرى به القلم، ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه وهذا من لطفه تعالى»<sup>(١)</sup>. فأحبه امرأة فرعون، وكانت مدافعة عنه، مانعة من قتله بإذن الله ﷻ، فقالت: ﴿لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

ولقد ربط الله ﷻ على قلب أمه حتى لا ينكشف أمره، وزوّد موسى ﷺ بنوع من السلاح لا يملكه إلا هو، فألقى الله ﷻ عليه المحبة، لتكون سبباً لبقائه بينهم، وصناعته على يد خالقه، وفي أنسب مكان اختاره الله الحكيم، قال ﷺ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. قال ابن عباس ﷺ: أَحَبَّهُ وَحَبَبَهُ إِلَيَّ خَلْقِهِ<sup>(٢)</sup>. وقال ابن عطية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: المحبة هي القبول الذي يضعه الله في الأرض لخيار عباده، وكان حظ موسى منه في غاية الوفرة<sup>(٣)</sup>.

ومن الأمور التي سَخَّرَهَا اللهُ ﷻ لرسوله، أنه حرم عليه المراضع، قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، قال ابن عباس ﷺ: «كان لا يؤتى بمرضع فيقبلها». وعن مجاهد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «كان لا يقبل ثدي امرأة حتى يرجع إلى أمه»<sup>(٤)</sup>، وقال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «تحريماً قديراً، وذلك لكرامة الله له صانه عن أن يرضع غير ثدي أمه؛ ولأن الله سبحانه جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه، لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة»<sup>(٥)</sup>.

ثم أرجعه الله ﷻ بقدرته ومشيتته إلى أمه، لتغذيه من لبنها الطاهر، وليتمكن من ندائها دون أن يعترض عليه أحد، وليعيش في البيئتين، ويعاين الحالين؛ فهو مرسل إلى طرفين متناقضين، قمة الجبروت وهاوية الذل.

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٨/٦).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٢٧٢/٥).

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٤٤/٤).

(٤) جامع البيان لابن جرير الطبري (٥٠/١١).

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٢٣/٦).

قال ﷺ: ﴿فَرَحَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّكَ وَوَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١٣]، قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل، فسبحان من بيديه الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً، وبعد كل ضيق مخرجاً»<sup>(١)</sup>.

كما برزت هذه المرحلة في قصة موسى ﷺ عند استعباد فرعون لبني إسرائيل، حتى ضاقت بهم السبل، وباتوا مستعبدين مستسلمين، أذاقهم صنوف العذاب والهوان، وأهدر دماءهم بلا حق، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ سِوَىٰ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]، فلما بلغ الظلم ذروته، وارتوت الأرض بالدماء، أراد الله ﷻ أن يمين عليهم، ويرفع عنهم ما لحق بهم، فأرسل موسى ﷺ إلى فرعون الطاغية ليدعوه، ويكف بطشه، وإلى بني إسرائيل لينقذهم، وليمن عليهم، قال تعالى: ﴿وَأَرْسِلْ لَنَا آيَةً﴾ [القصص: ٥]، فولد النبي المصطفى، والرسول المجتبي موسى ﷺ.

### المرحلة الثانية: التهيئة والإعداد:

ويقصد بذلك أن الله ﷻ بحكمته هيأ الظروف والأحوال التي يبعث فيها رسله، كما هيأ الرحم التي ستحمل بهم، وتكون مستودعاً لتلك النطف المباركة، فلا يُولد من يختاره الله ﷻ للرسالة، إلا في القوم والمكان والزمان والبيئة التي أراد الله ﷻ بعلمه وبحكمته ومشيئته أن يكون فيها.

ومما يدل على صحة ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٦ - ٤٧]، وأخلص الشيء: جعله خالصاً صافياً غير مشوب بما يعكره، فالله ﷻ أخلصهم له بأن نزع من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، قال مالك بن دينار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصناهم بحب الآخرة وذكرها<sup>(٢)</sup>، فالفعل هنا

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٢٢٤).

(٢) معالم التنزيل للبخاري (٧/٩٧).

هو فعل الرب ﷻ، وهو في تربيته الخاصة لعباده نزع من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأوجد في قلوبهم الخوف من الآخرة وذكرها الدائم والتذكير بها، وهذا من باب الإعداد والتهيئة للقيام بالمهمة التي أوكلت إليهم، قال البقاعي رَحِمَهُ اللهُ: «والآية من الاحتباك؛ ذكر ﴿أَخْلَصْتُمْ﴾ أولاً دليلاً على (اصطفيناهم) ثانياً، و﴿المُصْطَفَيْنَ﴾ دليلاً على المخلصين، وسر ذلك أن الإخلاص يلزم منه الاصطفاء»<sup>(١)</sup>.

فالله ﷻ أخلصهم لِيُصْطَفِيَهُمْ، واضطَفَاهُمْ بعد أن أخلصهم بأحوال ومقامات ومحن صاروا بالصقل فيها والصبر عليها في غاية الخلوص. ومنذ ولادة من يختارهم الله لرسالته تتلقَّاهم عنايته ﷻ ورعايته، ومع نهاية كل مرحلة من مراحل نموهم يتم إعدادهم وصقلهم وتهيئتهم بالصورة التي كتبها وأرادها الله ﷻ.

ثم إذا بلغوا أشدهم آتاهم الله ﷻ العلم، والفهم، والحكمة، والملك، والرشد، قال تعالى في إبراهيم ﷺ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١]، وفي داود وسليمان قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥]، وعن يوسف ﷻ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ٢٢]، وفي لوط ﷻ قال تعالى: ﴿وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغُرُبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْتَوَيْنَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وعن موسى ﷻ قال ﷻ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَأَسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصر: ١٤]، وعن المُصْطَفَى مُحَمَّد ﷺ قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمْنَاكَ مَا لَمْ تُكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ومن الأمور التي كان الله ﷻ يربي بها من اختارهم لرسالته وتلقي وحيه، صرفهم عن ضوضاء الجاهلية والكفر، وتحسينهم من الوقوع في الزلات، وملابسة أمور الشرك، وأداء العبادة لغيره ﷻ، فحبَّ إليهم الخلاء

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٦/٣٩٣).

والتأمل، وصقل شخصياتهم للقيادة، بشغلهم برعي الأغنام، وغير ذلك من الأمور التي يصعب حصرها.

ومن ضمن الإعداد والتهيئة التي تلقاها المصطفون للرسالة: صهرهم في بواتق الابتلاء، وتعريضهم لصنوف من المحن والضائقات. وما نال تلك الفئة الخيرة من الناس إنما هو من الربوبية الخاصة التي يوليها الله ﷻ لأصفيائه ورسله، فيريهم بالوحي، وينزل عليهم العلم، ويوفقهم للأخلاق الجميلة، ويسرهم لكل خير، ويدفع عنهم كل شر<sup>(١)</sup>.

ولقد برزت هذه المرحلة في قصة موسى ﷺ في اختيار مرضعته، وفي اختيار مكان تربيته فأرضعته أمه الطاهرة المؤمنة لبن الإيمان والتقوى، وتربى في قصر فرعون ليكون في البيئة التي سيرسل إليها، فعاش البيئتين بيئة المظلومين والظالمين فتربى على كراهية الظلم وحب المظلومين والدفاع عنهم وأكرم ﷺ بإعداد من نوع آخر، وذلك عندما بلغ موسى ﷺ أشده واستوى، أتاه الله الحكم والعلم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَأَسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص: ١٤]، عن مجاهد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «هو الفقه والعقل والعمل قبل النبوة»<sup>(٢)</sup>، وقال ابن عطية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وهي مقدمة نبوته ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

ثم جاء دور الصقل والصيغة والصهر؛ فتالت على موسى ﷺ أنواع من الفتن والبلاء، قال تعالى: ﴿وَفِتْنَك فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]، والفتون وقوعه في محنة بعد محنة، وتخليص الله ﷻ له منها، كما يفتن الذهب بالنار فيخلص من كل خبث فيه<sup>(٤)</sup>، وهذا من تمام حكمة الله ﷻ.

قال ابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ثم تأمل حال الكليم ﷺ وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهى أمره حتى كلمه الله تكليماً، وقربه منه، وكتب له التوراة بيده، ورفعها إلى أعلى السماوات، وهو الوجيه عند الله القريب.

(١) انظر: القواعد الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمن السعدي ص ١٠٨.

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (٥٢/١١).

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٢٨٠).

(٤) انظر: معالم التنزيل للبغوي (٥/٢٧٣).



ولولا ما تقدم له من السوابق، وتحمل الشدائد والمحن العظام في الله، ومقاساة الأمر الشديد بين فرعون وقومه، ثم بني إسرائيل وما آذوه به لولا ذلك لما ترقى لتلك المكانة<sup>(١)</sup>.

ومن الإعداد الذي لاقاه موسى ﷺ: اختيار الله ﷻ مَدِينَ مَقْرَأَ له لمدة مقدره، فعاش مطمئناً في كنف الأبوة، مبشراً بالنجاة من قوم فرعون: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، منشغلاً بسوس الغنم، طيلة عشرة سنوات على قول أكثر المفسرين، فاستقرت نفسه، وتفرغ للتعبد والتأمل والتحنث.

قال ابن القيم رحمه الله: «وتأمل قصة موسى، وما لطف له من إخراجه وقت ذبح فرعون للأطفال، ووجهه إلى أمه أن تلقيه في اليم، وسوقه بلطفه إلى دار عدوه الذي قدر هلاكه على يديه، وهو يذبح الأطفال في طلبه، فرماه في بيته وحجره وعلى فراشه، ثم قدر له سبباً أخرجه من مصر، وأوصله إلى موضع لا حكم لفرعون عليه، ثم قدر له سبباً أوصله إلى النكاح والغنى بعد العزوبة والعيالة، ثم ساقه إلى بلد عدوه، فأقام عليه به حُجَّتَه، ثم أخرجه وقومه في صورة الفارين منه، وكان ذلك عين نصرتهم على أعدائهم وإهلاكهم، وهم ينظرون»<sup>(٢)</sup>.

### المرحلة الثالثة: التكليف والتأييد:

قال تعالى: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

وهذه هي المرحلة الأخيرة من مراحل الاصطفاء، والأساس الذي من أجله اصطفى الله ﷻ أنبياءه ورسله، وأنزل كتبه، وخلق جنته وناره، فأرسل رسله متتالين متعاقبين يتبع بعضهم بعضاً، ويصدق بعضهم بعضاً، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وأيدهم بالآيات الدالات على صدقهم، وأنهم مرسلون من عند الله ﷻ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٤٢١).

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن قيم الجوزية ص ٨١.

مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿٢٥﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٤٧﴾ [الروم: ٤٧].

ولقد برزت هذه المرحلة واضحة في قصة موسى ﷺ، قال تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِمَّنْ الشَّاكِرِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤]، فبعد أن أتم موسى ﷺ الأجل، وقضى وقتاً محدداً في أهل مدين، جاء على قدر مكتوب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَهُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ ﴿٤٥﴾ وَأَصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٥ - ٤٦].

قال محمد بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «جئت على القدر الذي قدرت أنك تعجى»<sup>(١)</sup> فكان ذلك الوقت هو الميعاد لاصطفاء موسى ﷺ وتكليفه بالرسالة، قال ﷺ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَىٰ النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [طه: ٩ - ١٣]. فكلّف من قبل ربه ﷻ للقيام بأجل مهمة في الوجود، وهي تبليغ الرسالة إلى الناس، قال تعالى: ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤١ - ٤٤]، ولما قال الله ﷻ: «واصطنعتك لنفسى» عقبه بذكر ما له اصطنعه، وهو الإبلاغ والأداء، فأرسل مؤيداً من عند ربه بالدلائل والآيات الدالة على صدقه وصدق ما جاء به، قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: يعني الآيات التسع التي بعث بها موسى<sup>(٢)</sup>، فكلّفهما الله ﷻ بالذهاب والقيام بالمهمة على أكمل وجه؛ فقد أتم الله ﷻ نعمه عليهما بالتربية والإعداد والتهيئة، وبالتأييد بالدلائل والمعجزات التي أيدهما بها.

قال الطبري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يقول ﷻ: ولا تضعفا في أن تذكرا في فيما أمرتكما ونهيتكما، فإن ذكركما إياي يقوي عزائمكما، ويثبت أقدامكما، لأنكما إذا ذكرتماني، ذكرتما مني عليكما نعماً جمّة، ومنناً لا تحصى كثرة»<sup>(٣)</sup>.

(١) معالم التنزيل للبغوي (٥/٢٧٤).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٥/٢٧٤).

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (٩/٢١١).

## ذكر المُصْطَفَيْنِ أَفْرَاداً وَجُمَعاً، وبيان اللفظ المعبر به عن الاصطفاء

اختلفت طرق القرآن في تحديد من وقع عليه الاصطفاء من الأنبياء ﷺ، فمرة يُذكر اصطفاء جنس الأنبياء عموماً، ومرة اصطفاء النبي فرداً، ومرة مع غيره من الأنبياء، ومرة يذكر اصطفاء آله دون اصطفائه، وكذلك يُشار إلى اصطفاء الإخوان والآباء والذريات:

أ - اصطفاء جنس الأنبياء، قال ﷺ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٧٥) [الحج: ٧٥]، وقال ﷺ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ب - اصطفاء الآل والآباء والذرية والإخوان؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنِبَتِهِمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧]، واصطفاء آل النبي دلالة على اصطفائه هو ابتداءً، وخص هؤلاء الأنبياء ﷺ بالذكر لأن الأنبياء والرسل ﷺ كلهم من نسلهم<sup>(١)</sup>.

ج - اصطفاء مجموعات من الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٢) وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنِبَتِهِمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) [الأنعام: ٨٣ - ٨٧]. ولا بد أن يكون ذكرهم بهذه الطريقة لها حكم ودلالات عظيمة؛ قال العلامة الرازي رحمه الله: «واعلم أن الله تعالى ذكر أربعة

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي (٢/٢٩).

من الأنبياء وهم: نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم ذكر من ذريتهم أربعة عشرة نبياً: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً، فالمجموع ثمانية عشر، وأنه لم يُراعَ الترتيب بينهم في الآية لا بحسب الفضل والشرف ولا بحسب الزمان والمدة، وعندني فيه وجه من وجوه الترتيب؛ وذلك لأنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل؛ مرتبة الملك والسلطان والقدرة وقد أعطاها داود وسليمان عليهما السلام، ومرتبة البلاء الشديد والمحنة وخص بها أيوب عليه السلام، والمرتبة الثالثة من كان مستجمعاً لهاتين الحالتين وهو يوسف عليه السلام، فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر، ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر، والمرتبة الرابعة قوة المعجزات وكثرة البراهين والمهابة وكان ذلك في حق موسى وهارون عليهما السلام، والمرتبة الخامسة الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا وترك مخالطة الخلق، وذلك كما في حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس عليهم السلام <sup>(١)</sup>.

د - اصطفاء أفراد من الأنبياء ذكرت أسماؤهم بالتعيين وهم: [آدم - إبراهيم - موسى - يونس - داود - يوسف عليهم السلام]:

١ - آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٣١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَىٰ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٢١ - ١٢٢].

٢ - إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْعُبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠].

٣ - موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿قَالَ يَمْؤُوسَٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال عليه السلام: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [طه: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١].

٤ - يونس عليه السلام قال تعالى: ﴿فَأَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٥٠].

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي باختصار (٤١٣/٦).

[٥٠]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: رد الله إليه الوحي، وشفعه في نفسه وفي قومه، وقبل توبته، وجعله من الصالحين وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون<sup>(١)</sup>.

٥ - داود عليه السلام قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، وفي ذلك بيان لمنزلة داود عليه السلام عند ربه جل جلاله، فقد اصطفاه للنبوة وجعله خليفة لمن قبله من الأنبياء<sup>(٢)</sup>.

٦ - يوسف عليه السلام قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رُبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِزْرَاهِمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]، قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن رضي الله عنهما: يجتبيك ربك بالنبوة<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ اللَّهُ عِلْمًا وَإِن كُنَّا لَخَاطِبِينَ﴾ [يوسف: ٩١]، فقد فضله الله جل جلاله واختاره عليهم بالملك، والعلم والعقل، وحسن الخلق والخلق والنبوة - على قول من لم يجعلهم أنبياء<sup>(٤)</sup> - .

### اللفظ المعبر عن الاصطفاء:

لقد انتهج القرآن نهجاً معيناً في بيان اللفظ المعبر عن الاصطفاء. فمرة يكون باللفظ الصريح «أصْطَفَى»، وأخرى بمرادفاته؛ كاجتبي، واختار، واصطنع، واتخذ، إلى غير ذلك من المرادفات، ومثال الأول قوله جل جلاله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَبِيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨٩/٩)، الباب في علوم الكتاب للحنبلي (٣٠٨/١٩).

(٢) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (١٥٨/٣)، النكت والعيون للماوردي (٩٠/٦)، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي (٩٢٢/٢)، تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٣٧٨/٧).

(٣) النكت والعيون للماوردي (٨/٣)، زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (١٣٨/٤).

(٤) انظر: التفسير العظيم لابن كثير (٤٠٨/٤). وآثر لفظ يعم جميع أنواع التفضيل، وأصله من الأثر، وهو تتبع الشيء فكأنه يستقصي جميع المكارم، يقال: استأثر بكذا أي اختص به وهو كناية عن اصطفائه، مع التنبيه إلى أنه لا يصح أن يُستخدم لفظ «استأثر» في حق الله جل جلاله، وإنما يُقال - أثر - كما بين ذلك القرآن الكريم. الدر المصون في تفسير المأثور للسيوطي (٥٥٤/٦).

[٥٩]. ومثال الثاني قال ﷺ: ﴿وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنِبِيْنَهُمْ وَهَدْيَتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧].

### عدد مرات وقوع اللفظ المعبر به عن الاصطفاء:

قد يذكر الاصطفاء للنبي ﷺ مرة واحدة، كما هو الحال في يونس عليه السلام فلم يرد في القرآن سوى مرة واحدة بلفظ الاجتباء في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠]، بينما جاء اصطفاء موسى عليه السلام عدة مرات وبمرادفات مختلفة، قال تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [١٢]، وقال عليه السلام: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال ﷺ: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

وقد يتكرر الاصطفاء في آية واحدة كما في قصة مريم بنت عمران ، قال تعالى: ﴿يَمْرُؤٍمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، وعندما يتكرر الاصطفاء يكون ذلك دليلاً على الاختلاف والتنوع بين الاصطفاءين.



## بيان الشيء الذي اصطفى به الأنبياء

اصطفى الله ﷻ أنبياءه بأمور اشتركوا بها جميعاً، كالرسالة والإعلام بالغيب والاختصاص بالآخرة والوحي، إلى غير ذلك. وخصَّ البعض بأمور لم تكن لغيرهم ذكرها العلماء. ومن الأمور التي كانت لجميع الأنبياء الآتي:

١ - الاصطفاء بالوحي والرسالة، وهي القاسم المشترك بينهم ﷺ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، قال تعالى: ﴿يُرْسِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]

٢ - الاصطفاء للإعلام بالغيب، وهذا من الأمور التي اشترك فيها الأنبياء وإن اختلف ذلك الغيب الذي نُبئوا به، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَتَوْنَا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

٣ - الاصطفاء بنزع حب الدنيا من القلوب، والاختصاص بالآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۗ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٦ - ٤٧].

ولقد استنبط المفسرون أسباباً خاصة - سوى العامة المذكورة أعلاه - اصطفى لها بعض الأنبياء ﷺ ومن ذلك:

- أبو البشر آدم ﷺ:

قال تعالى ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

اصطفاه الله ﷻ بالإيجاد، والرسالة إلى بنيه، والنبوة، والتكليم، ويجعله أبا البشر، وخلقته بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، ورجع به من حال المعصية إلى حال الندم، ورجحه على جميع الملائكة<sup>(١)</sup>. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ في الحديث الطويل، فيقول بعض الناس: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون: (يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنَكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا...)<sup>(٢)</sup>، وفي رواية أخرى: (وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ)<sup>(٣)</sup>، فذكروا ما مَيَّرَ اللهُ وَفَضَّلَ اللهُ بِهِ آدَمَ ﷺ.

### أول الرسل نوح ﷺ:

اصطفاه ربه ﷻ بأن جعله أول نبي يبعث إلى الكفار، وأول رسول إلى أهل الأرض<sup>(٤)</sup>، وفي الحديث يأتي الناس نوحاً ﷺ فيقولون: (يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا)<sup>(٥)</sup>، وهو أول من

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤٢٢/١) و(٦٨/٤)، بحر العلوم للسمرقندي (١/٢٣٢) و(٢١٥/٢)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٢/٢)، الكليات لأبي البقاء ص ١٣٠.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٣٣٤٠.

(٣) صحيح البخاري حديث رقم ٧٤٤٠. واختلف في المراد بالأسماء: فقيل: أسماء ذريته، وقيل: أسماء الملائكة، وقيل: أسماء الأجناس دون أنواعها، وقيل: أسماء كل ما في الأرض، وقيل: أسماء كل شيء حتى القصة. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٢٠٣/٨).

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٤٢٢/١)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٢/٢).

(٥) صحيح البخاري حديث رقم ٣٣٤٠. فأما كونه أول الرسل، فقد استشكل بأن آدم كان نبياً وبالضرورة تعلم أنه كان على شريعة من العبادة، وأن أولاده أخذوا ذلك عنه، فعلى هذا فهو رسول إليهم فيكون هو أول رسول، فيحتمل أن تكون الأولية في قول أهل الموقف لنوح مقيدة بقولهم إلى أهل الأرض لأنه في زمن آدم لم يكن للأرض أهل، أو لأن رسالة آدم إلى بنيه كانت كالترية للأولاد، ويحتمل أن يكون المراد أنه رسول أرسل إلى بنيه وغيرهم من الأمم الذين أرسل إليهم مع تفرقهم في عدة بلاد، وآدم إنما أرسل إلى بنيه فقط وكانوا مجتمعين في بلدة واحدة. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤٥٧/٦).



نسخت به الشرائع، وقد أطال الله عمره، وجعل ذريته هم الباقين، وأهلك الله ﷺ قومه وحفظه واتباعه<sup>(١)</sup>.

أبو الأنبياء وخير البرية<sup>(٢)</sup> إبراهيم ﷺ:

نبأه الله ﷺ واصطفاه للرسالة، وجعله أبا الأنبياء، واختاره خليلاً ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. وأنجاه من النار، وجعله للناس إماماً، وابتلاه بكلمات فوفقه حتى أتمهن<sup>(٣)</sup>.

وفي حديث الشفاعة يقول الناس: (وَلَكِنْ أَتُّوا إِبْرَاهِيمَ ﷺ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا)<sup>(٤)</sup>. وَجَعَلَ اللَّهُ ﷺ دِينَهُ هُوَ الشَّائِعِ<sup>(٥)</sup>، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ

(١) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (١/٢٣٢)، روح البيان للبروسوي (٨/٢٦٩)، الكليات لأبي البقاء ص ١٣٠.

(٢) عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية! فقال رسول الله ﷺ: (ذاك إبراهيم ﷺ)، صحيح مسلم (٤/١٤٦٦) حديث رقم ٢٣٦٩، وقال العلماء: إنما قال ﷺ هذا تواضعاً، واحتراماً لإبراهيم ﷺ لخلته وأبوتة، وإلا فنبينا ﷺ أفضل، كما قال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم)، ولم يقصد به الافتخار ولا التناول على من تقدمه، بل قاله بياناً لما أمر ببيانه وتبليغه، ولهذا قال ﷺ: (ولا فخر)، لينفي ما قد يتطرق إلى بعض الأفهام السخيفة، وقيل: يحتمل أنه ﷺ قال: (ولا إبراهيم خير البرية قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، فالمراد أفضل برية عصره لأن الفضائل يمنحها الله تعالى لمن يشاء. فأخذ بفضيلة إبراهيم إلى أن علم تفضيل نفسه فأخبر به، ويتضمن هذا جواز التفاضل بين الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/١٢٠).

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (١/١٣١)، النكت والعيون للماوردي (١/١٩٢)، بحر العلوم للسمرقندي (١/٢٣٢)، المحرر الوجيز لابن عطية (١/٢١٢).

(٤) صحيح مسلم (١/١٥٤)، حديث رقم (١٩٣)، ومعنى: (أتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً) قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: أصل الخلة: الاختصاص والاستصفاة، وقيل: أصلها الانقطاع إلى من خاللت، مأخوذ من الخلة، وهي الحاجة فسمي إبراهيم ﷺ بذلك لأنه قصر حاجته على ربه ﷻ، وقيل الخلة: صفاء المودة التي توجب تخلل الأسرار، وقيل معناها: المحبة والإلطف. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٣/٥٣).

(٥) الكليات لأبي البقاء ص ١٣٠.

لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿٢٦﴾ [البقرة: ١٣٠]، كما اصطفاه ﷺ لبناء بيته وتطهيره، قال تعالى: ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٧﴾ [البقرة: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٨﴾ [الحج: ٢٦]، وأظهر له مناسكه، قال ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ [البقرة: ١٢٨]، وأمر باتخاذ مقامه مُصَلًّى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانخِذُوا مِن مَّقَابِدِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، واختاره للأذان بالحج، قال تعالى: ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ [الحج: ٢٧]. كما خُصَّ بيته بالعديد من الخصائص بأن جعل الله ﷻ فيهم النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبيًّا إلا من أهل بيته، وجعلهم الله أئمةً يهدون بأمره إلى يوم القيامة، فكل من دخل الجنة بعدهم، فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم، وأن الله اتخذ منهم الخليلين، وجعل الله صاحب البيت إماماً للناس، كما أجرى على يديه بناء بيته، وأمر عباده أن يصلوا على أهل هذا البيت<sup>(١)</sup>.

#### كليم الله موسى ﷺ:

اصطفاه الله ﷻ بالرسالة والكلام، قال تعالى: ﴿قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، واصطفى له أخاه هارون ﷺ<sup>(٢)</sup>، قال ابن عطية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «والظاهر من الشريعة أن موسى مخصص بالكلام، وإن تكلم الله مع آدم إلا أنه كان في الجنة فيتحفظ على هذا تخصيص موسى واصطفاه على الناس بمجموع الدرجتين»<sup>(٣)</sup>، وقال البغوي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَمَّا لَمْ تَكُن الرِّسَالَةُ عَلَى الْعَمُومِ فِي حَقِّ النَّاسِ كَافَةً، اسْتَقَامَ قَوْلُهُ: ﴿اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ وَإِنْ شَارَكَهُ فِيهِ غَيْرُهُ»<sup>(٤)</sup>. وفي الحديث يقول الناس: (وَلَكِنْ ائْتُوا

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، تحقيق: عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط (٢/٤٠٠).

(٢) روح المعاني للألوسي (٣/١٣١).

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/٤٥٢).

(٤) معالم التنزيل للبغوي (٣/٢٧٩).

مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَةَ)، وفي رواية يقولون: (يَا مُوسَى! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَلَّكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ)<sup>(١)</sup>.

الكريم ابن الكريم يوسف ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦].  
عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: (الكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ: يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)<sup>(٢)</sup>. قال العلماء: وأصل الكرم: كثرة الخير. وقد جمع ليوسف ﷺ مكارم الأخلاق، مع شرف النبوة، وشرف النسب، وكونه ابن ثلاثة أنبياء متناسلين، أحدهم خليل الله ﷺ، وانضم إليه شرف علم الرؤيا، وتمكنه فيه، ورياسة الدنيا وملكتها بالسيرة الجميلة، وحياطته للرعية، وعموم نفعه إياهم، وشفقته عليهم، وإنقاذه إياهم من تلك السنين<sup>(٣)</sup>، فاصطفاه بحسن الخلق والخلق، وبتترك الانتقام<sup>(٤)</sup>، وبالنبوة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما<sup>(٥)</sup>، عن قتادة يرحمه الله قال: فاجتباها واصطفاه وعلمه من عبر الحديث<sup>(٦)</sup>. واصطفاه الله تعالى بالإرسال والإيحاء إليه<sup>(٧)</sup>.

صاحب الحوت: يونس ﷺ:

قال تعالى: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠].  
اصطفاه الله بأن رد إليه النبوة لأنه كان قبل ذلك نبياً<sup>(٨)</sup>، فاصطفاه

(١) صحيح مسلم (١٥٤/١) حديث رقم (١٩٣) ورقم (١٩٤). وقوله ﷺ في موسى ﷺ: (الذي كلمه الله تكليماً)، هذا بإجماع أهل السنة على ظاهره، وأن الله تعالى كلم موسى حقيقة كلاماً سمعه بغير واسطة، ولهذا أكد بالمصدر، والكلام صفة ثابتة لله تعالى، لا يشبه كلام غيره. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٥٣/٣).

(٢) صحيح البخاري ص ٦٩٢، حديث رقم ٣٣٨٢.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٣٣/١٥).

(٤) النكت والعيون للماوردي (٨/٣).

(٥) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (١٣٨/٤).

(٦) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٠٠/٧).

(٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣١٧/٤).

(٨) جامع البيان لابن جرير الطبري (٥٠/١٤).

ربه ﷺ بالتوبة<sup>(١)</sup>.

داود ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

اصطفاه الله ﷺ بالنبوة؛ وبالمملك إذ كان خليفة لمن قبله في

الماضي<sup>(٢)</sup>.



---

(١) روح البيان للبروسوي (١٢٦/١٠).

(٢) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي (٩٢٣/٢)، المحرر الوجيز لابن عطية (٥٠٢/٤).



## المبحث الثاني



### خصائص<sup>(١)</sup> الأنبياء ﷺ

اصطفى الله ﷻ أنبياءه من البشر، وخصَّهم بخصائص لم يشاركهم فيها غيرهم من البشر، بيد أن هذه الخصائص لم تخرجهم عن بشريتهم، إنما خصَّوا بها لحكم أرادها الله ﷻ قد تظهر لنا، وقد لا نحيط بها كلها، ومن هذه الخصائص الآتي:

#### أولاً: الاختصاص بالوحي:

قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ١٥]، وهذه هي أعظم وأكبر الخصائص، وهي الخاصية الأس التي خصَّ الله ﷻ بها عباده الذين اختارهم لنفسه، ليكونوا الوساطة بينه وبين عباده، وترتبت عليها خصوصيات أخرى تبعثها بالضرورة، فخصَّوا بالوحي الذي سيبلغهم مراد ربهم.

#### ثانياً: الاطلاع على الغيب<sup>(٢)</sup>:

قال تعالى: ﴿عَلِمُوا الْغَيْبَ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٣٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٣٧﴾﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ

(١) المقصود بخصائص الأنبياء: ما خصَّهم به الله ﷻ دون غيرهم، فلا يمكن أن يشاركهم في ذلك أحد من العباد، غير أن صفاتهم يمكن أن يشترك فيها معهم غيرهم، ولكن لا يبلغ مرتبتهم البتة، فمثلاً قد يشترك غيرهم معهم في صفة الصبر، ولكن لا يمكن أن يبلغ نفس منزلتهم.

(٢) يجب التنبيه على أن الإطلاع على الغيب يرجع إلى مشيئة الله وحكمته، فهو يُطلع من شاء من رسله على ما شاء من الغيب بما يؤيده في رسالته، كما أطلع الله ﷻ رسوله محمداً ﷺ في رحلة المعراج على أمور كثيرة، وأما الغيب كله فعلمه إلى الله ﷻ قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]

وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٨]، أراد الله ﷻ أن يطلعهم على ما أراد اطلاعهم عليه من الغيب، من أمور الماضي والحاضر والمستقبل؛ ليكون المعين لهم في دعوتهم وليصدقهم الناس بذلك كما حدث للرسول ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج.

### ثالثاً: التأييد بالمعجزات:

قال ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨]، وقال ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا يَنْبَغُ لَهُ مِنْ عِلْمِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، فَارْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)<sup>(١)</sup>. قال ابن حجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هذا دال على أن النبي لا بد له من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه، ولا يضره من أصر على المعاندة»<sup>(٢)</sup>.

إذ إنه لا بد للنبي من معجزة تدل على صدقه وأنه من عند الله ﷻ. وهي مختصة بالأنبياء لا تكون لغيرهم؛ أي: لا يشاركون فيها أحد، ولا توجد إلا مع نبي، وهي شهادة من الله ﷻ وإخباراً منه بنبوتهم، فهم يفتحون الأعين العمي، والآذان الصم، والقلوب الغلف. وآياتهم لا تنال بالاكْتِسَاب، وأمرها إلى الله ﷻ لا إلى اختيار المخلوق، والله يأتي بها بحسب علمه وحكمته وعدله ومشيبته ورحمته، وهي خارقة للعادات، عادات الإنس والجن، ولا يقدر عليها مخلوق، بل الله ﷻ يفعلها آية وعلامة لهم<sup>(٣)</sup>. فقد أراد الله ﷻ أن يؤيدهم بالمعجزات، لتكون دلالة صريحة على صدقهم، وأنهم مرسلون من عنده؛ لأنه ليس في مقدور أقوامهم الإتيان بمثلها أو محاكاتها.

(١) صحيح البخاري ص ١٠٨٤، حديث رقم ٤٩٨١.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٧/٩).

(٣) انظر: النبوات لابن تيمية باختصار وتصرف من ص ٤٠٩ - ٤٤٤.

رابعاً: تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ولا تكون رؤياهم إلا حقاً:

عن أنس رضي الله عنه في حديث الإسراء: (... وَالنَّبِيُّ ﷺ نَائِمَةٌ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ، وَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلَا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ) <sup>(١)</sup>، قال ابن حجر رحمته الله: «وهو ظاهر في أن ذلك من خصائصه ﷺ» <sup>(٢)</sup>، ولقد أمدهم الله ﷻ بهذه الخاصية، لتكون رؤياهم حق ووحى من الله ﷻ يُتَّبَع، كما فعل إبراهيم عليه السلام عندما أراد ذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا بَتِ أَعْمَلُ مَا تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٢]. فنقى الله ﷻ قلبه من كل محبوب سواه، وابتلاه ابتلاءً عظيماً قلَّ من يتحمَّله، فاجتاز هذا البلاء فتخلَّد ذكرى الخليل مناسكاً يغشاها الناس كل عام من كل فج عميق.

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا اليمامةُ أَوْ هَجَرَ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ، وَرَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ هَذِهِ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ، فَإِذَا هُوَ مَا أَصِيبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أَحُدٍ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ أُخْرَى فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ، فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَأَيْتُ فِيهَا بَقْرًا وَاللَّهُ خَيْرٌ، فَإِذَا هُمُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ أَحُدٍ، وَإِذَا الْخَيْرُ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ، وَتَوَابِ الصَّدَقِ الَّذِي آتَانَا اللَّهُ بَعْدَ يَوْمِ بَدْرٍ) <sup>(٣)</sup>. وفي رؤياه ﷺ تلك تحديد لمهاجره التي سيهاجر إليها، فكانت الرؤيا الحق هي الدليل والهادي إلى المدينة المنورة نواة الإسلام ومكان نصرته وعزته.

خامساً: أن الله ﷻ تولى إعدادهم وتهيئتهم للقيام بأعباء الرسالة:

قال تعالى: ﴿وَلِصْنَعِ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿١﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٢﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٣﴾﴾ [الضحى: ٦ - ٨]،

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٥٧٠.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٧١٩/٦).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٦٢٢.

وكل ما اصطفاه الله ﷻ؛ أولاه من التهيئة، والإعداد، والعناية، ما يجعله مؤهلاً لما اصطفى من أجله. ولقد سبق الحديث عن ذلك مفصلاً في الفصل نفسه، مما أغنى عن إعادته هنا.

### سادساً: اختصاصهم بذكر الآخرة والتذكير بها:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ [ص: ٤٦]، خُصُّوا ﷻ بهذه الخاصية، فالله ﷻ جعلهم بصورة معينة لا يشاركهم فيها غيرهم؛ حيث صقلت نفوسهم وقلوبهم على تذكّر الآخرة فقط، والعمل لها والتذكير الدائم بها فعاشوا على ذلك، وعاشوا لذلك، وقوله ﷻ: ﴿أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ أي: أن الله اختصهم دون غيرهم بها، عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ قال: بهذه أخلصهم الله، كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله ﷻ<sup>(١)</sup>.

### سابعاً: اختصاصهم بالعصمة في التبليغ:

هذه الخاصية مترتبة على الخاصية السابقة؛ إذ هي من لوازم الوحي التي خصّ الله ﷻ بها أنبياءه ﷺ فيما يتعلق بقضية التبليغ، فقد اختار لهم الله ﷻ هذه الخاصية وأمدهم بها ضماناً لسلامة المنهج الذي يبلغونه عنه، وقد تكلم الكثير من العلماء في قضية عصمة الأنبياء والنواحي التي ثبتت لهم فيها، مما هو ليس مجال بحثنا، ونقتصر فيه على قول شيخ الإسلام ﷺ قال ابن تيمية ﷺ: «واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه؛ قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب، حتى حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب ومغفرة الله لهم، ورفع درجاتهم بذلك. وقوم أفرطوا في أن ذكروا ما دل القرآن على براءتهم منه، وأضافوا لهم ذنوباً وعيوباً نزههم الله عنها. وهؤلاء مخالفون للقرآن، وهؤلاء مخالفون للقرآن، ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط، مهتدياً إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين»<sup>(٢)</sup>.

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٠٤/١٢).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ﷺ (١٥٠/١٥).



## ثامناً: تخير الله لهم عند موتهم:

إن الله ﷻ أكرم هذه الصفوة من عباده بتخييرهم قبل الموت، وهذا لهم وحدهم لا لغيرهم، حيث أن الإنسان إذا جاء أجله فلا يتقدم عن ذلك لحظة ولا يتأخر، قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝﴾ [ق: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾ [المنافقون: ١١]. عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: (إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ فِي الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخَيَّرُ)<sup>(١)</sup>، أي: يخير بين الموت ولقاء الله ﷻ والحياة، واختار الرسول ﷺ لقاء الله ﷻ، فينبغي الاستئذان به<sup>(٢)</sup>.

## تاسعاً: يدفنون حيث يموتون:

لا يدفن الأنبياء إلا حيث يموتون، فتوارى أجسادهم الطاهرة في المكان الذي أذن الله ﷻ أن تقبض فيه أرواحهم ﷺ، وهذا المكان يكون باختيار الله ﷻ، فقد صحَّ عن عائشة ﷺ أنها قالت: لما قبض النبي ﷺ اختلفوا في دفنه، فقال أبو بكر ﷺ: سمعت عن رسول الله ﷺ شيئاً ما نسيتُه قال: (مَا قَبَضَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ)، فدفنوه في موضع فراشه<sup>(٣)</sup>. وقد ذكر ذلك المصطفى ﷺ في الحديث عن أبي بكر ﷺ قال: قال رسول الله ﷻ: (لَمْ يُقْبَرْ نَبِيٌّ إِلَّا حَيْثُ يَمُوتُ)<sup>(٤)</sup>، وقد دفن الرسول ﷺ في حجرة السيدة عائشة ﷺ، في المكان الذي قبض فيه.

## عاشراً: يُسأل عنهم الناس في قبورهم:

ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷻ أن الله ﷻ يفتن الناس في قبورهم، والفتنة هي الاختبار وذلك بسؤال المرء عن ربه ﷻ، ودينه الذي دان به،

(١) صحيح مسلم (١٥٠٩/٤) حديث رقم ٢٤٤٤.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤٣٩/١١).

(٣) صحيح سنن الترمذي للألباني (٢٩٨/١) حديث رقم ٨١٣.

(٤) كنز العمال (٢٢٦/٧) حديث رقم ١٨٧٣٥، وصحيح الجامع الصغير وزياداته

للألباني ﷺ (٩٢٣/٢) حديث رقم ٥٢٠١، قال الألباني: حديث صحيح.

ونبيه الذي آمن به وصدقه واتبعه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَرَهُ إِلَّا وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَأَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ)<sup>(١)</sup>، وفي هذا بيان لكرامتهم على الله ﷻ وعظيم شأنهم، ودلالة على صدقهم في أنهم رسل الله ﷻ، وأنهم جاءوا بالحق من عنده.

### الحادي عشر: أحياء في قبورهم:

وليس لأحد أن يخبر عن طبيعة هذه الحياة؛ لأنها من الأمور الغيبية التي لم نخبر عنها، لا تثبت لنا إلا بالنص الصحيح من الكتاب أو السنة، وما ثبت لنا أنهم ﷻ يصلون في قبورهم<sup>(٢)</sup>.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قَالَ: (أَتَيْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عِنْدَ الْكَلْبِيِّ الْأَحْمَرِ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ)<sup>(٣)</sup>.

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (وَقَدْ رَأَيْتَنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي، فَإِذَا رَجُلٌ ضَرَبَ جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ. وَإِذَا عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةَ بِنُ مَسْعُودِ الثَّقَفِيِّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبِكُمْ (يعني نفسه ﷺ) فَحَانَتْ الصَّلَاةُ فَأَمَّتْهُمْ)<sup>(٤)</sup>.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٧٢٨٧.

(٢) فإن قيل: كيف يحجون ويلبون وهم أموات، وهم في الدار الآخرة وليست دار عمل. قال العلماء: إنهم كالشهداء، بل هم أفضل، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فلا يبعد أن يصلوا ويحجوا وأن يتقربوا إلى الله تعالى بما استطاعوا؛ لأنهم وإن كانوا قد توفوا فهم في هذه الدنيا التي هي دار العمل، حتى إذا فنيت مدتها وتعقبها الآخرة التي هي دار الجزاء انقطع العمل، وقيل: إن عمل الآخرة ذكر ودعاء، وقيل: إن الرسول ﷺ أرى أحوالهم التي كانت في حياتهم، ومثلوا له في حال حياتهم كيف كانوا، وكيف حجهم وتلبيتهم، وقيل: إن الرسول ﷺ قد يكون أخبر عما أوحى إليه من أمرهم، وما كان منهم وعن لم يرههم رؤية عين. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢/٣٩٩).

(٣) صحيح مسلم (٤/١٤٧١)، حديث رقم ٢٣٧٥.

(٤) صحيح مسلم (١/١٣٧) حديث رقم ١٧٢. شنوءة: قبيلة معروفة باليمن. انظر:

صحيح مسلم شرح النووي (٢/٣٩٧).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَابِطاً مِنَ السَّمَاءِ وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ، وَكَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةً عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ وَهُوَ يُلَبِّي) <sup>(١)</sup>.

## الثاني عشر: لا تبلى أجسادهم في القبور:

عن أوس بن أوس رضي الله عنه <sup>(٢)</sup> قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ). فقال رجل: يا رسول الله! كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ يعني: بليت. قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيَّ الْأَرْضَ أَنْ تَأْكَلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ) <sup>(٣)</sup>، قوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيَّ الْأَرْضَ أَنْ تَأْكَلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ)، أي: من أن تأكلها فإن الأنبياء في قبورهم أحياء <sup>(٤)</sup>.

(١) صحيح مسلم (١٣٤/١) حديث رقم ١٦٦٦.

(٢) هو أوس بن حذيفة بن ربيعة بن أبي سلمة بن غيرة بن عوف الثقفي. كان في الوفد الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني مالك، فأنزلهم في قبة، وكان يختلف إليهم فيحدثهم بعد العشاء الآخرة. روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث، وروى عنه ابنه وعثمان بن عبد الله، وعبد الملك بن مغيرة وكان ممن نزل الطائف من الصحابة. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١/١٦٧).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه للشيخ الألباني رحمته الله (١/٢٧٣) حديث رقم ١٦٣٦، وسنن أبي داود (٢/٨٥)، حديث رقم ١٠٤٠.

(٤) قال ابن حجر رحمته الله: وما أفاده من ثبوت حياة الأنبياء حياة بها يتعبدون ويصلون في قبورهم مع استغنائهم عن الطعام والشراب كالملائكة أمر لا مرية فيه. (وأرمت) بفتح الراء وأصله أرمت من أرم بتشديد الميم إذا صار رميماً، وقيل: من أرم بتخفيف الميم؛ أي: فني، وأما تحقيق السؤال فوجهه أنهم أعموا الخطاب في قوله: (فإن صلاتكم معروضة) للحاضرين ولمن يأتي بعده صلى الله عليه وسلم، ورأوا أن الموت في الظاهر مانع من السماع والعرض فسألوا عن كيفية عرض صلاة من يصلي بعد الموت. وعلى هذا فقولهم: (وقد أرمت) كناية عن الموت، والجواب بقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله حرم... الخ) كناية عن كون الأنبياء أحياء في قبورهم، فأشار صلى الله عليه وسلم إلى بقاء بدن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

### الثالث عشر: لا يورثون بعد موتهم:

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: (مَا نُورَثُ، مَا تَرَكَنَا صَدَقَةٌ)<sup>(١)</sup>، فما يتركونه صدقة، وعن عروة رضي الله عنه عن عائشة رضي الله عنها؛ أنها قالت: إن أزواج النبي ﷺ، حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أبي بكر رضي الله عنه يسألنه ميراثهن من النبي ﷺ. قالت عائشة لهن: أليس قد قال رسول الله ﷺ: (لَا نُورَثُ، مَا تَرَكَنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ)<sup>(٢)</sup>.

قال العلماء: والحكمة في أن الأنبياء صلوات الله عليهم لا يورثون، أنه لا يؤمن أن يكون في الورثة من يتمنى موته فيهلك، ولئلا يظن بهم الرغبة في الدنيا لو ارثتهم، فيهلك الظان، وينفر الناس عنهم. وجمهور العلماء على أن جميع الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - لا يورثون.

قال النووي رحمته الله: «والصواب ما حكاه عن الجمهور؛ أن الأنبياء لا يورثون. والمراد بقصة زكريا وداود وراثة النبوة، وليس المراد حقيقة الإرث، بل قيامه مقامه، وحلوله مكانه، والله أعلم»<sup>(٣)</sup>.



= انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣/٣٧١)، سنن ابن ماجه بشرح الإمام أبي الحسن السندي (٩/٢).

(١) صحيح مسلم (٣/١١٠٥) حديث رقم ١٧٥٧.

(٢) صحيح مسلم (٣/١١٠٦) حديث رقم ١٧٥٨.

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/٣٠٣).

## المبحث الثالث

### صفات الأنبياء ﷺ (١)

- ويشتمل على ثلاثة عشر مطلباً:
- المطلب الأول: كمال عبوديتهم لله ﷻ.
  - المطلب الثاني: الصدِّيقية.
  - المطلب الثالث: الصلاح.
  - المطلب الرابع: الدعاء والخشوع.
  - المطلب الخامس: التوبة والأوبة والإنابة.
  - المطلب السادس: الصبر والنصر.
  - المطلب السابع: أولو العزم.
  - المطلب الثامن: أولو الأيدي والأبصار.
  - المطلب التاسع: أصحاب الذكر الجميل.
  - المطلب العاشر: المسارعة في الخيرات.
  - المطلب الحادي عشر: الأمانة والفطنة.
  - المطلب الثاني عشر: الرجولة والبشيرة ومزاولة أعمال البشر.
  - المطلب الثالث عشر: من أهل القرى وبلسان قومهم.

(١) في الحديث عن صفات الأنبياء ﷺ، نجد أن القرآن الكريم ذكر أسماء بعض الأنبياء مقرونة بصفات معينة دون غيرهم، ولكن يجب التنبيه إلى أن ذلك لا يُستشف منه نفيها عن سواهم من الأنبياء، فجميعهم: أحياناً، مختارون، ولكن هذه الصفات التي قرنت ببعضهم ﷺ برزت فيهم أكثر من غيرهم لمواقف ومحن مروا بها، فأظهرتها فيهم أكثر من غيرهم، كصبر أولي العزم من الرسل، وصبر أيوب عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم.

## توطئة

إن اصطفاء الله لأنبيائه لم يكن صدفة وإنما كان اختياراً ربانياً حكيماً من سميع علیم، لمن هم أحسن الناس قلوباً وأزكاهم نفوساً قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومما لا شك فيه أن العليم الخبير ﷺ، بعث أنبياءه من أحسن الناس خلقاً وخلقاً، وبراهم من العيوب، وأعطاهم أكمل الصفات. والقرآن الكريم يقرر بوضوح أن الله ﷻ قد اصطفى من البشر أنبياء كانوا موضع ترقية وتكريم وتشريف منه ﷻ، ليكونوا منارات هدى، ودليل اقتداء، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمُ افْتَدَتْهُ قُلُوبٌ لَّا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ومما يدل على رفعة مكانتهم، وعلو مرتبتهم، وكمال صفاتهم أن الله ﷻ بيّن في كتابه الكريم أنه هو الذي تولّى هدايتهم بنفسه، وأشار إليهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾، تعظيماً لشأنهم، كما أمر خير عباده على الإطلاق محمد ﷺ بالاقْتداء بهم، قال تعالى: ﴿فَبِهِدْهُمُ افْتَدَتْهُ﴾ أي: بسنتهم، وبتوحيدهم: ﴿افْتَدَتْهُ﴾ على دينهم واستقم واعمل به<sup>(١)</sup>. ومعنى الاقتداء: اتباع الأثر في القول والفعل والسيرة، وإنما يصح اقتداؤه بجمعهم في العقود والإيمان والتوحيد الذي ليس بينهم فيه اختلاف. وأما أعمال الشرائع المختلفة، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]<sup>(٢)</sup>.

وصفات الأنبياء هذه إنما هي صفات ثابتة تلازمهم لا تنفك عنهم البتة تحت تأثير الظروف أو المواقف أو السنن، وهذه قدرة فائقة وهبها الله ﷻ لتلك الطائفة المُصطفاة لتمكّنها من القيام بمهمتها، وهذه الصفات الثابتة، التي لا تتغير ولا تتبدل يعلمها أهل الكتب السابقة علماً يقينياً، وقد ظهر ذلك في

(١) وفي هذه الآية دليل على أن شرائع المتقدمين واجبة علينا ما لم يظهر نسخها.

(٢) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (١/٤٨٥)، المحرر الوجيز لابن عطية (٢/٣١٨).

سؤال قيصر الروم عن أوصاف الرسول ﷺ عندما جاءه كتابه الذي دعاه فيه إلى الإسلام، فكانت أسئلته تدور حول محاور معينة وهي:

- ١ - كيف هو نسب هذا الرجل فيكم؟
- ٢ - هل قال هذا القول أحد منكم من قبله - يعني الدعوة للإسلام -؟
- ٣ - هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟
- ٤ - هل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟
- ٥ - هل يزيدون أو ينقصون؟
- ٦ - هل يرتد أحد منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟
- ٧ - هل يغير هؤلاء الأنبياء؟
- ٨ - هل قاتلتموه وقتلكم؟
- ٩ - بماذا كان يأمركم؟

وكان تحليله لما سمعه من إجابات ما عَقَّبَ به بقوله: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فِيكُمْ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ ذُو نَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرَّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا. وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا؛ فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، قُلْتُ رَجُلٌ يَأْتُمُ بِقَوْلٍ قَدْ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعِ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ ﷻ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا. فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قُلْتُ يَطْلُبُ مَلِكَ آبَائِهِ، وَسَأَلْتُكَ: أَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعْفَاؤُهُمْ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ ضَعْفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرَّسُلِ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تَحْتَلِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ لَا يَسَخُطُهُ أَحَدٌ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرَّسُلُ لَا يَغْدِرُونَ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ وَقَاتَلَكُمْ، فَزَعَمْتَ أَنْ قَدْ فَعَلَ، وَإِنَّ حَرْبَكُمْ وَحَرْبَهُ يَكُونُ دَوْلًا، يُدَالُ عَلَيْكُمْ الْمَرَّةَ، وَتُدَالُونَ عَلَيْهِ

الأخرى، وكذلك الرُّسُلُ تُبْتَلَى وتَكُونُ له العاقِبَةُ، وسَأَلْتُكَ بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَبَيْنَهُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَهُمْ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ. قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيِّ قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَكِنْ لَوْ أَعْلَمُ أَنْ أَخْلَصَ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْهِ<sup>(١)</sup>. فخلاصة صفاتهم التي ذكرت كالآتي:

- ١ - أن الرسل لا يكونون إلا ذوي نسب.
- ٢ - أن نبوتهم محض هبة من الله ﷻ وليست وراثة، ولا مكتسبة.
- ٣ - أنهم ﷺ صادقون في حياتهم منذ صغرهم وحتى نبوءتهم.

(١) انظر: صحيح البخاري ص ٥٩٦ حديث رقم ٢٩٤١. ولقد رَوَتْ أسئلة قصر الروم إلى معانٍ عظيمة هي في الواقع سنن الله ﷻ في إرساله رسله ﷺ. أما عن قوله: كيف نسبه فيكم؟ أي: ما حال نسبه فيكم، أهو من أشرافكم أم لا؟ فقال: هو فينا ذو نسب. فالثنوين فيه للتعظيم، وقوله: فأشرف الناس اتبعوه؟ والمراد بالأشرف هنا أهل النخوة والتكبر منهم، لا كل شريف، حتى لا يرد مثل أبي بكر وعمر وأمثالهما ممن أسلم قبل هذا السؤال. وقوله: سُخِطَ بضم أوله وفتح، وأخرج بهذا من ارتد مكرهاً، أو لا لسخط دين الإسلام بل لرغبة في غيره كحظ نفساني. وقوله: سجال بكسر أوله، أي: نوب، والسجل: اللؤلؤ، والحرب اسم جنس، ولهذا جعل خبره اسم جمع. وينال أي: يصيب، فكأنه شبه المحاربين بالمستقين: يستقي هذا دلواً وهذا دلواً. وقوله: فذكرت: أن ضعفاءهم اتبعوه معناه أن أتباع الرسل في الغالب أهل الاستكانة لا أهل الاستكبار الذين أصروا على الشقاق بغياً وحسداً كأبي جهل وأشياعه، إلى أن أهلكهم الله تعالى. وقوله: وكذلك الإيمان أي: أمر الإيمان؛ لأنه يظهر نوراً، ثم لا يزال في زيادة حتى يتم بالأمور المعبرة فيه من صلاة وزكاة وصيام وغيرها، ولهذا نزلت في آخر سني النبي ﷺ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، ومنه: ﴿وَيَأْتِيكَ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسِّرَ تُورِثُكُمْ﴾، وكذا جرى لأتباع النبي ﷺ: لم يزالوا في زيادة حتى كمل بهم ما أراد الله من إظهار دينه وتمام نعمته. وقوله: حين يخالط بشاشة القلوب، أي: يخالط الإيمان انشراح الصدور. وقوله: أخلص بضم اللام أي: أصل. وقوله: (لتجشمت) والجيم والشين المعجمة، أي: تكلفت الوصول إليه، وهذا يدل على أنه كان يتحقق أنه لا يسلم من القتل إن هاجر إلى النبي ﷺ. وقوله: (لغسلت قدميه) مبالغة في العبودية له والخدمة. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١/٤٧ - ٥١).



٤ - أن أتباعهم هم الضعفاء من الناس، وأنهم يزيدون، ويثبتون على دينهم.

٥ - أن الرسل لا يغدرون.

٦ - أنهم يُبتلون في دعوتهم وتكون العاقبة لهم.

٧ - أنهم جميعاً منصورون.

٨ - أنهم مبلغون لشرع الله ﷻ.

ولا بد من التنبيه إلى أن جميع ما كتب عن صفات الأنبياء ﷺ لا يمكن أن يصف حقيقتها، أو يوضح بدقة جوهرها وكنهها، وذلك لأنهم ﷺ في مقام عالٍ لم يصل إليه غيرهم؛ فكل من كتب عنهم كان دون مقامهم، كما أن الحديث عن أناس اختارهم ورباهم الله ﷻ وتعهدهم بعنايته لن يكون كالحديث عن غيرهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٧﴾ [ص: ٤٧].

جعلهم الله ﷻ في خير خلقه، ثم اصطفاهم من أولئك الأخيار، فكانوا أخياراً في النسب، وفي الخلق والخلق، وفي السيرة، وأنى نظرنا فالخير شملهم، وهذا ما أشار إليه حديث الرسول ﷺ، وتأمل اختياره ﷺ لكلمتي «تخير، واختار» في الحديث عن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ، مِنْ خَيْرِ فِرْقِهِمْ وَخَيْرِ الْفِرْقَيْنِ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ قَبِيلَةٍ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْبُيُوتَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ بُيُوتِهِمْ، فَأَنَا خَيْرُهُمْ نَفْسًا وَخَيْرُهُمْ بَيْتًا)<sup>(١)</sup>.

واحتج العلماء بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٧﴾ [ص: ٤٧]، وقول الله تعالى: ﴿وَأَذَكَّرُ إِسْمَاعِيلَ وَأَلْيَسَ وَذَا الْكُفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٨﴾ [ص: ٤٨] على إثبات عصمة الأنبياء؛ لأن الله ﷻ حكم عليهم بالخيرية المطلقة، وهذا يعم حصول الخيرية في جميع الأفعال والصفات<sup>(٢)</sup>، وهذه

(١) سنن الترمذي (٥٤٥/٥) حديث رقم ٣٦٠٧.

(٢) انظر: تفسير اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٤٣٥/١٦).

الصيغة تدل على شدة الوصف في الموصوف، والتماثل في الخيرية ثابت لجميع الأنبياء والمرسلين بلا استثناء.

وهذه الشهادة من الله ﷻ دلالة على أن خيرتهم قد بلغت أعلى الدرجات، فهم يسارعون في الخيرات، وهم الأختيار المختارون من الأختيار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: (بُعِثْتُ فِي خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ مِنْهُ)<sup>(١)</sup>.

وعليه فإن ما كتب من هذه الصفات ما هي إلا إشارات خافتة، مقام أصحابها أعلى وأعظم، ومن تلك الصفات<sup>(٢)</sup>:

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٣٥٥٧.

(٢) لا بد من التنبيه إلى أن ما سيكتب من صفات، قد بلغ نبينا محمد ﷺ ذروتها، وجمعت كلها في شخصه ﷺ، وكفي دلالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقوله تعالى: ﴿فِيهِدْنَهُمْ أَقْدَمًا﴾ [الأنعام: ٩٠]، فهو أكمل الخلق على الإطلاق. قال ابن تيمية رحمته الله: «ومحمد ﷺ أكمل الخلق، وأكرمهم على الله، وهو المقدم على جميع الخلق في أنواع الطاعات، فهو أفضل المحبين لله، وأفضل المتوكلين على الله، وأفضل العابدين له، وأفضل العارفين به، وأفضل الثائنين إليه، وتوبته أكرم من توبة غيره، ولهذا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - وبهذه المغفرة نال الشفاعة يوم القيامة، وهو ﷺ لكمال عبوديته لله، وكمال محبته له، وافتقاره إليه، وكمال توبته واستغفاره، صار أفضل الخلق عند الله». انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥١/١٥) باختصار، وسنكتفي بذكر هذه الصفات هنا دون إعادة لها في الحديث عن اصطفاء الرسول ﷺ لأن شمائله محمد ﷺ، والذي رباه ربه عليها أعظم من أن تذكر في هذه العجالة.

## كَمَالُ عُبُودِيَّتِهِمْ لِلَّهِ ﷻ

العبودية أعظم المقامات التي يصل إليها الخلق في سيرهم إلى الله ﷻ وكلما ازدادت عبوديتهم له ارتفعت مرتبتهم، وترقوا في سلم مدارج السالكين. ولقد جعل الله ﷻ أنبياءه ﷺ صوراً حيةً للعبودية الحقّة، ليقتدى بهم، فكانوا المثال والنموذج لذلك، فقد تلبّسوا بها سائر أوقاتهم، فهم مُتَذَلِّلُونَ لله ربهم، خاشعون خاضعون له، أوّابون توابون لجلاله، فلا تراهم إلا كذلك، فإن نطقوا فللّه ﷻ، وإن أمروا أو نهوا فبشرعه، وإن جاهدوا أو قعدوا فلوجه، وإن طلبوا أو سألوا فمن فضله، وإن خافوا وخضعوا فمن خشيته، لذلك كانوا أحق بهذا الوصف من غيرهم، ولقد حازوا السبق في هذا الميدان.

ثم إن الله ﷻ قد امتدحهم بصفة العبودية بقوله ﷻ: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ﴾، فهم عباده - وأنعم بهم من عباد - قال تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِي إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: ١٧]، وعن ابنه سليمان ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣١﴾﴾ [ص: ٣١]، وقال ﷻ عن عبده أيوب ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص: ٤١]، فهو نعم العبد: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤]، وقال عن أبي الأنبياء وأبنائه ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥]. قال ابن قيم الجوزية يرحمه الله: «وجعل الله ﷻ العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه، قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ١٧٢]، ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلامه عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]،

وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله، وقال: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] فذكره بالعبودية في مقام الإسراء»<sup>(١)</sup>.

إنَّ نهاية العبودية والذل لله ﷻ هو كمال الرفعة والسُّمو، قال ﷻ: ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [٧٨] إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ [الصفات: ٧٩ - ٨١]، وعن إبراهيم ﷺ: ﴿سَلِّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [١٢٩] كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ [الصفات: ١٠٩ - ١١١]، وعن موسى وهارون ﷺ: ﴿سَلِّمْ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [١٢٥] إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٦﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٧﴾ [الصفات: ١٢٠ - ١٢٢]، وعن إلياس ﷺ قال تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَى إِيْلَ يَاسِينَ﴾ [١٣٥] إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ [الصفات: ١٣٠ - ١٣٢]، فكان النصر من الله ﷻ مرهون بتحقيق العبودية لمن بيده مقاليد الأمور، وقد وعد الله ﷻ جميع عباده المرسلين بالنصر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٧٦] إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٨﴾ [الصفات: ١٧١ - ١٧٣].



(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية (١١٦/١).

## الصُّدَيْقِيَّة

جميع الأنبياء بلغوا درجة الصُّدَيْقِيَّة؛ لأنه لا يبلغ مرتبة النبوة إلا من اجتازها، ولقد وصف الله ﷺ بعض أنبيائه بالصديقية، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] فقد كان من أهل الصدق في حديثه وأخباره ومواعيده؛ لا يكذب<sup>(١)</sup>.

وعن إدريس عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

وعن يوسف عليه السلام قال ﷺ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصُّدِّيقُ أَفْتَنَّا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلُكٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسِنُ لَعَلَّيْ أَزْجَعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]. وليس في ذكر بعض أسماء الأنبياء مقروناً بهذه الصفة معنى الحصر، فالصديقية تُعدُّ من الصفات الأساسية التي تحلى بها الأنبياء عليهم السلام، وهي الصفة الجامعة لتمام العلم الكامل واليقين الثابت والفهم التام والعمل الصالح، فكانوا عليهم السلام صادقون؛ أقوياء في التصديق بآيات الله ﷻ حتى بلغوا مرتبة الصديقية والتي هي أعلى مقامات الصدق، والدليل على ذلك أنه لا يترقى أحد إلى درجة النبوة إلا إذا جاوز درجة الصُّدَيْقِيَّة، حسب التدرج المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصُّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، فهم عليهم السلام قد بلغوا جميعاً درجة الصديقية بل وفاقوها، ولم يعهد عليهم الكذب قبل نبوتهم، حتى إذا قالوا بالنبوة صدقهم قومهم. وقد غلب استعمال وصف الصُّدِّيق استعمال اللقب الجامع لمعاني الكمال واستقامة السلوك في طاعة الله تعالى<sup>(٢)</sup>.

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١١٢/٩).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨٤/١٢).

وقد وصف الله جميع أنبيائه بالصدق، قال تعالى: ﴿لَيْسَتِ الْوَسِيَّةَ وَالصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٨) [الأحزاب: ٨] قال مجاهد رَضَّ اللَّهُ: أراد بهم الرسل (١).

ويدخل في كمال صدقهم، وفاؤهم ﷺ بالعهود والمواثيق التي أخذها الله ﷻ منهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٧) [الأحزاب: ٧].  
فقد صدقوا عهدهم على الوفاء بما حملوا، وأن يبشّر بعضهم ببعض ويصدق بعضهم بعضاً. قال مقاتل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله، ويدعوا إلى عبادة الله، ويصدق بعضهم بعضاً، وينصحوا قومهم (٢).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٦) [الصف: ٦].

وقد وصف الله ﷻ والد العرب إسماعيل ﷺ بأنه صادق الوعد، قال ﷺ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (٩) [مريم: ٥٤] وخصّه الله ﷻ بذلك، ومن أعظم وعوده وعده أباه أنه سيجده من الصابرين وسيسلم نفسه للذبح، ولم يتراجع عن ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَاءِ آيَةً أَدْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَدَّبَّتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٠) [الصافات: ١٠٢].

قال عبد الملك بن جريج (ت ١٥٠): لَمْ يَعِدْهُ رَبُّهُ عِدَّةً إِلَّا أَنْجَزَهَا (٣)، وكذلك الوعد بالمساعدة في بناء البيت العتيق، وقى به أيما وفاء! قال إبراهيم ﷺ: يا إسماعيل إن ربك أمرني أن أبني له بيتاً، قال: أطع ربك. قال: إنه قد أمرني أن تعينني عليه، قال: إذن أفعل (٤).

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٣٧١).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٦/٣٢٠).

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (٩/١٢٠).

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٣٦٥.

## الصلاح

لا يقصد بالصلاح هنا المرتبة الرابعة من مراتب الصفوة، وإنما نهاية الصلاح وتمامه، فالصلاح هو أفضل الصفات وأشملها، وأشرف المقامات وأعلاها. قال الرازي رحمته الله: «ولا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً؛ لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال والتروك مواظباً على النهج الأصح والطريق الأكمل، وهذا يتناول جميع المقامات في الدنيا والدين، في أفعال القلوب وفي أفعال الجوارح»<sup>(١)</sup>.

ولقد طلب الأنبياء عليهم السلام أن يلحقهم الله تعالى بالصالحين، رغم أنهم بلغوا أعلى مرتبة يبلغها العباد، وهي مرتبة النبوة. وفي اختيارهم لهذه الصفة دون غيرها بيان لأهميتها، وفضلها وعلوها، فهم لا يريدون إلا العالي من الصفات والمقامات والرتب؛ لأنهم أصحاب همم عالية، وأنفس شامخة، فقد طلب إبراهيم عليه السلام، أبو الأنبياء و خليل الله عليه السلام وصفه، أن يلحقه بالصالحين: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]، وأن يهب له الذرية الصالحة التي تكون من زمرة الصالحين. وفي التعبير بالصالحين دون صالحاً؛ أي: من تلك الفئة التي بلغت من الصلاح منتهاه، فوهب الله تعالى له إسماعيل الذبيح عليه السلام، وكان من الصالحين: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [بئرا: ١٠٠] فَبَشَّرْتَهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ [الصافات: ١٠٠ - ١٠١]، وَبَشَّرَ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ فَعَمَّ الصَّالِحَ ذَرِيَّتَهُ أَجْمَعِينَ، قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْتَهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وطلب بلوغ تلك الرتبة العالية المُجْتَبَى الكريم يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وطلب سليمان عليه السلام أن يدخله الله برحمته في العباد الصالحين، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ

(١) التفسير الكبير للرازي (٤/٢٢٠).

وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ [النمل: ١٩]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد مع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (١).

وقد خصَّ الله ﷺ الأنبياء ﷺ بصفة الصلاح الذي لا يتخلَّله شوب ولا كدر، فهم صالحون مُصلحون؛ فقد صلحت قلوبهم بمعرفة الله ﷻ، وجوارحهم بطاعته، وألسنتهم بذكره الدائم والثناء عليه، وهي صفة لازمة لا تفك عنهم البتة.

ولقد امتدحهم الله ﷻ بذلك في كتابه الكريم، حيث ذكر إبراهيم ﷺ بالصلاح ثلاث مرات تأكيداً على اتصافه بهذه الصفة، وأنه بلغ فيها مبلغ الكمال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضْطَقْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢]، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ أَجْرًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وعن زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ﷺ، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

ووصف عيسى ﷺ قبل ولادته بالصلاح، قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦].

وعن لوط ﷺ قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ أَنبَتْنَاهُ حُكْمًا وَعَلَّمْنَا نَبِيِّنَاهُ مِنَ الْقُرْبَانِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَجْثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِءٍ فَسِيقِينَ﴾ [٧٤] وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ [الأنبياء: ٧٤ - ٧٥].

وعن إسماعيل وإدريس وذو الكفل ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٨٥] وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ [الأنبياء: ٨٥ - ٨٦].

وبعد استعراض الآيات السابقة نلاحظ أن صفة الصلاح هي أكثر الصفات التي استوعبت عدداً كبيراً من الأنبياء دون غيرها من الصفات، وذلك لأنه لا يمكن أن يكون النبي إلا صالحاً.

(١) معالم التنزيل للبخاري (١٥٢/٦).



وفي ذكر الصلاح بعد النبوة كما في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: ٣٩)، تعظيماً لشأن الصلاح، وإيماءً بأنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل.



## الدعاء والخشوع

قال تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

لقد أثبت القرآن الكريم للأنبياء صفة الدعاء والتضرع إلى الله ﷻ كافة أحوالهم، ثقة في قوته واستناداً إلى جواره. ولقد فتح الله ﷻ عليهم من أنواع الدعاء ما لم يفتحه لغيرهم، فكانوا يدعون في كافة أحوالهم ومقاماتهم، إذ إن الدعاء من المقامات العالية التي تنم عن مدى قرب الإنسان من ربه وثقته به، وصدق اللجوء إليه والاعتماد عليه، فالدعاء ينم عن اليقين الكامل والعبودية التامة.

دعوه في ظروف ظنّها الناس ضرباً من المستحيل، فهذا نبيّ الله زكريا ﷺ يسأل الله الذرية الطيبة وقد فارق جميع أسبابها قائلاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٨ - ٣٩]، وكذلك إبراهيم ﷺ قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: ١٠٠ - ١٠١].

ودعوه لكشف الضر والمكروه؛ عندما تقطعت بهم الأسباب إلا باب الله ﷻ، فهذا موسى ﷺ دعا ربه متضرعاً إليه وقد تقطعت به السبل وحيداً فريداً طريداً غريباً في أهل مدين قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، وأيوب ﷺ يسأله كشف الضر، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣].

ودعوه عند النوازل والخطوب؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنعَمْ

الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَخَيَّنَتْهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ [الصافات: ٧٥ - ٧٦].

ودعوه للقضاء على الطغاة؛ الذين يسوا من إيمانهم، واستشروى شرهم علي غيرهم، ﴿وَقَالَكَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَتَهُ وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨]، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح: ٢٦].

ودعوه ليهب لهم الملك، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٥].

ودعوه ليربهم مناسكهم؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨].  
وليهدبهم السبيل؛ قال موسى ﷺ: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢٢].

وليغفر لهم ذنوبهم؛ فنادى موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦]، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وليشرح صدورهم ويعينهم؛ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاجْعَلْ عُنُقَهُ مِنَ الْبَنَاتِ ﴿٢٧﴾ وَيَقْفُوهُ أَوْقَىٰ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٥ - ٢٩].

إنَّ دعاء الأنبياء ربهم كان ناشئاً عن قوة يقين، وعظيم ثقة وعلم بقدرة الله رب العالمين؛ وأنه ربُّ الأرباب ومسبب الأسباب، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، أمره بين الكاف والنون، إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون. فكانوا حال دعائهم، يعلمون أن الإجابة كائنة لا محالة؛ وإن كان مَنْ معهم قد يتزلزل من هَوْل الموقف وشدته، إلا أن الله ﷻ زوّد هذه الفئة الْمُصْطَفَاة باليقين التام والثقة الكاملة في الله ﷻ، وما كان ذلك إلا لتمام علمهم به ﷻ.

إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ ﷺ مَجَابُوا الدَّعْوَةَ، فَمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ دَعَاءٍ إِلَّا وَتَحَقَّقَتْ  
الإجابة ولو بعد حين، ولعل القارئ لها يجد في ختام كل دعاء منهم، مجيء  
الإجابة من الله ﷻ بقوله: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا﴾؛ فهي تنبئ عن الاستجابة على وجه  
السرعة لسبقها بحرف العطف (الفاء) الذي يفيد التعقيب، فما أن دَعَا ربهمْ  
إِلَّا وَاسْتَجَابَ لَهُمْ، قَالَ ﷻ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلٍ فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ فَعَجَبْتَ  
وَأَهْلَهُ مِنْ أَلْكَرِبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ [الأنبياء: ٧٦]، واستجاب نداء أيوب ﷻ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٦﴾ فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ  
فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا  
لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤]، واستجاب ﷻ لتضرع يونس ﷻ: ﴿وَذَا  
النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا  
أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَنَى وَكَذَلِكَ  
نُحْيِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨]، واستجاب لدعاء زكريا ﷻ: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَأَسْتَجِبْنَا  
لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يُحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَلُونَ فِي الْخَبْرَاتِ  
وَيَدْعُونَكَ رَعْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠]، وقد  
تحققت دعوات موسى وهارون ﷻ، قال الله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا  
فَأَسْتَجِبْنَا وَلَا نَبْعَانَ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ [يونس: ٨٩].

إننا نجد في حلاوة دعائهم، ولذة مناجاتهم، وتأدبهم في طلبهم وثقتهم  
في ربهمْ، ما يستجيش الإيمان، ويقوي اليقين بقدرة الله رب العالمين التي لا  
تدانيها قدرة، فهو على كل شيء قدير، وهذا يحثك إلى السير على هديهم  
وفتح أبواب الأمل لنا. لقد كان من الممكن أن يكفيهم الله ﷻ همَّ الدعاء،  
ويحقق لهم ما يريدون دونما سؤال وطلب وتضرع، ولكنها حكمته ﷻ في أن  
يكون هؤلاء الصفوة قدوة لغيرهم من الناس، وليسطر التاريخ أصداء دعائهم  
وتضرعهم إلى الله ﷻ، خالقهم وبارئهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، بيان لصفة  
الخشوع ومحله القلب: وهو قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل،  
والجمعية عليه، وقيل: إنه خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور

وإشراق نور التعظيم في القلب<sup>(١)</sup>.

غرس الله ﷻ في قلوبهم الخشوع؛ وهو المخافة الثابتة في قلوبهم الملازمة لهم. قال مجاهد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الخشوع هو الخوف اللازم في القلب»<sup>(٢)</sup>، وهو الذي يحملهم على الخضوع لربهم والانكسار له، فهم خاشعون لكمال معرفتهم بالله ﷻ، فلا أحد أكثر علماً بالله ﷻ منهم، ولما فُتِح لهم من علم الغيب، وما رأوه من أحوال الآخرة.

غُرس فيهم الخشوع بقدر، فكان الخوف بقدر دون إحباط أو تئيس، وبقدر ما يحتاجون للسير الحثيث؛ فالخائف من الشيء يهرب منه والخائف من الله ﷻ يفر إليه، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ ﴿٥٨﴾ [مريم: ٥٨].

قال سيد قطب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنهم أتقياء شديدو الحساسية بالله ﷻ، يرتعش وجدناهم حين تتلى عليهم آياته، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجداً وبكياً»<sup>(٣)</sup>.



(١) انظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (١/٥٥٨).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٥/٣٥٣).

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/٢٣١٤).

## التوبة والأوبة والإنابة (١)

قال ابن القيم رحمته الله: «من نزل في منزلة التوبة، وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام»<sup>(٢)</sup>، والأنبياء عليهم السلام معصومون من الإقرار على الذنوب، وهم بما أخبر الله صلى الله عليه وسلم عنهم من التوبة يرفع درجاتهم، ويعظم حسناتهم. وليست التوبة نقصاً، بل هي من أفضل الكمالات، والله صلى الله عليه وسلم قد أخبر عن عامة الأنبياء عليهم السلام بالتوبة والاستغفار.

والله صلى الله عليه وسلم يتلى العبد بما يتوب منه، ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع، والخشوع لله صلى الله عليه وسلم، والإنابة إليه، وكمال الحذر في المستقبل والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة. ومحمد صلى الله عليه وسلم إنما صار أفضل الخلق لكمال عبوديته لله، وكمال محبته له، وافتقاره إليه، وكمال توبته واستغفاره، قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةً مَرَّةً)<sup>(٣)</sup>.

ولقد تعالت أصواتهم تسأل الله المغفرة والتوبة منكسرة لربها معترفة

(١) التوبة والأوبة والإنابة متقاربة المعنى، فهي في جملتها تدور حول الرجوع والعودة، فالأوبة: هي الرجوع، من آب إلى الشيء؛ أي: رجوع، والأوبة: الرجوع، كالتوبة، والإنابة كذلك تعني: الرجوع إلى الله بالتوبة. انظر: لسان العرب لابن منظور (١/ ٢٥٧ - ٢٢٩).

(٢) تهذيب مدارج السالكين لعبد المنعم صالح العلي العزي ص ٢٣١.

(٣) صحيح مسلم (١٦٤٨/٤) حديث رقم ٢٧٠٢، وقوله صلى الله عليه وسلم (ليغان) الغين هو ما يتغشى القلب، أو الفترات عن الذكر للانشغال بمصالح الأمة، وما كان يحمله من همومها، فكان صلى الله عليه وسلم يعتبره ذنباً بالنسبة لعظيم منزلته، وإن كانت تلك الأمور من أعظم الطاعات، وأفضل الأعمال فهي نزول عن عالي درجته ورفيع مقامه. وقيل: الغين هنا هو السكينة التي تنزل عليه صلى الله عليه وسلم فيستغفر الله صلى الله عليه وسلم إظهاراً لمقام العبودية له صلى الله عليه وسلم، والافتقار إليه، فيكون استغفاره شكراً. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢٦/١٧).

بالخسران إن لم يغفر لها ويرحمها فهذا آدم وزوجه: ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، ونوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٧]، وقال الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال هو وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبِّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن دُورِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال موسى عليه السلام: ﴿أَنْتَ وَلِينَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وقال عليه السلام: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، والله تعالى يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ، وفي أواخر ما نزل على نبيه ﷺ قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١ - ٣]. وكان النبي ﷺ يقول: (اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقِّي الثَّوْبَ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ)<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: التفسير الكبير لابن تيمية (٣٨٤/٤)، والحديث في صحيح البخاري ص ١٤٩ حديث رقم ٧٤٤. قوله ﷺ: (باعد) المراد بالمباعدة محو ما حصل منها والعصمة عما سيأتي منها، وهو مجاز لأن حقيقة المباعدة إنما هي في الزمان والمكان، وموقع التشبيه أن التقاء المشرق والمغرب مستحيل، فكأنه أراد أن لا يبقى لها منه اقتراب بالكلية. وقوله ﷺ: (نقني) مجاز عن زوال الذنوب ومحو أثرها، ولما كان الدنس في الثوب الأبيض أظهر من غيره من الألوان وقع التشبيه به. وقوله ﷺ: (بالماء والثلج والبرد) قال الخطابي: ذكر الثلج والبرد تأكيد، أو لأنهما ماء ان لم تسهما الأيدي ولم يمتنهما الاستعمال. وأشار الطيبي إلى هذا بحثاً فقال: يمكن أن يكون المطلوب من ذكر الثلج والبرد بعد الماء شمول أنواع الرحمة والمغفرة بعد العفو لإطفاء حرارة عذاب النار التي هي في غاية الحرارة، ومنه قولهم: برّد الله مَضْجعه أي: رحمته ووقاه عذاب النار، وكأنه عليه الصلاة والسلام جعل الخطايا بمنزلة جهنم لكونها مسببة، فعبر عن إطفاء حرارتها بالغسل، وبالغ فيه باستعمال المبرّدات ترقياً عن الماء إلى أبرد منه. ثم هذا الدعاء صدر منه ﷺ على سبيل المبالغة في إظهار العبودية، وقيل: قوله على سبيل التعليم لأتمته، وفيه ما كان الصحابة عليه من المحافظة على تتبع أحوال النبي ﷺ في حركاته وسكناته وإسرااره =

لقد اختار الله ﷺ هذه الصفة لأنبيائه ﷺ وجبلهم عليها؛ لتطهير أنفسهم وجلاء قلوبهم فيبقى مستوى الصفاء المطلوب فيهم قائماً لا ينقص ولا يختل، وحتى يكونوا قدوة لمن حولهم.

والأوبة تكون بعد منزلة التوبة، فمتى استقرت القدم في التوبة، علت بعدها إلى الإنابة، وقد أثنى الله ﷻ بها على خليله حين قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥) [هود: ٧٥] (١)، وهي الرجوع إلى الله ﷻ في جميع الأمور، بالإنابة والحُبِّ والتأله، والخوف والرجاء وكثرة التضرُّع، قال قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مُطِيعاً لله، كثير الصلاة، وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: الأواب هو المُسِيحُ (٢).

اصطفى الله ﷻ أنبياءه وحبَّهم على هذه الصفة، وهياً لهم وسائلها من صلاة ودعاء وتوبة وتضرُّع وسؤال، فهي العودة إلى الله ﷻ ربهم في كل شؤونهم، أوبة تتلوها أخرى على اختلاف أسبابها، لا تنقطع ولا تفتت، ولا يمكنهم السير بدونها، فهم يستندون إلى الله ﷻ القوي المعين الذي يمدهم بكل ما يحتاجونه من المَدَدِ المادي والمعنوي للقيام بشؤون الدعوة، ولما يحتاجونه كبشر.

وامتدح الله ﷻ بعض أنبيائه بهذه الصفة، منهم أيوب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي جمع له بين الصبر والأوبة إلى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. ولقد ضرب المثل بأوبة نبيِّ الله ﷻ داود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي أوبَّ لأوبته كل شيء من حوله: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٧) ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٩) [ص: ١٧ - ١٩]، وعن سليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نَعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٠) [ص: ٣٠].



= وإعلانه حتى حفظ الله بهم الدين. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٢/٢٩٢، ٢٩٣).

(١) تهذيب مدارج السالكين لعبد المنعم صالح العلي العزي ص ٢٣١.

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/١٨٢).



## الصبر والنصر

إنَّ الصبر زاد الأنبياء وهو طابعهم جميعاً، كلُّ حسب درجته في سلم الابتلاء فلقد امتحنوا في ذات الله بصنوف المحن والتي لم تزدهم إلا حبا لله وتصميماً وعزماً، قال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْرِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرَزُوا مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَّغُ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٥﴾ [الأحقاف: ٣٥] ، وأمر الله رسوله ﷺ أن يلزم الصبر في سائر أحواله، ولا ينفك عنه حتى يحكم الله ﷻ قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٣٦﴾ [يونس: ١٠٩] ، وأمر الله ﷻ رسوله بالصبر الجميل، قال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ [المعارج: ٥] ، وبين له ثواب الصابرين المتقين، وأنَّ أجر الصبر محفوظٌ عنده ﷻ، وأن الصابر من المحسنين البالغين أعلى مراتب الدين، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ [هود: ١١٥] ، وبين له أنه لا يعين على الصبر إلا الله ﷻ وحده، فهو الذي يقوي النفوس، وهو الذي يُزودها بالصبر، وهو وحده الذي يربط على القلوب، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴿١٢٧﴾ [النحل: ١٢٧] .

وأعلم الله ﷻ نبيه ﷺ أنَّ المعين على الصبر وتجرع ألمه ومرارته هو الإكثار من الاتصال بالله ﷻ، وذلك بذكره الدائم الذي لا يفتر عنه الإنسان أبداً، قال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ [طه: ١٣٠] .

وقال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ [ق: ٣٩] وبين الله ﷻ لحبيبه وصفيه أنه في عينه، فمن يملك أن يضربه أو أن يصيبه بما يكره وهو في حفظ الله ﷻ؟ قال ﷻ: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ [الطور: ٤٨] .

وأمر الله رسوله ﷺ أن يتحلّى بالصبر ليصل إلى مطلبه وهدفه وغايته، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُتُوذِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٨٨﴾﴾ [القلم: ٤٨] ، فهو إنما يصبر لله وحده القادر على احتوائه وإمداده بكل المعينات على ذلك قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [المدثر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْرُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْنَهُمْ إِنَّهُمْ كَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الإنسان: ٢٤] .

وقد امتدح الله ﷻ بعض أنبيائه خاصّة بهذه الصفة لبروزها لديهم، قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤]؛ أي: علمناه صابراً، وقيل: جعلناه صابراً، ويدل هذا المعنى على أنه هو الذي صبرك وإن لم تكن تصبر<sup>(١)</sup>، فامتدح أيوب ﷺ بأنه نعم العبد الذي كمل مراتب العبودية، في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء، فهو كثير الرجوع إلى الله ﷻ في مطالبه الدنيوية والدنيوية، كثير الذكر لربه والدعاء والمحبة<sup>(٢)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥]، أما عن إسماعيل ﷺ فقد صبر في أشدّ المواقف التي تعرض إليها وهي الذبح، قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَاءِ نَارًا أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَكْتَابُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الصفوات: ١٠٢]، ومن أعظم الصابرين يعقوب ﷺ الصابرين على فراق ابنه قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَأَلْتُمْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا فَصَبِرُوا جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف: ٨٣]، ويوسف ﷺ، الذي فارق الأب منذ الصغر حتى بلغه الله ﷻ بصبره مراتب الأنبياء، فإنما نال ما نال بصبره. قال تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِيْنَا لَأَنَّا نَبْنِيَّاتٍ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

إنّ من سنن الله الثابتة التي لا تتغير أن العاقبة الحسنة والفوز والنصر هو ثواب الصابرين المتقين. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [إنتهم

(١) روح البيان للبروسوي (١٧/٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٤٢٩/٦).

لَهُمُ النَّصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ [الصف: ١٧١ - ١٧٣]، فقد سبق القول من الله ﷻ لرسله ﷺ بأنهم هم المنصورون مهما دارت الدوائر واشتدت المحن، وطال الضيق، وبطؤ الفرج، فالسنة القائمة والتي مضى بها القضاء والحكم في أم الكتاب، أن لهم النصرة والغلبة<sup>(١)</sup>.

وهذه الصفة التي جعلها الله ﷻ لهم، مرتبطة باضطفائهم، إذ اضطفاهم ﷻ لتبليغ دينه، وهو ﷻ - لا محالة - ناصرهم ومؤيدهم، فهي قوة دافعة لأصحاب الرسالات، فالحق منصور لا محالة؛ لأنها سنن لا تتبدل وحقائق لا تتغير.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨]، ولقد كتب الله ﷻ أن الغلبة له ﷻ ولرسله، قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ٢١]، فكل الآيات تقرّر حقيقة أزلية ثابتة كتبها الله ﷻ وسبقت بها كلمته، أن رسله هم الغالبون، وأن الحق الذي يحملونه هو المنصور بإذنه وبمشيئته وقدرته.

هذا الاختصاص من الله ﷻ لأنبيائه ﷺ له من الحكم والفوائد ما يحتاج إلى فهمه المسلمون المكلفون بالقيام بدور القيادة، فالتأكد من أن الله ﷻ ناصر رسله ودينه - لا محال - يذهب اليأس من النفوس، فهم رسل الله ﷻ وما كان لليأس أن يجد إلى قلوبهم سبيلاً، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَطَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠] فاليأس في الآية عائد إلى أتباع الرسل وليس إليهم، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: لَمْ تَكُنْ الرُّسُلُ تَنْظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا، هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ، وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ وَاسْتَأْخَرَ النَّصْرُ<sup>(٢)</sup>. كما أنه يبين أن للنصر صوراً كثيرة، قد لا يدركها كثير من الناس ولا يشهدون حدوثها، ولكنه نتيجة محتمة كتبها الله ﷻ، وسنة من سننه التي لا تتغير ولا تبدل، وهي تعوّد الداعية الصبر والأدب مع الله ﷻ والسير مع إرادته وحكمته، وتجعله متجرداً لربه ولدعوته لا يعمل ليُنصر، ولكن لينتصر الحق به أو بغيره.

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/١٣٦).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٣٨٩.

## أولو العزم

إن القارئ لقصص جميع الأنبياء ﷺ يجد أنهم أصحاب عزم عالٍ وكبير، ويتضح ذلك في مجاهدتهم لأقوامهم حتى النهاية، فلم يُعلم أن أحداً منهم قد تخلى عن دوره المكلف به - معاذ الله - وإنما استمروا جميعاً حتى النهاية إما بهلاك أقوامهم أو بموتهم، فلقد دعا نوح ﷺ قومه دون عجز أو ملل أو كلل، حتى قال له الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا نُوحَ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، وهذا سارٍ في جميع الأنبياء فكُلُّهم كلف من الله ﷻ تكليفاً عظيماً، وجميعهم قاموا بذلك التكليف على الوجه الأكمل، ولا يستطيع أحدٌ أن يعيب في واحد منهم البتة، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

ويقصد بالعزم: النية المحققة على العمل أو القول دون تردُّد<sup>(١)</sup>. ومن المعلوم أن المهمة التي كلف الله ﷻ بها أنبياءه ﷺ تحتاج إلى أن يكون صاحبها ذا عزيمة كبيرة، وهمة عالية، لتكون دافعه وزاده ومحركه للقيام بدوره المُناط به، وهي حالةٌ تمتزج بكلِّ جوانب الإنسان النفسية والعقلية والجسمية والروحية، فتملأ كل جوانبها لتنتقل حركاتها وانفعالاتها وسكناتها وأقوالها وأفعالها من ذلك العزم المتوهِّج لأداء تلك المهمة.

وجميع الأنبياء الذين اصطفاهم الله ﷻ هم أصحاب عزمٍ وحزم. فلم يبعث الله ﷻ نبياً إلا كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال عقل، قال ابن زيد: لم يتخذ الله رسولاً إلا كان ذا عزم وحزم<sup>(٢)</sup>.

وذكر هذا الوصف في القرآن مقترناً ببعضهم دون بعض بما أجراه الله ﷻ

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٦٦/٢٦).

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (٤٩/١٣).

عليهم من صنوف المحن، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ  
وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ فَهَلْ يُهْلَكُ  
إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ [الأحاف: ٣٥]، وأسماؤهم كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما  
وقتادة رضي الله عنهما: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم،  
أصحاب الشرائع<sup>(١)</sup>. فذلك إنما هو تعظيم لهم وأنهم مروا بأحوال ومقامات،  
وواجهوا مواقف وأقواماً وأوضاعاً، كانت أكثر قوة وأكثر صعوبة وخطورة من  
غيرهم، فحُصِّوا بذلك.




---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٧/٢٧١).

## أولو الأيدي والأبصار

يُقصد بالأيدي: القوة والصلابة، قال ابن فارس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الهمزة والياء والذال أصل واحد يدل على القوة والحفظ<sup>(١)</sup>.

لقد وهب الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنبياءه القوة في إدراك الحق والقوة على تنفيذه؛ لأنَّ العقيدة التي تسلَّموها أمانة، ولا تسلم إلا للأمناء الأقوياء القادرين عليها، المُستعدين لتكاليفها الشاقة. وقد امتدح الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنبياءه في كتابه الكريم، ووصفهم بأنهم أصحاب القوى على تنفيذ أمره، وأصحاب البصائر في دينه، والقيام بعبادته، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أولي القوة والعبادة والفقهاء في الدين، وعن قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أعطوا قوة في العبادة، وبصراً في الدين<sup>(٢)</sup>.

ولما كان ذلك من متطلبات الرسالة، طلب الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منهم القوة في الأخذ بالرسالة، فكانوا أقوياء في تبليغها وتحمل تبعاتها، أقوياء فيما يمر بهم من فتن وبلاء، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَبِيحُنَى خُدَى الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَمَأْتِينَهُ الْخُكْمَ صَيِّبًا ﴿١٧﴾ [مريم: ١٢]. وقد وصف الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذين اصطفاهم بالنبوة بهذه الصفة، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ [ص: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ [ص: ١٧]، عن قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أعطي قوة في العبادة، وفتحاً في الإسلام<sup>(٣)</sup>.

- (١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ص ٩٨.
- (٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٠٢/١٢).
- (٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦٢/١٢).

وليس في تخصيص بعض الأنبياء بهذه الصفة إسقاطها عن غيرهم، وإنما بلغ فيها المذكورون مبلغاً كبيراً، ومرت بهم مواقف معينة أظهرت فيهم تلك الجوانب على غيرها. فالله ﷻ عندما وصف أنبياءه ﷺ بأنهم أقوياء، وأطلق ﷻ هذا الوصف دون حَضْره، دَل ذلك على أن قوتهم ﷻ شاملة لكافة الأمور؛ فهم أقوياء في الأخذ بالشرع وتبليغه، أقوياء في العقيدة وما ينطلق منها من أنواع العبادات والمعاملات، أقوياء في مواجهة المحن والمواقف الصعبة، أقوياء في أبدانهم وأفعالهم وأقوالهم، هكذا أَوْجَدَهُم اللهُ ﷻ؛ لأن القوة من متطلبات النبوة والرسالة، كما وصفهم اللهُ ﷻ بقوة الإبصار، فهم يُبصرون الحقائق وما ذاك إلا لأنهم مُتَّصِلُونَ بالله ﷻ، فأكسبهم ذلك قوة في الفهم، والعلم والإدراك لكل ما حولهم، قال ابن عطية: «يبصرون الحقائق وينظرون بنور الله»<sup>(١)</sup>.



---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٥٠٩/٤).

## أصحاب الذكر الجميل

من سنة الله ﷻ في عباده الذين يختارهم للنبوّة أن يكونوا أصحاب ذكر حسن قبل النبوّة، ليُقبل منهم ما جاؤوا به ولا يُعاب عليهم شيء من سلوكهم قبل ذلك فيكون سبباً في عدم الإيمان بما يدعوهم إليه، لذا فإن الأقوام كانت تلوم رسلها على ما تدعوهم إليه، وهم أصحاب الذكر الحسن قبل ذلك، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَدْعُعَيْبُ أَصْلَوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ [هود: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ [هود: ٦٢].

ويظهر من ذلك أن أنبياء الله ﷻ، الذين أكرمهم باصطفائه، وامتنن عليهم بفضله، وأنزل عليهم كتبه لا يُذكرون إلا بالخير والثناء الحسن، فمن نسب إليهم ما يشين سيرتهم العطرة فقد كفر بهم؛ لأن واقعهم ﷺ الذي ذكره الله ﷻ في أصح كتبه المنزلة، والمصانة عن التحريف والتبديل، لا تجد فيه إلا المدح والثناء والرفعة لهذه الفئة من الناس، فكلهم ﷺ لا يذكرون إلا بالخير والثناء الجميل، وهذا شيء قد أخلصوا به فلا يذكر غيرهم في الدنيا بمثل ما يذكرون به من الخير.

ولقد أبقى الله ﷻ ذكرهم بما قصّه علينا من قصصهم وبما أخبرنا به من أخبارهم، فبعد أن ذكر الله ﷻ قصصهم قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّا لِلْمُؤْمِنِينَ لِحُسْنِ مَنَاقِبِ ﴿٤٩﴾ [ص: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿هَذَا﴾ أي: أن ما تقدم من محاسنهم هو ذكر لهم، وشرف عظيم يُذكرون به أبداً، ويكفيهم ﷺ شرفاً ورفعة أنهم مُضافون دائماً إلى الله ﷻ، فلا يقال إلا أنبياء الله، ورسول الله، وهذه الإضافة كافية لجعلهم أهل ذكر حسن على مر الدهور وتعاقب الأزمان.



ولقد حرص أنبياء الله ﷺ على أن يكون لهم الذكر الحسن الملائم عند من بعدهم ليقتدى بهم، فها هو خليل الله إبراهيم ﷺ دعا الله ﷻ بقوله: ﴿وَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ [الشعراء: ٨٤]، فأبقى الله ﷻ عليه ثناء حسناً فيمن بعده إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾ [الصفات: ١٠٨]، عن قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخريين<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]، ولسان الصدق هو الثناء الحسن، والذكر الجميل، والقبول العام في الأمم، قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: لسان الصدق: الثناء الحسن<sup>(٢)</sup>، وقال ابن عطية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هو الثناء، وخلد المكانة بإجماع المفسرين<sup>(٣)</sup>. ولقد خلد الله ذكره ﷺ وذكر آله إلى قيام الساعة، فمن دخل البيت العتيق ورأى آثار البناء، وسمع صدى الدعاء، وكلما نظر بين جنبات مكة ونواحيها، وارتوى بماء زمزم فذكر إبراهيم ﷺ يمرُّ بخاطره. ويتجدد ذكره ﷺ في كل صلاة، عن عبد الرَّحْمَنِ ابن أَبِي لَيْلَى، قَالَ: لَقِيتُنِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ<sup>(٤)</sup>، فَقَالَ: أَلَا أَهْدِي لَكَ هَدِيَّةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، فَأَهْدِهَا لِي، فَقَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كَيْفَ الصَّلَاةِ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ؟ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ، قَالَ: (قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)<sup>(٥)</sup>، وهو كقوله

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٠٦/١٢).

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (١١٧/٩).

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٢٣٥/٤).

(٤) هو كعب بن عجرة الأنصاري السالمي المدني، من أهل بيعة الرضوان له عدة أحاديث، حدّث بالكوفة وبالبصرة مات سنة اثنتين وخمسين. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١٨١/٤)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٢/٣).

(٥) صحيح البخاري حديث رقم (٣٣٧٠). والصلاة من الله ﷻ على أنبيائه هي تعظيمهم، والثناء عليهم عند ملائكته، وآل إبراهيم ﷺ هم ذريته من إسماعيل وإسحاق المسلمون المتقون منهم، فيدخل فيهم الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصالحون دون من عداهم. وسؤال البركة معناه الزيادة من الخير والكرامة، =

تعالى: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَرَكَنُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].  
ولقد أكرم الله ﷺ محمداً ﷺ بذلك فضلاً منه ورحمة ومنة، قال تعالى:  
﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، وكفاه ﷺ مكانة ومنزلة أن ذكره يقترن  
بذكر الله ﷻ، فهو صفوة الأنبياء وسيد المرسلين، وذلك فضل الله يؤتيه من  
يشاء من عباده.



---

= والتطهير من العيوب والتزكية. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر  
(١١/١٨٧) وما بعدها باختصار.

## المسارعة في الخيرات

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

إنَّ المسارعة في طاعة الله ﷻ من أكبر ما يمدح به المرء؛ لأنها لا تُنتج إلا عن قلب يقظ وهمة عالية ورغبة أكيدة لإرضاء محبوبه. والسرعة كلمة تبين حال من يقوم بالفعل، والمسارعة مستعارة للحرص وصرف الهمة تجاه الهدف المطلوب، والخيرات كلمة واسعة مرنة تفيد العموم، ويندرج تحتها كل أنواع الخير وأشكاله ومجالاته. والآية من البيان والدقة في بيان حال الصفوة المُختارين. فقد سبقت بأنَّ التوكيدية، وذكر بفعل الكون الدال على أنهم كذلك منذ الأزل، وأنَّ هذا دأبهم وهجَّيراهم وما اعتادوا عليه، فهم كائنون كذلك في علم الله ﷻ، وهم ثابتون على ذلك ملازمون له. والفعل المضارع ﴿يُسْرِعُونَ﴾ أفاد معنى الاستمرار والمداومة، فهم في مقدمة الصراط المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، بمسارعتهم التي لا ينالها أحد، إنهم يبادرون في وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير؛ وهذا هو السر في إيثار كلمة (في) على كلمة (إلى) المُشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أهل الخيرات متوجَّهين إليها<sup>(١)</sup>.

إنَّ السبق إلى الخيرات في كافة مجالاتها هو حال الصفوة المختارة للرسالة فلا يمكن أن يسبقهم إليها أحد - بخلاف غيرهم من الدعاة إلى الله - إذ إنهم هم الداعون إلى الله ﷻ، وهم الأدلاء عليه، وهم المُتَّوجون قمة هرم الصفوة المُنعم عليهم من العباد، فهذا هو مكانهم الذي اصطفاهم الله له،

(١) انظر: تفسير أبو السعود (٨٣/٦)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٥/١٧)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٢٥٩/٥).

ورقاهم إليه، وأكرمهم به فمهما عمل غيرهم من المسارعة فلن يبلغ مرتبتهم بحال من الأحوال لأنها إرادة الله ﷻ ومشيئته التي اختارت الخيرة من العباد لهذا المكان وصنفتهم حسب مراتبهم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وعليه فهم الأسبق والأسرع في الخيرات على الإطلاق، وكل من سار بهديهم زاد في قدرهم ورفعتهم فهم المعلمون والمرشدون والسائون لغيرهم أوجه الخيرات، عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم.



## الأمانة والفيضانة

اتصف جميع الأنبياء ﷺ بصفة الأمانة؛ وهي من لوازم النبوة وأساسها فهم أمانة فيما بلغهم عن الله ﷻ، أمانة على الوحي المنزل عليهم، أمانة في تبليغه، يبلغون أمر الله ﷻ ونهيه دون زيادة أو نقصان، ودون تحريف أو تبديل، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَخَشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقال ﷺ: ﴿وَإِذَا تُلِّيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتِ بَشْرٌ مِثْلَ بَشَرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُنذِرَكُم مِّن تَلْفَاةٍ تَأْتِيَنَّهُمْ إِنِ اتَّبَعُوا إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

وهم أمانة على أقوامهم، يجاهدون في هدايتهم أكمل المجاهدة وأتمها، وأمانة في إقامة الشرع بالصورة التي أَرادها الله ﷻ، وعلى الجميع كائناً من كان.

إنَّ الله ﷻ اصطفاهم بهذه الصفة لأنها إذا تحققت فيهم كانت سبباً لثقة أقوامهم فيهم، وفيما جاءوا به من عند الله ﷻ، ومن ثمَّ سيحملهم ذلك على الإيمان به وتصديقه، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَلَا تَأْمُنُونِي؟ وَأَنَا أَمِينٌ مِّن فِى السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبْرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً)<sup>(١)</sup>. إنها صفة معينة لهم للتبليغ، ولأقوامهم على التصديق؛ ولذلك كان كلُّ منهم يثبت هذه الصفة لنفسه، وهو يبلغ قومه، ومن ثمَّ يطلب منهم بعد ذلك أن يتقوا الله ﷻ ويطيعوه، فعن نوح ﷺ قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٥٥] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوتُ ﴿١٥٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٥٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْمَلَمِينَ ﴿١٥٩﴾ [الشعراء: ١٥٥ - ١٥٩]،

(١) صحيح مسلم (٦١٠/٢) حديث رقم ١٠٦٤.

وكذلك قال هود وصالح ولوط وشعيب وموسى ﷺ<sup>(١)</sup> فهذه هي الصفة التي اشتهر بها أنبياء الله ﷺ، وهي الصفة المطلوبة للقيام بالمهمات.

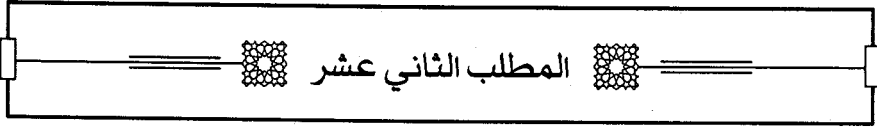
كما أنَّ الذكاء والنباهة من الصفات التي يحتاج إليها الأنبياء لأنَّ حمل رسالة دعوية، ومهمة تربية للناس، وقيادة سياسية، لا بد أن يرافقها في حاملها صفة الاستعداد لحمل هذه الرسالة، فيها يعرف ما يلقي إليه من الوحي، ويحفظه ولا ينساه، ويبلغه كما أوحى به إليه، ويعالج أمته بالتربية الحكيمة، والقيادة السليمة، ووفق طبائعهم وأخلاقهم<sup>(٢)</sup>.

وجبل الله ﷻ كلَّ من اصطفاهم على الذكاء والنباهة، وآتاهم العقول الراجحة، والذكاء الفذَّ، واللسان المبين، والبديهة الحاضرة فبلغوا من الرشد والفهم، وقوة الحجَّة أعلاه، ولم يتجاوز أحدٌ درجتهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١]، آتاهم ذلك ليتمكنوا من إقامة الحجَّة على أقوامهم، فيبلغوا بذلك شرعه، وهم في جانب القوة والصواب، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَبِرُ وَأُمِّيَّتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَاِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالْحَقِّ مِن الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].



(١) انظر: الآيات: [الشعراء: ١٢٥ - ١٤٣ - ١٦٢ - ١٧٨]، [الأعراف: ٦٨]، [الدخان: ١٨]، [القصص: ٢٦]

(٢) انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن الميداني ص ٣٣٤.



## الرجولة والبشريّة ومزاولة أعمال البشر

قال ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحَىٰ إِلَيْهِمْ فَتَلَوُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧) [الأنبياء: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (٨) [الأنبياء: ٨].

اصطفى الله ﷻ أنبياءه من البشر، واختارهم رجالاً دون النساء، يتلقون الوحي فيدعون به الناس، فكانوا يأكلون الطعام الذي هو من مقتضيات الجسديّة، ويعيشون حياة البشر، ولعلّ الحكمة في ذلك أن تكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم، وسلوكهم العملي نموذجاً حياً لما يدعون إليه الناس، فالكلمة الحية الواقعية هي التي تؤثر وتهدى؛ لأن الناس يرونها ممثلة في شخص مترجمة في حياته، ولو كان الرسل من غير البشر فلن يشعروا بدوافعهم التي تحركهم، ولما استطاع البشر التأسّي بهم<sup>(١)</sup>، عن عبد الله ﷺ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ خمساً، فلما انفتل توشوش القوم بينهم. فقال الرسول ﷺ: (مَا شَأْنُكُمْ؟! ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ زَيْدٌ فِي الصَّلَاةِ؟! قَالَ: (لَا). قَالُوا: فَإِنَّكَ قَدْ صَلَّيْتَ خَمْسًا، فَاِنْفَتَلْتَ، ثُمَّ سَجَدَ سَجَدَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنَسَى كَمَا تَنْسُونَ)<sup>(٢)</sup>.

ومع اشتراكهم مع غيرهم في صفة البشرية إلا أنهم حققوا الكمال

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/٢٣٦٨).

(٢) صحيح مسلم (١/٣٣٦)، حديث رقم ٥٧٢. قال النووي: وفي الحديث فوائد كثيرة، وقواعد مهمة منها: جواز النسيان في الأفعال والعبادات على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأنهم لا يقرون عليه. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٥/٧٢).

البشري في أرقى صورته، فكانوا أظهر البشر قلباً، وأزكاهم عقولاً وقريحة، وأكملهم أخلاقاً، ومعرفة وعبودية وإيماناً، وحتى في صورهم الخلقية كانوا أكمل البشر أجساماً وأجملهم صورة<sup>(١)</sup>، فلم يُبعث نبيّ إلا وهو مُبرأ من كل عاهة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِيْرًا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءٌ مِنْهُ، فَأَذَاهُ مَنْ أَذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسْتُرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ: إِمَّا بَرَصٌ، وَإِمَّا أُذْرَةٌ، وَإِمَّا آفَةٌ. وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ، وَطَلَبَ الْحَجَرَ. فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجْرٌ، ثَوْبِي حَجْرٌ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُريَانًا) فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا ﴿١٦٦﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩] <sup>(٢)</sup>. قال ابن حجر يرحمه الله: «وفيه أن الأنبياء في خلقهم وخلقهم على غاية الكمال» <sup>(٣)</sup>.

كما اقتضت حكمة الله ﷻ في أنبيائه أن يكونوا بشرأ، يعيشون حياتهم ويمارسونها كغيرهم، فهم أقوياء، يعتمدون على أنفسهم، ويأكلون من عمل أيديهم، فلم يجعل الله ﷻ النبوة سبب تكسبهم، بل هي عمل خالص لله ﷻ لا يخالطه أدنى كدر، فلا هم يتكسبون منها، ولا لورثتهم منهم مالاً، فعن نوح ﷺ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٦٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشعراء: ١٠٦ - ١٠٩]، وقالها هود وصالح ولوط وشعيب ﷺ، وفي قولهم جميعاً: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٧﴾﴾، بيان إلى أن الرسالة أمانة في أعناق الأمانة الذين يؤدونها حقَّ الأداء، والذين لا يرجون منها أدنى أجر؛ فالأجر الذي ينتظرونه من ربِّ العالمين وحده.

(١) انظر: كتاب فهداهم اقتده، تأليف عبد العزيز الخليل ص ٢٩.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٣٤٠٤.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٥٤١).



إنَّ الحرفة التي اختارها الله ﷺ لجميع أنبيائه ﷺ، هي حرفة رعي الغنم، فما من نبيٍّ إلا وقد رَعَاها، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ نجني الكباش، فقال ﷺ: (عَلَيْكُمْ بِالْأَسْوَدِ مِنْهُ فَإِنَّهُ أَطْيَبُهُ). قَالُوا: أَكُنْتَ تَرَعَى الْغَنَمَ؟ قَالَ ﷺ: (وَهَلْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَاها؟) <sup>(١)</sup>. قال ابن حجر يرحمه الله: «والذي قاله الأئمة أَنَّ الحكمة في رعاية الأنبياء للغنم ليأخذوا أنفسهم بالتواضع، وتعتاد قلوبهم بالخلوة، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم» <sup>(٢)</sup>. وكان لذلك مقاصد عظيمة وفوائد جلية، فهي تعلم الراعي اليقظة؛ وذلك لأن الغنم كثيرة الجري، سريعة الحركة، شديدة النفور، فإذا غفل عنها راعيها تفلّنت منه، وصُعب عليه جَمْعُها وردّها إلى مرعاها. كما يتعلم الراعي الحرص على الرعية؛ فالراعي يتفقد غنمه ويجمعها كلما تفرقت، وإن شدّت واحدة ردّها إلى الجماعة، فهو لا يهدأ له بال ولا تغمض له عين ما دامت غنمه تَسْرَحُ هنا وهناك، ليدفع عنها كل مُعْتَدٍ، ويحفظها من التعرض للمهالك حتى يعود بها سالمة، وتجعل الراعي حسن السياسة؛ لأن رعي الغنم يحتاج إلى سَعَةِ الصدر، وحُسن الحيلة، وطول البال. ومن حسن السياسة أن يرتاد بها المراعي الخصبة، وألا يدع واحدة منها ترجع دون أن تأخذ كفايتها من الرعي. كما أن الرعي يكسب الراعي صفة الأمانة؛ فهي تجعل الراعي يقظاً أميناً يؤدي الأمانة كما استلمها دون أن يضيع الفائدة على صاحبها <sup>(٣)</sup>.

إن الإنسان إذا استرعى الغنم - وهي أضعف البهيم - سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفاً، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان بما هُذَّب أولاً من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي، فيكون في أعدل الأحوال <sup>(٤)</sup>.

وكما أن الرعي يفيد الراعي في التأمل، فيزداد إيمانه بالله ﷻ، ويقينه أن لهذا الكون الرحيب خالقاً، فيزيد تأمله هذا صفاء روحه وقوة إيمانه، كما أنه يقلل من خلطته بالناس فلا يتأثر بما لديهم من أخطاء، وتبعده عن البيئات

(١) صحيح البخاري ص ٦٩٩، حديث رقم ٣٤٠٦، والكبش هو ثمر الأراك.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٥٤٣/٦).

(٣) انظر: تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ص ١٧ - ١٨ باختصار.

(٤) انظر: نور اليقين للخضري بك ص ٢٧.

الموبوءة لفترات طويلة، كل ذلك يعمل على تخلية أنفسهم من كل كدر وتحليتها بكل خير.

إن راعي الغنم يجد في فسحة الجو الطلق أثناء النهار، وفي تالأؤ النجوم إذا جنَّ الليل موضعاً لتفكيره وتأمله يسبح منه في هذه العوالم يتغني أن يرى ما وراءها، ويلتمس في مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وخلقهِ<sup>(١)</sup>.

ومن الأنبياء الذين عملوا بأعمال البشر داود عليه السلام، فقد كان حداداً، وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُم مِّنْ بِأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].



---

(١) انظر: حياة محمد عليه السلام لحسين هيكل ص ١١٩.

## من أهل القرى وبلسان قومهم

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩].

قال الحسن رضي الله عنه: لم يبعث الله ﷺ رسولا قط من أهل البادية، ولا من النساء ولا من الجن<sup>(١)</sup>، فاصطفى الله ﷺ أنبياءه من أهل القرى، وهو العليم بمحال اختياره؛ من الأشخاص، والمكان الذي يختار منه النبي، أو الزمان الذي يختار فيه، قال ﷺ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

اختار الله ﷺ لعباده الأخيار، الذين يدعونهم بلين، ويقودونهم بصبر، ويسوسونهم برقة وعناية ورأفة فلا ينفرون منهم، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ الْوَعْدَ لَكُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فتجلت معاني رحمته الواسعة بخلقه في اختياره أنبياءه ﷺ من أهل القرى دون أهل البادية؛ لأن طبيعة البادية الخشونة والقوة، وذلك لطبيعة الظروف التي يعيشونها، ولو لم يُجبلوا على ذلك لصعب عليهم العيش فيها، قال قتادة رضي الله عنه: لأنهم كانوا أحلم من أهل العمود<sup>(٢)</sup>، وقال ابن زيد رضي الله عنه: أهل القرى أعلم وأحلم من أهل العمود، فإنهم قليل نبلهم، ولم ينشئ الله ﷺ فيهم رسولا قط<sup>(٣)</sup>. فالداعية كلما كان أرق قلباً، وألين جانباً كان له القبول لدى الناس، فالدعوة تحتاج إلى الرقة والرحمة بالمدعوين في دعوتهم وقيادتهم.

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٢٨٦/٣).

(٢) جامع البيان لابن جرير للطبري (١٠٥/٨).

(٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٢٨٦/٣).

كما يحتاج الداعي أن يكون متحدثاً بلسانهم ليبيّن لهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٤٤]. [إبراهيم: ٤٤].

والآية بيان في أنّ الله ﷻ لا يضطفي رُسُلَه إلا بلسان أقوامهم، وهذا قريبٌ من المعجزات التي كان الله ﷻ لا يختارها إلا بما يبرع فيه المرسل إليهم؛ ليتأكد التحدي، ويثبت العجز.

فالله ﷻ بعلمه التام، وحكمته البالغة، أرسل الرسل باللسنة أقوامهم التي يعونها فلم يكلفهم عناء البحث والتحري للفهم، وهذا من باب رحمته بهم وعلمه بضعفهم، كما في ذلك تسهيل المهمة على أنبيائه في بيان شرعه، فالحكمة بيّنتها الآية في قوله ﷻ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، ولا يكون البيان والوضوح إلا بما يفهمه الإنسان ويعيه، وحتى لا يجد الناس حجة في ذلك فيعترضون على عدم الفهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُضِّلَ إِلَيْنَا أَأَعْجَبٌ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [٤٤]. [فصلت: ٤٤].



## الفصل الثاني

# اصطفاء الله ﷺ لرسوله محمداً ﷺ وما خصّه به من خصائص

ويشتمل على مبحثين:  
المبحث الأول: التهيئة والإعداد التي أولاها الله ﷺ لرسوله محمد ﷺ.  
المبحث الثاني: خصائص الرسول ﷺ في الدنيا والآخرة.





## المبحث الأول



# التهيئة والإعداد التي أولاها الله ﷺ لرسوله محمداً ﷺ

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

### المطلب الأول:

المرحلة الأولى: ولقد برزت في الأمور التي تمَّ إعدادها وتهيئتها للمصطفى محمد ﷺ قبل ولادته، وذلك باختيار أمور ليس للإنسان الخيرة فيها، وإنما أمرها الله ﷻ، كاختيار المكان الذي وُلد وبعث فيه الرسول ﷺ، والجنس والقبيلة التي سينتمي إليها، والنسب الذي سينسب إليه، والأسماء التي سيدعى بها ليكون محمد ﷺ رسول البشرية وخاتم الأنبياء، وستحدث في هذه المرحلة عن:

- ١ - اختيار المكان.
- ٢ - اختيار الزمان.
- ٣ - اختيار الفرقة.
- ٤ - اختيار القبيلة.
- ٥ - اختيار النسب.
- ٦ - اختيار الأسماء.

### المطلب الثاني:

المرحلة الثانية: من الولادة وحتى البعثة: وهذه الفترة مكثت قرابة الأربعين عاماً انتقل فيها المصطفى ﷺ من إعداد لآخر، وعاش فيها بإرادة الله ﷻ في أحوال ومقامات مقدره؛ إلى أن بعث بالهيئة التي أَرادها الله ﷻ، نذكر منها على سبيل المثال:

- ١ - اختيار اليتيم.

- ٢ - شق صدره الشريف .
- ٣ - اشتغاله في أعمال عديدة كرعي الغنم والتجارة .
- ٤ - اشتراكه في أحداث مهمة مع قومه .
- ٥ - توجيهه للخلاوة وتحبيبها له .
- ٦ - الرؤيا الصادقة التي لم يكن يراها الرسول ﷺ إلا جاءت مثل فلق الصبح .

### المطلب الثالث :

المرحلة الثالثة : وكانت بعد المبعث وحتى الوفاة : وكان ذلك لتهيئة الرسول ﷺ لقيادة البشرية جمعاء ، وأن تكون رسالته هي الباقية الخاتمة ، وليتمكن من القيام بالمهمة العظيمة التي أسندها الله ﷻ إليه وما تطلب ذلك من تسخير الكثير من الأمور نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

- ١ - الأصحاب الذين تحمّلوا الكثير لمُساندة الرسول ﷺ في قيامه بالدعوة .

- ٢ - الزوجات أمهات المؤمنين واللاتي كُنَّ السند الأول للرسول ﷺ .





## توطئة (١)

إنَّ محمداً ﷺ هو الشخصية الفريدة في تاريخ البشرية أجمع، لم تلد الأرحام مثله، ولم تقل الأرض يده، ولم تُظَلَّ السماء كشخصه، عظيم في خلقه وخلقته، سراج منير، ورحمة مهداة للعالمين، إمام الأنبياء، وسيد الأتقياء، فريد في خصائصه.

اصطفاه الله ﷻ على جميع أنبيائه ﷺ، فكان هذا من عظيم فضله، وواسع منته، فالله ﷻ بيده الملك كله، والخير إليه وبين يديه، وهو على كل شيء قدير، يُؤتي مَلَكُهُ من يشاء، ويصطفي من عباده من يريد، يرفع أقواماً ويضع آخرين، قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله حوّل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى الثقلين الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصّه بخصائص لم يُعْطِها نبيٌّ من الأنبياء، ولا رسولٌ من الرسل، في

(١) تم الاعتماد بشكل كبير في هذا الفصل على كتب السنن والسِّيَر، مع أنَّ البحث خاص بالقرآن الكريم، وذلك لطبيعة هذا الفصل؛ إذ لا يمكن بيان ما اصطفى الله ﷻ به نبيه ﷺ إلا من خلال الأحاديث الصحيحة وكتب السيرة، وحيث أنَّ القرآن الكريم كتاب جامع مُجَمَّل، والسنة هي المفضَّلة والشارحة والمُبيِّنة له؛ فقد ألزمتني طبيعة البحث إلى ذلك، لبيان خصائص الرسول ﷺ، فكل ما اختاره الله ﷻ لا بد وأنه مختصٌّ بخصائص لا يشاركه فيها غيره، وهذا هو تعريف الاصطفاء، فهو اختيار وتخصيص. فكلما ذكرنا اختيار الله ﷻ لَزَمْنَا ذكر خصائصه والموجودة في كتب الحديث والسيرة، وهذا اضطرني كذلك للإطالة والبيان، لذا رأيت جمع أطراف الموضوع دون الإحالة إلى مراجعه؛ ليكون مادة جاهزة ومستوفاة في مكان واحد للتسهيل على القارئ ولتوضيح صورة الاصطفاء.

العلم بالله وشريعته وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه عن الحقائق الآخرة، ونشر أمته في الآفاق، في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان، والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل والنهار. ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلكِ تُؤْتِي الْمُلكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦] (١).

وظهرت آثار ذلك الاصطفاء في شمول رسالته وبقاء معجزته، وعلو خصائصه، وتمييز أمته، وعظيم مكانته في الدنيا والآخرة، فلقد تجاوزت مهماته حدود الزمان والمكان، وكما بيّنا سابقاً أن اصطفاء الأنبياء ﷺ اعتمد على عناصر أساسية، ذكرت في الفصل السابق، وكان للرسول محمد ﷺ المنزلة العليا منها. ولقد انتقى الله ﷻ الأنبياء ﷺ من بين البشر جميعاً، فكانوا هم صفوة الناس، ومن تلك الصفوة اصطفى الله ﷻ رسله ﷺ، ثم اختار الله ﷻ منهم أولو العزم ﷺ، فكانوا صفوة الصفوة، ثم اصطفى الله ﷻ من تلك الكوكبة الصافية رسوله وخليته محمداً ﷺ، فتوجّه ملك الصفاء، ورقاه قمته، وخصّه بأعلى منازل، فكان بإرادة الله ﷻ وعلمه هو المحمود المحمّد، النبي المصطفى، والرسول المُجتبى، والخليل المرتضى ﷺ، والله ﷻ أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يختار لها ﷻ بعلمه إلا من هم أهل لذلك.

إنّ الظروف التي اختارها الله ﷻ لرسوله محمد ﷺ، والتي ساهمت في صفّله وإخراجه بالطريقة التي يريدّها الله ﷻ أولاً، ولتناسب الدور الذي سيقوم به ثانياً، أتت بصورة لم يسبق لها مثيل، فمن كان في عين الله ﷻ يرعاه ويحفظه لا بد وأنه قد بلغ من العناية منتهاها.

كما خصّ الرسول ﷺ بخصائص عظيمة لم ينفرد بها عن بقية الناس فحسب، بل عن بقية الأنبياء والمرسلين، ولم تكن في الدنيا وحدها، بل حتى في جنة الخلود في ذلك المقام، وتلك المنزلة الرفيعة التي لم توجد إلا له ﷻ؛

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٢٩).

وإنما أردنا بيان ذلك، لنوضح أن اختيار محمد ﷺ كان متميزاً كما سيأتي بيانه، وأن ما حُصِّنَ به من خصائص كان مُميّزاً بها.

إنَّ نهاية الصَّفَاء والاضْطْفَاء قد تمثَّلت في شخص النبي ﷺ، وهذا ما دلت عليه الأحاديث، فالرسول ﷺ تمَّ اختياره وانتقاؤه على مراحل، في كلِّ مرحلة يزدادُ فيها الصفاء والنقاء، وذلك بقلة عدد من يُختار منهم، فما يفرق الخلق فريقين، إلا ويكون ﷺ في خيرهم<sup>(١)</sup>.

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)<sup>(٢)</sup>.

ثمَّ بعد تلك التصفية الدقيقة، تعهد الله ﷻ نبيه المصطفى، بأنواع من الرعاية والعناية، شملت كافة مراحل حياته، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٨﴾﴾ [الطور: ٤٨]؛ أي: في حفظنا وحمايتنا وبمرأى منا، نراك ونكلوك، وفيه بيان لمدى العناية والحفظ والله يعصمه من الناس. قال ابن عطية: «وهذه الآية ينبغي أن يقررها كل مؤمن في نفسه فإنها تفسح مضائق الدنيا»<sup>(٣)</sup>.

إن الحديث عما حظي به رسول البشرية محمد ﷺ من التهيئة والإعداد واسع اتساع الكون كله، له أبعاد ومحاور عظيمة، يصعب علينا حصرها، وما

(١) كما سيأتي في الأحاديث الواردة في اختيار الفرقة ص ٣٤٧.

(٢) صحيح مسلم (١٤٢٣/٤) حديث رقم ٢٢٧٦، وسنن الترمذي (٥٤٤/٥) حديث رقم ٣٦٠٥ وقال: حديث حسن صحيح.

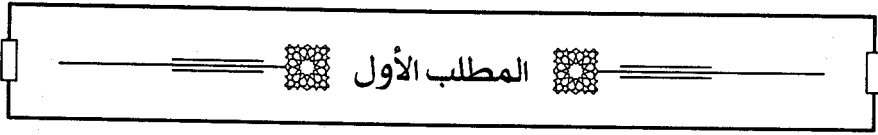
وقوله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى) أي: اختار، والصفوة من كل شيء خالصه وخياره. وقوله ﷺ: (من ولد إبراهيم) أي: من أولاده (واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة) بكسر الكاف ابن خزيمة، وقوله ﷺ: (واصطفى من بني كنانة قريشاً) وهم أولاد نضر بن كنانة كانوا تفرقوا في البلاد فجمعهم قصي بن كلاب في مكة فسموا قريشاً لأنه قرشهم، أي: جمعهم. ولكنانة ولد سوى النضر وهم لا يسمون قريشاً لأنهم لم يقرشوا. وقوله ﷺ: (واصطفاني من بني هاشم) هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. وانظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (٧٤/١٠، ٧٥).

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (١٩٤/٥).

يعرض ويكتب ما هو إلا وقوف على شاطئ بحر سيرته الذاخرة بالخيرات، لاستخراج كنوزه، ليغنى بها فقراء الإيمان، وضعفاء العقيدة من أمته، فتصنع منهم رجالات محمد الأبطال من جديد.

لقد مرّت تهيئة الرسول ﷺ وإعداده للقيام بتكاليف وأعباء المهمة التي اصطفى لها، بمراحل متعدّدة، رافقتها اختيارات مختلفة للأحداث، والأزمان، والأماكن، والأقوام، والأحوال، والمقامات، والأشخاص الذين اختارهم الله ﷻ، ليكونوا معه ﷺ، وليحيطوا به، نشير إلى بعض جوانبها مجرد إشارات خافتة لا تعبر بالضرورة عن ترتيب زمني دقيق، وإنما ترتيب مفترض لتسلسل أحداث الحياة المحمدية مقتبس من عرض كتب السيرة - والله تعالى أعلم -.





## المرحلة الأولى: ما تمّ من التهيئة والإعداد

### قبل ولادة الرسول ﷺ

إنّ الأحداث السابقة لولادة الرسول ﷺ كانت بمثابة إعداد وتهيئة عظيمة للكون أجمع، ولفتة لتاريخها لبدء صفحة جديدة، وإعلاماً لملوكها بأن نهاية الظلم قد دنت، وبداية عهد جديد للعدل قد أتت؛ إرهابات جعلت أهل الكتاب يمشون كالحمر الوحشية، والشياطين تبحث في تربة الأرض عن أسباب تلك التغيّرات الجوهريّة. الكون في تأهب، والأعين في ترقب، والناس في انتظار، حتى ظهر نجم محمد ﷺ؛ النبي المصطفى والرسول المجتبي والخليل المرتضى، الرسول العربي القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ.

ولقد كانت ولادة الرسول ﷺ في عام الفيل، وما ترتب على ذلك الحدث من أمور عظيمة، أدت إلى لفت أنظار الكون أجمع إلى ذلك الوادي البعيد وبيته العتيق، وثبت في قلوب الناس أن ذلك المكان محفوظ من ربه، محظور على أعدائه، وأنه لا ينال منه البتة، فربّى فيهم المهابة والخوف، وأوجد لأهله الإجلال والإكبار، فعرفهم الناس وهابهم الملوك؛ وهو إنباء بأن النبي المولود في هذا العام منصور بإذن الله ﷻ، محفوظ دينه وظاهر على كل الأديان.

وكأنّ في الربط بين سورتي (الفيل وقريش) دلالة على أن الله ﷻ دمّر الفيل وأهله ليحفظ رواد البيت الذين سيكون لهم دور كبير مع رسوله ﷺ ليعبد رب هذا البيت، وينشر دينه في البلاد وبين العباد، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ١ - ٥]

﴿لَا يَلْفُ قَرَيْشَ﴾ ① إِيْلَهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ أَلَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ④ [قریش: ١ - ٤].

كانت قصّة الفيل دالة على شرف محمد ﷺ، وتأسيساً لنبوته، وإرهاصاً لها، وإعزازاً لقومه بما ظهر عليهم من الاعتناء حتى دانت لهم العرب، واعتقد شرفهم وفضلهم على سائر الناس، وكان ذلك إرهاصاً لنبوته ﷺ، ودلالة على أن الله ﷻ ناصرٌ هذا الدين الجديد الذي قبّلته الكعبة المشرفة، ولا تحجه إلا أمة النبي ﷺ، وكان إرسال تلك الغارة الجوية العجيبة نصراً للكعبة، وإرهاصاً وتوطئة لبعثة رسول الله ﷺ، وأن الله ﷻ سيظهر دينه على الأديان كلها<sup>(١)</sup>.

ولقد وقعت كثير من الإرهاصات قبل وأثناء ولادته منها: خرور كثير من الأصنام عن أماكنها، وانكسار إيوان كسرى، وسقوط أربعة عشر شرافة، وخمود نار الفرس ولم تكن خمدت قبل ذلك، وغاضت بحيرة ساوة، وإعلام أهل الكتاب بقرب مبعث النبي وظهور نجمه ﷺ<sup>(٢)</sup>.

أولاً: اختيار المكان الذي سيُبعث فيه الرسول ﷺ:

الجزيرة العربية، وبوجه أخص أرض الحجاز، وبوجه أكثر خصوصية مكة أم القرى تلك البقعة التي منحها الله ﷻ الإعزاز والإكبار والشموخ والعلو، باختيارها مستقر بيته ﷻ، ومستودع كرامته، هناك حيث بقيت آثار خليل الله ﷻ، إبراهيم ﷺ في موقع أقدامه على الصخرة، وفي ماء زمزم سر القدرة الإلهية الباقية، وفي كل بقعة حيث تُخلع على القلوب الخشية والروحانية والشفافية، فكان اصطفاء المكان سرّة الأرض وقلب العالم.

جدّد الله ﷻ بالوليد إسماعيل ﷺ ديباجة الحياة، وخلع عليها جلايب الفيض السماوي الذي سيحول ظلامها نوراً، وجبالها مآزناً، ووديانها مساجداً، وأفاقها مراتع للحرية الإنسانية، وتنغلق صخورها عن سرٍّ من الأسرار في هذا الوجود.

(١) انظر: المواهب اللدنية للقسطلاني (١/٥٣)، دولة الرسول ﷺ للدكتور كامل الدقس ص ١٢٣.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير (١/٢١٥)، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٧٢٤)، السيرة النبوية لابن هشام (١/١٥٨).

سَبَّ المصطفى إسماعيل ﷺ ابن صفى الله ﷺ إبراهيم ﷺ عربياً خالصاً، وبنى هو وأبوه ﷺ بيتاً لله ﷺ ليكون رمزاً للحقيقة الكبرى في الوجود، حقيقة التوحيد، وتزاحفت القرون والعصور متواثبة تطوي بساط التاريخ، وتسوق الأجيال جيلاً إثر جيل، حتى حان الوقت وكانت كلمة الله ﷻ الخاتمة الخالدة في اصطفاء منابع السر الأعظم من دوحة الإنسانية<sup>(١)</sup>.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في تفسير قوله ﷺ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، «ومن هذا اختياره ﷻ من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها، وهي البلد الحرام. فإنه ﷻ اختاره لنبيه ﷺ، وجعله مناسك لعباده، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين مُتَذَلِّلين، كاشفي رؤوسهم، متجردين عن لباس الدنيا، وجعله حَرَمًا آمناً، فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاده وأحبها إليه، ومختاره من البلاد لما جعل عَرَصاتها مناسك لعباده، فرض عليهم قُضدها، وجعل ذلك من آكد فروض الإسلام، وأقسم به في كتابه العزيز في موضعين قال تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، كما قال ﷻ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١]، حتى قال ﷻ: وقد ظهر سرُّ هذا التفضيل والاختصاص في أنجذاب الأفتدة، وهوى القلوب، وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح، وكم أنفقَ في حبها من الأموال والأرواح، ورضي المحب بمفارقة فلذِّ الأكباد والأهل والأحباب والأوطان، مقدماً بين يديه أنواع المخاوف والمتالف، والمعاطف والمشاق، وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه ويراه - لو ظهر سلطان المحبة في قلبه - أطيب من نعم المتحلية وترفهم ولذاتهم»<sup>(٢)</sup>.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وكذلك ما خصَّ الله ﷻ به الكعبة البيت الحرام من حين بناه إبراهيم ﷻ وإلى هذا الوقت، من تعظيمه

(١) انظر: كتاب محمد رسول الله للعرجون (١/ص ٢١ إلى ص ٢٧ بتصرف).

(٢) انظر: زاد المعاد لابن قيم الجوزية (١/من ص ٤٦ إلى ص ٥٢) باختصار.

وتوقيره وانجذاب القلوب إليه. ومن المعلوم أن الملوك وغيرهم يبنون الحصون والمدائن والقصور بالآلات العظيمة البناء المحكم، ثم لا يلبث أن ينهدم ويهان، والكعبة بيت مبني من حجارة سود بواد غير ذي زرع، ليس عنده ما تشتهيهِ النفوس من البساتين والمياه وغيرها، ولا عنده عسكر يحميه من الأعداء، ولا في طريقه من الشهوات ما تشتهيهِ الأنفس، بل كثيراً ما يكون في طريقه من الخوف والتعب والعطش والجوع ما لا يعلمه إلا الله ﷻ، وقد جعل للبيت من العز والشرف والعظمة ما أذل به رقاب أهل الأرض، حتى تقصده عظماء الملوك، ورؤساء الجبابرة، فيكونون هناك في الذل والمسكنة كأحاديث الناس. وهذا مما يُعلم بالاضطرار أنه خارج عن قدرة البشر وقوى نفوسهم وأبدانهم، والذي بناه قد مات من ألوف سنين؛ ولهذا كان أمر البيت مما حير هؤلاء الفلاسفة والمنجمين والطبائعية لكونه خارجاً عن قياس عقولهم وقوانين علومهم، حتى اختلفوا لذلك من الأكاذيب ما يعلمه كل عاقل لبيب<sup>(١)</sup>.

ولقد خصَّ الله ﷻ جزيرة العرب بخصائص لم يُشاركها فيها غيرها من البلاد والباق، ارتبطت ارتباطاً وثيقاً باصطفاء الرسول الخاتم محمد ﷺ منها:

١ - أنها حَرَمُ الإسلام وعاصمته، وداره الأولى، وقاعدة له على مرَّ العصور وكرُّ الدهور، منها تفيض أنوار النبوة الماحية لظلمات الجاهلية، فقد جعل الله ﷻ بيته الحرام فيها، ومنها انطلقت الرسالة الخاتمة إلى الثقلين في كل زمان ومكان<sup>(٢)</sup>.

٢ - أن الشيطان يئس أن يعبد في جزيرة العرب فعن جابر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيْسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ)<sup>(٣)</sup>.

(١) الصفدية لابن تيمية (١/٢٢٠).

(٢) انظر: خصائص جزيرة العرب لبكر أبو زيد ص ٢٥، حقيقة الدعوة إلى الله وما اختصت به جزيرة العرب لسعد الحصين ص ٤٧.

(٣) صحيح مسلم (٤/١٧١٨) رقم ٢٨١٢. قال النووي ﷺ: «هذا الحديث من معجزات النبوة ومعناه: أيس أن يعبد أهل جزيرة العرب، ولكنه سعى في التحريش بينهم =



٣ - أن جزيرة العرب خاصة بأهل الإسلام فقط، فقد أخرج رسول الله ﷺ منها اليهود والنصارى، روى مسلم في صحيحه، باب إجلاء اليهود من الحجاز، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «بَيْنَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: (انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ)، فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَاهُمْ. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَنَادَاهُمْ، فَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا)، فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ! فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (ذَلِكَ أُرِيدُ. أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا)، فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ! فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (ذَلِكَ أُرِيدُ)، فَقَالَ لَهُمُ الثَّالِثَةُ. فَقَالَ: (اعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وَأَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِبِكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ وَإِلَّا فاعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ).

وروى مسلم في باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: أخبرني عمر بن الخطاب؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا)<sup>(١)</sup>.

٤ - أن الإسلام يأرز إلى الجزيرة العربية حين يضطهد خارجها فيأوي إليها، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ. وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا)<sup>(٢)</sup>.  
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا)<sup>(٣)</sup>.

= بالخصومات، والشحناء، والحروب، والفتن ونحوها». وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥٤/١٧) حديث رقم ٧٠٣٤.

(١) صحيح مسلم (١١١٢/٣) حديث رقم ١٧٦٧. قوله ﷺ في الحديث: (ذلك أريد) معناه: أريد أن تعترفوا أنني قد بَلَّغْتَ، ومعنى قوله ﷺ: (الأرض لله ورسوله) أي: ملكها والحكم فيها يكون بشريعة الله وحده. وإنما قال لهم هذا لأنهم حاربوا رسول الله ﷺ، ويستنتج من ذلك أن المعاهد والذمي إذا نقض العهد صار حربياً، وجرت عليه أحكام الحرب. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٣١٠/١٢).

(٢) صحيح مسلم (١١٩/١) حديث رقم ١٤٦.

(٣) صحيح مسلم (١١٩/١) حديث رقم ١٤٧. وقوله ﷺ - في جُحْرِهَا - يبين أن الجزيرة =

ثانياً: اختيار الزمان<sup>(١)</sup> «الذي بُعث فيه الرسول ﷺ»:

إن الزمان الذي اختاره الله ﷻ لبعثه رسوله الخاتم ﷺ هو خير أزمان البشرية على الإطلاق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنَاً فَقَرْنَا، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقُرْنِ الَّذِي كُنْتُ مِنْهُ)<sup>(٢)</sup>.

ذاك الزمان الذي امتنّ فيه ﷻ على الإنسانية جمعاء، وتفضل عليهم بمنه وكرمه، ونظر إليهم بعين رحمته وجوده، لينير دنياهم بعد الظلام، ويقتلع جذور الضلال، ويعيد الخلق إلى الطريق الصواب، ويغسل ما علق بالنفوس من الأمراض، ويزيل غشاوة الأعين وسمم الآذان.

ومن هنا ظهرت خيرية الزمان الذي اختاره الله لبعثه سيّد الأنبياء

= العربية هي جُحر الإسلام وبيته ومقره، وقوله ﷺ: (وهو يَأرُز) أي: الإسلام فإنه ينضم ويجتمع بين مسجدي مكة والمدينة. وقوله ﷺ: (وهو يَأرُز إلى المدينة) قال القاضي: «معناه: أن الإيمان أولاً وآخرأ بهذه الصفة؛ لأنه في أول الإسلام كان كل من خُص إيمانه وضح إسلامه أتى المدينة، إما مهاجراً مستوطناً، وإما متشوقاً إلى رؤية رسول الله ﷺ ومتعلماً منه ومتقرباً، ثم بعده هكذا في زمن الخلفاء كذلك، ولأخذ سيرة العدل منهم والافتداء بجمهور الصحابة رضوان الله عليهم فيها، ثم من بعدهم من العلماء الذين كانوا سرج الوقت وأئمة الهدى لأخذ السنن المنتشرة بها عنهم». وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢/٣٥٤ - ٣٥٥).

(١) مرت الإنسانية بفترة طويلة بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وانطفأ نور رسالته تدريجياً حتى عمّ الظلام أرجاء الكون، وبات الناس يتخبّطون في غيابات الجهل، وتهوي بهم رياح الظلم في وإد سحيق، ولم يبق في ساحات العالم وطرقاتها إلا طيف قناديل واجمة لبقايا أهل كتاب هرعوا بها إلى رؤوس الجبال؛ في ذلك التاريخ المُخيف، ولبله الثقليل، والأرض تحيط بجيدها أيادي الموت، بزغ نور الفجر، وتراجع الليل يجر أذيال الهزيمة، فقطعت أيادي الظلم، وتساقطت الشرفات الزائفة، وكسر إيوان القهر، وأطفئت نيران العبودية. لذلك عُدّ الزمان من خير الأزمان وأبركها على البشرية.

(٢) صحيح البخاري رقم ٣٥٥٧. والقرن مطلق الزمان، أو أهل كل مدة كان فيها نبي، أو كان فيها طبقة من أهل العلم، قلّت السنون أو كثرت. وعلى قول من قال أن القرن هو مطلق الزمان فيكون الزمان الذي بعث فيه الرسول ﷺ هو خير القرون على الإطلاق لدلالة ذلك في الحديث: (بعثت من خير قرون بني آدم). وانظر: لسان العرب لابن منظور (١١/١٣٧).

والمرسلين، فلم يترك عباده هملاً. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، فأرسل إليهم بفضله نوراً بدد الظلام، وأنار الدروب، وجلّى الحقائق، وأبان الهدى من الضلال.

ولقد اختصّ الزمان الذي اختاره المولى لبعثة خير رسله، بتعدد الصراع؛ فقد ساد العالم صراعات شاملة ومتكررة على اختلاف أسبابها، أدت إلى تغيرات اجتماعية منها بروز أفراد يتصدون للمخاطر بتفتح ذهني كبير.

وخصّ كذلك بالنضج الفكري الذي تجلّى في نقدٍ ظهر في كل مكان، متجهاً إلى الناحية الدينية وأوهامها سواء في العالم المسيحي، أو لدى العرب، وذلك بظهور الحنفاء الذين أخذوا يحللون فساد الناس، ويبينون الحاجة إلى دين يُعرف بالخالق والطريق إليه.

كما كان هناك شعور بقرب ظهور نبي من العرب، يصلح فساد العالم، ويضع الحقيقة الفاصلة في مسألة العقيدة والسلوك، وهذه الحقيقة عرفت لدى اليهود وغيرهم، وظهرت ملامح وطلائع النبوة في عقول الناس وفي كثير من الأماكن، وهذه الملامح والطوالع في حد ذاتها تمهد للدعوة وتدعو إلى استماعها بشوق، وانتظار لرسول يظهر في العالم<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: اختيار الفرقة<sup>(٢)</sup>:

لم يكن هناك شعب له رصيد من الفضائل النفسية، والذاتية، والجسدية، والعقلية، والأخلاقية، مثل ما كان للشعب العربي، لهذا اختار الله ﷻ خاتم أنبيائه ورسله من العرب برسالة عامة خالدة، واستأهل العرب أن يكونوا أحق الشعوب بحمل هذه الرسالة وتبليغها إلى الناس جميعاً<sup>(٣)</sup>.

والذي عليه أهل السنة والجماعة اعتقاد أنّ جنس العرب أفضل من جنس العجم، والدليل ما روي عن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال: قلت يا

(١) انظر: هذا هو الإسلام للدكتور أحمد السايح من ص ٥٢ إلى ص ٥٧ بتصرف.

(٢) قصدت بالفرقة: العرب، واخترت هذه المفردة لورودها في الحديث حيث بين الرسول ﷺ أنّ الله تعالى قد جعل الخلق كلهم فرقتين، والمقصود بهذا العرب والعجم.

(٣) انظر: السيرة النبوية للدكتور محمد أبو شهبة ص ٢٤٦.

رسول الله إن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم، فجعلوا مثلك مثل نخلة في كبوة من الأرض، فقال النبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ مِنْ خَيْرِ فِرْقِهِمْ، وَخَيْرِ الْفَرِيقَيْنِ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ قَبِيلَةٍ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْبُيُوتَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ بُيُوتِهِمْ، فَأَنَا خَيْرُهُمْ نَفْسًا، وَخَيْرُهُمْ بَيْتًا)<sup>(١)</sup>، والمعنى أن النخلة طيبة في نفسها وإن كان أصلها ليس بذلك، فأخبر ﷺ أنه خير الناس نفساً ونسباً.

وقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: (مَنْ أَنَا؟) قَالُوا: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْكَ السَّلَامُ. قَالَ: (أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا وَخَيْرِهِمْ نَفْسًا)<sup>(٢)</sup>. فأخبر ﷺ أنه ما انقسم الخلق فريقين إلا كان هو في خير الفريقين، والخلق هم الثقلان، أو هم جميع ما خلق في الأرض، وبنو آدم خيرهم. ثم جعل بني آدم فرقتين، والفرقتان هم العرب والعجم، ثم جعل العرب قبائل، فكانت قريش أفضل قبائل العرب، ثم جعل قريش بيوتاً فكانت بنو هاشم أفضل البيوت. ويحتمل أنه ﷺ أراد بالخلق بني آدم فكان في خيرهم؛ أي: ولد إبراهيم أو في العرب. ثم جعل بني إبراهيم فرقتين بني إسماعيل وبني إسحاق، أو جعل العرب عدنان وقحطان، فجعلني في بني عدنان، ثم جعل بني إسماعيل قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة وهم قريش. وعلى كل فالحديث صريح بتفضيل العرب على غيرهم.

وعن وائلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)<sup>(٣)</sup>، وهذا يقضي أن إسماعيل ﷺ وذريته

(١) سنن الترمذي (٥/٥٤٥) حديث رقم ٣٦٠٧، وقال: حديث حسن

(٢) سنن الترمذي (٥/٥٤٥) رقم ٣٦٠٨، وقال: حديث حسن.

(٣) صحيح مسلم (٤/١٤٢٣) حديث رقم ٢٢٧٦.

صفوة ولد إبراهيم ﷺ فيقتضي أنهم أفضل من ولد إسحاق عليه السلام. كما أن الله ﷻ قد خصَّ العرب ولسانهم بأحكام تميزوا بها، ثم خصَّ قريشاً على سائر العرب بما جعل فيهم من خلافة النبوة وغير ذلك، ثم خصَّ بني هاشم على سائر قريش بتحريم الصدقة واستحقاق الفيء، فأعطى الله سبحانه كل درجة من الفضل بحسبها، والله عليم حكيم ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٧٥) [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وسبب تفضيل العرب ما اختصُّوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم، وذلك أن الفضل إما بالعلم النافع، وإما بالعمل الصالح؛ فالعلم له مبدأ وهو قوة العقل الذي هو الفهم والحفظ، وله تمام وهو قوة المنطق والذي هو البيان والعبارة. والعرب أفهم من غيرهم وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة، ولسانهم أتم الألسنة بياناً وتمييزاً للمعاني جمعاً وفرقاً. وأما العمل فإن مبناه على الأخلاق، وهي الغرائز المخلوقة في النفس، وغرائزهم أطوع للخير من غيرهم، فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء وغير ذلك، ولكنهم كانوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله، ليس لديهم علم منزل من السماء، ولا شريعة موروثه عن نبي. فلما بعث الله محمداً ﷺ بالهدى، استنارت قلوبهم به، وتلقوه بتلك الفطرة الجيدة، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزل الله إليهم، فصار المهاجرون والأنصار أفضل الخلق بعد الأنبياء، وصار أفضل الناس بعدهم من اتبعهم بإحسان إلى يوم القيامة<sup>(١)</sup>.

والدليل على فضل العرب من وجهين، من المنقول والمعقول. أما أدلة النقل: فقد ذكرت آنفاً، وأما العقل: فقد ثبت بالتواتر المحسوس المُشَاهَد أن العرب أكثر الناس سخاءً وكرماً وشجاعةً ومروءةً وشهامةً وبلاغةً وفصاحةً، ومن كان كذلك فالعقل قاض بفضله. ولهم مكارم أخلاق محمودة لا تنحصر، عزيزة في أنفسهم، وسجية لهم جبلوا عليها، فكانوا قبل الإسلام طبقة قابلة

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (١ - من ٣٦٢ إلى ٣٩٨) باختصار.

للخير<sup>(١)</sup>. نتيجة لما ذُكر سابقاً يمكن تلخيص خصائص العرب على النحو الآتي:

١ - حفظهم للأنساب، فلم يُعلم أحد من الأمم عني بحفظ النسب عناية العرب.

٢ - طهارتهم ونزاهتهم عن الأدناس التي استباحها غيرهم، من مخالطة ذوي الأرحام، وهي منقبة تعلقو بجمالها كلَّ مآثرة<sup>(٢)</sup>.

٣ - أنفقتهم وجلادتهم وصرامتهم واعتزازهم بحريتهم؛ فلهم قوة في النفس لا تقاوم ولا تستسلم.

٤ - جمعهم لأسَّ الأخلاق كالشجاعة، والكرم وحسن الوفادة، والحلم والأناة والتؤدة، والصدق في الوفاء بعهودهم، والنصرة لمظلومهم، وغيرها من الأخلاق التي وجدَّها الإسلام فيهم، فما كان إلا أن وجَّهها وسيَّرها، حتى كانت في مجراها الصحيح، فقادوا بأخلاقهم الكون كله.

٥ - أميتهم بالنسبة للأمم الأخرى التي حولهم، وهو شبيه بالحكمة التي من أجلها بعث الرسول ﷺ أمياً فلا يرتاب الناس في نبوته، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِنَ رَسُوْلًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]<sup>(٣)</sup>.

٦ - طباعهم وأحوالهم وسلامة فطرتهم التي كانت أشبه ما تكون بالمادة الخام التي لم تُصغ وتُشكل في أي قالب، وبقيت كذلك حتى جاءت الرسالة الخاتمة فشكلتها في بوتقتها<sup>(٤)</sup>.

٧ - من أبرز ما خصَّوا به أن الرسول ﷺ ربط حبه بحبهم، وبغضه ببغضهم، ففي الحديث عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ:

(١) انظر: مسبوك الذهب في فضل العرب للإمام مَرْعِي الكرمي من ص ٣٥ إلى ص ٤٢ باختصار.

(٢) الفقرة الأولى والثانية انظر: الصحابي لابن فارس ص ٧٦.

(٣) انظر: فقه السيرة للغضبان ص ٦١، السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص ٤٢، خاتم النبيين للإمام محمد أبو زهرة ص ٦٠.

(٤) الفقرة السادسة والسابعة انظر: فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ٣١ - ٣٢ بتصرف.

(يَا سَلْمَانَ لَا تَبْغُضْنِي فَتَفَارِقَ دِينَكَ). قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَبْغُضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ؟ قَالَ: (تَبْغُضُ الْعَرَبَ فَتَبْغُضْنِي)<sup>(١)</sup>.

رابعاً: اختيار القبيلة التي سبعتُ منها النبي ﷺ:

اتفق أهل الجاهلية والإسلام على أن قريشاً أفضل العرب، وأن بني عبد مناف أفضل قريش، وأن بني هاشم أفضل بني عبد مناف، وأنه عليه الصلاة والسلام أفضل بني هاشم<sup>(٢)</sup>، ولقد ورد ذكر اصطفاء قبيلة قريش صريحاً ففي الحديث عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)<sup>(٣)</sup>.

لقد اصطفى الله ﷻ إسماعيل عليه السلام خيرة ولد إبراهيم عليه السلام، ثم اصطفى كنانة، ثم اصطفى قريشاً خير القبائل بدلالة حديث رسول الله ﷺ، عن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ أنه قال: (ثُمَّ تَخَيَّرَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ قَبِيلَةٍ)، وفي رواية قال عليه السلام: (ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ

(١) سنن الترمذي (٦٨٠/٥) حديث رقم ٣٩٢٧ وقال: حديث حسن غريب. لا نعرفه إلا من حديث أبي بَدْرٍ شجاع بن الوليد، والشجاع بن الوليد هو: ابن قيس، الإمام المحدث العابد الصادق أبو بدر السكوني الكوفي، نزيل بغداد. كان إماماً ربانياً من العلماء العالمين وكان مُعَمِّراً من أبناء التسعين، وكان كثير الصلاة، ورعاً، ووثقه يحيى بن معين. توفي ببغداد سنة أربع ومائتين. انظر: الطبقات لابن سعد (٧/٣٣٣)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٥٣/٩).

ومعنى الحديث: العَرَبُ - بالتحريك - اسم لهذا الجيل المعروف من الناس ولا واحد له من لفظه سواء أقام بالبادية أو المدن، والنسبة إليه: عربي. وقوله: (كيف أبغضك) أي: كيف يتصور مني أنني أبغضك وأنت حبيب الله ومحجوب أمتك وبك هداني الله أي: إلى الإسلام. وقوله عليه السلام: (قال تبغض العرب فتبغضني) أي: حين تبغض العرب عموماً فتبغضني في ضمنهم خصوصاً، أو إذا أبغضت جنس العرب فربما يجر ذلك إلى بغضك إياي - نعوذ بالله من ذلك -. وانظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (١٠ - ٤٢٨).

(٢) انظر: سيرة النبي المختار لمحمود بن عمر بحرق ص ٨٩.

(٣) صحيح مسلم (١٤٢٣/٤)، حديث رقم ٢٢٧٦.

قَبِيلَةً<sup>(١)</sup> فقريش خير قبائل الأرض على الإطلاق بحكم الله تعالى لهم .

وقريش هم ولد النضر بن كنانة، سُمُوا بذلك من التقرُّش وهو التكسُّب والجمع، وقيل من التجمُّع بعد التفرُّق، وكان ذلك على يد قصي، وقيل من التفتيش لأن النضر الذي تسمت قريش باسمه كان يفتش عن حاجة الناس فيسدها بماله، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة، فيرفدونهم بما يبلغهم بلادهم<sup>(٢)</sup> .

اصطفاهم الله ﷺ ليكون منهم أصحاب الرسول ﷺ وأعوانه ووزراؤه، وقيل ذلك كان أهل قريش رغم شركهم هم عمَّار البيت، وأهله وسدنته والقائمون عليه .

والمأمل في ذلك يجد حكمة الله ﷻ كامنة في اختيار هذه القبيلة دون غيرها، فلقد ألهمهم الله ﷻ حب بيته وتعظيمه، فكانت مكانة البيت وقديسيته هي الأس في حياتهم ومحورها ومدارها، ولقد أكسبهم وجود البيت مهابة عند قلوب من حولهم، وعند العالم أجمع، خاصة بعد حادثة الفيل . ولقد تميزت قريش بأخلاق وخصائص عظيمة لم تجتمع يوماً لغيرها، وهذه الخصائص هي على النحو التالي :

١ - تفضيلهم بخلال لم يشاركهم فيها غيرهم، عن أم هانئ بنت أبي طالب<sup>(٣)</sup> : أَن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (فَضَلَ اللَّهُ قُرَيْشًا بِسَبْعِ خِلَالٍ : إِنِّي فِيهِمْ، وَأَنَّ النَّبُوَّةَ فِيهِمْ، وَالْحِجَابَةَ فِيهِمْ وَالسَّقَايَةَ فِيهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ نَصَرَهُمْ عَلَى الْفِيلِ، وَأَنَّهُمْ عَبَدُوا اللَّهَ عَشْرَ سِنِينَ لَا يَعْبُدُهُ غَيْرُهُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِيهِمْ سُورَةَ

(١) سنن الترمذي (٥٤٥/٥) حديث رقم ٣٦٠٧، وقال: حديث حسن، وحديث رقم ٣٦٠٨، وقال: حديث حسن .

(٢) انظر: معالم التنزيل للبغوي (٨/٥٤٧)، خلاصة تاريخ ابن كثير للقاضي محمد كنعان ص ٥٢٧ - ٥٢٨ .

(٣) السيدة الفاضلة أم هانئ بنت عم النبي ﷺ أبي طالب عبد المناف بن عبد المطلب بن هاشم، الهاشمية المكية أخت علي وجعفر ﷺ . اختلف في اسمها: فقيل هند . وقيل: فاطمة . وقيل: فاختة . تأخر إسلامها إلى يوم الفتح، دخل النبي ﷺ إلى منزلها يوم الفتح، وروت الأحاديث، وعاشت أم هانئ ﷺ إلى بعد سنة خمسين . انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٦/٤٠٤)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/٣١١) .



مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ تَلَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾  
 ﴿١﴾ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي  
 أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ [قريش: ١ - ٤] <sup>(١)</sup>.

فكان تفضيلهم بالآتي:

- أن الله ﷻ فضلهم بأن الرسول ﷺ منهم ، وبأن الحجابة والسقاية فيهم .
- أنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا هم .
- أن الله ﷻ أنزل فيهم سورة من القرآن تتلى إلى قيام الساعة ولم يدخل فيها غيرهم .

• أن الله ﷻ تولى الدفاع عن بيته، فنصرهم وهم مشركون .

٢ - فضلهم على العرب بكونهم يأمنون في حرمهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْحَطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِئًّا لِّبَطْلِ الْيَوْمِ وَيَنْعَمَ اللَّهُ بِكَفُورٍ﴾ ﴿٧﴾ [العنكبوت: ٦٧] فقد أهلك الله ﷻ من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم في قلوب العرب حتى احترامهم . وفي ذلك فضل عظيم لهم .

وكان امتنان الله ﷻ عليهم بدعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ عَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقد امتن الله ﷻ عليهم بالإيلاف قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ﴿١﴾ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ [قريش: ١ - ٤]، فلقد كانوا في ضر ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرحلتين، وكانوا يقسمون ربحهم بين الفقير والغني، وهي حال خصهم الله ﷻ بها، قال ابن عطية رحمه الله: فليعبدوا الذي خصهم بهذه

(١) المستدرك للحاكم (٥٣٦/٢) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، سلسلة الأحاديث الصحيحة للالباني (٥٨٥/٤) رقم ١٩٤٤. قال: هذا حديث حسن ورجاله كلهم ثقات معروفون.

الحال. والإيلاف من التأليف إذ كانوا في رحلتهم يألفون الملوك في الشام واليمن، أو كانوا في أنفسهم مؤلفين ومجمعين وهو امتنان من الله ﷻ عليهم بهذا التجمع والتألف، ولو سلط عليهم لفرقتهم وشتتتهم، وقيل: من الإلف والتعود؛ أي: ألفوا الرحلتين. وفي الجمع بين النعمتين نعمة ومزية عظيمة؛ لأن الإنسان لا ينعم إلا بتحصيل النعمتين هاتين معاً، إذ لا عيش مع الجوع، ولا أمن مع الخوف، وتكمل النعم باجتماعها<sup>(١)</sup>.

٣ - نزول القرآن بلسانهم، وهذا من أكبر المزايا التي وهبها الله ﷻ للقرشيين، والتي تعتبر تفضيلاً خاصاً لهم وللغتهم، إذ إن القرآن الكريم الشريعة الخالدة والرسالة الباقية والكتاب المحفوظ، إنما اختار الله ﷻ له لغة قريش، إذ كانوا أفصح الناس لغة، وأوضحهم بياناً مع ما اجتمع لهم من بقية الخلال، لذلك أوصى الخليفة عثمان رضي الله عنه أن يكتب المصحف بلسان قريش، قال رضي الله عنه: «إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَارْتَبِعُوا بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلسَانِهِمْ». ففعلوا ذلك<sup>(٢)</sup>.

٤ - إسلام قريش كلها ولا يرتد منهم أحد، فعن عبد الله بن مطيع<sup>(٣)</sup> رضي الله عنه، عن أبيه، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ: (لَا يُقْتَلُ قُرَشِيٌّ صَبْرًا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)<sup>(٤)</sup>، وقال العلماء: معناه الإعلام بأن قريشاً يسلمون كلهم، ولا يرتد منهم أحد كما ارتد غيرهم بعده رضي الله عنه ممن حورب وقتل صبراً، وليس المراد أنهم لا يقتلون ظلماً صبراً، فقد جرى على قريش بعد ذلك ما هو معلوم<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٥٣٣/٩)، المحرر الوجيز لابن عطية (٥٢٦/٥)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٦٧٥/٧).

(٢) صحيح البخاري ص ٧٢٠ رقم ٣٥٠٦.

(٣) هو عبد الله بن مطيع بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي. أمه أم كلثوم بنت معاوية، ولد على عهد النبي ﷺ، فحنكه النبي ﷺ. كان من جلة قريش شجاعة وجلداً. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٣/٢٨٩)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣٧١/٢).

(٤) صحيح مسلم (١١٢٦/٣) رقم ١٧٨٢.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي (٣٤٧/١٢).

٥ - والخلافة في قريش والناس تبع لقريش، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (النَّاسُ تَبِعَ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّانِ، مُسْلِمُهُمْ لِمُسْلِمِهِمْ وَكَافِرُهُمْ تَبِعَ لِكَافِرِهِمْ)<sup>(١)</sup>.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: قال النبي ﷺ: (النَّاسُ تَبِعَ لِقُرَيْشٍ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ)<sup>(٢)</sup>، وفي قوله ﷺ: (الناس تبع لقريش)، المراد بعض الناس، وهم سائر العرب من غير قريش، وقوله ﷺ: (في الْخَيْرِ وَالشَّرِّ)، معناه في الإسلام وفي الجاهلية لأنهم كانوا في الجاهلية رؤساء العرب وأصحاب حرم الله ﷻ، وأهل حج بيت الله ﷻ، وكانت العرب تنظر إسلامهم، فلما أسلموا وفتحت مكة تبعهم الناس، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وكذلك في الإسلام هم أصحاب الخلافة والناس تبع لهم. وهو حجة في مزية قريش على غيرهم.

وقوله ﷺ: (مسلمهم لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم)، وقع مصداق ذلك لأن العرب كانت تعظم قريشاً لسكنائها الحرم، فلما بعث النبي ﷺ، ودعا إلى الله ﷻ، توقف غالب العرب عن اتباعه، وقالوا: ننظر ما يصنع قومه؟ فلما فتح النبي ﷺ مكة، وأسلمت قريش، تبعتهم العرب ودخلوا في دين الله أفواجاً، واستمرت خلافة النبوة في قريش، فصدق أن كافرهم كان تابعاً لكافرهم، وصار مسلمهم تبعاً لمسلمهم<sup>(٣)</sup>.

٦ - محفوظون بحفظ الله ﷻ لهم ما أقاموا الدين، كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية - وهو عنده في وفد من قريش - أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه يحدث أنه سيكون ملكاً من قحطان، فغضب معاوية، فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنه بلغني أن رجلاً منكم يتحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ، فأولئك جهالكم، فإياكم والأمانى أن تُضِلَّ أهلها، فإني سمعت رسول الله ﷺ

(١) صحيح مسلم (١١٥٤/٣) حديث رقم ١٨١٨.

(٢) صحيح مسلم (١١٥٤/٣) حديث رقم ١٨١٩.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/٤٠٥ - ٤٠٧) باختصار، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٦٥٨).

يقول: (إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ، لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إِلَّا كَبَّهُ عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الدِّينَ)<sup>(١)</sup>. وفي الحديث: (مَا أَقَامُوا الدِّينَ) فربما كان فيهم من لا يقيمه فيتسلط عليهم غيرهم، ولا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ وَيُنَازِعُهُمْ فِي الْأَمْرِ إِلَّا كَانَ مَقْهُورًا فِي الدُّنْيَا مُعَذَّبًا فِي الْآخِرَةِ، مَدَّةَ إِقَامَتِهِمْ أُمُورَ دِينِهِمْ، فَإِذَا لَمْ يَقِيمُوهُ لَا يَسْمَعُ لَهُمْ<sup>(٢)</sup>. وقال ﷺ: (إِنَّ قُرَيْشًا، أَهْلُ أَمَانَةٍ مَنْ بَغَاهُمْ الْعَوَائِرُ كَبَّهُ اللَّهُ لِمَنْخَرِهِ. قَالَهَا ثَلَاثًا)<sup>(٣)</sup>.

٧ - أوسط العرب داراً ونسباً، وأعربها أحساباً، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه للأنصار عند الاختلاف في أمر الخلافة بعد موت الرسول ﷺ، وقد أثنى الأنصار على أنفسهم: «ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً»<sup>(٤)</sup>.

٨ - دعاء الرسول ﷺ لهم، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (اللَّهُمَّ أَدَقَّتْ أَوَّلَ قُرَيْشٍ نِكَالًا، فَأَذِقْ آخِرَهُمْ نَوَالًا)<sup>(٥)</sup>، والمراد ما أذاقهم الله ﷻ به يوم بدر والأحزاب من العذاب والقهر، وقيل: القحط والغلاء، فأذق آخِرهم إنعاماً وعطاءً وفتحاً من عندك<sup>(٦)</sup>.

### خامساً: اصطفاء نسب النبي عليه الصلاة والسلام:

خصَّ الله ﷻ رسوله محمداً ﷺ بنسبه الشريف العفيف الطاهر، فهو خير أهل الأرض نسباً على الإطلاق؛ فأشرف القوم قومه، وأشرف الأفاخذ فخذه، وأشرف القبائل قبيلته، فهو النبي العربي، الأبطحي، الحرمي، القرشي، الهاشمي، نُحْبَةُ بني هاشم، المختار، المُتَّخَب من خَيْرِ بطون العرب، وأعرقها في النسب، وأشرفها في الحساب، وأنضرها عوداً، وأطولها عموداً ﷺ<sup>(٧)</sup>.

- (١) صحيح البخاري ص ٧١٩ حديث رقم ٣٥٠٠.
- (٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١٣/١٤٤) وما بعدها باختصار.
- (٣) المستدرک للحاکم (٧٣/٤) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
- (٤) صحيح البخاري ص ١٤٣٢ رقم ٦٨٣٠.
- (٥) سنن الترمذي (٥/٦٧٢) حديث رقم ٣٩٠٨ وقال: حديث حسن صحيح غريب.
- (٦) انظر: تحفة الأحوذی بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (١٠/٤٠٨).
- (٧) منتهى السؤل لعبد الله اللحجي (١/١٢٧).

و شاء الله ﷻ أن يحوز محمد ﷺ الشرف كله، فعن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال: قلت: يا رسول الله إن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم، فجعلوا مثلك مثل نخلة في كبوة من الأرض، فقال النبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ، مِنْ خَيْرِ فِرْقِهِمْ وَخَيْرِ الْفِرْقَيْنِ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ قَبِيلَةٍ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْبُيُوتَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ بُيُوتِهِمْ، فَأَنَا خَيْرُهُمْ نَفْسًا وَخَيْرُهُمْ بَيْتًا)<sup>(١)</sup>، والمعنى أن النخلة طيبة في نفسها وإن كان أصلها ليس بذلك. فأخبر ﷺ أنه خير الناس نفساً ونسباً.

وعن المطلب أبي وداعة<sup>(٢)</sup> ﷺ أن الرسول ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا وَخَيْرِهِمْ نَفْسًا)<sup>(٣)</sup>.

(١) سنن الترمذي (٥٤٥/٥) حديث رقم ٣٦٠٧ وقال: حديث حسن. وقوله: (فجعلوا مثلك) بفتح الميم والمثلثة أي: صفتك (مثل نخلة في كبوة من الأرض) أي: كصفة نخلة نبتت في كناسة من الأرض والمعنى أنهم طعنوا في حسبك. قوله ﷺ: (إن الله خلق الخلق) أي: المخلوقات يعني ثم جعلهم فرقاً. وقوله ﷺ: (فجعلني من خير فرقهم) بكسر الفاء وفتح الراء أي: من أشرفها وهو الإنس (وخير الفريقين) أي: العرب والعجم. وقوله ﷺ: (ثم خير البيوت) أي: البطون (فجعلني من خير بيوتهم) أي: من بطن بني هاشم. وقوله ﷺ: (فأنا خيرهم نفساً) أي: روحاً وذاتاً إذ جعلني نبياً رسولاً خاتماً للرسل (وخيرهم بيتاً) أي: أصلاً، إذ جئت من طيب إلى طيب إلى صلب عبد الله بنكاح لا سفاح. انظر: تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي (٧٦/١٠).

(٢) هو مطلب بن أبي وداعة، واسم أبي وداعة: الحارث بن صبيبة بن سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص القرشي السهمي. وأمه أروى بنت الحارث بن عبد المطلب بن هاشم. أسلم يوم الفتح، ثم نزل الكوفة، ثم تحول إلى المدينة. وكان أبوه أبو وداعة قد أسر يوم بدر فخرج المطلب بن أبي وداعة ﷺ سراً، حتى فدى أباه بأربعة آلاف درهم، وهو أول أسير فُدي من بدر، ولا مته قريش في بداره ودفعه الفداء، فسار الناس بعده إلى النبي ﷺ ففدوا أسراهم. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٤١٤/٤).

(٣) سنن الترمذي (٥٤٥/٥) رقم ٣٦٠٨، وقال: حديث حسن.

لقد كان من عظيم العناية بالرسول ﷺ أن أجرى الله ﷻ نكاح آبائه من لدن آدم إلى أن أخرجه من أبويه على نمط واحد، فلم يزل ينقله ﷻ من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات، حتى خرج من نكاح، لا من سفاح، قال تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِنُّكَ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ تَقَوْمٌ ﴿٢١٨﴾ وَقَبْلُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تقلبك في أصلاب الأنبياء من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة<sup>(١)</sup>. كما أن الآيات تشير إلى فضل الله عليه، وحفظه ورعايته له، وكونه معه في كل حالاته، ينصره ويعينه.

وتشير إلى حالتين من حالات الرسول ﷺ، تجعل هاتين الحالتين خاضعتين لرؤية الله عز وجل له ورعايته لأمره.

قال قتادة رضي الله عنه: يراك حين تقوم. يراك قائماً وقاعداً وعلى حالاتك<sup>(٢)</sup>. وعن سيابة بن عاصم<sup>(٣)</sup> رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أَنَا ابْنُ الْعَوَاتِكِ)<sup>(٤)</sup>، والعاتكة: في الأصل هي المتلطخة بالطيب والطارهارة. كما أن الأنكحة التي في نسبه ﷺ منه إلى آدم عليه السلام كلها مستجمعة لشروط الصحة كأنكحة الإسلام، وهذا من أعظم العناية به حيث أجرى الله ﷻ نكاح آبائه من آدم إلى أن أخرجه من أبويه على نمط واحد وفق الشريعة الإسلامية، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال ﷺ: (مَا وَلَدَنِي مِنْ سِفَاحِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٍ، وَمَا وَلَدَنِي إِلَّا نِكَاحُ كِنَاكِحِ الْإِسْلَامِ)<sup>(٥)</sup>.

(١) معالم التنزيل للبغوي (١٣٤/٦)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٧١/٦).

(٢) انظر باختصار وتصرف تصويبات في فهم بعض الآيات للخالدي ص ٢٤٥.

(٣) سيابة بن عاصم. (سيابة) بكسر أوله، ابن عاصم بن سنان بن خزاخي بن محارب بن مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة ابن سليم السلمي، له صحبة وروى عن النبي ﷺ أنه قال يوم حنين: أنا ابن العواتك. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٣٤٣/٢)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١٠٢/٢).

(٤) المعجم الكبير للطبراني (١٦٩/٧) حديث رقم ٦٧٢٤، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٩٦/٤) حديث رقم ١٥٦٩، مجمع الزوائد للهيثمي (٤٠٢/٨) رقم ١٣٨٣٦، قال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، البداية والنهاية لابن كثير (٢/٢٥٦)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٦١/١).

(٥) المعجم الكبير للطبراني (٣٢٩/١٠) حديث رقم ١٠٨١٢، إرواء الغليل للألباني =

فالعناية الإلهية هيأت له هذا النسب الطاهر، وتلك الشخصيات الفذة ذات الأعمال العظيمة، والأوصاف العالية، والأخلاق الرفيعة؛ ليأخذ منها - عن طريق الوراثة - الكثير من الخلق والطباع، وذلك لأن الوراثة عامل هام في تكوين الشخصية، فكان ﷺ أكمل الناس وأفضلهم.

ومن فوائد الاصطفاء في النسب أن العرب لا تسمع إلا لذوي الأنساب العالية منهم، فاقتضت حكمة الله ﷻ أن يكونَ محمد ﷺ من أعلاهم نسباً، حتى لا يكون لأعداء الإسلام حجة للصد عن سبيل الله<sup>(١)</sup>.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله: «كان من أشرف أهل الأرض نسباً، من صميم سلالة إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، فلم يأت نبي بعد إبراهيم إلا من ذريته، وجعل له ابنين إسماعيل وإسحاق، ودعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث فيهم رسولاً منهم، ثم إن قريشاً من صفوة بني إبراهيم، ثم من بني هاشم صفوة قريش، ومن مكة أم القرى وبلد البيت الذي بناه إبراهيم، ودعا الناس إلى حجه، ولم يزل محجوجاً من عهد إبراهيم ﷻ، مذكوراً في كتب الأنبياء بأحسن وصف»<sup>(٢)</sup>.

ولقد خصَّ أبأوه ﷺ ببقائهم في جوار البيت الحرام والتمسك بملة إبراهيم ﷻ، وتميَّزوا بشرف النفس والعناية بمكارم الأخلاق، وبعظم المهمات التي كانوا يؤدونها ويقومون بها، وعلى ذلك يشهد لهم الحجاج، بل كل العرب كنصرة المظلومين والرحمة بالضعفاء وإحقاق الحق لهم ولغيرهم. كما أن الآباء

= (٦/٣٣٢) وقال: رجاله ثقات إن كان المدني في الحديث: هو فليح بن سليمان فهو ثقة، وقال الهيثمي: لا أعرف المدني، وبقية رجاله موثوقون. انظر: مجمع الزوائد (٨/٣٩٥) حديث رقم ١٣٨٢١. والراوي هو فليح بن سليمان بن مغيرة، واسم جده: رافع، أو نافع بن حنين الخزاعي، ويقال: الأسلمي المدني الحافظ، أحد أئمة الأثر، من موالي آل زيد بن الخطاب. واسم فليح: عبد الملك، وقد غلب عليه اللقب حتى جهل الاسم. ولد في آخر أيام الصحابة وهو أسن من مالك بقليل. قال ابن حاتم: ليس بالقوي. مات سنة ثمان وستين ومئة. انظر: الطبقات لابن سعد (٥/٤١٥)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/٣٥١).

(١) السيرة النبوية للدكتور مهدي رزق الله ص ١٠٥.

(٢) الجواب الصحيح لابن تيمية (٥/٤٣٧).

المباشرين من والد وجد الرسول ﷺ لم ينغمسوا في الشر. كما أن بني هاشم الذين ينتسب إليهم محمد ﷺ هم بطنٌ بمكة يرتبط مع سائر بطون قريش<sup>(١)</sup>.

محمد رسول الله ﷺ هو محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب (واسمه شيبه الحمد)، بن هاشم (واسمه عمرو) بن عبد مناف (واسمه المغيرة)، بن قصي (واسمه زيد)، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، ابن فهر، بن مالك، بن النضر (واسمه قيس)، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة (واسمه عمرو)، بن إلياس، ابن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان. واقتصر البخاري وكثير من العلماء من النسب الشريف على عدنان. ولقد ذكر البيهقي رحمته الله: أن عبد المطلب لما ولد النبي ﷺ عمل له مأدبة فلما أكلوا سألو: ما سميته؟ قال: محمداً، قالوا: فما رغبت به من أسماء أهل بيته؟ قال: أردت أن يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض. ولد مختوناً ﷺ فأعجب عبد المطلب جده، وحظي عنده، فقال: ليكونن لهذا شأن<sup>(٢)</sup>

قال أبو طالب مادحاً الرسول ﷺ ونسبه:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخرة      فعبدُ مناف سرُّها وصميمها  
فإن حصّلت أشراف عبد منافها      ففي هاشم أشرافها وقديمها  
وإن فخرت يوماً فإن محمداً      هو المصطفى سرها وكريمها<sup>(٣)</sup>

وهذا النسب الذي اضطفى الله ﷻ منه محمداً ﷺ هو خير أنساب أهل الأرض على الإطلاق، اجتمع في أفراده كافة الخلال الفاضلة، وصبّت كلها في فرعه - محمد بن عبد الله ﷺ - فاجتمع فيه ما تفرق في نسبه.

سادساً: اختيار أسمائه الشريفة عليه الصلاة والسلام:

من بديع الإحاطة والعناية التي حظي بها سيد البشرية محمد بن عبد الله ﷺ؛ أن الله ﷻ تولى تسميته بنفسه، فاختر له من الأسماء أكملها

(١) انظر: هذا هو الإسلام للسايح ص ٢٣ - ٢٤.

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٢٠٦/٧)، الطبقات لابن سعد (٥٦/١).

(٣) السيرة لابن كثير (١٩٤/١).



معنى، وأتمها وُصفاً، ليُذكر به في كل وقت فتُذكر معه مَحَامده، ولقد اختلف العلماء في عدد أسمائه وماهيتها نقتصر منها على ما ورد في الصحيحين، وما أفاده ابن قيم الجوزية في كتابه «زاد المعاد»؛ لأن البحث فيها وفي معانيها وما انطوت عليه يحتاج إلى بحثٍ مستقلٍ لا يتسع له المقام<sup>(١)</sup>.

إن أسماء النبي ﷺ قد شهدت له بكمال النبوة، ولم تكن أسماء الأنبياء تدلل على ذلك، وعلى سبيل المثال آدم ﷺ معناه أسمر اللون، ونوح ﷺ معناه الراحة، إسحاق ﷺ معناه الضاحك، ويعقوب ﷺ معناه الآتي في الوراء، وبالنظر إلى هذه الأسماء نرى أنها لا تتضمن إشارة إلى النبوة، وهذه الخصيصة سكت عنها أسماء سائر الأنبياء ﷺ، ولقد تطرق بعض العلماء إلى أسماء أبويه، واعتبرها من إرهاصات النبوة فاسم والده (عبد الله)، واسم والدته آمنة، واسم مرضعته حليلة، فقدسيته ﷺ تأتي من أن جسده الأطهر تكوّن بدم العبودية وأتم مراتب الوجود في بطن الأمن، وارتضع لبن الحلم والأناة، فهل تمّ اجتماع هذه الأسماء بمحض الصدفة؟<sup>(٢)</sup>.

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أَعْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبُوءَةِ خَاتَمٌ      مِّنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ  
وَضَمَّ إِلَاهُ اسْمُ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ      إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَدَّنُ أَشْهَدُ  
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ      فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ<sup>(٣)</sup>

ولقد وردَ ذكر أسماء الرسول ﷺ في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، نذكر منها الآتي:

(١) للاستزادة انظر: جلاء الأفهام لابن القيم ص ١٣٣، رحمة للعالمين للمنصورفوري (٢١٩/٣)، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلاني (٣٦٣/١)، عيون الأثر للشافعي (٣٨/١)، منتهى السؤل لعبد الله اللحجي (١٤١/١)، قال السيوطي: «وقد ألفت كتاباً في شرح أسمائه الكريمة، أوردت فيه ثلاثمائة وأربعين اسماً مأخوذة من القرآن والأحاديث والكتب القديمة»، الخصائص الكبرى للسيوطي (١٣٢/١).

(٢) رحمة للعالمين للقاضي المنصورفوري (١٣/٣ - ٢٢٠).

(٣) نقلاً عن كتاب الخصائص الكبرى للسيوطي (١٣٤/١)، ديوان حسان بن ثابت

## أسماء الرسول ﷺ في القرآن الكريم ومعانيها:

١ - محمد ﷺ: قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أُنْزُرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِزَجٍ أَخْرَجَ سَطَكُهُمْ فَنَازَرُهُمْ فَأَسْتَغَالَتْ فَأَسْتَوَى عَلَى سُوقِهِمْ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الفتح: ٢٩].

ومحمد: هو أشهر أسمائه ﷺ يقال: رجل محمد، أو محمود إذا كثرت خصاله المحمودة، وهو منقول من صفة الحمد بمعنى محمود، والمحمد هو الذي حُمد مرة بعد مرة كالممدح، أو الذي تكاملت فيه الخصال المحمودة. وقد ألهم الله ﷺ أهله أن يُسموه به، فقد حُصرت سورة الحمد، وبلواء الحمد، وبالمقام المحمود، وشرع له الحمد بعد الأكل وبعد الشرب، وبعد القدوم من السفر، فجمعت له معاني الحمد وأنواعه<sup>(١)</sup>. قال القرطبي رحمه الله: «وهو من أعلام نبوته»<sup>(٢)</sup>.

ومن الموافقات الجميلة أن يلهم عبد المطلب تسمية حفيده محمداً، وإنها تسمية أُعين عليها، ولم يكن العرب يألِفون هذه الأعلام، لذلك سألوه لم رغبت عن أسماء آبائه وأجداده؟ فأجاب أردت أن يحمد الله في السماء وأن يحمد الخلق في الأرض<sup>(٣)</sup>.

٢ - أحمد ﷺ: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ [الصف: ٦].

وأحمد: عَلِمٌ منقول من صفة، وهي أفعل للتفضيل، ومعناه أحمد الحامدين<sup>(٤)</sup>. قال البغوي رحمه الله: «الألف فيه للمبالغة في الحمد، وله وجهان:

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٦٨٨)، صحيح مسلم بشرح النووي (١٠٤/٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/٦٢).

(٣) انظر: (هل محمد عبقرى مصلح أم نبي مرسل) للدكتور محمد شيخاني ص ٣٩.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٦٨٨).

• أنه مبالغة من الفاعل، أي: الأنبياء كلهم حمّادون وهو أكثر حمداً لله من غيره.

• أنه مبالغة في المفعول، أي: الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة وهو أكثرهم مبالغة وأجمع للفضائل والمحاسن التي يحمد بها<sup>(١)</sup>.

قال ابن حجر رحمته الله: ومما وقع من أسمائه في القرآن بالاتفاق: (الشاهد، المبشر، النذير، المبين، الداعي إلى الله، السراج المنير)، وفيه أيضاً: (المذكّر، الرحمة، النعمة، والهادي، والشهيد، والأمين، والمزمل، والمدثر)<sup>(٢)</sup>.

وقد ورد ذكر الأسماء التي أوردها ابن حجر رحمته الله، في القرآن الكريم على النحو التالي:

٣ - الشاهد، المبشر، النذير، المبين، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقال رحمته الله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩]، ومعنى هذه الأسماء أنه رحمته الله شاهدٌ لله بالوحدانية، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، ومبشراً لمن اتبعه بجزييل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب.

٤ - الداعي إلى الله، والسراج المنير، قال تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١]. فالرسول رحمته الله داعٍ للخلق إلى عبادة ربهم، فهو داعي الله رحمته الله، الذي لا يدعو إلا إلى ربه رحمته الله، ولا يدعو إلى غرض من أغراضه، ولا إلى هوى، وإنما يدعو إلى ربه ودينه وطاعته والإقرار بوحدانيته لينجو الناس من عذاب الله إلى رضوانه، وفي هذا ثناء على محمد رحمته الله حيث أن دعوته إلى الله تستلزم استقامته على ما يدعو إليه، كما فيه دلالة على أنه أرسل إلى الثقيلين الإنس والجن.

(١) معالم التنزيل للبغوي (١٠٨/٨).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦٩٢/٦).

والرسول ﷺ هو السراج المنير، صاحب الأمر الظاهر، فما جاء به من الحق واضح كالشمس في إشراقها وظهورها وإضاءتها في رابعة النهار، فالخلق كانوا في ظلمة عظيمة ليس لهم نورٌ يهتدون به، ولا عَلمٌ يستدلون به، حتى أرسل الله ﷻ الرسول محمداً ﷺ فأضاء به الظلمات، وعَلم به فأزال الجهالات، وهدى به ضللاً إلى الصراط المستقيم، فاهتدي به إلى مناهج الرشد.

٥ - المُذَكَّر، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿٦١﴾ [الغاشية: ٢١].  
والمذكر هو المبلغ لما نُسي من أمر الله ﷻ، وما جاء به الأنبياء السابقين ﷺ من أمر العقيدة.

٦ - الرحمة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فالرسول ﷺ هو نبي الرحمة، وهي للمؤمنين بيّنة، وللكافرين بأن رفع الله عنهم ما كان يصيب الأمم من أنواع العذاب المستأصلة، فالرسول ﷺ هو الرحمة المهداة للناس، وإنما بُعث رحمة للعالمين ﷺ.

٧ - الشهيد، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿٤١﴾ [النساء: ٤١]. والشهيد هو الشاهد الذي يشهد على جميع الأمم، من رآه ومن لم يره، فهو يشهد عليها بأعمالها، وتصديقها لرسولها أو تكذيبها.

٨ - الأمين، قال تعالى: ﴿أَنْ أَدُؤًا إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿١٧﴾ [الدخان: ١٨]. الأمين على وحي الله ﷻ ورسالته، وهذه صفته ﷺ قبل أن يبعث رسولاً في تعامله مع الناس، فكان يسمى بالصادق الأمين.

٩ - المُزْمَل، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ﴾ ﴿١﴾ [المزمل: ١]. التزمّل هو الالتفاف في الثياب بضم وتشمير؛ أي: ملفوف، ودعي بهيئة في لباسه.

١٠ - المُدَثِّر، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَثِّرُ﴾ ﴿١﴾ [المدثر: ١]. المدثر بثيابه، والدثار: هو ما يغطي به الإنسان. واختلف لم ناداه الله بالمدثر؟! قال الجمهور: لأنه لما فزع من رؤية جبريل ﷺ رُعب منه، ورجع إلى خديجة ﷺ، فقال: زملوني، وقيل: نودي وهو في حالة تدثر، فدعي بحال

من أحواله<sup>(١)</sup>.

١١ - الرؤوف، الرحيم. قال تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] فالرسول ﷺ مبالغ في الشفقة، والرأفة أرق من الرحمة، فهو رقيق بمن يدعوهم يرجو لهم النجاة من النار، ويدفع عنهم الشرور والآثام.

### أسماء الرسول ﷺ في السنة ومعانيها:

وردت عدة أحاديث عن المصطفى ﷺ حوت أسماءه الشريفة نذكر منها الآتي:

عن محمد بن جبير بن مطعم<sup>(٢)</sup> عن أبيه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لي خمسة أسماء: أنا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشِرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ)<sup>(٣)</sup>. وفي رواية مسلم الآتية بين الحديث معنى اسم العاقب.

عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشِرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ)<sup>(٤)</sup>.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فقال: (أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ)<sup>(٥)</sup>.

وعن عطاء بن يسار ﷺ قال: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ ﷺ،

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٣٩٢/٥).

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٣٥٣٢.

(٣) صحيح مسلم (١٤٥٨/٤) حديث رقم ٢٣٥٤.

(٤) صحيح مسلم (١٤٥٨/٤) حديث رقم ٢٣٥٥.

(٥) صحيح البخاري ص ٤١٩ حديث رقم ٢١٢٥. قوله ﷺ: (وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ) بفتح المهملة والخاء المعجمة بعدها موحدة، ويقال فيه الصخب بالصاد المهملة بدل السين، وهو رفع الصوت بالخصام. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤٣١/٤).

قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ، قَالَ: أَجَلٌ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَحِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ، لَيْسَ بِفَطْرًا، وَلَا غَلِيظًا، وَلَا سَخَابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ؛ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُفْتَحَ بِهَا أَعْيُنُ عُمِّيٍّ، وَأَذَانُ صُمٍّ، وَقُلُوبُ غُلْفٍ<sup>(١)</sup>. وبالنظر في الأحاديث السابقة نجد أن الأسماء التي اشتملت عليها الأحاديث بالإضافة إلى محمد وأحمد هي: الماحي، والحاشر، والعاقب، والمقفي، ونبى التوبة، ونبى الرحمة، والمتوكل، ولكل اسم سمي به المصطفى من المعاني والظلال الشيء الكثير نذكر منها الآتي:

١ - الماحي: معناه بئس من المحو والإزالة، سُمِّيَ به عليه الصلاة والسلام لإزالة الكفر به من جزيرة العرب، وما زُوِيَ له ﷺ من الأرض، وَخُصَّتْ جزيرة العرب لأن الكفر ما انمحي من جميع البلاد، ولأن الله ﷻ يمحو به سيئات من اتبعه، لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ [الأنفال: ٣٨]، كما أن الكفر لم يمح بأحد من الخلق ما محى بالنبى ﷺ، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار، وقيل غير ذلك.

٢ - الحاشر: والمعنى؛ أنه يحشر الناس على أثره وزمان نبوته ورسالته وليس بعده نبى، فلما كان لا نبى بعده نسب الحشر إليه؛ لأنه يقع عقبه. والحشر هو الضم، فكأنه بعث ليحشر الناس. وقيل أنه ﷺ يحشر قبل الناس.

٣ - العاقب والمقفي: ومعنى العاقب أي: الخاتم فليس بعده نبى، وجاء ﷺ عقبهم فهو الآخر، واسمه ﷺ المقفي بمعنى العاقب وهو المتبع للأنبياء وآخرهم؛ لأن قافية كل شيء آخره، والمتبع لآثار من تقدمه، فقضى الله ﷻ به على آثار من سبقه من الرسل، فهو خاتمهم وآخرهم<sup>(٢)</sup>.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٦٨٩ - ٦٩١)، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/١٠٥)، زاد المعاد لابن قيم الجوزية (١/٩٤).

(٢) سنن الترمذي (٥/٤٦١) حديث رقم ٣٤٣٤، قال: حديث حسن صحيح غريب.

٤ - نبي التوبة ونبي الرحمة متقارب، ومقصودها أنه ﷺ جاء بالتوبة، وبالتراحم، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سَاجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْبَةِ وَمَثَلُهمْ فِي الْإِجْحَادِ كَرِيمٌ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال ﷺ: ﴿تَدْرَكَ كَانٍ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١٧]، ونبي الرحمة، هو الذي أرسل رحمة للعالمين، فرحم الله ﷺ به أهل الأرض كلهم، مؤمنهم وكافرهم، أما المؤمنون فنالوا النصيب الأوفر من الرحمة، وسمي ﷺ بنبي التوبة لأنه هو الذي فتح الله ﷻ به باب التوبة على أهل الأرض؛ فتاب الله عليهم توبة لم يحصل مثلها لأهل الأرض قبله، ولأنه ﷺ كان أكثر الناس استغفاراً وتوبة، حتى كانوا يعدون له في المجلس الواحد مائة مرة: (رَبِّ اغْفِرْ وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْعَفُورُ)<sup>(١)</sup>، كما أن توبة أمته أكمل من توبة سائر الأمم، وأسرع قبولاً، وأسهل تناولاً، وكانت توبة من قبلهم من أصعب الأشياء، وأما هذه الأمة فلكرامتها على الله جعل توبتها الندم والإقلاع<sup>(٢)</sup>.

٥ - المتوكل: قيل: هو المتوكل على الله لقناعته باليسير، والصبر على ما يكره، ولأنه توكل على الله في إقامة الدين توكلأ لم يشركه فيه غيره<sup>(٣)</sup>.

يلاحظ قوله ﷺ في الأحاديث: لي خمسة أسماء؛ مع أنه ﷺ له أسماء أخرى، وذلك يمكن تفسيره بالآتي:

١ - أنه أراد عليه الصلاة والسلام أن له خمسة أسماء اختص بها لم يسم بها أحد قبله ﷺ. قال عياض رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: حمى الله هذه الأسماء أن يُسَمَّى بها

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/١٠٥)، زاد المعاد لابن قيم الجوزية (١/٩٥).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٨/٧٥٣)، زاد المعاد لابن قيم الجوزية (١/٩٤).

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٦٩٢)، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/١٠٥).

أحد قبله، وإنما تسمى بعض العرب محمداً قرب ميلاده لَمَّا سمعوا من الكهان والأخبار أن نبياً سيعث في ذلك الزمان يسمّى محمداً.

٢ - أن هذه الأسماء مُعظّمة، أو مشهورة في الأمم السابقة ولم يرد ﷺ الحصر.

٣ - أن هذه الأسماء أشهر من غيرها موجودة في الكتب القديمة وبين الأمم السالفة<sup>(١)</sup>.

ولقد ذكر علماء السلف أسماءً للرسول ﷺ سوى تلك التي وردت في الكتاب والسنة نذكر منها الآتي:

### أسماءه ﷺ عند بعض العلماء:

قال ابن حجر رحمته الله: ومن أسمائه المشهورة؛ المختار، المصطفى، الشفيق، المشفع، الصادق، المصدق رحمته الله<sup>(٢)</sup>، وذكر ابن قيم الجوزية رحمته الله كذلك من أسمائه؛ الفاتح، وهو الذي فتح الله به باب الهدى بعد أن كان مرتجأً، وفتح به الأعين العمي والآذان الصم والقلوب الغلف، وفتح الله به أمصار الكفار، وفتح به أبواب الجنة، وفتح به طرق العلم النافع والعمل الصالح؛ ففتح به الدنيا والآخرة، والقلوب والأسماع والأبصار والأمصار. والأمين، فهو أحق العالمين بهذا الاسم، فهو أمين الله على وحيه ودينه، وهو أمين من في السماء وأمين من في الأرض، ولهذا كانوا يسمونه قبل النبوة الأمين. والضحوك القتال، والاسمان مزدوجان، لا يفرد أحدهما عن الآخر، فإنه ضحوك في وجه المؤمنين، غير عابس، ولا مقطب، ولا غضوب، ولا فظ، قتال لأعداء الله لا تأخذه فيهم لومة لائم. والبشير، المبشر لمن أطاعه بالشواب، والمنذر لمن عصاه بالعقاب. والعبد وقد سماه الله رحمته الله عبده في مواضع من كتابه منها قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [١]، وقوله سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]. والسراج المنير وهو الذي يُنير من غير إحراق، بخلاف

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٦٩٢).

(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزية (١/٩٧).



الوهاج فإن فيه نوع إحراق وتوهج، حيث سمّاه الله سراجاً منيراً، وسمى الشمس سراجاً وهاجاً<sup>(١)</sup>.

ولقد كان لأسمائه عليه الصلاة والسلام أعظم الدلالة على خصائصه فلقد اصطفى الله ﷺ على الأنبياء والمرسلين، وخصه بخصائص لم يشاركه فيها ﷺ. ومن خلال البحث في معاني أسماء الرسول ﷺ وجد أنها تدلل على خصائصه ﷺ في الدنيا والآخرة، نذكر منها - على سبيل المثال لا الاستيعاب - الآتي:

١ - محمد، دلّ بمعناه على أنه صاحب المقام المحمود، وصاحب لواء الحمد، وأنه صاحب الشفاعة التي يحمده الناس عليها، وأنه يفتح له فيها بأنواع المحامد. وما اختص به من النور الذي لم يهدّ لغيره وهو فاتحة الكتاب - سورة الحمد -، وخصيصة ظاهرة لأمته لأنهم - كما ثبت - هم الحمّادون.

٢ - الماحي، دلّ على ما اختص به ﷺ من الإرسال للناس كافة، فالله يمحو به الكفر. وعلى إظهار دينه ما زوى له الأرض فرأى مشارقتها ومغاربتها، ولأنه جاء بالشرعية الخاتمة التي لا يحكم في الأرض سواها، قال ﷺ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ عِزَّ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٣ - الحاشر والعاقب والمُقَفِّي، دلّ على أنه خاتم الأنبياء وآخرهم، وأنه الشاهد على جميع الأمم.

٤ - نبي التوبة والرحمة والمرحمة، خصيصة ظاهرة للرسول ﷺ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ذَلَّلُوا لَكُمْ وَأَضْرَبُوهُمْ وَاللَّدَائِقُ وَالْخَصْبُ وَالْمُؤَلَّفُونَ لَكُمْ مِنَ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِسْلَامِ فَذَلَّلْتُمْ لَهُمْ وَاللَّذَّائِقُ الَّذِينَ لَمْ يَأْمُرُوا بِالْعُرْوَةِ وَنَصَرُواهُ وَأَتَّبَعُوا النَّوْرَ الَّذِي أَنْزَلْنَا مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤَلَّفُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٥ - نبي الملحمة: من خصائصه أنه بعث بالجهاد والقتال حتى يطهر الأرض وهذه ترتبط بخصيصة «أعطيت مفاتيح الأرض».

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٥٣٩.

## كُنْيَةُ الرَّسُولِ ﷺ:

ويبدو أنه من المناسب هنا ذكر كنية الرسول ﷺ، وما يتعلق بها من أحكام:

لقد كُنِيَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَبِي الْقَاسِمِ نَسْبَةً إِلَى أَكْبَرِ أَوْلَادِهِ الْقَاسِمِ، وَفِي التَّكْنِيَةِ بِكُنْيَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خِلَافَ مَبْنَاهُ مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ مِنَ النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (تَسَمَّوْا بِأَسْمِي، وَلَا تَكْنُوا بِكُنْيَتِي) (١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَادَى رَجُلٌ رَجُلًا بِالْبَقِيعِ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَمْ أَغْنِكَ، إِنَّمَا دَعَوْتُ فَلَانًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: (تَسَمَّوْا بِأَسْمِي، وَلَا تَكْنُوا بِكُنْيَتِي) (٢).

والكُنْيَةُ بضم الكاف وسكون النون، مأخوذة من الكناية، تقول: كنيته عن الأمر بكذا، إذا ذكرته بغير ما يستدل به عليه صريحاً. وقد اشتهرت الكنى للعرب، حتى ربما غلبت على الأسماء، كأبي طالب، وأبي لهب وغيرهما، وقد يكون للواحد كنية واحدة فأكثر، وقد يشتهر باسمه وكنيته جميعاً، (الاسم والكنية واللقب يجمعها العَلَمُ)، وتتغاير بأن اللقب ما أشعر بمدح أو ذم، والكنية ما صُدِّرَتْ بِأَبٍ أَوْ أُمٍّ، وما عدا ذلك فهو اسم.

هذه هي نهاية المرحلة الأولى مرحلة الرعاية والعناية الإلهية التي سبقت ومهدت لخروج خير مخلوق وآخر نبي، محمد ﷺ، ونحن بصدد مرحلة جديدة تشير إلى عون الله وعنايته التي أحاطت بخير البشر ﷺ منذ أن شقَّ الدُّجَى صوت الوليد الحبيب إلى أن أثار الكون مَبْعُثُهُ ﷺ وَكُلَّفَ بالمهمة العظيمة التي غيرت مجرى التاريخ. وهذا ما سنتناوله في المطلب الثاني:

(١) صحيح مسلم (٣/١٣٤٠)، حديث رقم ٢١٣١.

(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٤/٣٣٩)، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٦٩٥)، (١٠/٧٠٠).

## المرحلة الثانية من الولادة وحتى البعثة

هذه الفترة ظلت قرابة الأربعين عاماً، انتقل فيها المصطفى ﷺ من إعداد لآخر، وعاش فيها بإرادة الله ﷻ في أحوال ومقامات، إلى أن بُعث بالهيئة التي أَرادها ﷻ.

إن المُتأمل في كتاب الله ﷻ، يجد في آياته الدليل الواضح على أن الله ﷻ قد تعهّد نبيّه ﷺ تعهداً كاملاً، وأولاه رعاية تامّة، فشبّ ﷺ يكلؤه الله ﷻ ويحفظه ويحوطه، حتى صار رجلاً من أفضل رجالات قومه مروءة، وأحسنهم أخلاقاً، وأعظمهم جِلماً، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تُدنس الرجال، ويجمع ذلك كله قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطور: ٤٨]، فأى تعبير أعظم من ذلك؟! وأيُّ ظلال يلقيها قوله تعالى: ﴿فَأِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؟! ومن يكون في هذا المقام وتلك المنزلة. هل يُعاب فيه شيء، أو يُنال منه أحد؟ إنها الرعاية التامّة، والإحاطة الكاملة، التي لاقتها حياة محمد ﷺ، النموذج الفريد في عالم البشر جميعهم، قال تعالى: ﴿وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٤﴾ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾﴾ [الضحى: ١ - ٥].

فتأمل مطابقة هذا القسم؛ وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل، للمقسم عليه وهو نور الوحي، الذي وافته بعد احتباسه عنه! وتأمل الجزالة والرونق الذي على الألفاظ، والجلالة التي على معانيها. ولقد نفى ﷺ أن يكون ودع نبيه أو قلاه، فما تركه منذ أن اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه، ولا منعه من عطاياه من شيء، فقد أجزل له العطاء حتى رضي ﷻ، قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾﴾<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٢٥٥/٥).

إن أربعين سنة من حياة الرسول ﷺ هي الأرضية التي أقيمت عليها نبوته، النسب الأصيل، اليتيم السريع، الفقر والحرمان، رحلتان بعيدتان إلى الشام، الإسهام في أحداث مهمة شهدتها مكة المكرمة، الزواج بالسيدة خديجة ﷺ، فترات من العزلة والتأمل في الغار، بالإضافة إلى أحداث غير مرئية جاءت بمثابة إرهاصات أولية عن أن هذا الإنسان هو النبي الذي سيكون له دورٌ كبيرٌ في تاريخ البشرية، والخير الذي راح يتدفق في مضارب مرضعته، وشق صدره، وإشارات الراهب (بحيرا) على تخوم الشام، هكذا تبدو حياة رسولنا الكريم قبل مبعثه، سلسلة مترابطة الحلقات، منطقية التعاقب، من تجارب وخبرات في شتى المساحات، عائلية ونفسية وحركية واقتصادية وحرية وسياسية ودينية واجتماعية.

أما البُعد الأخلاقي في حياة الرسول فتمثّل في انسلاخه الحاسم عن كل ممارسات الجاهلين، والبعد الروحي الذي تمثل في عزل الرسول ﷺ بعيداً عن صخب مكة وضجيجها وانقطاعه إلى الصحراء وحيداً متأملاً باحثاً منقياً<sup>(١)</sup>.

وبتتبع سيرة الرسول ﷺ نجد أن ما مرَّ به من أحوال ومقامات لم يكن عشوائياً وإنما كان ذلك كله من اختيار الله ﷻ الحكيم الخبير، والذي أراد أن ينشأ رسوله الخاتم فيها ليتربى على ما أراد الله وتحت كلاءته وعنايته وملاحظته، ومن ذلك:

### أولاً: اختيار اليتيم له ﷺ:

قال صاحب أضواء البيان رحمه الله: «اليتيم كان لإبراز فضله ﷺ لأن يتيم أمس أصبح سيد الغد، وكافل اليتامى»<sup>(٢)</sup>، اختار الله ﷻ اليتيم لنبيه وصفيه، حتى يختصه ﷻ بتربيته وحده فالدلال الذي يجده الطفل في حضن أبويه، والحنان الذي يورثه النعومة، يجعلانه غير قادر على مواجهة مشاكل الحياة،

(١) انظر: دراسة في السيرة للدكتور عماد الدين خليل من ص ٤٥ إلى ص ٥٢ باختصار وتصرف.

(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٢٨٢/٩).

والعطف الزائد يُحوّله إلى عالّةٍ على المجتمع، بدلاً من أن يكون عضواً نشيطاً في تطويره، ومنحه فرص الحياة الكريمة، والخوف عليه من مواجهة الصعوبات التي تعترض طريقه، يُصيرُه جباناً رعديداً يفر من الناس ويتبرم بأبسط العقبات. بيد أنه ﷺ شب يكلؤه ربه ﷻ ويحفظه ويحوطه. قال ﷺ:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ [الضحى: ٦].

فمن مرارة اليتيم، ووحشة العزلة، وانقطاع معين العطف والحنان، قس الرسول ﷺ الصلابة والاستقلال، والقدرة على التحمّل، والإرادة النافذة، والتحدّي الذي لا تنكسر له قناة<sup>(١)</sup>، فجمع له ربه يُثم الأبوين ليستخلصه بتربيته، ويضطنعه لنفسه، فتكون نشأته ﷺ نشأة ربانية، بعيدة عن كافة المؤثرات الخارجية.

كما اختار الله ﷻ له العيشَ مع عمّه أبي طالب الذي بالغ في رعايته والاعتناء به وبشأنه حتى وافته المنية، وبذا انتقل - بإرادة الله ﷻ - إلى عمه شقيق والده عبد الله، مع أنه كان قليل المال، كثير العيال؛ ليُهيأ في تلك الظروف للاتجاه إلى ما أراد الله ﷻ له أن يكون.

وكما اختار الله ﷻ حواضنه ومرضعاته، فمن حواضنه أم أيمن - أم أسامة بن زيد - وإنها لحكمة عالية أن تكون حاضنته بعد أمه، أمة حبشية سوداء، ليُرَبّي تربية ربانية مبكرة على أن يكون حامياً ونصيراً للضعفاء والأرقاء، ومحراً لهم عن كل العبوديات<sup>(٢)</sup>.

ولقد كتب الله ﷻ في سابق حكمه أن نبيّه يكون رضيعاً لحليمة الحليلة، فقد اختارها من بين صُويحباتها لتكون مرضعة الرسول ﷺ، والحديث عن أوجه الحكَم المختلفة في حياة محمد ﷺ لا ينتهي عند حد، ولا يمكن إدراك جُلّه مهما كتب الكاتبون، وبحث الباحثون، وحلل المفكرون. فلحكمة حَجَب الله ﷻ المواليد عن حليلة، وحجب الرسول ﷺ

(١) انظر: تأملات في سيرة الرسول للوكيل ص ١٤ إلى ١٦، دراسة في السيرة للدكتور عماد الدين خليل ص ٤٧.

(٢) انظر: دولة الرسول للدكتور كامل الدقس ص ١٣٥.

عن المُرضعات، واختارها وحدها من بينهنّ، والله ﷻ قد تعهد نبيه بالرعاية في صغائر أموره قبل كبارها، فذهب إلى بادية عرفت بصفاء البيان وفصاحة اللسان.

ثانياً: شق صدره الشريف ﷺ:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

لقد كان شق صدره ﷺ، من أعظم أنواع الإعداد الذي حظي به المصطفى ﷺ. فقد شُقَّ صدره الشريف، وغُسل بأطهر المياه، ماء زمزم المبارك، فطهره، ونزعت المضغة السوداء منه، وملئ بالحكمة، فكان إعداداً متميزاً، وعناية نادرة، وإحاطة فائقة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أَنَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْعِلْمَانِ. فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ. فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً. فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ. ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طِيسٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ. ثُمَّ لَأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ (١).

وخصَّ الطست بذلك، لكونه أشهر آلات الغسل عرفاً، والذهب لكونه أغلى أنواع الأواني الحسية وأصفاها، ولأن فيه خواصاً ليست لغيره، ويظهر لها هنا مناسبات منها: أنه من أواني الجنة، ومنها أنه لا تأكله النار، ولا التراب، ولا يلحقه الصدأ، ومنها أنه أثقل الجواهر، فناسب ثقل الوحي. وقال السهيلي وغيره: إن نظر إلى لفظ الذهب ناسب من جهة إذهاب الرجس عنه، ولكونه وقع عند الذهاب إلى ربه، وإن نظر إلى معناه فلوضاءته، ونقاؤه، وصفائه، ولثقله ورسوبته، والوحي ثقيل، وفي اختيار ماء زمزم فضيلة له على جميع المياه (٢).

وقد شق صدره الشريف مرتين، كان الأول لنزع العلقة التي قيل له عندها هذا حظ الشيطان منك. والثاني: كان لإعداده للتلقي الحاصل له

(١) صحيح مسلم (١٣١/١) حديث رقم ١٦٢.

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٢٦٠/٨).

في تلك الليلة، وليتأهب للوفود إلى الملاء الأعلى، ولمناجاة الرب ﷺ  
 والمثول بين يديه تبارك وتعالى. فقد حدث أبو ذر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ  
 قال: (فُرِحَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ. فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، فَفَرَحَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ  
 بِمَاءٍ زَمْزَمَ. ثُمَّ جَاءَ بِطُسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِيٍّ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَعَهَا فِي  
 صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ) <sup>(١)</sup>.

وقد جعل في الطُّسْتِ شيء يحصل به كمال الإيمان والحكمة، سُمِّي  
 حكمة وإيماناً مجازاً، والحكمة هي العلم المشتمل على المعرفة بالله مع  
 نفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق للعمل به والكف عن ضده،  
 والحكيم من جاز ذلك، وقد تطلق الحكمة على القرآن وهو مشتمل على  
 ذلك كله، وعلى النبوة كذلك، وقد تطلق على العلم فقط وعلى  
 المعرفة <sup>(٢)</sup>.

والذي يظهر أن شرح الصدر الذي امتنَّ به الله ﷺ على نبيه ﷺ أوسع  
 وأعم حتى أنه يشمل صبره وعفوه عن أعدائه ومقابلة إساءاتهم بالإحسان حتى  
 أنه ﷺ ليسع العدو كما يسع الصديق.

### ثالثاً: اشتغاله ﷺ في أعمال عديدة منها:

رعي الغنم، اتجه الرسول ﷺ إلى رعي الغنم ليعين عمه على ظروف  
 معيشته، ولقد سبق الحديث في الفصل السابق عن الحكمة في اختيار هذه  
 المهمة لكافة الأنبياء؛ إن رعي الغنم قد أتاح للرسول ﷺ الهدوء والبعد عن  
 صخب قريش، وكافة الأوبئة التي كانت تحيها في مختلف جوانب حياتها،  
 وكذلك أتاح له التطلع إلى عظمة الكون الواسع من حوله، كما أتاح له تعلم  
 الصبر والحلم والأناة والرحمة والعناية بالضعفاء، إنه لون الحياة التي  
 اختارها الله لكل من اصطفاهم لسياسة الخلق.

(١) صحيح البخاري ص ٦٨٠ حديث رقم ٣٣٤٢.

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦٠٧/١)، والسيرة النبوية لابن  
 كثير (٢٣١/١).

التجارة، ثم وجَّهته عناية الله ﷺ إلى التجارة لينطلق إلى بلاد الشام، بؤابة الجزيرة العربية إلى العالم الخارجي، وكأنه يُعدُّ ﷺ لمعرفة الطريق الذي أشار به إلى صحابته عندما نصحهم بالشام دون اليمن، والاتجاه إلى الشام اتجاه إلى العالم كله، فهذا هو طريقه للدعوة إلى الناس كافة، ثم إنَّ الوصول إليها وصول إلى الديار التي سيكون إليها مسرَّاه ومنها معراجه، الديار التي تَعَطَّرَ جوُّها بدعوة الأنبياء والرسل الذين سبقوه، كما أن مسيرته إلى هناك ستسمعه أقوال أهل الكتاب عن النبي المنتظر فستتهياً نفسه تدريجياً لذلك، كما يسمع قومه بذلك فتزداد عنايتهم به؛ لقد أسمع الراهب عمه أبا طالب أن محمداً ﷺ - ابن أخيه - هو سيد العالمين، لما رأى من سجد الشجر والحجر له ﷺ، وتظليل الغمامة له، وميل فيء الشجرة عليه<sup>(١)</sup>. هذا بالإضافة إلى ما ستعلمه التجارة من الاحتكاك بالناس، والتعرف على معادتهم.

لقد كان لسفره ﷺ أثرٌ كبير في نفسه، فقد رأى قوماً غير قومه، وعادات غير عاداتهم وتفكيراً غير تفكيرهم، وعقائد غير عقائدهم، وأخلاقاً غير أخلاقهم، ومعيشة غير معيشتهم، وجواً غير جوهم، وبلاداً غير بلدتهم، وكان محمد ﷺ من الذكاء والفتنة، ورجاحة العقل بحيث لا يمكن أن تمر به هذه الصور ثم لا تترك أثراً في نفسه، الأثر الذي تتسع له حياة طفل في الثانية عشرة من عمره، نشأ نشأة صقلها اليتيم، وهذبها شرف الأصل وطهارة الأعراق، وعزة المنبت، مع رعاية الله ﷺ وحفظه عن التدنس بدنس الجاهلية وأوضارها<sup>(٢)</sup>.

#### رابعاً: إسهامه في أحداث مهمة مع قومه ومنها:

حرب الفجار، شهد رسول الله ﷺ أحداثاً مهمة مع قومه كان لها أكبر الأثر في إعدادة وصقله، منها حرب الفجار التي كانت بين كنانة وقَيْس

(١) الحديث بتمامه في صحيح الجامع للترمذي (٥٥٠/٥) رقم ٣٦٢٠. قال أبو عيسى:

هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٢) انظر: محمد رسول الله للعرجون (١/١٧٥ - ١٧٦).



عيلان، وسميت بذلك لفجور الفريقين باستحلال الشهر الحرام، وسببها أن رجلاً من كنانة قتل رجلاً من هوازن فثارت الأخيرة وأدركت قريشاً قبل أن تدخل الحرم فتتقاتلا، ولاذت قريش بالحرم، فأمسكت هوازن لحرمة البيت، وأنذرت قريشاً بالحرب في العام المقبل، فكان الرسول يخرج مع أعمامه يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها. والرسول ﷺ باشتراكه في هذه الحرب يكون قد حصل على خبرة عسكرية في سن مبكرة، وذلك لأنه في المستقبل سيكون قائد هذه الأمة حيث يكون الجهاد فريضة<sup>(١)</sup>.

حلف الفضول، كما شهد المصطفى ﷺ حلف الفضول الذي اجتمعت عليه هاشم، وزهرة، وتيم بن مرة في بيت عبد الله بن جدعان، وتحالفوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم، إلا قاموا معه، ولما سمع القوم بأمر هذا الحلف، قالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمور، وسموه حلف الفضول. وشهود الرسول ﷺ لهذا الحلف فيه تدريب له على اكتساب خبرات جديدة، وممارسة لأمر ينبغي أن يُحيط بها علماً، ويتمرس على عقد المعاهدات وإبرام الاتفاقيات<sup>(٢)</sup>.

لقد استجابت نفسه الشريفة لحلف الفضول الذي تعاهد المشاركون فيه على نصرة المظلوم؛ لأنه جزء مما أعد الله له لقيادة البشرية وتحرير العباد، إنها رسالة الإسلام التحريرية، رسالة العدل المطلق لجميع أفراد البشرية<sup>(٣)</sup>.

المشاركة في بناء الكعبة، ومن أعظم الأعمال التي كتب الله ﷻ لرسوله المصطفى أن يشارك فيها قومه، بل كان له فيها قصب السبق، المساهمة في بناء الكعبة، وذلك عندما اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود، وكادت أن تقوم بينهم مقتلة عظيمة لحرصهم جميعاً على نيل الشرف الكبير في وضع الحجر مكانه، فهدوا إلى الرضا برأي أول داخل، فكان من شاء الله أن يُكرم بذلك، فإذا هو سيد البشرية محمد بن عبد الله ﷺ، دعوة إبراهيم عليه السلام باني البيت العتيق، يدخل دون الجموع الغفيرة التي كانت تقطن المكان، يدخل وحده

(١) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/٢٥٥)، تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ص ٢٠.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/٢٥٩)، تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ص ٢٢.

(٣) دولة الإسلام للدكتور كامل الدقس ص ١٥١.

دون أن يكون قبله أو معه أحد، فوافق ذلك رضى في أنفسهم، لحُبهم لمحمد ﷺ، ولما جُبلَ عليه من كريم الخصال، فظهرت مهارته وحنكته وعبقريته في أن وضع الحجر على ثوبه، وتشرّف وحده دون غيره بإتمام بناء والده إبراهيم ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

### خامساً: توجيهه للخلوة وتحبيها له ﷺ:

إن الخلوة من الأمور التي شاركت في إعداد شخصية الرسول ﷺ فالله ﷻ حَبَّبَ إليه الخلاء، ليتفرغ قلبه وعقله وروحه إلى ما سِيلَقَى إليه، وهذا الخلاء الذي حُبَّبَ إليه كان لوناً من الإعداد الخاص، وتصفية النفس من علائق المادية البشرية، إلى جانب تعهده الخاص بالتربية الإلهية والتأديب الربّاني في عموم أحواله.

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: (أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءِ)<sup>(١)</sup>. فكان الخلاء وسيلة ربانية اختارها الله لعبده محمد ﷺ، وطريقة من طرائق التعهد التربوي لإعداده ﷺ لتحمل ما ينتظره من أعباء الرسالة، وأثقال تنزيلها، لذلك جاء التعبير عنه في الحديث (حُبَّبَ إِلَيْهِ) للإشعار بأنه أمر روحاني وجّه إليه توجيهاً ربانياً خاصاً، وإلهاماً ألهمه الله ﷻ إليه ليكون تمهيداً للقاء الملك<sup>(٢)</sup>.

ومجيء الفعل (حُبَّبَ) دون ذكر فاعله لينبه على أن هذا الفعل لم يكن باعته من البشر، أو يكون ذلك من وحي الإلهام. والخلاء من الخلوة وهو فراغ القلب لما يتوجه له. ويتحنث بمعنى يتحنف، أي يتبع الحنيفة وهي دين إبراهيم<sup>(٣)</sup> ﷺ.

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٣.

(٢) محمد رسول الله للعرجون (١/٤٧٠).

(٣) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (١/٣٠).

والحكمة في اختيار غار حراء بالذات؛ أن لهذا الغار فضلاً زائداً عن غيره، من جهة أنه مُنزَوٍ في انعطاف وميل عن طرق مرور الناس، وهذا أجمع للفكر وخواطر القلب. كما أن من فيه يرى الكعبة قبل اتساع المباني<sup>(١)</sup>.

والغَطُّ المتكرر، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها، قال صلى الله عليه وسلم: (فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّلَاثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي)، والغَطُّ: الضم والعصر وحبس النفس<sup>(٢)</sup>. والحكمة منه هو إذابة لروابط العناصر الطبيعية البشرية عند محمد صلى الله عليه وسلم دون إفنائها إفناءً يفقدها وجودها، وكأنه بهذه الضمة الشديدة استفرغ بها بشريته، وأخلص روحانيته إخلاصاً استجمع به مشاعره واحساساته، ومدارك عقله، ونبضات قلبه، وخلجات وجدانه، وإشراقات روحه، تحقيقاً للتناسب الروحاني بينه وبين الطبيعة الملائكية التي يتلقى عنها الوحي، وتهيئاً له لتحمل ما سيلقى من مشاق التبليغ، ولشغله عن الالتفات لشيء آخر، وإظهاراً للشدة والجد في الأمر، وتنبيهاً على ثقل القول الذي سيلقى عليه، وإبعاداً لظن التخيل والوسوسة<sup>(٣)</sup>.

وفي اختيار عنوان رسالته «اقرأ» خصيصة لنبوته صلى الله عليه وسلم، ومعجزة لرسالته صلى الله عليه وسلم، فالرسول يقرأ بدون تعلم كغيره من الناس، إنما يقرأ قراءة إعجاز خصه بها الله تعالى، وهي دافع للأمة بعده «أمة اقرأ» أن تلزم منهجه في استمرار القراءة في أوسع مجالاتها وبدونها لن تكون.

### سادساً: الرؤيا الصادقة:

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: (أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَأَنَّ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِي

(١) انظر: المواهب اللدنية للقسطلاني (١٠٧/١)، محمد رسول الله للعرجون (١/٤٧٠ إلى ٤٧٢).

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٣، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١/٣٢).

(٣) انظر: المواهب اللدنية للقسطلاني (١٠٥/١)، محمد رسول الله للعرجون (١/٢٥٤ إلى ٢٦٧).

الصُّبْح). ومعنى قول عائشة رضي الله عنها: إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ أي: جاءت مجيئاً مثل فلق الصبح، أي: ضياؤه، لظهوره الواضح الذي لا شك فيه، والرؤيا الصالحة هي الصادقة، بُدئَ بها لتكون تمهيداً وتوطئةً لليقظة، ثم مهَّد له في اليقظة أيضاً رؤية الضوء وسماع الصوت وسلام الحجر<sup>(١)</sup>. فكان ذلك من الأمور التي سَاهَمَت في تهيئته رضي الله عنه؛ والتي كان لا يراها إلا جاءت مثل فلق الصبح، فكانت تزيد ثَقَّةً بنفسه، حتى أيقن أن هذه الرؤى ليست أضغاث أحلام، ولا خيالات نائم، ولكنها تدريب من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم على تلقِّي الوحي الذي سيتردد عليه<sup>(٢)</sup>.

### سابعاً: رؤية النور وسماع الصوت:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِمَكَّةَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً يَسْمَعُ الصَّوْتِ، وَيَرَى الضُّوْءَ<sup>(٣)</sup>، فكان عليه الصلاة والسلام يسمع الصوت؛ أي: صوت الهاتف به من الملائكة، ويرى الضوء أي: نور الملائكة، حتى رأى الملك بعينه وشافهه بوحي الله تعالى<sup>(٤)</sup>.

ومن قبيل الحماية والرعاية التي أولاها الله سبحانه لهذا النبي المصطفى توجيهه في أمور عبادته؛ فكان صلى الله عليه وآله وسلم كثير التأمل والتفكير، بعيداً عن عبادة الأصنام والسجود لها، يَمْتَنُّ الحلف بها وذكرها، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُوجِّه من قِبَلِ خالقه ومُصْطَفِيهِ إلى الصحيح من العبادة، والسَّيْر على الحنيفية السمحة، ملة أبينا إبراهيم عليه السلام، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسَمُّونَ الحُمْسَ، وكان سائر العرب يقفون بعرفة، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتي عرفات فيقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَفِرُّوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 199]، لقد كان

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٣، وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٣٠/١).

(٢) دراسة تحليلية لشخصية الرسول لمحمد قلعه جي من ص ٩٩ إلى ١٠٠ باختصار.

(٣) صحيح مسلم (١٤٥٨/٤) حديث رقم ٢٣٥٣.

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٠٣/١٥).

الرسول ﷺ يخالف قومه، وكان يقف بعرفات دونهم، وهذا من حماية الله له وتوجيهه ﷺ إلى الحنيفية السمحة، فعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قَالَ: أَضَلَلْتُ بَعِيرًا لِي فَذَهَبْتُ أَطْلُبُهُ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَاقِفًا مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَةَ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ! إِنَّ هَذَا لَمِنَ الْحُمْسِ، فَمَا شَأْنُهُ هَهُنَا؟ وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُعَدُّ مِنَ الْحُمْسِ<sup>(١)</sup>.

وما زالت عناية الله ﷻ بخليبه ورسوله محمد ﷺ تقوده وتحدد له مَجْرَى الطريق حتى أفضى إلى موعود الله ﷻ فكان الإعلام بالاصطفاء والتكليف بالرسالة إلى العالمين، وهذا ما سنتبعه في المرحلة الثالثة والتي هيأ الله فيها لرسوله المجتبي من حوله ليعينه في أداء تلك المهمة الجليلة.



(١) صحيح مسلم (٧٢٩/٢) رقم ١٢٢٠. والْحُمْسُ: بضم الحاء المهملة وإسكان الميم وبسین مهملة هم قريش ومن ولدته قريش، سُمُّوا حُمْسًا لأنهم تحمَّسوا في دينهم أي تشددوا، وقيل: سُمُّوا حُمْسًا بالكعبة لأنها حمساء؛ وحجرها أبيض يضرب إلى السواد، وكانوا في الجاهلية يقفون بالمشعر الحرام، وهو جبل في المزدلفة يقال له: قُرْح، وقيل: إن المشعر الحرام كل المزدلفة، وكان سائر العرب يتجاوزون المزدلفة ويقفون بعرفات، فلظنت قريش أن النبي ﷺ يقف في المشعر الحرام على عادتهم ولا يتجاوزها النبي ﷺ إلى عرفات لأن الله تعالى أمره بذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْبَهُنَا مِنَ حَيْثُ أَكَاثُ النَّكَاسِ﴾ أي: سائر العرب غير قريش، وإنما كانت قريش تقف بالمزدلفة لأنها من الحرم، وكانوا يقولون نحن أهل حرم الله فلا نخرج منه. قال القاضي عياض رحمته الله: «كان هذا في حجه قبل الهجرة». وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٤٢٤/٨).

## المرحلة الثالثة التهيئة والإعداد بعد مبعثه ﷺ

وكان ذلك لتهيئته ﷺ لقيادة البشرية جمعاء، ولأن تكون رسالته هي الباقية والخاتمة، وما تطلب ذلك من تسخير الأصحاب والزوجات، وتعرضه لأحوال منها معجزة الإسراء والمعراج....

### أولاً: اصطفاء صحابة الرسول ﷺ:

اصطفى الله ﷻ صحابة رسوله ﷺ الذين سيؤازرونه ويساندونه ويحيطون به فكانوا كما وصفهم الله ﷻ: ﴿كَرَّعَ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَكَازَرُهُ فَاسْتَعْلَطَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

اختارهم الله ﷻ من خيرة الناس بعد الأنبياء ﷺ؛ ليكونوا أهلاً لذلك المقام الفريد وتلك المرتبة الرفيعة، وهي صحبة سيد البشرية جمعاء فإن منزلة الصحبة لا يمكن أن تعدلها منزلة على الإطلاق.

فتميّزوا بذلك عن غيرهم بسبقهم إلى الإسلام، وإنفاقهم في بداية الدعوة، ومؤازرتهم للرسول ﷺ، وتلقيهم القرآن الكريم غصاً كما أنزل، ومعاينتهم للوحي، وفوزهم بشرف تربية الرسول ﷺ لهم، والعيش معه والجلوس في مجلسه، وسماع صوته، ورؤية الشرع واقعاً حياً مجسداً في أعمال الرسول ﷺ وسلوكه، كما نالوا شرف الانضمام إلى مدرسته، لدراسة وتطبيق أكمل المناهج وأتمها فكانوا خيار الناس الذين اصطفاهم الله ﷻ بعد النبيين ﷺ.

ولقد تتالت الآيات التي تنصُّ على خيريتهم، وعُلو مرتبتهم، قال تعالى: ﴿وَالسَّيِّفُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

أثنت الآية على تلك الطائفة المختارة وهم المهاجرون والأنصار، فهم الصحابة الكرام الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين وسادات المسلمين<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّجَ أَخْرَجَ سَطَطَهُ﴾ [الفتح: ٢٩]، فدللت الآية على أن صحابة المصطفى ﷺ معروفون بأوصافهم في الكتب السماوية السابقة أي: أنهم مختارون وممتقون منذ الأزل ليتشرفوا بتلك المكانة لأنهم أهلها، وأحق الناس بها.

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: ١٠] وإن ميزت الآية بين من أنفق قبل الفتح وبعده في زمن الرسول ﷺ، فإن البون سيكون أكبر بعد وفاته وتأخر القرون بعد قرنه.

ولقد جاءت السنة تُبَيِّنُ اصطفاء الله ﷻ للصحابة رضوان الله عليهم واختيارهم على غيرهم.

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ أَصْحَابِي عَلَى الثَّقَلَيْنِ سِوَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ)<sup>(٢)</sup>.

فالحديث يدلُّ دلالة واضحة على اصطفاء الصحابة على العالمين بعد الأنبياء ﷺ، لقوله ﷺ (اختار أصحابي) وهذا يدل على علو منزلتهم ومكانتهم التي جاوزت الثقلين، وأنهم أهل لأن يكونوا وزراء الرسول ﷺ في حياته وحمله دينه بعد مماته، فلم يُعلم عن أحد من أتباع الرسل ﷺ قام بمثل ما قام به صحابة المصطفى من الحفاظ على الدين والشريعة، فقدموا الدين

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٣٣٦/٧).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١٢/١)، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي (٧٣٦/٩) رقم ١٦٣٨٣. قال: رواه البزار ورجاله ثقات.

على الدنيا فلم يبالوا بضياعها ولم يلتفتوا إلى فنائها، يتنقلون بين البلاد حفاظاً على دينهم من الفتنة، فكأنهم كانوا خُلِقوا للآخرة وكانوا من أبنائها، فصارت الدنيا كأنها خُلقت لهم<sup>(١)</sup>. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيئ»<sup>(٢)</sup>.

ومما يدلُّ على اصطفاء الله صلى الله عليه وسلم للصحابة أنه لما اضْطَفَى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ليكون خاتم المرسلين فلا نبيَّ بعده يُعدَّل ما قد يحرفه الناس في شرعه، واصطفى الإسلام ليكون خاتم الأديان فلا دين بعده، وأنزل القرآن ليكون خاتم الكتب والمهيمن عليها وكتب في سابق علمه أنه محفوظ، واصطفى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وكتب لها البقاء والنصر والغلبة؛ فلما أراد الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك اصطفى الأخيار من الناس ليكونوا أهلاً لتحقيق مشيئته وتنفيذ إرادته فكانوا صحابة المصطفى صلى الله عليه وسلم، خيرة الناس بعد الأنبياء وأفضل أصحابهم على الإطلاق.

### المهمة التي اصطفى الله صلى الله عليه وسلم لها الصحابة:

اصطفى الله صلى الله عليه وسلم الصحابة للدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم وحمايته وفدائه بالنفس والمال والولد ليؤدِّي المهمة التي أرسل بها، وهذا ما ظهر في أعظم بيعة عقدت على وَجْه الأرض، حيث بايعوه على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العُسْر واليُسْر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يقولوا في الله لا يخافون فيه لومة لائم وعلى أن ينصروا الرسول صلى الله عليه وسلم ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبنائهم ولهم الجنة<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: شرح حياة الصحابة لمحمد إلياس الباره بنكوي (١/٥٣٩).

(٢) مسند الإمام أحمد (١/٣٧٩)، المستدرک للحاكم (٣/٧٨) صححه ووافقه الذهبي، المعجم الكبير للطبراني (٩/١١٢) حديث رقم ٨٥٨٢، مجمع الزوائد للهيتمي (٨/٤٥٣) حديث رقم ١٣٩١٦، وقال: رواه الطبراني ورجاله موثوقون.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير (٢/١٩٥)، سيرة ابن هشام (٢/٤٣٨).



كما كلفهم الله ﷺ مهمة تبليغ الرسالة الخالدة الباقية إلى قيام الساعة، ونشرها في أرجاء المعمورة، والوقوف أمام كافة الأعداء على اختلاف أنواعهم وأديانهم، والمحافظة على الدين من التحريف والتبديل، وفتح البلدان ورفع الظلم وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومحاربة الداخل والخارج، والقيام بأمر الدين بعد وفاة النبي ﷺ.

إن دوراً كهذا الدور الذي اختارهم الله ﷺ لأدائه ليدلُّ دلالة واضحة على أنهم صَفْوَةُ الخلق - على الإطلاق - بعد النبيين.

ولقد اعتنى الله ﷺ بتلك الكوكبة الإيمانية المباركة، وهياها لما اختارها إليه، فكان من عناية الله ﷺ بهم أن هداهم للإسلام فتلقوه من مشكاة النبوة، وتبع الرسالة عَذْباً زُلَالاً، فأخلصوا لدينهم وبذلوا المهج والأرواح والغالي والرخيص حتى قاموا بأمر الدين فشادوا بنيانه، وأكملوا صرحه وفتحوا البلاد والعباد، فمنَّ الله عليهم بأن جعلهم الأماناء على وحيه ليحملوه إلى أمته غضاً طرياً<sup>(١)</sup>.

ومن عنايته ﷺ بهم أن صاغهم أعظم صياغة هيأتهم ليكونوا وزراء لأعظم رسول، فحبَّب إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس.

#### أوصاف الصحابة رضي الله عنهم:

قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَازْرَدَهُ فَاسْتَفْظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩]. قال قتادة رضي الله عنه: مثل أصحاب محمد في الإنجيل مكتوب له سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: تنبيه ذوي النجابة إلى عدالة الصحابة للقريش بن عمر ص ٥.

(٢) اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (١٧/٥١٨).

لصحابة رسول الله ﷺ صفات عظيمة نكتفي بذكر بعض منها على سبيل  
المثال لا الحصر:

١ - أشداء على الكفار:

هذه هي صفة المؤمنين الصادقين أشداء على الكفار وإن كانوا آباءهم أو  
أبناءهم، يخافون قوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ  
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ  
مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي  
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]، وإنما كانت هذه الشدة على الكفار - مهما  
كانت منزلتهم - نتيجة طبيعية لعقيدة صحيحة سليمة تمكنت من قلوبهم، وأدت  
إلى قوة نفسية وعملية، وهذا ما يجب أن يعلمه مُسلمو اليوم؛ ولا بد أن  
يعلموا أن العقيدة الصلبة الراسخة إنما تظهر في الواقع حركة حية، ولا يكفي  
أن تكون إيماناً راکداً في النفس، وحياة الفرد تجري في مجرى آخر بعيداً  
عنها. لقد تجرّد الصحابة من شعور الأبوة والبنوة، وتجرّدوا من شهوات  
الدنيا، وباعوا كل ذلك رخيصاً أمام العقيدة وصلابتها، فنجحوا بإيمانهم  
واستأهلوا أن يكونوا خير الناس بعد النبيين والمرسلين.

٢ - رحماء على المسلمين:

جمع الصحابة رضوان الله عليهم بين ضدين في قلب واحد فحقّقوا  
عقيدة الولاء والبراء بأندر صورة سطرها التاريخ، وإنما نبعت هذه الرحمة من  
عقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله التي استقرّت في قلوبهم، ولم تخالطها  
الشوائب، فسيطروا بها على نزعاتهم ورغباتهم، فأحبّوا ما أحب الله وكرهوا  
ما كرهه، ومن هذا المنطلق فهم يحبون المسلمين ويرحمونهم ويوادونهم؛ لأن  
هذه هي متطلبات العقيدة الصحيحة. ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: متحابون،  
متراحمون، متعاطفون، كالجسد الواحد. يحبُّ أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه،  
هذه معاملتهم مع الخلق، فهم متعاطفون متوادون فيما بينهم، فترى أحدهم  
رحيماً برأ بالخيار، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي (٧/٣٢٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/٣٦٠)،  
تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧/١١٠).

امتدح الله ﷺ الصحابة بكثرة عبادتهم ودوامها، قال تعالى: ﴿رُحَمَاءُ  
يَبْتَغُونَ﴾، فأخبر ﷺ عن كثرة صلاتهم ومداومتهم عليها، ووصفهم بكثرة العمل  
وكثرة الصلاة، وذكر ﷺ أجلاً أركانها وهما: الركوع، والسجود، وهي خير  
الأعمال، كما وصفهم بالإخلاص فيها لله ﷺ، والاحتساب عند الله لجزيل  
الثواب، وهو الجنة<sup>(١)</sup>.

فهذه هي هيتتهم التي اختار الله ﷺ وصفهم بها هي ديمومة الركوع  
والسجود المعبر عن قمة الطاعة والخضوع، وتمام الانقياد لله ﷺ،  
والموضّح لمصدر الطاقة العظمى التي أمدتهم فكانوا هم الرجال. هدفهم  
ابتغاء الفضل من الله ﷺ والرضوان، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾،  
وجاء التعبير بصيغة المضارع المفيد لمعنى الاستمرار والديمومة والثبات  
حتى نالوه رضي الله عنهم أجمعين. سيماهم التي يعرفهم بها الناس من أثر  
سجودهم المستمر لله ﷺ، حسن السمات والخشوع والتواضع والنور الذي  
علا وجوههم، لهم سمة واحدة، وصورة واحدة، وعنوان واحد لصفحة  
حياتهم ترجمها قولهم:

نحن الذين بايعنا محمداً على الجهاد ما حيننا أبداً<sup>(٢)</sup>

٤ - مَرُضِيٌّ عَنْهُمْ وَمَوْعُودُونَ بِالْجَنَّةِ:

قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال ﷺ:  
﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ: «أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين  
من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان: فإيا وَيْلَ مَنْ أَبْغَضَهُمْ أَوْ  
سَبَّهُمْ، أَوْ أَبْغَضَ أَوْ سَبَّ بَعْضَهُمْ، ولا سيما سيّد الصحابة بعد الرسول  
وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي (٣٢٤/٧)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣١٦/٧)،  
تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١١١/٧).

(٢) انظر: تنبيه ذوي النجابة إلى عدالة الصحابة للقريش بن عمر ص ٥.

قحافة ﷺ! فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم، عياداً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من ﷺ؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمّن ﷺ، ويسبون من سبّه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويُعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون»<sup>(١)</sup>.

## ٥ - حُسْنُ سَمْتِهِمْ:

قال تعالى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] فلقد أثرت العبادة - من كثرتها وحُسنها - في وجوههم، حتى استنارت، فكما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت بالجلال، ظواهرهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ليس بالذي ترون، ولكنه سيماء الإسلام وسجيته وسَمْتُهُ وخشوعه. وهو قول مجاهد<sup>(٢)</sup> رضي الله عنه، والمعنى: أن السجود أورثهم الخشوع. والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس<sup>(٣)</sup>.

فكانوا أصحاب صفات متميزة، وأخلاق عالية، وعقول واعية، بهم حفظ الدين، وبُنيت قاعدته، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبْرَهَا قُلُوبًا، وَأَعَمَّقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ، وَإِقَامَةِ دِينِهِ، فَأَعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَدِينِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ)<sup>(٤)</sup>.

(١) القرآن العظيم لابن كثير (٢٠٣/٤).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٣٢٤/٧).

(٣) انظر: القرآن العظيم لابن كثير (٣٦١/٧)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١١١/٧).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، حققه الدكتور عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط (٥٤٦/٢).

وصفهم الله ﷺ بالصدق والفلاح، وأنزلهم منازلهم في الفضل، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَصْرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلِيَّكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ٨ - ١٠].

### خصائص الصحابة ﷺ:

خصَّ الله ﷺ الصحابة بكثير من الخصائص التي ميَّزتهم عن غيرهم من الناس نذكر منها على سبيل المثال الآتي:

#### ١ - الصحبة:

وهذه الخاصية العظيمة لا يُمكن لأحدٍ لم يُكرمه الله ﷺ بها أن يشاركهم فيها، فما صحبة المصطفى ﷺ إلا محض هبة من الله ﷺ وفضل يخص به من يشاء من عباده قال تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤١﴾﴾ [الحديد: ٢١].

الذي عليه الجمهور أن فضيلة الصحابة لا يعدلها شيء، لمشاهدة الرسول ﷺ، وبكفيهم رفعة اختصاصهم بهذه الخصيصة، فقد انتقاهم الله ﷺ من كافة خلقهم لخيرتهم ولفضلهم ليكونوا أصحاب خليله ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ، فكانوا بذلك أفضل الخلق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «إنهم الصفوة من قرون هذه الأمة، التي هي خير الأمم وأكرمها على الله ﷺ. ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيره، وما منَّ الله عليهم به من الفضائل، علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، فهم خير من الحواريين أصحاب عيسى ﷺ، وخير من النقباء أصحاب موسى ﷺ، وخير من الذين آمنوا مع نوح ومع هود وغيرهم ﷺ، لا يوجد أحد في أتباع الأنبياء أفضل من الصحابة ﷺ،

والأمر في هذا ظاهر لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠] وخيرنا الصحابة، ولأن النبي ﷺ خير الخلق، فأصحابه خير الأصحاب بلا شك (١).

## ٦ - خير قرون أمة محمد ﷺ:

تضافرت الأدلة من السنة على خيرية الصحابة رضوان الله عليهم، فهم خير قرون بني آدم على الإطلاق، عن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ يَلُونِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) (٢)، والسبب في كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار حينئذ، وصبرهم على أذاهم، وتمسكهم بدينهم، وكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين وتمسكوا به، وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصي والفتن كانوا أيضاً عند ذلك غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الزمان كما زكت أعمال أولئك. ويشهد له ما رواه مسلم ﷺ عن أبي هريرة رَفَعَهُ رَفَعَهُ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» (٣). والذي ذهب إليه الجمهور أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمَلٌ لمشاهدة رسول الله ﷺ، وأما من اتفق له الذب عنه والسبق إليه بالهجرة أو النصره وضبط الشرع المتلقى عنه تبليغه لمن بعده فإنه لا يعدله أحد ممن يأتي بعده؛ لأنه ما من خصلة من الخصال المذكورة إلا وللذي سبق بها مثل أجر من عمل بها من بعده، فظهر فضلهم (٤).

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية للشيخ العثيمين (٢/٢٩٣).

(٢) صحيح مسلم (٤/١٥٥٨) حديث رقم ٢٥٣٣. والقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة، ويقال: إن ذلك مخصوص بما إذا اجتمعوا في زمن نبي أو رئيس يجمعهم على ملة أو مذهب أو عمل.

ويطلق القرن على مدة من الزمان، واختلفوا في تحديدها من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين، والقرن مائة وهو المشهور، والمراد بقرن النبي ﷺ في هذا الحديث: الصحابة، وقد ظهر أن الذي بين البعثة وآخر من مات من الصحابة مائة سنة وعشرون سنة أو دونها أو فوقها بقليل.

(٣) صحيح مسلم (١/١١٨) حديث رقم ١٤٥.

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٧/٦ - ٨).

ومن الأحاديث الدالة على فضل الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وتابعيهم؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُبْعَثُ مِنْهُمْ الْبَعْثُ فَيَقُولُونَ: انظروا هل تجدون فيكم أحداً من أصحاب النبي ﷺ؟ فيوجد الرجل فيفتح لهم به. ثم يبعث البعث الثاني فيقولون: هل فيهم من رأى أصحاب النبي ﷺ؟ فيفتح لهم به. ثم يبعث البعث الثالث، فيقال: انظروا هل ترون فيهم من رأى من رأى أصحاب النبي ﷺ؟ ثم يكون البعث الرابع فيقال: انظروا هل ترون فيهم أحداً رأى من رأى أحداً رأى أصحاب النبي ﷺ؟ فيوجد الرجل فيفتح لهم به<sup>(١)</sup>. قال ابن بطال رحمته الله: وهو كقوله ﷺ: (خَيْرُكُمْ قَرْنِي) لأنه يفتح للصحابة لفضلهم، ثم للتابعين لفضلهم، ثم لتابعيهم لفضلهم، قال: ولذلك كان الصلاح والفضل والنصر للطبقة الرابعة أقل فكيف بمن بعدهم<sup>(٢)</sup>.

وإنما كانوا خير القرون بشهادة الله تعالى ورسوله لهم بكل فضيلة، من الإخلاص والصدق والتقوى والشدة في الدين ونصرة الله ورسوله والجهاد في سبيله وبذل النفوس والأموال وبيعها من الله، وإيثارهم على أنفسهم وكونهم خير أمة أخرجت للناس، وقد رضي الله عنهم ورضوا عنه. ومدح الله لا يتبدل ووعده لا يخلف ولا يتحوّل، إذ هو سبحانه المّطلع على عواقب الأمور، والعالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، فلا يمدح إلا من سبقت له منه الحسنى وكان ممدوحاً في الآخرة<sup>(٣)</sup>.

### ٣ - لا تبلغ منزلتهم:

بيّن عليه الصلاة والسلام بأنه لن يبلغ مكائهم ومنزلتهم أحد، ودعا لهم بالصلاح. عن أبي سعيد قال: قال ﷺ: (لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ

(١) صحيح مسلم (١٥٥٨/٤) حديث رقم ٢٥٣٢، والمراد بالبعث: الجيش. انظر:

صحيح مسلم بشرح النووي (٣٠٠/١٥).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١١١/٦).

(٣) انظر: حقائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار لمحمد بحرق الشافعي

ص ٤١٨.

أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدًّا أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ<sup>(١)</sup>، وقال ابن عباس رضي الله عنهما:  
 «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَمَقَامَ أَحَدِهِمْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عَمَلٍ أَحَدِكُمْ  
 أَرْبَعِينَ سَنَةً<sup>(٢)</sup>». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا عَيْشَ  
 إِلَّا عَيْشَ الْآخِرَةِ، فَأَصْلِحِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ)<sup>(٣)</sup>.

ومما زاد في شرفهم شهادة الرسول ﷺ لهم بأنهم أدوا ما عليهم، عَنْ أَنَسِ  
 ابْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ ﷺ: (أَوْصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضُوا  
 الَّذِي عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ)<sup>(٤)</sup>.

وقد أوصى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمهاجرين والأنصار خيراً،  
 قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «وَأَوْصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوْلِينَ  
 خَيْرًا، أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَأَنْ يَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ، وَأَوْصِيهِ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا،  
 الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ، أَنْ يُقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيُعْفَى عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَأَوْصِيهِ  
 بِذِمَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَأَنْ لَا يُكَلَّفُوا  
 فَوْقَ طَاقَتِهِمْ<sup>(٥)</sup>».

٤ - بقاؤهم أمان للأمة:

جَعَلَ الرَّسُولَ ﷺ بَقَاءَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم أَمَانًا لِلأُمَّةِ كُلِّهَا، رَفَعَ الرَّسُولَ ﷺ  
 رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَ: (النُّجُومُ أَمَنَةٌ  
 لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ. وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ  
 أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ. وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٣٦٧٣.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، تحقيق عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط  
 (٦٩٣/٢).

(٣) صحيح البخاري حديث رقم ٣٧٩٥.

(٤) صحيح البخاري حديث رقم ٣٧٩٩. وقوله ﷺ: (كَرِشِي وَعَيْبَتِي) أي: بطانتي  
 وخاصتي، يريد أنهم موضع سره وأمانته. وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري  
 لابن حجر (١٥٣/٧).

(٥) صحيح البخاري حديث رقم ١٣٩٢.



مَا يُوعَدُونَ<sup>(١)</sup>.

ومعنى الحديث أن النجوم ما دامت باقية، فالسمااء باقية، فإذا انكدرت النجوم، وتناثرت في القيامة وَهَتَتِ السَّمَاءَ، فانفطرت وانشقت وذهبت. وقوله ﷺ: «وأنا أمانة لأصحابي» أي: من الفتن وارتداد من ارتد من الأعراب واختلاف القلوب «وأصحابي أمانة لأمتي» من البدع، والحوادث في الدين، والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان، وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك، وهذه كلها من معجزاته ﷺ.

#### ٥ - وجوب محبتهم والترضي عنهم:

من عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يُحبون أصحاب رسول الله ﷺ، دون التمييز في حُب أحد منهم، ولا يتبرؤون من أحد منهم، ويبغضون من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا يذكرونهم إلا بخير، ويجعلون حُبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان<sup>(٢)</sup>.

قال صاحب العقيدة الطحاوية<sup>(٣)</sup> رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا نُفَرِّطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَا نَتَّبَرُّ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ، وَبِغَيْرِ الْخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ، وَلَا نَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ. وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ، وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ»<sup>(٤)</sup>.

(١) صحيح مسلم (٤/١٥٥٧) حديث رقم ٢٥٣١. قال العلماء: الأمانة بفتح الهمزة والميم. والأمن والأمان بمعنى واحد، وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٢٩٩ - ٣٠٠).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، تحقيق عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط (٢/٦٨٩).

(٣) هو الإمام العلامة الحافظ الكبير، محدث الديار المصرية وفتيها، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك المصري الطحاوي الحنفي، صاحب التصانيف البديعة من أهل قرية طحا، مولده في سنة تسع وثلاثين ومئتين هجرية، برز في علم الحديث وفي الفقه وجمع وصنّف. ارتحل إلى الشام في سنة ثمان وستين ومئتين وكان ثقة ثباتاً فقيهاً انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة. مات سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة هجرية. انظر: طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٥٥، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥، ٢٧).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، تحقيق عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط (٢/٦٨٩).

فمحببتهم من محبة رسول الله ﷺ، ومحبة رسول الله ﷺ من محبة الله ﷻ  
فمن حقهم على كل مسلم الثناء عليهم والترضي عنهم والترحم والاستغفار  
وغير ذلك، وذلك لوجوه منها:

أ - أنهم خير القرون في جميع الأمم لقوله ﷺ: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ  
الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) (١).

ب - أنهم هم الوساطة بين رسول الله ﷺ وبين أمته؛ فمنهم تلت الأمة  
عنه الشريعة.

ج - ما كان على أيديهم من الفتوحات الواسعة العظيمة.

د - أنهم نشروا الفضائل بين هذه الأمة من الصدق والنصح والأخلاق  
والآداب التي لا توجد عند غيرهم (٢).

#### ٦ - الْحُكْمُ بَعْدَالتَّهْمِ:

فهم جميعاً أصحاب تقوى وورع لا يتكلف البحث عن أقوالهم لقبول  
رواياتهم، فهم خُلص عباد الله ﷻ، ونخبة عباده، شمس أطلعهم الله ﷻ في  
سماة الإنسانية. اختارهم الله ﷻ لصحبة نبيه وزراء مخلصين، وأنصاراً  
محبين، وأعاوناً صادقين، أرباب دعوة، وحَمَلَة رسالة، ما مالوا إلى دَعَة، ولا  
أخذوا إلى راحة، ولم تغرهم الحياة الدنيا بزخرفها (٣).

فجميع الصحابة رضوان الله عليهم عدول بتعديل الله ﷻ ورسوله لهم  
ولقد وردت الآيات الكثيرة في الثناء عليهم والإخبار عن صدق إيمانهم منها  
قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا  
سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي  
التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِهَ اللَّهُ حُرُوبَهُمْ فَخَرَجَ سَطْرَهُمْ فَتَارَهُمْ فَاسْتَغْلَطَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِمْ يُعْجَبُ  
الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَقْفَرَةً وَأَجْرًا  
عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الفتح: ٢٩]. ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

(١) صحيح مسلم (١٥٥٩/٤) حديث رقم (٢٥٣٣).

(٢) شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية (٢٤٧/٢) الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(٣) انظر: صحبة رسول الله في الكتاب والسنة لعبادة الكبيسي ص ٢١، ويراجع كتاب  
فضائل الصحابة لعبد الله التليدي للاستزادة.

وَأَنْفُسَهُمْ وَأَوْلِيَّكَ لَهُمُ الْحَيْرَاتُ وَأَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ [التوبة: ٨٨ - ٨٩].

وقوله ﷺ: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا  
أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٥٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ  
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ  
وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ  
خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَفِّ سَخَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ  
يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا  
لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٠﴾﴾ [الحشر: ٨ - ١٠]

وكذلك وردت في السنة أدلة كثيرة لا تحصى في تعديل الصحابة  
وتركيبتهم<sup>(١)</sup>، كما أجمعت الأمة على عدالتهم وأنهم ليسوا بحاجة إلى التعديل  
وأنة لا يسأل عن حالهم ولا ينظر في أحوالهم فهم عدول بتعديل الله ﷻ،  
ومن عدله الله ﷻ فلا يُجرؤ على السؤال عنه.

#### ٥ - قبول أقوالهم:

قال ابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

الْعِلْمُ قَالَ اللَّهُ وَقَالَ رَسُولُهُ قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أَوْلُو الْعِرْفَانِ<sup>(٢)</sup>

فلا تُردُّ أقوالهم لأنهم هم الذين بلغوا الأمة الشرع، والسنة كلها من  
رواياتهم عن الرسول ﷺ وعليه فإن اتهامهم رضوان الله عليهم بالكذب أو  
التشكيك في أقوالهم مردود لأنه يؤدي إلى:

أ - تكذيب للقرآن الكريم الذي أثنى عليهم ومدحهم في عشرات  
الآيات.

(١) يرجع إلى صحيح البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ص ٧٤٧، صحيح مسلم  
كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم (٤/١٤٧٨).

(٢) القصيدة النونية لابن القيم ص ٢٢٦.

- ب - اتهام الله ﷻ بأنه لم يختار لنبيه ﷺ أصحاباً يحفظونه من بعده .
- ج - اتهام نبينا محمد ﷺ بأنه لم ينجح في تربية أصحابه وغرس العقيدة في أنفسهم .
- د - نزع الثقة من كل ما نقله الصحابة رضي الله عنهم من هذا الدين .
- هـ - إبطال الدين الذي أراده الله ﷻ ليكون ديناً أبدياً إلى قيام الساعة لعدم توافر النقل المأمون له حسب زعم أصحاب ذلك الاعتقاد الباطل .
- و - فيه افتراء على الله ﷻ في عدم إقامة الحججة على الناس<sup>(١)</sup> .

### آثار اصطفاء الله ﷻ للصحابة :

إنَّ المتأمل في حياة صحابة الرسول ليجد أنَّ آثار اصطفاء الله ﷻ قد ظهرت ظهوراً بيّناً في مواقفهم؛ فلم يُرَ أعوان ووزراء أحاطوا بقائدهم كما أحاط صحابته به ﷺ، بل إن الأقلام لتعجز عن خطِّ تلك المواقف لكثرتها وتنوعها، كما تعجز العقول عن تقدير قيمة ذلك الفداء، ويكفي أن شعارهم كان «فداك أبي وأمي» يا رسول الله .

كانوا نموذجاً فريداً لم يتكرَّر، فسارت خطاهم تبعاً لخطاه، وأهدافهم وفقاً لهدهاء، تجردوا عن كل شيء، طهروا صفحات قلوبهم وعقولهم وأنفسهم فكانت بيضاء نقية صافية، نقشوا عليها بمداد الإيمان والصدق والحب أحرف أعظم بيعة عقدت على وجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الذِّبْنَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠]، فلم تحل هذه البيعة العظيمة حتى توسدوا تراب الكرامة والرفعة والإباء .

إنَّ المقام لا يتسع لسرد تلك المواقف، وما نخطه هنا في هذه العجالة، ما هي إلا رائحة طيبة حملتها نسمة مباركة من نهر الوفاء، وما هو إلا بصيص شعاع تخلل عالماً الفقير إلى البذل والعطاء . فحبهم الشديد للمصطفى وفداؤهم له بكل شيء يتجلى في مواقفهم معه، ففي غزوة الرجيع - مثلاً - روي أن

(١) للاستزادة انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١٣١١/٧) تحقيق الدكتور أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي .

الصحابي خبيب بن عدي<sup>(١)</sup> لما أخرجه قريش إلى التنعيم ليقتلوه، قال: دعوني أصلي، ليدعوا: اللهم إني لا أجد من يبلغ رسولك مني السلام فبلغه ثم قال: ولستُ أبالي حين أقتل مسلماً على أيِّ شِقِّ كان الله مصرعي وذلك في ذاتِ الإله وإنْ يشأُ يُبارك على أوْصالِ شِلْوِ مُمَزَّعٍ فلما وضعوا فيه السلاح وهو مصلوب نادوه وناشدوه: أتحب أن محمداً مكانك؟ قال: لا والله العظيم، ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه<sup>(٢)</sup>. وكان أبو سفيان يقول: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً، كحب أصحاب محمد ﷺ محمداً<sup>(٣)</sup>.

كما ظهر اصطفاؤهم في ملازمتهم للرسول ﷺ حباً له وخوفاً عليه دون أن يطلب منهم أحد، ومن ذلك ما روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه توضأ في بيته، ثم قال: لألزمَنَّ رسول الله ﷺ، ولأكوننَّ معه يومي هذا. فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ فقالوا: خرج ووجَّه هاهنا، فخرجت على إثره أسأل عنه حتى دخل بئرِ أرسٍ فسلمت عليه، ثم انصرفت فجلست عند الباب فقلت: لأكونن بؤاب رسول الله ﷺ اليوم<sup>(٤)</sup>.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال: (لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ)، قالت: فَسَمِعْنَا صَوْتَ السَّلَامِ، فقال رسول الله ﷺ: (مَنْ هَذَا؟)، قَالَ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جِئْتُ أَحْرُسُكَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ). وكان هذا قبل

(١) خبيب بن عدي بن عامر بن مجدعة الأنصاري الشهيد، شهد أحداً، وكان فيمن بعثه النبي ﷺ مع بني لحيان، فلما صاروا بالرَّجِيع غدروا بهم، واستصرخوا عليهم، وقتلوا فيهم، وأسروا خبيباً، وزيد بن الدُّثَيْنَةَ رضي الله عنهما فباعوهما بمكة فقتلوهما بمن قتل النبي ﷺ من قومهم، صلبوهما بالتنعيم، وكان أول من سنَّ الصلاة عند القتل. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٤١٨/١)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٤٦/١).

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٤٠٨٦، انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤٨١/٧).

(٣) السيرة النبوية لابن كثير (١٢٨/٣).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٢٥/٧).

نزول قوله تعالى<sup>(١)</sup>: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وظهر أيضاً في تكريمهم للمصطفى ﷺ وحبهم له وإحاطتهم به في كل مقاماته، عن أنس رضي الله عنه قال: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْحَلَّاقُ يَحْلِقُهُ، وَأَطَافَ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَمَا يُرِيدُونَ أَنْ تَقَعَ شَعْرَةٌ إِلَّا فِي يَدِ رَجُلٍ<sup>(٢)</sup>. فيه بيان تبركهم بشعره الكريم، وإكرامهم أن يقع شيء منه إلا في يد رجل سبق إليه، عن محمود بن ربيع<sup>(٣)</sup> رضي الله عنه قال: وَإِذَا تَوَضَّأَ النَّبِيُّ ﷺ كَانُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ<sup>(٤)</sup>.

وتفردوا رضوان الله عليهم في إجلالهم له، حتى تعجب أعداء الرسول ﷺ من ذلك، ويشسوا من الوصول إليه أو النيل منه ﷺ، وقصة عروة في صلح الحديبية ما هي إلا مثال واحد من حياة ملئت بمثل هذه الصور الفريدة، إن عروة عندما أتى النبي ﷺ ليتفاهم معه جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنَحَّمُ رَسُولُ اللَّهِ نَحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ. وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ. وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيماً لَهُ. فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكَسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعْظِمُهُ أَصْحَابُهُ كَمَا يُعْظِمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا ﷺ<sup>(٥)</sup>.

إنَّ قائداً أحاط به جُنْدُه بمثل هذا الوصف لا بدَّ وأن أعداءه لن يجدوا للوصول إليه أدنى سبيل.

(١) صحيح مسلم (١٤٩٤/٤) حديث رقم ٢٤١٠، صحيح مسلم بشرح النووي (١٧٧/١٥).

(٢) صحيح مسلم (١٤٤٦/٤) حديث رقم ٢٣٢٥.

(٣) هو محمود بن ربيع بن سراقه بن عمرو الأنصاري الخزرجي، الإمام أبو محمد، أدرك النبي ﷺ وَعَقَلَ مِنْهُ مَجَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِهِ مِنْ بَثْرِ فِي دَارِهِمْ، وَهُوَ يَوْمئِذٍ ابْنُ أَرْبَعِ سِنِينَ. تُوُفِيَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، وَقِيلَ: سَنَةَ سِتٍّ وَتِسْعِينَ هِجْرِيَّةً. وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِ وَتِسْعِينَ. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣/٣٨٦)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥١٩/٣).

(٤) صحيح البخاري ص ٤٥ حديث رقم ١٨٩.

(٥) صحيح البخاري ص ٥٥٠ حديث رقم ٢٧٣١.

فهم وضعوا أنفسهم بين يدي الرسول ﷺ، واشتروا مَعِيَّتَهُ بالدنيا وما فيها، قال ﷺ: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، قَالُوا: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، نَحْنُ بَيْنَ يَدَيْكَ. قَالَ: أَمَا تَرَضُونَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالْدُّنْيَا وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى بُيُوتِكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى) (١).

وكان من صنع الله لرسوله ﷺ والإسلام أن هياً له الأوس والخزرج، وقد ساعد على ذلك عوامل عدة هي من خلق الله تعالى وتيسيره وصنعه، كانت خارقة بين أهل قريش وأهل مكة، وقبائل يثرب العربية: منها ما طبعها الله عليه من الرقة واللين، وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق، ومنها: أنها قد أنهكتهم الحروب الداخلية، واكتوتوا بناها، وعافوها، ونشأت فيهم رغبة في اجتماع الكلمة، وانتظام الشَّمْل، لتفادي الحروب مستقبلاً، ومنها: أن قريشاً وسائر العرب قد طال عهدهم بالنبوات والأنبياء، وأصبحوا يجهلون معانيها بطول العهد، أما أهل المدينة فكانوا يسمعون اليهود يتحدثون عن النبوة، بل كانوا يتوعدونهم بها.

كانوا الدرور البشرية للمصطفى ﷺ أينما حلَّ وحيثما ارتحل، ففي غزوة أحد كان أبو طلحة رضي الله عنه يقول: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي لَا تُشْرَفُ يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ» (٢).

وكانوا يتسابقون في الخروج للجهاد مع الرسول ﷺ لا يقعدون خلفه، ولا يتخلفون، ويندفعون فيه بهمة. وقد وصفهم الله بذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَنْذِرُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٤٤]، وأخبر الله ﷻ أنهم اقتدوا برسول الله في جهاده وفي كل جوانب حياته، وبذلك صدقوا ما عاهدوا الله عليه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٣١) ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (٣٢) ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٣٣) [الأحزاب: ٢١ - ٢٣]. ولقد

(١) انظر: صحيح البخاري ص ٨٩١ حديث رقم ٤٣٣٣ و ٤٣٣٤.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٣٨١١.

نصر الله ﷺ هذا الدين بجهد رسول الله ﷺ وصحبه المجاهدين<sup>(١)</sup>.

هذه هي الطائفة المختارة لُصْحبة الرسول ﷺ، وهذه هي التضحيات التي قدموها مع محمد ﷺ رسول البشرية، وبعد محمد ﷺ. إنهم نوعٌ فريد من الرجال لم تعرف البشرية لهم نظيراً في تاريخها الطويل المُمتد عبر الزمن، فلقد حاز الصحابة قَصَبَ السَّبْق في كل شيء فهم قمة في التقوى والورع، وآية في التجرُّد والإخلاص، ومشعل في العلم والعمل، ونبراس في الدعوة والحركة، فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان، والقرى بالجهاد والسنان. حقاً إنهم خير كوكبة بعد النبيين ﷺ، فجزاهم الله ﷻ عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

### ثانياً: اصطفاء نساء الرسول ﷺ أمهات المؤمنين:

ومن جملة ما اصطفى الله ﷻ لرسوله ﷺ: نساؤه، أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين، اختارهن من بين نساء الأمة ليكونَ زوجات أفضل خلقه وخاتم رسله ﷺ، وخصهنَّ بخصائص لم يخصَّ بها غيرهن، واختار لهن أحوالاً وأوضاعاً تناسب مهمتهن التي انتدبن للقيام بها، قال الله ﷻ: ﴿يُنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فباختيار الله ﷻ لهن أولاً، وارتباطهن برسول الأمة ثانياً كن مغايرات للنساء<sup>(٢)</sup>.

إنه التحديد الدقيق للطريق الطويل الشاق، والعنوان الواضح لموضوع الحياة، والكشف الصريح عن أهداف ومقاصد الراغبين في اقتحامه والسير فيه. إنه الأسلوب التربوي المُعجز الرائع لغرس مفاهيم القوة والتضحية والبذل والعطاء لخير نساء الأمة. فالقضية ليست ارتباطاً بزواج تحلو معه الحياة الدنيا وزينتها إنه ارتباط برسول تجفو معه الحياة الدنيا وزينتها، وتحلو الآخرة ونعيمها.

(١) انظر: صور من جهاد الصحابة للدكتور صلاح الخالدي، ص ١٢.

(٢) ومما يجب التنبيه إليه، أن النهي والتحذير كان في ذلك العصر، ولتلك الصفة المختارة، فكيف بالعصور الأخرى فلا ينبغي أن يكون بين المرأة والرجل الغريب خضوع في القول أو هزل، أو دعابة حتى نأمن السلامة في المجتمع المسلم، فالإسلام لم يأمر أو ينة عن شيء إلا وفيه خير للمسلمين.



## الصلة بين اصطفاء الرسول ﷺ وتعدد زوجاته:

- ١ - إن الرسول ﷺ هو خاتم الأنبياء وشريعته عامة، فكانت زوجاته خير عونٍ للتبليغ، خاصة فيما يتعلق بحياة النبي ﷺ الزوجية والبيئية مما هو مناط التشريع، ولم يطلع عليه سوى زوجاته رضوان الله عليهن أجمعين.
- ٢ - استواء سرّه وعلايته، وأنه في معاملته لأهله كمعاملته لغيرهم ممن أرسل لهم لا يحكمها إلا التدين والخلق الكريم ومراقبة الله في السر والعلن.
- ٣ - تبليغ الدعوة في الأوساط النسائية، وبيان الأمور الدقيقة الخاصة.
- ٤ - إنشاء صلات مصاهرة بين بطون قريش وقبائل العرب لتقريب الشقة وتلافي الخصومات<sup>(١)</sup>.

٥ - بيان إحدى خصائص الرسول ﷺ وقوته في إتيانه نسائه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة. قال: قلت لأنس: أَوَكَانَ يُطِيقُهُ؟ قَالَ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُعْطِيَ قُوَّةَ ثَلَاثِينَ<sup>(٢)</sup>. وإقامة الحجّة على نبوة الرسول فقد جمع الرسول ﷺ بين زوجات مختلفات في السن والطباع، فعدل بينهن وقام بأعباء الرسالة خير قيام. أما الدلالة على اصطفاء أمهات المؤمنين رضي الله عنهن فتبدو في الجواب التالية:

١ - إنَّ بيت الداعية إلى الله ﷻ هو نقطة انطلاقة إلى دعوته، وهو موطن راحته بعد مشقّته، وكلما كان البيت أكثر قوة وثباتاً كان الداعية أكثر عزماً وانطلاقاً، ولعلّ هذا يبرز لقارئ السيرة النبوية، وموقف الزوجات الطاهرات الكريمات منذ بداية بعثته، ومواقف السيدة خديجة رضي الله عنها، والتي تحتاج إلى رسائل خاصّة، ومواقف أمهات المؤمنين الطاهرات وهنّ يشاركن رسول الله ﷺ في كل أحواله ومقاماته حتى في ساعات الشدة التي لا يثبت فيها إلا القلة من الرجال.

(١) انظر: السيرة النبوية للدكتور أبو شهبه ص ٣٠٣، دراسة تحليلية لشخصية الرسول  
للأستاذ دكتور محمد قلعه جي ص ١٧٢.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٢٦٨.

قال أنس رضي الله عنه: انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم رضي الله عنهما، وإنهما لمُشمَرتان أرى خدَم سوقهما تَنفُزَان للقُرْب على متونهما تُفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملأنها ثم تَجِيثَان ففرغانه في أفواه القوم<sup>(١)</sup>.

٢ - إنَّ زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم سَيُنْسَبْنَ إليه، بل سيكنَّ أمهات لجميع المؤمنين؛ ولا يعقل أن تنسب إلى صَفوة الله إلا الخيرة من الناس الذين اختارهم الله صلى الله عليه وسلم لِنبيه.

٣ - إنَّ زوجاته صلى الله عليه وسلم هُنَّ حاملات الدين، ومُبلِّغات الشرع، وفقهيات الأمة فلا بد أن يكنَّ الخيَّرات المُؤتمنات على الشرع، فهُنَّ الكتاب الذي سطرت صفحاته الحياة النبوية في أدق أمورها وأخصها، وهذا الجانب الذي خَفِيَ في شخصية عظماء التاريخ.

٤ - زوجات النبي في الدنيا هُنَّ زوجاته في الجنة، وهذا وحده يدل على أن هذه الفئة الميمونة إنما تمَّ اختيارها من قبل الله صلى الله عليه وسلم، وخصَّها برسوله صلى الله عليه وسلم، فأكرمها بجنته.

٥ - إنَّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم دَوْرًا محددًا في فترة زمنية محدَّدة، وكل ما حوله وُجِدَ ليعينه على ذلك، ولا يمكن أن يختار الله صلى الله عليه وسلم إلا خيرة النساء وأكثرهن عونًا، فالعيش مع الرسول صلى الله عليه وسلم في ظروفه الخاصة بظروف النبي الخاتم، صاحب الرسالة الخالدة والدور العظيم وقدوة الأمة وأسوتها، يستلزم أن تكون زوجاته بصفات معينة وأخلاق خاصة ومميزات فريدة، وهذا يدل على أن اختيارهن لم يكن إلا بإرادة الله صلى الله عليه وسلم.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤٥٨/٧). ومعنى (خَدَم سوقهما) بفتح الخاء المعجمة والذال المهملة وهي: الخلاخيل، وهذه كانت قبل الحجاب، ويحتمل أنها كانت عن غير قصد للنظر، وقوله: (تَنفُزَان) بضم القاف بعدها زاي أي: تثبان. والنقز: الوثب والقفز كناية عن السرعة في السير، والقرب بكسر القاف وبالموحدة جمع قرية، وفي رواية أخرى: تنقلان القرب - ولا تعارض فكلا الوصفين يدل على سرعتهم وحرصهما على خدمة المجاهدين رضي الله عنهم. - انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٩٨/٦).

## خصائص نساء النبي ﷺ المختارات:

١ - أولى خصائصهنّ وأعلىها شأناً أنهنّ زوجات سيّد ولد آدم محمد رسول الله ﷺ الحائز على أعلى الخصائص والتي لم يُشاركه فيها غيره من الأنبياء والمرسلين. فالله ﷻ اصطفاهنّ على نساء العالمين؛ لأنه اصطفى محمداً ﷺ على العالمين.

٢ - أنّ الله ﷻ ارتضى لهنّ أن يكن زوجاته في الآخرة. قال عمار بن ياسر رضي الله عنه عن عائشة رضي الله عنها: هي زوجته في الدنيا والآخرة<sup>(١)</sup>.

قال ابن تيمية رحمته الله عن عقيدة أهل السنة والجماعة في زوجات الرسول ﷺ: «ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة. وهذا يثبت علو منازلهن في الجنة».

٣ - أنهنّ اصطفين ليكنّ أمهات المؤمنين، فهنّ أمهات لنا في الإكرام والاحترام والصلة، قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَفْسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، فنحن نتولاهن بالمحبة والنصرة والدفاع عنهن، واعتقاد أنهن أفضل أزواج أهل الأرض؛ لأنهن زوجات النبي ﷺ<sup>(٢)</sup>

٤ - أن النبي ﷺ لا يحل له النساء بعدهنّ، قال ﷺ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءَ مِنْ بَعْدِي وَلَا أَنْ يَبَدَّلَ مِنْهُنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، قال قتادة: فلما اخترن الله ورسوله شكرهن الله على ذلك وقصره عليهن<sup>(٣)</sup>.

٥ - نزول الوحي في بيوتهن (في بيت عائشة رضي الله عنها)، تُقرأ فيها آيات الله ﷻ، وما أوحى إلى رسوله ﷺ من أحكام دينه، قال ﷺ: ﴿وَأذْكَرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، فهذه نعمة اختصن بها.

٦ - مضاعفة العذاب لمن تأتي بفاحشة مبينة (حاشاهنّ رضي الله عنهن)، قال تعالى: ﴿يُنِيسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ

(١) سنن الترمذي (٦٦٤/٥) حديث رقم ٣٨٨٩، وقال: حديث حسن.

(٢) الفقرة الثانية والثالثة، انظر: العقيدة الواسطية بشرح الشيخ العثيمين (٢/٢٧٨).

(٣) معالم التنزيل للبغوي (٦/٣٤٦).

ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ [الأحزاب: ٣٠]، قال مقاتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان عذابها على الله هيناً، وتضعيف عقوبتهن على المعصية لشرفهن، كتضعيف عقوبة الحرّة على الأمة<sup>(١)</sup>.

٧ - عظيم قدرهنّ؛ حيث فاقت مكانتهنّ مكانة جميع النساء الصالحات في المنزلة والفضيلة، قال تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يريد ليس قدركنّ عندي مثل قدر غيركنّ من النساء الصالحات، أنتنّ أكرم عليّ، وثوابكنّ أعظم لديّ<sup>(٢)</sup>. فقد جعلهنّ الله ﷻ من أهل البيت واختصهنّ بالتطهير من الدنس وإذهاب الرجس الذي يكون في أهل المعاصي، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، والآية نصّ في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل بيته.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الآية: نزلت في نساء النبي خاصة<sup>(٣)</sup>، وقال قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هم أهل البيت طهرهم الله من السوء وخصّهم برحمة منه<sup>(٤)</sup>.

٨ - أنّ موتهنّ آية، فقد جعل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موتهنّ آية؛ فقليل أنه سمع بعد صلاة الصبح وفاة بعض أزواج النبي ﷺ، فسجد، فقليل له: أتسجد هذه الساعة؟ فقال: أليس قد قال رسول الله ﷺ: (إِذَا رَأَيْتُمْ آيَةً فَاسْجُدُوا)، فأيّ آية أعظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ؟<sup>(٥)</sup>. ووفاة أزواج النبي من تلك الآيات لأنهنّ ضُمنن إلى شرف الزوجية شرف الصحبة، وقد قال ﷺ: (وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ أَهْلِ الْأَرْضِ) فهنّ أحق بهذا المعنى من غيرهن، ولأنهن ذوات بركة فحياتهن يدفع العذاب من الناس، ويخاف العذاب بموتهن<sup>(٦)</sup>.

(١) معالم التنزيل للبخاري (٦/٣٤٨).

(٢) معالم التنزيل للبخاري (٦/٣٤٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٤١٠).

(٤) جامع البيان لابن جرير الطبري (٩/١٢).

(٥) سنن الترمذي (٥/٦٦٥) حديث رقم ٣٨٩١. قال: هذا حديث حسن غريب، والآية:

العلامة المخوفة.

(٦) انظر: تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي للمباركفوري (١٠/٣٩٠ - ٣٩١).

٩ - أَنهِنَّ خَيْرُن بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ، وَبَيْنَ الدُّنْيَا، فَاخْتَرَنَ اللَّهُ ﷻ وَرَسُولَهُ ﷺ وَالِدَارَ الْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُن تَرْضَيْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبَّتَهَا فَمَعَالَيْكَ أُمِّمَعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرَاً حَسَبًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُن تَرْضَيْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩]، قَالَ قَتَادَةَ: خَيْرَهُنَّ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ<sup>(١)</sup>.

وسنذكر باختصار زوجاته ﷺ اللاتي اختارهن الله ﷻ لنبيه ﷺ من بين نساء العالمين، مختصرين خصائصهن لأن المقام لا يسع للإطالة، وهن:

### أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ﷺ:

الجليلة الطاهرة سيدة نساء العالمين في زمانها، أم القاسم ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، القرشية الأسدية. أم أولاد رسول الله ﷺ، وأول من آمن به وصدقته قبل كل أحد، وثبتت جأشه، ومضت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل. ومناقبها جمّة، وهي ممّن كمل من النساء، كانت عاقلةً جليلةً دينيةً مصونةً كريمةً، من أهل الجنة، وكان النبي ﷺ يُثني عليها، ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين، ويبالغ في تعظيمها. ومن كرامتها عليه ﷺ أنه لم يتزوج امرأة قبلها، وجاء منها عدة أولاد، ولم يتزوج عليها قط، ولا تسرى إلى أن قضت نحبها، فوجد لفقدها، فإنها كانت نعم القرين. وكانت تُنفق عليه من مالها، ويتجرُّ هو ﷺ لها. وقد أمره الله أن يبشرها ببيت من قصب في الجنة لا تعب فيه ولا نصب<sup>(٢)</sup>.

واختصت السيدة خديجة ﷺ بأنها أول خلق الله ﷻ إسلاماً بإجماع المسلمين<sup>(٣)</sup>، وأن الرسول ﷺ لم يتزوج عليها غيرها، حتى ماتت واختصت به بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين، وفيه دليل على عظم قدرها ومزيد فضلها لأنها أغنته عن غيرها، لأنه ﷺ عاش بعد أن تزوجها ثمانية وثلاثين عاماً

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/١٨٨).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٤/٢٨١)، سير أعلام النبلاء للذهبي

(٢/١٠٩)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٤٠٤).

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٦/٨٧).

انفردت خديجة عليها السلام منها بخمسة وعشرين عاماً، وهي نحو الثلثين من المجموع، فصان الله عليه السلام قلبها من الغيرة ومن نكد الضرائر، وهي فضيلة لم يشاركها فيها غيرها.

ومما اختصت به سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان، فسنت ذلك لكل من آمنت بعدها، فيكون لها مثل أجرهن، لما ثبت «أن من سنَّ سنة حسنة»، وقد شاركها في ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالنسبة إلى الرجال، ولا يعرف قدر ما لكل منهما من الثواب بسبب ذلك إلا الله عليه السلام <sup>(١)</sup>.

كما أن أولاده عليهم السلام كلهم منها، إلا إبراهيم عليه السلام. ومما زادها شرفاً وتيهاً أن الرسول عليه السلام جعلها خير نساء زمانها. عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ) <sup>(٢)</sup>. وقال النووي رحمته الله: «والأظهر أن معناه: أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها» وبه جزم كثير من الشراح <sup>(٣)</sup>.

ومن خصائصها: أنه لم يكن على وجه الأرض يوم بعث النبي صلى الله عليه وسلم بيت إسلام إلا بيتها، وهي فضيلة لم يشاركها فيها غيرها <sup>(٤)</sup>.

ومن خصائصها: أن حب الرسول لها فضيلة حصلت له من الله صلى الله عليه وسلم وهذا بيان لعظيم منزلتها عند الله صلى الله عليه وسلم، قالت عائشة رضي الله عنها: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذبح الشاة فيقول: (أَرْسَلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ)، قَالَتْ: فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا، فَقُلْتُ: خَدِيجَةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (إِنِّي قَدْ رَزَقْتُ حُبَهَا) <sup>(٥)</sup>، وفي قوله صلى الله عليه وسلم: «رَزَقْتُ حُبَهَا»، إشارة إلى أن حبها فضيلة حصلت له بأمر الله.

ومن خصائصها: إنفاقها وعطاؤها وبذلها ونصرتها للرسول صلى الله عليه وسلم في أول

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/١٩٧)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (٧/١٧٢).

(٢) صحيح البخاري ص ٧٨٠ رقم ٣٨١٥.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/١٩٤). فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (٧/١٦٩).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٧/١٧٣).

(٥) صحيح مسلم (٤/١٥٠٥) حديث رقم ٢٤٣٥، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/١٩٧).

الإسلام، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلًا﴾ [الحديد: ١٠]، قال ابن تيمية: «خديجة كان تأثيرها في أول الإسلام، وكانت تسلي رسول الله ﷺ، وتثبته، وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدركت غرة الإسلام، واحتملت الأذى في الله وفي رسوله، وكان نصرها للرسول في أعظم أوقات الحاجة، فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها»<sup>(١)</sup>.

ومن خصائصها ﷺ أن ربها ﷺ أقرأها السلام، فعن أبي هريرة قال: «أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ خَدِيجَةٌ قَدْ آتَتْ مَعَهَا إِنَاءً فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَأَقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَحَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبٍ»<sup>(٢)</sup>. وأي خصيصة تعدل سلام الله ﷺ على أمة من إمامه وحدها دون إماء العالمين من المتقدمين والمتأخرين<sup>(٣)</sup>.

إنها الدعامة الأولى التي ساندت الرسول ﷺ بعد الله ﷻ، والمرأة التي وقفت بجانبه عند بدء الوحي وثبته وأيدته بقولها وفعلها ومالها، عن عائشة أم المؤمنين قالت: دخل الرسول على خديجة بنت خويلد فقال: «زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي». فزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لَخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: «لَقَدْ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/٣٩٣).

(٢) صحيح البخاري ص ٧٨١ حديث رقم ٣٨٢٠.

(٣) وفي الحديث عدة لفتات أشار إليها العلماء نوردها هنا للفائدة، ففي ذكر البيت معنى لطيف لأنها كانت ربة بيت قبل المبعث، ثم صارت ربة بيت في الإسلام منفردة به، فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بعث النبي ﷺ بيتاً للإسلام إلا بيتها، وجزاء الفعل يذكر غالباً بلفظه وإن كان أشرف منه، فلهذا جاء في الحديث بلفظ البيت دون لفظ القصر. وقوله ﷺ: بيت من قصب، قال جمهور العلماء: المراد به قصب اللؤلؤ المجوف كالقصر المنيف، وقيل: قصب من ذهب منظم بالجواهر. وقوله ﷺ: (لا صخب فيه ولا نصب) الصخب: الصياح والمنازعة برفع الصوت، والنصب يقصد به: التعب، والرسول ﷺ عندما دعا إلى الإسلام أجابته ﷺ طوعاً، ولم توجه إلى رفع الصوت ولا منازعة ولا تعب، بل أزالته عنه كل نصب وأنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/١٩٤)، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٧/١٧٤).

خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا، وَاللَّهِ مَا يَحْزُنُكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَاِنْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ الْعُزْرِيِّ - ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ - وَكَانَ امْرُؤًا قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمِعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوفِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيَ<sup>(١)</sup>.

ولعل الحكمة من زواجها بالرسول ﷺ وهي أكبر منه سنًا؛ لتكون له بَمَثَابَةِ الْأُمِّ الْعَطُوفِ وَالزَّوْجَةِ الْحَانِيَةِ، فَلَقَدْ أَشْبَعَتْ فِي الرَّسُولِ ﷺ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ وَأَحَاطَتْهُ بِعِنَايَتِهَا إِحَاطَةً بِالْغَةِ، فَلَمْ تَدَعْ شَيْئًا يَخْتَرِقُ مَنطِقَةَ الْأَمَانِ الَّتِي وَضَعَتْ سِيَاجَهَا حَوْلَ الْمُصْطَفَى ﷺ.

وفي هذا من أسرار الموافقات النفسية ما تضيق دون أدائه العبارة؛ لأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ - بَعْدَ مَا مَضَى مِنْ عَمْرِهِ فِيمَا قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ مِنْ أَلْوَانِ الْحَيَاةِ الصَّارِمَةِ - إِلَى عَاطِفَةِ الْأُمَمَةِ وَحَنَانِهَا وَبِرِّهَا أَدْنَى مِنْهُ حَاجَةٌ إِلَى عَاطِفَةِ الزَّوْجَةِ وَحِبِّهَا، وَخَدِيجَةُ هِيَ الزَّوْجَةُ فِي حِبِّهَا وَهِيَ الْأُمُّ فِي حَنَانِهَا وَبِرِّهَا، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ خَدِيجَةُ امْرَأَةً وَاحِدَةً لَمْ تَتَكَرَّرْ فِي الْحَيَاةِ<sup>(٢)</sup>.

أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ رضي الله عنها:

سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ بِنْتُ قَيْسِ الْقُرَشِيَّةِ الْعَامِرِيَّةِ، أُولَى مَنْ تَزَوَّجَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ خَدِيجَةَ. انْفَرَدَتْ بِهِ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِ سِنِينَ حَتَّى دَخَلَ بِعَائِشَةَ. وَكَانَتْ سَيِّدَةً

(١) صحيح البخاري ص ٢ حديث رقم ٣.

(٢) انظر: محمد رسول الله للعرجون (١/٢٠٤).



جلیلة نبیلة، وهی التي وهبت یومها لعائشة رضی اللہ عنہا رعاية لقلب رسول الله صلی اللہ علیہ وسلم (١).  
 قَالَتْ فِيهَا السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رضی اللہ عنہا: مَا رَأَيْتُ امْرَأَةً أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ فِي مَسَلَاخِهَا  
 مِنْ سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ، وَقَالَتْ: فَلَمَّا كَبُرْتُ جَعَلْتُ يَوْمَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلی اللہ علیہ وسلم  
 لِعَائِشَةَ. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ جَعَلْتُ يَوْمِي مِنْكَ لِعَائِشَةَ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ  
 يَقْسِمُ لِعَائِشَةَ يَوْمَيْنِ: يَوْمَهَا، وَيَوْمَ سَوْدَةَ (٢).

### أم المؤمنین عائشة رضی اللہ عنہا:

بنت الإمام الصديق الأكبر، خليفة رسول الله صلی اللہ علیہ وسلم؛ أبي بكر عبد الله بن  
 أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن  
 كعب بن لؤي، أم المؤمنین زوجة النبي صلی اللہ علیہ وسلم، تزوجها النبي صلی اللہ علیہ وسلم لست، ودخل  
 بها وهي بنت تسع، أفضه نساء الأمة على الإطلاق، روت عنه علماً كثيراً طيباً  
 مباركاً فيه، وُلدت في الإسلام وكانت تقول: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان  
 الدين، وكانت امرأة بيضاء جميلة يقال لها الحُميراء، والحمراء في خطاب  
 أهل الحجاز هي البيضاء بشقرة، وهذا نادر فيهم (٣).

لقد حُصِّت السيدة عائشة رضی اللہ عنہا بأنها بنت خليفة رسول الله صلی اللہ علیہ وسلم وصديقه  
 وحبيبه، وأن النبي صلی اللہ علیہ وسلم لم يتزوج بكرةً غيرها، كما تفردت بعظيم علمها  
 وفقهها رضی اللہ عنہا، قال الذهبي رحمته اللہ: «ولا أعلم في أمة محمد صلی اللہ علیہ وسلم بل ولا في  
 النساء مطلقاً امرأة أعلم منها» (٤)، وقال ابن تيمية رحمته اللہ: «وعائشة تأثيرها آخر  
 الإسلام، فلها من التفقه في الدين، وتبليغه إلى الأمة، وانتفاع بنيتها بما أدت  
 إليهم من العلم ما ليس لغيرها» (٥). وقال عطاء بن أبي رباح رحمته اللہ: كانت

(١) سير أعلام النبلاء الذهبي (٢/٢٦٥)، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٦/١٧٥).

(٢) صحيح مسلم (٢/٨٧٩) حديث رقم ١٤٦٣، وقول السيدة عائشة رضی اللہ عنہا في الحديث:

(أن أكون في مسلاخها) المسلخ: هو الجلد، ومعناه: أن أكون أنا هي، ووصفتها

بقوة النفس وجودة القريحة. انظر: صحيح مسلم شرح النووي (١٠/٢٨٩).

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٦/١٧٥)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/

١٣٥)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٤٠٤).

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/١٤٠).

(٥) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/٣٩٣).

عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة. كما قال الزهري رحمته الله: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين، وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل<sup>(١)</sup>.

وخصت بنزول الوحي في لحافها رحمته الله، وهذه منقبة تفردت بها على سائر أمهات المؤمنين. قال رحمته الله: (يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منك غيرها)<sup>(٢)</sup>.

وفضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله رحمته الله: (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون. وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)<sup>(٣)</sup>.

وسلم عليها جبريل عليه السلام، قال رسول الله رحمته الله: (يا عائش هذا جبريل يُقرئك السلام، فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى. تريد رسول الله رحمته الله)<sup>(٤)</sup>.

ومن أهم ما خصت به رحمته الله أنها كانت أحب الناس إلى رسول الله رحمته الله، قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن النبي رحمته الله بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: (عائشة)، فقلت: من الرجال؟ قال: (أبوها)، فقلت: ثم من؟ قال: (عمر بن الخطاب)<sup>(٥)</sup>.

وجعل الله للمسلمين ببركتها اليسر ورفع الحرج بفرض التيمم عن عائشة رضي الله عنها: استعارت من أسماء فلانة فهلكت، فأرسل رسول الله رحمته الله ناساً

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٤/٣٦٠).

(٢) صحيح البخاري ص ٧٧٣ حديث رقم ٣٧٧٥.

(٣) صحيح البخاري ص ٧٧٢ حديث رقم ٣٧٦٩، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٣٣/٧).

(٤) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٦/١٧٥)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/١٣٥)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٤٠٤).

(٥) صحيح البخاري ص ٧٥٠ حديث رقم ٣٦٦٢.

مِنْ أَصْحَابِهِ فِي طَلَبِهَا، فَأَدْرَكْتَهُمْ الصَّلَاةَ فَصَلُّوا بِغَيْرِ وُضُوءٍ، فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ شَكُّوا ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ آيَةُ التَّيْمُمِ، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ <sup>(١)</sup> ﷺ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فَوَاللَّهِ مَا نَزَلَ بِكَ أَمْرٌ قَطُّ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ لِكَ مِنْهُ مَخْرَجًا، وَجَعَلَ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ بَرَكَةٌ <sup>(٢)</sup>. ومما أظهر اصطفاها أنها زُوِّجَتْ بأمر الله ﷺ، فقد أَرِيهَا ﷺ في المنام مرتين قال ﷺ: (أَرَيْتِكَ فِي الْمَنَامِ مَرَّتَيْنِ؛ أَرَى أَنَّكَ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ وَيَقُولُ هَذِهِ امْرَأَتُكَ، فَأَكْثِيفُ فَإِذَا هِيَ أَنْتِ، فَأَقُولُ: إِنَّ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمَضِّهِ) <sup>(٣)</sup>.

وحرص النبي ﷺ على أن يكون معها دائماً، عن هشام عن أبيه (أن رسول الله ﷺ لَمَّا كَانَ فِي مَرَضِهِ جَعَلَ يَدُورُ فِي نِسَائِهِ، وَيَقُولُ: «أَيْنَ أَنَا عَدَا؟ أَيْنَ أَنَا عَدَا؟ حِرْصاً عَلَى بَيْتِ عَائِشَةَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمِي سَكَنَ») <sup>(٤)</sup>.

ومن الشرف الذي نالته السيدة عائشة رضي الله عنها أن وفاة الرسول ﷺ كان في بيتها، بين سحرها ونحرها، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: (تُوْفِّي النَّبِيَّ ﷺ فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي) <sup>(٥)</sup>، وقُبِرَ عليه الصلاة والسلام في بيتها. ولمكانتها عند الرسول ﷺ بدأ التخيير بها رغم صغر سنها، وإنما دل ذلك على مكانتها وفهمها وعلمها وحكمتها، فعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَخْيِيرِ أَزْوَاجِهِ بَدَأَ بِي فَقَالَ: (إِنِّي ذَاكِرٌ لِكَ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبُوَيْكَ، قَالَتْ:

(١) أسيد بن حضير بن سَمَاك بن عَتِيكَ بن نافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، كان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن ومن أكابر أصحاب الرسول ﷺ، شهد العقبة الأخيرة مع السبعين وشهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، توفي في شعبان سنة عشرين. انظر: الطبقات لابن سعد (٦٠٣/٣)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٤٠/١).

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٣٧٧٣.

(٣) صحيح البخاري حديث رقم ٣٨٩٥.

(٤) صحيح البخاري حديث رقم ٣٧٧٤.

(٥) صحيح البخاري حديث رقم ٤٤٥١. والسَّحْر - بفتح السين المهملة وضمها، وإسكان الحاء - هي: الرثة وما تعلق بها. وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢٢٠٣/١٥).

فَقُلْتُ: ففي أيِّ هذا أَسْتَأْمِرُ أَبِي؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ<sup>(١)</sup>.  
وفي رواية قالت: بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة. وأسألك أن لا  
تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ. قال: (لا تسألني امرأةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا.  
إنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعْتَبًا وَلَا مُتَعْتَبًا. وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُبَسِّرًا<sup>(٢)</sup>).

وفي رواية أخرى قالت ﷺ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَأْذِنُنَا، إِذَا كَانَ  
فِي يَوْمِ الْمَرْأَةِ مِنَّا بَعْدَمَا نَزَلَتْ: ﴿تُرِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَقْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾  
[الأحزاب: ٥١]، فقالت لها مُعَاذَةُ: فَمَا كُنْتَ تَقُولِينَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا  
اسْتَأْذَنَكَ؟ قَالَتْ: كُنْتُ أَقُولُ: إِنَّ كَانَ ذَلِكَ إِلَيَّ لَمْ أُؤْتِرْ أَحَدًا عَلَى  
نَفْسِي<sup>(٣)</sup>.

ومن عظيم خصائصها: أن الله ﷻ بَرَّأَهَا مِمَّا رَمَاهَا بِهِ أَهْلُ الْإِفْكِ وَأَنْزَلَ  
فِيهَا وَحِيًّا يَتْلَى فِي مُحَارِبِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَوَعَدَتْ مَغْفِرَةَ وَرِزْقًا  
كَرِيمًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾  
[النور: ٢٦]. وَأَنَّ أَكْبَرَ الصَّحَابَةِ كَانَ إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ اسْتَفْتَوْهَا فَيَجِدُونَ  
عِلْمَهُ عِنْدَهَا.

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٤٧٨٦.

(٢) صحيح مسلم (٨٩٣/٢) حديث رقم ١٤٧٥.

(٣) صحيح مسلم (٨٩٣/٢) حديث رقم ١٤٧٦. قوله ﷺ: (فلا عليك أن لا تعجلي)  
معناه: ما يضرك أن لا تعجلي، وإنما قال لها هذا شفقة عليها، وعلى أبيها،  
ونصيحة لهم في بقائها عنده ﷺ، فإنه خاف أن يحملها صغر سنها، وقلة تجاربها  
على اختيار الفراق، فيجب فراقها فتضر هي وأبواها، وباقي النسوة بالافتداء بها،  
وفي هذا الحديث منقبة ظاهرة لعائشة، ثم لسائر أمهات المؤمنين رضي الله عنهن،  
وفيه المبادرة إلى الخير، وإيثار أمور الآخرة على الدنيا، وفيه نصيحة الإنسان  
صاحبه، وتقديمه في ذلك ما هو أنفع في الآخرة. وقولها: (إن كان ذلك إلي لم أوتر  
على نفسي أحدًا) هذه المنافسة فيه ﷺ ليست لمجرد الاستمتاع، ولمطلق العشرة،  
وشهوات النفوس، وحظوظها التي يكون من بعض الناس، بل هي منافسة في أمور  
الآخرة، والقرب من سيد الأولين والآخرين، والرغبة فيه، وفي خدمته، ومعاشرته،  
والاستفادة منه، وفي قضاء حقوقه، وحواله، وتوقع نزول الرحمة، والوحي عليه  
عندها، ونحو ذلك. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٣٢٠/١٠).

## أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها:

السَّتر الرفيع بنت أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كانت عند خُنيس بن حذافة السهمي، وهاجرت معه إلى المدينة، فمات عنها بعد الهجرة، فخلفه عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت عائشة رضي الله عنها: هي التي كانت تُساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، روي أن النبي صلى الله عليه وسلم طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً، ثم راجعها بأمر جبريل عليه السلام له بذلك وقال: (إِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ وَهِيَ زَوْجَتُكَ فِي الْجَنَّةِ)<sup>(١)</sup>، وهذا يدلُّ على مكانتها وعُلو شأنها، لذا جاء الأمر من الله تعالى بمراجعتها وأثنى على عبادتها وبشَّرها بأنها زوجة صفيِّه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم في الجنة.

ومما زادها شرفاً وتميُزاً أنها التي اختيرت من بين أمهات المؤمنين جميعاً لتحفظ أول مصحف خطي للقرآن الكريم، عاشت رضي الله عنها كل حياتها عابدة قانتة صوَّامة قوَّامة، منفردة بشرف الائتمان على دستور الأمة وكتابها الأول ومعجزتها الخالدة ومصدر شريعته الراشدة وعقيدته الواحدة<sup>(٢)</sup>.

## أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها:

السيدة المُحَجَّبة رَمْلَة بنت أبي سفيان صخر بن حرب، كُنِّيَتْ بابنتها حبيبة بنت عبيد الله بن جحش، من بنات عم الرسول صلى الله عليه وسلم، ليس في أزواجه مَنْ هي أقرب نسباً إليه منها، ولا في نسائه من هي أكثر صداقاً منها، وقد بلغ أربعمائة دينار، ولا من تزوج بها وهي نائية الدار أبعد منها، حيث عقد عليها وهي بالحبشة. وكانت من السابقات إلى الإسلام فقد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله فولدت هناك حبيبة. ومات زوجها بالحبشة نصرانياً، أما هي فبقيت مسلمة هناك، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبها، وهي التي أكرمت فراش

(١) مجمع الزوائد للهيتمي (٣٩٣/٩) حديث رقم ١٥٣٣٤، المعجم الكبير للطبراني (١٨/

٣٦٥) حديث رقم ٩٣٤، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٦٥/٦)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/

٢٢٧)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٠٤/٦)، نساء حول الرسول لمحمد مهدي

الإستانبولي ص ٦٦، والحديث في المستدرک للحاكم (١٥/٤) وقال الذهبي في

السير: صحيح الإسناد.

الرسول ﷺ من أن يجلس عليه أبوها قبل إسلامه<sup>(١)</sup>.

أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها:

هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله المخزومية، بنت عم خالد بن الوليد، سيف الله، من المهاجرات الأول. كانت قبل النبي ﷺ عند أخيه من الرضاعة أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي الرجل الصالح، دخل بها النبي ﷺ سنة أربع من الهجرة، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسباً.

عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَرِيضَ أَوْ الْمَيِّتَ فَقُولُوا خَيْرًا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ)، قالت: فلما مات أبو سلمة أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أبا سلمة قد مات. قال ﷺ: «قُولِي: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلَهُ وَأَعْفِبْنِي مِنْهُ عَقْبِي حَسَنَةً»، قَالَتْ: فَقُلْتُ. فَأَعْفَبَنِي اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لِي مِنْهُ. مُحَمَّدٌ رضي الله عنه. وكانت رضي الله عنها آخر من مات من أمهات المؤمنين<sup>(٢)</sup>. ولقد دلَّ الحديث الشريف على فضل أم سلمة ومكانتها عند رسول الله ﷺ بتعليمها هذا الدعاء لتنال بدعائها به شرف الزواج بسيد الأنبياء والمرسلين، ولتنوج المكانة السامية، ولتكون أم المؤمنين على الإطلاق، كما نفع الله بها المسلمين في تعليمهم هذا الدعاء عند المصيبة.

أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها:

بنت جحش بن رباب، وابنة عمّة رسول الله ﷺ، أمها: أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، كانت عند زيد مولى النبي ﷺ وهي التي يقول الله ﷻ فيها: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فزوّجها الله نبيّه بنصّ كتابه،

- (١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١١٥/٦ و٣١٥)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/٢١٨)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٤٠٤).  
(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٦/٣٤٠)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/٣٠١) والحديث في صحيح مسلم (٢/٥٢٨) حديث رقم ٩١٩.

بلا وليّ ولا شاهد. وكانت تفخر بذلك على أمهات المؤمنين، وتقول: «رَوَّجَكُنْ أَهَالِيكُنْ، وَرَوَّجَنِي اللهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ»<sup>(١)</sup>.

كانت من سادة النساء ديناً وورعاً وجوداً ومعروفاً، وهي التي كان النبي ﷺ يقول: (أَسْرَعُكُنْ لِحُوقاً بِي: أَطْوَلُكُنْ يَدًا)، وإنما عني طول يدها بالمعروف والصدقة والجود، وفي الحديث معجزة ظاهرة للرسول ﷺ ومنقبة ظاهرة لزینب ؓ.

وعن عائشة ؓ قالت: (كانت زینب بنت جحش تساميني في المنزلة عند رسول الله، ما رأيت امرأة خيراً في الدين من زینب، أتقى الله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحيم، وأعظم صدقةً، وأشدّ ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به، وتقرّب به إلى الله تعالى)<sup>(٢)</sup>، وكانت صوامة قوامة بارة، يقال لها: أم المساكين، وهي من المهاجرات الأول.

عن أنس ؓ: أن رسول الله ﷺ قال لزيد عندما طلبها: (فأذكرها عليّ). قال: فانطلقت، فقلت لها: يا زينب أبشري! فإن رسول الله يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ، فدخل عليها بغير إذن، ولم يولم الرسول ﷺ على أحد من نسائه أكثر أو أفضل مما أولم على زينب، ويحتمل أن سبب ذلك الشكر لنعمة الله في أن زوجه إياها بالوحي لا بولي ولا شهود بخلاف غيرها، فعن أنس بن مالك ؓ قال: (ما أولم رسول الله ﷺ على امرأة من نسائه أكثر أو أفضل مما أولم على زينب)<sup>(٣)</sup>. كانت قديمة الإسلام ومن المهاجرات، وبسببها أنزل الحجاب، وكانت امرأة صناع اليد، تعمل بيدها وتتصدق به في سبيل الله، ومن أول نساء

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٧٤٢٠.

(٢) صحيح مسلم (١٥٠٧/٤) حديث رقم ٢٤٤٢، تساميني أي: تعادلني وتضاهيني في الحظوة والمنزلة الرفيعة، مأخوذ من السمو: وهو الارتفاع. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢٠٢/١٥).

(٣) صحيح مسلم (٨٤٩/٢) حديث رقم ١٤٢٨.

الرسول ﷺ لحوقاً به، حيث توفيت سنة عشرين وهي بنت ثلاث وخمسين سنة رحمها الله تعالى<sup>(١)</sup>.

### أم المؤمنين زينب بنت خزيمة

بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلالية، وتدعى أيضاً أم المساكين لكثرة معروفها، وإطعامها المساكين، وصدقها عليهم<sup>(٢)</sup>. قُتل زوجها يوم أحد وتزوجها النبي ﷺ، ولم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة، وتوفيت، وكان زواجه منها بعد حفصة - رضي الله عنهن -<sup>(٣)</sup>.

### أم المؤمنين جويرية

هي بنت الحارث الخزاعية المصطَلِيقِيَّة، من سبايا غزوة المريسيع مع بني المصطلق، ابنة سيد قومها الحارث بن أبي ضرار بن حبيب، أتت النبي ﷺ تطلب منه إعانة في فكاك نفسها فقال: «أَوْخَيْرِ مِنْ ذَلِكَ؟ أَنْزَوِّجِكَ»، فَأَسْلَمَتْ وَتَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَ مِنْ بَرَكَتِهَا أَنْ أَعْتَقَ اللَّهُ بِهَا مِائَةَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ بَنِي الْمِصْطَلِقِ، فَمَا أَعْلَمُ امْرَأَةً أَعْظَمَ بَرَكَهَ مِنْهَا عَلَى قَوْمِهَا.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن جويرية، أن النبي ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا. ثُمَّ رَجَعَ، بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ. فَقَالَ: «مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكَ عَلَيْهِ؟»، قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ قُلْتِ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مِنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضًا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١٢٥/٦)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣١٣/٤)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١١/٢)، صفة الصفوة لابن الجوزي (٣٣/٢).

(٢) انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١٢٩/٦)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣١٥/٤)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١٨/٢).

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١٢٩/٦)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/٢١٨)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٠٤/٦).



عَرَشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ<sup>(١)</sup>، ويدل هذا الحديث على ما تميزت به ﷺ من طول عبادة وذكر لله ﷻ، وكان من بركتها ما نفع الله به المسلمين من عظيم الأجر وقليل الذكر، فله الحمد والمِنَّة.

### أم المؤمنين صفية ﷺ:

هي بنت حُيَيِّ بن أخطب بن سعية، من سبط اللأوي ابن نبيِّ الله إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ. كانت ذات حلم ووقار، سُبيت يوم خيبر وقيل للنبي ﷺ لا ينبغي أن تكون إلا لك، أعتقها الرسول وجعل عتقها صداقها. شريفة عاقلة، ذات حسب وجمال ودين<sup>(٢)</sup>.

### أم المؤمنين ميمونة ﷺ:

زوج النبي ﷺ أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث بن حَزْن بن بُجَيْر بن الهَزْم الهلالية، وخالة خالد بن الوليد، وخالة ابن عباس وأخت أم الفضل زوجة العباس، من سادات النساء، كان اسمها بَرَّةَ فسماها النبي ﷺ ميمونة<sup>(٣)</sup>.

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٥٧/٦)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٢٦٥/٤)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٦١/٢)، والحديث في صحيح مسلم (١٦٦٠/٤) حديث رقم ٢٧٢٦. قوله ﷺ: (سبحان الله وبحمده مداد كلماته) هو: بكسر الميم. قيل: معناه: مثلها في العدد، وقيل: مثلها في أنها لا تنفذ. وقيل: في الثواب: والمراد هنا مصدر بمعنى: المدد، وهو: ما كثرت به الشيء. قال العلماء: واستعماله هنا مجاز؛ لأن كلمات الله تعالى لا تحصر بعدد، ولا غيره. والمراد المبالغة به في الكثرة؛ لأنه ذكر أولاً ما يحصره العد الكثير من عدد الخلق، ثم زنة العرش، ثم ارتقى إلى ما هو أعظم من ذلك وعبر عنه بهذا، أي: ما لا يحصيه عد، كما لا تحصى كلمات الله تعالى. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٤٦/١٧).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣٤٦/٤)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/٢٣١)، صفة الصفوة لابن الجوزي (٣٦/٢) تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي للمبارك فوري (٣٩٣/١٠).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/٢٣٨)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٤١١/٤).

## ثالثاً: دور رحلة الإسراء والمعراج في الإعداد والتهيئة لشخص الرسول القائد:

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْأَيْمَانِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

إن من عظيم اعتناء الله ﷻ برسوله محمد ﷺ ولطفه به، وتهيئته للقيام بالدور الخالد الذي تفرد به، رحلة الإسراء التي كانت من أجل المساجد على الإطلاق الحرم المكي، إلى أولى القبلتين ومحل الأنبياء «المسجد الأقصى»، ولقد حاز نبينا محمد ﷺ من المفآخر تلك الليلة هو وأمته ما لا يعلم قدره إلا الله ﷻ.

لقد كانت رحلة الإسراء والمعراج تجديداً لعزيمة الرسول ﷺ وثباته، وبياناً إلى أن المستقبل لهذا الدين - وذلك بإقرار إمامته للأنبياء السابقين - وإثباتاً إلى أن محمداً ﷺ هو خاتمهم الذي اكتمل به الدين. وكان لرحلة الإسراء والمعراج دورٌ كبيرٌ، في تهيئة النبي ﷺ، وإعداده لتحمل أعباء دعوة عالمية سيبلغ مداها الكون كله، كما أفادت هذه الرحلة تعيين شخصية النبي ﷺ، ووصف إمامته وقيادته، وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها وآمنت به، وبيان رسالتها ودورها الذي ستمثله في العالم، ومن بين الشعوب والأمم. وفي مروره على إخوانه الأنبياء ورؤيته لهم، تثبيت لنفسه وتذكير له بمن سبقه على نفس مهمته، وبيان عظيم الجزاء الذي نالوه بصبرهم وثباتهم. وفي رؤيته للجنة ومنزلته فيها تصغير للدنيا وأهوالها وما سوف يواجهه فيها ﷺ، وشحذ للهمة للانطلاق بعزم هائل نحو ذلك الخير العميم.

ومن أهم ما بينته رحلة الإسراء عموم رسالته للجميع، وأن الأرض كلها دولة الإسلام؛ فحدودها ليست مكة وقريش وثقيف، بل أن محمداً ﷺ هو نبي الوجود كله، الذي يستبشر بقدومه ملائكة السماء وحفظتها، وينتظرون بعثته، وتهيئون لاستقباله.

لقد كان لرحلة الإسراء والمعراج، أثر كبير على شخص المصطفى ﷺ، وارتباط وثيق باصطفائه، حيث ساهمت هذه الرحلة الفريدة في تهيئة

الرسول ﷺ، للقيام بالدور الذي اصطفى له وحده دون بقية الأنبياء ﷺ، وهو إرساله للناس كافة، وأن دعوته سيبلغ مداها آفاق الدنيا، وفي إمامته ﷺ للأنبياء ﷺ بيان لذلك، وبيان إلى أن دعوته ناسخة لكافة الرسالات السابقة ومهيمنة عليها. وفي بلوغه المسجد الأقصى، وربطه بالحرم المكي بيان إلى أنه ملك للمسلمين القائمين بدين الله ﷻ لا لغيرهم، وإعلان لتحول سياسي جذري بتحويل عصا القيادة من الأمة المختارة إلى الأمة المصطفاة، وفي لقائه بإخوانه الأنبياء تقوية ليقينه وشد من عزمه، وفي رؤية الخيرات الكثيرة في الجنة تثبيت له وانسراح لصدره ﷻ.

#### رابعاً: منع الشياطين من استراق السمع:

لقد مُنعت الشياطين في الفترة التي سبقت ولادة المصطفى ﷺ منعت الجن من استراق السمع، وسُلِّطت عليها الشُّهب، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لاستراق السمع فيها، وما كان ذلك إلا استعداداً لأمر قدَّره الله ﷻ في العباد، قال تعالى: ﴿وَأَنَا لَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِلْئًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝۸﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ آلَانَ يَحِدْ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا ۝۹﴾ [الجن: ۸ - ۹].

عن ابن عباس رضيا الله عنهما قال: لم تكن السماء تُحرس في الفترة بين عيسى ومحمد، فلما بعث محمد حُرِسَتْ حَرَساً شَدِيداً، وَرُجِمَتْ الشَّيَاطِينُ فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ، وَقَالَ ابْنُ حَجْرٍ: وَالَّذِي تَضَافَرْتُ بِهِ الْأَخْبَارُ أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ لَهُمْ مِنْ أَوَّلِ الْبَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَهُوَ الْمَعْتَمَدُ<sup>(١)</sup>.

لقد كان حفظ الرسول ﷺ ملازماً له حتى بعد بعثته، فقد روي عن ابن عباس رضيا الله عنهما أن النبي ﷺ انْطَلَقَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبْرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتْ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبْرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبْرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ،

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٨/٨٦٧).

فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء؟ فانصرف أولئك الذين توجهوا إلى نحو تهامة إلى النبي ﷺ، وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فهالك حين رجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١] (١).



---

(١) صحيح البخاري ص ١٥٤ حديث رقم ٧٧٣.

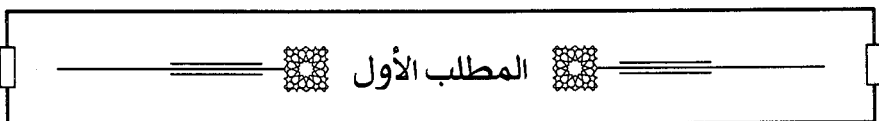
## المبحث الثاني

# خصائص الرسول ﷺ في الدنيا والآخرة

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: خصائص الرسول ﷺ في الدنيا.

المطلب الثاني: خصائص الرسول ﷺ في الآخرة.



## خصائص<sup>(١)</sup> الرسول ﷺ في الدنيا

خصَّ الله تبارك وتعالى نبيَّه محمداً ﷺ بالخصائص العظيمة، والمنح والعطايا الكريمة، والتي ليس لأحد عليه فيها مزيد، ولا يلحقه فيها عبد من العبيد. ولقد فاق فيها الخلق كلهم، بل فاق فيها جميع الأنبياء والمرسلين، حيث أن المفاضلة بين الرسل تتعلق بالزمان والمكان، الذي يجيء فيه الرسول ﷺ، كما تتعلق بالمحيط المقدر له أن يعمل فيه، وبالمعجزات التي يؤيده الله ﷻ بها ماهيتها، ويتعلق بطبيعة الرسالة المؤيد بها، من حيث بقاؤها ودوامها، والأمة أو الأمم المرسل إليهم.

وسأذكر شيئاً من خصائصه ﷺ والتي فاق فيها أقرانه من الأنبياء ﷺ في الدنيا.

**الخاصية الأولى: القرآن الكريم آيته العظمى وحي يتلى:**

إنَّ القرآن الكريم، كلام الله تعالى؛ معجزة موحاة من الله لنبيه ﷺ، وهي من كلامه ﷻ باقية ببقائه دائمة بديموميته ﷻ؛ بخلاف جميع معجزات من سبقه من الأنبياء ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطيت من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً

(١) التعريف اللغوي لكلمة الخصائص: يقال: خصَّه بالشيء يخصُّه خصّاً وخصوصية وخصوصية، واختصه: أي أفرده دون غيره، والخصائص النبوية: هي الفضائل والأمور التي انفرد بها النبي ﷺ وامتاز بها إما عن إخوانه الأنبياء وإما عن سائر البشر. انظر: لسان العرب لابن منظور (٢/٨٤١)، خصائص المصطفى بين الغلو والجفاء للصادق بن محمد ص ٢٤.

أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ<sup>(١)</sup>. وقوله ﷺ: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات) هذا دال على أن النبي لا بد له من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه، ولا يضره من أصر على المعاندة. والآيات هي: المعجزات الخوارق، وقوله ﷺ: (ما مثله آمن عليه البشر)؛ أي: أن كل نبي أعطي آية أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها، والنكته في التعبير بـ«عليه» تضمُّنها معنى الغلبة؛ أي: يؤمن بذلك مغلوباً عليه بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه، لكن قد يجحد فيعاند، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، وقوله ﷺ: (وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي) أي: إن معجزتي التي تحدتُّ بها هي الوحي الذي أنزل عليّ وهو القرآن، لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، وليس المراد حصر معجزاته فيه، ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتي من تَقَدَّمَهُ، فقد ذكر العلماء لذلك أسباباً كثيرة منها:

١ - أنه المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره؛ لأن كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم يعطها بعينها غيره، تحدى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه كما كان السحر فاشياً عند فرعون فجاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، لكنها تلقفت ما صنعوا، ولم يقع ذلك بعينه لغيره. ولهذا لما كان العرب الذين بُعث فيهم النبي ﷺ في الغاية من البلاغة جاءهم القرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فلم يقدرُوا على ذلك.

٢ - أن القرآن ليس له مثل لا صورة ولا حقيقة، بخلاف غيره من المعجزات فإنها لا تخلو عن مثل.

٣ - أن كل نبي أعطي من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله صورة أو حقيقة، والقرآن لم يؤت أحد قبله مثله، فلهذا أردفه بقوله: (فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً).

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٩٨١.

٤ - أن الذي أوتيهِ لا يتطرق إليه تخيل، وإنما هو كلام معجز لا يقدر أحد أن يأتي بما يتخيل منه التشبيه به، بخلاف غيره فإنه قد يقع في معجزاتهم ما يقدر الساحر أن يخيل شبهه فيحتاج من يميز بينهما إلى نظر، والنظر عرضة للخطأ؛ فقد يخطئ الناظر فيظن تساويهما.

٥ - أن معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه.

٦ - أن المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار، كنانة صالح وعصا موسى، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقض بانقراض مشاهدته، والذي يشاهد بعين العقل باقٍ يشاهد كل من جاء بعد الأول مستمراً.

وقد جمع بعضهم إعجاز القرآن في أربعة أشياء: أحدها: حسن تأليفه والثناء كلمه مع الإيجاز والبلاغة، ثانيها: صورة سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظماً ونثراً حتى حارت فيه عقولهم ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله مع توفر دواعيهم على تحصيل ذلك وتقريعه لهم على العجز عنه، ثالثها: ما اشتمل عليه من الإخبار عما مضى من أحوال الأمم السالفة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه بعضه إلا النادر من أهل الكتاب، رابعها: الإخبار بما سيأتي من الكوائن التي وقع بعضها في العصر النبوي وبعضها بعده. ومن غير هذه الأربع آيات وردت بتعجيز قوم في قضايا أنهم لا يعقلونها فعجزوا عنها مع توفر دواعيهم على تكذيبه. كتمني اليهود الموت، ومنها: الروعة التي تحصل لسامعه، ومنها: أن قارئه لا يمل من ترداده، وسامعه لا يمجه، ولا يزداد بكثرة التكرار إلا طراوة ولذاذة. ومنها: أنه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، ومنها: جمعه لعلوم ومعارف لا تنقضي عجائبها ولا تنتهي فوائدها.

ويمكن نظم هذه الأقوال كلها في كلام واحد، فإن محصلها لا ينافي بعضه بعضاً.



وقوله ﷺ: (فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) رتب هذا الكلام على ما تقدمه من معجزة القرآن المستمرة لكثرة فائدته وعموم نفعه، لاشتماله على الدعوة والحجة والإخبار بما سيكون، فعم نفعه من حضر ومن غاب ومن وجد ومن سيوجد، فحسن ترتيب الرجوى المذكورة على ذلك، وهذه الرجوى قد تحققت، فإنه أكثر الأنبياء تبعاً<sup>(١)</sup>.

ومما أعطى هذه المعجزة مكانة كبيرة وميزها عن غيرها أن الله ﷻ تولى حفظه بنفسه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، فالخصوصية هنا هي أن الله ﷻ تكفل بحفظ الكتاب حفظاً كلياً على مر الأيام والليالي، فلا يذهب ولا يضيع منه شيء، فهو محفوظ من التغيير والتبديل، والزيادة والنقصان، أما الكتب الأخرى فقد وكل أمر حفظها إلى أهلها، قال ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾ أي: بالذي استحفظوه من جهة النبيين، وهو التوراة حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل على الإطلاق، وقوله: ﴿مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾، فيه أيضاً تأكيد إيجاب حفظها والعمل بما فيها، حسبما وصاهم به أنبياءهم، وسألوهم أن يحفظوه، وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ عطف على ﴿اسْتُحْفِظُوا﴾ ومعنى شهداء أي: رقباء يحمونه من أن يحوم حول حماه التغيير والتبديل بوجه من الوجوه، أو شهداء عليه أنه حق<sup>(٢)</sup>.

ومن الأمور التي تعدُّ من قبيل تعهد الله ﷻ بحفظه، أنه أقرأ رسوله ﷺ القرآن دون أن ينسأه، وأنه جمعه له في صدره، وتكفل بحفظه فيه، قال ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾﴾ [القيامة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿سُقِّرْتُكَ فَلَا تَسَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى: ٦]، فأقرأه الله ﷻ القرآن وجمعه في صدره، ووعد به بأنه لن ينسأه إلا ما شاء الله أن ينسأه مما نسخه، قال مجاهد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل، لم يفرغ من آخر الآية، حتى يتكلم الرسول بأولها، مخافة أن

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٨/٩).

(٢) انظر: تفسير روح المعاني للألوسي (١٤٤/٦).

ينساها، فأنزل الله ﷻ: ﴿سُنْفِرُكَ فَلَا تَنسَى﴾ فلم ينس بعد ذلك شيئاً<sup>(١)</sup>.

ومما خصَّ به ﷻ في القرآن الكريم إعطاؤه فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أُعْطِيَتْ خَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقْرَةِ مِنْ بَيْنِ كَنْزِ تَحْتِ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي)<sup>(٢)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضاً مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتُفْتَحُ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَزَلَّ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ، لَمْ يَنْزَلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبَشِيرٌ بِنُورَيْنِ أَوْتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقْرَةِ. لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ<sup>(٣)</sup>.

ومما تميّزت به معجزة الرسول ﷺ: احتواء القرآن على الناسخ والمنسوخ، وما يترتب على ذلك من عظيم الرحمة والمنة بهذه الأمة، قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]؛ أي: ما نبدل من حكم آية فنغيّره، أو نتركه بتبديله فنقرّه بحاله، نأت بخير منه لكم، والخير إما في العاجل لخفته على من كلفه، أو في الآجل لِعِظَمِ ثوابه، وكثرة أجره، أو يكون مثلها في المشقة على البدن واستواء الأجر والثواب عليه<sup>(٤)</sup>. فالناسخ والمنسوخ من خصائص الكتاب المنزّل عليه ﷻ، وشرط الناسخ أن يتأخّر نزوله عن المنسوخ، لذلك لم توجد هذه الخاصية في الكتب السابقة؛ لأنها نزلت دفعة واحدة، ولهذا

(١) معالم التنزيل للبخاري (٤٠١/٨).

(٢) مسند الإمام أحمد (١٥١/٥)، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٤٧١/٣)، حديث رقم ١٤٨٢. قال الألباني إسناده صحيح.

(٣) صحيح مسلم (٤٦٤/١) حديث رقم ٨٠٦. وقوله ﷺ: (سمع نقيضاً) هو بالقاف، والضاد المعجمتين، أي: صوتاً كصوت الباب إذا فتح. قوله ﷺ: (الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه)، قيل: معناه: كفتاه من قيام الليل. وقيل: من الشيطان. وقيل: من الآفات. ويحتمل من الجميع. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٣٣٢/٥).

(٤) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٦٧٢/١).

كان اليهود ينكرون النسخ<sup>(١)</sup>.

ولا بد من التنبيه إلى أن القرآن الكريم ليس معجزته الوحيدة ﷺ (بل الفريدة)، فقد أكرمه الله ﷻ بمعجزات حسية عظيمة منها على سبيل المثال لا الحصر:

#### ١- انشقاق القمر آية له ﷺ:

قال تعالى: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]، انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةٌ فَوْقَ الْجَبَلِ، وَفِرْقَةٌ دُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اشْهَدُوا)<sup>(٢)</sup>، قال القاضي: انشقاق القمر: من أمهات معجزات نبينا ﷺ، وقد رواها عدة من الصحابة ﷺ مع ظاهر الآية الكريمة، وسياقها<sup>(٣)</sup>.

#### ب - اختصاص النبي ﷺ بحنين الجذع إليه:

عن ابن عمر رضي الله عنهما كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه، فحنّ الجذع، فأتاه فمسح يده عليه، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَوْ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَجْعَلُ لَكَ مِئْبَرًا؟ قَالَ: (إِنْ شِئْتُمْ)، فَجَعَلُوا لَهُ مِئْبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى الْمِئْبَرِ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ بَيْنَ أُيُنَيْنِ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكِّنُ. وفي رواية عنه رضي الله عنه أنه قال: (فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها، فسكنت)<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر: الخصائص الكبرى للسيوطي (٣١٩/٢).

(٢) صحيح مسلم (١٧١١/٤)، حديث رقم ٢٨٠٠.

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٤٠/١٧).

(٤) صحيح البخاري حديث رقم ٣٥٨٣، ورقم ٣٥٨٤، ٣٥٨٥. قوله: (كصوت العشار) بكسر المهملة بعدها معجمة خفيفة جمع عشاء، والعشاء: الناقة التي انتهت في حملها إلى عشرة أشهر. وفي الحديث دلالة على أن الجمادات قد يخلق الله لها إدراكاً كالحيوان بل كأشرف الحيوان. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٧٤٧/٦).

ج - تسليم الحجر عليه قبل البعثة:

عن جابر بن سمرة<sup>(١)</sup> رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ، كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ. إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»<sup>(٢)</sup>.

الخاصية الثانية:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتِّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ)<sup>(٣)</sup>.  
وبالنظر في حديث الرسول ﷺ، نجد أنه جمع ستاً من خصائصه ﷺ والتي فضل بها عن بقية إخوانه ﷺ وهي:

أ - إيتاؤه جوامع الكلم.

ب - نصره بالرعب.

ج - إحلال الغنائم له.

د - جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً.

هـ - أرسل إلى الخلق كافة.

و - ختم الله به النبيين.

١ - إيتاؤه جوامع الكلم:

وأولى تلك الخصائص: إيتاؤه جوامع الكلم، والمعنى أنه ﷺ كان يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني. وقيل: هو القرآن بقرينة قول

(١) هو جابر بن سمرة بن جُنادة بن جُنْدَب بن حُجَيْر بن رِثَاب بن حَبِيب بن سِوَاء بن عامر بن صعصعة العامري ثم السَّوَّائِي. وقيل: جابر بن عمرو بن جندب، وقد اختلف في كنيته، فقيل: أبو خالد، وقيل: أبو عبد الله، وهو حليف بني زهرة، وهو ابن أخت سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وأمه خالدة بنت أبي وقاص. سكن الكوفة، وابتنى بها داراً، وتوفي في أيام بشر بن مروان على الكوفة، وصلى عليه عمرو بن حريث المخزومي، وقيل: توفي سنة ست وستين. روى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، وله ضُحْبَةٌ مشهورة. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن حجر (٣٠٤/١)، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨٦/٣).

(٢) صحيح مسلم (١٤٢٣/٤)، حديث رقم ٢٢٧٧.

(٣) صحيح مسلم (٣١١/١) حديث رقم ٥٢٣.

(بُعِثْتُ) والقرآن هو الغاية في إيجاز اللفظ واتساع المعاني. وقيل في جوامع الكلم أن الله تعالى يجمع الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين<sup>(١)</sup>.

### ب - نَضْرَهُ بِالرَّعْبِ:

ومن عظيم ما خصَّ الله ﷺ به نبيّه ﷺ أنه نصره بالرعب، وهذا السلاح ليس بيد أحد سوى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

ومما اختصَّ به ﷺ أنه نصر بالرعب مسيرة شهر، والمقصود به الخوف الذي يلقيه الله ﷻ في قلوب أعدائه تمهيداً لهزيمتهم، فهي الهزيمة النفسية التي تقع عليهم قبل الهزيمة المادية، فقد نصره الله ﷻ بإلقاء الرعب في قلوب أعدائه، لمسافة يقطعها المسافر في شهر من الزمن، وإنما جعل الغاية شهراً لأنه لم يكن بين بلده وبين أحد من أعدائه أكثر منه.

ولقد نصر ﷺ بالصِّبَا - بفتح المهملة بعدها موحددة مقصور - وهي ريح شديدة يقال لها القَبُول؛ لأنها تقابل باب الكعبة، إذ إنَّ مهبها من مشرق الشمس، وضدها الدبور، وهي التي أهلك بها قوم عاد، ومن لطيف المناسبة؛ كون القَبُول نصرت أهل القبول، والدبور أهلكت أهل الإدبار، والدبور أشد من الصِّبَا. ولما علم الله ﷻ رافة نبيّه بقومه رجاء أن يسلموا، سلَّط عليهم الصِّبَا، فكانت سبب رحيلهم عن المسلمين، لما أصابهم بسببها من الشدة، ومع ذلك لم تهلك أحداً منهم، ولم تستأصلهم، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (نُصِرْتُ بِالصِّبَا)<sup>(٢)</sup>.

### ج - إِحْلَالُ الْغَنَائِمِ لَهُ:

قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩]، وهذه الآية دالة على لطف الله ﷻ بهذه الأمة، وأنه أحل لها الغنائم، ولم تحل لأمة قبلها، فقد سبق الكتاب الأول، أن المغانم

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٣٠٨/١٣).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٣٤٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦٦٢/٢).

والأسارى حلال لهذه الأمة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٨)، قال: «وكانت الغنائم قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم في الأمم إذا أصابوا مغنماً جعلوه للقربان، وحرّم الله عليهم أن يأكلوا منه قليلاً أو كثيراً، فلم يحله لنبي إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم، وكان قد سبق من الله في قضائه أن المغنم له ولأمة حلال»<sup>(١)</sup>.

#### د - جُعِلَتْ لَهُ الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهوراً:

قال صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّ تَحَدُّوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾ [النساء: ٤٣]، وفي الآية مشروعية التيمم الذي امتنّ به الله تعالى على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فالتيمم من خصائص هذه الأمة المسلمة وحدها، ويظهر ذلك من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد روى حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِداً، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهوراً إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ)<sup>(٢)</sup>.

ومما اختصّ به صلى الله عليه وسلم، أن جُعِلَتْ لَهُ الْأَرْضُ بِرَحَابَتِهَا وَاتِّسَاعِهَا مَسْجِداً وَطَهوراً، مسجداً: أي موضع سجود، ولا يختص السجود بموضع دون غيره، والمقصود أن الأرض جعلت مكاناً للصلاة، أو يصلح أن يبنى فيها مكان للصلاة، فكل مكان أدركت المسلم الصلاة فيه، فإنه يستطيع أن يصلي فيه. قال الخطابي رحمته الله: «إِنَّ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا أُبِيحَتْ لَهُمُ الصَّلَوَاتُ فِي أَمَاكِنَ مَخْصُوصَةٍ كَالْبَيْعِ وَالصَّوَامِعِ»<sup>(٣)</sup>. وطهوراً: يقصد به أنه إذا كان المسلم لا يجد الماء الذي يتطهر به، فإنه يستطيع أن يتيمم على الأرض، وهكذا أصبحت الأرض وسيلة للطهارة.

#### هـ - أُرْسِلَ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً:

كما نصّ القرآن الكريم على أنه أرسل إلى الخلق كافة، وهذا ما ميزه صلى الله عليه وسلم عن بقية الأنبياء والمرسلين. قال تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٥٨/٦)، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/

٩٠)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١٩٠/٣).

(٢) صحيح مسلم (٣١١/١) حديث رقم ٥٢٢.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٥٧٦/١).

لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿قَدْ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِيَّايَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]

لقد اختار الله ﷺ لحمل رسالته الأخيرة، التي لم يختص بها أمة دون أمة، ولا زماناً دون زمان، هي الرسالة العالمية للإنسانية كلها على اختلاف الأزمنة والأمكنة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. لذا فإنه بعث إلى الناس كافة، والمراد بالعالمين هنا: الإنس والجن؛ لأنَّ الله ﷺ بعث محمداً رسولاً ونذيراً لهما معاً<sup>(١)</sup>.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أُعْطِيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي، وَذَكَرَ مِنْهَا: وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً)<sup>(٢)</sup>.

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أُعْطِيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ)<sup>(٣)</sup>. قيل المراد بالأحمر: العجم، وبالأسود: العرب، وقيل: الأحمر: الإنس، والأسود: الجن<sup>(٤)</sup>.

و - ختم الله به النبيين:

ولقد ختم الله ﷻ به النبوة، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠]. فهذه الآية نصت على أنه لا نبي بعده رضي الله عنه، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأحرى؛ لأنَّ مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس<sup>(٥)</sup>.

ولقد كانت بعثته عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/١٣).

(٢) صحيح البخاري ص ٩٣ حديث رقم ٤٣٨.

(٣) صحيح مسلم (٣١٠/١) حديث رقم ٥٢١.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١/٥٧٨).

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٤٢٨).

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، رحمة للعالمين كلهم، مؤمنهم وكافرهم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من آمن بالله واليوم الآخر، كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله، عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف. قال الطبري: وهو الصواب<sup>(١)</sup>.

الخاصية الثالثة: هدايته وأمته ليوم الجمعة:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾

[الجمعة: ٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ. الْيَهُودُ غَدَاً وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدِ)<sup>(٢)</sup>. وفق الله صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم لإصابة يوم الجمعة، فقد ضلَّ عنها الذين أوتوا الكتاب وقد فرضت عليهم، وهذا من بعض الأمور التي أضلهم الله صلى الله عليه وسلم عنها بسبب تعنتهم والتي منها الإسلام، والصلاة، فمنهم من يصلي إلى المشرق، ومنهم من يصلي إلى بيت المقدس فهذان الله إلى القبلة، واختلفوا في إبراهيم عليه السلام في كونه يهودياً أو نصرانياً فهدى الله صلى الله عليه وسلم الأمة المسلمة إلى كونه حنيفاً مسلماً<sup>(٣)</sup>.

الخاصية الرابعة: نداء الله تعالى له صلى الله عليه وسلم بأعز أوصافه وإقسامه بحياته:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ [الأنفال:

٦٤]، وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وهذه الخصيصة لم تثبت لغيره، بل إنَّ كلاً من الأنبياء صلى الله عليه وسلم نودي باسمه، فقال تعالى: ﴿وَقَلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿يٰمُوسَىٰ إِنَّتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّكَ﴾

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٠/١٤١).

(٢) صحيح البخاري ص ١٧٣ حديث رقم ٨٧٦.

(٣) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢/٤٦٠).



الْعَلَمِينَ ﴿ [القصص: ٣٠]، وقال ﷺ: ﴿قِيلَ يَنْبُوحُ أَهَيْظَ يَسْلُبُ مِنَّا وَبَرَكَتِ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمْرِ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، وقال الله تعالى: ﴿وَنَذَّبْنَاهُ لَأَنْ يَتَّبِعَهُ الْقَوْمُ﴾ ﴿١٤﴾ [الصفات: ١٠٤]، وأما الآيات التي ورد فيها ذكر اسمه ﷺ، إنما كان ذلك من باب الإخبار عنه ﷺ، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿٤٠﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وكقوله ﷺ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

والإقسام بحياته ﷺ يدل على شرفه وقيمة حياته وعزتها عند المقسم بها، قال عز من قائل سبحانه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ [الحجر: ٧٦]، وهذه الخصيصة لم تثبت لغيره ﷺ وفي هذا تشریف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض، عن ابن عباس قال: ما خلق الله، وما ذراً، وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره<sup>(١)</sup>.

#### الخاصية الخامسة: فرض الله ﷺ الأدب في خطابه:

قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢﴾ [الحجرات: ٢]، فندبهم ﷺ إلى تكينته بالنبوة والرسالة تشریفاً ورفعاً لمنزلته، وتوقيراً له في محادثته، فلا يجوز لأحد رفع صوته فوق صوته ﷺ، ولا أن يناديه من وراء الحجرات، ولا أن يناديه باسمه فيقول: يا محمد، بل يقول: يا رسول الله، يا نبي الله.

وأخبر سبحانه عن سائر الأمم أنهم كانوا يخاطبون رسلهم وأنبياءهم بأسمائهم، كقول قوم موسى ﷺ: ﴿وَجَوْرَنَا بَيْنِي وَإِسْرَاءَ بِلِ الْبَحْرِ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْتَارٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وقول قوم عيسى ﷺ له: ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِجِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٢]، وقول قوم هود ﷺ له: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣].

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/٥٤٢).

الخاصية السادسة: اختصاص النبي ﷺ بأن السماء حُرست ببعثته:

قال تعالى: ﴿وَأَنَا لَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مُلَيَّنَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشَهَابًا ﴿٨﴾  
وَأَنَا كَمَا نَقَعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِلْسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِدْ لِمُ شَهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾﴾  
[الجن: ٨ - ٩].

عن سعيد بن جبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كانت الجن تسمع، فلما رُجموا قالوا: إن هذا الذي حدث في السماء، لشيء حدث في الأرض، قال: فذهبوا يطلبون حتى رأوا النبي ﷺ خارجاً من سوق عكاظ يصلي بأصحابه الفجر، فذهبوا إلى قومهم مندرين. وعن قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كانت الجن تسمع سمع السماء، فلما بعث الله نبيه حُرست السماء، ومُنِعوا ذلك فتفقدت الجن ذلك من أنفسها<sup>(١)</sup>.

الخاصية السابعة: تقديم الله ﷻ له على جميع أنبيائه في الذكر في أغلب آيات القرآن:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَكَرِيَّا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣]، وقال ﷺ: ﴿وَلَوْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنَكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧]. قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فبدأ بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه، ثم رتب بقية الأنبياء بحسب وجودهم صلوات الله عليهم<sup>(٢)</sup>.

الخاصية الثامنة: تشريفه بإمامة الأنبياء ﷺ في بيت المقدس:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْجَبْرِ، وَقُرَيْشٍ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَائِي، فَسَأَلْتُنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أَثْبِتْهَا، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ. قَالَ: فَرَفَعَهُ اللهُ لِي أَنْظِرَ إِلَيْهِ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٣٧/١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٨٢/٦).

مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي، فَإِذَا رَجُلٌ ضَرَبَ جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ. وَإِذَا عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهٍ شَبَهًا عُرْوَةَ ابْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي أَشْبَهُ النَّاسِ بِهٍ صَاحِبِكُمْ - يَعْنِي نَفْسَهُ - فَحَانَتْ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ، فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنَ الصَّلَاةِ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ! هَذَا مَالِكُ صَاحِبِ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَالْتَفَتُ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ<sup>(١)</sup>، وهذا تأكيد لشرفه وفضله عليهم.

الخاصية التاسعة: أخذ الميثاق له ﷺ من جميع الأنبياء ﷺ بالإيمان به ونصرته:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ [آل عمران: ٨١].

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم ﷺ إلى عيسى ﷺ، بأنه مهما أوتي أحدهم من كتاب وحكمة، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمنن به ولينصرنه. وقال علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس ﷺ: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته<sup>(٢)</sup>.

ومما خصَّ به ﷺ علم أهل الكتاب به، قال ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، والهاء في قوله تعالى: ﴿يَجِدُونَهُ﴾ عائدة على الرسول، وهو محمد بن عبد الله ﷺ، عن قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يجدون نعته، وأمره، ونبوته مكتوباً، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماءهم وأخبارهم، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر<sup>(٣)</sup>.

(١) صحيح مسلم (١٣٧/١) حديث رقم ١٧٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦٧/٢).

(٣) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١١٤/٦)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير

(٤٥٣/١).

الخاصية العاشرة: جمع الله ﷻ له بين القبلتين:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَادَهُ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٧﴾ قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُتَوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٤٢ - ١٤٤].

وحاصل الأمر أن الله ﷻ أمر محمداً عليه الصلاة والسلام، باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلي بين الركنين، وبذلك تكون الكعبة بين يديه وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، ثم تعذر الجمع بينهما بسبب هجرته إلى المدينة، فأمره الله تعالى بالتوجه إلى بيت المقدس، فاستجاب لأمر الله ﷻ، وظل على هذا بضعة عشر شهراً، وكان يكثر الدعاء أن يوجهه الله ﷻ إلى الكعبة، قبله إبراهيم عليه السلام، فاستجاب الله ﷻ لدعائه، وجاء الأمر بالتوجه إلى البيت العتيق، قال الله ﷻ: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وكانت أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر<sup>(١)</sup>.

الخاصية الحادية عشرة: تفرد بلديته بخصائص تميزها عن سائر البلدان:

أ - تحريم دخول الدجال مدينته:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ، لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونَ وَلَا الدَّجَالُ)<sup>(٢)</sup>. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطُوهُ الدَّجَالُ إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ. وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أَنْقَابِهَا إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِينَ، تَحْرُسُهَا فَيَنْزِلُ بِالسَّبْحَةِ، فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ)<sup>(٣)</sup>. قوله ﷺ: (على

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/٤٥٣).

(٢) صحيح البخاري ص ١٤٩٦ حديث رقم ٧١٣٣.

(٣) صحيح مسلم (٤/١٧٩١) حديث رقم ٢٩٤٣.

أنقاب المدينة) جمع نقب بفتح النون والقاف بعدها موحدة، والمراد بها  
مداخل، وقيل: الأبواب. وأصل النقب: الطريق بين الجبلين، وقيل: الأنقاب  
الطرق التي يسلكها الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَقَبُوا فِي الْبَلَدِ﴾ [ق: ٣٦].  
وقوله ﷺ: (ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال) هو على ظاهره وعمومه عند  
الجمهور، وقوله ﷺ: (ثم ترجف المدينة) أي: يحصل لها زلزلة بعد أخرى  
ثم ثالثة حتى يخرج منها من ليس مخلصاً في إيمانه ويبقى بها المؤمن الخالص  
فلا يسلط عليه الدجال، وحاصل ما في هذه الأحاديث إعلامه ﷺ أن الدجال  
لا يدخل المدينة ولا الرعب منه<sup>(١)</sup>.

ب - سلم الله ﷺ مدينته من الطاعون:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ  
مَلَائِكَةٌ لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونَ وَلَا الدَّجَالُ»<sup>(٢)</sup>.

ج - تعظيم أجر الصلاة فيهما:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إِنَّ امْرَأَةً اشْتَكَّتْ شَكْوَى، فَقَالَتْ: إِنْ  
شَفَانِي اللَّهُ لأُخْرِجَنَّ فَلأَصَلِّينَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَبَرَأَتْ ثُمَّ تَجَهَّزَتْ تُرِيدُ  
الْخُرُوجَ، فَجَاءَتْ مَيْمُونَةُ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ تُسَلِّمُ عَلَيْهَا، فَأَخْبَرَتْهَا ذَلِكَ، فَقَالَتْ:  
إِجْلِسِي فَكُلِّي مَا صَنَعْتُ، وَصَلِّي فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، فَإِنِّي سَمِعْتُ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (صَلَاةٌ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيَمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ،  
إِلَّا مَسْجِدَ الْكَعْبَةِ)<sup>(٣)</sup>.

د - حضر مشروعية شد الرحال إليهما مع المسجد الأقصى:

عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ: (لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ:  
مَسْجِدِي هَذَا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى). ومسجد الحرام، ومسجد  
الأقصى، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، تقديره مسجد المكان الحرام،

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤/١١٩).

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٧١٣٣.

(٣) صحيح مسلم (٢/٨٢٣) حديث رقم ١٣٩٦.

والمكان الأقصى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤] أي: المكان الغربي، ونظائره. وأما إيلياء: فهو بيت المقدس. وسمي: الأقصى، لبعده من المسجد الحرام. وفي هذا الحديث فضيلة هذه المساجد الثلاثة، وفضيلة شد الرحال إليها؛ لأن معناه عند جمهور العلماء: لا فضيلة في شد الرحال إلى مسجد غيرها<sup>(١)</sup>.

هـ - ما بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة، وأن منبره على الحوض: عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ الْمَازِنِيِّ رضي الله عنه<sup>(٢)</sup>؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ)<sup>(٣)</sup>. وقوله صلى الله عليه وسلم: (رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ) أي: كروضة من رياض الجنة في نزول الرحمة، وحصول السعادة بما يحصل من ملازمة حلق الذكر، وقد يكون المقصود: أن العبادة فيها تؤدي إلى الجنة في الآخرة، أو هو على ظاهره وأن المراد أنه روضة حقيقية بأن ينتقل ذلك الموضع بعينه إلى الجنة، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: (وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي) أي: أن المنبر ينقل يوم القيامة حتى يُنْصَبَ على الحوض، وقال الأكثر: المراد منبره بعينه الذي قال هذه المقالة وهو فوقه، وقيل: المراد المنبر الذي يوضع له يوم القيامة، والأول أظهر<sup>(٤)</sup>.

#### الخاصية الثانية عشرة: كونه صلى الله عليه وسلم أميناً لا يقرأ ولا يكتب:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا كُنْتُ تَسْلُوًا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْطُّهُ بِبَيْتِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمَبْطُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٦٩/٩).

(٢) عبد الله بن زيد المازني من فضلاء الصحابة، يُعرف بابن أم عمارة، وهو عبد الله بن زيد بن عاصم بن كعب، أحد بني مازن بن النجار. صحابي، من أهل المدينة، كان شجاعاً، شهد بدرًا، وقتل مسيلمة الكذاب يوم اليمامة، له ثمان وأربعون حديثاً. قُتل يوم الحرّة سنة ثلاث وستين. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٧٧/٢)، والأعلام للزركلي (٨٨/٤).

(٣) صحيح البخاري ص ٢٣٤ حديث رقم ١١٩٥.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١٢٥/٤).

نَحْسِبُ<sup>(١)</sup>). والمراد هنا: أهل الإسلام الذين بحضرته عند تلك المقالة، وهو محمول على أكثرهم، أو المراد نفسه، وقوله ﷺ: (أُمَّيَّةٌ) بلفظ النسب إلى الأم، فقيل: أراد أمة العرب لأنها لا تكتب، أو منسوب إلى الأمهات، أي: إنهم على أصل ولادة أمهم، أو منسوب إلى الأم لأن المرأة هذه صفتها غالباً، وقيل للعرب: أميون لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة، والمراد بالحساب هنا: حساب النجوم وسيرها ولم يكونوا يعرفون من ذلك إلا النذر اليسير<sup>(٢)</sup>. وكانت أميته التي اختارها الله ﷻ له أكبر منافح عن الرسول ﷺ لمن قال إنه جاء بالقرآن من أهل الكتاب وأنه خطه بنفسه.

الخاصية الثالثة عشرة: إحلال مكة له ﷺ ساعة من نهار:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَإِنَّهُ لَمْ يَجَلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي. وَلَمْ يَجَلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)<sup>(٣)</sup>.

من خصائص الحرم أن لا يُحارب أهله، فإن بغوا على أهل العدل، فقد قال بعض الفقهاء: يحرم قتالهم، بل يضيق عليهم حتى يرجعوا إلى الطاعة، ويدخلوا في أحكام أهل العدل، وقال جمهور الفقهاء: يقاتلون على بغيهم إذا لم يكن ردهم عن البغي إلا بالقتال؛ لأن قتال البغاة من حقوق الله تعالى التي لا يجوز إضاعتها، فحفظها أولى في الحرم من إضاعتها<sup>(٤)</sup>.

الخاصية الرابعة عشرة: إسلام قرينه له ﷺ:

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ)، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنْ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ)<sup>(٥)</sup>.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ١٩١٣.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤/١٥٩).

(٣) صحيح مسلم (٢/٨٠٤) حديث رقم ١٣٥٣.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٩/١٢٩).

(٥) صحيح مسلم (٤/١٧١٩) حديث رقم ٢٨١٤.

وَعَنْ عُرْوَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا لَيْلًا، قَالَتْ: فَعَزْتُ عَلَيْهِ، فَجَاءَ فَرَأَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: (مَا لَكَ يَا عَائِشَةُ أَغْرَتِ؟)، فَقُلْتُ: وَمَا لِي لَا يَعَارُ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَقْدَ جَاءَكَ شَيْطَانُكَ؟)، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ مَعِيَ شَيْطَانٌ؟ قَالَ: (نَعَمْ)، قُلْتُ: وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ؟ قَالَ: (نَعَمْ)، قُلْتُ: وَمَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (نَعَمْ. وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ) <sup>(١)</sup>.

**الخاصية الخامسة عشرة: عَظْمُ خُلُقِهِ ﷺ وَإِنَّهُ جَاءَ لِيُكْمَلَ صَالِحِ الْإِخْلَاقِ:**  
جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ ﷺ فِي رِسَالَاتِهِ أَنْ يُعَدَّ مِنْ يَصْطَفِيهِ فِي خُلُقِهِ وَخِصَائِصِهِ إِعْدَادًا خَاصًّا، يُوَاطِّئُ مَا انْتَدَبَ إِلَيْهِ، وَلَقَدْ جُمِعَ فِي الرَّسُولِ ﷺ مِنْ جَمَالِ الْخُلُقِ وَكَمَالِهِ مَا لَمْ يَجْمَعْ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ، فَكَانَ بِذَلِكَ نَسِيجَ وَحْدِهِ، وَفَرِيدًا فِي الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا، وَقِصَارَى الْقَوْلِ أَنَّهُ كَانَ عَالِمًا فِي فِرْدٍ <sup>(٢)</sup>.  
لَقَدْ تَفَرَّدَ مُحَمَّدٌ ﷺ فِي أَخْلَاقِهِ تَفَرَّدًا وَاضِحًا، حَتَّى كَانَ ذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ، وَذَلِكَ مِنْ عِدَّةِ نَوَاحِي:

- ١ - شمولها لجميع مكارم الأخلاق
- ٢ - استيعابها لجميع الخلق، حتى شملت الحيوان والطيور والجماد <sup>(٣)</sup>.
- ٣ - كمالها: وذلك ببلوغه قمة نهايتها فما تحلى بخلق إلا ترأس قمته وكان الناس تحته.
- ٤ - توازنها: فلم يغلب خلق مثلاً أخلاقه العظيمة على الآخر بل تراه في جميع أخلاقه عالياً مُتصفاً به في أعلى درجاته.
- ٥ - واقعيته: فلم تكن أخلاقاً مثالية وإنما كانت واقعاً عاشه معه أعداؤه قبل أصحابه.
- ٦ - دوامها: فلم يذكر أنه تخلى عنها حتى في أحلك مواقفه شدة.
- ٧ - تكاملها: فقد حقق الرسول ﷺ التكامل التام بين جماله الخُلُقِي والخُلُقِي.

(١) صحيح مسلم (١٧١٩/٤) حديث رقم ٢٨١٥.

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبه (٦٧٢/٢).

(٣) للاستزادة انظر: محبة النبي وطاعته بين الإنسان والجماد لخليل إبراهيم ملا خاطر، عظمة محمد مجمع عظمت البشرية لمصطفى الزرقا.



ومن الأدلة الواردة في بيان عِظَم خُلُقِهِ وأنه من عظيم خصائصه:

أولاً: ثناء الله ﷻ عليه في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فالآية السابقة هي الدلالة الأولى والكافية لإثبات أن محمداً ﷺ قد حاز الكمال في الخُلُق، فالذي وصفه بالخلق العظيم، هو الله ﷻ الذي تولى تأديبه وتربيته وإعداده، ووصف بالعظمة لاجتماع مكارم الأخلاق فيه؛ من كرم السجية، ونزاهة القريحة، والملكة الجميلة، فما دعاه أحد إلا قال: «ليبك»، وقد قال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي لَأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)<sup>(١)</sup>، ووصى أبا ذر رضي الله عنه فقال ﷺ: (وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ)<sup>(٢)</sup>.

ثم أثنى عليه ﷻ بأوجز عبارة وأرق تعبير، مُؤكِّداً بعدة مؤكِّدات تزيد من قوة الوصف وتأكيده، فقد أُكِّدَ بِإِنَّ التوكيدية وباللام الدالة على التوكيد وبعلى الدالة على الاستعلاء<sup>(٣)</sup>. وبمجيئه في جواب القسم، وفي معرض الدفاع عنه ﷺ، وردَّ اتهامات المشركين، قال تعالى: ﴿تَّوَالَّفِرَ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْبُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ١ - ٤].

قال ابن القيم رحمته الله: «وهذه من أعظم آيات نبوته لمن منحه الله ﷻ فهماً، فأخلاقه مقتبسة من مشكاة القرآن، وكلامه مطابق للقرآن تفصيلاً وتبييناً، وعلومه علوم القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجهه وندب إليه القرآن، وورغبته فيما

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٣١٨/٢)، المستدرک للحاکم (٦١٣/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٧٥/١) وقال: هذا إسناد حسن.

(٢) سنن الترمذي (٣١٢/٤) حديث رقم ١٩٨٧، البحر المحيط لأبي حيان (٣٠٣/٨).

(٣) انظر: الإعراب المفصل لكتاب الله المرثّل لبهجت عبد الواحد (١١٢/١٢)، و(على) في حقيقتها تفيد الاستعلاء، وهو غير مقصود في الآية، إذ الرسول ﷺ لا يستعلي فوق الخلق العظيم ويمتطيه، كما يمتطي الرجل صهوة الجواد مثلاً، وإنما هو على المجاز والاستعارة، أراد به تمكن الرسول ﷺ من الخلق العظيم والسجاي الشريفة. انظر: الجدول في أعراب القرآن وصرفه وبيانه لمحمود صافي (٣٤/٢٩).

رغب منه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهيته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره وتبليغه، والجهاد في إقامته<sup>(١)</sup>. وقال الجنيد: سُمِّي خُلُقًا عظيمًا، إذ لم تكن له همّة سوى الله ﷻ، عاشر الخلق بخُلقه، وزايلهم بقلبه، فكان ظاهره مع الخلق، وباطنه مع الحق<sup>(٢)</sup>.

ثم إن الله ﷻ قد أثنى على أنبيائه ﷺ، بأن ذكر كلاً منهم بأبرز أخلاقه، فقال عن إبراهيم ﷺ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [٧٥]، وعن أيوب ﷺ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وعن إسماعيل ﷺ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤] وغيرهم من الأنبياء ﷺ، أما هذا الوصف الجامع المانع في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فقد اختصَّ به رسول الله ﷺ دون الخلق جميعاً، واحتجَّ العلماء بقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفْتِدَةٌ قُلْ لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، على أنَّ الرسول ﷺ أفضل من جميع الأنبياء ﷺ، حيث أن خصال الكمال، وصفات الشرف كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ﷺ، وأمر الله ﷻ محمداً ﷺ أن يقتدي بأسرهم، فكان التقدير: كأنه تعالى أمر محمداً ﷺ أن يجمع من خصال العبودية والطاعة كل الصفات التي كانت مفرقة فيهم ﷺ، فاجتمع فيه ﷺ من خصال الخير ما كان مفرقاً فيهم بأسرهم<sup>(٣)</sup>. وعليه فإنَّ توفر هذه الأخلاق والفضائل المثالية المتكاملة في أعلى مستوى من الجلال والجمال في الرسول ﷺ خاصة، برهان ساطع على صدقه في نبوته ورسالته<sup>(٤)</sup>.

ثانياً: أنه اتصف بجميع الأخلاق الواردة في القرآن الكريم:

ويظهر ذلك في قول السيدة عائشة رضي الله عنها: ﴿إِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنُ﴾<sup>(٥)</sup>. كان خلقه القرآن، فقد جمع محاسن الأخلاق كلها عمقاً واتساعاً،

(١) بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٤/٥١٠).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٥/٣٤٦).

(٣) انظر: تفسير روح البيان للبروسوي (١٠/١٠٦)، التفسير الكبير للرازي (٦/٤٢١).

(٤) نبوة محمد ﷺ في القرآن للدكتور حسن عتر ص ٩٨.

(٥) المستدرک للحاکم (٢/٦٣١) وقال: صحیح الإسناد، ووافقه الذهبي.

وصفاً وتطبيقاً، ودلالة على أنها باقية ببقاء كتاب الله ﷺ، حيةً بتطبيقه والأخذ منه، وفيه دلالة على أنه يصعب حصرها وجموعها، فإذا كتبت أخلاق القرآن الكريم، وأخلاق الرسول ﷺ في موسوعات<sup>(١)</sup>، قضيت السنوات في جمعها، وتضافرت جهود العلماء في إعدادها، وحوتها آلاف الصفحات، وعشرات المجلدات، فهي بمجموعها أخلاق محمد ﷺ الذي أدبه ربُّه فأحسن تأديبه، أوجزتها فقيهة النساء الصديقة الطاهرة أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها في أقل عبارة، ومن هنا تكون أخلاقه من أعظم دلائل نبوته ﷺ.

**ثالثاً: أنه بُعث ليتم صالح الأخلاق:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ)<sup>(٢)</sup>.

ففي الحديث دلالة واضحة على كمال أخلاقه وتمامها، وأنه لا غاية بعدها فتدرك، ولا نهاية لها فتحصل، فمن بُعث لهدف إتمام صالح الأخلاق لا شك أنه قد بلغ تمامها ﷺ. فهناك فرق بين من جاء ليُوجد خلقاً ويعرف الناس عليه ومن جاء ليتمِّم صالح الأخلاق، فمعنى ذلك أنه حوى في شخصيته كل خلق صالح، وأنه جاء ليتمِّم بناء صرح الأخلاق الذي ابتدأه إخوانه ﷺ وجاء هو ليضع اللمسات الأخيرة لأعظم بناء عرفته البشرية.

**رابعاً: أنه جمع أصول مكارم الأخلاق:**

وظهر ذلك في قول السيدة خديجة رضي الله عنها: «إِنَّكَ لَتَتَّصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»<sup>(٣)</sup>، فوصفته ﷺ بأصول مكارم الأخلاق؛ لأن الإحسان إما أن يكون إلى الأقارب أو إلى الأجانب، وإما أن يكون بالبدن أو بالمال، وإما أن يكون على من

(١) منها: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، إعداد مجموعة من المختصين بإشراف د. صالح بن حميد، موسوعة أخلاق القرآن الكريم للشرباصي، الأخلاق الإسلامية لحنكة الميداني.

(٢) المستدرک للحاکم (٦١٣/٢) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٣) صحيح البخاري حديث رقم ٣.

يستقل بأمره أو من لا يستقل، وذلك كله مجموع فيما وصفته به ﷺ، وفي وصفه عليه الصلاة والسلام بقولها: «تعين على نواب الحق»، كلمة جامعة لأفراد ما تقدم، وما لم يتقدم، وقولها ﷺ: «وتصدق الحديث»، فهي من أشرف الخصال<sup>(١)</sup>.

### خامساً: أنه جمع بين الكمال الخُلقي والجَمال الخُلقي:

وفي وصف أم معبد<sup>(٢)</sup> للرسول ﷺ وهي تجهل أنه الرسول، بيان إلى أنه ﷺ ظاهر الحُسن خَلقاً وخلقاً، متميز عن حوله، فهو كما وصفته؛ ظاهر الوضأة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه تجله، وسيم قسيم، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق، كأن منطقه خرزات نظم يتحدثون، له رفقاء يحيطون به إن قال سمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره<sup>(٣)</sup>.

كما قال ابن تيمية يرحمه الله ﷺ: «كان من أكمل الناس تربيةً ونشأة، لم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل، ومكارم الأخلاق، وترك الفواحش والظلم وكل وصف مذموم، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة، ومن آمن به ومن كفر به بعد النبوة، لا يعرف له شيء يعاب به، لا في أقواله ولا في أفعاله، ولا في أخلاقه، ولا جُرب عليه كذباً قط، ولا ظلم ولا فاحشة، وكان خلقه وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله»<sup>(٤)</sup>.

إذن مما سبق يُستنتج أن الرسول ﷺ قد تميز في أخلاقه بجانبين:

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١/٣٢).  
(٢) أم معبد بنت خالد الخزاعية الكُعبية التي نزل عليها النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة مشهورة بكينيتها، واسمها عاتكة بنت خالد، وكانت امرأة برزة جلدة تسقي وتطعم بفناء. قدمت بعد ذلك فأسلمت وبايعت، وذكر أنها عاشت إلى عام الرمادة. انظر: أسد الغابة لمعرفة الصحابة لابن الأثير (٦/٣٩٦)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٤/٤٩٧).

(٣) المستدرک للمحاکم (٩/٣)، وقال: صحيح، ووافقه الذهبي.

(٤) الجواب الصحيح لابن تيمية (٥/٤٣٨).

أولهما: التكافؤ والتوازن بين أخلاقه؛ فهو الكمال الحاصل في شخصه ولا عجب، فالله ﷻ امتدح خُلُقَه بأنه عظيم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقِي عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فلم يغلب عليه ﷺ جانب ليوصف وليخص به، أو يُشار إليه به، كخالد بن الوليد بالشجاعة، وعثمان بن عفان ﷺ بالحياء، وحاتم الطائي بالكرم، فلم تبرز فيه ﷺ صفة طغت على مثيلاتها، وهذا من خصائصه ﷺ؛ فلقد جمع الكمال في شخصه الشريف، فكان جديراً بكل وصف، عالياً على كل موصوف.

وثانیهما: تكامل خُلُقِه وخُلُقِه، فقد جُمِع للمصطفى ﷺ بين كمال الأخلاق، وجمال الخِلقَة، فكان بهاتين الخصلتين صورة في العالم ولم يكن صورة منها، تدل صفاته الخَلقية التي خصه الله ﷻ بها على صفاته الخُلقية التي رباه الله ﷻ عليها، فيبينهما تكامل وتلاؤم وتداخل عجيب.

ويظهر ذلك في وصف الله ﷻ له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقِي عَظِيمٍ﴾، ووصف صحابته له، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا<sup>(١)</sup>، وعن البراء ﷺ<sup>(٢)</sup> قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَحْسَنَهُ خُلُقًا<sup>(٣)</sup>.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وقد نقل الناس صفاته الظاهرة الدالة على كماله»<sup>(٤)</sup>. فجعل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ صفاته الظاهرة دلالة على كماله ﷺ.

ومن مجموع الأدلة السابقة نجد أن هناك تكاملاً وانسجاماً بين خُلُقِ

(١) صحيح مسلم (١٤٤٠/٤) حديث رقم ٢٣١٠.

(٢) هو البراء بن عازب بن الحارث، الفقيه الكبير، أبو عمارة الأنصاري الحارثي المدني من أعيان الصحابة، روى أحاديث كثيرة، وشهد غزوات كثيرة مع النبي ﷺ إلا أنه استصغر يوم بدر، نزل الكوفة، وتوفي بها أيام مصعب بن الزبير سنة اثنتين وسبعين وله بضع وثمانون سنة، كان أبوه من قدماء الأنصار. انظر: الطبقات لابن سعد (٤/٣٦٤)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣/١٩٤).

(٣) صحيح البخاري ص ٧٢٩ حديث رقم ٣٥٤٩.

(٤) الجواب الصحيح لابن تيمية (٥/٤٤٩).

وَخَلَقَ الرَّسُولَ ﷺ مِمَّا كَانَ لَهُ عَظِيمُ الْأَثَرِ فِي دَعْوَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيْثُ أَبْهَرَ ذَلِكَ الْأَصْحَابَ وَالْأَعْدَاءَ فَكَانَ نَمُودِجًا فَرِيدًا، وَمِثَالًا نَادِرًا فِي ذَلِكَ، وَلَا يَسَعُنَا بِالتَّأَكِيدِ أَنْ نَرْبِطَ بَيْنَ جَمَالِ خُلُقِهِ وَحَسَنِ خَلْقَتِهِ فِي هَذَا الْمَكَانِ دَائِمًا لِذِكْرِ ذَلِكَ لِنُبَيِّنَ أَنَّ هَذَا التَّدَاخُلَ الْجَمِيلَ وَالدَّمِجَ الرَّائِعَ كَانَ مِنْ خِصَائِصِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَنَكْتَفِي بِذِكْرِ مِثَالَيْنِ لِبَيَانِ ذَلِكَ:

### ١ - التَّوَسُّطُ الْخُلُقِيُّ وَالْخُلُقِيُّ:

أَرْسَلَ اللَّهُ ﷻ رَسُولَهُ ﷺ إِلَى الْأُمَّةِ الْوَسْطَى، وَقَدْ كَانَ يَحْقُقُ الْوَسْطِيَّةَ التَّامَةَ فِي كَافَةِ أُمُورِهِ، فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقِفُ وَسْطًا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَقَدْ تَحَقَّقَتِ الْوَسْطِيَّةُ حَتَّى فِي خَلْقِهِ وَوَصْفِهِ الظَّاهِرِ؛ فَكَانَ وَسْطًا فِي طَوْلِهِ فَلَيْسَ بِالتَّوِيلِ الْبَائِنِ وَلَا بِالتَّقْصِيرِ الْمَتَرَدِّدِ، وَوَسْطًا فِي لَوْنِهِ فَلَيْسَ بِالأَبْيَضِ الْأَمْهَقِ؛ شَدِيدِ الْبَيَاضِ، وَلَا بِالأَسْمَرِ شَدِيدِ السَّمَارِ، بَلْ كَانَ أَبْيَضَ مُشْرَبًا بِالْحَمْرَةِ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ الْأَلْوَانِ وَأَجْمَلِهَا، فَكَانَ أَزْهَرَ اللَّوْنِ أَبْيَضَ مَلِيحًا، وَوَسْطًا فِي جِسْمِهِ فَلَيْسَ بِالجَسِيمِ وَلَا بِالنَّحِيفِ<sup>(١)</sup>. وَوَسْطًا فِي شَعْرِهِ فَلَيْسَ بِالسَّبِطِ وَلَا بِالجَعْدِ، وَالسَّبِطُ الَّذِي يَسْتَرْسِلُ فَلَا يَنْكَسِرُ مِنْهُ شَيْءٌ<sup>(٢)</sup>.

### ٢ - النُّورُ الْحَسِيُّ وَالْمَعْنَوِيُّ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦].

عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ، قَالَ: أَجَلٌ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦]<sup>(٣)</sup>.

- (١) صحيح البخاري رقم ٥٩٠٠، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٧٠٥)، صحيح مسلم شرح النووي (١٥/٨٥)، صحيح الشامل للألباني ص ٢٩.
- (٢) صحيح البخاري ص ١٢٦١ رقم ٥٩٠٠، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٦٠٠).
- (٣) صحيح البخاري رقم ٢١٢٥.

فكان ﷺ شاهداً على الأمة ، وعلى كل الأمم بالإبلاغ ، وهذا من خصائصه التي انفرد بها عن بقية أقرانه من الأنبياء ، ومُبشراً لمن اتبعه بالجنة ، ونذيراً لمن خالفه بالنار ، وداعياً إلى توحيد الله ﷻ وسراجاً منيراً ، وصفه بالإنارة لأن من السُّرَج ما لا يضيء إذا قلَّ سليلته ، ودقت فتيلته ، والسراج الذي يُهتدى به ، ويستضاء به في الظلمة فهو النور ، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويوافق هذا ما جاء في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ<sup>(١)</sup>.

ولقد توافق وصفه في القرآن بالسراج المنير، مع ما وصفه به صحابته في كون وجهه كالقمر، بل هو أحسن منه ضياءً وجمالاً ونوراً، فلم يَرَ صحابته منظرًا كان أعجب من وجهه ﷺ حين ينظر إليهم، وهو تعبير عن الجمال البارِع وحسن البشرة، وصفاء الوجه واستنارته<sup>(٢)</sup>.

وسئل البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَكَانَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ السَّيْفِ؟ قَالَ: لَا مِثْلَ الْقَمَرِ<sup>(٣)</sup>، وَعُدِلَ عَنِ السَّيْفِ إِلَى الْقَمَرِ لِجَمْعِهِ الصَّفَتَيْنِ: التَّدْوِيرَ وَاللِّمْعَانَ، وَكَانَ ﷺ يَسْتَنِيرُ وَجْهَهُ كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ قَمَرٍ وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَبِينُ فِي السَّرُورِ، وَهُوَ جَبِينُهُ<sup>(٤)</sup>. فَهُوَ نُورٌ أَيْنَمَا حَلَّ، نُورٌ مَعْنَوِيٌّ أَنَارَ قُلُوبَ الْعَالَمِينَ، وَأَنَارَ دُرُوبَهُمْ وَعَقُولَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ، وَنُورٌ حَسِّيٌّ بَرَزَ فِي جَمَالِ صُورَتِهِ، وَوَضَاءَةٌ وَجْهِهِ، وَبَيَاضٌ ثِيَابِهِ فَكَانَ يَعْجِبُهُ الْبَيَاضُ، وَكَانَ يَنْصَحُ بِهِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ<sup>(٥)</sup>.



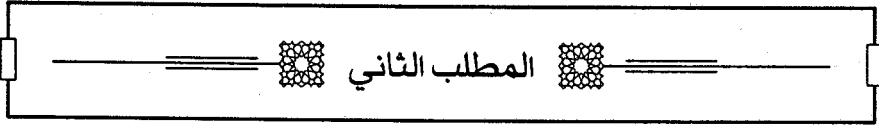
(١) السنن للترمذي (٥٤٩/٥) حديث رقم ٣٦١٨، صحيح الشماميل للألباني ص ١٩٦ حديث رقم ٣٢٩. وقال: صحيح.

(٢) صحيح مسلم (٢٦٤/١) رقم ٤١٩، صحيح مسلم شرح النووي (٣/٣٦٣).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٥٥٢.

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٧١٠).

(٥) السنن لأبي داود (٤٠٤/٤) حديث رقم ٤٠٥٨، وصحيح الشماميل للألباني ص ٥٠ رقم ٥٤. وقال: حديث حسن صحيح.



## خصائص الرسول ﷺ في الآخرة

كما اصطفى الله ﷻ عبده وحببيه محمداً ﷺ في الدنيا، وخصه بما لم يخص به غيره، من مقامات وأدوار عظيمة؛ فقد اصطفاه في الآخرة، ليقوم بعمل عظيم ليس محصوراً في أمته فقط، بل البشرية جمعاء، منذ أن خلق الله ﷻ البشر وحتى قيام الساعة.

فهو ﷺ أول من تنشق عنه الأرض، فلا يُبعث أحد قبله، ليقوم ويشهد ما عليه من مهمات عظيمة، أسندت له وحده دون غيره من بقية الأنبياء ﷺ، إتماماً لدوره الخاتم في الدنيا، فالناس تحشر على قدمه ﷺ، وهم يأتون إليه عندما يطول مقامهم انتظاراً لربهم ﷻ للفصل بينهم، فيشفع لهم، ويناجي الله ﷻ أن يرحمهم بنزوله للفصل بينهم.

وهو الشاهد على إخوانه الأنبياء ﷺ بأنهم قد بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة، والشاهد على الأمم بالسمع، وأمته تشهد بذلك، فهو وأمته أصحاب الأعمال الباقية في الآخرة.

وهو صاحب المقام المحمود، ولواء الحمد معه، وهو الذي يحمد ربه بمحامد لا يعرفها أحد سواه، وهو أول من يجوز الصراط ويجوز الناس خلفه، وهو صاحب الحوض، وأمته هم الغر المحجلون.

وهو أول من يقعقع باب الجنة، وله فقط سوف يُفتح، وهو أول والج فيها، ويلج الناس بعده، تأخذ أمته نصف منازلها، ويرقى هو أعلاها.

فهو الإمام في الدنيا والآخرة، والسيد في الدنيا والآخرة، وهو القائد والهادي ﷺ. ولقد فاقت خصائصه ﷺ في كتب السلف، وكتبت فيها المجلدات الكثيرة، غير أننا هنا نذكر بعضاً منها، متسلسلة بحسب الترتيب منذ أن ينشق عنه القبر وحتى يُتَوَجَّح الوسيلة، ومن هذه الخصائص:



## ١ - أول من تنشق عنه الأرض ﷺ:

عن عمرو بن أنس<sup>(١)</sup> قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (إِنِّي لِأَوَّلِ النَّاسِ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَن جُمُوعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ)<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ)<sup>(٣)</sup>. فلا يتقدم أحد عليه بعثاً وهذا من خصائصه ﷺ.

## ٢ - سيد ولد آدم يوم القيامة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: (أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)<sup>(٤)</sup>، وعن أبي هريرة رضي الله عنه في رواية أخرى، قال ﷺ: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)<sup>(٥)</sup>، والسيد هو الذي يفوق قومه، وقيل هو الذي يُفزع إليه في النوائب والشدائد، فيقوم بأمرهم، ويتحمل عنهم مكارههم، ويدفعها عنهم. وإنما خص يوم القيامة بالذكر مع أنه سيدهم في الدنيا؛ لظهور ذلك له يومئذ لكل أحد بلا منازعة، بخلاف الدنيا فقد نازعه فيها ملوك الكفار، وزعماء المشركين، وهذا التقييد قريب من معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦٦﴾﴾ [غافر: ١٦٦]، مع أن الملك له ﷺ قبل ذلك، لكن كان في الدنيا من يدعي الملك، أو من يضاف إليه مجازاً، فانقطع ذلك في الآخرة، وقوله ﷺ: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ) لم يقله فخراً، وإنما قاله لوجهين: - أحدهما: امتثال قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١].

- الثاني: أنه من البيان الذي يجب عليه تبليغه إلى أمته ليعرفوه،

(١) هو: عمرو بن أنس الأنصاري من بني عوف بن الخزرج. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٢/٥٢٤).

(٢) المسند للإمام أحمد (٣/١٤٤)، سلسلة الأحاديث الصحيحة للالباني (٤/١٠٠) حديث رقم ١٥٧١. وقال: سنده جيد، ورجاله رجال الشيخين.

(٣) صحيح مسلم (٤/١٤٢٣)، حديث رقم ٢٢٧٨.

(٤) صحيح البخاري ص ٦٨٠، حديث رقم ٣٣٤٠.

(٥) صحيح مسلم (٤/١٤٢٣) حديث رقم ٢٢٧٨.

ويعتقدوه، ويعملوا بمقتضاه، ويؤفروه ﷺ بما تقتضي مرتبته كما أمرهم الله تعالى. وهذا الحديث دليل على تفضيله ﷺ على الخلق كلهم؛ لأن مذهب أهل السنة أن الآدميين [من المؤمنين المتقين] أفضل من الملائكة<sup>(١)</sup>.

٣ - صاحب المقام المحمود، ولواء الحمد، وقد غفر الله ﷻ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر:

قال الله تعالى لصفية محمد ﷺ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٩) [الإسراء: ٧٩].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُنًّا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتَّبِعُ نَبِيَّهَا، يَقُولُونَ: يَا فُلَانُ اشْفَعْ، حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ ﷻ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ<sup>(٢)</sup>.

واختُلفَ في المقام المحمود، عن حذيفة رضي الله عنه قال: يَجْتَمِعُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَأَوَّلُ مَدْعُوِّ مُحَمَّدٍ، فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، فهذا قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٩) [الإسراء: ٧٩]<sup>(٣)</sup>، ولا منافاة بينه

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٣٩/١٥).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٧١٨. وُجِّأ - بضم أوله والتنوين - جمع جثوة وهو الذي يجلس على ركبته. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٨/٥١٠).

(٣) المستدرک للحاكم (٢/٣٦٣). قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة، إنما خرَّج مسلم حديث أبي مالك الأشجعي عن ربيعي بن حراش عن حذيفة ليخرجن من النار فقط.

وأبو مالك الأشجعي: هو سعد بن طارق بن أشيم، أبو مالك الأشجعي، كوفي صدوق، قال أحمد وابن معين: ثقة، وقال أبو حاتم: صالح الحديث يكتب حديثه، بقي إلى حدود الأربعين ومائة. انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (٢/٢٧٧)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/١٨٤).

وربيعي بن حراش هو: هو ربيعي بن حراش بن جحش بن عمرو بن عبد الله بن بجاد بن عبد بن مالك بن غالب العيسي الكوفي، قدم الشام. وهو الإمام القدوة، الحافظ الحجَّة. كان ثقة وله أحاديث سالحة، ذكره ابن جِبَّان في الثقات، من عبَّاد أهل الكوفة، توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة أربع ومائة. انظر: الطبقات =

وبين حديث ابن عمر رضي الله عنهما السابق في أن الناس يصيرون يوم القيامة جنًا، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذلك يوم يبعثه الله صلى الله عليه وسلم المقام المحمود؛ لأن الكلام الذي رواه الحاكم والنسائي كأنه مقدمة الشفاعة.

وأكثر أهل العلم على أن المقام المحمود؛ هو المقام الذي يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم صلى الله عليه وسلم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المقام المحمود، مقام الشفاعة<sup>(١)</sup>.

وهو الصحيح - والله تعالى أعلم - لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] قَالَ: (هِيَ الشَّفَاعَةُ)<sup>(٢)</sup> كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: المقام المحمود، مقام الشفاعة. والشفاعة هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، وللنبي صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات:

١ - الشفاعة في أهل الموقف حتى ينزل الله صلى الله عليه وسلم للقضاء بين العباد، وهي من أعظم الشفاعات؛ لأنَّ فيها إراحة الناس من هذا الموقف العظيم، والكرب والغم الذي حل بهم من طول الانتظار.

٢ - الشفاعة في أهل الجنة حتى يدخلوها؛ إذ إنهم يقفون على قنطرة، فيقتضون لبعضهم من بعض، وهو غير القصاص الذي كان في عَرَصات القيامة، بل هو أخص منه، يُطهَّر الله صلى الله عليه وسلم فيه القلوب، ويُزيل ما بها من أحقاد وضغائن، فإذا هُذِّبوا ونُقِّوا، أُذِنَ لهم في دخول الجنة، ولكنهم إذا أتوا الجنة لا يجدونها مفتوحة، كما يجدها أهل النار. فلا تفتح الأبواب حتى يشفع النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الجنة أن يدخلوها.

٣ - الشفاعة الثالثة؛ وهي له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ولمن دخلها أن يخرج منها<sup>(٣)</sup>.

= لابن سعد (١٢٧/٦)، صفة الصفوة لابن الجوزي (٢٣/٣)، تهذيب التهذيب لابن حجر (١٤١/٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٥٩/٤).

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٧٨/٩).

(٢) السنن للترمذي (٢٨٢/٥) حديث رقم ٣١٣٧ وقال: حديث حسن.

(٣) انظر: شرح العقيدة الواسطية للشيخ العثيمين رحمته الله (١٦٨/٢).

ولقد ورد في الحديث الصحيح اختصاص الرسول ﷺ وحده بهذا المقام وهي الشفاعة العظمى، إذ أن جميع الأنبياء ﷺ يتوزعون القيام بها، ويدفعون الناس حتى يصلوا إلى محمد ﷺ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: حدثنا محمد ﷺ قال: (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: اشفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ. فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَاسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذِنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ. فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، وَأَخِيرُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِيرُ لَهُ سَاجِدًا فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَى وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، وَأَخِيرُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَى وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنَ النَّارِ مِنَ النَّارِ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ)، (ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِيرُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فَيَمْنُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَانِي وَعَظَمَتِي لِأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ<sup>(١)</sup>).

(١) صحيح البخاري ص ١٥٧٤ حديث رقم ٧٥١٠.

واختصَّ عليه الصلاة والسلام كذلك بلواء الحمد.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَقِدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيْسُوا، لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ)<sup>(١)</sup>.

وهو كذلك الذي عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (فَيَأْتُونَ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ عَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)<sup>(٢)</sup>، قيل: المعنى: أنه ﷺ مغفور له ذنبه، غير مُؤَاخَذٍ لو وقع منه، وقال ابن حجر رحمته الله: وهو اللائق بهذا المقام<sup>(٣)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَلْتَلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾<sup>(٤)</sup> [الإسراء: ٧٩] نافلة لك، قيل: التخصيص من حيث إن نوافل العباد كفارة لذنوبهم، والنبِيُّ قد عُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، فكانت نوافله لا تعمل في كفارة الذنوب، فتبقى له زيادة في رفع الدرجات، وقيل معناه: أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فاجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة<sup>(٤)</sup>.

#### ٤ - أنه ﷺ أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)<sup>(٥)</sup>. وفي حديث المعراج عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ حدثه حتى بلغ ﷺ: (فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى، قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلِّمْتُ عَلَيْهِ. فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى، قِيلَ لَهُ:

(١) السنن للترمذي (٥٤٦/٥) حديث رقم ٣٦١٠. قال: حديث حسن غريب.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٧٥١٠، وص ٩٨٧ حديث رقم ٤٧١٢، صحيح مسلم (١٥٧/١) حديث رقم ١٩٤.

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٥٣٢/١١).

(٤) انظر: معالم التنزيل للبيهقي (١١٥/٥)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٠٣/٥).

(٥) صحيح مسلم (١٦٠/١) حديث رقم ١٩٦.

مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبُوبِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي، يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي<sup>(١)</sup>.

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَّمُ، فَأَجِدُ النَّبِيَّ يَمُرُّ مَعَهُ الْأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْعَشْرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ، فَتَنْظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قُلْتُ: يَا جَبْرَيْلُ، هَؤُلَاءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ انظُرِي إِلَى الْأَفْقِ، فَتَنْظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ. قَالَ هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ<sup>(٢)</sup>. والحاصل من الرواية أن الأنبياء يتفاوتون في عدد أتباعهم، والمراد بالسواد الكثرة التي سدت ناحية السماء<sup>(٣)</sup>.

## ٥ - شهادته على الأمم يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهذه الخاصية لم تثبت لأحد من

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٨٨٧. ولا بد من التنبيه إلا أن بكاء موسى صلى الله عليه وسلم لم يكن حسداً كما بين ذلك العلماء، معاذ الله فإن الحسد في ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين فكيف بمن اصطفاه الله تعالى؟ بل كان أسفاً على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع منهم من كثرة المخالفة المقضية لتقصيص أجورهم، ولهذا كان من أتبعه من أمته في العدد دون من أتبع نبينا صلى الله عليه وسلم مع طول مدتهم بالنسبة لهذه الأمة.

وأما قوله: (غلام)، فليس على سبيل النقص، بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظيم كرمه إذ أعطى لمن كان في ذلك السن ما لم يعطه أحداً قبله ممن هو أسن منه. وقد وقع من موسى من العناية بهذه الأمة من أمر الصلاة ما لم يقع لغيره.

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: (هذا غلام) إشارة إلى صغر سنّه بالنسبة إليه، ويظهر أن موسى صلى الله عليه وسلم أشار إلى ما أنعم الله به على نبينا عليهما الصلاة والسلام من استمرار القوة في الكهولة وإلى أن دخل في سن الشيخوخة، ولم يدخل على بدنه هرم ولا اعترى قوته نقص، حتى أن الناس في قدومه المدينة، لما رأوه مردفاً أبا بكر رضي الله عنه أطلقوا عليه اسم الشاب وعلى أبي بكر اسم الشيخ مع كونه في العمر أسن. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٢٦٨/٧).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٥٤١.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤٩٧/١١).

الأنبياء، فإن الله تعالى إذا حكم بين العباد، فجحدت الأمم بتبليغ الرسالة، أحضر الله ﷺ مُحَمَّدًا ﷺ وأمته، فيشهدون على الناس، بأن رسلهم أبلغتهم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦]، فهذه الآية نصت صراحة على أن من خصائصه ﷺ الشهادة، ولأن الله ﷻ يُحب الإعذار إلى خلقه، فيبعث من مخلوقاته شهداء على المكذبين الجاحدين، حتى لا يكون لهم عذر، وقد أشارت أكثر من آية إلى الشهداء الذين يشهدون على العباد، كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: ٦٩].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اقْرَأْ عَلَيَّ). قُلْتُ: أَقْرَأْ عَلَيْنِكَ، وَعَلَيْكَ أَنْزِلَ؟ قَالَ: (إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي). فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] قَالَ: (أَمْسِكْ). فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرَفَانِ <sup>(١)</sup>. والآية تبين المكانة التي خصَّ بها المصطفى ﷺ، قال ابن كثير: «اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع» <sup>(٢)</sup>.

وأول من يشهد على الأمم رسلها، فيشهد كل رسول على أمته بالبلاغ، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبَعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يُدْعَى نُوْحُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا آتَانَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ:

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٥٨٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥٩٤/٤).

مُحَمَّدَ وَأُمَّتَهُ. فَيَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ. وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] (١).  
 وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيْتِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: (إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ) (٢).

## ٦ - أول من يجوز الصراط:

عن أبي هريرة رضي الله عنه في الحديث الطويل؛ أَنَّ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (فَيَأْتِيهِمْ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَيَدْعُوهُمْ وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرَّسْلِ بِأَمْرِهِ) (٣). الصِّرَاطُ: هُوَ الْجِسْرُ الْمَنْصُوبُ عَلَى جَهَنَّمَ لِعُبُورِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَاجْتِيَازِهِ بِمَعْنَى قِطْعِهِ.

## ٧ - أول من يقرع باب الجنة:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (أَتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْحَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أَمْرٌ لَا أَتَّخِذُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِكَ).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ) (٤).

## ٨ - صاحب الكوثر:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] قال ابن قيم الجوزية رحمته الله: في قوله: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، دَلٌّ عَلَى عَطِيَّةٍ كَثِيرَةٍ

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٤٨٧.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٤٢٦.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٨٠٦.

(٤) صحيح مسلم (١/١٦٠) حديث رقم ١٩٧، ورقم ٣٣١.



مُسْنَدَهُ إِلَى معط كبير، وأراد بالكوثر: الخير الكثير، ومن الخير الذي وعد به ما أعطاه الله ﷻ في الدارين من مزايا التعظيم والتقديم والثواب ما لم يعرفه إلا الله ﷻ، ومن الخير ما اختص به من النهر الذي ماؤه أحلى من كل شيء، وعلى حافته أواني الذهب والفضة كعدد النجوم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في الحديث الطويل، عن النبي ﷺ قال: (ثُمَّ مَضَى بِهِ فِي السَّمَاءِ، فَإِذَا بِنَهْرٍ آخَرَ، عَلَيْهِ قَصْرٌ مِنْ لَوْلُؤٍ وَرَبْرَجِدٍ، فَضَرَبَ يَدَهُ فَإِذَا هُوَ مِسْكٌ أَذْفَرُ، قَالَ: (مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ) <sup>(١)</sup>. وقول جبريل عليه السلام: خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ؛ أَي: أَدَّخَرَهُ لَهُ ﷻ دُونَ غَيْرِهِ.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ، إِذَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ قَبَابُ الدَّرِّ الْمُجَوَّفِ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ، فَإِذَا طَيْبُهُ أَوْ طِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ) <sup>(٢)</sup>.

اختلف أهل التأويل في المراد بالكوثر، فقيل: عَلمٌ، وقيل: وصف. فعلى العَلَمِيَّةِ قالوا: أنه علم على نهر في الجنة أعطاه الله نبيه محمداً ﷺ.

عن ابن عمر أنه قال: الكوثر نهر في الجنة حافته من ذهب وفضة، يجري على الدر والياقوت، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل. وعلى الوصف قالوا: أنه هو الخير الكثير عن ابن عباس رضي الله عنهما. أنه قال في الكوثر: هو الخير الكثير الذي أعطاه الله ﷻ إِيَّاهُ. وعن مجاهد يرحمه الله قال: الكوثر هو الخير كله <sup>(٣)</sup>.

قال الطبري رحمته الله: وأولى الأقوال بالصواب أنه اسم النهر الذي أعطيه

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٧٥١٧. الذَّفْرُ، بالتحريك، والذَّفْرَةُ جميعاً: هي شدة ذكاء الريح من طيب أو نتن، وروضة ذفرة ومسك أذفر: بَيْنُ الذفر، وذفر: أي ذكي الريح، وفي صفة الحوض: وطينه مسك أذفر، أي: طيب الريح. انظر: لسان العرب لابن منظور (٤٥/٥).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٥٨١.

(٣) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٥٦٥/٩).

رسول الله ﷺ في الجنة، وصفه الله ﷻ بالكثرة لعظم قدره<sup>(١)</sup>.

ومن عظيم مكانة الرسول ﷺ فإن الله ﷻ يكرمه في الموقف العظيم، بإعطائه حوضاً واسع الأرجاء، مائه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، يأتيه هذا الماء الطيب من نهر الكوثر، الذي أعطاه الله ﷻ لرسوله في الجنة، فترد عليه أمة المصطفى، ومن شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

وهذا الحوض يكون بعد الصراط، خارج الجنة، يصب فيه ميزابان من الكوثر، والذي هو النهر العظيم الموجود في الجنة، وأطلق على الحوض كوثر، لكونه يمدُّ منه، فهو مادة الحوض ومكونه.

ولقد تضافرت النصوص الصحيحة في وصف عظم الكوثر الذي أعطاه الله للرسول ﷺ، واختصه به دون غيره، ومن تلك الأحاديث الآتية:

الحديث الأول: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: (حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَائُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيْزَانُهُ كَنْجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا)<sup>(٢)</sup>.

الحديث الثاني: وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْأَبَارِقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ)<sup>(٣)</sup>.

الحديث الثالث: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ وَمَائُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيْزَانُهُ كَنْجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا)<sup>(٤)</sup>.

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٥/٤١٤ إلى ٤١٨).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٥٧٩.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٥٨٠.

(٤) صحيح مسلم (٤/١٤٣١) حديث رقم ٢٢٩٢. قوله ﷺ: (حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ)، قال العلماء: معناه: طوله كعرضه. وقوله ﷺ: (مَائُهُ أَبْيَضُ مِنْ =

الحديث الرابع: عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا آيَةُ الْحَوْضِ؟ قَالَ: (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا نَيْتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا إِلَّا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحَبِيَّةِ. آيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ. يَشْخَبُ فِيهِ مِنَ الْجَنَّةِ. مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ. عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ. مَا بَيْنَ عَمَانَ إِلَى أَيْلَةَ. مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ)<sup>(١)</sup>.

والذي يتلخص من صفة الحوض أنه حوضٌ عظيمٌ، ماؤه ممد من شراب الجنة، من نهر الكوثر الذي هو أشدُّ بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، وهو في غاية الاتساع في عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر، من شرب منه أصاب ارتواء دائماً.

ولقد وردت أحاديث بيّن فيها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين يمنعون عن الشرب من حوضه، فعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرَفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ)<sup>(٢)</sup>.

= (الورق) الورق بكسر الراء، وهو الفضة. وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كيزانه كنجوم السماء) قال النووي: الصواب المختار أن هذا العدد للآنية على ظاهره، وأنها أكثر عدداً من نجوم السماء، ولا مانع عقلي، ولا شرعي يمنع من ذلك، بل ورد الشرع به مؤكداً كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (والذي نفس محمد بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء). انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٥٥/١٥، ٥٧، ٦١، ٦٢).

(١) صحيح مسلم (٤/١٤٣٤) حديث رقم ٢٣٠٠. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ألا في الليلة المظلمة المصحبة) فهو بتخفيف ألا. وهي التي للاستفتاح، وخص الليلة المظلمة المصحبة؛ لأن النجوم ترى فيها أكثر. والمراد بالمظلمة: التي لا قمر فيها مع أن النجوم طالعة. وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (آنية الجنة)، فضبطة بعضهم برفع آنية، وبعضهم بنصبها. وهما صحيحان، فمن رفع فخير مبتدأ محذوف؛ أي: هي آنية الجنة. ومن نصب فبإضمار أعني أو نحوه. وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يشخب) فبالشين، والخاء المعجمتين، والياء مفتوحة، والخاء مضمومة ومفتوحة. والشخب: السيلان، وأصله ما خرج من تحت يد الحالب عند كل غمرة وعصرة لضرع الشاة. وقوله: (أَيْلَةُ): مدينة معروفة في الشام على ساحل البحر متوسطة بين مدينة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودمشق، ومصر. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٥٥/١٥، ٥٧، ٦١، ٦٢).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٥٨٣. وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أنا فرطكم على الحوض) قال أهل =

وعن عبد الله قال: قال الرسول ﷺ: (أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ،  
وَلَأَنَا زِعَنَ أَقْوَامًا، ثُمَّ لَأُعَلِّبَنَّ عَلَيْهِمْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي أَصْحَابِي) فَيُقَالُ:  
إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ<sup>(١)</sup>.

## ٩ - صاحب الوسيلة:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (إِذَا  
سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِيِ الْوَسِيلَةَ. فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا  
تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ. وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ. فَمَنْ سَأَلَ لِيِ الْوَسِيلَةَ  
حَلَّتْ لَهُ الشَّقَاعَةُ)<sup>(٢)</sup>.

وقال أهل اللغة: الوسيلة: المنزلة عند الملك، وهي ما يتقرب به إلى  
الكبير، وتطلق على المنزلة العالية، وقد فسرها النبي ﷺ بأنها منزلة في  
الجنة<sup>(٣)</sup>.

وما يجب التنبيه إليه أن هذه الخصائص التي ذكرناها ما هي إلا غيض  
من فيض لأعظم شخصية خرجت لهذا الوجود، وإنما انتقينا منها ما أبرز تميزه

= اللغة: الفرط بفتح الفاء، والراء. والفرط هو الذي يتقدم الوارد ليصلح لهم،  
والحياض والدلاء ونحوها من أمور الاستقاء، فمعنى فرطكم على الحوض: سابقكم  
إليه كالمهيء له. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٥٤/٥٣/١٥)..

(١) صحيح مسلم (٤/١٤٣٣) حديث رقم ٢٢٩٧. قوله ﷺ: (ما أحدثوا) حاصل ما حمل  
عليه حال المذكورين أنهم إن كانوا ممن ارتد عن الإسلام فلا إشكال في تبيري  
النبي ﷺ منهم وإبعادهم. وإن كانوا ممن لم يرتد لكن أحدث معصية كبيرة من أعمال  
البدن أو بدعة من اعتقاد القلب، فقد أجاب بعضهم بأنه يحتمل أن يكون أعرض  
عنهم ولم يشفع لهم اتباعاً لأمر الله فيهم حتى يعاقبهم على جنائهم، ولا مانع من  
دخولهم في عموم شفاعته لأهل الكباثر من أمته فيخرجون عند إخراج الموحدين من  
النار والله أعلم. وفي الحديث الوعيد على التبديل والإحداث، فإن الفتن غالباً إنما  
تنشأ عن ذلك. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٥٤/٥٣/١٥).

(٢) صحيح مسلم (١/٢٤٢) حديث رقم ٣٨٤.

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٣ - ٤/٣٠٨)، فتح الباري شرح صحيح البخاري  
لابن حجر (٢/١٢١).

وعلو شأنه على غيره من إخوانه الأنبياء ﷺ في الدنيا والآخرة. مما يستوجب من أفراد أمته مزيد شكر الله ﷻ على نعمة الانتماء إلى أمة سيد البشرية، وما يَسْتَتَبِع ذلك من عظيم النعم والتي سيتم ذكرها في خصائص أمته من الباب الثالث إن شاء الله.





## الفصل الثالث

### اصطفاء الصديقين والشهداء والصالحين

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: اصطفاء الصديقين.

المبحث الثاني: اصطفاء الشهداء.

المبحث الثالث: اصطفاء الصالحين.





# المبحث الأول

## اصطفاء الصديقين

ويشتمل على ثلاثة مطالب:  
المطلب الأول: تحرير معنى الصديق في اللغة والاصطلاح وأقوال  
المفسرين.

المطلب الثاني: صفات الصديقين وخصائصهم.  
المطلب الثالث: الصديقون والصديقات في القرآن والسنة.

## توطئة

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

الصدّيقون هم الطبقة الثانية من طبقات المنعم عليهم من صفوة العباد، دون الأنبياء في الفضيلة، عطف الله ﷺ درجاتهم على درجة النبوة، وهم الربانيون<sup>(١)</sup>، وهم الراسخون في العلم، خلفاء الرسول ﷺ، وأولياؤه وحزبه، وخاصته وحملة دينه، والمضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله ﷻ وهم على ذلك.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: (مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابٌ، يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ)، قال الأزهري وغيره: الحواريون، هم خلصان الأنبياء ﷺ وأصفيائهم، والخلصان هم: الذين نُقُوا من كل عيب. وقيل: أنصار الأنبياء، وقيل: المجاهدون، وقيل: الذين يصلحون للخلافة بعدهم، ويهتدون بطريقتهم وسمتهم<sup>(٢)</sup>.

الصدّيقون أصحاب مرتبة عظيمة عالية، إذ لا مرتبة بعد النبوة في الفضل

(١) الربانيون: جمع ربّاني، مأخوذ من ربّ يربّ إذا أصلح وربّى، وهم الحكماء والعلماء الناصحون لله ﷻ في خلقه، وولاة الناس وقادتهم، الذين يربون الناس، ويصلحون أمورهم. انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٤٤٢/٣)، معالم التنزيل للبغوي (٦١/٢)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤٦٢/١).

(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢١٧/٢) حديث رقم ١٧٧، والحديث في صحيح مسلم (٧١/١) حديث رقم ٥٠.

والعلم إلا هذه المرتبة، فهم دون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الفضيلة، ولا تفصل بينهم مرتبة، ولقد دلَّ على ذلك لفظ القرآن الكريم، ففي أي موطن ذكر النبي ﷺ مع الصديق لم يُجعل بينهما أحد؛ قال ﷺ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦]، وذلك لاختصاص الأنبياء بالوحي الذي وهبهم الله ﷻ إياه، فعَلُوا به على جميع الخلائق، ثم اختص أقواماً دونهم لنيل درجة الصديقية، فكانوا هم أول من آمن بالرسول ﷺ، بلا تردُّد ولا تلعثم، وصدَّقوا بكلِّ ما قالوه وما جاءوا به من عند ربِّهم، وتطابقت كل أحوالهم مع الشرع فهم يتبعونه أينما كان غير ناظرين لرأي أو لهوى أو لفكر آخر؛ وذلك لكمال تصديقهم وإيمانهم أنَّ ما جاء به الرسل ﷺ إنما هو الحق الذي لا باطل فيه، فكانوا بذلك قدوةً لمن بعدهم، وصورةً مثالية لمن حولهم. قدَّموا كل ما يملكون لمساعدة الرسل ﷺ ومُساندتهم للدفاع عن الحق الذي جاءوا به، وخلفوهم من بعدهم بعزم وإيمان ويقين، آمنوا بالله ﷻ وصدَّقوا المرسلين.

سمتهم الأولى والبارزة هي الصدق الكامل التام الذي تغلغل في دقائق نفوسهم، حملوه نوراً ساروا به في كل حياتهم، حتى ماتوا عليه. هؤلاء هم الصديقون ومن سار على نهجهم إلى قيام الساعة، تميزوا عن غيرهم بسبقهم إلى الإسلام، وكونهم قدوةً لغيرهم، وأنهم صدَّقوا في كل أمورهم وأحوالهم.

والصديقية درجة تكون للأنبياء ﷺ ولغيرهم، وتكون في كافة العصور، ومختلف الأزمان؛ وعليه فإن العبد بفضل الله ﷻ وتوفيقه، يستطيع أن يكون من أصحاب هذه المرتبة، إذا ملك مفتاحها وأدى شرطها، وقام بحققها، ووضع نفسه على أولى درجاتها، ثم وثب بعزم أكيد، وصبر شديد، وإرادة فذة، وقوة بالغة للوصول إليها.

فكما أنَّ لكل شيء مفتاحاً يُفتح به، فإن الصدق الكامل هو مفتاح الصديقية وهو ما أعلم به الرسول ﷺ؛ عن عبد الله ﷻ؛ عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ،

حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا<sup>(١)</sup>... ومعنى قوله ﷺ: (إن الصدق يهدي) في الحديث الهداية وهي الدلالة الموصلة إلى المطلوب، والبر اسم جامع للخيرات كلها، ويطلق على العمل الخالص الدائم الذي يهدي إلى الجنة، قال ابن بطال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ومصداقه في كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ والمراد: أنه يتكرر منه الصُّدُق حتى يستحق اسم المبالغة في الصدق.

وفي الحديث حثٌّ على تحرِّي الصُّدُق، وهو قَصْدُه والاعتناء به، وعلى التحذير من الكذب والتساهل فيه، فإنه إذا تساهل فيه كثر منه فيعرف به. وفي هذه الزيادة إشارة إلى أن من توفى الكذب بالقصد الصحيح إلى الصدق صار الصدق له سجية حتى يستحق الوصف به، وكذلك عكسه، وليس المراد أن الحمد والذم فيهما يختص بمن يقصد إليهما فقط، وإن كان الصادق في الأصل ممدوحاً والكاذب مذموماً. فالوصول إلى الصِّدِّيقية، لا يكون إلا بولوج باب الصدق، لذا وجب علينا التعرُّف عليه وعلى مجالاته، ثم التعرُّف على الصِّدِّيقية والصِّدِّيقين<sup>(٢)</sup>.

### الصدق في اللغة:

قال ابن فارس: الصاد والذال والقاف، أصل يدل على قوَّة الشيء، ومنه الصدق ضد الكذب؛ سُمِّيَ بذلك لقوَّته في نفسه، ولأن الكذب لا قوة له<sup>(٣)</sup>.

### الصدق في الاصطلاح:

أورد العلماء تعاريف عدة للصدق، منها:

هو مطابقة الحكم للواقع، وهذا ضد الكذب، وهو الإبانة عما يخبر به على ما كان<sup>(٤)</sup>.

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٦٠٩٤.

(٢) الإطالة في الحديث عن الصدق في هذا المبحث ليكون بمثابة تمهيد لما هو أعلى منه وهو الصِّدِّيقية، وليساهم ذلك في توضيح المعنى المراد من الصِّدِّيقية، وبيِّن الفرق بين الصدق والصِّدِّيقية، كما يُسهِّل الفهم على القارئ بجمعهما في مكان واحد، والله تعالى أعلم.

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ص ٥٨٨، الصحاح للجوهري (٤/٢٥٦).

(٤) التعريفات للجرجاني ص ١٧٤.

وفي تعريف آخر للصدق أنه: مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معاً، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقاً تاماً<sup>(١)</sup>.  
ويطلق الصدق أيضاً ويراد به استواء السر والعلانية، والظاهر والباطن؛  
بألا تكذب أحوال العبد أعماله، ولا أعماله أحواله<sup>(٢)</sup>.  
وذكر بأن الصدق هو القول بالحق في مواطن الهلكة<sup>(٣)</sup>.

### منزلة الصدق:

إن لفظ الصِدِّيق والذي هو أعلى مراتب الصفوة بعد الأنبياء والرسل مشتق منه، كما أن الإيمان يُطلق في اللغة على التصديق، وشرعاً يُراد به التصديق بالقلب والعمل بالأركان، فالصدق هو عماد الأمر وبه تمامه، وفيه نظامه، وهو تالي درجة النبوة، كما أنه من صفات الله ﷻ التي وصف بها نفسه، ووصفها به رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٥) [آل عمران: ٩٥]. وفي السنة عن أبي سعيد رضي الله عنه؛ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ، فَقَالَ ﷺ: (اسْقِهِ عَسَلًا)، ثُمَّ أَنَاهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ ﷺ: (اسْقِهِ عَسَلًا)، ثُمَّ أَنَاهُ فَقَالَ: فَعَلْتُ، فَقَالَ ﷺ: (صَدَقَ اللَّهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، اسْقِهِ عَسَلًا) فَسَقَاهُ قَبْرًا<sup>(٤)</sup>.

ثم إن الله ﷻ أمر المؤمنين أن يتقوه، وأن يكونوا مع الصادقين، وفي هذا رفع لشأن الصادقين وتنويه بقدرهم، قال ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا اللَّهَ وَكُوْنُوا مَعَ الصَّٰلِحِينَ﴾ (١١٩) [التوبة: ١١٩].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن الصدق هو أساس الحسنات

(١) مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص ٤٧٨.

(٢) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم لصالح بن حميد ومجموعة من العلماء (٢٤٧٤/٦).

(٣) الرسالة القشيرية ص ٢٠٨. (والذي يظهر لي أن الصدق هو قول الحق في كل حال، وإن كان أعلاه مقاماً قول الحق في مواطن الهلاك - والله أعلم -).

(٤) انظر: الرسالة القشيرية ص ٢٠٧، معجم ألفاظ العقيدة للدكتور عامر عبد الله فالح ص ٢٤١، والحديث في صحيح البخاري ص ١٢٢٢، حديث رقم ٥٦٨٤.

- وجماعتها، والكذب أساس السيئات ونظامها وذلك من وجوه:
- الوصف المقوم للإنسان هو المنطق، فالكاذب أسوأ من البهيمة العجماء.
  - الصفة المميزة بين النبي والمنتبئ هي الصدق؛ فإن محمداً رسول الله ﷺ الصادق، ومسيلمة الكذاب.
  - الصفة الفارقة بين المؤمن والمنافق هي الصدق.
  - الصدق أصل البر والكذب أصل الفجور.
  - إن الفارق بين الصديقين والشهداء والصالحين، وبين المتشبهين بهم المرائين، هو الصدق والكذب.
  - إنه ركن الشهادة الخاصة عند الحكام، التي هي قوام الحكم والقضاء، والشهادة العامة في جميع الأمور، وركن الأحاديث والأخبار التي يقوم بها الإسلام، بل هي ركن النبوة والرسالة، وركن الفتيا، وركن المعاملات.
  - إن الصدق والكذب هو المميز بين المؤمن والمنافق<sup>(١)</sup>.

### مجالات الصدق:

لا ينحصر الصدق في دائرة الأقوال فقط كما هو الشائع، بل إن له مجالات كثيرة لا يمكن حصرها، إذ إنه متعلق بنية العبد ومقصده، والتي لا يطلع عليها إلا الله ﷻ، بل إن الإنسان قد لا يصدق في أقواله وأفعاله وأحواله حتى مع نفسه، إلا إذا راجعها وحاسبها، لذا وجب على طالب مرتبة الصديقية أن يركب مطية الصدق، ويلبس لباسه، ويحمل سيفه، وينطلق به في عزم وقوة نحو هدفه الذي يسمو إليه، محققاً له في كافة مجالاته والتي هي:

### أولاً: الصدق في الأقوال:

وهو أول درجاته، ويكون بمجانبة الكذب مهما كانت نتائجه، لقد نجا كعب بن مالك رضي الله عنه - الصحابي الجليل - بصدقه، وذلك عند تخلفه عن غزوة

(١) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله (٧٤/٢٠ - ٧٨) باختصار.

تبوك، حيث أنه حين قدم الرسول ﷺ إلى المدينة توافد عليه المخلفون يعتذرون إليه، فقبل منهم الرسول ﷺ علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله . ولكن الصحابي كعب بن مالك ﷺ قال: إني والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنني سأخرج من سخطه بعذر، والله لقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك اليوم حديث صدق تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله. فقال ﷺ: (أما هذا فقد صدق فم حتى يقضي الله فيك). وقد ابتلي أشد البلاء اختباراً لصدقة؛ قال كعب بن مالك ﷺ: فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي. ويزداد البلاء، ويشد التمحيص، يأتيه كتاب من ملك غسان، ينتهز فرصة ما يعيشه الصحابي ﷺ من مقاطعة كل من حوله، والذي جاء فيه: ألا إن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، فالحق بنا نواسيك. فقال كعب: وهذا أيضاً من البلاء، ثم قال ﷺ: وعندما ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ يقول: يا كعب بن مالك، أبشِر. وبشره المصطفى ﷺ بقوله: (أبشِر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك). قال كعب ﷺ: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي إلا أحدثت إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله ما بقيت<sup>(١)</sup>.

كما يدخل في صدق الأقوال: الوفاء بالوعد والخلف فيه، وصدق الأقوال من أشهر أنواع الصدق وأظهرها، وله كمالان:

١ - الاحتراز عن المعارض إلا ما مسّت واقتضته المصلحة، والصدق هنا يتحول إلى النية وإرادة الخير، فكلما صحّ القصد، وصدقت النية وتجرّد للخير، كان صادقاً.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٤١٨.

٢ - مراعاة معنى الصَّدق في الألفاظ التي يُناجي العبدُ بها ربَّه، فلا ينصرف قلبه عنه، وينشغل بأمانى الدنيا وشهواتها. وهذا كقول العبد في كل ركعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فهو إن لم يتَّصف بحقيقة العبودية، لم يكن صادقاً في قوله ذلك.

### ثانياً: الصدق في الأفعال:

ويكون بالإتيان بالفعل وإتمامه، والاجتهاد في الإخلاص، حتى لا تدل الأعمال الظاهرة، على أمر باطن لا يتصف به، ويكون بإصلاح داخله حتى يصدق ظاهره؛ فكلما كان الفعل صادقاً، كان مقبولاً عند الله ﷻ، وكان سبباً لنيل الأجر، وسلاحاً فعلاً عند حلول الأزمات والمحن.

### ثالثاً: الصدق في النية:

ويكون ذلك بالعزم الصادق، والإقامة عليه حتى يبلغ الفعل، ولا يكون له باعث في الحركة إلا الله تعالى، فتوافق عزمته في الخيرات كلها قوة تامة، ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد.

### رابعاً: الصدق في مقامات الدين:

وهو أعلى الدرجات وأعزها، الصَّدق في الخوف والرجاء، والتعظيم والزهد، والرضا، وسائر الأمور، والصَّادق هو مَنْ نال حقيقتها، فإن لها مَبَادٍ ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها، مثال الخوف من الله ﷻ واليوم الآخر، قد يكون خوفاً غير صادق؛ أي: لم يبلغ درجة الحقيقة، التي يكون له فيها مردود على صاحبه<sup>(١)</sup>.

وخلاصة القول أنه لا يكون الصادق كذلك حتى يحقق الصدق في مختلف مجالاته والتي هي:

• الصدق في العقيدة: بالإخلاص وهو الصدق في المقصد والإخلاص لله تعالى.

• الصدق في المقال: فلا يقول إلا ما طابق الواقع سواء على نفسه أو

غيره.

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٤٨٣)، الكليات للكفوي ص ٥٥٦.



• الصدق في الفعال: بمطابقة أفعاله ما جاء به النبي ﷺ، وأن تتبع عن إخلاص<sup>(١)</sup>.

## الصادقون<sup>(٢)</sup> في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَضْرُوبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ضرب الله مثلاً لنماذج عملاقة، ترجمت الصدق واقعاً حياً، وهم الفقراء المهاجرون، وذلك عندما تكشفت الحقائق وانقشعت الظلم، وتساقطت الأقنعة، لما جاء الأمر بالهجرة، فظهر صادق الإيمان، وتميز عن غيره من أهل الشرك والنفاق، فخرج نموذجاً فريداً صادقاً، مُنْسَلّاً عن تلك الأجواء، متجرداً لخالقه، محققاً لإيمانه، قدّم ثمن هذا الصدق، ما تقاس قيمته بموازين الآخرة، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ فيه إعلاء لشأنهم، وتنويه بهم، وحصر الصدق فيهم. قال قتادة: هم المهاجرون؛ الذين تركوا الدنيا والأموال والعشائر، وخرجوا حباً لله ورسوله، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة<sup>(٣)</sup>.

إذا عَرَفَ العبد حقيقة الصدق، وتحراه وعمل به، واتصف بصفات أهله، وثبت عليه ومكّنه في نفسه، والتزمه في كل أحواله، وهو راغب في الانضمام إلى أولئك الصادقين، حري به أن يتقلد مفتاح الصدق، وأن يلج بابه، ليصل بتوفيق الله ﷻ إلى درجة الصّديقين الفائزين بالانضمام إلى الصفوة المباركة، الحائزين أعلى مراتب السعداء بعد النبيين ﷺ، ولا يكون ذلك إلا بالتحلي بأوصافهم التي ذكرها المولى ﷺ في كتابه المبين.

## صفات الصادقين في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد العثيمين (١/١٥٤).

(٢) لم ينسب لفظ الصادق أو الصادقون في القرآن الكريم إلا على هذه الطائفة من الناس، وهم الفقراء المهاجرون، الذين أخرجهم أعداؤهم من ديارهم وأموالهم، فرضوا أن يخرجوا متجردين من كل متع الدنيا متحررين عن جواذبها، ساعين إلى فضل الله ﷻ ونصرة رسوله ودينه هؤلاء هم الصادقون.

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي (١٤/٥٠).

ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَالْمَلَائِكَةِ ۖ وَالْكِتَابِ ۖ وَالنَّبِيِّنَ ۖ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ ۖ وَالْيَتَامَىٰ ۖ وَالْمَسْكِينِ ۖ وَابْنَ السَّبِيلِ ۖ وَالسَّائِلِينَ ۖ وَفِي الرِّقَابِ ۖ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ۖ وَءَاتَى الزَّكَاةَ ۖ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ۖ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۗ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ۚ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ۖ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ [الحجرات: ١٥].

بينت الآيتان السابقتان عدداً من صفات الصّادقين، وهي:

١ - الإيمان بالله ﷻ، وأنه لا إله إلا هو، والإيمان باليوم الآخر، والملائكة، والكتب، وجميع النبيين إيماناً كاملاً، لا يخالجه أدنى ريب أو شك، يتحقق واقعاً في حياة صاحبه قولاً وفعلاً واعتقاداً، يحيا به في جميع أحواله، دون فصل بين العبادات وبقية شؤون الحياة ومتطلبات المجتمع، وبهذا يكون صادقاً في إيمانه، محققاً لمضمونه، عاملاً بمقتضاه والذي هو تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان.

٢ - إخراج صدقة المال مع حبه الشديد له والرغبة في جمعه، تحقيقاً لصدق حبه لربه ﷻ، وإيمانه بعظيم الأجر والخلف في الدنيا والآخرة، قال الطبري: وهو غير الزكاة المفروضة<sup>(١)</sup>، لذكر الزكاة بعد ذلك.

٣ - إقامة الصلاة بشرطها، وأداؤها في أوقاتها، بتمام أركانها، صادقاً في خشوعه وتوجهه إلى خالقه، محققاً للغرض الذي من أجله فرضت ألا وهو ذكر الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ [طه: ١٤].

٤ - إيتاء الزكاة المفروضة شرعاً، مؤمناً بفرضيتها، مُصدقاً بعظيم الأجر وكثرة النفع؛ حيث أنها تزكي ماله، وتنمي كسبه، فيدفعه هذا الإيمان والصدق إلى أدائها راضية بها نفسه.

٥ - الوفاء بالعقود التي عقدها، صادقون حال إبرامها، عازمون على الوفاء بها؛ لأنها عقدت بنيات صادقة على الوفاء، وأولى هذه العهود بالوفاء تلك التي عقدت مع الخالق ﷻ.

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢/١٣٤).

٦ - الصبر في جميع الأحوال؛ في الفقر والفاقة، في المرض والضراء، وفي القتال ولقاء الأعداء.

٧ - الثبات على الإيمان بالله ورسوله، وعلى تحقيق مقتضيات الإيمان، في اختلاف الظروف والأحوال دون شك ولا تذبذب. وهذا ليس بالأمر اليسير، خاصة في المجتمعات التي جعلت الإيمان منحصراً في جانب العبادات فقط. وهذا الثبات يتطلب إيماناً كاملاً، وقوة في مواجهة المانعين والمثبطين.

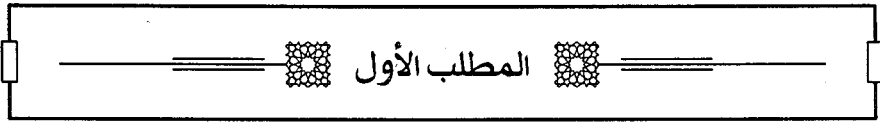
٨ - بذل المهج ونفائس الأموال في سبيل الله ﷻ، بعد عقد البيعة مع الله ﷻ، إيماناً وتصديقاً بقبض الثمن، وإن طالت هذه الحياة وبعدت الشقة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْحَيَاةَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

ذكرت الآيات السابقة أهل الصدق، وبينت الصفات التي يتمسكون بها، ويلتزمون بها، ويشبتون عليها، وحصرت فيهم الصدق، ونسبته إليهم بقوله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، مدحاً لهم، وتنويهاً بشأنهم، وتشجيعاً للحاق بهم والانضمام إليهم، حيث أنهم صدقوا في ترجمة الإيمان واقعاً يحيونه، فصدقوا ابتداءً في عقائدهم، فظهر على أقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم وأحوالهم. فكل من آمن بالله واليوم الآخر، واتصف بالصفات المذكورة في الآية، فهو من الذين صدقوا الله في إيمانه وحقق قوله بفعله، لا من ولى وجهه قبل المشرق والمغرب، وهو يخالف الله في أمره ويتقضى عهده وميثاقه، ويكتم الناس بيان ما أمر الله بيانه ويكذب رسوله.

وبعد الحديث عن الصدق وصفات أهله نرتقي إلى مقام الصديقية والتي ستعرض لها من ثلاث زوايا:

- (١) معنى الصديق في اللغة والاصطلاح وأقوال المفسرين.
- (٢) صفات الصديقين وخصائصهم.
- (٣) الصديقون والصديقات في القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال

العلماء.



## تحرير معنى الصديق في اللغة والاصطلاح وأقوال المفسرين

### الصديق في اللغة:

صيغة مبالغة على وزن فَعِيل، وهو الكثير الصدق المُلازم له، الدائم التّصديق، فهو مبالغ في الصدق والتصديق، يُصدّق قوله بالعمل، والمصدّق هو الذي يُصدّقك في حديثك<sup>(١)</sup>.

### الصديق في الاصطلاح:

للعلماء في تعريف الصديق أقوال منها:

أنّ الصديق هو الذي لم يدع شيئاً أظهره باللسان، إلا حَقَّقه بقلبه وعمله<sup>(٢)</sup>.

وقيل: أنه الصادق في معتقده وإخلاصه وإرادته، وفي مقاله وأفعاله<sup>(٣)</sup>.  
وعرّفه بعضهم بأنه من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله<sup>(٤)</sup>.  
وبأنه من لم يصدر منه الكذب أصلاً، ومن صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه<sup>(٥)</sup>.

وبالنظر في معنى الصدق والصّديقية، نجد أنهما ينصرفان إلى نفس

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ص ٥٨٨، لسان العرب لابن منظور (٧/٣٠٧)، الصحاح للجوهري (٤/٢٥٦).

(٢) التعريفات للجرجاني ص ١٧٤، مع التأكيد بموافقة ما يحققه للشرع.

(٣) شرح العقيدة الواسطية للشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللهُ (١/١٥٤)، ومن المؤكد أنّ الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عنى العقيدة الصحيحة عند قوله (بمعتقده).

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢٠٨.

(٥) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ إعداد مجموعة من العلماء بإشراف الشيخ صالح بن حميد والشيخ عبد الرحمن بن مَلُوح (٦/٢٤٧٥).

المعنى إلا أن مرتبة الصَّدِيقِيَّة أعلى من مرتبة الصَّدق بكثير، وأن الصَّدِيق أعلى مقاماً ومنزلة من الصادق، وإنما قلنا ذلك لأن لفظ الصَّدِيق صيغة مبالغة، ومن المعلوم في اللغة العربية أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى؛ فيما أنها صيغة مبالغة وتشتمل على زيادة في المعنى فذلك يدلُّ على أن الصَّدِيقِيَّة أعلى من الصَّدق، والعلاقة بينهما أن الصَّدق هو مفتاح الصَّدِيقِيَّة، ولا يزال الرجل يصدق ويترقى في مراتب الصَّدق ويُبْتلى في صدقه، ويتعرَّض إلى المواقف والابتلاءات العديدة فيصمد حتى يترقى إلى تلك المرتبة العالية والتي لا يفصلها عن مرتبة النبوة إلا الوحي الذي يُختص به من يُصطفى للرسالة، وهذه المرتبة لا يصل إليها إلا الصَّفوة من العباد بخلاف مرتبة الصَّدق؛ أما ترى أنه لم ينسب إلا على القلة من الناس في الكتاب والسنة؟

ويطلق وصف الصادق على من كَمَّل جانباً من جوانب الصَّدق المختلفة كالصَّدق في الأقوال، فكل من اعتاد الناس صدقه في مقاله سُمِّي صادقاً، ولكن لا يمكن أن يطلق عليه صَدِيقاً إلا إذا كمل جوانب الصَّدق كلها.

ويلاحظ فيمن أطلق عليهم لفظ الصَّدِيقِين دون الأنبياء؛ من صدَّقوا بالله ﷻ، وصدَّقوا وآمنوا برسله كما هو في مريم بنت عمران وأبي بكر الصديق ﷺ.

### الصَّدِيق في أقوال المفسرين<sup>(١)</sup>:

١ - هو كل من دعا إلى توحيد الله ﷻ، وتصديق الرسل ﷺ، والعمل بما بعثوا به، فتشمل كل المؤمنين الذين حققوا إيمانهم، والرسول ﷺ هو أولى الناس بالدخول في هذه الآية، والصَّدق هنا هو القرآن الكريم، وأنباؤه والشرع بجملته، والمصدق به هم المؤمنون<sup>(٢)</sup>.

٢ - أتباع الأنبياء ﷺ، الذين صدَّقوهم وأتبعوا مناهجهم من بعدهم حتى

(١) لوحظ من استقراء تعريفات المفسرين أن هناك تشابه بينها ولكن وضعت كلها في البحث لمعرفة جميع آراء المفسرين حول هذا التعريف، وملاحظة ما بينها من فروق طفيفة.

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٥/١٢)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٥٣١)، شرح العقيدة الواسطية للشيخ العنمين (١/١٥٤).

لحقوا بهم، ويدخل في ذلك أصحاب الرسول ﷺ، والحواريون، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ مَنَ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢]، والحواري هو الناصر، وهم أعوان دين الله ﷻ، ورسله ﷺ. قال الكلبي وعكرمة: الحواريون هم الأصفياء، وهم أصفياء عيسى ﷺ<sup>(١)</sup>.

٣ - كثير الصدق ولا يقال ذلك لمن فعل الشيء مرة أو مرتين، حتى يكثر منه ذلك، أو يكون عادة<sup>(٢)</sup>.

٤ - كل من صدق بكل الدين، لا يخالجه فيه شك، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ءُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ءُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [الحديد: ١٩].

٥ - اسم لمن سبق إلى تصديق الرسول ﷺ، فصار في ذلك قدوة لسائر الناس<sup>(٣)</sup>.

٦ - الذين كُمل تصديقهم بما جاءت به الرسل ﷺ، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم، وقاموا به قولاً وعملاً وحالاً، ودعوا إلى الله ﷻ، وهم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح والعلم النافع واليقين الصادق<sup>(٤)</sup>.

٧ - المبالغ في صدق ظاهره بالمعاملة، وباطنه بالمراقبة<sup>(٥)</sup>.

٨ - الصديق فعيل من الصدقة، بمعنى المصدقون.

وبالنظر في التعريفات السابقة وبالجمع بينها يكون الصديق هو: كل من سبق إلى تحقيق الإيمان بأعلى درجاته، وفي مختلف مجالاته، ولازمه حتى صار له عادة لا تنفك عنه، وصدق بالدين كله لم يخالجه فيه شك، وقام بالدعوة والتبليغ والدفاع عنه، فكان السباق وكان القدوة لمن معه ومن بعده.  
قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وأما الصديق فهو الذي كُمل مقام

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي (٤٣/٢).

(٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٧٦/٢).

(٣) رقم (٤ و ٥) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢٩٨/٥).

(٤) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٩٦/٢)، (٢٩٥/٧).

(٥) مدارك التنزيل للنسفي (٣٧١/١).

الصدّيقية لكمال بصيرته حتى كأنه قد باشر بصره مما أخبر به الرسول ﷺ ما باشر قلبه، فلم يبق بينه وبين إدراك البصر إلا حجاب الغيب، فهو كأنه ينظر إلى ما أخبر به من الغيب من وراء ستوره، وهذا لكمال البصيرة، وهذا أفضل مواهب العبد، وأعظم كراماته التي يُكرم بها، وليس بعد درجة النبوة إلا هي، ولهذا جعلها سبحانه بعدها فقال ﷺ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وهذا هو الذي سبق به الصّدّيق، لا بكثرة صوم، ولا بكثرة صلاة، وصاحب هذا يمشي رويداً ويجيء في الأول ولقد تهنّأ من لم يكن سيره على هذا الطريق وتشميره إلى هذا العلم، وقد سبق من شمّر إليه وإن كان يزحف زحفاً ويحبو حبواً<sup>(١)</sup>.



(١) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (١/٩٢).

## صفات الصديقين وخصائصهم

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الحديد: ١٩].

بيّنت هذه الآية صفات الصديقين، وهي أنهم الذين آمنوا بالله ﷻ ورسله ﷺ، ولا بد أن كل فطن يعلم أن المقصود بالإيمان في الآية، هو ذروته التي لا يكون بعدها إلا إيمان الأنبياء ﷺ، إيمان حق كامل لا نقص فيه ولا جرح، قال ابن عباس: من آمن بالله ورسله فهو من الصديقين<sup>(١)</sup>، ويحمل كلام ابن عباس ﷺ على من بلغ من الإيمان ذروته كما بيّن ذلك النووي حيث ذكر أن الصديقين في الآية هم الذين آمنوا إيماناً راسخاً قوياً، تميّز عن إيمان من دونهم في المرتبة، فهم أصدق وأقوى إيماناً من غيرهم، بحيث لا تعتر بهم الشبهة، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم نيرة وإن اختلفت عليهم الأحوال<sup>(٢)</sup>. ومعنى ذلك أنهم آمنوا إيماناً حقاً، وهو الذي ذكر المولى ﷺ صفات أصحابه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

ذكر الله خمس صفات اختارها من بين جميع صفاتهم لكونها الأساس، ولقيام بقية الصفات عليها، فهم الكاملون في إيمانهم، وهم الذين أقاموا الدليل على ذلك بتصديق أفعالهم لأقوالهم وهذه الصفات هي:

(١) بحر العلوم للسمرقندي (٣/٣٨٦).

(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢/١٠٥) بتصرف.



## ١ - الوجع القلبي عند ذكر الله ﷻ:

وهم دائمو الذكر لله ﷻ، والخوف منه، تعظيماً له، ووجلاً منه، واستشعاراً لعظمته.

## ٢ - الزيادة المستمرة في التصديق بلا ريب أو شك:

وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَفَعْنَهُمْ مِّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]. قال ابن عطية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وزيادة الإيمان على وجوه كلها خارج عن نفس التصديق، منها أن المؤمن إذا كان لم يسمع حكماً من أحكام الله في القرآن فنزل على النبي ﷺ فسمعه فأمن به، زاد إيماناً إلى سائر ما قد آمن به، إذ لكل حكم تصديق خاص، وهذا يترتب فيمن بلغه ما لم يكن عنده من الشرع إلى يوم القيامة، وتترتب زيادة الإيمان بزيادة الدلائل»<sup>(١)</sup>.

قال النووي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فالأظهر - والله أعلم - أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة، ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعترتهم الشبه ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منسرحة نيرة وإن اختلفت عليهم الأحوال وأما غيرهم فليسوا كذلك»<sup>(٢)</sup>.

## ٣ - التوكل الصادق على الله ﷻ في جميع الأمور:

والتوكل عمل قلبي يولده صدق الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، وينم عن عقيدة صحيحة استقرت في القلب. والتوكل على الله ﷻ عبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة إذا اعتبرت وعمل بحسبها، فالمؤمن يتمثل ما أمر به، ويبلغ في ذلك أقصى جهده، ثم ينتظر ما تكفل له به ربه من نصر وعز، فهو لا يرجو سواه، ولا يقصد غيره، ولا يلوذ إلا بجنابه، ولا يطلب الحوائج إلا منه، ولا يرغب إلا إليه، ويعلم أن ما شاء الله ﷻ كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له ولا مُعَقَّبٌ لحكمه، وهو

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/٥٠١).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/١٠٥).

سريع الحساب<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - إقامة الصلاة:

يقيمون الصلاة كاملة بجميع شروطها وأركانها، ويحققون الغرض منها وهو ذكر الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، ويشع أثرها في جُلِّ حياتهم، فكما يقفون أمام ربهم مستسلمين، فهم يسرون في كافة أمورهم وأحوالهم متمثلين شرع الله ﷻ، بإقامتهم للصلاة على حقيقتها امتد أثره في بقية أحوالهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

#### ٥ - الإنفاق في سبيل الله ﷻ:

ينفقون أموالهم في سبيل الله على الوجه المطلوب. قال الإمام البغوي: «وفي الآية دليل على أنه ليس لكل أحد أن يصف نفسه بكونه مؤمناً حقاً؛ لأن الله ﷻ، إنما وصف بذلك قوماً مخصوصين، على أوصاف مخصوصة، وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الأوصاف فيه»<sup>(٢)</sup>.

#### خصائص الصديقين:

١ - لا يُسألون في قبورهم؛ لأن مرتبة الصديقين أعلى من مرتبة الشهداء، فإذا كان الشهداء لا يُسألون فالصديقون من باب أولى، ولأن الصديق على وصفه مُصَدِّقٌ وصادق فهو قد عَلِمَ صدقه فلا حاجة لاختباره؛ لأن الاختبار يكون لمن يُشك فيهِ هل هو صادق أم كاذب؟<sup>(٣)</sup>.

٢ - يُشَفَّعون يوم القيامة، وذلك في الحديث الطويل الذي رواه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: (...، ثُمَّ يُقَالُ أَدْعُوا الصَّدِيقِينَ فَيَشْفَعُونَ...) <sup>(٤)</sup>.

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٣/٢٤٤) ..

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٣/٣٢٦).

(٣) شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد العثيمين (٢/١١٠).

(٤) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني، تحقيق للشيخ أحمد البنا (٢٤/١٢٦)، مجمع الزوائد للهيتمي (١٠/٦٨٠) حديث رقم ١٨٥٠٧، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والبخاري ورجالهم ثقات، وينظر: البحر الزخار مسند البزار (١/١٥١).

٣ - علو منازلهم في الجنة، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءُونَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءُونَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تِلْكَ مَنَازِلَ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: (بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ)<sup>(١)</sup>. وقوله ﷺ: (يتراءون) أي: أن أهل الجنة تتفاوت منازلهم بحسب درجاتهم في الفضل، حتى أن أهل الدرجات العُلا ليراهم من هو أسفل منهم كالنجوم. وقد بين ذلك في الحديث بقوله: (لتفاضل ما بينهم).

وقوله ﷺ: (الدري) هو النجم الشديد الإضاءة، وقال الفراء: هو النجم العظيم المقدار.

وقوله ﷺ: (الغابر): معناه الذي يبعد للغروب، ومعنى الغابر هنا الذاهب. والمراد بالأفق: السماء.

وقوله ﷺ: (وصدقوا المرسلين) أي: حق تصديقهم وإلا لكان كل من آمن بالله وصدق رسله وصل إلى تلك الدرجة وليس كذلك، ويحتمل أن يكون التنكير في قوله ﷺ: (رجال) يشير إلى ناس مخصوصين موصوفين بالصفة المذكورة،

ولا يلزم أن يكون كل من وصف بها كذلك لاحتمال أن يكون لمن بلغ تلك المنازل صفة أخرى، وكأنه سكت عن الصفة التي اقتضت لهم ذلك، والسرف فيه أنه قد يبلغها من له عمل مخصوص، ومن لا عمل له كان بلوغها إنما هو يرحمه الله تعالى<sup>(٢)</sup>.



(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٢٥٦.

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤٠٣/٦) وما بعدها.

## الصدّيقون والصدّيقات في القرآن والسنة

ذكر الله ﷺ بعض أنبيائه في القرآن الكريم مادحاً لهم بوصف الصدّيقية وهم<sup>(١)</sup>:

١ - إدريس عليه السلام: قال ﷺ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

٢ - إبراهيم عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

٣ - يوسف عليه السلام: قال ﷺ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَمْعِ بَقَرَاتِ سِمَانَ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبْعَ سُبُلَاتٍ خَضِرٍ وَأَخْرَ يَأْسِنُ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦].

ولم تنل هذه المرتبة العالية في القرآن الكريم سوى؛ السيدة مريم بنت عمران رضي الله عنها، قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَا يَأْكُلَانِ الطَّلْعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ نَبِّئْتَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنْ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [التحریم: ١٢].

مريم بنت عمران، اصطفاها الله ﷻ من بين نساء العالمين، وطهرها واصطفاها لمهمة عظيمة؛ فكانت من المؤمنات المصدقات بقدره الله ﷻ، نذرتها أمها لله ﷻ؛ لتتفرغ لعبادته في المحراب، ولم يكن ذلك إلا للذكور،

(١) قد تجتمع درجتا الصدّيقية والنبوة في شخص واحد، وقد خصّ الله ﷻ بعض أنبيائه بهذه المنزلة؛ لذا تمّ ذكرهم في هذه المرتبة وإن كانوا هم أعلى منها.

فتقبلها ربها بقبول حسن، وتولّى رعايتها، واختار لها مَنْ يكفلها من خيرة عباده، زكريا عليه السلام، فنشأت تحت رعايته وعنايته، قال تعالى: ﴿فَنَقَّبَلْنَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْمُوهُ أَنَّى لَئِبَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ [آل عمران: ٣٧]، وكان رزقها يأتيها من عند الله تعالى، ليكون ذلك آية على قدرته تعالى على كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ فهو رب الأرباب ومُسَبِّب الأسباب تعالى، فكان في إيمانها ويقينها وحُسن إجابتها بقولها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أن وقع ذلك في قلب زكريا عليه السلام، فتوجّه إلى الله تعالى بالسؤال، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨]، فهو القادر على أن يخلق ما يشاء في أي وقت شاء، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، فقد أراد أن يرزق زكريا عليه السلام الولد بعد أن اشتعل رأسه شيباً، وأن تلد مريم عليها السلام بدون أن يمسهما بشر، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ [آل عمران: ٤٧]، فأمنت وصدقت وتوجّهت إلى ربها تعالى، واطمأن قلبها، ورضيت بحكم ربها تعالى، وصدقت بجبريل عليه السلام عندما أخبرها أنه رسول الله تعالى، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١١﴾ [مريم: ١١]، قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ [مريم: ٢٢ - ٢٣] فخفف عنها الرؤوف الرحيم بأن تولى مهمة الدفاع عنها وعن ابنها عليه السلام قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَيْتُ إِلَيْكَ يَجْزِعَ النَّخْلَةَ لَشَقِطٍ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكَلِمَةَ أَشْرَىٰ وَقَرَىٰ عَيْنًا فِيمَا تَرَىٰ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ [مريم: ٢٤ - ٢٦]، فنالت بإيمانها وتصديقها أعلى مقاماتها وهي درجة الصديقية.

وللمفسرين في تعليل وصفها بالصديقة أقوال منها:

١ - تصديقها جبريل عليه السلام وأنه رسول الله تعالى إليها، قال تعالى: ﴿قَالَ

إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١١﴾ [مريم: ١١].

٢ - إيمانها بعيسى عليه السلام وهو كلمة الله تعالى، وكتبه؛ أي: التوراة

والإنجيل، وصدقت بالشرائع التي شرعها الله للعباد<sup>(١)</sup>.

٣ - ملازمتها الصدق في الأقوال، والمعاملة مع الخلق، وصدق الأفعال والأحوال في المعاملة مع الخالق، لا يصدر منها ما يكذب دعوى العبودية والطاعة<sup>(٢)</sup>.

٤ - مبالغتها في الصدق، ونفي الفاحشة عنها، ولتصديقها آيات ربها<sup>(٣)</sup>.

### الصدِّيقون والصدِّيقات في السنَّة النبوية:

أفضل الصَّدِّيقين على الإطلاق بعد الأنبياء ﷺ؛ أبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، وهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن لؤي القرشي التيمي، يجتمع مع الرسول ﷺ في مرة بن كعب أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، خليفة رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار، وقيل اسمه عتيق، وأمه أم الخير، سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب أسلمت وهاجرت، وذلك معدود في مناقبه؛ لأنه انتظم له إسلام أبويه وجميع أولاده. ولد بعد الفيل بستين وستة أشهر، وصحب النبي ﷺ قبل البعثة فلما جاء الإسلام سبق إليه، وأسلم على يده جماعة لمحبتهم له، وميلهم إليه، حتى أنه أسلم على يده خمسة من العشرة، وقيل له الصديق، واستمرَّ مع النبي ﷺ طول إقامته في مكة ورافقه في الهجرة والغار وفي المشاهد كلها إلى أن مات. وروى عن النبي ﷺ ومناقبه وفضائله كثيرة جداً مدونة في كتب العلماء.

ولي الخلافة بعد النبي ﷺ واستقر خليفة في الأرض سنتين وشيئاً، وقيل: عشرين شهراً. لقبه المسلمون خليفة رسول الله ﷺ.

توفي يوم الاثنين في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة، وصلى عليه عمر، ودُفن مع الرسول ﷺ<sup>(٤)</sup>.

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢١٩/١٤)، معالم التنزيل للبخاري (١٧١/٨)، تفسير

القرآن العظيم لابن كثير (١٥٨/٣).

(٢) روح البيان للبروسوي (٤٣٣/٢).

(٣) التُّكْتُ والعيون للماوردي (٥٦/٢).

(٤) انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٢٠٥/٣)، الإصابة في تمييز

الصحابة لابن حجر (٣٤١/٢).

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ثبتت له مرتبة الصديقية في السنة النبوية، ففي الحديث عن قتادة رضي الله عنه، أن أنس بن مالك رضي الله عنه، حدثهم أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد أهدأ وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فرجف بهم فقال صلى الله عليه وسلم: (اثبت أهدأ، فإنما عليك نبئ وصديق وشهيدان)<sup>(١)</sup>.

وسبب تسميته بالصديق، إيمانه بما أخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء دون تردد، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى الأقصى، أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق. قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في الغدوة أو روحة. فلذلك سمي أبو بكر الصديق<sup>(٢)</sup>. وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي)<sup>(٣)</sup>.

منزلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في القرآن الكريم:

قال صلى الله عليه وسلم: ﴿إِلَّا نَصْرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَائِفِ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْكَلْبِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودِهِ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

قال الشعبي رضي الله عنه: «عاب الله صلى الله عليه وسلم أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر الصديق»<sup>(٤)</sup>. ولقد بينت الآية مكانة أبي بكر الصديق رضي الله عنه من عدة نواحي:

- (١) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٦٧٥.
- (٢) رواه الحاكم في مستدركه (٦٢/٣) وقال: صححه ووافقه الذهبي، السيرة النبوية لابن هشام (١ - ٣٩٩/٢).
- (٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٦٦١.
- (٤) معالم التنزيل للبغوي (٤٩/٤).

أولاً: جعله ثاني اثنين مع المصطفى ﷺ:

قال تعالى: ﴿ثَانِيَانِ﴾ وفي ذلك دلالة على فضل أبي بكر ﷺ وكونه الثاني في المرتبة بعد الرسول ﷺ في كل ما يقتضيه المقام للهجرة الشريفة.

قال ابن القيم رحمه الله: «كانت تحفة ثاني اثنين، مفخرة للصدِّيق، فهو الثاني في الإسلام، وفي بذل النفس، وفي الزهد، وفي الصحبة، وفي الخلافة، وفي العمر، وفي سبب الموت»<sup>(١)</sup>.

الثاني: في مماثلته لأخلاق الرسول ﷺ، قال ابن الدغنة<sup>(٢)</sup> لأبي بكر ﷺ عندما أراد الخروج من مكة المكرمة: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يُخْرَجُ وَلَا يُخْرَجُ، إِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. فَأَنَا لَكَ جَارٌ. ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَيْدِكَ<sup>(٣)</sup>.

إنَّ المتأمل لكلام ابن الدغنة، يُدرك مَدَى التَّشَابُه بين أخلاق أبي بكر الصديق ﷺ، وأخلاق الرسول ﷺ التي وصفتها به السيدة خديجة رضي الله عنها، عندما قالت: (والله ما يُخزبك الله أبداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ)<sup>(٤)</sup>.

الثاني في الغار مع الرسول ﷺ، في أعظم وأهم هجرة على وجه الأرض لما حملته في طيَّاتها من انقلاب شامل لحياة البشر وقوانينهم.

الثاني في الدعوة، فقد قام بحقها بمجرد إسلامه فأمن على يديه أجلُّ الصحابة.

(١) الفوائد لابن قيم الجوزية ص ١٣٤. لأن الرسول ﷺ مات عن أثر السم، وأبو بكر ﷺ سُمِّ فمات.

(٢) هو رئيس قبيلة مشهورة من بني الهون، أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهو سيد الأحابيش، وهم بنو الحارث بن عبد مناة ابن كنانة، والهون بن خزيمة بن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة، تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش، نسبة إلى الوادي الذي تحالفوا عنده، يقال له الأحبش بأسفل مكة المكرمة. انظر: السيرة لابن هشام (١ - ٢ / ٣٧٢).

(٣) صحيح البخاري ص ٧٩٩ حديث رقم ٣٩٠٥.

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم ٣.



الثاني في العرش الذي نُصِبَ للمصطفى ﷺ في موقعة بدر الكبرى، والتي كانت الحد الفاصل بين الكفر والإيمان، ليس معه سوى أبو بكر الصديق، وهو يناشد ربه ما وعده من النصر، وأبو بكر يقول: بعض مناشدتك، فإن الله ﷻ منجز لك ما وعدك<sup>(١)</sup>.

قال أبو محجن الثقفي<sup>(٢)</sup> ﷺ:

وَسُمِّيتِ صَدِيقًا وَكُلُّ مَهَاجِرٍ  
سَوَاكُ يُسَمَّى بِاسْمِهِ غَيْرَ مَنْكِرٍ  
سَبَقْتَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ شَاهِدٌ  
وَكُنْتَ جَلِيسًا فِي الْعَرِشِ الْمَشْهُرِ<sup>(٣)</sup>

الثاني في الدار فلم يبق المصطفى ﷺ خوخة في مسجده إلا أمر بسدها سوى خوخة الصاحب والأخ والصديق، قال ﷺ: (سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ)<sup>(٤)</sup>.

الثاني في الخلافة، عن عائشة رضي الله عنها: قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: (ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ أَبَاكَ وَأَخَاكَ، حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّيَ مُتَمَنَّئٌ وَيَقُولَ قَائِلٌ: أَنَا أَوْلَى، وَيَأْتِي اللَّهَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ)، وفي الحديث دلالة ظاهرة على فضل أبي بكر الصديق ﷺ<sup>(٥)</sup>، وذلك أن اختياره لخلافة الأمة المسلمة في أول تجربة لها بعد وفاة رسولها ﷺ، وانقطاع وحي السماء، كان باختيار الله ﷻ ورسوله ﷺ والمؤمنين، فقد ألهمهم الله ﷻ ذلك، وجمع كلمتهم على عقد الخلافة له ﷺ.

الثاني في القبر: فقد صاحبه في حياته، وأحبّه وصدّقه وفداه فكافأه

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١ - ٦٢٧/٢).

(٢) هو عمرو بن حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف، الشاعر المشهور وكنيته أبو عبيد أحد الأبطال الشعراء الكرماء في الجاهلية والإسلام، أسلم سنة تسع من الهجرة وروى عدة أحاديث، ولحق بسعد بن أبي وقاص وهو بالقادسية، فقاتل قتالاً عجبياً، وتوفي بأذربيجان وبعض شعره مجموع في ديوان، توفي سنة ثلاثين للهجرة. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٤/١٧٣)، الأعلام للزركلي (٥/٧٦).

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٣/٢٠٦).

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٦٧.

(٥) صحيح مسلم (٤/١٤٨٠) حديث رقم ٢٣٨٧، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/١٥١).

المولى عليه السلام بمعيته وصحبته له حتى في القبر، فقد كان ثاني اثنين في قبره، وفي سبب الموت، فقد مات عليه السلام مسموماً على يد اليهود، هذا على الصحيح، واستكمل سن النبي عليه السلام، وهو ابن ٦٣ سنة<sup>(١)</sup>.

قال فيه حسان بن ثابت رضي الله عنه:

إِذَا تَذَكَّرْتَ شَجَوًّا مِنْ أَخِي ثِقَّةٍ      فَادُّكِرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا  
التَّالِي الثَّانِي الْمَحْمُودُ شِيَمَتُهُ      وَأَوَّلِ النَّاسِ طُرّاً صَدَقَ الرُّسُلَا  
وَالثَّانِي اثْنَيْنِ فِي الْغَارِ الْمُنِيفِ وَقَدْ      طَافَ الْعَدُوُّ بِهِ إِذْ صَعَدَ الْجَبَلَا  
وَكَانَ حِبِّ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ عَلِمُوا      مِنَ الْبَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلَا<sup>(٢)</sup>

ثانياً: إثبات صحبته للرسول عليه السلام:

قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾، قال الليث<sup>(٣)</sup>: ما صحبت الأنبياء مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه<sup>(٤)</sup>. ولقد كان أبو بكر الصديق هو بطل الهجرة بعد الرسول عليه السلام، وعائلته هم جنودها، فلقد شاركت السيدتان أسماء وعائشة رضي الله عنهما - ابنتا أبي بكر الصديق - في تجهيز الراحلتين وصنع الطعام، وكان عبد الله رضي الله عنه - ابن أبي بكر الصديق - عينهما عند قريش، وعامر بن فهيرة رضي الله عنه مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ماسح أثرهما، وأثر عبد الله رضي الله عنه، وذلك برعي الغنم فيريحها عليها حين تذهب ساعة من العشاء<sup>(٥)</sup>. فما أعظمها من أسرة! وما أروع أدوارها التي قسمت بدقة متناهية؛ لتشارك في مساعدة الرسول عليه السلام لإتمام أمر هجرته!

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤٩/٧).

(٢) ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه ص ١٧٩.

(٣) هو الليث بن أبي سليم بن زُئيم، محدث الكوفة وأحد علمائها الأعيان، يكنى أبا بكر مولى آل عتبة بن أبي سفيان بن حرب بن أمية. ولد بعد الستين وحدث عن مجاهد، وطاووس، وعطاء، ونافع، مولى ابن عمر، وعكرمة، وغيرهم. معدود في صغار التابعين. وكان في حياة بعض الصحابة. توفي في أول خلافة أبي جعفر، وكان أبوه أبو سليم من العباد المجتهدين في المسجد الجامع بالكوفة، وكان ليث رجلاً صالحاً عابداً. مات سنة ثمان وأربعين ومائة هجرية. انظر: الطبقات لابن سعد (٣٤٩/٦)، تهذيب التهذيب لابن حجر (٦١٢/٤)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٧٩/٦).

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٣٦/٣).

(٥) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٩٠٥.

لقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه دعامة الإسلام، وركنه الأساس، جاهد بماله ونفسه وولده وكل ما يملك، صدق في كل أحواله، عن ابن عباس قال: قال رسول ﷺ: (إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بِنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ خَلَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ) <sup>(١)</sup>.

ثالثاً: معية الله تعالى له رضي الله عنه:

قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال ﷺ: (يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِإِثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِيَهُمَا) <sup>(٢)</sup>، والآية تؤكد معية الله ﷻ لرسوله ﷺ وللصديق رضي الله عنه، وهي المعية الخاصة، وهي أعلى أنواع المعية إذ هي لخيرة البشر وسيد الأنبياء والمرسلين، وهي معية اللطف والتوفيق والتأييد والنصر، وشاركه فيها الصديق رضي الله عنه.

رابعاً: نعتة بانه رضي الله عنه صاحب فضل:

وفي موضع آخر من القرآن الكريم وصف رضي الله عنه بأنه صاحب الفضل والسعة، وخاطبه خطاب المحب لحبيبه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] <sup>(٣)</sup>.

لقد فاق أبو بكر الصديق رضي الله عنه بمناقبه جميع الصحابة رضوان الله عليهم، فكان صاحب السبق والمباراة في كل خير فقد:

أسلم على يديه جماعة من كبار الصحابة رضي الله عنهم لمحبتهم له، حيث أسلم على يديه خمسة من العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم. وأعتق سبعة، من الصحابة كلهم يُعَذَّب في الله ﷻ.

وشهد المواقع كلها مع الرسول ﷺ، ولم يتخلف في مشهد منها. ولم يدع باباً من أبواب الخير والطاعات إلا ولججه أقوى ولوج وأحسنه،

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٦٧.

(٢) صحيح مسلم (١٤٧٨/٤) حديث رقم ٢٣٨١.

(٣) انظر: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ٢٠٩.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا؟). قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. قَالَ: (فَمَنْ تَبَعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟). قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. قَالَ: (فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟). قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. قَالَ: (فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟). قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا اجْتَمَعْنَ فِي أَمْرِي إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ) <sup>(١)</sup>.

ومن أعظم مناقبه وأنفعها للأمة الإسلامية: جمع القرآن الكريم، وكتابته في الصحف حفظاً له من الضياع.

وكان مسارعاً في الخيرات لم يسبقه إليها أحد، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رضي الله عنه <sup>(٢)</sup> عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ: أَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَّصِدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبَقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبِقْتُهُ يَوْمًا، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ ﷺ: (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟)، قُلْتُ: مِثْلَهُ، وَاتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: (يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟)، قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا <sup>(٣)</sup>.

أسلم والداه، وأولاده أجمعون، وعُدَّ ذلك من أعظم مناقبه رضي الله عنه. أنه لما دُعي إلى الإسلام لم تكن له وقفة ولا كِبْوة، بل صَدَّقَ وَأَمِنَ بِمَا جَاءَ بِهِ بِلا تَلْعَثُمَ وَلَا تَأْخُرَ.

وكان المدافع الأول عن الرسول ﷺ في بداية الإسلام، وكان يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟! وكما تميَّز رضي الله عنه في الدنيا، فقد تميَّز كذلك في الآخرة، فهو صاحب الرسول ﷺ على الحوض.

(١) صحيح مسلم (٤/١٤٨٠) حديث رقم ١٠٢٨.

(٢) هو الإمام الحجة القدوة أبو عبد الله العدوي العمري المدني الفقيه. حَدَّثَ عَنْ وَالِدِهِ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةَ وَغَيْرِهِمْ رضي الله عنهم. وكان له حلقة للعلم في مسجد رسول الله ﷺ، له تفسير رواه عنه ابنه عبد الرحمن، وكان من علماء العالمين، وله أكثر من مئتي حديث وأرخ ابنه وفاته في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومئة. انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (٣/٢٣١)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/٣١٦).

(٣) سنن الترمذي (٥/٥٧٤) حديث رقم ٣٦٧٥، وقال: حديث حسن صحيح.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنْتَ صَاحِبِي عَلَى الْحَوْضِ وَصَاحِبِي فِي الْغَارِ) (١).

ولقد بشره الرسول ﷺ بأنه يُدعى من أبواب الجنة الثمانية، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، دُعِيَ مِنْ أَبْوَابٍ - يَعْنِي: الْجَنَّةِ - يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ وَبَابِ الرِّيَّانِ)، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا عَلَى هَذَا الَّذِي يُدعى مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، وَقَالَ: هَلْ يُدعى مِنْهَا كُلُّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: (نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ يَا أَبَا بَكْرٍ) (٢)، وهو المُبَشَّرُ بالعتق من النار، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ) (٣).

ولقد أطلق علماء الأمة المسلمة لفظ الصديقة على أم المؤمنين السيدة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قال ابن القيم الجوزية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في زاد المعاد: «وبادر إلى الاستجابة له ﷺ صديقة النساء: خديجة بنت خويلد، وقامت بأعباء الصديقية، وقال لها: (لقد خشيت على نفسي) فقالت له: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، ثم استدلت بما فيه من الصفات الفاضلة والأخلاق والشيم، على أن من كان كذلك لا يخزيه الله أبداً. فعلمت بكمال عقلها وفطرتها أن الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والشيم الشريفة تُناسب أشكالها من كرامة الله، وتأييده وإحسانه ولا تُناسب الخزي والخذلان، وإنما يناسبه أصداده؛ فمن ركب الله على أحسن الصفات وأحسن الأخلاق والأعمال إنما يليق به كرامته وإتمام نعمته عليه، ومن ركب الله على أقبح الصفات وأسوأ الأخلاق والأعمال إنما يليق به ما يناسبها، وبهذا العقل والصديقية استحقت أن يُرسل إليها ربها

(١) سنن الترمذي (٥/٥٧٢) حديث رقم ٣٦٧٠، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) صحيح البخاري ص ٧٥١، حديث رقم ٣٦٦٦.

(٣) المستدرک للحاكم (٣/٦١) وقال: حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

بالسلام منه مع رسوله جبريل ومحمد ﷺ»<sup>(١)</sup>.

كما أطلق لفظ الصديقة على أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، قال شيخ الإسلام رحمه الله في العقيدة الواسطية، عن السيدة عائشة رضي الله عنها: الصديقة بنت الصديق، السيدة عائشة رضي الله عنها<sup>(٢)</sup>.

قال الشيخ محمد العثيمين رحمه الله: «سُميت بذلك لكمال تصديقها لرسول الله ﷺ، ولكمال صدقها في معاملته، وصبرها على ما حصل من الأذى في قصة الإفك، ويدل ذلك على صدقها وصدق إيمانها بالله لما نزلت براءتها، قالت: إني لا أحمد غير الله. وهذا يدل على كمال إيمانها وتصديقها»<sup>(٣)</sup>.

لقد تشابهت الأحداث التي عاشتها المبرأة عائشة رضي الله عنها، والسيدة مريم رضي الله عنها فقد رماهما قومهما بالفاحشة، وتولى الله سبحانه وتعالى تبرئتهما في كتابه الكريم، فقد أنطق الله عيسى عليه السلام معجزة منه، وأنزل في السيدة عائشة رضي الله عنها آيات تتلى إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَبْرٌ لَّكُم لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور: ١١]، وما بعدها من الآيات، فكان ذلك من المواقف العظيمة التي صدق فيها إيمانها بربها.

وأطلق بعض العلماء لفظ الصديقة على آسية امرأة فرعون رضي الله عنها، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (كَمُلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ. وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ)<sup>(٤)</sup>.

والأظهر أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها، وقال القاضي: «هذا الحديث يستدل به من يقول: بنبوة النساء، ونبوة آسية، ومريم، والجمهور على أنهما ليستا نبيتين، بل هما صديقتان ووليّتان من

(١) زاد المعاد في سيرة هدى العباد لابن القيم الجوزية (١٩/٣).

(٢) العقيدة الواسطية لابن تيمية رحمه الله (٢/٢٨٠).

(٣) شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد العثيمين رحمه الله (٢/٢٨٠).

(٤) صحيح البخاري ص ٧٧٢ حديث رقم ٣٧٦٩.

أولياء الله تعالى، ولفظة الكمال تطلق على تمام الشيء، وتناهيه في بابه<sup>(١)</sup>.  
ومن فضائل آسية امرأة فرعون أنها اختارت القتل على الملك والعذاب في  
الدنيا على النعيم الذي كانت فيه، وكانت فراستها في موسى ﷺ صادقة حين  
قالت: «قُرْتُ عَيْنِي لِي»<sup>(٢)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحریم: ١١]  
ضرب الله مثلاً للذين صدقوا الله وحده، امرأة فرعون التي آمنت بالله ووحدته،  
وصدقت رسوله، وهي تحت عدوٍ من أعداء الله كافر، فلم يضرها كفر زوجها  
إذ كانت مؤمنةً بالله، وكان من قضاء الله في خلقه أن لا تزر وازرة وزر  
أخرى، وأن لكل نفس ما كسبت، قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار،  
قال المفسرون: وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها<sup>(٣)</sup>.



- 
- (١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٥٥٣/٦).  
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٩٤/١٥)، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن  
حجر (٥٥٣/٦).  
(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢١٨/١٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/  
١٧٢).





## المبحث الثاني

### اصطفاء الشهداء

- ويشتمل على خمسة مطالب:
- المطلب الأول: دلالة القرآن الكريم على اصطفاء الشهداء.
- المطلب الثاني: تعريف الشهيد في اللغة والاصطلاح.
- المطلب الثالث: تربية الأمة على حب الشهادة.
- المطلب الرابع: خصائص الشهداء.
- المطلب الخامس: أقسام الشهداء.

## دلالة القرآن الكريم على اصطفاء الشهداء

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٦٩﴾ [النساء: ٦٩]

قال تعالى: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فِي حُجَّتِكُمْ قِتْرٌ فَكِدِّمُوا عَلَيْهِمْ قِتْرَهُمْ فَكَيْفَ يُحِبُّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَئِيمٌ غَافِلٌ﴾ [آل عمران: ١٤٠]

دلت الآية الأولى على اصطفاء طبقة الشهداء، فقد عطفهم الله ﷻ على عباده الذين أنعم عليهم بالاصطفاء والاختيار، والذين شملهم فضل الله تعالى الذي آتاهم إياهم إياه، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤]. ورحمته التي اختصهم بها، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، فكانوا خيرة العباد المختارين لخير الأعمال. وفي عطف الشهداء عليهم رفعا لشأنهم، وإثباتا لاصطفائهم وإن اختلف مقدار ذلك الاصطفاء ووقوعه.

كما أن الظلال التي يلقيها قوله ﷻ ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ﴾ عظيمة جداً، فهي تعطي معنى الانتقاء والاصطفاء الواضح من الأخيار، فالله ﷻ يبتليهم لتمييز المؤمنون، ثم يتخذ من هؤلاء المؤمنين من أراد أن يتخذهم ليمنحهم الشهادة. قال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: «وفي لفظ الاتخاذ المُنبئ عن الاصطفاء والتقريب، من تشریفهم وتفخيم شأنهم ما لا يخفى»<sup>(١)</sup>.

وقال صاحب الظلال رَحِمَهُ اللهُ: «وهو تعبير جميل عن معنى عميق، إن الشهداء لمختارون، يختارهم الله ﷻ من بين المجاهدين، ويتخذهم لنفسه سبحانه، فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد.

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٤/٢٣٨).

إنما هو اختيار وانتقاء وتكريم واختصاص. إن هؤلاء الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة، ليستخلصهم لنفسه ويخصهم بقربه»<sup>(١)</sup>.

فالتبقة الثالثة من طبقات المُنعم عليهم من صفوة العباد بعد النبيين والصدّيقين هم الشهداء<sup>(٢)</sup>، اتَّخذهم الله ﷻ لنفسه جُنداً يقيم بهم دينه، ويدفع بهم بأس أعدائه، ويحفظ بهم الإسلام وأهله، يقاتلون لتكون كلمة الله ﷻ هي العليا، ويُقدِّمون أنفسهم وأموالهم رخيصةً لذلك، لا تسجد جباههم لغير الله، ولا يكونون عبيداً إلا له ﷻ.

ولقد اقتضت حكمة الله ومشيئته أن يُداوِلَ الأيام بين الرسل ﷺ وأنصارهم، وأهل الكفر وأعدائهم إلى قيام الساعة، حتى تتميز الصفوف المتقاتلة، فتصمد النفوس الصادقة المؤمنة، وتتساقط الهياكل الجوفاء المناقفة؛ فخالص الذهب إنما يبقى بعد الحرق، وأما الزبد فيذهب جفاءً، قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وعند ذلك تتكوّن الجماعة المؤمنة الصادقة التي تفقه معاني النصر والهزيمة، وتعلم أن المحن غلاف للمنح، والله ﷻ إن أراد أن يعز عبده، ويجبره وينصره، إنما يبتليه، ويقدر انكساره له، وذله بين يديه يكون جبره وعزه، وعندها تتربى الجماعة المجاهدة التي يُعزُّ عليها ضياع الحق الذي تؤمن به، وتأبى العيش بدونه، والعيش إلا تحت ظله، فيقوى في نفسها كل ضعف، ويكمل كل نقص، وترهد في رغباتها وأهوائها وفي هذه الدنيا الفانية، كما أنها تتعوّد ولوج المخاطر، فتصاغ قلوبهم وأرواحهم على حياة ذات معان ومفاهيم غير تلك التي يحيها غيرهم.

الشهداء هم صفوة المجاهدين الخُلص، الذين خرجت الشوائب من قلوبهم، وتطهّرت نفوسهم، وتهيأت للقاء ربهم ﷻ، وهم خواص الله ﷻ،

(١) تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب (١/٤٨١).

(٢) قال معظم المفسرين: هم المقتولون في سبيل الله ﷻ، وقال آخرون: هم العلماء الذين يجاهدون في سبيل الله بالحُجّة والبيان، منهم، وينظر: التفسير الكبير للرازي (٥/٣٠٤)، غرائب القرآن للنيسابوري (٢/٤٤٣)، اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٦/٤٧٩)، نظم الدرر للبقاعي (٢/٢٧٦)، روح المعاني للآلوسي، والذي أخضه هنا في البحث هم المقتولون في سبيل الله لإجماع المفسرين على ذلك.

والمقربون من عباده، والذين يحب أن يصطفيهم منهم، لثراق دماؤهم في محبته ومرضاته، وليهلك بهم عدوه، ويعز بهم دينه، اختارهم لتلك المهمة العظيمة، واصطفاهم لها، وأعانهم على القيام بها ليكرمهم بالشهادة - جعلنا الله منهم - .

أصحاب عقيدة قوية صلبة علمت أن الحكم لله ﷻ وحده، وأنه سبحانه يؤيد بنصره من يشاء، له جند السماوات والأرض، أمره بين الكاف والنون، هو الرامي وهو المثبت وهو المؤيد، ولقد كتب في الأزل أن الغلبة له وحده ولرسله، ولمن سار على دربهم، إنه قوي عزيز، فأمنوا بأن القوة كلها معهم بمعية الله ﷻ لهم، يقولون:

«اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا  
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَأَقَيْنَا  
إِنَّ الْأَوْلَىٰ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا»<sup>(١)</sup>

أهل دور عظيم: قذف الله في قلوبهم الحق، فأحبوه ودافعوا عنه، فكانوا شموساً أشرقت فأبصر الناس بهم الحقيقة، عقدوا أعظم بيعة مع الله وقبضوا الثمن، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْبِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١].

الشهداء هم الذين حملوا راية الجهاد بأسمى أهدافها؛ جعل الحاكمية لله ﷻ، وإعطاء الراية للأمة المصطفاة، وتطبيق شرع الله ﷻ لتنعم الإنسانية بالعدل والأمن والاستقرار. ذاقوا لذة الشهادة، وأحبوا طعمها عندما عاينوا حقيقتها، فهي يسيرة على من أعانه الله ﷻ فأقدموا بعزم قوي، مجتازين لاختبار الدخول في ساحته، والثبات على هوله، فإذا به سهل حلو المذاق، لا يجد فيه صاحبه إلا ألم القرصة، مع لذة لا يطعمها إلا أهل الشهادة؛ لذا فإن أعظم أمنياتهم؛ أن يعودوا ليقاتلوا مراراً، فيقتلوا مراراً في

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٤١٠٦.

سبيل الله ﷺ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ، لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ يَسْرُهَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَا أَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا إِلَّا الشَّهِيدَ، فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ فِي الدُّنْيَا، لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ)<sup>(١)</sup>.

إن هذه الطائفة المجاهدة، والتي تسعى للشهادة في سبيل الله، شاءت إرادة الله ﷻ أن تكون باقية حتى قيام الساعة، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: (لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)<sup>(٢)</sup>، وفي رواية أخرى عنه قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ. لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ)<sup>(٣)</sup>.

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)<sup>(٤)</sup>.

ذكر العلماء معان عدة للمقصود بالطائفة والعصابة في الحديث، فقال البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ... هم أهل العلم، وقال أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم. وقال القاضي عياض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث.

وقال النووي: ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، وفقهاء، ومحدثون، ومنهم زهاد، وأمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير».

ويظهر من أقوال العلماء أنهم قسموا العصابة إلى المجاهدين باللسان واللسان كل في مجاله، وإن كان قول الرسول ﷺ في الحديث: (يقاتل) يدل على طائفة المجاهدين باللسان في سبيل الله ﷻ، وهو والله تعالى أعلم الصواب.

(١) صحيح مسلم (٣/١١٩٠) حديث رقم ١٨٧٧.

(٢) صحيح مسلم (٣/١١٩٠) حديث رقم ١٩٢٢.

(٣) صحيح مسلم (٣/١٢١٠) حديث رقم ١٩٢١.

(٤) صحيح مسلم (٣/١٢١١) حديث رقم ١٩٢٥.

وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة: فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبي ﷺ إلى الآن. ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث بحول الله تعالى وقوته.

ويدل على صحّة ما ذهبنا إليه قوله ﷺ: (ظَاهِرِينَ عَلَيَّ مَنْ نَاوَأَهُمْ) فهو مأخوذ من نأى إليهم، ونأوا إليه؛ أي: ناهضين للقتال، وقصد بأهل الغرب في قوله ﷺ: (لَا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ عَلَيَّ الْحَقُّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ): قال علي بن المديني رحمه الله: المراد بأهل الغرب: العرب، والمراد بالغرب: الدلو الكبير لاختصاصهم بها غالباً، وقال آخرون: «المراد به الغرب من الأرض. وقال معاذ رضي الله عنه: هم أهل الشام. وقيل: المراد بأهل الغرب: أهل الشدة والجلد وغرب كل شيء حدة»<sup>(١)</sup>.

مما سبق يمكن استنتاج الآتي:

- بقاء هذا الدين إلى قيام الساعة، لقوله ﷺ: (لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا).

- بقاء حكم الجهاد وعدم انتهائه أو توقّفه بوفاة الرسول ﷺ، لقوله ﷺ: (يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)، حيث عبّر عن الفعل بصيغة المضارع الدال على البقاء والاستمرار.

- قلة عدد المجاهدين لقوله ﷺ: (عِصَابَةٌ) وهو دليل على القلة؛ قلة المجاهدين في سبيل الله، وأن هذه القلة ستجد المخالفة والخذلان ممن حولها، ولكن ذلك لن يضرها البتة، ولن يؤثر على قيامها بدورها؛ لأنها تستمد العون من مُضْطَفِيهَا ﷺ لقوله ﷺ: (لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ)، فهم مبشرون بالظهور والانتصار.

- بقاء المبدأ الذي قاموا عليه ودافعوا عنه، لقوله ﷺ: (حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ).

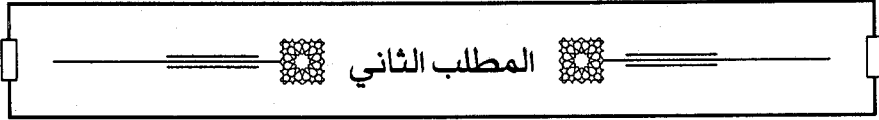
- صمودهم وقهرهم لعدوهم فرغم قلة عددهم فهم غالبون لعدوهم قاهرون له، أي كان نوع ذلك القهر، مادياً أو معنوياً لقوله ﷺ: (قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٦٩/١٣).

فسنة الله ﷻ لن تتبدل ولن تتغير إلى قيام الساعة، قال تعالى : ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بُدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣]، حيث اقتضت مشيئته ﷻ أن يصطفي من عباده الأخيار طائفة تقوم بأمره وعلى دينه ثابتة صابرة لا يضرها من خذلها من عدوها أو من أهلها، واقتضت حكمته ومشيئته أن يبقى دورها الذي يجب أن يقام به في كل زمان حتى يرث الأرض من عليها، فهي أداة التوازن التي تقف في وجه العدوان حتى لا يطغى وتعمل على دفع الظلم وإقرار الحق.

إنَّ على المسلمين في أرجاء العالم أن يسعدوا بهذه المُبَشَّرات، ويجعلوها السلاح النفسي والدعم المعنويِّ، فمهما علا الباطل وانتفش فهو الزبد الذاهبُ جُفَاءً، وأما المجاهدون الأحرار؛ المقاتلون الأبرار فهم الغالبون الصامدون الفائزون في كل الأحوال، وهذا ما دلَّت عليه ألفاظ الحديث الشريف، فقوله ﷻ: (قاهرين) يعطي ظلالاً واسعة لمدى الأثر النفسي الذي تركه تلك العصابة من أولئك المُخلصين؛ فأعداء الحق مقهورون مادياً بما يتكبَّدونه من خسائر في الأموال والأنفس والجهود المبذولة في مختلف المجالات، وهم مقهورون نفسياً لعجزهم التام بل والمستحيل للقضاء عليهم لأنَّ بقاءهم من سنن الواحد القهار، ومقهورون نفسياً كذلك للرعب الذي باتوا يعيشونه رغم ضخامتهم وكثرتهم، مقارنة مع أعداد تلك الطائفة وتفرُّقها، وهم قليلون منكسرون لعدم قدرتهم على تحقيق ما طمحوإ إليه، يتخبَّطون في كل واد، وينعقون بمصطلحات توافق السنن المنطبقة عليهم.





## تعريف الشهيد في اللغة والاصطلاح

### الشهيد في اللغة:

قال ابن فارس كَتَبَ اللَّهُ: الشين والهاء والداد أصل يدل على حضور وعلم وإعلام، لا يخرج شيء من فروعه الذي ذكرناه<sup>(١)</sup>، والجمع: شهداء، والاسم: الشهادة. واستشهد: قتل شهيداً<sup>(٢)</sup>.

### الشهيد في الاصطلاح:

المقتول في سبيل الله والذي جعل له الشرع أحكاماً تخصه في غسله، والصلاة عليه وغير ذلك<sup>(٣)</sup>. وهو الذي استشهد في قتال العدو غير مُدبر، صابراً محتسباً، قاصداً: إعلاء كلمة الله تعالى، وهو الذي يُغفر له كل ذنب إلا الذنن أو حقوق الناس المالية<sup>(٤)</sup>.

واختلف العلماء في سبب تسمية الشهيد بذلك على أقوال منها:

- ١ - سُمي الشهداء بذلك، لقيامهم بشهادة الحق في جنب الله عَلَيْكَ حتى قُتلوا<sup>(٥)</sup>.
- ٢ - أو لأن الله عَلَيْكَ شهد لهم بالجنة<sup>(٦)</sup>.
- ٣ - أو لأن أرواحهم تشهد الجنة عقب القتل<sup>(٧)</sup>.

(١) معجم المقاييس في اللغة لابن فارس ص ٥٣٩.

(٢) لسان العرب لابن منظور (٧/٢٢٥).

(٣) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٤/٢٢٤)، المحرر الوجيز لابن عطية (٢/٧٦).

(٤) أخلاق المسلم وعلاقته بالخالق لوهبة الزحيلي ص ٤٤١.

(٥) جامع البيان لابن جرير الطبري (٤/٢٢٣).

(٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٢/٧٦).

(٧) تفسير القرآن للسمعاني (١/٤٤٦).



- ٤ - أو لأنهم يشهدون على العباد يوم القيامة<sup>(١)</sup>.
- ٥ - وقيل: لسقوطهم بالأرض، وهي الشاهدة<sup>(٢)</sup>.
- ٦ - ولأن الله ﷻ يشهد لهم بحسن النية والإخلاص، والملائكة بحسن الخاتمة، والأنبياء بحسن الاتباع، كما أنه يُشهد لهم بالأمان من النار، ولأن عليهم علامة شاهدة بكونهم شهداء وهي الدم، فإن الشهيد يُبعث يوم القيامة وجرحه يثُعب دماً<sup>(٣)</sup>.



---

(١) النكت والعيون للماوردي (١/٥٠٤).

(٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٢/٧٦)، معجم المقاييس في اللغة لابن فارس ص ٥٣٩.

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/٢٦)، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٥٣).

## تربية الأمة على حب الشهادة

لقد ربَّى الله ﷺ الأمة الإسلامية على حُب الجهاد، والإيمان بضرورته، بأسلوب عظيم شامل حوى جميع الجوانب النفسية، وذلك بمعالجة الضعف الكامن فيها، والإجابة عن تساؤلاتها، وبيان قبح صُور المتخاذلين، وجزاء العاملين، وغير ذلك من أنواع العلاجات النفسية الدقيقة التي أوجدها الخالق العليم، ومن تلك الأمور الآتي:

### ١ - تكليف الرسول ﷺ قدوة الأمة بالجهاد في سبيل الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيدُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيدُ ﴿٦﴾﴾ [التحریم: ٩].

إنَّ تكرار الأمر يدل على أهميته وتأكده، ومجيئه بصيغة التكليف الجازمة للرسول ﷺ، وتكليفه ﷺ به وحده، فيه دلالة على أنه من الضرورات التي لا تقوم الحياة إلا به، ثم أمر بتحريض المؤمنين الخالص لمناصرتة في تحقيق هدف الجهاد الأعظم؛ وهو كف قوى الباطل، ودحضاها.

قال تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِكَ بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء: ٨٤]، فكان عليه الصلاة والسلام القدوة الصالحة المحببة للجهاد ونيل الشهادة في سبيله؛ فقام بترسيخ مفهوم الشهادة في قلوب صحابته ومن بعدهم، وبذر حبها والإقدام عليها بالحال والمقال.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَقْتُلُ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أَحْيَى) <sup>(١)</sup>، ولعل هذه التربية والقدوة الصادقة هي التي ميّزت الصحابة في الحروب عن غيرهم؛ فقد كانوا يُحِبُّونَ الموتَ ويتدافعون عليه، كما كان الكفار يحبون الحياة ويحرصون عليها.

إن الله ﷻ وحده القادر على حرب عدوه والقضاء عليهم بكلمة منه، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَإِذَا فَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿١١٧﴾ [البقرة: ١١٧]، ولكنه أراد أن يبتلي المؤمنين بهذا الفرض، ويحملهم مسؤولية القيام به، ليتخذ منهم الشهداء الذين يعلي بهم دينه.

## ٢ - تصحيح عقيدة الموت والحياة في نفوس المؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَلَكِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾ وَلَكِن مِّمَّنْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ [آل عمران ١٥٧ - ١٥٨].

ففي ذلك تبيّنت لعقيدة المؤمنين، وتصحيح لمفاهيم أساسية في قضايا الموت والحياة، وجلاء للغش المتراكم على النفوس، وترغيب في الجهاد والصبر عليه، وإخراج هيبّة أعدائهم من صدورهم، وإعلام من الله ﷻ أن الإماتة والإحياء بيده، وأنه لن يموت أحد ولا يقتل إلا بعد انتهاء أجله الذي حدده الله ﷻ له. وأنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، وأنه ليس لأحد أن ينقص من عمره أو يزيد، وفي نهاية المطاف سواء كان بالموت أو بالشهادة - وكلاهما جرى بهما القلم في علم الله ﷻ - سيحشر الجميع إلى الله فيجازى كل بعمله وما قدم.

قال صاحب الظلال: «وبذلك تستقر في القلوب حقيقة الموت والحياة، وتطمئن القلوب إلى ما كان من ابتلاء جرى به القدر، وإلى ما وراء القدر من حكمة، وما وراء الابتلاء من جزاء» <sup>(٢)</sup>.

## ٣ - بيان عاقبة الشهادة:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ ﴿٤﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَنفُسِهِمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ [محمد: ٤ - ٦].

(١) صحيح مسلم (١١٨٩/٣) حديث رقم ١٨٧٦.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤٩٩/١).

نزلت هذه الآيات رداً على تَسْأُولات أُثيرت حَوْل قَتلى المسلمين، مصيرهم، وأعمالهم، وغير ذلك فنزلت الآيات رداً شافياً لما يُلقيه الشيطان في النفس، وما يشيعه المنافقون من التشبیط، وما يُذيعه الكفار للشماتة والتغريب، فجلى الله ﷻ حقائق أراحت النفوس؛ فالله ﷻ لن يُضل أعمالهم بذهابها بل يُنمِّيها لهم، ويضاعفها فهي تجري عليهم طوال برزخهم كأنهم أحياء<sup>(١)</sup>.

كما وعدهم الله ﷻ بالهداية. والهداية تكون في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا يُثبَّتهم على طريق الحق، ويوفِّقهم للعمل بما يرضيه عنهم، ويهديهم الله ﷻ إلى الجهاد، ويُقوِّي دافعه في نفوسهم، ويُهَوِّنه عليهم لما يعلم منهم من حب ذلك والرغبة فيه، والثبات على الهداية هو مطلب الأنبياء والرسل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيهديهم إلى أرشد الأمور، ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا<sup>(٢)</sup>.

كما أنه ﷻ: «**سيصلح بالهم**»؛ بإصلاح أحوالهم في الدنيا والآخرة، قال صاحب الظلال رحمته الله: «إصلاح البال نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر، والتعبير يُلقى ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام. ومتى صلح البال استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس، واستمتعت بالأمن والسلام، وماذا بعد هذا من نعمة أو متاع؟»<sup>(٣)</sup>.

ومن عظيم العاقبة التي أعدها الله ﷻ لهم أنه سيُدخلهم الجنة، عرفها لهم، وبينها لهم، وشوقهم إليها، حتى إن الرجل ليأتي منزله فيها كما يأتي منزله في الدنيا، ولعل ذلك لأن الله ﷻ وعدهم الهداية، وهذا منها فهم يهتدون إلى منازلهم في الجنة كما يهتدون إلى منازلهم في الدنيا. وقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهاَ هُمْ﴾ [محمد: ٦] بمعنى: طيِّبها لهم<sup>(٤)</sup> ورفعها

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٠٩/٧).

(٢) بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (١٦١/٤).

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٢٨١/٥).

(٤) بحر العلوم للسمرقندي (٢٨٣/٣).

وعلاها وهذا من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها ومنه أعراف الخيل<sup>(١)</sup>، ولا تعارض بين المعنيين، إذ أنها تدل على رفعة منزلة الشهيد عند ربه ومكانته لديه، حيث أنه يُهَيئ له داره ويجهزها له ويطيها، ويدفعها ترحيباً به، وإكراماً له وفي هذا مزيد فضل واختصاص بهذه الطبقة من الناس - جعلنا الله ﷻ منهم -.

#### ٤ - بيان قبح المُبْطِنين الراضين للشهادة وفساد عقيدتهم:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَأَنَّ فَإِنْ أَصَبَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِدًا﴾ [النساء: ٧٢]، بينت الآية حال المنافق الذي اختل عنده الميزان خللاً واضحاً؛ فهو لا يعتقد حقيقة الشهادة في سبيل الله ﷻ ويشك في ذلك، إنه يفرح ويسعد لعدم دخوله في زمرة الشهداء، جهلاً منه بحقيقة الشهادة، ومكانة الشهيد. وفي تعبيره عن ذلك غرابة ودهشة، إنه يحمد الله ويشكره أنه لم يَنْلَهُ شرف الشهادة. حيث أنه لم يقل إذ لم أكن معهم قتيلاً أو جريحاً، لا بل إنه يؤكِّد رفضه لفضيلة الشهادة فيقول: الحمد لله أنني لم أكن معهم شهيداً، ويعدُّ فوات تلك المنزلة من نعم الله عليه فيقول: قد أنعم الله عليّ، ولم يَدْر ما فاته من الأجر العظيم. وبهذه الصورة المنفرة التي تكشف ضلال تلك الفئة الجبانة الجاهلة، الملتصقة بالطين المتثاقلة إلى الأرض، يعالج الله النفوس المؤمنة وينفرهم من الانضمام إليها.

إنه إيحاءٌ يعطي مدلولاً حول انسلاخ المنافقين من ربة الإيمان، وهم يغتبطون تمام الغبطة أنهم لم يكونوا مع الشهداء، مع أن الشهادة مطلب عظيم يتمناه المؤمن ويُلحُّ في طلبه من أجل أن يكتب له شرف الشهادة، لكن المنافقين أدخلوا إلى الأرض في عيش مهين رخيص يحفه الكذب والخسة والتدسيس والخداع<sup>(٢)</sup>.

لقد كان لتربية الصحابة ﷺ في المدرسة المحمدية بمنهج القرآن الكريم أكبر الأثر في تخريج النخب الأول والأقوى من المسلمين الذين عاينوا الآخرة

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١١١/٥).

(٢) التفسير الشامل للقرآن الكريم للدكتور أمير عبد العزيز (٧٤٣/٢).

في أرض الدنيا، فاشتروا ما عند الله، وآثروه على ما عندهم، لقد أحبوا الشهادة وصدقوا في طلبها وتذوقوا حلاوتها، فبلغهم الله ﷻ إياها، قال تعالى: ﴿يَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرِ فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، غِيبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتُ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنْ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرِيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَدْتُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي أَصْحَابَهُ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ -، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ! الْجَنَّةُ وَرَبِّ النَّضْرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ، قَالَ سَعْدُ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ. قَالَ أَنَسُ: فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمِيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَلَ بِهِ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتَهُ بِنَاتِنِهِ، قَالَ أَنَسُ: كُنَّا نَرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ<sup>(١)</sup>.

لقد استطاعوا بتلك التربية الإيمانية أن يُسيطروا على عواطفهم الطبيعية، وعاداتهم وتقاليدهم، فوجهوها إلى ما يرضي ربهم، فانقادت معهم بكل يسر وسهولة، فهذه أمُّ الرُّبَيْعِ<sup>(٢)</sup> بِنْتُ الْبَرَاءِ، أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَّاقَةَ أُمِّ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ؟ وَكَانَ قَدْ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرِ، أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرَبٌ، فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٢٨٠٥. وانظر: أسباب النزول للواحدي ص ٣٦٦، لباب النقول للسيوطي ص ٢٣٥.

(٢) الرُّبَيْعُ بنت النضر: هي بنت النضر بنت ضمضم بن زيد بن حرام، أنصارية من بني عدي بن النجار، وهي أم حارثة بن سراقَةَ الذي استشهد بين يدي رسول الله ﷺ بيد، وعمه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خادم رسول الله ﷺ وأخت أنس بن النضر. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١٠٨/٦)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣٠١/٦)، فتح الباري لابن حجر (٣٣/٦).

فِي الْبُكَاءِ. قَالَ: (يَا أُمَّ حَارِثَةَ<sup>(١)</sup>، إِنَّهَا جَنَانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنِكَ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى)<sup>(٢)</sup>.

إنه من الصعب حصر النخب الأول من الشهداء الذين سطر التاريخ ذكرهم بالدماء الطاهرة<sup>(٣)</sup> وذلك حين أشرق سيف الحق، ببعثة محمد ﷺ، في زمن انقسمت فيه البشرية إلى ملوك جَبَابِرَة نصبوا أنفسهم على الخلق وساسوهم ووفق مصالحتهم، وعبيد ضعفاء مهانين ولدوا أحراراً، فاستُعبدوا بغير حق، فأرسل الله ﷻ رسوله ﷺ، واختار له أصحاباً وأوكل لهم مهمة إرجاع الأمور إلى نصابها، ورفع الظلم والبغي عن الناس، فاصطدم الحق بالباطل، فكان الجهاد؛ الذي هو بذل الجهد والمشقة والعناء، في سبيل تحقيق إرادة الله ﷻ.

لقد قدّم المسلمون الأوائل أعداداً لا تُعد من شهداء العقيدة. قال قتادة رحمه الله تعالى: مَا نَعْلَمُ حَيًّا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ أَكْثَرَ شَهِيداً أَعْرَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَنْصَارِ. وَقَالَ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ: أَنَّهُ قُتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ سَبْعُونَ،

(١) حارثة بن سراقه بن الحارث بن عدي بن مالك بن عامر بن النجار الأنصاري الخزرجي النجاري. أصيب بيدر، وأمه الربيع بنت النضر، عمه أنس بن مالك ﷺ، أصيب بسهم وهو يشرب من الحوض، فأصاب حنجرته فقتله. وقيل: أنه أول من قُتل من الأنصار بيدر. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٤٢٥/١)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣٩٧/١).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٢٨٠٩. وقوله ﷺ في الحديث: (أصابه سهم) أي: لا يُعرف راميهِ من أين أتى، أو جاء على غير قصد من راميهِ، ويقال: أصابه سهم غرب إذا لم يدرك من رماه، وقيل: إذا قصد غيره فأصابه. ومعنى قوله ﷺ: (إنها جنان في الجنة)، والقصد بذلك التفخيم والتعظيم. ونرى في الحديث عظيم إيمان الرعيل الأول وجهم لله ولجنته، حباً تعالى على الأمومة ومشاعرها فإن كان في الجنة صبرت، فكان إيمانهم القوي سداً منيعاً وحائلاً لكل ما يؤدي إلى سخط الله ﷻ، كما توضح الحادثة دقة الميزان الذي كان الصحابة يقيسون به ما يعترضهم من أمور، فميزان رضى الله وبلوغ جنته كان دائماً هو الراجح. اللهم ألحقنا بهم وبلغنا مراتبهم. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٣٣/٦).

(٣) أورد ابن هشام في سيرته أعدادهم وأسماءهم لمن أراد مزيد تفصيل وبيان، السيرة النبوية لابن هشام (١٢٢/٣).

وَيَوْمَ يَبْرُثُ مَعُونَةَ سَبْعُونَ، وَيَوْمَ الْيَمَامَةِ سَبْعُونَ<sup>(١)</sup>. لذلك قام الإسلام وقامت أوتاده، ورفع الظلم وهلك أعوانه، بتلك النفوس التي قضت حتفها في سبيل الله ﷻ وهي راضية، فقد ثبت أن شهداء بئر معونة، قد نزل فيهم قرآن يتلى حتى نسخ، وهو: «بَلِّغُوا قَوْمَنَا، فَقَدْ لَقِينَا رَبَّنَا، فَرَضِي عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ»<sup>(٢)</sup>.

إن المتعقب للجهاد بصورته الإيمانية المُشرقة الوضاعة، ليرى بناءً صلباً شاركت فيه جموع من المؤمنين، يسعون لإرضاء ربهم، ورفع راية دينهم، فكان منهم حمزة ﷺ عم رسول الله ﷺ سيد الشهداء، عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَمْرَةٌ)<sup>(٣)</sup>. ومنهم المُمُولون للجيوش وعلى رأسهم عثمان بن عفان ﷺ مجهز جيش العسرة، والمُطَبِّبون للجرحى، وعلى رأسهم أمهات المؤمنين، والمنافحون الشعراء وعلى رأسهم حسان بن ثابت ﷺ.

هؤلاء المجاهدون الذين أخلصوا لله ﷻ، وصدقوا معه، كانوا يعلمون أن الله ﷻ معهم وناصرهم؛ لأنهم عاشوا مع القرآن الكريم فكان سلاحهم، ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفٍ﴾ ﴿٦﴾ [الأنفال: ٩]، وفي السنة عن ابن عباس ؓ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: هَذَا جِبْرِيلُ أَخَذَ بِرَأْسِ فَرَسِهِ عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ)، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجزاها الله تعالى في عباده<sup>(٤)</sup>، وأنزل ﷻ الأمطار المثبتة، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغِيثُكُمُ الْغَمَّاسَ أَمْنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٠٧٨.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٠٩٥، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٧/٤٩٥). وقوله ﷺ: (بئر معونة)، بفتح الميم وضم المهملة وسكون الواو بعدها نون: موضع في بلاد هذيل بين مكة وعسفان، وهذه الواقعة تعرف بسرية القراء. وقوله ﷺ: (يوم اليمامة): هو يوم مسيلمة. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٧/٤٨٢، ٤٧٨).

(٣) المستدرك للحاكم (٣/١٩٩) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٧/٣٩٦)، والحديث في صحيح البخاري ص ٨٢١ حديث رقم ٣٩٩٥.



لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ [الأنفال: ١١]، وأرسل بقوته الريح، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ [الأحزاب: ٩]، وغيرها من جنود الله ﷻ التي لا يعلمها إلا هو ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ [الفتح: ٧].

## شهداء الصحابة:

ثبتت الشهادة على لسان النبي ﷺ لعدد غير قليل من الصحابة ﷺ ومنهم؛ عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان ﷺ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: (صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ أُحُدًا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَفَ بِهِمْ، فَضْرَبَهُ بِرِجْلِهِ وَقَالَ: (اثْبُتْ أَحَدًا، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدَانِ) <sup>(١)</sup>)، وفي الرواية عن أبي هريرة ﷺ، أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ عَلَى جَبَلٍ حِرَاءَ، فَتَحَرَّكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اسْكُنْ، حِرَاءَ! فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ) وَعَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ ﷺ.

وقد أخبر الرسول ﷺ في الحديث أن هؤلاء جميعاً شهداء فإن عمر، وعثمان، وعلياً، وطلحة، والزبير ﷺ قتلوا ظلماً فكانوا شهداء، فقتل الثلاثة مشهور، وقتل الزبير بواد السباع بقرب البصرة منصرفاً تاركاً للقتال. وكذلك طلحة ﷺ فقد اعتزل الناس تاركاً للقتال، فأصابه سهم فقتله. وقد ثبت أن من قُتل ظلماً فهو شهيد. والمراد شهداء في أحكام الآخرة، وعظيم ثواب الشهداء، وأما ذكر سعد بن أبي وقاص في الشهداء فقال القاضي: إنما سمي شهيداً؛ لأنه مشهود له بالجنة <sup>(٢)</sup>.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٦٨٦، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٥١/٧).

(٢) صحيح مسلم (٤/١٤٩٨) حديث رقم ٢٤١٧، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/١٨١).

ومنهم من نعاهم المصطفى للناس، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ رضي الله عنهم للناس قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبْرُهُمْ، فَقَالَ: (أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأَصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأَصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأَصِيبَ - وَعَيْنَاهُ تَدْرَفَانِ - حَتَّى أَخَذَهَا سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) (١).

وذكر ابن حجر رضي الله عنه أسماء شهداء أحد فعدَّ منهم (٢):

١ - حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه: أسدُ الله وأسدُ رسوله صلى الله عليه وسلم وعمه رضي الله عنه، ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، قُتل رضي الله عنه يوم أحد على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة، وهو يومئذ ابن تسع وخمسين سنة، كان أسنَّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع سنين، قتله وحشيُّ بن حرب وشقَّ بطنه، وأخذ كبده فجاء بها إلى هند بنت عتبة بن ربيعة، فمضغتها، ثم لفظتها، ثم جاءت فمثلت بحمزة رضي الله عنه. دُفن وعبد الله بن جحش في قبر واحد وكان حمزة رضي الله عنه أول من صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك اليوم من الشهداء، وكبَّر عليه أربعاً، ثم جمع إليه الشهداء فكلما أُتِيَ بشهيد وُضع إلى جنب حمزة رضي الله عنه فصلي عليه وعلى الشهيد، حتى صُلِّي عليه سبعين مرة (٣).

٢ - اليمان رضي الله عنه وهو والد حذيفة رضي الله عنه: اليمان بن جابر، ربيعة بن فروة بن الحارث بن مازن بن قطيعة بن عبس المعروف باليمان العبسي، أبو حذيفة. وقيل اسمه حسيل. خرج مع النبي إلى أحد وقتل فيها (٤).

٣ - أنس بن النضر رضي الله عنه.

أنس بن النضر بن ضمضم الأنصاري الخزرجي عم أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال في المشركين: والله لئن أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر

(١) صحيح البخاري ص ٧٧٠ حديث رقم ٣٧٥٧.

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤٧٧/٧).

(٣) انظر: الطبقات لابن سعد (٨/٣)، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧١/١).

(٤) انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٧٥٢/٤)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣٣٠/١).

إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك ممّا صنع هؤلاء - يعني المشركين -، ثم تقدم فقتل يومئذ<sup>(١)</sup>.

٤ - عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن عليّ بن الخزرج الأنصاري الخزرجي السلمي، أبو جابر، أحد النقباء ليلة العقبة، لما أراد أن يخرج إلى أحد دعا ابنه جابراً فقال: يا بُنَيَّ إني أراني إلا مقتولاً في أول من يُقتل، وإني والله لا أدع بعدي أحداً أعزّ عليّ منك، غير رسول الله ﷺ، وإنّ عليّ دَيْنًا فاقض عني ديني، واستوص بأخواتك خيراً. قال: فأصبحنا فكان أول قتيل جدعوا أنفه وأذنيه. شهد بدرًا وأحداً واستشهد يوم أحد، كفن هو وعمرو بن الجموح في كفن واحد<sup>(٢)</sup>.

٥ - عبد الله بن جُبَيْر ﷺ: هو عبد الله بن جُبَيْر بن النعمان بن أمية بن البرك، وهو امرؤ القيس بن ثعلبة بن عمرو بن عوف شهد العقبة مع السبعين، وبدرًا وأحداً، واستعمله رسول الله ﷺ عليه يومئذ على الرّماة، وهم خمسون رجلاً؛ وأمرهم فوقفوا على عينين، وأمر الرماة بأن لا يخالفوا لرسول الله ﷺ أمراً فعصوا وانطلقوا فلم يبق من الرماة مع عبد الله بن جُبَيْر إلا نُفَيْر ما يبلغون العشرة، ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلّة أهله فكراً بالخيّل ورمى عبد الله بن جُبَيْر ﷺ حتى فنيت نبله، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر، ثم كسر جفن سيفه فقاتلهم حتى قُتل. فلما وقع جرّوده ومثلوا به أقبح المثل<sup>(٣)</sup>.

٦ - مالك بن سنان ﷺ: هو مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن عبيد بن الأبيجر، والأبيجر: هو خُدْرَة بن عوف بن الحارث بن الخزرج

(١) انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (٣١٦/١)، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن

الأثير (١٥٥/١)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٧٤/١).

(٢) انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٢٤٢/٣)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٢٤/١).

(٣) انظر: الطبقات لابن سعد (٤٧٥/٣)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٣١/٢).

الأنصاري الخزرجي، والد أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. قتل يوم أحد شهيداً<sup>(١)</sup>.

٧ - أوُس بن ثابت رضي الله عنه أخو حسان رضي الله عنه: هو أوُس بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة ابن عدي الأنصاري، أخو حسان بن ثابت الشاعر، شهد العقبة وبدراً، قتل يوم أحد<sup>(٢)</sup>.

٨ - حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه المعروف بغسيل الملائكة: هو حنظلة بن أبي عامر صيفي بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن مالك بن الأوس بن حارثة الأنصاري الأوسي المعروف «بغسيل الملائكة»، أسلم فحسن إسلامه، كان من سادات المسلمين وفضلائهم، استشهد بأحد. قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ صَاحِبَكُمْ تَغْسِلُهُ الْمَلَائِكَةُ فَاسْأَلُوا صَاحِبَتَهُ»، فقالت: خرج وهو جنب لما سمع الهائعة، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (لِذَلِكَ تَغْسِلُهُ الْمَلَائِكَةُ)<sup>(٣)</sup>.

٩ - خارِجة بن زيد بن أبي زهير رضي الله عنه صهر أبي بكر الصديق رضي الله عنه: خارِجة بن زيد بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك الأنصاري الخزرجي، كان رضي الله عنه من كبار الصحابة وأعيانهم، وهو الذي نزل عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما قدم المدينة مهاجراً، وكان خارِجة صهراً لأبي بكر رضي الله عنه، كانت ابنته حبيبة تحت أبي بكر، وأخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي بكر رضي الله عنه، شهد بدرًا والعقبة، قتل يوم أحد، ودفن هو وسعد بن الربيع في قبر واحد، وقيل أن خارِجة جرح يوم أحد بضعة عشر جرحاً فمر به صفوان بن أمية بن خلف فعرفه، فأجهز عليه ومثّل به<sup>(٤)</sup>.

١٠ - عمرو بن الجموح رضي الله عنه: هو عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن الخزرج الأنصاري السلمي الغنمي

(١) انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٤/٢٥١).

(٢) انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١/١٦٧)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، وبهامشه الاستيعاب في معرفة الصحابة للقرطبي (١/٧٧).

(٣) انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١/٥٤٣)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١/٣٦٠).

(٤) انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١/٥٦٢)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١/٤٠٠).

شهد العقبة ولم يشهد بدرأ. كان أعرجاً، لذا لما خرجوا يوم أحد منعه بنوه، وقالوا: عذرك الله. فأتى رسول الله ﷺ يشكوهم. فقال رسول الله ﷺ لا عليكم أن لا تمنعوه، لعل الله يرزقه الشهادة. واستشهد يوم أحد فقتل هو وابنه خلاد وكفن هو وعبد الله بن عمرو بن حرام في كفن واحد ودفنا في قبر واحد<sup>(١)</sup>.

إنَّ الإيمان الذي عاش به طائِبُو الشهادة، واليقين الذي ثبت في قلوبهم، تُرجم واقعاً في أفعالهم؛ إنهم يعلمون أن الحروب سجال. والأيام دول، ويعلمون أن الله ﷻ أعلى وأجل، وأن الله ﷻ مولاهم، وأن الكافرين لا مولى لهم، وأن قتلاهم في الجنة وقتلى الكافرين في النار؛ فلا وجه للمساواة. إن إيمانهم بذلك جعلهم يعيشون على الأرض، وقد بنيت منازلهم في الجنة، ويطيرون فيها محلّقين بصحبة الملائكة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (رَأَيْتُ جَعْفَرًا يَطِيرُ فِي الْجَنَّةِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ)<sup>(٢)</sup>، وكانوا يمشون على الأرض وهم شهداء لم تكتمل أعمارهم بعد؛ فعندما مرّ طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على النبي ﷺ قال: (شَهِدْتُ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ)<sup>(٣)</sup>، بل كانوا يتنَسَّمون ريح الجنة وهم أحياء، قال سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إِنِّي لِأَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ)، ويحتمل أن يكون على الحقيقة بأن يكون شمّ رائحة طيبة زائدة عما يعهد، فعرف أنها ريح الجنة، ويحتمل أن يكون أطلق ذلك باعتبار ما عنده من اليقين حتى كأن الغائب عنه صار محسوساً عنده، والمعنى أن الموضوع الذي أقاتل فيه يؤول بصاحبه إلى الجنة<sup>(٤)</sup>.

تلك النماذج غيض من فيض، وقطرة من سيل، امتلأت بها صفحات

(١) انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٧٠٣/٣)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٥٢/١).

(٢) سنن الترمذي (٦١٢/٥) حديث رقم ٣٧٦٣، صحيح الترمذي للألباني (٢٢٣/٣) حديث رقم ٢٩٦٣، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢٢٦/٣) حديث رقم ١٢٢٦ وقال: حديث صحيح.

(٣) سنن ابن ماجه (٨٨/١) حديث رقم ١٢٥، وصحيح ابن ماجه للألباني (٢٧/١) حديث رقم ١٠٢ وقال: حديث صحيح.

(٤) صحيح البخاري ص ٨٣٤ حديث رقم ٤٠٤٨، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤٥٠/٧).

التاريخ الإسلامي النبيرة، لتكون لمن خلفها مثلاً يحتذى به، ونوراً يستضاء به .  
لقد صدقوا في عزمهم فنالوا تلك المكانة العالية، قال ﷺ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ  
صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا  
﴿٢٣﴾ [الأحزاب: ٢٣]، - فجزاهم الله عنا وعن الأمة الإسلامية خير الجزاء - .



## خصائص الشهداء

خص الله ﷺ الشهداء بخصائص عظيمة ومميزات جليلة:

أولاً: أحياء عند ربهم يرزقون

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، وقال ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [١٦٩] فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١]

وفي السنة عَنْ مَسْرُوقٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ (هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ) عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] قَالَ: أَمَّا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ. لَهَا قَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ. تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ. ثُمَّ تَأْوِي إِلَى نَلِكِ الْقَنَادِيلِ. فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أَطْلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَشْتَهُي؟ وَنَحْنُ نَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا. فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يَتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ! نُرِيدُ أَنْ تُرَدَّ أَرْوَاحُنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تَرِكُوا»<sup>(١)</sup>.

(١) صحيح مسلم (٣/١١٩٤)، حديث رقم ١٨٨٧. وفي الحديث بيان أن الجنة مخلوقة موجودة، وهو مذهب أهل السنة وهي التي أهبط منها آدم ﷺ، وهي التي ينعم فيها المؤمنون في الآخرة، وهذا إجماع أهل السنة، وفيه إثبات مجازاة الأموات بالثواب والعقاب قبل القيامة، وفيه أن الأرواح باقية لا تفتنى فينعم المحسن ويعذب المسيء، وقد جاء به القرآن والآثار وهو مذهب أهل السنة. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٣٤/١٣).

إن الشهداء أحياء عند ربهم، في نعيم كامل، فرحين بما آتاهم الله ﷻ من فضله، قال الطبري: «وهذه خصوصية للشهداء؛ أنهم مرزوقون من مآكل الجنة ومطاعمها في برزخهم قبل بعثهم، ومُنعمون بالذي ينعم به داخلوها بعد البعث من سائر البشر من لذيذ مطاعمها الذي لم يطعمها الله ﷻ أحداً غيرهم في برزخه قبل بعثه، فذلك هو الفضيلة التي فضلهم بها وخصهم لها من غيرهم»<sup>(١)</sup>، فجازاهم الله ﷻ بجنس عملهم فقد اختاروا الموت في سبيله ﷻ، فأحياهم، وتركوا الدنيا فعوضهم خيراً منها، وهجروا الأهل والأولاد فكانوا عند ربهم، وخاضوا الأهوال والزلازل فوجدوا الأمان، عند الله ﷻ. ولفظ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في الآية السابقة يُعطي ظلال القرب والطمأنينة والأنس.

إن جلاء هذه الحقيقة الكبيرة ذو قيمة ضخمة في تصوّر الأمور، إنها تعدل، بل تنشئ تصور المسلم للحركة الكونية التي تتنوع معها صور الحياة وأوضاعها، وهي موصولة لا تنقطع، فليس الموت خاتمة المطاف. إنها نظرة جديدة ذات آثار ضخمة في مشاعر المؤمنين، وذات مردود فعّال في استقبالهم للحياة والموت، وتصورهم لما هنا ولما هناك.

إنها تعديل لمفهوم الموت وللمشاعر المصاحبة له في نفوس المجاهدين أنفسهم، وفي النفوس التي يُخلفونها من ورائهم، وإفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها بحيث تتجاوز نطاق هذه العاجلة، كما تتجاوز نطاق هذه العاجلة.

ثمّ تستقر في مجال فسيح عريض لا تعترضه الحواجز التي تقوم في أذهاننا وتصوراتنا عن هذه النقلة من صورة إلى صورة ومن حياة إلى حياة<sup>(٢)</sup>.

وقد أخبر الله ﷻ عن الشهداء أنهم يرزقون، ونحن لا نعلم كيف تكون طبيعة هذا الرزق، ولكننا نؤمن ونصدق كما أخبر ربنا بذلك، وهذا دليل على حياتهم إذ إنه لا يرزق إلا الأحياء. لقد تحلّوا عن رزق الدنيا، واستطالوا الحياة مدة أكل تمرات معدودات، واعتبروها طويلة بعيداً عن ربهم،

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٥٣/٢).

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٥١٧/١).



فجازاهم الله الحياة بدل الموت، والرزق بدل الجوع؛ إنه ودود رحيم كريم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرَ تَرْدُ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ: تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَا كَلِمَهُمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَا أَحْيَاءُ نُرْزَقُ لِنَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلَا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ؟ فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أَبْلَغُهُمْ عَنْكُمْ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ إلى آخر الآية<sup>(١)</sup>.

إنهم فرحين بما آتاهم الله ﷻ من فضله، وهل لأحد أن يُحصي فضله ﷻ؟ أو أن يخصَّ به إلا من أَرَادَ؟ إنها المشيئة والإرادة الإلهية لمن اصطفى من عباده، والله ﷻ يختص برحمته من يشاء، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، لقد تفضل الله الكريم عليهم ابتداءً بالإسلام، وبيعة خير الأنام ﷻ، وبتوفيقهم للجهاد، وضمهم إلى أهله، ثم اضطفائهم من بينهم، ليبلغهم مرتبة الشهادة، ويُقلداهم وسام العزة، ويجعلهم عنده أحياء يرزقون. إنها فرحة الفوز الدائم بلا خسارة، والنصر بلا هزيمة، في حياة بلا نهاية، فهنيئاً لمن خصه الله ﷻ بذلك فسهله عليه، وساقه إليه، ثم جازاه به خير الجزاء.

﴿وَسَتَبَشِّرُونَ﴾ الاستبشار هنا الفرح والسرور، ويكون الفرح بإخوانهم الذين فارقوهم في الدنيا على مناهجهم من جهاد الأعداء، لعلمهم بأنهم إن استشهدوا فلحقوا بهم، صاروا من كرامة الله ﷻ إلى مثل الذي صاروا إليه، فهم لذلك مستبشرون بهم فرحون أنهم أمنوا عقاب الله ﷻ، وأيقنوا برضاه عنهم، وأمنوا خوف الدنيا، وصاروا في دعة وزلفة، يفرحون بما جباهم الله ﷻ من عظيم كرامته عند ورودهم عليه، وبما أسبغ عليهم من الفضل، وجزيل الثواب<sup>(٢)</sup>.

(١) سنن أبي داود (١٥/٣) حديث رقم ٢٥٢٠، ورواه الحاكم في مستدركه (٢/٨٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٣/٢٣٢) وما بعدها.

ثانياً: يبعث الشهيد كهيته حين كُلم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَاداً فِي سَبِيلِي، وَإِيمَاناً بِي، وَتَصَدِيقاً بِرُسُلِي. فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكِنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ رِيحُ مِسْكِ)<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: يرى الشهيد مقعده من الجنة، ويُجار من القبر، ويأمن من الفرع الأكبر، ويحلّى حلّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويُشفّع في أهله<sup>(٢)</sup>:  
وعن المقدّام بن معدٍ يكرب<sup>(٣)</sup> رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ، وَيَحْلَى حُلَّةَ الْإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَاناً مِنْ أَقَارِبِهِ)<sup>(٤)</sup>.

(١) صحيح مسلم (١١٨٨/٣) حديث رقم ١٨٧٦، الكَلْم - بفتح الكاف وإسكان اللام - أي: الجرح، ويكلم بإسكان الكاف أي: يُجرح، وفيه دليل على أن الشهيد لا يزول عنه الدم بغسل ولا غيره. والحكمة في مجيئه يوم القيامة على هيئته: أن يكون معه شاهد فضيلته وبذله نفسه في طاعة الله تعالى. وفيه دليل على جواز اليمين وانعقادها بقوله: «والذي نفسي بيده» ونحو هذه الصيغة من الحلف بما دل على الذات. وقوله في الحديث: (ريح المسك) المسك - بكسر الميم - وهو دم يجتمع في سر الغزال في وقت معلوم من السنة فإذا اجتمع ورم الموضوع ومرض الغزال إلى أن يسقط منه، والمسك طاهر يجوز استعماله في البدن والثوب، ويجوز بيعه. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢٥/١٣)، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٨٢٤/٩).

(٢) جمعت هذه الخصائص في مكان واحد لاجتماعها في الحديث عن الرسول ﷺ.

(٣) هو المقدّام بن معدٍ يكرب بن عمرو بن يزيد أبو كريمة، نزيل حمص، صاحب رسول الله ﷺ، روى عدة أحاديث عن خالد بن الوليد، ومعاذ بن جبل، وأبي أيوب الأنصاري، وجماعة غيرهم. توفي سنة سبع وثمانين، وهو ابن إحدى وتسعين سنة، وقيل قبره بحمص. انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (٥٢٨/٥)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤٢٧/٣).

(٤) سنن ابن ماجه (٣٦٠/٣) باب فضل الشهادة في سبيل الله، تحقيق الألباني (١٢٩/٢) =

وهو من أعظم الأحاديث النبوية المبشرة بعظيم ما أعدّه الله ﷻ للشهيد منذ أن يهب نفسه لبارئها، وتخرج أول دفعة من دمه الطاهر الزكي، الذي يُنبت الحق على أرض الباطل، ويبقى عقبه يفوح بأنه لا تزال ولن تزال هناك جموع من المصطفين المختارين للقيام بهذا الدور، ينتظرون إتمام البيعة والفوز بالجنة، وما بدلوا تبديلاً. قال تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْكُمْ كَفَىٰ سَعْيُهُمْ جَزَاءً وَعَمَلُهُمْ جُزْءًا وَمَنْ يَدْرُكْهُ يَدْرُكْهُ وَمَنْ يَنْزُلْ يَنْزُلْ وَمَنْ يَرْجُكْ يَرْجُكْ وَمَنْ يَأْمُرْ بِالْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ يُؤْتِنَا وَمَنْ يَأْمُرْ بِالطَّاغُوتِ يُؤْتِنَا وَمَنْ يَأْمُرْ بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ يُؤْتِنَا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ عَمَلًا غَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

#### رابعاً: لا يفتنون في قبورهم:

لظهور صدق إيمانهم وذلك بجهادهم في سبيل الله ﷻ، ولأن المرابطين لا يفتنون كما ثبت ذلك في الصحيح عن سلمان. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ. وَإِنْ مَاتَ، جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفِتَانَ)<sup>(١)</sup>. فإذا كان المرابط أمن الفتان، لظهور صدقه، فهذا الذي قُتل في المعركة مثله وأولى منه؛ لأنه بذل وعرض رقبته لعدو الله إعلاءً لكلمة الله، وانتصاراً لدينه، وهذا من أكبر الأدلة على صدق إيمانه<sup>(٢)</sup>.

#### خامساً: لا تبلى أجسادهم بعد استشهادهم:

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا حَضَرَ أَحَدٌ دَعَانِي أَبِي مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: مَا أَرَانِي إِلَّا مَقْتُولاً فِي أَوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِنِّي لَا أَتْرُكُ بَعْدِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ غَيْرَ نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ عَلَيَّ دِيناً فَاقْضِ وَاسْتَوْصِ بِأَخَوَاتِكَ خَيْراً. فَأَصْبَحْنَا فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ، وَدُفِنَ مَعَهُ آخَرَ فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ لَمْ تَطْبُ

= حديث رقم ٢٢٥٧. وقوله ﷺ: (ست خصال) مع المذكورات سبع إلا أن تكون الإجارة والأمن من الفزع واحدة، وقوله ﷺ: (في أول دفعة) من المطر وغيره؟ وأما الدفعة بالفتح فهي الإزالة بقوة، فلا يصلح هاهنا. (وَيُحَلَّى) بتشديد اللام، وإضافة الحلة إلى الإيمان بمعنى: أنها علامة لإيمان صاحبها، أو بمعنى: أنها مسببة عنه. انظر: سنن ابن ماجه بشرح أبي الحسن السندي (٣/٣٦١).

(١) صحيح مسلم (٣/١٢٠٧) حديث رقم ١٩١٣.

(٢) شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد العثيمين كلاًه (٢/١١١).

نَفْسِي أَنْ أَتْرَكَهُ مَعَ الْآخِرِ، فَاسْتَخْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَإِذَا هُوَ كَيَوْمِ وَضَعْتُهُ هُنَيْئَةً غَيْرَ أَذُنِهِ<sup>(١)</sup>.

سادساً: علو دُورهم في الجنة وتميُّزها:

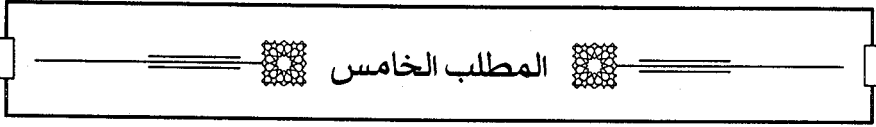
إنَّ دُورَهُمْ مُتَمَيِّزَةٌ فِي الْجَنَّةِ عَنْ دُورِ عَامَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ تَمَيَّزُوا بِدُورِهِمْ، وَبِاخْتِيَارِ اللَّهِ ﷻ لَهُمْ، وَبِمَا قَدَمُوهُ فِي سَبِيلِ رَبِّهِمْ وَعَقِيدَتِهِمْ، وَفِي سَبِيلِ إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَرَفْعِ الظُّلْمِ، عَنْ سَمْرَةَ بْنِ جَنْدَبٍ<sup>(٢)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ رَجُلَيْنِ أَتْيَانِي فَصَعَدَا بِي...، وَأَدْخَلَانِي دَاراً لَمْ أَرِ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَأَدْخَلَانِي دَاراً هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ...، حَتَّى قَالَا: الدَّارُ الْأُولَى هِيَ دَارُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ فَهِيَ دَارُ الشُّهَدَاءِ)<sup>(٣)</sup>.



(١) صحيح البخاري، حديث رقم ١٣٥١. وقوله: (ودفن معه آخر) هو عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام الأنصاري، وكان صديق والد جابر وزوج أخته هند بنت عمرو، وكان جابراً سماه عمه تعظيماً، ومعنى قوله: (هنية) أي: شيئاً يسيراً، وهو تصغير «هنة» أي: شيء، فصغره لكونه أثراً يسيراً والمداد بالأذن بعضها. وفي قصة والد جابر من الفوائد: الإرشاد إلى بر الأولاد بالآباء خصوصاً بعد الوفاة، والاستعانة على ذلك بإخبارهم بمكانتهم من القلب، وفيه قوة إيمان عبد الله المذكور لاستثنائه النبي ﷺ ممن جعل ولده أعز عليه منهم. وفيه كرامته بكون الأرض لم تبل جسده مع لبثه فيها، والظاهر أن ذلك لمكان الشهادة. وفيه فضيلة لجابر لعمله بوصية أبيه بعد موته في قضاء دينه. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٣/٢٧٩).

(٢) سَمْرَةُ بْنُ جَنْدَبِ بْنِ هَلَالِ بْنِ جَرِيحِ بْنِ مَرَّةِ بْنِ حَرْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَابِرِ يَكْنَى أَبَا سَعِيدٍ، قَدِمَتْ بِهِ أُمُّ الْمَدِينَةِ، وَغَزَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرَ غَزْوَةٍ. سَكَنَ الْبَصْرَةَ، وَكَانَ زِيَادٌ يَسْتَخْلِفُهُ عَلَيْهَا إِذَا سَارَ إِلَى الْكُوفَةِ، وَيَسْتَخْلِفُهُ عَلَى الْكُوفَةِ إِذَا سَارَ إِلَى الْبَصْرَةِ، وَكَانَ يَكُونُ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ، وَكَانَ شَدِيداً عَلَى الْخَوَارِجِ. تُوْفِيَ ﷺ سَنَةَ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ، وَقِيلَ: سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ بِالْبَصْرَةِ. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٢/٣٠٤)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٢/٧٨).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ١٣٨٦.



## أقسام الشهداء

ينقسم الشهداء إلى قسمين: شهداء الدنيا، وشهداء الآخرة، وذلك بحسب الأحكام التي تنطبق على حصولهم على هذه المرتبة - أي: الطريقة التي اختارها الله ﷻ بعلمه للشهيد ليرزقه هذا الفضل، ولا شك أنه أعلم بمن يستحقها ومن هو أهل لها وهو أعلم بالطريقة الأنسب لصاحبها - لذلك سأل النبي ﷺ صحابته: (مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، قال: (إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذَا لَقِيتُ). في الحديث دلالة على حرصه ﷺ ورغبته في أن يزداد عدد شهداء هذه الأمة المُضطفة فأراد الرسول ﷺ أن يُبين لصحابته أن هناك شهداء سوى المقتولين في سبيل الله ﷻ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (الشُّهُدَاءُ خَمْسَةٌ: المَطْعُونُ، والمَبْطُونُ، والغَرِقُ، وصَاحِبُ الهَدْمِ، والشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) <sup>(١)</sup>.

١ - المطعون وهو الذي يموت بالطاعون، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ) <sup>(٢)</sup>، وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها أخبرت أنها سألت رسول الله ﷺ عَنْ الطَّاعُونِ فَأَخْبَرَهَا نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ: (كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ. فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمُوتُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ) <sup>(٣)</sup>.

(١) صحيح مسلم (١٢٠٧/٣) حديث رقم ١٩١٤، ١٩١٥.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٥٧٣٢.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٥٧٣٤.

٢ - المبطون وهو الذي يشتكي بطنه ويموت بداء البطن .

٣ - الغرق وهو الذي يموت غريقاً في الماء .

٤ - صاحب الهدم وهو الذي يموت تحته، وفي الرواية عن مالك في الموطأ<sup>(١)</sup> من حديث جابر بن عتيك<sup>(٢)</sup>: الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله فذكر الزيادة وهي:

المرأة تموت بجمع أي: التي تموت في النفاس جامعة ولدها في بطنها، لم تلده وقد تم خلقه .

٥ - صاحب ذات الجنب، وهي قرحة تكون في الجنب باطناً، وهو مرض يقال له الشوصة<sup>(٣)</sup> .

٦ - المقتول دون ماله، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)<sup>(٤)</sup> .

٧ - الذي يسأل الله صلى الله عليه وسلم الشهادة بصدق، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا، أُعْطِيَهَا، وَلَوْ لَمْ تُصِبْهُ)<sup>(٥)</sup> . وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ)<sup>(٦)</sup>، وفي الأحاديث استحباب طلب الشهادة، والمعيار في ذلك هو صدق النيّة، وهذا ما لا يعلمه إلا الله صلى الله عليه وسلم، فإن سأل المسلم ربّه الشهادة، وتحقق شرط الصدق التام في نفسه بلغ منازل الشهداء .

ويتّضح من الأحاديث السابقة أن الشهادة لا تنحصر في القتل في

(١) الموطأ لإمام دار الهجرة مالك بن أنس (٣٦٦/١) حديث رقم ٩٣٥ .

(٢) جابر بن عتيك وقيل: جبر بن عتيك بن قيس بن الحارث بن هَيْشَةَ، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يكنى أبا عبد الله، توفي سنة إحدى وستين، وعمره إحدى وتسعون سنة. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١/٣٠٩)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣١٤/١) .

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٥٣/٦)، صحيح مسلم بشرح النووي (٣٤٣/٢) .

(٤) صحيح مسلم (١١٥/١) حديث رقم ١٤١ .

(٥) صحيح مسلم (١٢٠٤/٣) حديث رقم ١٩٠٨ .

(٦) صحيح مسلم (١٢٠٤/٣) حديث رقم ١٩٠٩ .

سبيل الله ﷻ بل لها أسباب أخر، وتلك الأسباب اختلفت الأحاديث في عددها، فبعضها خمسة وبعضها سبعة. قال العلماء: العدد الوارد ليس على سبيل التحديد. ولقد اعتبرت هذه الموتات شهادة. بتفضل الله تعالى بسبب شدتها وكثرة ألمها، وفي ذلك شدة تفضّل من الله ﷻ على أمة محمد بأن جعلها تمحيصاً لذنوبهم وزيادة في أجورهم، وقد قال العلماء: المراد بشهادة هؤلاء كلهم غير المقتول في سبيل الله حيث أنه يكون لهم في الآخرة ثواب الشهداء أما في الدنيا فيغسلون ويصلى عليهم<sup>(١)</sup>.

وعليه فإن الشهداء يكونون على قسمين:

- ١ - شهداء الدنيا: وهو من قُتل في حرب الكفار مقبلاً غير مدبر، مخلصاً لله ﷻ، وهم الذين تجري عليهم أحكام الشهداء في الدنيا والآخرة.
- ٢ - شهداء الآخرة: وهو من قتل بغير حرب من الأنواع السابقة التي ذكرتها الأحاديث، والمعنى أنهم يعطون من جنس أجر الشهداء ولا تجري عليهم أحكام الدنيا<sup>(٢)</sup>.



---

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٥٣/٦)، صحيح مسلم بشرح النووي (٣٤٣/٢).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٥٥/٦).





## المبحث الثالث

### اصطفاء الصالحين

- ويشتمل على أربعة مطالب:
- المطلب الأول: معنى الصلاح في اللغة والاصطلاح وأقوال المفسرين.
  - المطلب الثاني: إطلاقات الصلاح في القرآن الكريم والسنة.
  - المطلب الثالث: السبيل إلى الدخول في زمرة الصالحين.
  - المطلب الرابع: ثمرات الصلاح.

## توطئة

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ [النساء: ٦٩]

المرتبة الرابعة من مراتب الصفوة؛ المنعم عليهم من عباد الله ﷺ؛ أضافهم إلى نفسه ﷺ في كتابه العزيز، فأضفى عليهم بذلك مزيد تشريف واختصاص ورفعة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٥٥﴾ [الأنبياء: ١٥٥]، وإصلاح الله ﷻ للإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحاً وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده، وتارة بالحكم له بالصلاح<sup>(١)</sup>.

والصَّلاح مرتبة عظيمة، طلبها الأنبياء ﷺ<sup>(٢)</sup>، وطمع فيها أهل الكتاب المؤمنين كما بين الله ﷻ في قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ وَمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٧﴾ [المائدة: ٨٣ - ٨٤].

كما أن الصَّلاح هو الوصف الذي حيا به الأنبياء ﷺ النبي ﷺ في رحلة المعراج - وهذا مما يدل على أهميته وعلو شأنه -، فما مرّ على أحد منهم ﷺ، إلا وقال: مَرَحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ، والأخ الصَّالِحِ، والنَّبِيِّ الصَّالِحِ؛ ولقد اقتصر الأنبياء ﷺ على وصفه بهذه الصفة وتواردوا عليها؛ لأن الصَّلاح صفة تشمل خلال الخير، وكلمة جامعة لمعانيه<sup>(٣)</sup>.

(١) مفردات ألفاظ القرآن ص ٤٩٠، جامع البيان لابن جرير الطبري (١٧٠/٧)، بحر العلوم للسمرقندي (١٢٣/٢)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل لليضاوي (١٠٨/٢).

(٢) انظر: الآيات [الشعراء: ٨٣]، [يوسف: ١٠١]، [النمل: ١٩]، [البقرة: ١٣٠]، [النحل: ١٢٢]، [العنكبوت: ٢٧]، [آل عمران: ٣٩ - ٤٦]، [الأنعام: ٨٥]، [الأنبياء: ٧٢ - ٧٥ - ٨٦]، [القلم: ٥٠].

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٢٦٦/٧). والحديث في صحيح =

اصطفى الله ﷻ الصّالحين من عباده ورَفَعَ درجاتهم؛ والدلالة على ذلك أنّ الله ﷻ حين تاب على يونس عليه السلام، اجْتَبَاهُ إِلَيْهِ وَقَرَّبَهُ مِنْهُ، ورفعته إلى درجة الصّالحين؛ فدلّت الآية على أنّ الصّالحين مُصْطَفَوْنَ؛ لأنّ الاجتباء يعني الاصطفاء والاختيار، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ نَدَارَكُهُ رِعْمَةً مِّنْ رَبِّهِ لَكُنَّ عِجَابًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٨ - ٥٠].

وهم قلة في هذا الزمان، والقلة والندرة إنما توحى بالقيمة والجودة، قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّةٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ تِلْكَ مِنْ الْآوَابِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة: ١٠ - ١٤]، فهم الذين سبقت لهم من الله السعادة، فكانت أعمالهم في الدنيا سبقاً إلى أعمال البر، والمبادرة إلى فعل الخيرات، وترك المعاصي، وكانوا جماعة من أول هذه الأمة<sup>(١)</sup>، قال السمرقندي<sup>(٢)</sup> رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «جماعة من أول هذه الأمة كالصحابة والتابعين»، وهو الأصح وهو ما رجّحه ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ<sup>(٣)</sup>.

كما ذكر القاسمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنهم جماعة كثيرة من الذين سبقوا، لرسوخ إيمانهم، وظهور أثره في أعمالهم، من العمل الصالح، والدعوة إلى الله، والصبر على الجهاد في سبيله، إلى غير ذلك من المناقب التي كانت مَلَكَاتٍ لَهُمْ. (وقليل من الآخرين) أي: الذين جاءوا من بعدهم في الأزمنة التي حدثت فيها الغير، وتبرجت الدنيا لخطابها، ونسي معها سر البعثة، وحكمة الدعوة، فما أقلّ المشايخ على قدم النبي ﷺ وصحابه! لا جرم أنهم وقتلوا الغرباء لقتلهم<sup>(٤)</sup>.

= البخاري ص ٦٨٠ حديث رقم ٣٣٤٢.

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٥/٢٤٠)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/٥١٧).  
(٢) الإمام الفقيه المحدث الزاهد أبو الليث، نصر بن محمد بن أحمد إبراهيم السمرقندي الحنفي، الملقب بإمام الهدى، علامة من أئمة الحنفية، له تصانيف نفيسة منها: تفسير القرآن، وبستان العارفين، وشرح الجامع الصغير. توفي في جمادى الآخرة سنة خمس وسبعين وثلاث مئة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/٣٢٢)، والأعلام للزركلي (٨/٢٨).

(٣) تفسير بحر العلوم للسمرقندي (٣/٣٧٠)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/٥١٧).

(٤) محاسن التأويل للقاسمي (٨/١٥).

وهم الذين جاء فيهم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] <sup>(١)</sup> والصلاح المقصود هنا هو الإيمان الكامل، والاستقامة التامة، والصلاح الشامل؛ الذي لا يُخالطه خلل ولا سوء، ولا نعني بذلك وصولهم إلى درجة الكمال، ولكن وصولهم إلى درجات عليا من الصلاح، والتكميل لأنفسهم، والمُسارعة إلى إرضاء ربهم، والتقرب إليه بالنوافل لا الفرائض حتى نالوا بذلك ولاية ربهم ﷺ، والارتقاء الدائم في سلم المقربين من الله ﷻ.

إنَّ وجود الصالحين بين الناس أمان لهم؛ لأن الله ﷻ جعل ذهابهم من أسرار الساعة، قال ابن بطال: موت الصالحين من أسرار الساعة، وفيه الندب إلى الاقتداء بأهل الخير والتحذير من مخالفتهم خشية أن يصير من خالفهم ممن لا يعبأ الله به. وفيه أنه يجوز انقراض أهل الخير في آخر الزمان حتى لا يبقى إلا أهل الشر والجهل <sup>(٢)</sup>.

وعَنْ مُرْدَاسِ الْأَسْلَمِيِّ <sup>(٣)</sup> قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ فَلِأَوَّلٍ، فَيَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ الشَّعِيرِ أَوْ التَّمْرِ، لَا يُبَالِهِمُ اللَّهُ بِأَلَّةٍ) <sup>(٤)</sup>، ومعنى ذهاب الصالحين أي: موتهم، فتقبض أرواح الصالحين ولا يبقى بذهابهم إلا الرديء من الناس كما أشار الرسول ﷺ بقوله: (حفالة وحثالة)، وهو آخر ما يبقى من الشعير وأرداه، فهؤلاء لا يرفع الله لهم قدراً، ولا يقيم لهم وزناً - ولعل هذا ما نراه اليوم من كثرة الفساد وانتشاره بين المسلمين ممَّا أدى إلى

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨/٢٩٠)، التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٢٧/٢٤٢)، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١١/٥١٩).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١١/٦٤٣٤).

(٣) هو مرداس بن مالك الأسلمي، شهد بيعة الرضوان، عداه في أهل الكوفة، كان ممن بايع تحت الشجرة، وسمع عن رسول الله ﷺ قوله: (يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ أَسْلَافاً، وَيُقْبَضُ الصَّالِحُونَ أَسْلَافاً الْأَوَّلُ فَلِأَوَّلٍ، حَتَّى تَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ التَّمْرِ وَالشَّعِيرِ، لَا يُبَالِي اللَّهُ ﷻ بِهِمْ شَيْئاً) أخرجه الإمام أحمد (٤/١٩٣). انظر: الطبقات لابن سعد (٦/٥٥)، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١/٣٦٦)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١/٤٠١).

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٤٣٤.

طغيان أهل الكفر والباطل عليهم وعدم تقديرهم رغم كثرتهم، وما هذا إلا لأنهم هانوا على ربهم فأهانهم أمام عدوهم، ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

ولقد أكرمهم الله بشيء مما أكرم به أنبياءه، حيث وهبهم الله ﷻ الرؤيا الصالحة الحسنة، والتي هي من المبشرات؛ قال القرطبي: أكرموا بنوع مما أكرم به الأنبياء وهو الاطلاع على الغيب، وسُئل الإمام مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يُلعب؟ ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة، فلا يُلعب بالنبوة، والمعنى: أنها لما أشبهت النبوة من جهة الاطلاع على بعض الغيب، لا ينبغي أن يتكلم فيها بغير علم، قال ابن المهلب: - المراد غالب رؤيا الصالحين لقلة تمكن الشيطان منهم<sup>(١)</sup>، وهذا يدل على علو مرتبتهم، وصفاء قلوبهم، وصلاح أحوالهم، واستقامتهم على الشرع، وفضلهم، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النَّبُوءَةِ)<sup>(٢)</sup>. فالناس على هذا ثلاث درجات: الأنبياء ورؤياهم كلها صدق، والصالحون والأغلب على رؤياهم صدق، ومن عداهم يقع في رؤياهم الصدق والأضغاث، وهم ثلاثة أقسام: مستورون فالغالب استواء الحال في حقهم، وفسقة، والغالب على رؤياهم الأضغاث ويقل فيها الصدق، وكفَّار ويندر في رؤياهم الصدق جداً، ويشير إلى ذلك قوله ﷺ: (وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً)، وقال القاضي أبو بكر بن العربي<sup>(٣)</sup>: رؤيا المؤمن الصالح هي التي تنسب إلى أجزاء النبوة، ومعناه

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١٢/٤٤٨).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٩٨٣.

(٣) هو الإمام العلامة الحافظ القاضي، أبو بكر، محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله، ابن العربي الأندلسي الإشبيلي المالكي، صاحب التصانيف، ولد سنة ثمان وستين وأربعمائة. وتفقه بالإمام أبي حامد الغزالي وجماعة. صنف، وجمع، في فنون العلم برِّعَ، وكان فصيحاً بليغاً خطيباً وفسر القرآن المجيد، فأتى بكل بديع، كما صنف في الحديث، والفقه، والأصول، وعلوم القرآن والأدب، النحو والتاريخ. اشتهر اسمه، وكان رئيساً محتسماً ثاقب الذهن، عذب المنطق، كريم الشماثل، كامل السؤدد، ولي قضاء إشبيلية، فخدمت سياسته، وكان ذا شدة وسطوة، فعُزل، وأقبل على نشر العلم =

صلاحها استقامتها وانتظامها، وقال القرطبي: المسلم الصادق الصالح الذي يناسب حاله حال الأنبياء أكرم بنوع مما أكرم به الأنبياء وهو الاطلاع على الغيب، وأما الكافر والفسق والمخلط فلا، وقوله ﷺ: (جُزْءٌ مِنْ سِتَّةِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النَّبُوءَةِ): يظهر من مجموع الروايات الصحيحة أن العدد المذكور على عشرة أوجه أقلها جزء من ستة وعشرين وأكثرها من ستة وسبعين وبين ذلك أربعين، وأربعة وأربعين، وخمسة وأربعين، وسبعة وأربعين، وتسعة وأربعين، وخمسين وسبعين، أصحها مطلقاً الأول، يليه السبعين، وإنما القدر الذي أراده النبي ﷺ أن يبينه أن الرؤيا جزء من أجزاء النبوة في الجملة؛ لأن فيها اطلاعاً على الغيب من وجه ما وقد استشكل كون الرؤيا جزءاً من النبوة مع أن النبوة انقطعت بموت النبي ﷺ، ف قيل في الجواب إن وقعت الرؤيا من النبي ﷺ فهي جزء من أجزاء النبوة حقيقة، وإن وقعت من غير النبي فهي جزء من أجزاء النبوة على سبيل المجاز. وقال الخطابي: قيل معناه أن الرؤيا تجيء على موافقة النبوة لا أنها جزء باق من النبوة، وقيل: المعنى أنها جزء من علم النبوة وإن انقطعت فعملها باق، وقال ابن بطال: كون الرؤيا جزءاً من أجزاء النبوة مما يستعظم ولو كانت جزءاً من ألف جزء، ويمكن أن يقال: إن لفظ النبوة مأخوذ من الإنباء وهو الإعلام لغة، فعلى هذا فالمعنى أن الرؤيا خبر صادق من الله لا كذب فيه كما أن معنى النبوة نبأ صادق من الله لا يجوز عليه الكذب، فشابهت الرؤيا النبوة في صدق الخبر<sup>(١)</sup>.

كما أن الله ﷻ اختارهم لولاية الرسول ﷺ، وأضاف ولايتهم إلى ولايته ﷻ، فزادهم بذلك علواً ورفعة، قال تعالى: ﴿إِنْ نُنُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۗ﴾ [التحریم: ٤]، وقال ﷺ: (إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ)<sup>(٢)</sup>.

= وتدوينه، مات بفاس في ربيع الآخر ثلاث وأربعين وخمسمائة. انظر: الطبقات للسيوطي ص ٤٩٠، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩٧/٢٠).  
 (١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤٤٩/١٢).  
 (٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٥٩٩٠.

لقد عمّ الصلاح جميع جوانب هذه الطائفة وأحوالها، فصفت نفوسهم من شوائب الشبهات والشهوات، وشمل الصلاح قلوبهم، وألسنتهم، وجوارحهم . صلحت قلوبهم، فصلح بذلك أساسهم؛ إذ إن القلب هو مصدر صلاح الجسد كله، عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ <sup>(١)</sup> رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (الْحَلَالُ بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَّاعَ يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ) <sup>(٢)</sup>. وصلحت ألسنتهم فهي رطبة بذكر الله ﷻ، تتكلم برضاه، تلتزم بأوامره ونواهيه، وتراقبه فيما تلتفظ لأن قلبها الصالح أيقن أنها محاسبة بكل ما تنطق، سأل الصحابي الجليل مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه الرسول ﷺ قائلاً: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ! فَقَالَ: (ثَكَلْتِكَ أُمَّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُتُبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَيَّ وَجُوهِهِمْ أَوْ عَلَيَّ مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ) <sup>(٣)</sup>. كما صلحت جوارحهم فهي عاملة بشرع الله ﷻ، اتخذته لها منهجاً ثابتاً لا تُغَيِّرُهُ العادات ولا الأوقات ولا الأشخاص، يؤمنون بالكتاب كله، ويعملون به جله، حالهم السمع والطاعة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولا بد من التنبيه إلى أن هذه المرتبة تشمل كافة مراتب المُنْعَمِ عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء؛ إذ إنه لا سبيل للترقي إلى تلك المراتب إلا

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة، الأمير العالم، صاحب الرسول ﷺ ويقال: أبو محمد، الأنصاري الخزرجي، ابن أخت عبد الله بن رواحة. شهد أبوه بدرأ، وولد النعمان سنة اثنتين، وسمع من النبي ﷺ، وعُدَّ من الصحابة الصبيان باتفاق. كان من أمراء معاوية؛ فولاه الكوفة مدة، ثم ولي قضاء دمشق بعد فضالة، ثم ولي إمرة حمص، وقتل آخر سنة أربع وستين ﷺ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤١١/٣).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٥٢.

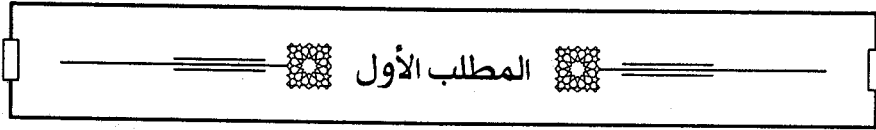
(٣) سنن الترمذي (١٣/٥) حديث رقم ٢٦١٦، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

بعد الدخول في هذه المرتبة، ولعل من أسباب تأخيره عن بقية المراتب أنه المدخل إلى غيره من المراتب، وهو الذي يؤهل صاحبه للترقي إلى بقية المراتب، فهو شامل لكل ما علاه من المراتب إذ لا يكون النبي والصديق والشهيد إلا صالحاً، كما أنه الأكثر شيوعاً، وأهل هذه المرتبة هم الكثرة الغالبة الموجودة، حتى أن الجن يدخلون ضمن هذه المرتبة، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ [الجن: ١١]، ولعلّه أحر لأن الصلاح هو أقل المراتب السابقة من حيث العمل والأجر.

والصلاح - إن صح التعبير - هو تذكرة العبور، أو جواز المرور الذي بدونه لا يدخل الإنسان إلى زمرة الصفوة، فإن صلح عبر، وبمقدار تمام صلاحه يرتقي، فقد يبلغ مرتبة الشهادة، أو الصديقية، أو النبوة إذا فاز باختيار واصطفاه الله ﷻ له؛ فالأنبياء ﷺ كلهم صالحون، نعتهم الله في كتابه بذلك، وكان دعاؤهم أن يرزقهم الله ﷻ الصلاح، وأن يلحقهم بالصالحين، والصدّيقون صالحون، والشهداء صالحون، فلفظ الصالح إذا أطلق فقد يراد به الأنبياء، أو الصّدّيقون، أو الشّهداء، وإن أضيف إلى غيره من بقية المراتب السابقة فإنه يراد به الطبقة الأخيرة من مراتب الصفوة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، فالصلاح هو البداية وهو النهاية كذلك، وهو البذرة والثمرة، وبين البداية والنهاية مراتب عظيمة ودرجات كبيرة يترقى فيها كل حسب همته ومقصده، وبحسب ما يقف يصنف.







## معنى الصلاح في اللغة والاصطلاح وأقوال المفسرين

### الصلاح في اللغة:

الصاد واللام والحاء، أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلاف الفساد، وهو مصدر (صلح)، وصلاح الشيء يصلح ويصلح صلاحاً، ضدَّ الفساد، وهو مختصُّ في أكثر الاستعمال بالأفعال<sup>(١)</sup>.

### الصلاح في الاصطلاح:

الخلوصُ من كل فساد، وسلوك طريق الهدى، والاستقامة على ما يدعو إليه الشرع والعقل. والصلاح: المستقيم الحال في نفسه، والقائم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد وهو الخالص من كل فساد<sup>(٢)</sup>.

الصلاح في أقوال المفسرين: تعددت أقوال المفسرين في تعريف

الصالحين نوردتها كالآتي:

- ١ - الصالح هو الذي يؤدي إلى الله ما عليه ويؤدي إلى الناس حقوقهم<sup>(٣)</sup>.
- ٢ - الصالحون جمع صالح وهو كل من صلحت سيرته وعلايته<sup>(٤)</sup>.
- ٣ - الصالح هو من صلح في اعتقاده وعمله، وهي مرتبة يجب أن لا تنحط عنها مرتبة المؤمن<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ص ٥٧٤، الصحاح للجوهري (١/٥٦٤)، مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص ٤٨٩.

(٢) انظر: مفردات الفاظ القرآن الكريم للأصفهاني ص ٤٩٠، الكليات للكفوي ص ٥٦١، التعريفات للجرجاني ص ١٧٢، محيط المحيط للبستاني ص ٥١٥.

(٣) معاني القرآن وإعراجه للزجاج (١/٤٠٧).

(٤) جامع البيان لابن جرير الطبري (٤/٢٢٤).

(٥) التفسير الكبير للرازي (٥/٣٠٥)، فتح البيان للفتوحاني (٣/١٧٢).

- ٤ - الصالحون هم الذين لزمتهم الاستقامة<sup>(١)</sup> .
- ٥ - جمع صالح وهو من صلحت نفسه وغلبت حسناته سيئاته<sup>(٢)</sup> .
- ٦ - الصالحون جمع صالح وفيه قولان:
- أنه كل من صلح عمله .
  - هو كل من صلحت سريرته وعلايته<sup>(٣)</sup> .
- ٧ - هم الصارفون أعمارهم في طاعته، وأموالهم في مرضاته<sup>(٤)</sup> .
- ٨ - الصالح من كل شيء هو ما استقام نظامه، فحصلت منفعته، وهو من استنار قلبه بالإيمان، والعقائد الحقة، وزكت نفسه بالفضيلة والأخلاق الحميدة، واستقامت أعماله، وطابت أقواله، فكان مصدر خير ونفع لنفسه وللناس؛ استقام نظامه في عقده وخلقه وقوله وعمله فعظمت وزكت منفعته، وهذا هو معنى الصالحين حينما جاء<sup>(٥)</sup> .
- وبالجمع بين أقوال المفسرين يكون تعريف الصالحين كالآتي:
- هم المؤمنون بالله ﷻ، المتمسكون بشرعه، المحققون لمفهوم العبادة الشامل، المتمثلون بأخلاقيات لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ .
- ويمكن القول أنهم الذين لزمتهم الاستقامة وهي سلوك الصراط المستقيم، من غير عوج عنه البتة، عاملين بالأوامر مجتنبين للنواهي في جميع أحوالهم.



(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١١٦/٣) .

(٢) التفسير المنير لوهبة الزحيلي (١٤٥/٥) .

(٣) النكت والعيون للماوردي (٥٠٤/١)، نظم الدرر للبقاعي (٢٧٧/٢) .

(٤) تفسير أبي السعود (١٩٩/١) .

(٥) تفسير ابن باديس ص ٣٤٥ .

## إطلاقات الصلاح في القرآن الكريم والسنة

أطلق لفظ الصلاح في القرآن الكريم وأريد به الآتي:

١ - أمة محمد ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٣٥) [الأنبياء: ١٠٥]. قال مجاهد يرحمه الله: هم أمة محمد ﷺ ودليله: قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَبْوَأً مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤] (١). وقال ابن القيم: هم أمة محمد ﷺ على أصح الأقوال (٢).

٢ - مؤمنو أهل الكتاب الذين أدركوا الرسول ﷺ وآمنوا به؛ قال تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّةً مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، قال ابن عباس ؓ: يريد الذين أدركوا رسول الله وآمنوا به (٣).

٣ - رسول الله ﷺ وصحابته ؓ؛ قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٤]، قال ابن زيد: ﴿الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾: رسول الله ﷺ وصحابته (٤).

كما أن لفظ الصلاح ورد في القرآن الكريم وعُني به عدة معان هي:

٤ - الصلاة؛ قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي (٣٥٨/٥).

(٢) بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (١٩٦/٣).

(٣) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٥٧٤/١)، معالم التنزيل للبغوي (٢٩٥/٣).

(٤) جامع البيان لابن جرير الطبري (١١/٥).

لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ [الأحقاف: ١٥]، قال ابن عطية: صالحاً ترضاه: الصلوات<sup>(١)</sup>.

٥ - الإيمان؛ قال تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الرعد: ٢٣]، يعني من آمن من آبائهم، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٣٢]، يعني: المؤمنين، وعن سليمان عليه السلام في القرآن الكريم قوله: ﴿فَبَسَّسَ صَاحِبُكُم مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩]

٦ - حسن المنزلة؛ قال تعالى: ﴿أَقْبَلُوا يَٰيُوسُفُ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [يوسف: ٩]، يعني: تحسن منزلتكم عند أبيكم.

٧ - الرفق؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْبِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَمُوسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلِيكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصاص: ١٩]، ومثله الأعراف، قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِّمَقْتٌ رَبِّهِمْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٢]؛ يعني: أرفق بهم.

٨ - تسوية الخلق؛ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيماً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفْتَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لَيْنَ آتَيْنَاهَا صَالِحًا لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩]، يعني: سوي الخلق في صورة البشر.

٩ - الإحسان؛ قال تعالى: ﴿قَالَ يَفْقَهُمْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلَأَكُمُ إِلَيَّ مَا أَنهَلَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨]، يعني: الإحسان.

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٩٨/٥).

١٠ - الطاعة؛ قال ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، يعني: مطيعون لله تعالى في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ أي: بعد الطاعة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، يعني: الطاعات.

١١ - أداء الأمانة؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]، يعني: أنه كان ذا أمانة.

١٢ - بر الوالدين؛ قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥] يعني: بارين بأبويكم.

١٣ - التوبة؛ قال تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْحَلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]؛ أي: تائبين أيضاً.

١٤ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، يعني: يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر<sup>(١)</sup>.

### إطلاقات الصلاح في السنة النبوية:

كما أطلق لفظ الصلاح في السنة النبوية على أمور كثيرة منها:

١ - الفأل الذي يعكس الروح المعنوية المرتفعة على صاحبه ومن يسمعه، وهذا ما يتحدث عنه علم النفس الحديث؛ فإن تكرار الجمل الإيجابية وبشكل دائم يعالج الكثير من حالات الإحباط والعجز، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَا عُدْوَى وَلَا طَيْرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأَلُ الصَّالِحُ، الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ)<sup>(٢)</sup>.

(١) الفقرات من ٥ إلى ١٤ انظر: الوجوه والنظائر للدامغاني ص ٤٦٥ وما بعدها.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٥٧٥٦.

٢ - اليوم الذي يقع فيه بقدره الله ﷻ الخير للناس، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ: (مَا هَذَا؟) قَالُوا: يَوْمَ صَالِحٍ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ: (فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ) (١).

٣ - أصحمة ملك الحبشة الذي أجرى الله ﷻ على يديه الخير لغيره، وينفع به من حوله؛ ولقد كان للنجاشي دور عظيم في خضم المحن التي واجهت الدعوة في بداية أمرها، عن جابر رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ مَاتَ النَّجَاشِي: (مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ فَقَوْمُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ) (٢)

٤ - العمل الصالح، وهو الذي يوافق الشرع، والذي يعظم به أجر صاحبه؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى زَمْرَمَ وَهُمْ يَسْقُونَ وَيَعْمَلُونَ فِيهَا فَقَالَ: (اعْمَلُوا فَإِنَّكُمْ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ) (٣).

٥ - المملوك الذي يحسن عبادة ربه، يحسن خدمة سيده، ويؤتمن على ماله، قال أبو هريرة رضي الله عنه؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لِلْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ الصَّالِحِ أَجْرَانِ) (٤).

٦ - الرؤيا المبشرة بالخير (٥) التي تبشّر صاحبها بالخير؛ فهي من

(١) صحيح البخاري رقم ٢٠٠٤، وإن كان هذا من قولهم لكن الرسول ﷺ أقره ولم ينكره.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٨٧٧.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ١٦٣٥.

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم ٢٥٤٨.

(٥) الرؤيا تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الرؤيا الصالحة الحسنة، وهي من نعمة الله على الإنسانية؛ لأنه إذا رأى ما يحب نشط وفرح وصار هذا من البشرى. والقسم الثاني: الرؤيا المكروهة، وهي من الشيطان، حيث يضرب الشيطان للإنسان أمثالا في منامه يزعجه بها، دواؤها أن يستعيز بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأى، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره ولا يحرص على أن تُعَبَّرَ وإذا استعاذ الإنسان من شر الشيطان ومن شر ما رأى، ولم يحدث بها أحداً، فإنها لا تضره مهما كانت.

المبشرات، ففي السنة أنه لم يبق من المبشرات بعد النبوة إلا الرؤيا الصالحة التي يراها المؤمن أو تُرى له؛ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النَّبُوءَةِ) <sup>(١)</sup>.

٧ - الجليس الذي ينتفع به صاحبه، ومن يجالسه، فلا يقول إلا خيراً ولا يعمل إلا خيراً، ولا يشع منه إلا الخير لمن حوله، عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسُّوءِ كَحَامِلِ الْمَسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ. فَحَامِلُ الْمَسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً. وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً خَبِيثَةً) <sup>(٢)(٣)</sup>.

فكل شيء صالح لا يكون صالحاً إلا إذا تحقق الهدف المرجو منه، وانتفع به، وبذلك لا يكون الإنسان صالحاً إلا إذا حقق الهدف الذي خلق من أجله. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ <sup>(٥٦)</sup> [الذاريات: ٥٦].

= والقسم الثالث: وهو الذي ليس له هدف معين وهو من حديث النفس، وحين يكون الإنسان متعلقاً قلبه بشيء من الأشياء، يفكر فيه وينشغل به ثم يراه في المنام، وأحياناً يلعب به الشيطان في منامه، يريه أشياء ليس لها معنى، كما ذكر رجل للنبي ﷺ قال: يا رسول الله، رأيت في المنام أن رأسي قد قطع، وذهب رأسي يركض وأنا أسعى وراءه فقال النبي ﷺ: (لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك في منامك). عن جابر؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ رَأَى فِي النَّوْمِ فَقَدْ رَأَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَتَمَثَّلَ فِي صُورَتِي). قال ﷺ: (إِذَا حَلَمَ أَحَدُكُمْ فَلَا يُخْبِرْ أَحَدًا بِتَلَعُّبِ الشَّيْطَانِ بِهِ فِي الْمَنَامِ). انظر: رياض الصالحين للنووي شرح الشيخ العثيمين (٣٩٥/٧)، والحديث في صحيح مسلم (١٤١٨/٤) حديث رقم ٢٢٦٨.

- (١) صحيح البخاري ص ١٤٦٨ حديث رقم ٦٩٨٩.
- (٢) صحيح البخاري ص ١١٩٥ رقم ٥٥٣٤.
- (٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٣٩٤/١٦)، انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤٠٧/٤)، (٨٢٥/٩). وفي الحديث فضيلة مجالسة الصالحين، وأهل المروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب والنهي عن مجالسة من لا ينتفع بمجالسته في الدين والدنيا. وفيه جواز بيع المسك والحكم بطهارته لأنه ﷺ مدحه ورغب فيه، ومعنى (ويُحْذِيكَ) بضم أوله، أي: يعطيك، وزناً ومعنى.

## درجات الصالحين<sup>(١)</sup>:

درجات الصالحين عظيمة جداً لا نهاية لها ولا يمكن حصرها، يظل السائرون يترقون في منازلها مرتبة بعد أخرى، في قمتها ونحن نتحدث عن هذه الأمة الإسلامية:

١ - صحابة رسول الله ﷺ الذين لم تثبت لهم الشهادة ولا الصديقية رضوان الله عليهم أجمعين، فهم عدول بتعديل الله ﷻ لهم في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُدًّا يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرزِيعٍ أُخْرِجَ شَطْرُهُ فَأَزْرَعُ فَأَسْتَغْلَطُ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْفِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الفتح: ٢٩]، إذا نظرت إليهم وإلى أحوالهم وأعمالهم، عرفت المقصود بالصالحين المصطفين؛ فهم الذين زكاهم الله ﷻ ورسوله ﷺ، وتقبلت الأمة ذلك بالإجماع، وظهر ذلك في أخلاقهم وأفعالهم، وما بذلوه من الأموال والأرواح بين يدي رسول الله ﷺ، رغبة فيما عند الله من الثواب الجزيل، والجزاء الجميل<sup>(٢)</sup>، والذي عليه الجمهور أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ<sup>(٣)</sup> ولقد حازوا تلك الرتبة بفضل الله ﷻ، وقربهم من عهد تنزل الوحي، ولمعية الرسول ﷺ لهم، ولمعاينتهم تنزل الآيات، وتخرجهم من مدرسة النبوة، فكانوا النخب الأول، الذين حازوا الفضل في حسن التطبيق وسرعة الاستجابة ﷺ.

(١) المقصود بالحديث عن درجات الصالحين في هذه الفقرة، الدرجة الأخيرة والتي تلت درجات النبيين والصديقين والشهداء؛ والتي سبق الحديث عنها في الفصول السابقة، ومن الثابت في نصوص القرآن والسنة بأن الصحابة هم أفضل هذه الأمة وأشدها صلاحاً، لذلك حازوا الدرجة العليا من الصلاح على الإطلاق وذلك لمن لم تثبت له الصديقية ولا الشهادة، فلا يوجد من هو أصلح منهم على الإطلاق، ولا يُبلغ منزلتهم البتة وذلك ثابت في الكتاب والسنة بل وحتى في الكتب السماوية السابقة، فهم خير الخلق على الإطلاق بعد النبيين ﷺ.

(٢) انظر: الباعث الحثيث للحافظ ابن كثير تأليف أحمد محمد شاكر ص ١٣٥.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١١/٧).



٢ - أهل القرون الفاضلة بعد قرن الصحابة رضي الله عنهم، وهم التابعون وتابعوهم، وهو المعنى الصحيح للحديث، واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين عاش إلى حدود العشرين ومائتين<sup>(١)</sup>، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، قَالَ عُمَرَانُ: فما أدري قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد قوله مرتين أو ثلاثاً: ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ)، وعن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانُهُمْ، وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتُهُمْ)<sup>(٢)</sup>.

٣ - من بعدهم من المسلمين إلى قيام الساعة، السائرين على دروب الأخيار السابقين، كل حسب منزلته من الفضل منهم العلماء، الفقهاء، والمحدثين، والقراء، والدعاة وغيرهم، لا حصر لأنواعهم تجمعهم الاستقامة على المنهج، وإصلاح العمل، والمسارة للخيرات.



(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٧)، صحيح مسلم بشرح النووي (٣٠٢/١٦).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٤٢٨، ٦٤٢٩.

## السبيل إلى الدخول في زمرة الصالحين

القرآن الكريم هو الدليل لكل خير؛ وضح لأهله السبيل للحاق بركب الصالحين؛ والدخول في زمرتهم وذلك بذكر صفاتهم، وبيان أحوالهم لمن أراد الانضمام إليهم، ويظهر ذلك من خلال استقراء النصوص القرآنية الواردة في هذا المجال ومنها:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٩]، وقال ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠]، كما قال ﷺ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٣٢﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٤].

بيّنت الآيات السابقة ركيزتين أساسيتين للدخول في زمرة الصالحين هما:  
الإيمان - العمل الصالح.

١ - الإيمان: ويقصد به الاعتقاد الجازم بجميع أركان الإيمان الست وتحقيق معناها ومقتضياتها. إنهم يصدقون بالله ﷻ وبالبعث بعد الممات، وبأن الله مجازيهم بأعمالهم، وهذا يستلزم البعد عن المعاصي. والإيمان وخده هو الذي يحمل الإنسان على عبادة الله ﷻ، ويصلح الإنسان صلاحاً بالغاً في كل حركاته وسكناته وخطراته، فهذا الإيمان إن صح قولنا هو المولّد الجبار للحركة الإنسانية الفكرية والقلبية والجسدية؛ فعندما يكمن إيمان صحيح صادق فإنه يتولّد عنه قوة إيمانية ضخمة هائلة، وإيمانه باليوم الآخر يوجه تلك القوة إلى حركة صحيحة فعالة موجهة.

٢ - العمل الصالح: وهو الترجمة العملية للإيمان والمتمثلة في سائر

أنواع العبادات والمعاملات والأخلاق، فما من شيء شرعه الله لعباده إلا وهو راجع عليهم بالصلاح، وما من شيء نهاهم عنه إلا وهو عائد عليهم بالفساد، وإن كان صلاح النفس خفي ولكن يستدل عليه بالأعمال؛ إذ إن الصلاح مرهون بالعمل، قال تعالى: ﴿رَبِّكُمْ أَغْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: ٢٥]، وقد اشتملت الآية على الأمرين اللازمين لإصلاح النفس: العمل الصالح والتوبة المستمرة، ويتحتم في العمل ليكون صالحاً تحقق الشرطين التاليين؛ الإخلاص: وهو موجه العمل إلى هدفه الصحيح، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢]، وأحسن العمل أخلصه وأصوبه. والمتابعة لما جاء به الشرع.

ولقد ذكرت الآيات السابقة جملة من الأعمال الصالحة، والتي جعلَ اللهُ ﷻ القائمين بها من الصالحين:

١ - القيام بأمر الله والعمل به دوماً دون تغيير ولا تبديل. عن ابن عباس قال: مهتدية قائمة على أمر الله ﷻ، لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه، وعن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ يقول: قائمة على كتاب الله ﷻ وفرائضه وحدوده<sup>(١)</sup>.

٢ - قراءة القرآن بتدبر والتمسك به علماً وعملاً من الصفات التي يستحق بها العبد هذه المنزلة والمدح والثناء من الله ﷻ، قراءة كتابه وفهم ما فيه من العبر والمواعظ فينبض قلبه وجللاً ويلهج لسانه حياً، وتتحرك جوارحه شكراً، إنه عبد هدَّبه القرآن ورباه القيام فصلح دينه وصلحت دنياه وآخرته. وفي قوله تعالى: ﴿يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ تعبير قويُّ الدلالة يُبين ضرورة القوة في الالتزام بالكتاب والعمل بما فيه كله، وأُفرد بالذكر لأهميته ولأنه أساس الأعمال الصالحة.

وتظهر أهمية قيام الليل، وأثره في صلاح الإنسان، توجيه الرسول ﷺ - مُرَبِّي البشرية - لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما لقيام الليل، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: كُنْتُ

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٧٢/٣).

غَلَامًا شَابًا عَزَبًا فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَكُنْتُ أَبِيْتُ فِي الْمَسْجِدِ وَكَانَ مَنْ رَأَى  
 مَنَامًا قَصَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ لِي عِنْدَكَ خَيْرٌ فَأَرِنِي مَنَامًا يُعْبِرُهُ  
 لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمِنْتُ فَرَأَيْتُ مَلَكَيْنِ أَتَيَانِي فَأَنْطَلَقَا بِي فَلَقِيَهُمَا مَلَكٌ آخَرُ  
 فَقَالَ لِي: لَنْ تُرَاعَ إِنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَأَنْطَلَقَا بِي إِلَى النَّارِ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَةٌ  
 كَطَيِّ البِئْرِ، وَإِذَا فِيهَا نَاسٌ قَدْ عَرَفْتُ بَعْضَهُمْ، فَأَخَذَا بِي ذَاتَ الِئْمِينِ، فَلَمَّا  
 أَصْبَحْتُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِحَفْصَةَ فَرَعَمَتْ حَفْصَةَ أَنَّهَا قَصَّتْهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:  
 (إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ رَجُلٌ صَالِحٌ لَوْ كَانَ يُكْثِرُ الصَّلَاةَ مِنَ اللَّيْلِ) (١).

٣ - إقامة الصلاة؛ إن الصلاة هي قرة العيون، وراحة القلوب، وصلاح  
 الدنيا والآخرة، وإقامتها جزء من التمسك بالكتاب، أفردت لأهميتها ولأنها  
 أساس صلاح الأعمال، والضابط الوقتي والنفسي لها، فبضبط أوقاتها ينضبط  
 المسلم في كل وقته، وتنضبط بقية أعماله، وبمقابلة ربه يتهايا دائما لتحسين  
 أعماله؛ لإيمانه بوقوفه بين يدي ربه ﷻ، فهو يُجدد في كل مرة الولاء  
 والطاعة، ويطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، والانضمام إلى المنعم عليهم  
 من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إنها صورة القابض  
 على الكتاب بقوة وجد وصرامة، الصورة التي يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما  
 فيه، والتمسك بالكتاب. وإقامة الصلاة. هما طرفا المنهج الرباني لصلاح  
 الحياة. والتمسك بالكتاب في هذه العبارة مقرونا إلى الشعائر يعني مدلولاً

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٧٠٣٠ و٧٠٣١، وقوله ﷺ: (كطي البئر له قرون) معنى  
 قرون البئر جوانبها التي تبنى من حجارة توضع عليها الخشبة التي تعلق فيها البكرة،  
 والعادة أن لكل بئر قرنين. وقوله ﷺ: (فإذا هي مطوية) أي: مبنية، والبئر قبل أن  
 تُبنى تسمى قليبا. وقوله ﷺ: (وإذا لها قرنان) المراد بالقرنين هنا خشبتان أو بناءان  
 تمد عليهما الخشبة العارضة التي تعلق عليها الحديدية التي فيها البكرة، فإن كانا من  
 بناء فهما القرنان، وإن كانا من خشب فهما الزرنوقان - بزاي منقوطة قبل المهملة ثم  
 نون ثم قاف - وقد يطلق على الخشبة أيضا القرنان. ومعنى قوله ﷺ: (لم ترع) أي:  
 لم تخف، والمعنى: لا خوف عليك بعد هذا. انظر: فتح الباري شرح صحيح  
 البخاري لابن حجر (٣/٨ و٩)، (٥١٨/١٢).

معيناً؛ إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح قلوبهم، والإشارة إلى الإصلاح في هذه الآية يشير إلى حقيقة هامة وأساس وهي: أن أداتي الإصلاح هما الاستمساك الجاد بالكتاب فهماً وعملاً، وإقامة الشعائر عبادة لله ﷻ، وما تفسد الحياة إلا بترك طرفي هذا المنهج أو أحدهما<sup>(١)</sup>.

٤ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إن الصالح في نفسه، لا بد وأن يكون مُصلحاً لغيره، وهذا ما يستفاد من ظاهر الآية، فهؤلاء الذين امتدحهم الله أمةً عادلةً مستقيمةً، دائمةً على تلاوة كتاب الله وقيام الليل، مؤمنة بالله وبالיום الآخر وهذه الصفات تحقق لصاحبها الصلاح، ولكن الله ﷻ أضاف إليها صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي صفة يتعدى نفعها من صاحبها إلى غيره، فهو عندما صلح في نفسه طلب منه إصلاح غيره، فهو صالح مصلح. وهي مرتبة أعلى من مرتبة الصلاح؛ إذ جمعت بين فضيلتين عظيمتين الصلاح والإصلاح.

فصلاح الإنسان وفساده يقاسان بصلاح النفس وفسادها، ولقد ألهم الله النفس طريق الصلاح وطريق الفساد، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۗ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۗ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۗ﴾ [الشمس: ٧- ١٠]، والمعنى أنه قد أفلحت الفرقة التي زكاها الله ﷻ، وزكت هي نفسها باكتسابها الزكاء الذي خلقه الله، بتطهيرها وتنميتها بالخيرات<sup>(٢)</sup>.

فالصالح: هو الذي صلح في نفسه، أما المصلح: فهو الصالح في نفسه والمصلح لغيره، وهو وصف زائد على الصلاح لأن الصالح اقتصر نفعه على نفسه، أما المصلح فتعدى نفعه إلى غيره فقام بواجب الإصلاح في نفسه وغيره، وهي مهمة الأنبياء والمرسلين، يقوم بها المصلح مع تشبعه بالرجاء والأمل في إمكانية حدوث الإصلاح والقضاء على الفساد، وامتلاك حساسية عالية نحو بعض ضرورات التغيير، وعلمه أن الهلاك يشمل مع غيره إذا عم الفساد؛ فَعَن زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ النَّوْمِ

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/١٣٨٨).

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥/٤٨٨).

مُحَمَّرًا وَجْهُهُ وَهُوَ يَقُولُ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَلُّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَتَبَحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ). قِيلَ: أَنْهَلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: (نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ)<sup>(١)</sup>. إن المصلح الذي نذر نفسه لإصلاح مجتمعه لا بد أن يمتلك الرؤية الشاملة لحال المجتمع الذي يهتم بشأنه والمنهج للحركة تتجسد في رؤياه الإصلاحية يقوم على الكتاب والسنة. كما لا بد أن يعلم أن الإصلاح نوعان:

- نوع يسير لأنه يعالج قضية محدودة، كالإصلاح بين المتخاصمين أو استئصال الفساد من مدرسة أو مؤسسة فهو كعملية جراحية صغرى.
- نوع معقد، وهو ذلك الطرح الفكري والمنهج الحركي اللذان يستهدفان إصلاح الحياة العامة في المجالات الفكرية، التربوية والتعليمية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية<sup>(٢)</sup>.

قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]

تظهر أهمية الأعمال الثلاثة في اختيار الله ﷻ لها وتخصيصها من بين كثير مما يتناجى به الناس، وفي هذا بيان لعلو مرتبتها ومزيد فضلها، والإصلاح بين الناس في طليعة المحاسن التي يقوم بها المؤمنون العاملون، إذ إن أفضل الأعمال ما كانت مساحة الخير فيه أوسع وأكبر، ومع أن المعروف لفظ يعم أعمال البر كلها فقد جاء تخصيص الصدقة والإصلاح اهتماماً بهما، والإصلاح بين الناس عام في كل ما يقع فيه الخلاف بين الناس، ضماناً لقيام

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٧٠٥٩. وقوله ﷻ: (نعم إذا كثرت الخبث) بفتح المعجمة والموجودة ثم مثناة، فسروه بالزنا وبأولاد الزنا وبالفسوق والفجور، وهو أولى لأنه قابله بالصلاح وفيه البيان بأن الخير يهلك بهلاك الشرير إذا لم يغير عليه خبيثه، والخبثُ الفسوق والشر. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١٣/١٣٥)، الموطأ للإمام مالك بن أنس (٢/١٧٠).

(٢) انظر: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوى، د. عبد الكريم بكار، ص ٢٦٥ وما بعدها. بتصرف يسير.

حياة هادئة صافية سليمة، يتفرغ أهلها لطاعة ربهم، وتجتمع كلمتهم لدحض أعدائهم.

ولقد نبّه الله ﷺ على أهمية إصلاح ذات البين، لضمان قوة الصف المسلم، وإبعاد عوامل الضعف التي تعتريه، بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١]، ويظهر عظيم الإصلاح بتوسيطه بين التقوى والطاعة وتعليق ذلك كله على الإيمان. فمن كان مؤمناً فليكن صالحاً، وليصلح ما بينه وبين إخوانه، وليقم بواجب الإصلاح على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الجماعات، سداً لكافة الثغرات التي يتسلل منها الأعداء من الإنس والجن، وتقوية للتلاحم والترابط المطلوبين لقيام الصف المسلم بدوره المطلوب في الحياة.

واختيار الله الإصلاح لليتامى دون غيره بيان لأهميته، وشموله جميع الجوانب، فلا يفكر وليه في جانب إلا وقد طلب فيه الإصلاح، قال تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فهي كلمة عامة شاملة جامعة جاءت جواباً كافياً شافياً لمن سأل من اليتامى، فالإصلاح لهم خير؛ إصلاح أموالهم بعدم تضييعها والقيام بتنميتها وحفظها، وإصلاح نفوسهم بتربيتها وتقويمها.

كما أنّ جعل الإصلاح ركناً أساساً من أركان التوبة، لينم عن أهمية دور الإصلاح في كافة مناحي الحياة، فالتائب يحبه الله ويفرح بأوبته لكنها مشروطة بالإصلاح، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٤٦].

إن الإصلاح عملية شاملة واسعة لا يمكن حصرها، كما لا يمكن تهميش أدوار المصلحين لأن ذلك يتنافى مع شمولية الإسلام، والدليل على ذلك من هم في قمة هرم الإصلاح وهم أنبياء الله ورسوله، وفي مقدمتهم إمام المصلحين نبينا محمد ﷺ، فقد شمل إصلاحهم كل جانب، بدءاً بالتوحيد ومحاربة الشرك والوثنية، ومروراً بالعبادات والأسس والقواعد الشرعية،

وقواعد الحكم أسس بناء الدولة، وانتهاءً بكل جوانب الأدب والأخلاق  
والمعاملات.

٥ - المُسَارعة في الخيرات: الخير هو كل ما دعا إليه الشرع من  
الواجبات والمستحبات، والمُسَارعة صفة جامعة للرجبة في عمل الخير  
والصلاح، وفي قوله تعالى: ﴿ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ دليل على أنهم مُلَازمون لها،  
متعايشون فيها، فالله ﷻ لم يقل يسارعون إليها بل فيها، فهم ليسوا خارجين  
عنها، وفي ذلك بيان لعظيم حالهم؛ فهم أهل الخير، ويدعون إلى الخير،  
ويسارعون فيه غير متناقلين، قال ﷺ: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ  
يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْتَاهِ الْبَلِّ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ  
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ  
﴿١١٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٤]، قال أبو حيان الأندلسي: «المسارعة في  
الخيرات صفة تشمل أفعالهم المختصة بهم، والأفعال المتعدية منهم إلى  
غيرهم، وهذه الصفات الثلاث ناشئة أيضاً عن الإيمان فانظر إلى حسن سياق  
هذه الصفات، حيث توسَّط الإيمان وتقدَّمت عليه الصفة المختصة بالإنسان في  
ذاته وهي الصلاة في الليل وتأخرت عنه الصفتان المتعديتان والصفة المشتركة  
وكلها نتائج عن الإيمان»<sup>(١)</sup>.

لقد وردت جميع الأفعال في الآية بصيغة المضارع، الذي يفيد الدوام  
والاستمرار، فهم دائمون على هذه الحال، مستمرّون في تحقيقها، فالصلاح  
باق ببقاء صاحبه، وبعد مماته ببقاء أجر عمله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ  
صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)<sup>(٢)</sup>، فالعمل الصالح  
باق، وأجره سارٍ بوجود الإنسان الصالح، وبعد مماته.



(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/٣٩).

(٢) صحيح مسلم (٣/١٠١٦) حديث رقم ١٦٣١.



## ثمرات الصلاح

١ - الحياة الطيبة؛ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

الحياة الطيبة الهادئة، المليئة بالرضا، والمُشَبَّعة بالسعادة، والمُحَاظَة بالأمان، هي مطلب كافة الناس مؤمنهم وكافرهم، بل هي منتهى غاياتهم، ولقد عجزت البشرية عن الوصول إلى حقيقتها؛ لأنهم لم يوفقوا بين متطلبات الروح والجسد، ولقد تكفل الله ﷻ بذلك بصيغة التأكيد في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ﴾ لمن قام بشرطها، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت همًا واحدًا في مرضاة الله ﷻ! ولم يتشعب قلبه بل أقبل على الله ﷻ، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت منقسمة بكل واد، فصار ذكره لمحبيه الأعلى، وحبه والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي على فؤاده، وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره بكل خطرات قلبه<sup>(١)</sup>.

إنَّ العيش مع الله ﷻ والعمل له، والتوجُّه إليه، والطلب منه، والقوة به، والاستناد عليه، ليَجعل للمؤمن حياة سعيدة صحيحة سليمة طيبة، وأكثر ما أوقع الناس في المشاكل النفسية والعصبية، هو التشتت والضياع في كل واد، فمن جمع همَّه وفكره ومشاعره وحركاته كلها على مَسَار واحد وغاية واحدة، عاش هادئًا مطمئنًا ثابتًا ساكنًا، يَنْسَابُ بسلاسة مع إرادة ربه، ويسير متوازنًا مع متطلبات جسده وروحه، ويعيش آمنًا مطمئنًا بقضاء خالقه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

(١) انظر: بدائع التفسير لابن القيم الجوزية (٥٠/٣).

وكان السلف الصالح يقول: لو علم ملوك الأرض ما بنا من سعادة لجالدونا عليها بالسيوف. إنها لذة الأمن التي ينشدها العالم بأسره اليوم، يجدها الصالح في ذرات قلبه وخلجات نفسه مهما اضطرب الكون بأسره؛ لأن قوته وسر سعادته كامن في داخل قلبه، وقلبه بيد خالقه سبحانه يحقق فيه وعده بالحياة الطيبة والأمن، ولا يزال يمدّه بالطفاه ونفحاته ورحماته ما زال العبد يتلمسها ويطلبها.

وقيل في الحياة الطيبة المذكورة في الآية أنها:

- السعادة، والرزق الحلال، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.
- القناعة؛ وهو طيب عيش الدنيا، قاله الحسن بن علي رضي الله عنهما.
- حياة الآخرة، ونعيم الجنة، قاله الحسن البصري رضي الله عنه.

قال ابن عطية رحمته الله: «وظاهر الوعد أنه في الدنيا، وطيب الحياة للصالحين إنما هو بنشاط نفوسهم، وقوة رجائهم، والرجاء للنفس أمر ملذ، فهذا تطيب حياتهم، وأنهم احتقروا الدنيا فزالتمومها عنهم، فإن انضاف إلى هذا مال حلال وصحة وقناعة فذلك كمال»<sup>(١)</sup>.

٢ - القرب من الله سبحان؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ لِّمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧]

نفى الله سبحان أن يكون الطريق إليه والقرب منه، ما يتفاخر به الناس من الأولاد، والأموال، وغير ذلك من الأمور التي يتنافس الناس في تحصيلها وزيادتها، وبيّن أن الإيمان به والعمل الصالح، هما دفئا الباب الذي يلج منه طالبو القرب من الله سبحان.

٣ - تَبَلُّغُ ولاية الله سبحان؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وهو يتولى الصالحين لأن الصالح يخالف كثيراً من عادات و رغبات المجتمع الذي يعيش فيه، ويتطلب منه ذلك الثبات على ما يؤمن به ويعمله، فهو يحتاج إلى ركن شديد يركن إليه، وقد

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٤١٩/٣).

ضمن الله لتلك الطائفة الصالحة، القائمة بحقوقه وحقوق عباده، أن يتولاهم والآية عامة في الصالحين في مختلف الأزمان، فهي سنة لا تتبدل، ووعد لا يُخلف من الله ﷻ ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، ومجيء المسند فعل مضارع لقصد الدلالة على استمرار التولي وتجدده وأنه سنة إلهية، فكما تولى الله ﷻ النبي ﷺ، فهو يتولى المؤمنين أيضاً، وهو بشارة للمسلمين المستقيمين على صراط نبيهم بأن ينصرهم كما نصر نبيه وأوليائه. فالصالحون لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى، ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر، تولاهم الله ولفظ بهم وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة في دينهم ودنياهم، ودفع عنهم بإيمانهم كل مكروه. وفيه نداء وتوجيه لصاحب الدعوة أن يتجرد من أسناد الأرض وأن يستهين بهم، ويعلم أن ما يعانيه الصالحون والمصلحون إنما هو ابتلاء للتربية والتمحيص<sup>(١)</sup>.

٤ - وراثة الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٥) [الأنبياء: ١٠٥].

ميراث الأرض يكون بوعد من الله للعباد الصالحين العاملين بطاعة الله المتبعين منهجه، الذين ينفعون العباد والبلاد، فهم الصالحون من أمة محمد ﷺ، قال مجاهد: أمة محمد ﷺ ودليله قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَنْبَأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ (٧٤) [الزمر: ٧٤]<sup>(٢)</sup>. وعلق الله هذا الوعد على صفة الصلاح لبيان أنه مرهون ببقاء تلك الصفة الإلهية، فمتى زالت عن أمة من الأمم صفة الصلاح، انتفى الوعد وزال ما بيدهم من ميراث للأرض، وتبقى الأيام دول والحروب سجال، بين الصالحين والمفسدين، يورث الله ﷻ الأرض للصالحين نعمةً منه وفضلاً، ويورثها غيرهم فتنة ونقمة.

ولقد اختلف المفسرون في الأرض الموروثة فقالوا: إنها الأرض المقدسة، أو أنها أرض مكة المكرمة، أو كل الأرض، أو أنها أرض الجنة؛

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢٤/٨)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٣/١٣٢)، في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/١٤١٦).

(٢) انظر: معالم التنزيل للبغوي (٥/٣٥٨).

والأولى أخذ الآية على ظاهرها، فميراث الأرض أي جنس الأرض كلها التي نعيش عليها، فلقد أورها الله للصالحين من أهل القرون الأولى (محمد ﷺ وأصحابه)، فحكموها بالشريعة حتى آمن الناس وساد العدل واستقرت الأمور. والميراث دائر بين المصلحين والمفسدين. أما أرض الجنة فهي بفضل الله ﷻ ومنته ميراث المؤمنين دون غيرهم.

٥ - حفظ النفس والذرية والأموال؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَلْحَدَارُ فَكَانَ لِقَالِمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الكهف: ٨٢].

ذكرت الآية الكريمة سبب حفظ كنز اليتيمين في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ ولقد فُسرّ الصلاح هنا بالأمانة، التي هي عمل من الأعمال الصالحة، ولقد حفظ كنز اليتيمين بصلاح أبيهما، وإن كانت الآية لم تذكر لهما صلاحاً. قال محمد بن المنكدر: «إن الله ﷻ يحفظ بصلاح العبد ولده، وعشيرته ومن حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم»، وقال سعيد بن المسيب ﷺ: «إني أصلي فأذكر ولدي فأزيد صلاتي»<sup>(١)</sup>. وفي قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ بيان أن المتولي بالحفظ هو الله ﷻ بإرادته النافذة وقوته ﷻ، وفيه مزيد رفعة لمنزلة الصلاح. عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ، كان يقول إذا أوى إلى فراشه: (بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكَتْ نَفْسِي فَأَرْحَمَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَأَحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ)<sup>(٢)</sup>.

٦ - الأمان من الهلاك؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧]

هذه السورة التي ملئت بالصور المروعة لإهلاك الأمم المفسدة، حوت بين آياتها آية أمان، وحفظ وسكينة، فيها وعد من الله أن لا يهلك قرية وأهلها مصلحون، هذا هو السبيل الوحيد للنجاة من هلاك الدنيا وعذاب الآخرة،

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي (١٩٦/٥).

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٣٢٠.

وهو السبيل للأمان في الدنيا والفوز في الآخرة، قال الطبري رحمته الله: «مصلحون في أعمالهم، غير مسيئين، مطيعون لربهم، وهم كذلك مصلحون فيما بينهم لا يتظالمون»<sup>(١)</sup>. قال أبو الليث السمرقندي: «موحدون مطيعون لربهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»<sup>(٢)</sup>.

٧ - تفريج الكرب؛ العمل الصالح المُبتَغَى به وجه الله، كنز يدخره صاحبه لوقت فاقتة، وعون له وقت ضعفه وحاجته، وهو نورٌ له عند ظلمته؛ ففي الحديث أَنَّ عبد الله بنَ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (أَنْطَلَقَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوْوَا الْمَيْمِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَأَنحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ.....)<sup>(٣)</sup>.

٨ - دوام أجر العمل؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)<sup>(٤)</sup>، فكما ينفع صلاح الآباء ذريتهم بعد وفاتهم فالولد الصالح من الأعمال الزكية الباقية، التي يجري أجرها على المؤمن في قبره ولا ينقطع بوفاته.

٩ - إصابة دعاء المسلمين في كل صلاة؛ عَنْ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ<sup>(٥)</sup> يَرْحَمُهُ اللَّهُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٨٣/٧).

(٢) بحر العلوم للسمرقندي (١٧٥/٢).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم ٢٢٧٢.

(٤) صحيح مسلم (١٠١٦/٣)، حديث رقم ١٦٣١.

(٥) هو شقيق بن سلمة الأسدي بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن حزيمة، الإمام الكبير شيخ الكوفة، أبو وائل أسد خزيمة الكوفي، مخضرم أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وما رآه، وهاجر بعده وروى عن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة، وخلق سواهم كثير، كان رأساً في العلم والعمل، وقال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث. انظر: الطبقات لابن سعد (٩٦/٦)، صفة الصفوة لابن الجوزي (٣/١٧)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١٦٧/٢)، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦١/٤).

جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ السَّلَامَ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَالْتَمَّتْ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ، فَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ. فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمُوهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ لِلَّهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) <sup>(١)</sup>، قال الترمذي الحكيم: «من أراد أن يحظى بهذا السلام الذي يسلمه الخلق في الصلاة، فليكن عبداً صالحاً، وإلا حرم هذا الفضل العظيم، وقال الفاكهاني: وينبغي للمصلي أن يستحضر في هذا المحل جميع الأنبياء، والملائكة، والمؤمنين؛ ليتوافق لفظه مع قصده» <sup>(٢)</sup>.

١٠ - معية صفوة الناس، وخيارهم في دار النعيم؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٦٩﴾ [النساء: ٦٩]، فهم معهم، وحسنت صحبتهم، فهم الصفوة، وهم الخيرة، اجتمعوا وتلاقوا، عند أعظم ملك ﷺ، في أعظم مكان وهي دار كرامته.

١١ - الأمن عند قبض الروح وفي القبر؛ قال الحسن: في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٢٧﴾ [الفجر: ٢٧]، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ ﷻ قَبْضَهَا أَطْمَأْنَنْتُ إِلَى اللَّهِ وَاطْمَأَنَّ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَرَضِيَتْ عَنِ اللَّهِ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِقَبْضِ رُوحِهَا، وَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، وَجَعَلَهُ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ <sup>(٣)</sup>.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ فَإِنْ تَكَ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تَقَدَّمُونَهَا إِلَيْهِ، وَإِنْ تَكَ سِوَى ذَلِكَ، فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ) <sup>(٤)</sup>.

١٢ - الفوز بالجزاء الحسن والنعيم يوم القيامة؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (قَالَ اللَّهُ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ؛ مَا لَا عَيْنٌ

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٨٣١.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٢/٣٩٦).

(٣) صحيح البخاري تفسير سورة الفجر.

(٤) صحيح البخاري، حديث رقم ١٣١٥.

رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ<sup>(١)</sup>. وفي قوله تعالى: (أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي) مزيد تشريف ورفعة ومنزلة للصالحين من النواحي الآتية:

١ - إضافة الله ﷻ للصالحين إلى نفسه، ووصفهم بالعبودية التي هي أعلى المقامات.

٢ - أن الله ﷻ هو الذي تولى الإعداد لهم، ولم يأمر ملائكته بذلك، فدل على عظيم مكانتهم عند ربهم.

٣ - أن الله ﷻ قد أعد لهم العظيم من الأجر، وهو ما لا تدركه العقول في هذه الدنيا.

### ❖ تعقيب ❖

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

أثنى الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾، وفي الآية معنى التعجب؛ أي: وما أحسن رفقة أولئك العالی الدرجة، الرفيعة المرتبة! والرفق لين الجانب، ولطافة الفعل، فيا لها من رفقة، ويا لحسنها وحسن اجتماعها، وجمال معيبتها! رفقاء في جنان ربهم، يُتمتع برؤيتهم، وزيارتهم والحضور معهم، كحبات عقد موزون تراصت في نظام عجيب! هم المقربون إلى ربهم ﷻ، وهم السابقون إلى مرضاته<sup>(٢)</sup>، والخالدون في أعالي جناته.

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۗ﴾ [١١] ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ۗ﴾ [١٢] ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَٰئِينَ ۗ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۗ﴾ [١٣] ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۗ﴾ [١٤] ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا ۗ﴾ [١٥] ﴿مُنْقَلِبِينَ ۗ﴾ [١٦] ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۗ﴾ [١٧] ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ۗ﴾ [١٨] ﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ۗ﴾ [١٩] ﴿وَلِكُلِّهِمْ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۗ﴾ [٢٠] ﴿وَلَيْتَ ظَلِمَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۗ﴾ [٢١] ﴿وَحُورٌ ۗ﴾ [٢٢]

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٢٤٤.

(٢) ذكر بعض العلماء أن الصفوة المذكورة في سورة النساء وهم: النبيون، والصدقيون، والشهداء، والصالحون، بأنهم هم السابقون المذكورون في سورة الواقعة. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١١/٥١٩)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨/٢٩٠)، التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٢٧/٢٤٢).

عَيْنٌ ﴿٢٣﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِ الْمَكُونِ ﴿٢٤﴾ جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا ﴿٢٧﴾ [الواقعة: ١٠ - ٢٦].

هم الذين كملوا الإيمان الواجب؛ وتقربوا إلى الله ﷻ بالنوافل فضلاً عن الفرائض، ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباته، أحبهم الله ﷻ حباً تاماً، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ. وَمَا زَالَ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبْتُهُ؛ فَكُنْتُ سَمِعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا. وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ) (١)، يعني

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٥٠٢. وقوله ﷺ: (من عادى لي ولياً) المراد بولي الله: العالم بالله، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته. والمعادة من جانب الولي فله تعالي وفي الله، ويستفاد من هذا الحديث تقديم الإعذار على الإنذار وهو واضح. قوله ﷺ: (فقد آذنته) والإيذان: الإعلام. وقوله ﷺ: (بالحرب) الحرب تنشأ عن العداوة وتنشأ عن المخالفة. وغاية الحرب الهلاك، والله لا يغلبه غالب، فكان المعنى: فقد تعرض لإهلاكي إياه. فأطلق الحرب وأراد لازمه أي: أعمل به ما يعملهُ العدو المحارب، وفي هذا تهديد شديد؛ لأن من حارب الله ومن خالف الله عانده ومن عانده أهلكه، وإذا ثبت هذا في جانب المعادة، فقد ثبت في جانب الموالية، أن من والى أولياء الله أكرمه الله. وقوله ﷻ: (وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه) يدخل تحت هذا اللفظ جميع فرائض العين والكفاية، وظاهره الاختصاص بما ابتدأ الله فرضيته، ويستفاد منه أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله، فالفرض كالأصل والأس، والنفل كالفرع والبناء، وفي الإتيان بالفرض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترام الأمر وتعظيمه بالانقياد إليه وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية، فكان التقرب بذلك أعظم العمل. والذي يؤدي الفرض قد يفعله خوفاً من العقوبة، ومؤدي النفل لا يفعله إلا إيثاراً للخدمة فيجازى بالمحبة التي هي غاية مطلوب من يتقرب بخدمته. قوله: (يتقرب إليَّ) التقرب طلب القرب، قوله: (بالنوافل حتى أحببته) وظاهر الحديث أن محبة الله تعالي للعبد تقع بملازمة العبد التقرب النوافل. المراد من النوافل ما كانت حاوية للفرائض مشتملة عليها ومكملة لها. ومعنى الحديث أنه إذا أدى الفرائض وداوم على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى به ذلك إلى محبة الله تعالي، ومن أدى الفرض ثم زاد =



بذلك الحب المطلق، كقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦٧﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧]؛ أي: أنعم عليهم بالإنعام المطلق التام المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٥﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٥]، فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات، يتقربون بها

= عليه النفل وأدام ذلك تحققت منه إرادة التقرب.

وقد استشكل كيف يكون الباري جل وعلا سَمِعُ العبد وَبَصَرُهُ؟ والجواب من أوجه؛ أحدها: أنه ورد على سبيل التمثيل، والمعنى كنت سمعه وبصره في إثارة أمري فهو يحب طاعتي ويؤثر خدمتي كما يحب هذه الجوارح. ثانيها: أن المعنى: كليته مشغولة بي فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيني، ولا يرى ببصره إلا ما أمرته به. ثالثها: المعنى: اجعل له مقاصده كأنه ينالها بسمعه وبصره إلخ. رابعها: كنت له في النصره كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة على عدوه. خامسها: قال: التقدير كنت حافظ سمعه الذي يسمع به فلا يسمع إلا ما يحل استماعه، وحافظ بصره كذلك إلخ... سادسها: يحتمل معنى آخر أدق من الذي قبله، وهو أن يكون معنى سمعه مسموعه؛ لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول مثل: فلان أملي بمعنى مأمولي، والمعنى أنه لا يسمع إلا ذكري: ولا يلتذ إلا بتلاوة كتابي، ولا يأنس إلا بمناجاتي، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي، ولا يمد يده إلا فيما فيه رضاي ورجله كذلك. واتفق العلماء على أن هذا مجاز وكناية عن نصره العبد وتأيدته وإعانتته، حتى كأنه سبحانه ينزل نفسه من عبده منزلة الآلات التي يستعين بها، ولهذا وقع في رواية: (فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطن، وبي يمشي)، وقال الخطابي: والمعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقفه ما يكره الله من الإصغاء إلى الله ويسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله.

وقوله: (ولئن استعاذني) والمعنى: أعدته مما يخاف، وفي الحديث عظم قدر الصلاة؛ فإنه ينشأ عنها محبة الله للعبد الذي يتقرب بها، وذلك لأنها محل المناجاة والقربة، ولا واسطة فيها بين العبد وربّه، ولا شيء أقر لعين العبد منها ومن كانت قرة عينه في شيء فإنه يود أن لا يفارقه ولا يخرج منه لأن فيه نعيمه وبه تطيب حياته، وإنما يحصل ذلك للعباد بالمصابرة على النصب، فإن السالك عرضة للآفات والفتور. وفي حديث حذيفة من الزيادة: «ويكون من أوليائي وأصفيائي، ويكون جاري مع النبيين والصديقين والشهداء في الجنة»، انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤١٦/١١ وما بعدها).

إلى الله ﷻ، فكانت أعمالهم كلها عبادات لله فشربوا صرفاً، كما عملوا صرفاً<sup>(١)</sup>، قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ في نونيته:

صَفَى الْمُقَرَّبُ سَعْيَهُ فَصَفَا لَهُ      ذَاكَ الشَّرَابُ فَتِلْكَ تَصْفِيَتَانِ  
لَكِنَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ فَأَهْلُ مَرْجٍ      جَ بِالْمُبَاحِ وَلَيْسَ بِالْعِضْيَانِ  
مَرْجَ الشَّرَابِ لَهُمْ كَمَا مَرْجُوا هُمُ الـ      أَعْمَالُ ذَاكَ الْمَرْجُ بِالْمِيزَانِ  
هَذَا وَذُو التَّخْلِيْطِ مَرْجاً أَمْرُهُ      وَالْحُكْمُ فِيهِ لِرَبِّهِ الدِّيَانِ<sup>(٢)</sup>

وهي درجة المقربين المحسنين والسابقين، والمسارعين في الخيرات من الأنبياء وغيرهم، وهم المحسنون، الذين كملوا مراتب الإسلام والإيمان، وارتفعوا إلى مرتبة الإحسان<sup>(٣)</sup>. قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: المقرَّب أبلغ من القريب لدلالة صيغته على الاصطفاء والاجتباء<sup>(٤)</sup>.

طلب الرسول ﷺ معيتهم مع ما له من مكانة عظيمة عند ربه، ومع أنه رأى في رحلة المعراج عظيم منزلته، وهذا يدل على عظيم مكانة تلك الثلة الميمونة المباركة، وعلو درجتها، وفوز من تفضل الله ﷻ عليه، وضمه إليهم وجعله رفيقهم، فعَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرُضُ إِلَّا خَيْرٌ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)<sup>(٥)</sup>، وَكَانَ فِي شَكْوَاهُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ أَخَذَتْهُ بَحَّةٌ شَدِيدَةٌ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خَيْرٌ، وَعَنْ عُرْوَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا مَرِضَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَرَضَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ جَعَلَ يَقُولُ: (فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى)<sup>(٦)</sup>.

(١) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، باختصار لابن تيمية ص ٩٢ وما بعدها.

(٢) القصيدة النونية لابن قيم الجوزية ص ٣٢٨.

(٣) انظر: كتاب أثر الإيمان في تحصين الأمة، لعبد الله الجربوع ص ١٧١ وما بعدها.

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨٨/٢٨).

(٥) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٥٨٦.

(٦) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٤٣٦.

قال ابن حجر رحمته الله: الرفيق الأعلى: المكان الذي تحصل المرافقة فيه مع المذكورين، وهم الأنبياء ومن ذكر في الآية، ونكتة الإتيان بها مفردة (رفيقاً)؛ إشارة إلى أن أهل الجنة يدخلونها على قلب رجل واحد، نبه عليه السهيلي، وهم المذكورون في آية النساء، ومعنى كونهم رفيقاً؛ لتعاونهم على طاعة الله عز وجل، وارتفاق بعضهم ببعض، وهو المعتمد وعليه اقتصر أكثر الشراح<sup>(١)</sup>. واشتاق الصحابة رضي الله عنهم، إلى معية الرسول صلى الله عليه وسلم في الجنة، لقد كان الأمر يشغل قلوبهم وأرواحهم، فلقد ذاقوا حلاوة صحبته صلى الله عليه وسلم في الدنيا، فخافوا فواتها في الآخرة؛ فبشّروهم الله عز وجل؛ بمعية رسوله صلى الله عليه وسلم، ومعية الصفوة الصالحة الفائزة برضوانه عز وجل، ولقد كانت أعظم بشارة لهم، فقد ثبت في الحديث الصحيح، عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)<sup>(٢)</sup>، قال ابن حجر رحمته الله: «دل الخبر على أن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن كان الأصل أنه لا يحصل إلا بامتثال جميع ما أمر به، أنه قد يحصل من طريق التفضل باعتقاد ذلك، وإن لم يحصل استيفاء العمل بمقتضاه، بل محبة من يعمل ذلك كافية في حصول أصل النجاة - والكون مع العاملين بذلك؛ لأن محبتهم إنما هي لأجل طاعتهم - والمحبة من أعمال القلوب، فأثاب الله محبهم على معتقده، إذ النية هي الأصل، والعمل تابع لها، وليس من لازم المعية الاستواء في الدرجات»<sup>(٣)</sup>.

وبالنظر في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، يتضح لنا حرص الصحابة الشديد على معية الرسول صلى الله عليه وسلم ومرافقته في الجنة:

قال الكلبي رحمته الله: نزلت في ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان شديد

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١٧٢/٨) وما بعدها.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٦١٦٩.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦٨٣/١٠).

الحب له، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن، فقال له رسول الله ﷺ: يا ثوبانُ، ما عَيْرَ لَوْنُكَ؟ فقال: يا رسول الله ما بي من ضر ولا وجع، غير أنني إذا لم أراك اشتقت إليك، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف أن لا أراك هناك؛ لأنني أعرف أنك ترفع مع النبيين، وأناي إن دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة فذاك أحرى أن لا أراك أبداً. وقال أصحاب الرسول ﷺ: ما ينبغي لنا أن نُفَارِقَكَ في الدنيا، فإنك إذا فارقتنا رُفِعَتْ فوقنا. كما أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إنك لأَحَبُّ إليّ من نفسي وأهلي وولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى أتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفِعْتَ مع النبيين، وأناي إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد رسول الله ﷺ شيئاً، حتى نزل جبريل ﷺ بهذه الآية<sup>(١)</sup>.

إن السبيل الوحيد للحاق بالركب الصالح؛ هو الاقتداء بهديهم، والسير في طريقهم، وهو الصراط المستقيم الذي ندعو الله ﷻ في كل صلاة أن يهدينا إليه، ويعيننا على السير فيه، قال تعالى: ﴿يَسِّرْ لَنَا الصِّرَاطَ﴾ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الْخَيْرِ الصِّرَاطَ (٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴿ [الفاتحة: ١ - ٧]. والذين أنعم الله ﷻ عليهم في سورة الفاتحة، هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وبالنظر في هذه الآية، نجد مدى التناسب المعجز، والترابط الرائع في المعنى فيها وبين ما سبقها من آيات؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٨) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

(١) أسباب نزول القرآن للواحد ص ١٦٩، لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي

يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ  
 اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا  
 يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ حَرِيرًا لَهُمْ وَأَشَدُّ تَنَابُتًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾  
 وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٨﴾ [النساء: ٦٤ - ٦٨].

بدأت الآيات السابقة بمفهوم طاعة الرسول وحكمه في شرع الله ﷻ،  
 وأنها فرض من مرسله ﷺ. ومخالفته ظلم للنفس، ورفعها عنها لا يكون إلا  
 بالتوبة إلى الله ﷻ التواب الرحيم. ثم وضعت الآيات القاعدة الأس في  
 النظام الإسلامي؛ أنه لا إيمان لمن لم يجعل الشرع هو المحكم الأول  
 والوحيد لكافة أموره صغيرها وكبيرها، ثم وضحت الآيات الوسيلة المعينة  
 على التطبيق الصحيح والثبات عليه، وانتهت بالنتيجة الحتمية التي يصل إليها  
 السائر على ذلك والمؤمن به، والمطبق له بإيمان، فبينت الآيات أن طاعة  
 الرسل صلوات الله عليهم وسلامه فرض من الله ﷻ، بأمره وإذنه، يطيعه من  
 شاء الله ﷻ، ولا يطيعهم أحد إلا بإذنه، فكل رسل الله ﷻ فرضت طاعتهم  
 لأن طاعتهم طاعة لمرسلهم ﷺ، وهو الملك الديان الذي لا ينبغي لأحد من  
 عبيده أن يخرج عن أوامره التي بلغها لعباده عن طريق أولئك الرسل.

ووضحت الآيات القاعدة الأس وهي أن كل من نطق بالشهادة وادعى  
 انتماء للإسلام وجب عليه تحكيم شرع الله ﷻ في كل دقائق الحياة، وكافة  
 الأمور التي اختلط فهمها والإذعان لما قضى به الشرع، والرضا به وعدم  
 الضيق والحرص، ولفظ الحرج في الآية بديع المعنى؛ فقد سأل عمر بن  
 الخطاب رضي الله عنه بعض العرب قائلاً: ما الحرجة عنكم؟ قال هي شجرة ملتفة لا  
 يصل الماء إليها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدْ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ  
 لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ  
 كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا  
 قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ [الأنعام: ١٢٥ - ١٢٦]، يجعل صدره ضيقاً  
 حرجاً، يضيق مسلكه بحيث لا تصل إليه الهداية، وقال مجاهد رحمه الله  
 تعالى: الحرج، الشك<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: تفسير القرآن للسمعاني (١/٤٤٤)، المحرر الوجيز لابن عطية (٢/٧٤).

ومن الواجبات أيضاً: التسليم التام الذي لا يخالطه أدنى ريب أو ضيق، رضى بالله رباً، وبإسلامه ديناً، وبنبيه ﷺ نبياً ومبلغاً ورسولاً. قال الإمام الرازي رَحِمَهُ اللهُ: واعلم أن الراضي بحكم الرسول ﷺ قد يكون راضياً به في الظاهر دون القلب، فبين الله ﷻ في هذه الآية؛ أنه لا بد من حصول الرضا به في القلب، وأن يحصل الجزم واليقين في القلب، بأن الذي يحكم به الرسول ﷺ هو الحق والصدق، ثم الانقياد<sup>(١)</sup>.

وإن لم يتحقق من المسلم ما سبق، انتفى عنه الإيمان، فقد أقسم الله ﷻ بربوبيته لرسوله ﷺ أن من لم يقم بما سبق من التحكيم لشرع الله ﷻ والذي هو في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج، ثم التسليم التام والذي هو في مقام الإحسان، من لم يقم بذلك لم يكن مؤمناً إيماناً حقاً، قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: « فمن استكمل هذه المراتب، وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها »<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن قررت الآيات أنه لا إيمان لأحد قبل تحكيم الشرع والرضى والتسليم، عالجت النفوس ببيان أن هذا الذي طلب منهم تطبيقه وعمله والتسليم به؛ إنما هو منهج ميسر، وشريعة سمحة، وقضاء رحيم لا يكلفهم شيئاً فوق طاقتهم؛ ولا يكلفهم عنتاً يشق عليهم، ولا يكلفهم التضحية بعزيز عليهم، فالله يعلم ضعف الإنسان، ويرحم هذا الضعف<sup>(٣)</sup>.

بعد ذلك وضعت الآيات الكريمت المنهج المعين لطالب الوصول إلى تحقيق المراتب السابقة، فإن سأل متحفز إلى القيام بما سبق والثبات عليه؛ فالسبيل إلى ذلك واضح، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ [النساء: ٦٦]، إن السبيل الوحيد للثبات؛ هو العمل بما شرعه لهم ربهم ﷻ الرحيم بهم، العالم بضعفهم وما يعينهم على السير والتطبيق والثبات، فلقد بين الله ﷻ نتائج العمل بما شرعه لهم ربهم<sup>(٤)</sup>، وهي

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢٩٣/٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٩٣/٢).

(٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٦٩٨/٢).

(٤) وفي هذا رد على من زعم صعوبة تطبيق بعض الأحكام على نفسه، وامتناعه من =

حصول الخير في الدنيا بالتوفيق والراحة، وفي الآخرة بالأجر والثواب من الله ﷻ. وحصول الثبات وزيادته، فبمجرد البدء يحدث التثبيت والخطوة تتبعها الخطوة، واللينة تشدها الأخرى وهكذا، فيثبتهم الله ﷻ في الدنيا عند حدوث الفتن في الأوامر والنواهي، والمصائب؛ فيوفى للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا، أو الشكر فينزل عليه معونة من الله ﷻ للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين، عند الموت وفي القبر. والعبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية، حتى يألفها، ويشتاق إليها، فيكون في ذلك ثبات له على الطاعات.

والثواب الآجل والعاجل، الذي يكون للروح والقلب، والبدن، ومن النعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. والهداية إلى صراط مستقيم. وهذا فيه عموم بعد خصوص لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق، ومحبه وإيثاره به، والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هدي إلى صراط مستقيم، فقد وفق لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير<sup>(١)</sup>.

قد ختمت الآيات بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٧٠] وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾، بيان لمدى عظم الأجر الذي تفضل به ﷻ على من رزقه معيتمهم، هذا الذي وفق للعمل الصالح وأطاع ربه ورسله، فاز بمعية الصفوة خيرة الخلق من النبيين ﷺ الذين فضلهم الله ﷻ بوحيه، والصدقيين الذين اصطفاهم للسبق في تصديق رسله، وجعلهم قدوة

= تطبيقها خوف الفشل والتراجع، ويظن أنه قد وضع لنفسه العذر المقبول عند الله ﷻ فيأثم بذلك، ولا يعلم أن عدم إذعانه لأحكام ربه، والبدء بتنفيذها وحمل نفسه ابتداءً على ذلك، هو السبيل الوحيد الذي لا يوجد غيره، ولقد وضعه صاحب الشرع، خالق الخلق ﷻ، العالم بما يصلحهم وما يصلح لهم، وما يبرره المتخلفون عن تطبيق المنهج في الحالات التي لا تروق لهم، ما هو إلا اتباع لأهوائهم. وما يدعيه البعض من الخوف من الفشل بعد البدء ومن الرجوع بعد الالتزام ما هو إلا تشكيك في شرع الله، وفي ما وضعه لعباده من الحلول وطرق العلاج، فلا ثبات إلا بالالتزام شرع الله والقيام بفعله والتوكل على الله ﷻ.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٢/٩٤ وما بعدها) باختصار وتصرف.

لمن بعدهم، والشهداء الذين اتخذهم الله وانتقاهم من خيرة المجاهدين في سبيله، والصالحين الذين وفقهم الله لإصلاح بواطنهم وظواهرهم، فصلحت أعمالهم. ثم نهت الآية على أن معية أولئك العالي المرتبة، إنما هو محض فضل من الله ﷻ.





# الباب الثالث

## اصطفاء الأهم

ويشتمل على فصلين:  
الفصل الأول: اصطفاء الأمة المسلمة.  
الفصل الثاني: عالمية الإسلام والنداءات المعاصرة.



## الفصل الأول

### اصطفاء الأمة المسلمة

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: دلالة القرآن الكريم على اصطفاء الأمة المسلمة.

المبحث الثاني: خصائص الأمة المسلمة في الدنيا والآخرة.

المبحث الثالث: تكاليف اصطفاء الأمة المسلمة وتعدد أعبائها.



## المبحث الأول

# دلالة القرآن الكريم على اصطفاء الأمة المسلمة

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الآيات الدالة على اصطفاء الأمة المسلمة.

المطلب الثاني: إشارات حول مفهوم الأمة المسلمة.

المطلب الثالث: أوصاف الأمة المسلمة في القرآن الكريم.



حتى تكاملت جهات الفضل في حقها، فكانت صفوة الأمم المخصوصة بصفوة الأمور.

اختار الله ﷺ المسلمين واصطفاهم ليسند إليهم مهمات وتكاليف ضخمة، وليقلدهم رسالة مهمة ارتضاها لهم، واصطفاهم من أجلها، حتى تقوم حياة البشر على الوجه الصحيح الذي خلقهم الله ﷻ من أجله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

لقد دلت الآيات السابقة على اصطفاء الأمة المسلمة؛ فقوله ﷺ: ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ﴾، دليل على ذلك؛ لأن الاجتباء كالاصطفاء، من اجتبى الشيء يجتبيه إذا ضمّه إليه وحازه إلى نفسه، فالمسلمون هم المُجْتَبُونَ الذين اجْتَبَاهُم اللهُ ﷻ إليه، وجعلهم أهله وخاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين والمرسلين ﷺ، اختارهم لدينه، واصطفاهم لحرب أعدائه والجهاد في سبيله، وفضلهم وخصّهم وشرفهم بأكرم رسول، وأكمل شرع<sup>(١)</sup>.

ولقد أعلا الله ﷻ شأن هذه الأمة بتفرده بالاختيار والاصطفاء، وإسناد ذلك إليه ﷺ وتأکید ذلك بقوله: ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ﴾، فالمختار إنما تعلق مكانته بعلو شأن من اختاره، فإذا علم أن هذه الأمة قد اختارها ﷻ الحكيم العليم، صاحب القدرة والعلم والحكمة، حكم لهم بأنهم الأفضل على الإطلاق.

وكذلك قوله ﷺ في الآية: ﴿هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ مَعَانٍ عَظِيمَةٌ وَدَلَالَاتٌ ضَخْمَةٌ عَلَىٰ عُلُوِّ شَأْنِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿هُوَ﴾ بَيَانٌ بِأَنَّ اللَّهَ ﷻ بَعْظَمَتُهُ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى تَسْمِيَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِهَذَا الْاسْمِ وَاخْتَارَهُ لَهَا، وَخَصَّهَا بِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي مَعْنَى الْآيَةِ: ﴿هُوَ سَمَّكُمْ﴾، أَي: اللَّهُ سَمَّاكُمْ<sup>(٢)</sup>، ففهم هذا المعنى يعطي ظلال الأُنْسِ وَالرِّضَا، كَمَا يَعْطِي شَعُورًا بِأَهْمِيَةِ التَّمَثُّلِ بِذَلِكَ الْمَسْمُومِ وَتَطْبِيقِهِ وَاقِعًا فِي الْأَرْضِ.

لقد سمّاهم الله ﷻ بهذا الاسم قبل وجودهم أصلاً في الدنيا، ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أي: أن الله ﷻ قد ادّخر لهم هذا الاسم

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٦٨/١٠)، بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٣٢١/٣).

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٧١/١٠).

ليعرفوا به في الدنيا والآخرة، وليكون علماً عليهم وحدهم دون سواهم؛ ولقد عرّف الله ﷻ بهم في جميع الكتب، وذكرهم لدى جميع الأمم تنويهاً بشأنهم ورفعاً لهم، قال مجاهد: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الكتب كلها، ﴿وَفِي هَذَا﴾ يعني القرآن<sup>(١)</sup>.

وفي اختيار مُسَمَّى ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ لهذه الأمة واختصاصهم وحدهم به - بماله من دلالات عظيمة وواسعة - يومئ بتفضيل هذه الأمة ووصفها بصفة الإسلام؛ والتي هي كمال التوجه لله ﷻ وكمال الاستسلام له ﷻ، حيث أن الله ﷻ قد علق اصطفاً إبراهيم ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَانَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] على تسليمه وانقياده له ﷻ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] فكان إبراهيم، خليل الله ﷻ وأبو الأنبياء، هو إمام الحنفاء بإسلامه لله ﷻ، ثم اختار الله ﷻ صفوة عباده وسماهم بهذا الاسم الدال على التسليم والانقياد لله ﷻ ليكونوا بذلك هم أئمة الناس، ويكونوا متلبسين بالحنيفية السمحة، ملة إبراهيم ﷻ.

ومما يدل على علو شأن المسلمين ورفع شأنهم أن الله ﷻ لا يقبل من الناس جميعهم ديناً غير الدين الذي قبله لهذه الأمة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

إن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] تصريح باصطفاء أمة محمد ﷺ، وذلك لأن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلا لهذه الأمة فقط، والأول لم يُورثوه، فالمصطفون من العباد في الآية هم الأمة المسلمة على اختلاف أحوالهم، قال ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾، قال: هم أمة محمد ﷻ ورثهم الله كل كتاب أنزله؛ فظالمهم يُعْفَر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب<sup>(٢)</sup>.

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٠/٢٧١).

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/١٥٨)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٣٨).



وقال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهذا اختيار ابن جرير رَضِيَ اللهُ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ وَكَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مِنْ طَرَفٍ يَشُدُّ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ» (١).

أورثهم الله ﷻ - بعظمته - الكتاب؛ القرآن الكريم الجامع لمعاني الكتب السابقة، وعلمها وأحكامها وعقائدها، وبمقابلة الوراثة في الآية السابقة والتي تتحدث عن الأمة المسلمة ومن الذي تولى إيرادها الكتاب حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ ووراثة بني إسرائيل للكتاب في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ [الأعراف: ١٦٩] نجد أن البون شاسع، فمن تولى الله سبحانه توريثه لا بد وأنه أعلى مقاماً، وأعظم شأناً من الذين ورثوا كتابهم بأنفسهم، فامة محمد ﷺ - لما لها من الفضل - ورثها الله ﷻ بعظمته علم كل كتاب، ولم يُسند هذا الفعل لغيره وإنما ذلك للاهتمام والتشريف وعلو المكانة، وتوريث الكتاب فضل كبير حيث تعتبر جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فهو من أجل النعم على الإطلاق.

وإذا علم أن ﴿أَوْرَثْنَا﴾ معناها أعطينا، والميراث هو انتقال الملكية من شخص لآخر دل ذلك على أن هذا الميراث كان لأمة غير أمة الإسلام، ثم نزع منها وسُلم لأمة الإسلام، وعليه فإن هذا الإرث وصل لأمة محمد ﷺ بعد انتقاله من فرق أخرى، وقد ثبت ذلك في القرآن الكريم حيث أن الاختيار نُزع من بني إسرائيل بعد إخلالهم بشروطه، ثم سُلم لأمة الرسول ﷺ، فلقد اختار الله ﷻ أمة بني إسرائيل على سائر الأمم في زمانها؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الدخان: ٣٢]. وفضلهم على عالمي زمانهم بكثير من الأمور، قال تعالى: ﴿يَبْنَؤُا إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧]

وظهرت آثار ذلك الاختيار في حياة بني إسرائيل في نواح عديدة منها: كثرة الأنبياء، وإيتاؤهم الكتاب، والحكم، والنبوة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [الجاثية: ١٦].

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٥٤٧).

كما أعطاهم الله ﷻ العزة والتمكين في الدنيا، وأورثهم ملك الأرض، ونصرهم على عدوهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِيقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وأمدّهم الله ﷻ بكثير من النعم، ولَبَّى كافة مطالبهم، قال تعالى: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَابًا أُمًّا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ آصْرٍ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَنَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

ولكنهم رغم كل ذلك لم يفوا بما أسند إليهم من مهام، وبما أبرموا من عهود مع الله ﷻ، فلما نكثوا سُحبت منهم القيادة والخيرية، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُفْعِدُوا مَا يَأْتُسُهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فتحوّلت بذلك من أمة مختارة، إلى أمة مغضوب عليها، ملعونة مطرودة من رحمة ربها، قال تعالى: ﴿يَسِرُّهُ اللَّهُ الرَّجْرَجَ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّجْرَجَ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ١ - ٧].

وتحوّلت بعد ذلك دفة القيادة إلى الأمة المسلمة التي اصطفاهها الله ﷻ وأورثها الكتاب المهيم الذي تحكم به الدنيا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكَتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، فكانت أمة محمد ﷺ التي اختارها الله ﷻ لطاعته واجتباها لنعمته، وفضلها على غيرها من الأمم، حيث أن هذه الأمة هم أكمل الناس عقولاً، وأحسنهم أفكاراً، وأرقهم قلوباً، وأزكاهم أنفسهم، اصطفاهم الله تعالى، واصطفى لهم الدين، وأورثهم الكتاب لتقوم الأمة بتكاليفه فتبشر الناس بعلومه وأخباره وأحكامه، وما تضمنه للعالمين من منهج قويم تهتدي به البشرية، ولتحيا آمنة مطمئنة، مبرأة من

الأمراض والمفاسد والشور<sup>(١)</sup>.

وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ مزيد اعتناء وتخصيص، فوصفهم بأجل المراتب وأعلاها وهي العبودية، وهذا الوصف له من الظلال ما يرفع شأن هذه الأمة المسلمة، ويعلي مكانتها عند الله ﷻ.

وفي إضافتهم إليه ﷻ في قوله تعالى: ﴿عِبَادِنَا﴾ ونسبتهم له ﷻ مزيد فضل؛ فكل مضاف إلى الله ﷻ ينال مزيداً من الشرف والرفعة والمكانة لا ينالها سواه.

ومن قواعد التفسير المعلومة أن كل ما أضافه الله تعالى إلى نفسه فله من المزية والاختصاص على غيره ما أوجب له الاصطفاء والاجتباء<sup>(٢)</sup>.

ومن عظيم منة الله ﷻ وتفضله على أمة الإسلام أن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة؛ لأن هذه الأمة وإن انقسمت إلى ثلاثة أقسام، إلا أنهم كلهم يدخلون في دائرة الاصطفاء والتفضيل لما سبق من قول ابن عباس رضي الله عنهما، على أن الظالم لنفسه يكون من أهل الذنوب والمعاصي التي هي دون الشرك والنفاق؛ لأن الله أتبع الآية بقوله: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣] فعمم بدخول الجنة جميع الأصناف الثلاثة<sup>(٣)</sup>، وذلك هو الفضل الكبير الذي يخص الله ﷻ به من يشاء من عباده.

إذا اصطفى الله ﷻ الأمة الإسلامية وأسند لها الدور القيادي الذي تخلت عنه اليهود، وسلّمه إليها بشرطه، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وخلاصة القول: أن الله قد اختار أمتنا - والحمد لله - على جميع الأمم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٦/٣٢٠)، التفسير الشامل لعبد العزيز الأميري (٥/٢٧٩٦).

(٢) انظر: قواعد التفسير جمعاً ودراسة لخالد السبت (١/٨٣١).

(٣) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٣/١٦٤)، معالم التنزيل للبغوي (٦/٤٣٠)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٤٣٨)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٥٥٠).

قبلها وخصَّها بإرث الكتاب؛ لِتَسُوسَ به الدنيا، ولتكون هي الحاكمة بأمر الله ﷻ، المُدافعة عن دينه، قلَّدها دور الأنبياء ﷺ، فب وفاة رسولنا محمد ﷺ انقطع وحي السماء، وانتهى عهدُ الرسالات، لكن أختيار أمة محمد ﷺ هم المجدِّدون، وهم القائدون، وهم الذين يقومون بما قام به الرسل ﷺ من الدعوة إلى الله ﷻ وهداية العباد، فقد اصطفاهم الله ﷻ لدينه وشرفهم على غيرهم، فكان في اصطفائهم قمة التشريف ونهاية التكليف.



## إشارات حول مفهوم الأمة المسلمة

عندما نقول - الأمة المسلمة - فنحن إنما نعتمد على نصوص الشرع فالله ﷻ هو الذي أطلق عليهم لفظ الأمة وهو ﷺ الذي سَمَّاهم المسلمين .  
فلقد ذكر الله ﷻ في كتابه الكريم أنَّ المسلمين يمثلون أمة، وأطلق عليهم هذا اللفظ في العديد من الآيات الكريمة، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والأمة في معناها اللغوي ترجع إلى أصل واحد يتفرع منه أربعة أبواب هي: الأصل، والمرجع، والجماعة، والدين، وهذه الأربعة متقاربة.

والأمة في معناها الاصطلاحي هي الجماعة والطائفة المجتمعة على الشيء الواحد، وتطلق في الاستعمال القرآني على كل مجموعة حية تجمعها صفات وخصائص أو روابط متميزة، فكل أمة من الناس أرسل إليها رسول ليلبغها رسالة ربها فهي أمة بلاغ ذلك الرسول، ومن أجابه منهم واتبعه فهم أمة الإجابة، ومن قام بواجب الدعوة إلى دين الله ﷻ فهم أمة الدعوة، ومن قام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله ﷻ فهم أمة الخير والجهاد.

والفريق من الأمة إذا اجتمعوا على رأي واحد متميز يُطلق عليهم «أمة»، حتى الفرد الواحد المتميز هو أُمَّةٌ وَحْدَهُ، وقد كان إبراهيم عليه السلام في أول دعوته أمة وحده، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَّلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠<sup>(١)</sup>].

(١) انظر: معجم المقاييس في اللغة لابن فارس ص ٤٥، تفسير الخازن (١/٤٨٥)، اللباب في علوم الكتاب للحنبلي (٥/٤٦٧)، معارج الفكر للميداني (٤/١٩٩).

إذا فالمسلمون يمثلون أمة، وهذه الأمة المصطفاة خصّها الله ﷺ باسم المسلمين، قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، وعليه فإن المسلمين علّم على طائفة معيّنة مخصوصة سمّاها الله ﷺ بذلك.

ومما سبق يمكن القول بأن الأمة المسلمة هي جماعة من الأفراد تضمهم عقيدة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وتحكمهم شريعة الإسلام، وتجمعهم تكاليف وأهداف مشتركة.

وبناءً على التعريف السابق، فإنّ هناك قواعد أساسية تعتبر الدعائم التي يقوم عليها مفهوم الأمة المسلمة ومن تلك القواعد الآتي:

١ - الأمة المسلمة لا ترتبط بحدود جغرافية على الكرة الأرضية، وإنما رباطها العقيدة، فأينما وجد من اعتنق عقيدة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، فهو من الأمة، ينضم إليها، وهذا التنوع لا ينال من وحدتهم، ما دام ذلك لا يخرجهم عن وظيفتهم الأساسية التي اصطفوا من أجلها.

٢ - مفهوم الأمة المسلمة أوسع وأشمل من مفهوم العالم الإسلامي، فهو يتسع حتى يشمل المسلمين في جميع أركان العالم وأقطاره؛ لأن الإسلام لا يقتصر على شعب معين، ولا على بلد معين، فكل الأرض تصلح للإسلام ولدعوته ولمبادئه مهما كانت طبيعتها ومهما كان جنس سكانها ولونهم ولغتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا: ٢٨].

٣ - الأمة الإسلامية أمة واحدة ذات شعوب متعددة، وتعدد الشعوب في الأمة المسلمة لا يجعل منها مشكلة، فالإسلام يذيب الفوارق بين هذه الشعوب بعقائده وقيمه وأحكامه وآدابه، ويصهر الجميع في بوتقته، وإنما يكون اختلافهم في هذا الحال اختلاف تنوع وإثراء، لا اختلاف تضادّ وتصارع، فإن ولاء الجميع لله ﷺ ولرسوله ﷺ ولجماعة المؤمنين، والانتماء إلى الأمة الكبرى لا يلغي الانتماء إلى الأوطان أو الأقوام، ولا ينكر الإسلام حب الإنسان لوطنه، أو قومه<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: الأمة الإسلامية للدكتور يوسف القرضاوي؛ ص ٢١ - ٢٢ باختصار.

٤ - استمرار الأمة الإسلامية في الحياة مرهون باستمرار حملها للرسالة، وما يتفرع عنها من تطبيقات في مجالات الحياة المختلفة، فإذا ضعفت عن حمل الرسالة، أو توقفت فاعليتها، أو تقلصت تطبيقاتها انتهى وجود الأمة وحل محلها أمة أخرى<sup>(١)</sup>.

وكما أن سعة دائرة الأمة يحددها مدى التواصل والاتصال، الذي تحدده علوم العصر؛ فكلما تطورت واتسعت رسمت الرسالة الإسلامية للأمة دائرة تتسع للإنسانية كلها، وهذا يُمكن الأمة المسلمة من الاستفادة القصوى من معطيات العولمة المفروضة على العالم الآن لصالح الدور الذي يجب أن تقوم به.

إنَّ العنصر الرئيس في مفهوم الأمة هو الرسالة؛ أي: العطاء الذي تُقدِّمه جماعة من الناس إلى بقية مجموعات الإنسانية ليساعد على بقاء النوع ورفيقه، والأمة الإسلامية هي مستودع الرسالة المحمدية، فهي الوعاء للقرآن الكريم، ويقاؤها مرتبط ببقاء الذكر الحكيم<sup>(٢)</sup>.

لذلك فإنَّ الأمة الإسلامية باقية، لم تَمُتْ، ولن تموت، وهي حقيقة لا وهم، إنها حقيقة بكل معيار:

• فهي حقيقة بمنطق الدين؛ حيث أن القرآن الكريم هو الذي اعتبر المسلمين (أمة)، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

• وحقيقة بمنطق التاريخ؛ فقد ولدت هذه الأمة مع الإسلام، ونمت

(١) ولكن هذا لا ينطبق على الأمة المسلمة فالله ﷻ كتب لها البقاء والريادة حتى قيام الساعة كما أنه ليس هناك أمة أخرى ستتولى هذه المهمة، نعم سيكون هناك عقاب لها على تخليها عن القيام بما كلفت به، ولكن لا ننسى السنن الثابتة كوجود المجددين، ووجود العصابات التي تقوم على الحق حتى قيام الساعة.

(٢) انظر: حاضر العالم الإسلامي للدكتور جميل المصري (٥١/١)، الأمة المسلمة د. ماجد الكيلاني ص ١٤ - ١٦ بتصرف، الأمة القطب لمنى عبد المنعم أبو الفضل ص ٢٣.

بنموه وتوسعت بانتشاره، وحملت مواريث رسالات السماء، وقيم حضارات الأرض، وظلت هي الأمة الأولى في العالم قرابة ألف عام، لم يزايل أبنائها الشعور العام بأنهم أمة واحدة، وأن مصيرهم واحد، وأن عدوهم واحد، وأن مصلحتهم واحدة، وأن خلاصهم في الاتحاد والتضامن، وهلاكهم في الاختلاف والتفرق والتنازع، وهو ما حذر منه كتابهم وسنة نبيهم قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ولقد عاش المسلمون الأوائل لا يعرفون جنسية إلا الانتماء إلى الإسلام.

• كما أنها حقيقة بمنطق الجغرافيا؛ فالأمة الإسلامية تعيش في أقطار متصلة متشاركة، ومن رأى خارطة العالم الإسلامي وجد «اللون الأخضر» - الذي يرمز إلى العالم الإسلامي - متصلاً، وذلك أن امتداد الإسلام كان امتداداً طبيعياً، يدخل البلد فيؤثر فيما حوله.

• وهي حقيقة بمنطق الواقع؛ فالذي يقرأ واقع المسلمين يدرك أن الشعور بوجود الأمة ووحدتها، والإحساس بالأمها وأفراحها، شعور سائد ومتغلغل في كيان أبنائها وأعماق وجدانهم، وخصوصاً في أوقات الشدائد والمحن، فهي التي تكشف الدفين، وتبرر المكنون.

• ومن الضروري أن تكون الأمة المسلمة حقيقة بمنطق المصلحة والعصر، لتتكثر بها، وننضم إليها، ونحتمي بحماها، فمصلحتنا العليا توجب أن نبحت لنا عن تكثُل كبير، نستكثر به من قلة، ونعتز به من ذلة، ونقوى به من ضعف، ونأمن به من خوف. فالتكتل ضرورة عسكرية، حتى لا يؤكل المسلمون بلداً بلداً. وهو كذلك ضرورة اقتصادية؛ لأن الإنتاج الصغير لا يستطيع أن ينافس أو يصمد أمام الإنتاج الكبير<sup>(١)</sup>.

وعليه فلقد تميزت الأمة المسلمة على جميع الأمم في طبيعة روابطها، فلا يوجد على وجه الأرض أمة يرتبط أفرادها بروابط كتلك التي وجدت بين أفراد الأمة المسلمة على الإطلاق، وهذا وسام شرف وعز يتقلده كل مسلم انضم تحت جناحي تلك الأمة الشامخة، فأينما حل المسلم وارتحل والتقى

(١) انظر: الأمة الإسلامية للدكتور يوسف القرضاوي من ص ٩ إلى ص ١٨ باختصار.



بمن يؤمن بعقيدته فهو أخوه ومن أمته، وهذا يعطي مردوداً نفسياً قوياً لكل فرد ينتمي إليها، فكل أرض له بلد، ومن كل جنس له أخ، فأفراد الأمة المسلمة يرتبطون بوحدة العقيدة، ووحدة القبلة، ووحدة الكتاب الذي يقوم عليه التشريع، ووحدة النبوة والرسالة، ووحدة التاريخ المشترك.

لذلك أراد الله ﷻ أن يُعرِّف الأمة المسلمة بمكانتها وفضلها، كي لا تذل في مجال التواجد والصراع، ولا تهون في ميدان الخصام، قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].



## أوصاف الأمة المسلمة في القرآن الكريم

إنَّ الأمة المسلمة قد اختارها الحكيم العليم الذي لا يضع اختياره إلا في المحال القابلة له، وإذا علم أن الذي اختارهم هو صاحب العلم والقدرة والحكمة حكم للمسلمين بأنهم الأفضل على الإطلاق، وقد وصفهم الله ﷻ بأوصاف عدة في كتابه الكريم ومن تلك الأوصاف الآتي:

### ١ - الربانية:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. فالأمة الإسلامية ربانية المصدر، ربانية الوجهة؛ إنها أمة أنشأها وحي الله ﷻ، وتعهدتها تعاليمه وأحكامه ﷻ، حتى اكتمل لها دينها، وتمت به نعمة الله ﷻ عليها، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فالله ﷻ هو مخرج هذه الأمة، ولقد ظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ يفيد أنه ﷻ هو جاعل هذه الأمة، ومنتخبها، ومخرجها. ويؤكد هذه الصفة قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فهذا دليل على أن هناك مُخرجاً أخرج هذه الأمة، وهياًها لرسالته وهو الله جلَّ شأنه، فهي أمه مصدرها رباني، ووجهتها ربانية؛ لأنها تعيش لله وحده، ولعبادته دون غيره، ولتحقيق منهجه في الأرض<sup>(١)</sup>.

### ٢ - الخيرية:

قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(١) انظر: مدخل لمعرفة الإسلام للدكتور يوسف القرضاوي ص ٢٤٨ بتصرف يسير.

إنَّ التفضيل الذي صرَّحت به النصوص كان لأمة استقامت على نهج الله ﷺ، وصُقلت وتربَّت على شريعته، فلما تمثلت الإسلام وعاشته واقعاً حياً ملازماً لها في مختلف جوانب حياتها، استحققت تلك الخيرية لأنها ارتبطت بمصدرها الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل، وعملت على تحكيم شرع الله ﷺ، وجاهدت لنشره في أرجاء المعمورة.

وتبقى تلك الخيرية مرهونة باستمرار ارتباطها بذلك المصدر، وقوة التصاقها به وعملها بما فيه، والآية عامة في جميع الأمة المسلمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. وإنما حازت هذه الأمة قَصبُ السبق إلى الخيرات بنبيِّها محمد ﷺ؛ فإنه أشرف خلق الله، وأكرم الرسل على الله، بعثه الله بشرع كامل عظيم لم يُعظه قبله نبيٌّ ولا رسول، فالعمل على منهاجه القليل منه يقوم مقام الكثير من عمل غيرهم.

وفي الآية تفضيلٌ من الله ﷺ لهذه الأمة بهذه الأسباب التي تميَّزوا وفاقوا بها على سائر الأمم، فهم خير الناس للناس نصحاً ومحبةً للخير ودعوةً وتعليماً وإرشاداً وتكميلاً للنفس بالإيمان بالله ﷺ، والقيام بحقوق الإيمان. والآية تبين أن هذه الخيرية مشروطة يأخذ بحظه منها من عمل بشرطها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله<sup>(١)</sup>.

والخيرية وصف ثابت لازم لهذه الأمة المُضطفاة دَلٌّ على ذلك قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، لأن التعبير بلفظ الماضي يشير إلى أن هذا الحكم ليس محدوداً بزمن من أزمانها، ولا مخصوصاً بحال من أحوالها، وإنما هو حكم عام يشمل الأمة الإسلامية كلها، في كل أزمانها، وفي جميع أحوالها، من عهد النبوة وإلى أن يرث الله ﷺ الأرض ومن عليها، وهو حكم يستقبلها يوم القيامة، يوم تُعرض على الأمم فتشهد لها جميع الأمم بخيريتها وبمكانتها، فإذا كان رسولها هو سيد الرسل ﷺ فإن أمته هي سيدة الأمم.

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٦٠/٣)، معالم التنزيل للبخاري (٩٠/٢)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤٨٩/١)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٩٣/٢)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٤٠٩/١).

ومما يدل على خيرية الأمة المسلمة أنها لم تخرج من الناس، ولكنها أخرجت لهم، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وكأنها بذلك، أخرجت لهم من حيث لا يتوقعون، من صحراء مُجدبة قفر، ومن مجتمع أمي غارق في الجهالة، فقادت ركب الإنسانية، وحررتها من قيود العبودية، وأخرجتها من ظلام الشرك والكفر إلى نور الإيمان والتوحيد<sup>(١)</sup>.

ويؤكد هذا المعنى ما ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ! تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ<sup>(٢)</sup>، وخير الناس، أي: أنفعهم لهم، وإنما كان ذلك لكونهم كانوا سبباً في نشر الإسلام ودخول الناس فيه أفواجا، وإنقاذهم من هلاك محقق.

وَعَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ رضي الله عنه عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: (إِنَّكُمْ تَتَمَوَّنَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ)<sup>(٣)</sup>.

ولم تنل هذه الأمة هذه المكانة السامقة بين الأمم مصادفة، ولا جزافاً ولا محاباة، فالله صلى الله عليه وسلم منزه عن أن يكون في ملكه شيء من ذلك، فكل شيء عنده بمقدار، وهو يخلق ما يشاء ويختار.

ولقد برزت أوجه خيرية الأمة المسلمة في نواح كثيرة منها:

الوجه الأول: إيمانها بالله صلى الله عليه وسلم.

والذي يتميز عن إيمان سائر الأمم بأنه إيمان عام شامل، يشمل جميع الرسل التي أرسلت، والكتب التي أنزلت، قال تعالى: ﴿ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

(١) انظر: المسلمون ورسالتهم في الحياة لعبد الكريم الخطيب ص ١٤١ وما بعدها بتصرف يسير.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٥٥٧.

(٣) سنن الترمذي (٢١١/٥) حديث رقم ٣٠٠١ وقال: حديث حسن، المستدرک للحاكم (٨٤/٤) وقال: حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

الوجه الثاني: أنها أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

وهذا من أعظم ما به كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، فهو من أظهر خصائصها، وأبرز ما تميّز به عن سائر الأمم، ولذلك قدمها الله ﷻ في الذكر على الإيمان به تعالى.

الوجه الثالث: كونها خير الأمم للناس وأنفعها لهم.

وذلك أن هذه الأمة لما قامت بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان من أعظم المعروف الذي تأمر به: الإيمان بالله ﷻ وعبادته وحده، ومن أنكر المنكر الذي تنهى عنه وتحذر الناس منه: الإشراف بالله وعبادة غيره من دونه، إنما كانت في الواقع تدعو الناس إلى ما فيه نفعهم ونجاتهم، وتنهاتهم عما فيه هلاكهم، باذلة في سبيل ذلك النفس والنفس، ليس لها هدف إلا القيام بما أوجبه الله ﷻ عليها من هداية الخلق إلى طرق النجاة، وإخراجهم من ظلمات الجهل والشك والوثنية إلى نور التوحيد والإيمان، وتحريرهم من عبودية العباد إلى عبودية الخالق ﷻ، كما قال صاحب رسول الله ﷺ ربي بن عامر<sup>(١)</sup> ﷺ لرستم<sup>(٢)</sup> قائد الفرس لما سأله: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا، والله جاء بنا، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لدعوتهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى موعود الله، قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي<sup>(٣)</sup>.

لقد كان هذا الصحابي الجليل خير سفير لهذه الأمة، فقد بين مهمة هذه

(١) هو ربي بن عامر بن خالد، كان من أشرف العرب، وكان على مجنية جيش أبي عبيدة إلى العراق، وله ذكر في غزوة نهاوند، ولاه الأحنف بن قيس لما فتح خراسان على صخرستان. قال ابن حجر: وقد تقدم غير مرة أنهم كانوا لا يؤمرون إلا الصحابة. انظر: الإصابة في التمييز بين الصحابة لابن حجر (١/٥٠٣).

(٢) هو رستم بن الفرخزاد الأرميني، قائد الفرس في القادسية. انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٧/٣٨).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٧/٤٠).

الأمة، وحدودها، وهو أنها لم تخرج لطلب ملك، أو مال أو دنيا أو سلطان، وإنما أخرجها الله ﷻ وابتعثها، كما قال ﷻ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

من أجل ذلك كانت هذه الأمة خير الأمم للناس؛ لأنها تدعوهم إلى الخير ولا ترجو منهم ثمناً له، بل تجاهد من يحول بينها وبين تبليغ عباد الله دين الله، حتى يُحَلِّي بينهم وبينه، ثم بعد ذلك مَنْ شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إذا تَبَيَّن للناس الرُّشْد من الغيِّ كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويظهر من قول الصحابي الجليل «تركناه وأرضه دوننا» الفرق بين الفتوحات الإسلامية وقوانينها وما تهدف إليه، والاستعمار المعاصر وقوانينه الجائرة وما يهدف إليه من استعباد الشعوب وسرقة خيراتها.

الوجه الرابع: كونها أكثر الناس استجابة للأنبياء.

فقد آمنت بجميع الأنبياء، وجميع الكتب؛ كما ذكر في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

الوجه الخامس: كونها لا تجتمع على ضلالة.

فلقد ورثت الرسل في القيام بهدايه البشر ودعوتها إلى ما دعا إليه سائر الرسل من الإيمان بالله وعبادته وحده، فهي ذات رسالة تبلغها، وتستمر في إبلاغها إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها. لذلك ما كان لهذه الأمة أن تضل عن مهمتها ورسالتها مهما طال عليها الأمد، وامتد بها الأجل؛ لأنها إن ضلت هي فلن يهتدي أحد، لانقطاع الوحي والرسالة.

الوجه السادس: كون الكتاب الذي أنزل عليها خير الكتب السماوية؛

وذلك من وجوه:

١ - أنه الكتاب الذي وصفه الله ﷻ بأنه أحسن الحديث.

٢ - وأنه الكتاب السماوي الوحيد الذي تكفل الله ﷻ بحفظه، كما أنه الكتاب المهيمن على الكتب التي قبله، وهو الوحيد الذي تحدى الله ﷻ البشر أن يأتوا بسورة من مثله.

الوجه السابع: كون نبيها أفضل الأنبياء والرسل، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

الوجه الثامن: تقديمها على الأمم في الحشر والحساب ودخول الجنة مع كونها آخر الأمم.

الوجه التاسع: كونها أكثر أهل الجنة<sup>(١)</sup>.

كما ظهرت خيريتها في جهادها الكفر والباطل، وإقرارها للعدل والحق عملاً بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّهُ أَوْ تَعْرِضُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]، فهم لا يظلمون من خالطهم منهم أو من غيرهم<sup>(٢)</sup>.

وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ على أقوال:

- ١ - كنتم في اللوح المحفوظ<sup>(٣)</sup>.
- ٢ - كنتم منذ آمنتم خير أمة<sup>(٤)</sup>.
- ٣ - كنتم بمعنى الدوام<sup>(٥)</sup>.
- ٤ - كنتم، أي: فيما يتسامعه الأمم<sup>(٦)</sup>.
- ٥ - كنتم خير أهل طريقة بمعنى أن الأمة هي الطريقة، وخير أهل دين كان للناس؛ لأنهم لا يظلمون من خالطهم منهم أو غيرهم فجعلهم خير الناس للناس<sup>(٧)</sup>. وليس بين هذه الأقوال اختلاف تضاد، وإنما هو اختلاف تنوع.

(١) انظر: الوسطية للدكتور علي الصلابي من ص ٨٩ إلى ص ١١٣ باختصار وتصرف.

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٢/٩٠).

(٣) معاني القرآن للفراء (١/٢٢٩)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/٤٥٦)، معاني القرآن الكريم للنحاس (١/٤٥٩)، بحر العلوم للسمرقندي (١/٢٦٣).

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/٤٥٦)، معاني القرآن الكريم للنحاس (١/٤٥٩).

(٥) تفسير الجواهر الحسان للثعالبي (١/٢٨٣).

(٦) غرائب القرآن للنيسابوري (١/١٧٥).

(٧) جامع البيان لابن جرير الطبري (١/٦٢)، بحر العلوم للسمرقندي (١/٢٦٣).

كما اختلف المفسرون<sup>(١)</sup> في بيان المقصود بالخطاب في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ على أقوال:

- ١ - خوطب به أصحاب النبي ﷺ وهو يُعْمُ سائر أمة محمد ﷺ<sup>(٢)</sup>.
- ٢ - هم أصحاب النبي ﷺ خاصة، قال عمر بن الخطاب ﷺ: هذه لأولنا ولا تكون لآخرنا<sup>(٣)</sup>.
- ٣ - هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، وهو قول ابن عباس ﷺ حيث نزلت في الذين هاجروا مع الرسول ﷺ إلى المدينة<sup>(٤)</sup>.
- ٤ - جميع المؤمنين من هذه الأمة إذا قاموا بالشروط التي وصفهم الله ﷻ بها في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. قال الطبري ﷺ: «وهو أولى هذه الأقوال بالصواب»<sup>(٥)</sup>، وقال ابن كثير ﷺ: «والصحيح أن الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه»<sup>(٦)</sup>، ووافقهما ابن عطية بقوله: «الإشارة بقوله: ﴿أُمَّةٍ﴾ إلى أمة محمد ﷺ، والصحابة خيرها، فيكون قوله تعالى: ﴿أُمَّةٍ﴾ اسم جنس كأنه قيل لهم كتتم خير الأمم، ويؤيد هذا التأويل كونهم شهداء على الناس»<sup>(٧)</sup>.

### ٣ - الوسطية:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].  
تعني كلمة الوسط في كلام العرب الأخير والأجود، كما يقال: قريش

- (١) والمقصود هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد.
- (٢) معاني القرآن وإعراجه للزجاج (٤٥٦/١)، بحر العلوم للسمرقندي (٢٦٣/١).
- (٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (٥٩/٣)، معالم التنزيل للبخاري (٨٩/٢)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤٨٩/١).
- (٤) جامع البيان لابن جرير الطبري (٥٩/٣)، معالم التنزيل للبخاري (٨٩/٢)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤٨٩/١).
- (٥) جامع البيان لابن جرير الطبري (٦٠/٣).
- (٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٩٤/٢).
- (٧) المحرر الوجيز لابن عطية (٤٨٩/١).



أوسط العرب نسباً وداراً، أي: خَيْرُهَا. وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه أي: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى: التي هي أفضل الصلوات.

والله - تعالى ذكره - إنما وصفهم بأنهم أمة وسطاً لتوسطهم في الدين فلا هم أهل غُلُوِّ كالنصارى، ولا هم أهل تقصير كاليهود الذين بدلوا كتاب الله ﷻ وقاتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم ﷻ، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال.

وسُمُّوا بذلك لعدالتهم وحكمهم بالنقسط، فهم يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود. وفي الآية دلالة على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ لإطلاق قوله تعالى: ﴿وَسَطًا﴾<sup>(١)</sup>.

إنها الأمة الوسط بكلِّ معاني الوسط، سواء كانت الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي والحسي.

إنها الأمة الوسط في التصوُّر والاعتقاد، لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي إنما تتبَّع الفطرة، وتعطي لهذا الكيان حقه المتكامل من كل زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها.

إنها الأمة الوسط في التفكير والشعور، لا تجمد على ما عملت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة، ولا تتبع كل ناعق، إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول، ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب، شعارها الدائم: الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها.

ولقد حققت هذه الأمة الفاضلة أسمى معنى الوسطية في الارتباطات والعلاقات، فهي لا تلغي شخصية الفرد في شخصية الجماعة أو الدولة، ولا تطلقه فرداً جشعاً لا همَّ له إلا ذاته، إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى

(١) انظر: جامع البيان للطبري (١٠/٢)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٥٢/١)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١٥٧/١).

الحركة والنماء، وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه .  
إنها الأمة الوسط في المكان؛ فهي في سرّة الأرض وفي أوسط بقاعها،  
تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب وجنوب وشمال فهي تشهد الناس  
جميعاً وعلى الناس جميعاً.

وهي الامة الوسط في الزمان؛ تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها  
وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها، وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما  
علق بها من أوهام وخرافات في عهد طفولتها، وتصدها عن الفتنة بالعقل  
والهوى، وتزواج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - العالمية<sup>(٢)</sup> :

إن الأمة المسلمة ليست أمة إقليمية ولا قومية إنها أمة الأرض كلها  
والناس جميعهم، بل وضعها الله مقام الأستاذية للبشرية جميعها، والهداية  
للناس كافة وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا  
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا  
لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى  
اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:  
١٤٣]، كما قال ﷺ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ  
عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ  
الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

فهي أمة لم تنبت وحدها إنما أنبتتها مُنبت، وأخرجها مُخرج،  
وهو الله ﷻ، ولم يخرجها لتتوقع على نفسها وتعيش في حدودها، إنما  
أخرجها ﴿لِلنَّاسِ﴾ لكل الناس، فهي أمة مبعوثة للعالمين، وكتابها أنزل ذكرًا  
للعالمين، ونيبها أرسل رحمة للعالمين<sup>(٣)</sup>.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (١/١٢٥).

(٢) سيتم شرح هذه الصفة بتوسع في الفصل القادم إن شاء الله، وإنما أفردتها بالحديث  
لقيام مفهوم مناهض لعالمية الإسلام وهو العولمة المعاصرة، فكان من اللازم التفصيل  
في بيان مفهومها، وأهدافها، ومقارنتها بمفهوم العولمة وأهدافها.

(٣) انظر: من أجل صحوة راشدة للقرضاوي ص ١٣٩.

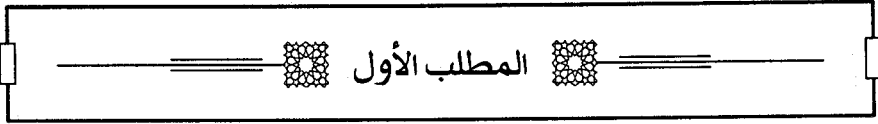
## المبحث الثاني

# خصائص الأمة المسلمة في الدنيا والآخرة

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: خصائص الأمة المسلمة في الدنيا.

المطلب الثاني: خصائص الأمة المسلمة في الآخرة.



## خصائص الأمة المسلمة في الدنيا

خصَّ الله ﷻ الأمة المسلمة التي اصطفاهَا على غيرها من الأمم، واختارها لتؤدي رسالة الأنبياء في الأرض بخصائص عظيمة في الدنيا، ناسبت الدور الملقى على عاتقها، وأعانتهَا لتؤديه على الوجه الأكمل، وكانت تلك الخصائص بمثابة الشعار المعلن عن ماهيتها ودورها وأهدافها، والإعلان الواضح للشريعة التي ستحكم بها، والبيان للناس كافة أنها الأمة الباقية الحاكمة المنصورة بإذن الله ﷻ، وأنه ﷻ قد كتب لها البقاء والنصرة على يد الطائفة الباقية القائمة على الحق إلى قيام الساعة.

أذكر هنا - على سبيل المثال لا الحصر - الخصائص التي أظهرت دورها ورسالتها، والتي أبرزت تميزها عن غيرها من الأمم، وبينت مكانتها ومنزلتها في الدنيا والآخرة:

### ١ - المسلمون شهداء الله في الأرض:

المسلمون هم شهداء الله ﷻ في الأرض، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

هذه الأمة شهداء الله في الأرض، والشهادة تستلزم الحضور والإمام، فالله ﷻ أراد من هذه الأمة المسلمة أن تقوم بدور الشهادة. وهذا الدور يتطلب منها التواجد المستمر في حياة الناس، والتعايش الدائم معهم، لتحقيق دورها في الحياة بإحقاق الحق، وإقرار العدل. فهي الأمة المسؤولة عن كل الناس؛ من أسلم منهم، ومن لم يسلم تدفع الظلم، وتقر العدل، وتشر الخير لأنها في مقام المسؤولية أمام الجميع، فهي مكلفة من الله ﷻ للقيام بهذا الدور، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ

الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴿[الحج: ٧٨]. ولكي تقوم الأمة المسلمة بدور الشهادة يجب أن تمتلك الوسائل التي تعينها على ذلك، وهذه الوسائل كثيرة جداً ومتداخلة، ويتطلب الحديث عنها إلى الكثير من الوقت، نكتفي بذكر أهمها وهو:

١ - التمسك بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ أي: التمسك بالشرعية السمحة والعمل بها وتطبيقها في الحياة بشكل واضح بحيث تعمل هذه الشرعية على إبراز هوية الأمة المسلمة وتعمق وجودها في الحياة.

٢ - الهيمنة ولا يُقصد بها استعمار الناس واستعبادهم والقضاء على خصوصياتهم، وإنما الهيمنة التي تمكن الأمة المسلمة من الإمساك بأطراف الموضوعات المتشعبة، ومن ثم العمل على حل تلك الموضوعات بالطرق التي تملئها عليها الشرعية الربانية القاضية بأسس العدالة المطلقة بين الناس، مع الاحتفاظ بالسنن الربانية القاضية ببقاء مراكز الوحي ومهد الرسالات بأيدي المسلمين.

٣ - أن يكون قرار الأمة المسلمة هو القرار النافذ بين الناس جميعاً (ولعلنا في ظل الظروف الراهنة التي تحياها الأمة المسلمة نستبعد ذلك)، ولكن بقراءة النصوص الشرعية، وبالعودة إلى تاريخ الإسلام العامر، وبمراجعة أحوال خلافته نرى أن ذلك ليس بغريب، بل هو الوضع الصحيح الذي يجب أن يسعى أفراد الأمة المسلمة جاهدين إلى أن يكون، وبدونه لن تنعم البشرية بالعدالة، وأول مظلوم هو الأمة المسلمة وأفرادها، فالله لم يرض لهذه الأمة بأنصاف الحلول، ولن يرضى بأن يهشم دورها، أو أن يُطأ رأسها فترضى بالظلم المتناهي، والقهر والاستعباد الذي فرض عليها عندما تخلت عن دورها، وعندما ألبسها أعداؤها ثوباً غير ثوبها، وغسلوا عقول أهلها وهزموهم نفسياً قبل أن يهزموهم مادياً والله ﷻ يقول لأمتة: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩] فإن كانت الأمة تؤمن وتعتقد أنها الأعلى، وأنها منصوره بإذن الله، وأن سبيل نصرها مرهون بنصرتها لربها ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وأن الله ﷻ ناصرها لا محالة، وهذه هي سنته ﴿فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] فما عليها

إلا أن تعمل جاهدة على أن تعيد كفة القيادة إليها، وأن تعود بسفينة الحياة التي تاهت في محيطات الغي والظلام والحق والجهل إلى دروب الأمن والاستقرار والعدل، ولا بد أن تعلم أنها لتحصل على ذلك لا بد أن تعيد قراءة البيعة المعقودة ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْلِبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ وَيُقْبَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوَزُّنِ وَالْإِنجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَشِرُوا بَيْنَكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١]، وإلا فكيف ستكون شاهدة؟ إلا إذا فهمت معنى الشهادة أنه النظر والصمت! وهذا ليس هو المقصود من إخراج الأمة للناس، بل مقصود ذلك أن تحضر دائماً وأبداً في كل التطورات والأحداث، وأن تحكم بين الأطراف بالعدل، وأن ترغم الجميع على العمل بما تُمليه عليها شريعتها، وعندها لهم حكم أنفسهم وإلا فالقوة، لإقرار حكم الله ﷻ في عباده والمقتضي رفع الظلم عنهم، وهدايتهم إلى سبيل الرشاد.

ومما تعنيه الشهادة كذلك هو حكم العدول الأخيار من هذه الأمة على الأموات، فشهادتهم في الأموات مقبولة، لحديث أنس بن مالك ﷺ، قَالَ: مَرُّ بِجَنَازَةٍ فَأَثْنُوا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (وَجَبَتْ)، ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنُوا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: (وَجَبَتْ) فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ ﷺ: (هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ. أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ)<sup>(١)</sup>. وفي قوله ﷺ: (وَجَبَتْ) أي: الجنة لذي الخير، والنار لذي الشر، والمراد بالوجوب: الثبوت، والأصل أنه لا يجب على الله ﷻ شيء بل الثواب فضله والعقاب عدله، لا يُسأل عمَّا يفعل.

وفي قوله ﷺ: (أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ) المقصود بهم الصحابة رضوان الله عليهم، ومن كان على صفتهم من الإيمان، والظاهر أن الذي أثنوا عليه شراً كان من المنافقين، ويرشد إلى ذلك أن النبي ﷺ لم يُصل على الذي أثنوا عليه شراً وصل على الآخر<sup>(٢)</sup>.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (١٣٦٧).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٣/٣٩٣).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (الْمُؤْمِنُونَ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ)<sup>(١)</sup>، فكل مسلم مات فآلهم الله ﷻ العدول من الناس والصالحين منهم الثناء عليه كان ذلك دليلاً على أنه من أهل الجنة سواء كانت أفعاله تقتضي ذلك أم لا، وإن لم تكن أفعاله تقتضيه فلا تحتم عليه العقوبة بل هو في المشيئة، فإذا آلهم الله ﷻ الناس الثناء عليه استدللنا بذلك على أنه ﷺ قد شاء المغفرة له، وبهذا تظهر فائدة الثناء وقوله ﷺ: (وَجَبَتْ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ)، ولو كان لا ينفعه ذلك إلا أن تكون أعماله تقتضيه لم يكن للثناء فائدة، وقد أثبت النبي ﷺ له فائدة. وهذا الحديث محمول على أن الذي أثنوا عليه شراً كان مشهوراً بنفاق أو نحوه<sup>(٢)</sup>. وأما شهادة هذه الأمة على الأمم يوم القيامة، فسيأتي الحديث عنها في المطلب الثاني.

## ٢ - صفوف أمة الإسلام كصفوف الملائكة:

قال تعالى: ﴿وَالصَّفْوَتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١]، وقال ﷻ: ﴿وَلِنَّا لَنَعْنُ الصَّافُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥]. وَعَنْ حُدَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِداً، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُوراً إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ)<sup>(٣)</sup>، ففي كل صلاة يستشعر رجال أمة محمد ﷺ أنهم واقفون صفاً واحداً، ويداً واحدة، وقلباً واحداً، وهذا يُعوّدهم على الوقوف في وجه الأعداء بقوة وصلابة، يستمدون دعمهم الروحي من الاتصال بالله ﷻ، ودعمهم المادي من التصاق أجسادهم، وتلاحم أصواتهم، وهم يُؤمّنون خلف إمامهم، وهذا ما فضل الله ﷻ به هذه الأمة؛ أمة القوة والجهاد والثبات على غيرها، ولذلك كان المصطفى إذا ادلهمت الخطوب قنت في صلاته، وسأل ربه وأمن المسلمون من خلفه، فاستشعروا قوتهم المرتبطة بخالقهم، ومن يملك أن يغلبهم، والله غالب على أمره ﷻ.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٢٦٤٢.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٢٢/٧).

(٣) صحيح مسلم (٣١١/١) حديث رقم (٥٢٣).

إنه الصف الواحد، والقلب الواحد، والكيان الواحد، الذي يصف كما تصف الملائكة، ويوضح حديث رسول الله ﷺ الآتي كيفية صف الملائكة، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: (أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةَ عِنْدَ رَبِّهَا؟)، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةَ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: (يُمُتُونَ الصُّفُوفَ الْأُولَى، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ) (١).

روى ابن جريح عن الوليد بن أبي عبد الله بن أبي مغيث (٢) رحمهم الله قال: كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٥)، أي: نقف صفوفاً في الطاعة كما تقدم عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا﴾ (١٦٦). وقال أبو نضرة (٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا أُقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً يريد الله بكم هدي الملائكة، ثم يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٥) تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر. وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٥) أي: الملائكة (٤).

### ٣ - إمامتهم لعيسى ﷺ :

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) [النساء: ١٥٧ - ١٥٨].

- (١) صحيح مسلم (٢٧٠/١) حديث رقم (٤٣٠).
- (٢) الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث مولى بني عبد الدار، حجازي ذكره ابن حبان في الثقات. انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (٩٠/٦).
- (٣) هو أبو نضرة، واسمه المنذر بن مالك بن قُطعة من العَوْقَةَ، وهو بطن من عبد القيس الإمام، المحدث الثقة، أبو نضرة العبدي ثم العوقتي ثم البصري، كان كثير الحديث وذكره ابن حبان في الثقات، وقال أحمد بن حنبل: ثقة وكان من فصحاء الناس، فُلج في آخر عمره، وتوفي سنة ثمان أو تسع ومائة. انظر: الطبقات لابن سعد (٧/٢٠٨)، تهذيب التهذيب لابن حجر (٥٣٧/٥)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٢٩/٤).
- (٤) تيسير العلي القدير لاختصار ابن كثير (٢١/٤).



هذه الآية واردة في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام إلى الأرض من السماء آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يصلي مع المسلمين ويأتهم بإمامهم.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَى صَلِّ لَنَا؟ فَيَقُولُ: لَا. إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أَمْرَاءٌ، تَكْرِمَةً لِلَّهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ<sup>(١)</sup>). إن هذا من أعظم التكريم لهذه الأمة، ومن أعظم الأدلة على أنها الوحيدة التي يجب أن تؤم العالم أجمع، كما يستنتج من الحديث أنه لا يكون هناك أمير على هذه الأمة، وأنها هي المستأمرة على الناس، فإن أبى رسول الله عيسى عليه السلام ذلك، فهل هناك من هو أحق بذلك ممن هو دونه من الناس؟ وفي ذلك دلالة واضحة على فساد كل إمارة سوى إمارة الإسلام وأهله.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخَنزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضُ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ)<sup>(٢)</sup>، وفي الأحاديث بيان على نزول عيسى ابن مريم عليه السلام حاكماً بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم آخر الزمان، وإكرام الله تعالى هذه الأمة - زادها الله شرفاً - وبيان الدليل على أن هذه الملة لا تنسخ، وأنه لا تزال طائفة منها ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة. ففي قوله صلى الله عليه وسلم: «لَيُوشِكَنَّ» معناه: ليقربن، وقوله: «فِيكُمْ» أي: في هذه الأمة، وقوله صلى الله عليه وسلم: «حَكَمًا» أي: ينزل حاكماً بهذه الشريعة، لا ينزل نبي برسالة مستقلة وشريعة ناسخة، بل هو حاكم من حكام هذه الأمة، «فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ» معناه: يكسره حقيقة، ويبطل ما يزعمه النصارى من تعظيمه. وفيه دليل على تغيير المنكرات وآلات الباطل، وقتل الخنزير من هذا القبيل.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ» فالصواب في معناه أنه لا يقبلها، ولا يقبل من الكفار إلا الإسلام، ومن بذل منهم الجزية لم يكف عنه بها بل لا

(١) صحيح مسلم (١٢٤/١) حديث رقم (١٥٦).

(٢) صحيح مسلم (١٢٢/١) حديث رقم (١٥٥).

يقبل إلا الإسلام أو القتل، «وَيَفِيضُ الْمَالَ» - بفتح الياء - ومعناه: يكثر وتنزل البركات وتكثر الخيرات، بسبب العدل وعدم التظالم، وتقيء الأرض أفلاذ أكبادها وتقل أيضاً الرغبات، لقصر الآمال وعلمهم بقرب الساعة، فإن عيسى ﷺ عَلَّمَ من أعلام الساعة<sup>(١)</sup>. ومعنى ذلك أن الإسلام هو الدين الوحيد الباقي إلى قيام الساعة، حتى إذا نزل عيسى ﷺ حكم به على جميع أصحاب الملل ولا يجعل له مقابل، فإما الإسلام أو القتل.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ؟)<sup>(٢)</sup>، قال ابن أبي ذئب<sup>(٣)</sup>: تَدْرِي مَا أَمَّكُمْ مِنْكُمْ؟ قُلْتُ تُخْبِرُنِي؟ قَالَ: فَأَمَّكُمْ بِكِتَابِ رَبِّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ<sup>(٤)</sup>.

وعلى تقدير أن يكون عيسى ﷺ إماماً فمعناه؛ أنه يصير معكم بالجماعة من هذه الأمة، وعلى تقدير أنه مأموم بصلاته خلف رجل من هذه الأمة مع كونه في آخر الزمان وقرب قيام الساعة دلالة للصحيح من الأقوال أن الأرض لا تخلو عن قائم لله ﷻ بحجة<sup>(٥)</sup>.

#### ٤ - تسميتهم بالمسلمين واختصاصهم بالإسلام:

قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

مما خصَّ الله تعالى به هذه الأمة أن سمَّاهم المسلمين في القرآن

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٣٦٦/٢).

(٢) صحيح البخاري ص ٧١٠ حديث رقم ٣٤٤٩.

(٣) هو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب، من بني عامر بن لؤي من قريش، تابعي من رواة الحديث، من أهل المدينة وكان يفتي بها، يشبه بسعيد بن المسيب، أفضل بني عصره، ذكره ابن حبان في الثقات توفي سنة ثمان وخمسين ومائة هجرية. انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (١٩٥/٥)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٤١/٧)، والأعلام للزركلي (١٨٩/٦).

(٤) صحيح مسلم (١٢٣/١) حديث رقم ١٥٥.

(٥) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦١١/٦).

الكريم، وفي الكتب السماوية السابقة، ليكون عَلَمًا عليهم، وتكريماً لهم، وَرَفْعَةً لَشَأْنِهِمْ، فقد سماهم الله ﷻ بما دَعَا به أنبيأؤه الأوفياء ﷺ، فقد وردت الكثير من الآيات في القرآن الكريم على لسان الأنبياء يسألون الله ﷻ أن يجعلهم مسلمين، وأن يتوفاهم على الإسلام، ومن تلك الآيات - على سبيل المثال لا الحصر - قوله تعالى على لسان إبراهيم ﷺ وابنه إسماعيل ﷺ: ﴿وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقوله ﷻ على لسان يوسف ﷺ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١] إلى غير ذلك من الآيات.

وفي تسميتهم بالمسلمين دلالة على الاستسلام والانقياد والتوجه إلى الله ﷻ. عن الحارث الأشعري<sup>(١)</sup> رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِخَمْسِ أَمْرٍ أَمَرَني بِهِنَّ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهَجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ. فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ جُنَا جَهَنَّمَ)، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: (وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ)<sup>(٢)</sup>.

## ٥ - خير الأمم وأكرمها على الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(١) هو الحارث بن الحارث الأشعري الشامي، صحابي يكنى أبا مالك، أسلم وصحب النبي ﷺ وروى عنه في أهل الشام. انظر: الطبقات لابن سعد (٣٥٩/٤)، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٣٨٢/١)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٢٧٥/١).

(٢) الترمذي (١٣٦/٥) حديث رقم ٢٨٦٣ وقال: حديث حسن صحيح غريب. ومعنى قوله ﷻ: (فقد خلع أي: نزعها، وربقة الإسلام، بكسر الراء وسكون الموحدة هي في الأصل عروة في حبل يجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها فاستعارها للإسلام، يعني: ما شد المسلم به نفسه من عرى الإسلام أي: حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه. فيكون المعنى: فقد نبذ عهد الله وأخفَر ذمته التي لزمته أعناق العباد لزوم الربقة. انظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع صحيح الترمذي للمباركفوري (١٦٣/٨).

عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: (إِنَّكُمْ تَتَمُونُ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ)<sup>(١)</sup>.

## ٦ - كمال الدين وإتمام النعمة للأمة المسلمة:

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

امتَنَ اللهُ ﷻ على هذه الأمة بأن أكمل لها الدين، وأتمَّ عليها النعمة، ورضي لها الإسلام ديناً، ولم يكن ذلك إلا لهذه الأمة. ولقد وصف الله ﷻ هذا الدين الذي اختاره للأمة المسلمة بالكمال، كما وصف النعمة التي أسبغها عليهم بالتمام إيداناً بأن هذا الدين لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيداناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إيَّاهَا بعد إذ أعطاهمها، بل يتمُّها لهم بالدوام في هذا الدار وفي دار القرار، وأضاف الله ﷻ الدين لهم لأنهم هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومُسديها والمُنعم بها عليهم<sup>(٢)</sup>.

وفي إتمام النعمة ثلاثة أقوال:

- ١ - منع المشركين من الحج معهم، قاله ابن عباس وابن جبير وقتادة.
- ٢ - الهداية إلى الإيمان، قاله ابن زيد.
- ٣ - الإظهار على العدو، قاله السدي<sup>(٣)</sup>.

وقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ليس معناه أن الشرائع السابقة كانت ناقصة، بل كانت كافية في ذلك الوقت، وأما في آخر الزمان فقد أنزل الله ﷻ شريعة كاملة، وحكم ببقائها إلى يوم القيامة، فلاجل هذا قال ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ يعني بإكمال الشريعة

(١) سنن الترمذي (٢١١/٥) حديث رقم ٣٠٠١ وقال: حديث حسن، المستدرك للحاكم

(٢) (٨٤/٤) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (١٠٠/٢).

(٣) زاد المسير لابن الجوزي (١٧١/٢).

والدين؛ لأنه لا نعمة أتم من نعمة الإسلام، وبإنجاز ما وعدهم الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَلَأَتِمَّ بِكُمْ بِمَا بَعَثْنَا فِيكُمْ مِنْ رَسُولٍ مِنْ رَبِّكُمْ إِنَّكُمْ لَعِنْدَهُ بِمَا كَفَرْتُمْ لَعِينُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠]، فكان تمام النعمة فتح مكة المكرمة.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ يعني اخترته لكم من بين الأديان، وأذنتكم بأنه هو الدين المرضي وحده، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه. أو معناه: الانقياد لأمرى فيما شرعت لكم من الفرائض والأحكام والحدود ومعالم الدين الذي أكملته لكم<sup>(١)</sup>.

وفي قوله تعالى ﴿أَيُّومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهو ما كلف الله ﷻ به الأمة من مجموع العقائد والأعمال والشرائع والنظم، فإكمال الدين هو إكمال البيان المراد لله تعالى، فكان بعد نزول أحكام الاعتقاد والتي لا يسع المسلمين جهلها، وبعد تفاصيل أحكام قواعد الإسلام - والتي آخرها الحج - بالقول والفعل، بحيث صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنة كافياً في هداية الأمة في عبادتها، ومعاملاتها، وسياستها في سائر عصورها بحسب ما تدعو إليه حاجتها، فقد كان الدين وافياً في كل وقت بما يحتاجه الناس<sup>(٢)</sup>.

والمراد أيضاً بإكمال الدين: أن الأحكام صارت غير قابلة للنسخ، وأصبحت مؤبدة صالحة لكل زمان ومكان، وإكمال الدين: إتمامه في نفسه وفي ظهوره. أما إتمامه في نفسه فباشتماله على الفرائض والحلال والحرام، والتنصيص على أصول العقائد، وأسس التشريع، وقوانين الاجتهاد، كقوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، وقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ [الشورى: ١١]<sup>(٣)</sup>.

وعن عمر بن الخطاب أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين! آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً،

(١) انظر: محاسن التأويل للقاسمي (٤٦/٦).

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٣/٢).

(٣) انظر: التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٨٥/٦).

قال: أي آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ قَائِمٌ بِعِرْقَةِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ)<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ<sup>(٢)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَتِ الْيَهُودُ لِعُمَرَ: لَوْ عَلَيْنَا، مَعَشَرَ يَهُودٍ، نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، نَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي أُنزِلَتْ فِيهِ، لِأَتَّخِذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا. قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: فَقَدْ عَلِمْتُ الْيَوْمَ الَّذِي أُنزِلَتْ فِيهِ وَالسَّاعَةَ وَأَيَّنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ نَزَلَتْ. نَزَلَتْ لَيْلَةَ جَمْعٍ وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعِرْقَاتٍ<sup>(٣)</sup>.

#### ٧ - رفع الإصر والحرَج عن الأمة المسلمة:

قال تعالى: ﴿هُوَ أَحَبُّكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال جل شأنه عن المنهج الذي جاء به المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

مما خصَّ الله تعالى به هذه الأمة أن رفع عنها الإصر الذي كان على من سبقها والأغلال التي كانت عليهم، فيسر عليهم دينه ولم يجعل عليهم فيه من حرج، وذلك لرأفته ورحمته وحنانه بهم.

فقد جعله الله ﷻ واسعاً يسع الكل، وكلف العبد بما يسعه. وسَّع الله ﷻ على عباده غاية التوسعة في دينه ورزقه وعفوه ومغفرته، وبسط عليهم التوبة ما

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٥، وبمثله لدى مسلم (١٨٢٦/٤) حديث رقم ٣٠١٧.  
(٢) هو طارق بن شهاب الأحمسي البجلي أبو عبد الله الكوفي، رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغزا في خلافة أبي بكر غير مرة، ومع كثرة جهاده كان معدوداً من العلماء، مات سنة ثلاث وثمانين. انظر: الطبقات لابن سعد (٦٦/٦)، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٤٥٢/٢)، تهذيب التهذيب لابن حجر (٦/٣)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/٤٨٧).

(٣) صحيح مسلم (١٨٢٦/٤) حديث رقم ٣٠١٧.

دامت الروح في الجسد، وفتح لهم باباً لها لا يغلقه إلى أن تطلع الشمس من مغربها، وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة أو صدقة أو حسنة ماحية أو مصيبة مكفرة، وجعل بكل ما حرّم عليهم عوضاً من الحلال، أنفع لهم منه وأطيب وألذ، فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام ويسعه الحلال فلا يضيق عنه، وجعل لهم بكل عسر يمتحنهم به يسراً قبله ويسراً بعده، فلن يغلب عسر يسرين. فإذا كان هذا شأنه سبحانه مع عباده فكيف يكلفهم ما لا يسعهم فضلاً عما لا يطيقونه ولا يقدرّون عليه؟ فالله ﷻ لم يجعل للناس في الدين من ضيق لا مخرج لهم منه، بل وسّع عليهم؛ فجعل التوبة والكفارة والقصاص من بعض مخارجه، فلا يذنب المؤمن إلا وله منه في دين الإسلام مخرج، وكان من أراد التوبة ممن سبق يقتل نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِلَيْكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ يَا نَحَاذِكُمْ أَلْعَجَلْتُمْ قَتُولًا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَمُ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤]، بينما التوبة في الإسلام تكون بالندم والاستغفار، والإقلاع عن الذنب، وعدم العودة إليه. وقد يكون المراد أن الله ﷻ ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق بل هو واسع. ويحتمل أن المقصود هو ما جعل في الإسلام من ضيق في أوقات فروضكم إذا التبست عليكم، بل وسّع عليكم حتى تتقنوا محلها<sup>(١)</sup>.

عن محجن بن الأدرع<sup>(٢)</sup> رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّكُمْ أُمَّةٌ أُرِيدَ بِكُمْ الْيُسْرَ)، وفي رواية أخرى له رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ، إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ)<sup>(٣)</sup>.

- (١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٠/٢٧٠)، بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٣/٢٢٥).
- (٢) هو محجن بن الأدرع الأسلمي من بني سهم كان قديماً للإسلام، روى عن النبي ﷺ، وسكن البصرة، وهو الذي اختط مسجدها، عُمر طويلاً. وهو الذي مرّ به رسول الله وهو مع قوم يرمون فقال رسول الله ﷺ: (ارموا وأنا مع ابن الأدرع). ثم انتقل محجن بن الأدرع رضي الله عنه من البصرة إلى المدينة فتوفي بها في آخر أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. انظر: الطبقات لابن سعد (٤/٣١٦)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٤/٢٩٣)، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣/٣٦٦).
- (٣) مسند الإمام أحمد (٥/٣٢)، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٤/١٧٨) حديث رقم ١٦٣٥ قال الألباني: هذا إسناد صحيح.

## ٨ - خُصَّتْ بِصَلَاةِ الْعِشَاءِ :

ومما خصَّ الله ﷻ به هذه الأمة دون غيرها صلاة العشاء، وكان ذلك سبباً في فرح صحابة رسول الله ﷺ عندما أخبرهم باختصاصهم بهذه العبادة التي هي نعمة عظمى مستلزمة للمثوبة الحسنى.

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَكُنَّا ذَاتَ لَيْلَةٍ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ فَخَرَجَ إِلَيْنَا حِينَ ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ بَعْدَهُ، فَلَا نَدْرِي أَشَيْءٌ شَعَلَهُ فِي أَهْلِهِ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ، فَقَالَ حِينَ خَرَجَ: (إِنَّكُمْ تَنْتَظِرُونَ صَلَاةَ مَا يَنْتَظِرُهَا أَهْلُ دِينِ غَيْرِكُمْ وَلَوْلَا أَنْ يَثْقَلَ عَلَى أُمَّتِي لَصَلَّيْتُ بِهِمْ هَذِهِ السَّاعَةَ)، ثُمَّ أَمَرَ الْمُؤَذِّنَ فَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَلَّى (١).

وفي رواية أخرى لمسلم عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (عَلَى رِسَالِكُمْ أَعْلَمُكُمْ وَأَبْشِرُوا أَنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ يُصَلِّي هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ) أَوْ قَالَ: (مَا صَلَّيْتُ هَذِهِ السَّاعَةَ أَحَدًا غَيْرُكُمْ)، قَالَ أَبُو مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَرَجَعْنَا فَرَحِينَ بِمَا سَمِعْنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٢).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَأَصْحَابِي الَّذِينَ قَدِمُوا مَعِي فِي السَّفِينَةِ نَزُولًا فِي بَقِيعِ بَطْحَانَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ. فَكَانَ يَتَنَوَّبُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، كُلَّ لَيْلَةٍ، نَفَرٌ مِنْهُمْ. قَالَ أَبُو مُوسَى: فَوَافَقْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَأَصْحَابِي. وَلَهُ بَعْضُ الشُّغْلِ فِي أَمْرِهِ، حَتَّى أَعْتَمَ بِالصَّلَاةِ، حَتَّى ابْتَهَارَ اللَّيْلُ ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى بِهِمْ. فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ: (عَلَى رِسَالِكُمْ، أَعْلَمُكُمْ، وَأَبْشِرُوا، أَنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ يُصَلِّي هَذِهِ السَّاعَةَ، غَيْرُكُمْ) أَوْ قَالَ: (مَا

(١) صحيح مسلم (٣٧٠/١) حديث رقم ٦٣٩.

(٢) صحيح مسلم (٣٧٠/١) حديث رقم ٦٤١، وقيل أن سبب فرحهم علمهم باختصاصهم بهذه العبادة التي هي نعمة عظمى مستلزمة للمثوبة الحسنى مع ما يضاف إلى ذلك من تجميعهم فيها خلف رسول الله ﷺ. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦٢/٢).



صَلَّى هَذِهِ السَّاعَةَ أَحَدٌ غَيْرِكُمْ<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (لَا تَغْلِبَنَّكُمُ الْأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمْ، إِلَّا إِنَّهَا الْعِشَاءُ، وَهُمْ يُعْتَمُونَ بِالْإِبِلِ)<sup>(٢)</sup>.

أي: إن الأعراب يسمونها العتمة، لكونهم يعتمون بحلاب الإبل؛ أي: يؤخرونه إلى شدة الظلام، وإنما اسمها في كتاب الله العشاء، في قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ [النور: ٥٨] فينبغي لكم أن تسموها العشاء<sup>(٣)</sup>.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَّرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْعِشَاءِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ قَالَ: (أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ أَهْلُ هَذِهِ الْأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللَّهُ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرِكُمْ)<sup>(٤)</sup>.

عن عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْهُ قَالَتْ: أَعْتَمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً بِالْعِشَاءِ. وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَفْشُوَ الْإِسْلَامُ فَلَمْ يَخْرُجْ حَتَّى قَالَ عُمَرُ: نَامَ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ، فَخَرَجَ فَقَالَ لِأَهْلِ الْمَسْجِدِ: (مَا يَنْتَظِرُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ غَيْرِكُمْ)<sup>(٥)</sup>.

## ٩ - تجديد أمر دينها:

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ

﴾ [الصف: ٨].

إن من رحمة الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الأمة أن جعل لها بعد نبينا ورثة يأخذون بأيدي الناس، ويهدونهم إلى الحق؛ لأن إرادة الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاءت بقاء هذا الدين وانتشاره، فإذا أُغلق باب النبوة، فقد فُتِح باب التجديد وهو باب ممتد في شعاب الزمن إلى قرب قيام الساعة، فكلما بَعُدَ الناس عن الدين، وكلما زاد

(١) صحيح مسلم (٣٧٠/١) حديث رقم ٦٤١.

(٢) صحيح مسلم (٣٧٢/١) حديث رقم ٦٤٤.

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٤٤/٥) باب (وقت العشاء وتأخيرها).

(٤) مسند الإمام أحمد تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين (٣٠٤/٦) حديث رقم ٣٧٦٠.

وقال: الحديث صحيح لغيره.

(٥) صحيح البخاري ص ١١٧ حديث رقم ٥٦٦.

الانحراف هياً الله ﷻ أحد أسبابه فأنقذ هذه الأمة من الغرق.

فالتجديد شريعة قائمة، وَقَدَّرَ نافذ لا بد أن يقع وأن يحصل، وما يميز هذا المجدد أنه متجرد عن نفسه وهواه، يعمل ليجدد الدين، ويعيد الناس إلى طريق الصواب؛ فهو يعيش للأمة ويعمل لها على المستوى الكبير، والمجدد عبد يختاره الله ﷻ من أمة محمد ﷺ في كل قرن ليقوم بدور خالد في حياة الأمة وهو إعادة الناس إلى ربهم، وتجديد روح العقيدة فيهم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا)<sup>(١)</sup>. وقال العلماء: إن المراد بهذا الحديث أنه يعم حملة العلم من كل طائفة، وكل صنف من أصناف العلماء من مفسرين ومحدثين وفقهاء ونحاة ولغويين<sup>(٢)</sup>.

## ١٠ - جعلت لها الأرض مسجداً وطهوراً:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْمَاءِ فَلَئِمَّ إِلَيْهَا فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤٣].

ومما خصَّ الله به هذه الأمة: أن جعل لها الأرض مسجداً وطهوراً فأیما رجل من المسلمين أدركته الصلاة ولم يجد الماء تيمم وصلى وصحت صلاته. كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَإِيْمًا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ..)<sup>(٣)</sup>.

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثِ:

(١) المستدرک للحاکم (٥٢٢/٤)، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (١٥٠/٢) حديث رقم ٥٩٩ وقال: السند صحيح، ورجاله ثقات رجال مسلم.

(٢) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للسخاوي ص ١٥٠.

(٣) صحيح البخاري ص ٩٣ حديث رقم ٤٣٨.

جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِداً، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُوراً إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ<sup>(١)</sup>. وقوله ﷺ: (مَسْجِداً) معناه: أن من كان قبلنا إنما أبيح لهم الصلوات في مواضع مخصوصة كالكنائس والبيع، وكانوا لا يصلون إلا فيما تيقنوا طهارته من الأرض، وخصّصنا نحن بجواز الصلاة في جميع الأرض إلا ما تيقننا نجاسته<sup>(٢)</sup>، ولقد ورد ذكر أماكن العبادة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَاصْلَوْا لِلَّهِ وَارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحج: ٤٠] والصوامع هي المعابد الصغار للربان، والبيع أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، والصلوات هي الكنائس، وأما المساجد فهي للمسلمين<sup>(٣)</sup>.

## ١١ - لن تهلك بجوع ولن يُسلطَ عليها عدو غيرها:

ومما خصَّ الله تعالى به هذه الأمة: ألا تهلك بالسنين والغرق، وألا يُسلطَ عليها عدوٌّ من غيرها فيستبيح بيضتها، فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَزْبَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ. وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ. وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا)<sup>(٤)</sup>.

وفي هذا المعنى يروي لنا عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنه أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي ثُنْتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً؛ سَأَلْتُ رَبِّي أَلَّا يُهْلِكَ

(١) صحيح مسلم (٣١١/١) حديث رقم ٥٢٢.

(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٧/٥).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/٤٣٥).

(٤) صحيح مسلم (١٧٥٤/٤) حديث رقم ٢٨٨٩.

أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَنِهَا<sup>(١)</sup>.

وفي قوله (فَيَسْتَبِيحُ بِيَضْتَهُمْ) أي: جماعتهم وأصلهم، والبيضة تُطلق ويُراد بها العز والملك، والمعنى: أن الله أعطى رسوله محمداً ﷺ أن لا يهلك أمته بقحط يعمهم، بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام، فله الحمد والشكر على جميع نعمه وأفضاله.

ومجمل هذه الأحاديث تدل على أن النبي ﷺ طلب من الله أن لا يهلك أمته بقحط عام شائع لجميع بلاد المسلمين، وأن لا يُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم لأن العدو من أنفسهم أهون ولا يحصل به الهلاك الكلي، كي لا يستأصل بيضتهم أي: مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقر دعوتهم، وبيضة الدار: وسطها ومعظمها، قيل: أراد عدواً يستأصلهم ويهلكهم جميعهم<sup>(٢)</sup>. ويستدل من الأحاديث السابقة أن الأمة المسلمة لن تهلك على يد عدوها مهما بَلَغَ هذا العدو من القوة والعتاد، ومهما علا وانتفش! فهذا قضاء الله ﷻ الذي لا يُرد، وتكرمة الله ﷻ لهذه الأمة وإجابة لدعاء الرسول ﷺ، وعليه فما يحدث للأمة المسلمة من انهزام ظاهر وتسلط أعدائها على بعض مناطقها لا يعني استئصالها أبداً؛ لأنَّ هلاك الأمة المسلمة لن يكون على يد عدوهم مهما كانت قوتهم، وهذا يقوِّي الجانب النفسي لأفرادها، ويدفعهم للعمل الجاد على دفع يد الظلم، وضربها بشدة والقيام من جديد، فعملاق هذه الأمة وإن انحنى في بعض الفترات فهو قويٌّ شامخ في كل وقت وحين. وعليه فعلى الأمة معالجة الخلافات الداخلية والعمل على إيجاد العناصر المؤمنة المخلصة الواعية في الأمة المسلمة، وتربية جيل الشهادة والجهاد، وجمع الصف المسلم على مختلف الأصعدة، لتكوين الدرع الصلب الذي لا يمكن كسره أو خرقه.

(١) صحيح مسلم (١٧٥٥/٤) حديث رقم ٢٨٩٠.

(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢٢٢/١٨)، تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي

للمباركفوري (٣٩٨/٦ - ١٣٩٩).

## ١٢ - هدايتها ليوم الجمعة:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة: ٩].

مما خصَّ الله تعالى به هذه الأمة أن هداها ليوم الجمعة الذي هو خير أيام الأسبوع، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ. وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا. وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ)<sup>(١)</sup>.

فهذا اليوم أضلَّ الله عنه كل من قبلنا من الأمم، وهذا ما دلَّ عليه حديث أبي هريرة حيث قال: قال رسول الله ﷺ: (أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتِ وَالْأَحَدِ. وَكَذَلِكَ هُمْ تَبِعَ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِيِّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ)<sup>(٢)</sup>.

وهذا الحديث فيه دليل لوجوب الجمعة، وفيه فضيلة هذه الأمة، قال القاضي: الظاهر أن الله ﷻ فرض على من قبلنا تعظيم يوم الجمعة بغير تعيين وترك الأمر إلى اجتهادهم في تعيينه ولم يهدم الله له، بينما فرضه الله على هذه الأمة المحمدية مبيناً، ولم يكله إلى اجتهادهم ففازوا بتفضيله. وقد جاء أن موسى أمرهم بالجمعة، وأعلمهم بفضلها فناظروه أن السبت أفضل فقبل له: دعهم. ويمكن أن يكونوا أمروا به صريحاً ونصَّ على عينه فاختلفوا فيه، هل يلزم تعيينه أم لهم إبداله؟ وأبدلوه وغلطوا في إبداله<sup>(٣)</sup>.

ومما أعطاه الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ وأمته يوم الجمعة الساعة التي لا يوافقها عبد مسلم مؤمن يدعو الله تعالى خيراً إلا أعطاه الله ﷻ ما طلب،

(١) صحيح مسلم (٤٩٠/٢) حديث رقم ٨٥٤.

(٢) صحيح مسلم (٤٩١/٢) حديث رقم ٨٥٦.

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٣٨٣/٦).

واستجاب له دعوته، فعن أبي هريرة؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ: (فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ) (١).

والمقصود بالساعة التي في يوم الجمعة؛ أي: التي يجاب فيها الدعاء والتي لا يصادفها مسلم قائم يصلي يسأل الله شيئاً مما يليق أن يدعو به المسلم ربه تعالى إلا أعطاه إياه.

### ١٣ - أَحَلَّتْ لَهَا الْغَنَائِمُ:

قال تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: ٦٨ - ٦٩].

ومما خصَّ الله تعالى به هذه الأمة أن أحلَّ لها أن تأكل الغنائم ولم تحل لأحد من قبلها، وذلك أنَّ الأمم التي كانت قبل أمة محمد ﷺ قسماً من الأول: من لم يؤمر بجهاد فلا غنائم عنده.

- والثاني: من أمر بجهاد ولكن كان إذا غنم يجمع الغنائم في مكان فإن كانت مقبولة نزلت نار فأحرقتها. أما أمة محمد ﷺ فقد خفف الله تعالى عنها فأباحها لها، قال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْآرِضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٩].

يقول الله تعالى لأهل بدر الذين غنموا وأخذوا من الأسرى الفداء: ولولا قضاء من الله تعالى سبق لكم أهل بدر في اللوح المحفوظ بأن الله ﷻ مُجَلِّ لَكُمْ الْغَنِيمَةَ، وَأَنَّ اللَّهَ ﷻ قَضَىٰ فِيمَا قَضَىٰ أَنَّهُ لَا يَضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ، وَأَنَّهُ لَا يَعَذِّبُ أَحَدًا شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَنَالَكُمْ مِنَ اللَّهِ ﷻ بِأَخْذِكُمُ الْغَنِيمَةَ وَالْفِدَاءَ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وذلك لأن الله ﷻ كَتَبَ فِي أَمِّ الْكِتَابِ أَنَّ الْمَغَانِمَ وَالْأَسَارِيَ حَلَالٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَلِأُمَّتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَلَّهُ لِأُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ قَبْلِهِمْ.

(١) صحيح مسلم (٤٨٨/٢) حديث رقم ٨٥٢.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت الغنائم حرام على الأنبياء والأمم، فكانوا إذا أصابوا شيئاً من الغنائم جعلوه للقربان، فكانت تنزل النار من السماء فتأكله، فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في الغنائم وأخذوا الفداء. فأنزل الله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] (١).  
 وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ)، ثم ذكر منها: (... وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ...) (٢).

وقد كانت الغنائم محرمة على كل الأمم السابقة وبيّن الحديث الآتي سنتهم فيها. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا تَبْتَغِنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمَّا بَيْنَ، وَلَا آخَرَ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا، وَلَمَّا يَرْفَعُ سُقْفَهَا. وَلَا آخَرَ قَدْ اشْتَرَى عَنَمًا أَوْ خِلْفَاتٍ، وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وَلَا دَهَاءَ. قَالَ فَعَزَا فَأَدَّتْهُ لِلْقُرْبَةِ حِينَ صَلَاةٍ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: أَنْتِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ. اللَّهُمَّ احْسِبْهَا عَلَيَّ شَيْئًا. فَحِسَّتْ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ. قَالَ: فَجَمَعُوا مَا عَنِمُوا. فَأَقْبَلَتِ النَّارُ لِتَأْكُلَهُ فَأَبَتْ أَنْ تَطْعَمَهُ. فَقَالَ: فِيكُمْ غُلُولٌ. فَلْيَبْتَغِنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَبَايَعُوهُ. فَلَصَقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ. فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ فَلْتَبْتَغِنِي قَبِيلَتِكَ، فَبَايَعْتُهُ. قَالَ: فَلَصَقَتْ بِيَدِ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ. فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ. أَنْتُمْ غَلَّئْتُمْ؟! قَالَ: فَأَخْرَجُوا مِثْلَ رَأْسِ بَقْرَةٍ مِنْ دَهَبٍ. قَالَ: فَوَضَعُوهُ فِي الْمَالِ وَهُوَ بِالصَّعِيدِ. فَأَقْبَلَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهُ. فَلَمْ تَجَلُ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِنَا ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَطَيَّبَهَا لَنَا) (٣).

وفي الحديث توضيح لعادة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في الغنائم، وذلك بأنهم كانوا يجمعونها، فتأتي نار من السماء وتأكلها، فيكون ذلك علامة لقبولها وعدم الغلول، فلما جاءت في هذه المرة فأبت أن تأكلها،

(١) انظر: جامع البيان للطبري (٦/٥٨)، معالم التنزيل للبخاري (٣/٣٧٧)، المحرر

الوجيز لابن عطية الأندلسي (٢/٥٥٢)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/٩٠).

(٢) صحيح مسلم (١/٣١١) حديث رقم ٥٢٣.

(٣) صحيح مسلم (٣/١٠٩٨) حديث رقم ١٧٤٧.

علم أن فيها غلواً، فلما ردوه جاءت فأكلتها. وكذلك كان أمر قربانهم إذا تقبل جاءت النار فأكلتها<sup>(١)</sup>

#### ١٤ - قبض نبيها قبلها:

ميز الله ﷺ الأمة الإسلامية بأنه لم يهلكها هلاكاً عاماً يستأصل شأفتها كما وقع لبقية الأمم التي كذبت نبيها، وكان ذلك رحمة بها وتفضيلاً لها وإعلاءً لشأنها، ولأن الله ﷻ قد اختارها للقيام بدور هام باق إلى قيام الساعة بينه قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢٧٩/١٢)، وفتح الباري شرح صحيح البخاري (٢٧٥/٦). وقوله في الحديث: (بضع امرأة) - بضم الموحدة وسكون المعجمة - البضع: يطلق على الفرج والتزويج والجماع، والمعاني الثلاثة لائقة هنا. ومعنى: (وَلَمَّا بَيَّنَّ بِهَا) أي: لم يدخل عليها، ومعنى (خَلِيفَاتٍ) - بفتح المعجمة وكسر اللام - جمع خلفه: وهي الحامل من النوق، وقد يطلق على غير النوق. وقوله في الحديث: (إنك مأمورة)، (وأنا مأمور) الفرق بين المأمورين أن أمر الجمادات أمر تسخير، وأمر العقلاء أمر تكليف، وخطابه للشمس يحتمل أن يكون على حقيقته، وأن الله تعالى خلق فيها تمييزاً وإدراكاً، ويحتمل أن يكون ذلك على سبيل استحضاره في النفس لما تقرر أنه لا يمكن تحولها عن عاداتها إلا بخرق العادة. وقوله: (اللهم احبسها علينا) قال القاضي عياض: اختلف في حبس الشمس هنا فقيل: ردت على أدرجها، وقيل: وقفت، وقيل: بطئت حركتها. وقوله: (إن فيكم غلواً) هو السرقة من الغنيمة. وقوله: (رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا) فيه إشعار بأن إظهار العجز بين يدي الله تعالى يستوجب ثبوت الفضل، وفيه اختصاص هذه الأمة بحل الغنيمة وكان ابتداء ذلك من غزوة بدر. وفيها نزل قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فأحل الله لهم الغنيمة. وفيه أن الأمور المهمة لا ينبغي أن تفوض إلا لحازم فارغ لها؛ لأن من له تعلق ربما ضعفت عزيمته وقلت رغبته في الطاعة، والقلب إذا تفرق ضعف فعل الجوارح وإذا اجتمع قوي. وفيه أن من مضى كانوا يغزون ويأخذون أموال أعدائهم، وأسلابهم، لكن لا يتصرفون فيها بل يجمعونها، وعلامة قبول غزوهم ذلك أن تنزل النار من السماء فتأكلها، وعلامة عدم قبوله أن لا تنزل. ومن أسباب عدم القبول أن يقع فيهم الغلول، وقد منَّ الله على هذه الأمة ورحمها لشرف نبيها عنده فأحلَّ لهم الغنيمة، وستر عليهم الغلول، فطوى عنهم فضيحة أمر عدم القبول، فله الحمد على نعمه تترى، وفيه معاقبة الجماعة بفعل سفهائها. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٢٧٣/٦)، صحيح مسلم بشرح النووي (٢٨٠/١٢).



الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ  
وَكَثُرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ [آل عمران: ١١٠].

فأكرمها الله ﷻ بقبض نبيها ﷺ قبلها ليرحمها، عَنْ أَبِي مُوسَى  
الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا أَرَادَ رَحْمَةً أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ  
قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلْفًا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ، عَذَّبَهَا،  
وَنَبِيَّهَا حَيًّا، فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ، فَأَقْرَبَ عَيْنَهُ بِهَلَكِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ) (١)

### ١٥ - إرضاء الله ﷻ نبيه ﷺ في أمته:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ ﷻ فِي  
إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لِغَيْرِكَ مِنَ الْبَنَاتِ وَإِذَا بَلَغَ الْهُدَىٰ نَدَىٰ نَذْرًا وَمَنِ عَلِمَ أَنَّهُ  
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وقال عيسى ﷺ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ  
وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ رَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: (اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي) وَبَكَى. فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: يَا  
جِبْرِيلُ! أَذْهَبَ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ -، فَسَلِّمْهُ مَا يُبْكِيكَ!! فَاتَاهُ  
جِبْرِيلُ ﷺ، فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ. وَهُوَ أَعْلَمُ. فَقَالَ اللَّهُ ﷻ:  
يَا جِبْرِيلُ! أَذْهَبَ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسْؤُوكَ) (٢). وهذا  
من أرجى الأحاديث لهذه الأمة.

وَعَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: غَابَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَلَمْ  
يَخْرُجْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ لَنْ يَخْرُجَ، فَلَمَّا خَرَجَ سَجَدَ سَجْدَةً فَظَنَنَّا أَنَّ نَفْسَهُ قَدْ  
قُبِضَتْ مِنْهَا، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ، قَالَ: (إِنَّ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْتَشَارَنِي فِي أُمَّتِي  
مَاذَا أَفْعَلُ بِهِمْ؟ فَقُلْتُ: مَا شِئْتَ أَيُّ رَبِّ، هُمْ خَلْقُكَ وَعِبَادُكَ، فَاسْتَشَارَنِي  
الثَّانِيَةَ، فَقُلْتُ لَهُ كَذَلِكَ، فَقَالَ: لَا أُحْرِنُكَ فِي أُمَّتِكَ يَا مُحَمَّدُ) (٣).

(١) صحيح مسلم (٤/١٤٣٠) حديث رقم ٢٢٨٨.

(٢) صحيح مسلم (١/١٦٣) حديث رقم ٢٠٢.

(٣) المسند للإمام أحمد (٥/٣٩٣)، مجمع الزوائد للهيتمي (١٠/٥٧) حديث رقم

١٦٧١١، وقال: إسناده حسن.

## ١٦ - أمة الغيث وأمة الخير:

إنَّ الأمة الإسلامية المناط بها دور التبليغ والشهادة في كل القرون هي أمة الغيث وأمة الخير، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ)<sup>(١)</sup>.

المراد هنا نفعهم في بثِّ الشريعة والذبِّ عن الحقيقة. وفي الحديث بيان بأن كل طبقة من طبقات الأمة المحمدية تتميز بخاصية وفضيلة توجب خيريتها، كما أن كل نوبة من نوب المطر لها فائدة في النشوء والنماء لا تستطيع إنكارها والحكم بعدم نفعها، فإنَّ الأولين آمنوا بما شاهدوا من المعجزات، وتلقوا دعوة الرسول ﷺ بالإجابة والإيمان، والآخرين آمنوا بالغيب لما تواتر عندهم من الآيات وأتبعوا مَنْ قبلهم بإحسان؛ فكلُّ ذنبه مغفورٌ، وسعيه مشكورٌ، وأجره موفورٌ.

وتختصُّ هذه الأمة المشبهة بالمطر، بالعلماء الكاملين منهم، المكملين لغيرهم فيستدعي هذا التفسير أن يراد بالخير النفع<sup>(٢)</sup>.

## ١٧ - لا تجتمع على ضلالة:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي - أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ - عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُّ اللَّهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَدَّ شَدًّا إِلَى النَّارِ)<sup>(٣)</sup>. وفي هذا الحديث دلالة على أن إجماع المسلمين حقٌّ، والمراد:

(١) السنن للترمذي (١٤٠/٥) حديث رقم ٢٨٦ وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، مجمع الزوائد للهيتمي (٥٦/١٠) حديث رقم ١٦٧٠٦، وقال: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح، البحر الزخار مسند البزار (٢٤٤/٤) حديث رقم ١٤١٢.

(٢) انظر: تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي للمباركفوري (١٧١/٨).

(٣) سنن الترمذي (٤٠٥/٤)، حديث رقم ٢١٦٧، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني

(٣/٣١٩) حديث رقم ١٣٣١. وقال الألباني: الحديث بمجموع طرقه حسن، كنز =

إجماع العلماء، ولا عبرة بإجماع العوام؛ لأنه لا يكون عن علم. قاله أبو عيسى: وبين الحديث أن جماعة أهل الإسلام في كنف الله، ومن شدّد: أي انفرد عن الجماعة باعتقاد أو قول أو فعل لم يكونوا عليه شدّد إلى النار؛ أي: انفرد عن أصحابه الذين هم أهل الجنة، وألقي في النار<sup>(١)</sup>.

## ١٨ - تؤمن بجميع الأنبياء:

قال تعالى: ﴿إِٰمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا اُنزِلَ اِلَيْهِ مِنْ رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُوْنَ كُلُّ ءَاٰمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلٰٓئِكَتِهٖ وَكُتُبِهٖ وَرُسُلِهٖ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ اَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهٖ وَقَالُوْا سَمِعْنَا وَاَطَعْنَا غُفْرٰنَكَ رَبَّنَا وَاِلَيْكَ الْمَصِيْرُ ﴿٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥]. والمراد بالرسول في الآية الكريمة أعلاه: رسولنا محمد ﷺ، وقد كثر في القرآن تسميته من الله ﷻ بهذا الاسم الشريف.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا اُنزِلَ اِلَيْهِ مِنْ رَّبِّهِ﴾ شامل لجميع ما أنزل إليه من الله تعالى، من العقائد وأنواع الشرائع وأقسام الأحكام في القرآن وفي غيره، آمن بأن ذلك وحى من الله وصل إليه. وقُدّم الرسول ﷺ لأن إيمانه هو المتقدم، وإيمان المؤمنين متأخر عن إيمانه، وهو المتبوع وهم التابعون في ذلك، وفي قرن المؤمنين بالرسول ﷺ والإخبار عنهم جميعاً بخبر واحد شرف عظيم للمؤمنين، وفيه أنه ﷺ مشارك للأمة في الخطاب الشرعي له وقيامه التام به، وأنه فاق المؤمنين، بل فاق جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه. وأفرد الضمير في آمن لأن المراد إيمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع.

وفي قوله تعالى: ﴿لَا نَفَرَقُ بَيْنَ اَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهٖ﴾ وهذا بخلاف ما وقع في الأمم السابقة، فاليهود مثلاً لا يؤمنون بالمسيح، ولا يؤمنون بنبينا محمد ﷺ، والنصارى لا يؤمنون بنبينا محمد ﷺ، بينما هذه الأمة لا يصح إيمان أي فرد منها حتى يؤمن بجميع الأنبياء على التخصيص ممن ذكر منهم، وممن لم يذكر منهم على العموم. فكلُّ فرد من المؤمنين آمن بالله وملائكته

= العمال في سنن الأقوال والأفعال للهندي (١٥٦/١٢) حديث رقم ٣٤٤٦١، المستدرک للحاکم (١١٥/١).

(١) انظر: تحفة الأحوذی شرح جامع الترمذی للمبارکفوری (٣٨٦/٦).

وكتبه ورسله، لا يفرق الكل منهم بين أحد من رسله، فيؤمن بما جاء ببعض ويكفر ببعض، ولكنهم يصدقون بجمعهم، ويقرّون بما جاؤوا به أنه من عند الله، وأنهم دعوا إلى الله تعالى، وإلى طاعته، ويخالفون في فعلهم ذلك اليهود الذين أقرّوا بموسى وكذبوا بعيسى، والنصارى الذين أقرّوا بموسى وعيسى وكذبوا بمحمد ﷺ وجحدوا بنبوته، ومن أشبههم من الأمم الذين كذبوا ببعض رسل الله، وأقرّوا ببعضهم.

والإيمان بكتب الله ورسله بدون تفرقة بين أحد من رسله هو المقتضى الطبيعي الذي ينبثق من الإيمان بالله، فالإيمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة ما جاء من عند الله ﷻ وصدق الرسل الذين يبعثهم الله، ووحدة الصلة التي تقوم عليها رسالتهم، ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم، فكلهم جاء من عند الله ﷻ برسالات الله التي أرسلوا بها حتى انتهى الأمر إلى خاتم النبيين محمد ﷺ فجاء بالصورة الأخيرة التي اختارها وارتضاها الله ﷻ<sup>(١)</sup>.

ونلاحظ من خلال استقراء النصوص التي بيّنت ما خصّ الله ﷻ به الأمة المسلمة أن تلك الخصائص في مجملها إنما تدور حول محاور أساسية:

١ - التأهل التام لحمل أمانة التبليغ، وظهر ذلك في أنهم يتمون سبعين أمة، وأنهم لا يجتمعون على ضلالة وأنهم يؤمنون بجميع الرسل ﷺ.

٢ - التكليف، ويظهر ذلك في اختصاصهم بالشهادة على الناس.

٣ - التيسير والتسهيل الذي يعينهم على القيام بالتكليف، ويظهر في اختصاصهم برفع الإصر والخرج، وجعل الأرض كلها مسجداً وطهوراً وإحلال الغنائم لهم.

٤ - الدعم الروحي، ويظهر فيما خصّوا به من جعل صفوفهم كصفوف الملائكة، وإكمال دينهم لهم، وهدايتهم ليوم الجمعة الذي يجتمعون فيه لمناقشة مستجدات الأمور واجتماعهم لصلاة العشاء.

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٠٧/٣)، المحرر الوجيز لابن عطية (١/٣٩١)، البحر المحيط لأبي حيان (٣٧٨/٢)، فتح البيان للكنوزي (١٦٢/٢)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٣٥٢/١).

- ٥ - الدعم المعنوي، وذلك في اختصاصهم بأنهم أمة الغيث والخير، وأنهم أكرم الأمم على الله ﷻ واختصاصهم بمسمى المسلمين.
- ٦ - دوام الأمل والقضاء على اليأس، وظهر ذلك في اختصاصهم بعدم هلاكهم على يد عدوهم البتة، وأن الله ﷻ يبعث لها من يجدد لها دينها، وأن هناك طائفة باقية تناضل عن الحق حتى قيام الساعة.



## خصائص الأمة المسلمة في الآخرة

١ - الأمة الإسلامية أمة مرحومة، كلها تدخل الجنة:

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ، إِنَّمَا عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا الْقَتْلُ وَالْبَلَابُ وَالزَّلَازِلُ)<sup>(١)</sup>، البلابل: هي الهموم والأحزان.

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، لَا عَذَابَ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ، جَعَلَ اللَّهُ عَذَابَهَا فِي الدُّنْيَا الْقَتْلَ وَالزَّلَازِلَ وَالْفِتْنَ)<sup>(٢)</sup>، ومما خصَّ الله ﷻ به هذه الأمة، أنها تدخل الجنة كلها، وذلك أن منهم من يدخل الجنة بلا حساب، ولا عقاب، ومنهم من يُحَاسَبُ حساباً يسيراً، ثم يدخلها. والقسم الآخر يدخلون الجنة بالشفاعة وبرحمة الله تعالى.

فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا بَعْضُهَا فِي الْجَنَّةِ، وَبَعْضُهَا فِي النَّارِ إِلَّا أُمَّتِي فَإِنَّهَا فِي الْجَنَّةِ)<sup>(٣)</sup>.

٢ - أمة الوسط والشهادة على الأمم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فمن خصائص هذه الأمة: أن الله تعالى،

(١) المسند للإمام أحمد (٤/٤١٠)، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢/٦٨٤) حديث رقم ٩٥٩، وقال: الحديث صحيح، الفتح الرباني للبنا (٢٣/١٩٩) حديث رقم ٤٢٣.

(٢) المستدرک للحاکم (٤/٤٤٤) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني (٢/٤٩٧) حديث رقم ١٨٥٨، صحيح الجامع للألباني (٢/٩٩٣) حديث رقم ٥٦٩٣، وقال: صحيح.

أنزلها منزلة العدول من الحكام، فيشهدون على الناس بأن رسلهم قد بلغتهم، وهذه الخصيصة لم تثبت لأحد من الأنبياء أو أتباعهم.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يُجَاءُ بِنُوحِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَتُسَأَلُ أُمَّتُهُ، هَلْ بَلَغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيَقُولُ: مَنْ شُهِدَكَ؟ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ) قال: عدلاً - ﴿لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾<sup>(١)</sup>.

وشرط قبول الشهادة: العدالة، وقد ثبتت لهم هذه الصفة بقوله تعالى: «وَسَطًا» والوسط: العدل، والمراد بالجماعة أهل الحل والعقد من كل عصر<sup>(٢)</sup>.

فشهادة أمة محمد ﷺ على جميع الأمم يوم القيامة، برهان على عدالة هذه الأمة وشرفها ومضمون هذا أن الأمة يوم القيامة عدول عند سائر الأمم، ولهذا يستشهد بهم سائر الأنبياء ﷺ على أممهم، ولولا اعتراف أممهم بشرف هذه الأمة لما حصل الإلزام بشهادتهم.

### ٣ - زيادة الثواب مع قلة العمل :

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

ومما خص الله تعالى به هذه الأمة أنه ﷺ يعطيها من الثواب أكثر مما يعطي غيرهم من الأمم السابقة مع أن عمل أمة محمد ﷺ أقل من أعمال الأمم السابقة، وبقاءهم في الدنيا أقل في الفترة الزمنية منهم، وأعمارهم أيضاً أقصر من أعمار الأمم السابقة، فبقاء أمة محمد ﷺ على الأرض إنما هو من العصر إلى المغرب بالنسبة لنهار العالم. وذلك فضل الله ﷻ يؤتيه من يشاء.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٧٣٤٩.

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٦/٣٩١).

الْمُنْبَرِ: (إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُعْطِيَ أَهْلَ التَّوْرَةِ التَّوْرَةَ فَعَمِلُوا بِهَا حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ، ثُمَّ عَجَزُوا فَأَعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا. ثُمَّ أُعْطِيَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ الْإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا بِهِ حَتَّى صَلَاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ عَجَزُوا فَأَعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا. ثُمَّ أُعْطِيَتْمُ الْقُرْآنَ فَعَمِلْتُمْ بِهِ حَتَّى غُرُوبِ الشَّمْسِ فَأَعْطِيَتْمُ قِيرَاطِينَ قِيرَاطِينَ. قَالَ أَهْلُ التَّوْرَةِ: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَقَلُّ عَمَلًا وَأَكْثَرُ أَجْرًا، قَالَ: هَلْ ظَلَمْتُمْكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لَا. فَقَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أَوْتِيهِ مَنْ أَشَاءُ)<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - فداؤها بغيرها من الأمم:

ومما خصَّ الله ﷺ به هذه الأمة أيضاً أنه سيفدي من يستحق العذاب منها بغيرها من الأمم السابقة، من اليهود والنصارى وغيرهم، سواء جعلهم فداء للمسلمين، أو يضع عليهم ذنوب المسلمين، كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، دَفَعَ اللَّهُ ﷻ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا. فَيَقُولُ: هَذَا فِكَأُكَ مِنَ النَّارِ)<sup>(٢)</sup>.

والفِكَأُكُ بفتح الفاء؛ هو الخلاص والفداء. ومعنى هذا الحديث: أن لكل شخص منزل في الجنة ومنزل في النار، فالمؤمن إذا دخل الجنة خلفه الكافر في النار لاستحقاقه ذلك بكفره، ومعنى (فِكَأُكَ مِنَ النَّارِ) أنك كنت معرضاً لدخول النار، وهذا فِكَأُكَ؛ لأن الله تعالى قدَّر لها عدواً يملؤها، فإذا أدخل الكفار بكفرهم وذنوبهم صاروا في معنى الفِكَأُكَ للمسلمين<sup>(٣)</sup>.

وهذا يؤكد أحاديث أخرى منها: عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (تُحْشَرُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ، (صِنْفٌ) يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَ(صِنْفٌ) يُحَاسِبُونَ حِسَاباً يَسِيراً ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَ(صِنْفٌ) يَجِئُونَ عَلَى جُنُوبِهِمْ أَمْثَالِ الْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ ذُنُوباً فَيَسْأَلُ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٧٤٦٧.

(٢) صحيح مسلم (١٦٨٤/٤) حديث رقم ٢٧٦٧.

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٨٧/١٧).



بِهِمْ - فَيَقُولُ: مَا هُوَ لَآءٍ؟ فَيَقُولُونَ: هُوَ لَآءٍ عِبِيدٌ مِنْ عِبَادِكَ فَيَقُولُ: حَطُّوْهَا عَنْهُمْ  
وَأَجْعَلُوْهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالتَّنَصَّارِي وَأَدْخِلُوْهُمُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ أَبِي بُرْدَةَ<sup>(٢)</sup> عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (لَا يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ  
إِلَّا أَدْخَلَ اللَّهُ مَكَانَهُ النَّارَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا)<sup>(٣)</sup>.

## ٥ - الغر المحجلون:

ومما حُصِّتْ به هذه الأمة بين الأمم أنهم يأتون يوم القيامة غراً محجلين  
من آثار الوضوء، وليس هذا لأحد غيرهم من الأمم الأخرى غيرهم. عَنْ أَبِي  
هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ  
فَلْيَفْعَلْ)<sup>(٤)</sup>. وقوله صلى الله عليه وسلم أمتي؛ أي: أمة الإجابة، وهم المسلمون «ويدعون»  
أي: ينادون، أو يسمون. وقوله: «غُرًّا»، أصل الغرة لمعة بيضاء، تكون في  
جبهة الفرس، ثم استعملت في الجمال، والشهرة، وطيب الذكر، والمراد بها  
هنا النور الكائن في وجوه أمة محمد صلى الله عليه وسلم. أي: أنهم إذا دُعوا على رؤوس  
الأشهاد ونودوا بهذا الوصف، كانوا على هذه الصفة غراً محجلين.

والتحجيل: هو بياض يكون في قوائم الفرس وأصله الججل؛ وهو  
الخلخال، والمراد به هنا أيضاً النور. واقتصر على ذكر الغرة، وهي مؤنثة  
دون التحجيل، وهو مذكّر؛ لأن محل الغرة هو أشرف أعضاء الوضوء وأول  
ما يقع عليه النظر من الإنسان<sup>(٥)</sup>.

(١) المستدرك للحاكم (٥٨/١) حديث صحيح ووافقه الذهبي.

(٢) هو أبو بردة ابن أبي موسى اسمه عامر بن عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري،  
الفقيه العلامة قاضي الكوفة، وكان من أوعية العلم، وهو حجة باتفاق، مات أبو  
بردة رضي الله عنه سنة أربع ومائة. انظر: الطبقات لابن سعد (٢٦٩/٦)، وسير أعلام النبلاء  
للذهبي (٥/٥).

(٣) صحيح مسلم (١٦٨٤/٤) حديث رقم ٢٧٦٧.

(٤) صحيح البخاري ص ٣٥ حديث رقم ١٣٦.

(٥) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٣١٤/١)، صحيح مسلم بشرح  
النووي (١٢٨/٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (أَنْتُمْ الْفُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحَجِّيلَهُ) <sup>(١)</sup>.

## ٦ - الآخرون السابقون:

أمة محمد صلى الله عليه وسلم أول الأمم حساباً يوم القيامة مع أنها آخرها موتاً، حيث يقضى بين هذه الأمة لشرف نبينا صلى الله عليه وسلم، فهم أول من يجوز على الصراط، وأول من يدخل الجنة، فهم آخر الأمم في الوجود، وأول الأمم في القضاء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) <sup>(٢)</sup>. أي: الْآخِرُونَ زَمَاناً وَالْأُولُونَ مَنْزِلَةً. والمراد: أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ، وَإِنْ تَأَخَّرَ وُجُودُهَا فِي الدُّنْيَا عَنِ الْأُمَّةِ الْمَاضِيَةِ فَهِيَ سَابِقَةٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِأَنَّهُمْ أُولَى مَنْ يُحْشَرُ، وَأُولَى مَنْ يُحَاسَبُ، وَأُولَى مَنْ يُقْضَى بَيْنَهُمْ، وَأُولَى مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ <sup>(٣)</sup>.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَبِيعِ بْنِ جِرَاشٍ رضي الله عنه عَنْ حُدَيْفَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (... نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِيِّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ) <sup>(٤)</sup>.

## ٧ - كثرة الشفاعات في أمته:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَشْفَعُ لِلْفِتَامِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لِلْقَبِيلَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لِلْعَصْبَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لِلرَّجُلِ حَتَّى يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ) <sup>(٥)</sup>. والفتام: هم الجماعة الكثيرة من الناس، لا واحد له من لفظه. والقبيلة: هي الجماعة من أب واحد، بينما العصبه: يقصد بها قوم الرجل الذين يتعصبون له.

(١) صحيح مسلم (١٨٢/١) حديث رقم ٢٤٦.

(٢) صحيح البخاري ص ١٧٣ حديث رقم ٨٧٦.

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (٤٥٠/٣).

(٤) صحيح مسلم (٤٩١/٢) حديث رقم ٨٥٦.

(٥) سنن الترمذي (٥٤١/٤) حديث رقم ٢٤٤٠، وقال: هذا حديث حسن.

وقوله: (إِنَّ مِنْ أُمَّتِي) أي: بعض أفرادهم من العلماء والشهداء والصلحاء، من يشفع للفتام: وهم الجماعة من الناس، ومنهم من يشفع للقبيلة وهم قوم كثير جدهم واحد، ومنهم من يشفع للعصبة وهم ما بين العشرة إلى الأربعين من الرجال<sup>(١)</sup>.

والمعنى: أن الله ﷻ جعل البعض منهم يشفع في العدد الكثير من الناس. وَعَنْ الْحَارِثِ بْنِ أَيْشٍ<sup>(٢)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أُمَّتِي لَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَيُشْفَعُ لِأَكْثَرِ مِنْ مُضَرَ)<sup>(٣)</sup>.

#### ٨ - أول من يجيز الصراط:

قال تعالى: ﴿وَلَنْ مَنكُمُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]. وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (... وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرَّسُلُ. وَدَعْوَى الرَّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ)<sup>(٤)</sup>. والمعنى: أن محمداً ﷺ وأُمَّته هم أول من يمضي عليه ويقطعه - أي الصراط - . فَأَمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ بما لها من فضل ومكانة عند الله ﷻ، تكون أول من يُكرم باجتياز الصراط المنسوب على ظهر جهنم فتجيزه مع نبيها ﷺ<sup>(٥)</sup>.

#### ٩ - أوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي، عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَازِلُ لَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَمَخَّطُونَ وَلَا

(١) تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي لابن المباركفوري (١٣٠/٧).

(٢) هو الحارث بن زهير بن أيش، ويقال: وقيش العكلي ثم العوفي، حليف الأنصار. أخرج ابن ماجه حديثه في الشفاعة بسند صحيح، وقع عند البغوي تصريحه بسماعه من النبي ﷺ. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١/٣٧٧)، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١/٢٧٣).

(٣) المستدرک للحاكم (١/٧١)، وقال: صحيح ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح مسلم (١/١٤٣) حديث رقم ١٨٢.

(٥) صحيح مسلم شرح النووي (٣/٢٣).

يَبْرُقُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ...<sup>(١)</sup>، الزمرة: الجماعة. (وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ) أي: عرقهم. و(مَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ) فتح الهمزة، وضم اللام؛ أي: العود الذي يُبَخَّرُ به<sup>(٢)</sup>.

## ١٠ - انفرادها بدخول الباب الأيمن من الجنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ فِيهَا نَهْسَةً، فَقَالَ: (أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...، حتى قال عليه الصلاة والسلام، فَأَنْطَلِقُ فَأَتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهَمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ!! ازْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، اشْفَعْ تُشْفَعَ؛ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي، أُمَّتِي. فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ادْخُلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى)<sup>(٣)</sup>.

## ١١ - أكثر أهل الجنة:

عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ<sup>(٤)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَدَّثَهُ عَنْ لَيْلَةٍ أُسْرِيَ بِهِ قَالَ:

- (١) صحيح مسلم (١٧٢٨/٤) حديث رقم ١٦.
- (٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦٩/١٧).
- (٣) صحيح مسلم (١٥٨/١) حديث رقم ١٩٤، الهَجْرُ بفتح الهاء والجيم، مدينة عظيمة، وهي قاعدة بلاد البحرين. وأما بُصْرَى فبضم الباء، وهي مدينة بينها وبين دمشق نحو ثلاث مراحل، وهي مدينة حوران وبينها وبين مكة شهر؛ انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٣ - ٦٤/٤).
- (٤) هو مالك بن صَعْصَعَةَ بن وَهْب بن عدي بن مالك بن عدي بن عامر بن غنم الأنصاري الخزرجي، ثم المازني، من بني مازن بن النجار، روى عن النبي ﷺ حديث المعراج بطوله، وهو في الصحيحين. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٢٥١/٤)، تهذيب التهذيب لابن حجر (٣٥٨/٥)، الإصابة في تمييز الصحابة (٣٤٦/٣).

(... فَإِذَا مُوسَى قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلِّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بَعَثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي...)<sup>(١)</sup>.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَّمُ، فَأَجِدُ النَّبِيَّ يَمُرُّ مَعَهُ الْأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفْرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْعَشْرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ فَتَنْظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ. قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ هَؤُلَاءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لَا وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْأَفْقِ، فَتَنْظَرْتُ، فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قَدَّامَهُمْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَلَا عَذَابَ. قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَنْطَيِّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)<sup>(٢)</sup>.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ)، قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَنْطَيِّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)<sup>(٣)</sup>. وهذا

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٣٨٨٧.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٥٤١.

(٣) صحيح مسلم (١٦٨/١) حديث رقم ٢١٨. وقوله ﷺ: (لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَنْطَيِّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) اتفق على ذكر هذه الأربع، معظم الروايات في حديث ابن عباس وإن كان عند البعض تقديم وتأخير، وإنما المراد وصف السبعين بتمام التوكل، فلا يسألون غيرهم أن يرقبهم، ولا يكويهم ولا ينطايرون من شيء. ويمكن أن يقال: إنما ترك المذكورون الرقي والاسترقاء حسماً للمادة؛ لأن فاعل ذلك لا يأمن أن يكبل نفسه إليه، وإلا فالرقية في ذاتها ليست ممنوعة، وإنما منع منها ما كان شركاً أو احتمله.

وقوله: (لَا يَنْطَيِّرُونَ) المراد: لا يتشائمون، كما كانوا يفعلون في الجاهلية.

وقوله: (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) يحتمل أن تكون هذه الجملة مفسرة لما تقدم من ترك الاسترقاء والاكتواء والطيرة، ويحتمل أن تكون من العام بعد الخاص لأن صفة كل واحد منها صفة خاصة من التوكل، وهو أعم من ذلك، وقال الجمهور: يحصل التوكل بأن يثق بوعده الله، ويوقن بأن قضاءه واقع، ولا يترك أتباع السنة في ابتغاء الرزق ممّا لا بد له منه من مطعم ومشرب وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق =

الحديث فيه عِظْمٌ ما أكرم الله ﷺ به النبي ﷺ وأمته زادها الله فضلاً وشرفاً.  
 وَعَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ<sup>(١)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَهْلُ الْجَنَّةِ  
 عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، تَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ)<sup>(٢)</sup>.  
 والمقصود بيان تكثير هذه الأمة، وأنهم ثلثان في القسمة.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قُبَّةٍ نَحْوًا مِنْ  
 أَرْبَعِينَ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، قَالُوا:  
 نَعَمْ، قَالَ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ  
 تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسَلِّمَةٌ؛ مَا أَنْتُمْ فِي  
 الشَّرِّكَ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ  
 الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ»<sup>(٣)</sup>.

وكانه ﷺ لما رجا رحمة ربه أن تكون أمته نصف أهل الجنة أعطاه ﷺ  
 ما ارتجاه، وزاده، وهو نحو قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾<sup>(٤)</sup>  
 [الضحى: ٥].

= الباب، ومع ذلك فلا يطمئن على الأسباب بقلبه، بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها  
 نفعاً، ولا تدفع ضرراً، بل السبب والمسبب فعلُ الله تعالى، والكل بمشيئته، فإذا وقع  
 من المرء ركون إلى السبب قدح في توكله. وهم مع ذلك فيه قسمان: واصل  
 وسالك، فالأول: صفة الواصل، وهو الذي لا يلتفت إلى الأسباب ولو تعاطاها.  
 وأما الثاني فهو: السالك فيقع له الالتفات إلى السبب أحياناً، إلا أنه يدفع ذلك عن  
 نفسه. إلى أن يرتقي إلى مقام الواصل. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن  
 حجر (٥٠٠/١١).

(١) هو سليمان بن بريدة بن الحُصَيْبِ الأَسْلَمِي المَرْوَزِي، روى عن أبيه وعمران بن  
 حصين، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. تابعي ثقة، وقال ابن معين وأبو حاتم: ثقة، أرخه ابن حبان  
 في الثقات، وقال: ولد هو وأخوه في بطن واحد على عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ  
 عَنْهُمَا ثلاث خلون من خلافته، ومات سليمان بصليين قرية من قرى مرو، وكان على قضاء  
 مرو. وكان ابن عُيَيْنَةَ يُفَضِّله على عبد الله بن بريدة. انظر: تهذيب التهذيب لابن  
 حجر (٣٩٢/٢)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٢/٥).

(٢) سنن الترمذي (٥٨٩/٤) حديث رقم ٢٥٤٦، وقال: حديث حسن.

(٣) سنن الترمذي (٥٩٠/٤) حديث رقم ٢٥٤٧، وقال: حديث حسن صحيح.

## ١٢ - سَادَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَقْبَلْتُ فَاطِمَةَ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِشْيَةُ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَرْحَبًا يَا ابْنَتِي»، ثُمَّ اجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ، أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ أَسْرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا، فَبَكَتْ، فَقُلْتُ: لِمَ تَبْكِينَ؟! ثُمَّ أَسْرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا، فَضَحِكْتُ، فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ. فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ، فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِي سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ: أَسْرَّ إِلَيَّ: (أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَأَنَّهُ عَارِضُنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجْلِي، وَأَنَّكَ أَوْلُ أَهْلِ بَيْتِي لِحَاقًا بِي) فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: (أَمَّا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ؟) فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «هَذَانِ، سَيِّدَا كَهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْأَوْلِينَ وَالْآخِرِينَ، إِلَّا النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ»<sup>(٢)</sup>.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ)<sup>(٣)</sup>.

إنَّ خصائص الأمة المسلمة في مجموعها إنما تبرز قيمتها، وتبين ما خصَّها الله ﷻ بها دون غيرها من الأمم ذلك أن لها مكانة عظيمة عنده ﷻ، وإن هذه الخصائص كانت لها في الدنيا لتعينها على القيام بدورها المناط بها

(١) صحيح البخاري ص ٧٤٣ حديث رقم ٣٦٢٣.

(٢) سنن الترمذي (٥٧٠/٥) حديث رقم ٣٦٦٤، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه. وقوله ﷺ: (هذان سيدا كهول أهل الجنة) الكهول - بضمين - جمع الكهل: وهو من جاوز الثلاثين أو أربعاً وثلاثين إلى إحدى وخمسين، فاعتبر ما كانوا عليه في الدنيا حال هذا الحديث وإلا لم يكن في الجنة كهول، وقيل: سيدا من مات كهلاً من المسلمين فدخل الجنة لأنه ليس فيها كهول بل من يدخلها ابن ثلاث وثلاثين، وقيل: أراد بالكهول ههنا الحليم العاقل، أي: أن يدخل أهل الجنة حليماً عقلاء. انظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (١٥٠/١٠).

(٣) سنن الترمذي (٦١٤/٥) حديث رقم ٣٧٦٨، وقال: حديث حسن صحيح.

على أكمل وجه. هذه الخصائص هي الأسباب الرئيسة التي تؤهل هذه الأمة لتكون الأولى في مصاف الأمم، ولتكون هي الوحيدة صاحبة القرار في تحديد مصائر الشعوب، والفصل بينهم بالعدل، لما تملكه من شرع رباني حكيم.

كما أن خصائصها في الآخرة تبيّن امتداد ذلك الدور فتقوم بواجب الشهادة على الأمم، وتلقى ما أعده الله ﷻ مكافأةً وجزاءً لها. ومع كل خصيصة يزداد شرف هذه الأمة كما تزداد مسؤوليتها؛ إنهم أول من يجيزون الصراط، وأول من يدخل الجنة، وأول من يفصل بينهم، وهم أكثر أهل الجنة وهم ساداتها، فأى رفعة وأي عزة وأي شرف تَوَجَّه الله ﷻ لهذه الأمة؟! .

إن تذكر هذه النعمة؛ وهي أن الله ﷻ اختارنا لتكون من هذه الأمة يُوجب علينا أن نُؤدي واجب الشكر له، والمتمثل في القيام بالتكاليف المناطة بنا لنستحق أن نُتوج الجنان ونشهد على الأمم.

فالحمد لله على ما أولانا من عظيم الفضل والنعمة.





## المبحث الثالث

### تكاليف الاصطفاء للأمة وتعدد أعبائها

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: إخلاص العبادة لله ﷻ وعدم الإشراك به.

المطلب الثاني: الشهادة على البشرية والقوامة عليها.

المطلب الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الرابع: الجهاد في سبيل الله ﷻ.

## توطئة

تتلقى الأمة المسلمة عبء الرسالة كله، وتقوم على دين الله ﷻ في الأرض، فلا بد أن يشعر المسلمون بضخامة دورهم إلى قيام الساعة؛ فهم الحراس على أعز رصيد عرفته البشرية في تاريخها الطويل - العقيدة -، وهم المختارون للحفاظ على دين الله ﷻ في أرضه.

إن الرصيد الذي تقوم الأمة المسلمة حارسة عليه في الأرض هو رصيد الإيمان بالله ﷻ. إنه رصيد من الهدى، والنور، ومن الثقة، والطمأنينة، ومن الرضى والسعادة، ومن المعرفة واليقين.

إن الأمة المسلمة ينبغي أن تعطي الأمم جميع ما لديها، وأن يكون لديها دائماً ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح.. إلى غير ذلك مما تحتاجه البشرية لتنعم في حياتها. هذا هو واجبها الذي يحتمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها.

واجبها أن تكون في الطليعة دائماً، وفي مركز القيادة، ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاءً، ولا يسلم لها به إلا أن تكون أهلاً لذلك، والأمة المسلمة بتصورها الاعتقادي، وشريعتها الكاملة والصالحة لكل الناس ولكافة الأزمان، ومختلف الأماكن، هي الوحيدة القادرة على ذلك.

إن المنهج الذي تقوم عليه هذه الأمة يُطالبها بالشيء الكثير، ويدفعها إلى تحمل كل ما وراء هذه التكاليف من متاعب، وكل ما يعترض طريقها من أشواك، وكل هذا مُتَعَبٌ شاق، ولكنه ضروريٌّ لإقامة المجتمع الصالح، وصيانتها، ولتحقيق الصورة التي يجب أن تكون عليها الحياة.

إن الأمة الإسلامية بما تملكه من قوى وطاقات، قادرة على القيام بما أسند إليها من تكاليف، فهي تملك القوى الروحية المتمثلة في قوة الرسالة

التي تؤمن بها وتدعو إليها، وتملك القوى البشرية وإن كنا نجزم أن العبرة ليست بالكم، ولكن له أهمية وإن كانت لا تعادل أهمية العقيدة. فالكثرة المفيدة نعمة، وهي شرط لا بد منه لأي تفوق اقتصادي أو حضاري، ولهذا تسعى الأمم على تعويض هذا بالتكتل فيما بينها رغم اختلافها في العروق واللغات، والأديان، والتاريخ. كما أنها تملك القوة المادية والاقتصادية، فهي تملك من المعادن والثروات المائية المذخورة في باطن الأرض، والمنثورة على ظاهرها، والثروات المائية والبحرية ما لا تملكه أمة أخرى، كما أنها تمتلك موقعاً جغرافياً هاماً هو ملتقى القارات، ومنبع الحضارات، ومهبط الرسالات السماوية الكبرى<sup>(١)</sup>.

إنَّ الحديث عن تكاليف الأمة المسلمة، يعتبر من الموضوعات التي تحتاج إلى دراسات واسعة ودقيقة لا يتسع لها المجال في بحث الاصطفاء؛ لأنها تكاليف ضخمة، ضخامة المهمة التي أسندت إليها لإصلاح حياة الناس، فهي متشعبة ودقيقة تحتاج إلى القادة المهرة في مختلف الميادين وعلى كافة المستويات، لتتصافر جهودهم في التبليغ والتصحيح والتوجيه، ولتعمل على استمرارية تربية وإعداد صفوف جديدة قادرة على حمل أمانة المهمة، وإكمال المسير، ومن ثم لمن بعدهم ممن يتم إعدادهم وفق المواصفات العقدية والتربوية التي أخرجتها مدرسة محمد ﷺ ففتحت البلاد وهدت العباد.

إنَّ مهمة الأمة المسلمة تزداد عبئاً وتعقيداً في ظل المتغيرات التي يحياها الناس والمستجدات السريعة التي تفتعلها وتفرضها عليها الدول الكبرى مما يتطلب منها مزيداً من العمل والتخطيط والتعاقد بين مختلف العاملين في هذا المجال، ومن هذه التكاليف الآتي:

- أولاً: إخلاص العبادة لله وعدم الإشراف به.
- ثانياً: الشهادة على البشرية والقوامة عليها.
- ثالثاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- رابعاً: الجهاد في سبيل الله ﷻ.

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (١/٣٤٢ - ٤٤٧)، المبشرات بانتصار الإسلام للدكتور يوسف القرضاوي ص ٨٢ وما بعدها باختصار.

## إخلاص العبادة لله ﷻ وعدم الإشراك به (١)

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]

إن من تكاليف الأمة المسلمة القيام بحقِّ الولاية على جميع الناس، وقيادتهم جميعاً بشرع الله ﷻ، وتحكيمه بين الناس، وهذا هو الهدف الأساس لهذه الأمة المُصطفَاة، فهي تهدف إلى جعل الحاكمية لله ﷻ، وهذا لا يكون إلا بتطبيق شرعه بين الناس في كافة مجالات حياتهم.

ولكي تتمكن الأمة المسلمة من القيام بذلك العمل، فهي تحتاج إلى سلطة تتصرّف من خلالها، ودستور (شريعة) ترجع إليه في تحكيم كافة شؤونها، كما أنها تحتاج إلى بيئة صالحة للتطبيق، البيئة المتّصّفة بالأمن والاستقرار والتقبل لما يطبق فيها. كل الأمور السابقة أساس لكي تقوم الأمة بالتكاليف المناطة بها والتي تحملتها على عاتقها، وقد تكفل الله ﷻ بذلك كله لهذه الأمة الخيرة المصطفَاة، ووعدها بميراث الأرض، فيكون أهلها ملوكاً للأرض وساسة لها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يوسع لهم في البلاد حتى يملكوها، ويظهر دينهم على سائر الأديان<sup>(٢)</sup>.

وعدهم الله ﷻ بأن يجعلهم خلفاء الأرض وأئمة الناس والولاة عليهم، قال تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيهم تصلح البلاد، ولهم يخضع العباد، فيكونون متصرفين في الأرض تصرف الملوك في ممالكهم ليمكنهم ذلك من

(١) تُعتبر العبادة من التكاليف التي أمرت بها الأمة الإسلامية، وفي ذات الوقت نستطيع اعتبارها من العدة التي تحتاجها للقيام بأعباء التكاليف الشاقة التي حملتها.

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٦/٥٧).

القيام بدورهم وتحقيق هدفهم الأعظم وهو جعل الحاكمية لله ﷻ، والاستخلاف معناه: الملك والغلبة، والحكم المشروط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله ﷻ للبشرية للسير عليه.

وتعليق فعل الاستخلاف بمجموع الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإن كان تدبير شئون الأمة مُنوطاً بولاية الأمور لا بمجموع الأمة؛ فإن ذلك من حيث أن لمجموع الأمة انتفاعاً بذلك وإعانة عليه كلٌّ بحسب مقامه في المجتمع.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، وقدرة على الارتفاع بالنفوس البشرية. ووعد الله ﷻ مذخور لكل من يقوم بشرطه من هذه الأمة إلى يوم القيامة.

كما وعدهم الله ﷻ بتمكين الدين الذي ارتضاه لهم، وأكملة وأتممه، وذلك بجعل الأرض مقرأً له، فيكتب له الانتشار في القبائل والأمم، ويكثر أتباعه في كافة البقاع.

ووعدهم الله ﷻ بنزع الخوف والقلق والاضطراب، وإحلال الأمن مكانه، الأمن بمعناه الواسع الشامل الذي يحقق الاستقرار في النفوس لتمكن من الانطلاق بقوة وعزم دون قلق واضطراب، الأمن الذي هو السلاح الفعال للتحرك والإقدام.

إن كافة الوعود السابقة والتي تحتاجها الأمة المسلمة للقيام بتكاليفها المناطة بها، والأعباء المكلفة بها مشروطاً بتحققها بالقيام بما جعله الله ﷻ شرطاً لها. قال تعالى: ﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ فما مقصود العبادة الواردة في الآية؟

إن العبادة<sup>(١)</sup> تعني غاية الذل مع غاية الحب لله ﷻ، وهي الغرض الذي

(١) للعبادة مفهوم واسع شامل ألف فيه العلماء الكثير من المؤلفات لبيان معناه وشروطه ومجالاته، التي يتفرع إليها، ولا يمكننا في هذا المطلب استيفاء ذلك كله، إذ إن مجال البحث لا يسمح بالحديث عن ذلك المفهوم الهام والدقيق، لذا سنذكر القليل عنه؛ لأن ذلك يعتبر من أهم التكاليف الملقاة على عاتق الأمة، والتي تعينها للقيام بما أسند إليها من مهمات. للاستزادة انظر: كتاب العبودية لابن تيمية، وعبودية الكائنات لفريد إسماعيل التوني، والعبادة في الإسلام للدكتور يوسف القرضاوي.

من أجله خلق الله ﷻ خلقه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والعبودية مفهوم يعطي ظلال الخضوع والذل لله ﷻ، إذ إنه من المتعارف عليه أن العبد رهن لإشارة سيده يتحرك وفق مراده لا يخرج عن ذلك البتة وإلا لكان آبقاً.

فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، وهي الغاية المحبوبة لله ﷻ والمرضية له، التي أمر الخلق بها، ولها أرسل جميع رسله فقالوا جميعاً: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ونعت بها ملائكته وأنبياءه، والدين كله داخل في العبادة، وهو يتضمن معنى الخضوع والذل، فدينُ الله ﷻ عبادته وطاعته والخضوعُ له، والعبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، وهي متعلقة بإلهيته، فالإله الذي يألهه القلب بكمال الحبِّ والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء، ونحو ذلك، وهذه العبادة هي التي يحبها الله ﷻ ويرضاها، وبها وصف المُضطفين من عباده.

والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد ولها أصلان:

١ - أن لا يعبد إلا الله ﷻ.

٢ - أن يعبده بما أمر وشرع.

وكمال المخلوق إنما يكون في مدى تحقيقه للعبودية، فكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله ﷻ وأقواهم وأهداهم أتمهم عبودية لله ﷻ من هذا الوجه<sup>(١)</sup>.

وإذا أخلص العبدُ عبادته لله ﷻ اجتباها ربه، فأحيا قلبه، واجتذبه إليه وقربه منه وكان منه بمنزلة سمعه وبصره، ودافع عنه، ولعلنا من هنا نجد أسباب الربط في الآية بين الوعد بالاستخلاف والتمكين بإخلاص العبادة لله ﷻ

(١) انظر: العبودية لابن تيمية ص ٢٠ وما بعدها.

وحده لأن إخلاصها لله بمفهومها الشامل العام متمثل في:

١ - الأعمال القلبية، كالخوف من الله لا من غيره مهما بلغت قوة هذا الغير، والثقة به وبنصره لا بوعود العبيد، والتوكل التام عليه، وصدق اللجوء والتوجه إليه، والدعاء والرجاء إلى غيرها من أعمال القلوب التي تجعل المؤمن ملك الدنيا بما يملأ قلبه من الثبات والدعم.

٢ - الأعمال البدنية، والتي هي الترجمة الحقيقية لما في داخل تلك النطفة، وما يدعيه البعض من الاكتفاء بصلاح القلب مردود؛ إذ إن الصورة الخارجية ما هي إلا المرآة الصادقة لما في داخلها؛ فيكون المسلم قوياً صلباً صلداً متمثلاً لما توجه عليه حقيقة العبودية. ثم إن مجموع تلك الأفراد هي التي تمثل المجتمع المسلم الذي تبرز فيه صورة العبودية التامة لله ﷻ، وذلك في جميع مجالاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية. هذا المجتمع المسلم المخلص لله ﷻ هو الموعود بالاستخلاف والتمكين، المجتمع الذي تولّى حماية الإسلام في منطقتة، ثم سعى لنشرها في الخارج، إنه المجتمع الذي أراد الله ﷻ تكوينه لتحقيق الهدف من إخراج هذه الأمة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذه هي العبودية بمعناها الواضح البسيط؛ قمة الذل والخضوع لله ﷻ، مع قوة التمسك والالتزام بشرعه، مع دقة تطبيقه في كافة مناحي الحياة البشرية.

إنها حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله، فما أن تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل وتطبيق ونشاط وبناء موجه إلى الله ﷻ يهياً لحمل الأمانة الكبرى في الأرض؛ أمانة الاستخلاف.

إن العبودية حقيقة لا بُدَّ أن يحققها من يُريد الوصول إلى وعد الله ﷻ، ولا بد أن يبحث عن مصداقها في الحياة الإسلامية وهو يدرك شروطها قبل أن يتشكك أو يرتاب أو يستبطئ وقوعها. إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على منهج الله ﷻ ليكون الدين كله لله إلا تحقق وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن<sup>(١)</sup>. ولعلنا نلاحظ ذلك في حديث الرسول ﷺ في وصفه للجيل

(١) مدارج العبودية من هدي خير البرية لسليم الهلالي ص ١٤٤.

المؤمن الذي سيقضي على اليهود، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ وَرَاءَ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ! يَا عَبْدَ اللَّهِ! هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي نَعَالَ فَأَقْتُلْهُ)<sup>(١)</sup>.

فالشجر والحجر ينادي هذا الجيل بوصفين أساسين وهما: الإسلام الذي لا يقبل دين سواه، والعبودية لله ﷻ، فهما الشرطان للنصر والاستخلاف والتمكين.

وفي التعقيب بقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ بيان في أن استمرارية الاتصال بالله ﷻ وتقويم القلب لا يكون إلا بإقامة الصلاة، كما أن الاستعلاء على الشح وتطهير النفس وتوثيق عرى الجماعة يكون بإقامة ركن الزكاة، وفي طاعة الرسول ﷺ والرضى بحكمه وتنفيذ شريعته في الصغيرة والكبيرة وتحقيق للمنهج الذي أراده الله ﷻ للحياة.

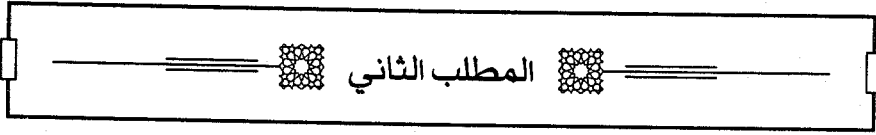
إنَّ الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتملأها من يريد الوصول إلى وعد الله ﷻ في تلك الآيات، ولا بد أن يبحث عن مصافها في تاريخ الحياة البشرية، وهو يدرك شروطها على حقيقتها قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب أو يستبطن وقوعها في حالة من الحالات<sup>(٢)</sup>.



(١) صحيح مسلم (١٧٧٤/٤) حديث رقم ٢٩٢٢.

(٢) انظر: معالم التنزيل للبغوي (٥٧/٦)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨١/١٨)، في ظلال القرآن لسيد قطب (٢٥٢٨/٤).





## الشهادة على البشرية والقوامة عليها:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

كما قال ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانٌ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ فِي الْآيَةِ: « يُحَدِّثُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ حَقِيقَتِهَا الْكَبِيرَةِ فِي هَذَا الْكُونِ، وَعَنْ وَظِيفَتِهَا الضَّخْمَةَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، وَعَنْ مَكَانِهَا الْعَظِيمِ فِي هَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ، وَعَنْ دَوْرِهَا الْأَسَاسِيِّ فِي حَيَاةِ النَّاسِ؛ مِمَّا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ لَهَا قَبْلَتَهَا الْخَاصَّةُ، وَشَخْصِيَّتُهَا الْخَاصَّةُ؛ وَأَلَّا تَسْمَعَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِرَبِّهَا الَّذِي اصْطَفَاهَا لِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط؛ وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد، وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها، وتقول: هذا حق منها وهذا باطل. لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها. وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم... وبينما هي تشهد على الناس هكذا، فإن الرسول هو الذي يشهد عليها؛ فيقرر لها موازينها وقيمها؛ ويحكم على أعمالها وتقاليدها؛ ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيه الكلمة الأخيرة... وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها... لتعرفها، ولتشعر بضخامتها. ولتقدر دورها حق قدره، وتستعد له استعداداً

وتبين الآية أن تكاليف الأمة المسلمة - وإن كثرت -، إلا أنها تدور حول محورين هامين: التعظيم لأمر الله تعالى وذلك في قوله ﷻ: ﴿كُونُوا قَوْمِيكَ لِلَّهِ﴾، والشفقة على خلقه في قوله تعالى: ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾.

ونلاحظ تقديم القسط على الشهادة في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِيكَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، بينما أخرج في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِيكَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] وقد حصل من مجموع الآيتين وجوب القيام بالعدل، والشهادة به ووجوب القيام لله والشهادة له. وهذا من التوسع في الكلام، والتفنن في الفصاحة، ويلزم من كان قائماً لله ﷻ أن يكون شاهداً بالقسط، ومن كان قائماً بالقسط أن يكون قائماً لله ﷻ. وبيان ذلك كما ذكر المفسرون أن الآية التي في سورة النساء جاءت في معرض الاعتراف على نفسه وعلى الوالدين والأقربين، فبدأ فيها بالقسط الذي هو العدل من غير محاباة نفس ولا والد ولا قرابة، بينما في سورة المائدة جاءت في معرض ترك العداوات والإحز، فبدأ فيها بالقيام لله تعالى أولاً لأنه أردع للمؤمنين، ثم أردف الشهادة بالعدل، فالتى في معرض المحبة والمحاباة بدئ فيه بما هو أكد وهو القسط، وفي معرض العداوة بدئ فيها بالقيام لله ﷻ، فناسب كل معرض بما جيئ به إليه<sup>(٢)</sup>.

كما نلاحظ أيضاً في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِيكَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ عَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] تقديم الأمر بالقسط على الشهادة وذلك لوجوه:

١ - أن عادة أكثر الناس أنهم يأمرون غيرهم بالمعروف، فإذا آل إليهم تركوه، وإذا صدر القبيح من أنفسهم تغاضوا عنه، وإذا صدر عن غيرهم كان

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (١/١٣٠).

(٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/٤٥٥).

في محل المنازعة، لذلك نبه المولى في هذه الآية على سوء هذه الطريقة، وذلك بان أمرهم بالقيام بالقسط أولاً، ثم القيام بالشهادة على الغير ثانياً.

٢ - ولأن القيام بالقسط أعم والشهادة أخص، والقيام بالقسط فعلاً وقولاً، والشهادة قولاً فقط، والفعل أقوى من القول. كما أن العدل القائم به هو المستحق للشهادة وقبولها، ثم إن العدل في الحكم وأداء الشهادة بالحق هو قوام صلاح المجتمع الإسلامي والانحراف عن ذلك - ولو قيد أنملة - يجر إلى فساد متسلسل<sup>(١)</sup>. وما من عقيدة أو نظام في هذه الأرض كفل العدل المطلق للأعداء كما كفله لهم هذا الدين، حيث أمر الله ﷻ المؤمنين أن يقوموا به متجردين عن كل اعتبار، وبهذه المقومات كان الدين العالمي الإنساني الأخير؛ الذي يكفل نظامه للناس جميعاً - معتنقيه وغير معتنقيه - أن يتمتعوا في ظله بالعدل المطلق، ولقد قامت هذه الأمة بهذه القوامة يوم استقامت على الإسلام ولم تكن هذه القواعد في حياتها مجرد وصايا، ولا مجرد مثل عليا، ولكنها كانت واقعاً في حياتها اليومية<sup>(٢)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] في هذه الآية تكليف من أكبر التكليف لهذه الأمة المبجلة الوسط، يتجلى هذا التكليف لهذه الأمة في كونها شهيدة على الناس يوم القيامة، إذ تشهد لهم أو عليهم بما أسلفوه من أعمال. ويتكرر النداء بالقيام بالشهادة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]. وهذا التكرار فيه تأكيد للأمة على دورها الهام بين الناس، فهي شاهدة عليهم. وبالنظر في معنى الشهادة نجد أن القوم الشهود هم الحضور، وأصل الشهادة هي الإخبار بما شاهده الإنسان، والشهادة كذلك هي البيان والمعنى أن أمة محمد ﷺ هي المبينة لمن بعدها بعد وفاة الرسول ﷺ<sup>(٣)</sup>، وإذا علم ذلك كله تبين ما يتطلبه دور القيام بالشهادة

- 
- (١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٤/٤٣٢)، التفسير الكبير للرازي (٥/٤٨٣)،  
البحر المحيط للأندلسي (٣/٣٨٤) وما بعدها، التحرير والتنوير لابن عاشور (٤/١٣٤).  
(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/٨٥٣).  
(٣) مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص ٤٦٥، لسان العرب لابن منظور (٧/٢٢٢)،  
تفسير السمرقندي (١/١٢٦).

على الأمة من الحضور الدائم بين الناس، والتعايش معهم والحكم على أفعالهم وتوجيههم إلى الصواب، والقضاء بينهم، ورد الحقوق، وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

إنَّ القيام بدور الشهادة يبدأ من الدنيا، وينتهي في الآخرة، وهو دور متصل بين الدارين شهادة وحضوراً ومعايشةً وحكماً وفصلاً وعدلاً بين الناس في الدنيا، وكذلك في الدار الآخرة.

وبتأمل الآيتين السابقتين، نلاحظ تقدم شهادة الأمة على شهادة الرسول ﷺ في سورة البقرة لأن الآية صُدِّرت بالثناء على الأمة المسلمة فتقدم ذكرها، بينما في سورة الحج قُدِّمت شهادة الرسول ﷺ على شهادة أمته لأن الآية في مقام التنويه بالدين الذي جاء به محمد ﷺ، فالرسول ﷺ أسبق إلى الحضور، فكان ذكر شهادته أهم.

واختلف المفسرون في بيان شهادة الأمة، على أقوال منها:

أولاً: أنَّ هذه الشهادة تكون في الآخرة، وهي شهادة الأمة المسلمة للأنبياء على أممهم الذين كذبوهم، وإنما حازت الأمة هذه الشهادة - وإن لم تكن قد عاينت تلك الأمم - بإخبار النبي ﷺ لها بذلك<sup>(١)</sup>.

ثانياً: أنَّ هذه الشهادة تكون في الدنيا والآخرة: وذلك بشهادة بعضهم على بعض عند الموت<sup>(٢)</sup>، وشهادتهم على الأمم عند الحساب.

ثالثاً: أنَّ هذه الشهادة تكون في الدنيا بمعنى أن الأمة المسلمة تنقل إلى الناس ما علمته من الوحي والدين وتبلغهم رسالة الله ﷻ كما بلغها لهم رسولهم محمد ﷺ، فواجب الدعوة إلى الله ﷻ معلق في عنق الأمة المسلمة وواجب عليها<sup>(٣)</sup>.

وأخيراً فلا بد من بيان أن الشهادة على الناس مختصة بهذه الأمة المصطفاة دون غيرها، وهذا ما دلت عليه الآيات الكريمة، في قوله تعالى:

(١) ينظر حديث البخاري المتقدم ص ٦٢٣.

(٢) ينظر حديث البخاري المتقدم ص ٥٩٩.

(٣) انظر: البحر المحيط لابي حيان (١/٥٩٥)، الفتوحات الإلهية للجمل (١/١٧٢)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٢/٢١) و(١٧/٣٥٢).

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فبسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط على الناس من سائر أهل الأديان فقد وهب الله ﷻ لهم من الدين أكمله، ومن الأخلاق أتمها، ومن الأعمال أفضلها، وأعطاهم من علمه وحلمه ما لم يهبه لأحد سواهم لذا كان من آمن بعدهم من أهل الكتاب يقولون: ﴿فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «لأن لأمة الإسلام الشهادة» [أي: أنها مختصة وحدها بالشهادة]، ولغيرها العبادة بلا شهادة، وهي وحدها الأمة الوسط العدل الخيار، والشهداء على الناس لا بد أن يكونوا عالمين عادلين كالرسول، ولهذا قال الرسول ﷺ في الجنابة: (وَجَبَتْ)، (وَجَبَتْ)، وقال ﷺ: (أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ) فعلم أن شهادتهم مقبولة فما يشهدون عليه من الأشخاص والأفعال، ولو كانوا يشهدون بما ليس بحق ثم يكونوا شهداء مطلقاً<sup>(١)</sup>.

وهذا المقام الذي كلفت به الأمة المسلمة لا بد أن يدفع الولاة والعلماء والمربين إلى توعية أفراد الأمة بمختلف المستويات إلى مسؤوليتهم تجاه من حولهم، وأنهم المرآة التي تعكس صورة الإسلام في نظر الناس بأخلاقهم ومعاملاتهم. وعندما تتحقق فيهم الصورة الحقة للإسلام يكون لهم القبول لدى الناس، ويمكنهم توجيههم ودعوتهم والشهادة عليهم، فهم القدوة للناس.

وخلاصة القول: أن الله ﷻ اختار أمة محمد ﷺ بعد انقطاع عهد الرسالات؛ وحملها عبء القيام بدور عظيم، وهو دور الشهادة على الناس والذي يترتب عليه الحكم بينهم بالعدل، ولكي تقوم الأمة المسلمة بهذه المهمة وتنقل هذا الدور؛ لا بد أن ترقى إلى ذلك المقام مقام الشهادة فتحكم الناس بشريعة السماء العادلة، وتدفع بما لديها من سلطة يد الظلم والبغي عن الناس. وما يحدث اليوم ما هو إلا أعراض لحالة مرضية مؤقتة تمرُّ بها خير الأمم وأكرمها على الله ﷻ، سرعان ما ستزول على يد المخلصين من قاداتها ودعاتها وعلمائها الأبرار؛ وهذا ما ينتظره العالم كله اليوم بعد أن تولى هذه المهمة أناس بلا منهج ولا أخلاق.

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥٠١/٢٠).

## الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هذا التكليف يترتب تلقائياً على سابقه وهو القيام بالشهادة على الناس؛ فحضور الأمة المسلمة الدائم في ميدان العالم يستوجب عليها أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وإلا كان حضوراً لا قيمة له ولا هدف منه، ولقد رتب الله ﷻ حصول الأمة المسلمة على الخيرية المطلقة على جميع الناس بتحقيق هذا العنصر. كما بيّن ﷻ أنه أخرج هذه الأمة للناس جميعاً لهذا الغرض، فقال ﷻ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

خاطبت الآية الكريمة الأمة الإسلامية التي تشهد بالله تعالى رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً، وبالقرآن الكريم دستوراً، بأنها كانت - في علم الله تعالى - خير أمة أخرجت للناس ولمصلحة الإنسانية ولخير البشرية، ولكن هذه الخيرية لها شروطها التي ينبغي أن تتحقق، وتكاليدها التي ينبغي أن تدفع. وأشارت الآية إلى القوة التي ستقف في وجه قيام الأمة المسلمة بدورها وواجبها المناط بها، وهم أهل الكتاب، صحيح أن هناك الكثير من القوى المعادية للإسلام، ولكن أشدها عداوة وأكثرها ضراوة هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين ما زالت أدوارهم الظاهرة والباطنة تفتك بالأمة المسلمة وأبنائها، وما زالت تحيك المخططات والمؤمرات التي أصبحنا نرى نتائجها في الواقع المرير الذي تعيشه خير أمة أخرجت للناس.

ولكن تكرر تلاوة هذه الآية على المسامع في المساجد والمدارس والمحاضرات والمؤتمرات يعمل على إعادة ثقة الأمة المسلمة بنفسها ويذكرها بمكانتها وقيمتها ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة،

ولتكون لها القيادة؛ لأنها خير الأمم، ولأن الله ﷻ هو الذي أراد لها أن تكون خيراً، فبالنظر في قوله تعالى: ﴿أُخْرِجَتْ﴾ نجد أن الفاعل معلوم وهو الله ﷻ موجد الأمم وهاديها إلى ما به تفاضلها، وهذا يعطي الأمة مكانة عالية حيث أن الذي تولى إخراجها هو الله العليم العظيم الذي اختص هذه الأمة بهذه المكانة، وأخرجها للجميع بلا استثناء ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: لجميع البشر دون استثناء، والآية عامة في جميع الأمة المسلمة كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، والخالق ﷻ يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض. فأمة محمد ﷺ هي خير أمة أُخرجت للناس لا عن مُحاباة، ولا عن مُصادفة، أو جزافاً، إنما هو بما تقدّمه من العمل الإيجابي لحفظ البشريّة من المنكر وإقامتها على المعروف مع إيمانها الصحيح الذي يحدد المعروف والمنكر.

وترد الآية على من يظن أن الأمة المسلمة كانت قويّة في ماضيها فقط، وقد يستدل بعض الجاهلين بقوله تعالى في الآية: ﴿كُنْتُمْ﴾ على أنها صيغة الماضي؛ والجواب: أنها صيغة ماضٍ تفيد معنى الدوام، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَرًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]. فكانت منذ أخرجها الله خير الأمم، وهي الآن خيرها، وستبقى إن شاء الله وبموعوده.

ولا بد من التنبيه إلى أن نسبة الخيرية قد ترتفع وقد تنخفض، ولكنها لا تختفي أو تنمحي نهائياً، وهذه الخيرية مرهونة بتحقق أسبابها والمحافظة على أصولها الثلاثة: [الأمر بالمعروف - النهي عن المنكر - الإيمان بالله ﷻ]، فإذا تركتها لم تكن لها هذه الميزة<sup>(١)</sup>.

إنّ الأمة الإسلامية لم تخرج لمصلحتها الشخصية، وإنما أُخرجت لمصلحة الإنسانية، ومن هنا كانت رسالة الإسلام منذ فجرها للناس كافة. ومن أهم الأعمال المنوطة بهذه الأمة من أجل تحقيق هذه الغاية السامية أن تبلغ رسالة ربها في الخافقين وألا تأخذها في ذلك لومة لائم.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٩٣)، المحرر الوجيز لابن عطية (١/٤٨٨)، في ظلال القرآن لسيد قطب (١/٤٤٦).

إن الدعوة إلى الله تعالى، والعمل على نشر دين الإسلام في أرض الله يُعدُّ واحداً من أهم الأعمال الكثيرة التي يجب على أمة الإسلام أن تقوم بها، ويُلاحظ أن الآية الكريمة تعبر عن الإسلام بالخير لأن دين الإسلام هو كل الخير، فهو الدين الذي أكمله الله ﷻ ورضيه، وأتم به النعمة<sup>(١)</sup>.

وبالنسبة لأصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيوضحه قوله ﷺ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)<sup>(٢)</sup>. وهذا الحديث أمر بإيجاب بإجماع الأمة، لذا قال العلماء: ولا يشترط في الأمر والنهي أن يكون كامل الحال ممثلاً ما يأمر به مجتنباً ما ينهى عنه، بل عليه الأمر وإن كان مُخَلَّلاً بما يأمر به، والنهي وإن كان متلبساً بما ينهى عنه، فإنه يجب عليه شيثان: أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاها. لا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات، بل ذلك جائز لأحد المسلمين<sup>(٣)</sup>.

وقال قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «بلغنا أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال في حجة حجها لما رأى من الناس دعة، قرأ هذه الآية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ ثم قال: «من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها»<sup>(٤)</sup>.

«وشرط الله» فيها هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَلَنْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْقُرْآنِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

هذا هو تصور الإسلام للمسألة، إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى، وتقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر. والدعوة إلى هذا تكليف ليس بالهين ولا باليسير إذا نظرنا إلى طبيعته، وعلى اصطدامه بشهوات الناس، ونزواتهم، ومصالح بعضهم، ومنافعهم، ولا تفلح الأمة ولا البشرية إلا إذا ساد الخير، وإلا أن يكون المعروف معروفاً والمنكر منكراً، وأصل المعروف: كل ما كان

(١) تأملات في سورة آل عمران لباجودة ص ٣٠٧.

(٢) صحيح مسلم (٧١/١) حديث رقم ٤٩.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/٢١٣).

(٤) جامع البيان لابن جرير الطبري (٣/٦٠).



فعله، جميل مستحسن غير مستقبح عند أهل الإيمان بالله ﷻ، وأصل المنكر: ما أنكره الله، ورآه أهل الإيمان قبيحاً .

إنَّ قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي، فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنافس فيه هذا المنهج ليستمر في عطائه للمعروف وإنكاره للمنكر، فالمعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل، والمنكر فيه هو الشر والرذيلة، والباطل والظلم، وليكون عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر والفضيلة فيه أقل تكاليفاً من الرذيلة، وفاعل الخير فيه يجد على الخير أعواناً، وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلاناً، إنها البيئة التي ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة .

ومن الشروط اللازمة لصيانة المجتمع: وجود فئة من الدعاة العلماء يقومون بمراقبة أحواله لتصحيح كل خلل يحدث فيه، ولهذا يتوجه الله ﷻ إلى المؤمنين أمراً إياهم بإيجاد هذه الفئة قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]. فهذه الآية تبرز أهمية الدعوة إلى الله ﷻ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأمّر الأمة المسلمة بالقيام بهما .

ولقد ذكر العلماء شروطاً للأمر بالمعروف؛ شرطاً قبل الأمر، وشرطاً أثناءه، وشرطاً بعده؛ فالشرط الذي قبل الأمر هو العلم: العلم بالمعروف والمنكر، وهذا إنما يكون بدراسة آيات الكتاب، وسنة الرسول ﷺ وما أجمعت عليه الأمة المسلمة؛ أي: العودة إلى مصادر الشريعة الإسلامية .

والشرط الذي يكون أثناء الأمر فهو: الرفق، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّيْنَتْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فالتبليغ إنما يُنجزه الرفق بالمدعو ومعرفة أحواله وظروفه، ودعوته بما يناسبه .

أما الشرط الذي يكون بعد الأمر، فهو الصبر والإخلاص، إذ لا بد أن يحصل للداعي إلى الله ﷻ في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر الأذى، فعليه أن يصبر لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلٰى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]. فالصبر مطلوب لإتمام هذه المهمة الصعبة والتي تكمن صعوبتها في أنها تقف في مواجهة أمور اعتاد عليها الناس؛ فالقيام بالأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر معناه السعي إلى تغيير الثقافة؛ لأن الثقافة هي مجموعة المفاهيم والأعراف التي يتشربها الإنسان منذ طفولته من مجتمعه، وتلك عملية لا تكفي فيها جهود فرد بل تحتاج إلى جهود جماعة مختصة من الدعاة إلى الخير.

كما أنه لا يقبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا إذا كان خالصاً لله ﷻ وصواباً، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢] فكثيراً ما يكون الدافع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حب الظهور والتعالي أمام الناس، أو الحسد والبغض، وهذه مشاعر خفية تلتبس على صاحبها وتحتاج إلى تمحيص<sup>(١)</sup>.

إن رسالة الرسول ﷺ هي أكمل رسالة، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نَبِيًّا وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وسبب حصولهم على هذا الكمال هو قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما وكيفاً، كما [أي: بكل معروف ولكل أحد] وكيفاً [أي: بفقه وحكمة ورفق وصبر]، وهذا ما ميزهم عن سائر الأمم.

وسبب مجيء الإيمان متأخراً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أدل على بيان فضل المسلمين على غيرهم، ولأن الإيمان يدعه غيرهم، وتظل الخيرية والفضيلة لهذه الأمة ما دامت تؤمن بالله حق الإيمان، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

كما يمكن أن يقال قُدِّمَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله، مع أن الإيمان مقدم على كل الطاعات لأنها سياج الإيمان وحفاظه، وكان تقديمهما في الذكر موافقاً للمعهود عند الناس في جعل سياج كل شيء مقدماً عليه.

فلا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم، والتعريف

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/١٦٧)، الحسبة في الإسلام لابن تيمية ص ١٤، جامع البيان لابن جرير الطبري (٣/٦٢)، من هدي سورة آل عمران لحنان لحام ص ١١٧، من هدي سورة لقمان لحنان لحام ص ٧٨.

الصحيح للمعروف والمنكر، وعليه فلا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير والشر، والفضيلة والرذيلة، وللمعروف والمنكر ويكون ذلك مستنداً إلى قاعدة راسخة هي الإيمان بالله ﷻ.

ثم لا بد من الإيمان أيضاً ليملك الدعاة إلى الخير، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يمشوا في هذا الطريق الشاق ويحتملوا تكاليفه.

هذه المقدمات من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله؛ إنها التكاليف الربانية التي أسند تعالى لخير أمة أخرجت للناس، هذه الأمة لا توجد وجوداً حقيقياً إلا إذا توافرت فيها هذه السمات الأساسية، وإلا أن تقوم بهذه التكاليف الربانية؛ فهي إما أن تقوم بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله ﷻ، فحينئذ هي مسلمة؛ وهي كذلك موجودة أصلاً ومنشأً ودوراً وأثراً في حياة الناس، وإما أن لا تقوم بشيء من هذا؛ فهي غير موجودة، وغير متحققة فيها صفة الإسلام<sup>(١)</sup>.



---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (٤/٣٩٥)، في ظلال القرآن لسيد قطب (١/٤٤٧)،  
التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي (٤/٤٠).

## الجهاد في سبيل الله ﷻ

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَاتَّعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ [الحج: ٧٧ - ٧٨].

إن الأمة الإسلامية مكلفة بتحقيق العدالة في الأرض، وهذا التكليف يوجب على المسلمين أن يكافحوا الظلم، ويزيلوا أسبابه ليعلوا كلمة الله في الأرض، وهذا ما يطلق عليه في الإسلام [الجهاد في سبيل الله] و[القتال في سبيل الله]، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٤]، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨].

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾، تعبير جامع شامل دقيق يصور تكليفاً يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة. والجهاد والمجاهدة يكون باستفراغ الوسع في مدافعة العدو، وهو على ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس. وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]، والمجاهدة تكون باليد واللسان، وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَالسِّيْتِكُمْ)<sup>(١)</sup>.

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُيَيْدٍ<sup>(٢)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (الْمُجَاهِدُ

(١) المستدرك للحاكم (٢/٨١) قال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) هو فضالة بن عبيد بن نافع بن قيس بن صهيب، ويقال: صهيب بن الأصرم بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن أوس، أبو محمد الأنصاري، القاضي الفقيه =

مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ<sup>(١)</sup>.

والجهاد بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب، فالجهاد في الله ﷻ حق جهاده هو: القيام التام بأمر الله ﷻ، ودعوة الخلق إلى سبيله بكلّ طريق يوصل إلى ذلك من نصيحة وتعليم وقتال وزجر ووعظ.

وأضيف الحق إلى الجهاد في قوله تعالى: ﴿حَقَّ جِهَادُهُ﴾<sup>(٢)</sup> مبالغة ليدل على أن المطلوب القيام بموجبه وشرائطه على وجه التمام والكمال بقدر الطاقة، وللدلالة على أنه لا بد من استفراغ الطاقة في إيقاع كل ما أمر به من جهاد العدو والنفس على الوجه الذي أمر به، جهاداً يليق بما أفهمته الإضافة إلى ضمير لفظ الجلالة من الإخلاص والقوة فإنه يهلك جميع من يصدّكم عن شيء منه<sup>(٣)</sup>.

قال ابن القيم رحمه الله: «وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وكما أن حق تقاته أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر، فحقُّ جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وبالله لا لنفسه ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره. وارتكاب نهيه فإنه يبعد الأمانى، ويمني الغرور، ويبعد بالفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى والعفة والصبر وأخلاق الإيمان كلها، فجهاده بتكذيب وعده، ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان وعدة يجاهد بها أعداء الله ﷻ في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله لتكون كلمة الله ﷻ هي العليا<sup>(٣)</sup>.

إنَّ للجهاد حكماً بالغة وأهدافاً جليلة؛ لأن الذي شرعه هو العليم

---

= صاحب رسول الله ﷺ، من أهل بيعة الرضوان، شهد أحداً وما بعدها. ولاء معاوية قضاء دمشق، واستخلفه عليها. روى عن النبي ﷺ وعن عمر، وأبي الدرداء وجماعة. وله عدة أحاديث. وكان فضالة أصغر من شهد بيعة الرضوان، وقد عدَّ ﷺ في كبار القراء. مات سنة ثلاث وخمسين، وقيل: سنة تسع وخمسين هجرية. انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر (٤/٤٨٦)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/١١٣).

- (١) سنن الترمذي (٤/١٤٢) حديث رقم ١٦٢١ وقال: حديث حسن صحيح.
- (٢) معالم التنزيل للبيهقي (٥/٤٠٢)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤/١٣٥)، نظم الدرر للبقاعي (٥/١٧٩)، مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص ٢٠٨.
- (٣) بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (٣/٢٢٤).

الحكيم، فما دام أن الأمر به هو الحكيم، فالحكمة والمصلحة ثابتة فيه قطعاً، ولا يتوقف القيام به على معرفة الحكمة منه عند الناس، فإن مقتضى العبودية أن ينفذ العبد أمر سيده - عرف حكمته أو لم يعرف -، ولكن معرفة الحكمة تقوي العزائم، وتنشط الهمم، وتيسر أمر التكليف.

فللجهاد أهداف عدة وإن كان الهدف الرئيس منه هو تعبيد الناس لله ﷻ وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد، إلى العبودية لربِّ العباد، وإزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً.

ومن أهداف الجهاد الأخرى نذكرها على سبيل المثال لا الحصر:

١ - إعلاء كلمة الله ﷻ وإقامة سلطانه في الأرض، وتبليغ دينه، ودعوة الناس إليه، وحماية حرية نشر الدعوة، فالأمة الإسلامية مكلفة بنشر الدعوة، وتوصيلها إلى الناس كافة في كل زمان ومكان.

وقد جعل الله تعالى الغاية من القتال في سبيله، القيام بنشر الدعوة، وأمر الناس بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وهذا يجب أن يقوم به المسلمون دولاً وأفراداً بصفة ثابتة ومستمرة حتى يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَسَجْدُوا وَعِبْدُوا رَبِّكُمْ وَأَقْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴿٧٧﴾ [الحج: ٧٧ - ٧٨].

وبما أن الدعوة الإسلامية هي للناس كافة، فمن حق البشرية كلها على المسلمين أن تبلغ إليهم هذه الدعوة، وألا تقف أية عقبة في وجه من يقوم بتوصيلها، وإن وجدت هذه العقبة، وجب على الجماعة المسلمة أن تجاهد لتحطيمها لتقيم نظاماً عادلاً يكفل حرية الدعوة وسلامة الدعاة وأمن الذين يُسلمون.

٢ - استرداد الحقوق المغتصبة، ونصر المظلومين، هذا وإذا كان الإسلام قد حرّم على المسلمين أن يعتدوا، فقد أوجب عليهم أن لا يستسلموا لعدوان أعدائهم عليهم، أو أن ينكصوا عن أداء فريضة الجهاد عند الاقتضاء، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ﴿٧٥﴾ [النساء: ٧٥].

٣ - تحرير الإنسانية من ظلم الطواغيت الذين يستعبدون شعوبهم ويصرفونهم عن رؤية الحقيقة، فمن حق البشرية على المسلمين أن يحرروهم من العبودية لغير الله ﷻ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّمُوا لِلَّهِ فَإِنَّ أَنْتَهُمْ أَرْبَابٌ لِلَّهِ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩]، أي: يكون نظام الله المالك المتصرف هو السائد الحاكم حتى تسعد البشرية كلها في ظل تطبيقه<sup>(١)</sup>.

ولقد ضمن القرآن الكريم «الجهاد» معنى إنسانياً منيراً وفريداً، وحدد له مقاصد عليا، وجعله وسيلة متعينة لترسيخ القيم والمثل العليا في الوجود البشري، ويتضح هذا المفهوم في الآتي:

### الجهاد في مفهومه القرآني:

إنَّ القرآن الكريم إذا أشار إلى عظم التضحيات التي ينبغي أن تُبذل ببيان عظم المثوبة التي ترتبت عليها، فإنما يقصد قصداً أولياً إلى الحفاظ على كيان الأمة وسيادة الدولة التي تصون هذا الكيان وقيمتها الحضارية التي تتحقق بها ذاتية هذه الأمة من أن يعتدى عليها بغية تدمير مقوماتها المعنوية والجوهرية لشخصيتها والتي تتمثل في وجودها الدولي بين الأمم.

إنَّ القرآن الكريم لم يجعل «الجهاد» مفروضاً في أعلى مراتب الفرضية وأعظمها مثوبة من أجل الدفاع عن الوجود، أو الحفاظ على حق الحياة فحسب، بل أولاه عناية فائقة إذ يشرعه سناً مكيماً لدعوته العالمية، بل ترى الإسلام يبوئه ذروة سنامه.

لذا فقد فرض «الجهاد» في أعلى مستويات الفريضة تفجيراً لطاقات المسلمين الخيرة في سبيل أن ينتصفوا لأنفسهم من عدوهم، قال تعالى: ﴿أَذِّنْ

(١) انظر: دولة الرسول للدكتور كامل الدقس ص ٥٠٦ وما بعدها، الحكمة في الدعوة لسعيد القحطاني ص ٥٢٤.

لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ [الحج: ٣٩]،  
 وتمكيناً لوجودهم وكيانهم الدولي الذي هو صَمَام الأمان للسلام العالمي،  
 ولأنهم جديرون أن يعيشوا حياتهم الإنسانية المثلى، وفق مبادئهم ومنطلقاتهم  
 الإنسانية، ومثلهم العليا في جنبات الأرض قاطبة، لترتفع كلمة رسالتهم  
 العظمى في أفق الإنسانية الرحب عدلاً وحقاً ورحمة وكرامة وإنقاذاً للبشرية  
 المستضعفة المغلوبة على أمرها من أن تتردى في غيابات سحيقة من القهر  
 والظلم والوحشية والطغيان. قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 وَالسُّتَضْفَيْنِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ  
 أَهْلُهَا وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ [النساء: ٧٥]

فلا عجب إذاً أن يكون «مفهوم الجهاد» في القرآن، وما يستهدف من  
 غايات تتصل بالمصالح الإنسانية العليا «للمجتمع البشري» دون تمييز أو تفرقة  
 على الرغم من اختلاف الدين، لا عجب أن يكون هذا المفهوم الجديد  
 - طبيعة وحكماً ومقصداً - متسقاً مع المنطق العام للتشريع في الإسلام.  
 فطبيعة «الجهاد» في القرآن مشتقة من طبيعة الإسلام نفسه تشريعاً وغاية لأن  
 الجهاد بمعناه الإسلامي الحضاري الفذ إنما سُرع وسيلة لتحقيق مقاصد  
 التشريع عامة.

أما ذلك المقصد الإنساني العام لشريعة الجهاد في الإسلام والذي  
 يتوخى الشارع الحكيم تحقيقه في مواقع الوجود الإنساني، فلأنه لا يتعلق  
 بمصالح المسلمين وحدهم - على وجه الخصوص - بل بالعالم كله من حولنا.  
 فالبعد العالمي للجهاد يهدف لإيضاح حقيقة هامة وهي: أن الإنسان لا يكون  
 حراً حقاً مدركاً لأبعاد «الحرية» وآثارها في حياة الشعوب إدراكاً عميقاً كاملاً،  
 إلا إذا عمل مخلصاً على تحقيق هذه «الحرية» الإنسانية في غيره وإلا انقلب  
 أنانياً لا محالة.

ومن هنا نقف على «الحكمة» البالغة من جعل الجهاد في الإسلام وسيلة  
 متعينة لتحرير المسلمين أنفسهم أولاً، ثم تحرير سائر الشعوب المستضعفة في  
 الأرض، واعتبر المسلمون أنفسهم - بحكم تعاليم الإسلام - مسؤولين عن أداء  
 هذه الفريضة تلقاء الشعوب مسؤوليتهم عن تحرير أنفسهم سواء بسواء. إنَّ



«الجهاد» بمضمونه الإسلامي الحق إنما هو أسمى الأعمال الصالحة بل وفي قمتها.

وخلاصة القول: أن المسلمين في جهاد دائم، لا ينقطع أبداً، لتحقيق كلمة الله ﷻ في الأرض؛ أي: لتحقيق النظام الصالح الذي يسعد البشرية، والأمة الإسلامية منتدبة لرفع الظلم عن الأفراد والجماعات في أقطار الأرض كافة بقطع النظر عن ألوانهم وأجناسهم وأديانهم<sup>(١)</sup>، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩]. فهذا هو عقاب المسلمين إذا لم يقوموا بواجب الجهاد في سبيل الله، قد يكون العذاب من عنده ﷻ، وقد يكون بأيدي العباد، فإذا ترك المسلمون الجهاد في سبيل الله ﷻ، فقد يتليهم بأن يوقع بينهم العداوة حتى تقع بينهم الفتنة، كما هو في الواقع، فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله ﷻ جمع قلوبهم، وألف بينهم، وجعل بأسهم على عدوهم، وإذا لم ينفروا في سبيل الله ﷻ يكون العقاب المذكور في الآية السابقة. والخطاب وإن كان لقوم معينين في موقف معين<sup>(٢)</sup>، ولكنه عام في مدلوله لكل المسلمين، والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده بل هو كذلك عذاب الدنيا، عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح، والغلبة عليهم للأعداء، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد، ويقدمون على مذابح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء.

وقوله ﷻ في الآية: ﴿وَيَسْتَبْدِلُ﴾ أي: مسلمين أكفأ، يفهمون دورهم ويقومون على العقيدة، ويؤدون ثمن العزة، ويستعلون على أعداء الله ﷻ. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾ أي: ولا يقام لكم وزناً ولا مكانة

(١) دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر للدكتور فتحي الدريني (١١٥/٣) - (١٣١)، الأمة المسلمة للدكتور ماجد الكيلاني ص ٧٣، روح الدين الإسلامي لعفيف طيارة ص ٤٠١.

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنه في سبب نزول الآية أنه قال: استنفر رسول الله ﷺ حياً من أحياء العرب فثاقلوا عنه، فأنزل الله: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩] فأمسك عنهم المطر فكان عذابهم. انظر: أسباب النزول للسيوطي ص ١٥٢.

ولا قيمة، والله ﷻ لا يعجزه أن يذهب بكم ويستبدل قوماً غيركم ويغفلكم من التقدير والحساب، والسُنن الربانية واضحة في ذلك. فما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله ﷻ عليها الذل، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء. إن الاستعلاء على ثقله الأرض، وعلى ضعف النفس إثباتٌ للوجود الإنسانيِّ الكريم، فهو حياةٌ بالمعنى العلوي للحياة. وإن التثاقل إلى الأرض والاستسلام للخوف لإعدام للوجود الإنسانيِّ الكريم فهو فناء في ميزان الله ﷻ، وفي حساب الروح المميزة للإنسان<sup>(١)</sup>.

وأخيراً لا بد من أن نشير إلى أنه لا قيام للأمة المسلمة المُضطففة على الإطلاق إلا إذا قامت بواجب الجهاد في سبيل الله ﷻ، والذي هو ركن من أركان الإسلام، وذروة سنام الدين، وأن الواقع الآن لا يشير إلى أن الأمة المسلمة هي «الأمة المصطففة» التي تقود العالم وتملك زمام الأمور، وما هذا إلا لأنها تركت الوسيلة التي تمكنها من الوصول إلى الهدف المنشود وهو (القوامة على البشرية)، فالجهاد وسيلة وليس غاية، ومع إيماننا بأن هذه الوسيلة لها قوانين ولها شروط لا بد أن تتوفر، إلا أننا نجزم بضرورة العمل على أن تتوفر هذه الوسيلة بالصورة التي يفرضها وضع الأمة المسلمة اليوم، وأقصد بذلك أن ندرس الحالة الراهنة للأمة هل تشبه الوقت الذي كانت فيه الدعوة الإسلامية في بداياتها؟ والذي كان يعلو فيه الباطل ويتنفش بقوته وعتاده، والأمة ما زالت لم تلمّ شملها لتتمكن من الوقوف على قدميها، عندها نعمل بهدي المصطفى ﷺ والذي قام فيه بإعداد قادة أقوىاء في عقيدتهم، وكوّن له قاعدة قوية في مدينته ينطلق منها. فإن رأى قادة الأمة المسلمة وعلماءها ذلك فعليهم أن يعيدوا تربية الجيل المسلم القوي في عقيدته، الصلب في تحمله، الواعي في قراراته، الملتف حول قاداته، ليعيد انطلاقة من جديد، انطلاقة صحيحة قوية، حتى لو أخذ منها وقتاً طويلاً فإن عمر الإعداد العَقْدِي الذي قضاه الرسول ﷺ كان يمثل الفترة الأطول من عمر الدعوة والتي مكثت قرابة ثلاثة عشر عاماً، في حين فُتحت الدنيا كلها في عشر سنوات فقط، وهذا يدل على أنه كلما كانت القاعدة العقدية صلبة استطاع أفرادها الصمود والبقاء لفترة أطول.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/١٦٥٥).

ومع الطرح الإعلامي المكثف، والدعايات الإعلامية للغرب ولقوته وسطوته وقدرته وَحَدَه على حل المشكلات، وما قابل ذلك من تلاشٍ لدور الأمة القائدة، واعتذارها عن التواجد بصورتها اللائقة بها، وجب أن يُعاد دراسة صفات الأمة المسلمة ودورها، وكيفية إعادة تواجدها، وبناء شخصيتها، وإعادة الثقة لها حتى تتمكن من أخذ دفة القيادة التي تنازلت عنها لغيرها، أو أنها أخذت عنها عنوة عندما نُؤمت وشُغلت بما لم تُخلق له. ولن يكون لها وجود بدون الجهاد، هذه هي الطريقة الوحيدة التي حددها الله ﷻ للتواجد الواقعي للأمة المصطفاة، وهي حقيقة مسلمٌ بها.

فإما جهاد لنكون، أو لا جهاد فنذل وتضيع حقوقنا في زمن يقال أنه يسعى لإقرار حقوق الإنسان... قال ﷺ: (لَئِنْ تَرَكْتُمْ الْجِهَادَ وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ، وَتَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ لَيَلْزِمَنَّكُمْ اللَّهُ مَذَلَّةً فِي رِقَابِكُمْ لَا تَنْفَكُ عَنْكُمْ حَتَّى تَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ وَتَرْجِعُوا عَلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ)<sup>(١)</sup>.



---

(١) مسند الإمام أحمد (٥١/٩) حديث رقم ٥٠٠٧. والفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني (٤٤/١٥) تحقيق البنا، وقال: سنده جيد.



## الفصل الثاني

### عالمية الإسلام والنداءات المعاصرة

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: عالمية الإسلام، مفهومها، أهدافها.

المبحث الثاني: العولمة المعاصرة، مفهومها، أهدافها والموقف منها.



## المبحث الأول

# عالمية الإسلام، مفهومها، أهدافها

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم عالمية الإسلام.

المطلب الثاني: أهداف عالمية الإسلام.

## مفهوم عالمية الإسلام

عندما نقول عالمية الإسلام فنحن نتحدث عن قضية حاصلة وموجودة بأمر قدري من عند الله ﷻ؛ كتبها الله ﷻ منذ الأزل، وجعلها واقعاً مفروضاً على عباده، وحدد مُسمَّاهَا «العالمية» المشتق من المحيط الذي ستعمل فيه وهو العالم كله بلا استثناء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

كما حدّد المولى قواعدها التي ستقوم عليها، ومنهجها الذي ستعمل به، وأهدافها التي تسعى لتحقيقها في الأرض، وأهلها القائمين بها.

فالعالمية قرار ربانيّ صادر بأمر قدريّ كونيّ من الله ﷻ، الذي له الحق وحده في ذلك لا شريك له ولا مُعَقَّب لحكمه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

- والإسلام هو المشروع العالمي الذي اختاره الله ﷻ ليكون المنهج السائد والمطبق على العالم أجمع، وذلك بعدما تمّ واكتمل ووصل إلى نهاية الكمال، فلا منهج يضاهيه ولا حتى يمكنه محاكاته في شموله ومرونته واتساعه ومناسبته، وهذا الوضع النهائي بمسمّاه «الإسلام» هو الوحيد الذي يجب أن يعلم الجميع أنه المقبول ولا فائدة من سعيهم لإصدار أية منظومات وضعية؛ لأنها ستتحطم جميعها أمام هيكل الإسلام الشامخ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْآيَاتِ عِنْدَ اللَّهِ لَإِسْلَامٌ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

- ومحمد ﷺ هو المبعوث من قبل الملك لتنفيذ هذا القرار العالمي للناس جميعاً فنادى بذلك: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِنَاسٍ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].



ومكة المكرمة هي المكان الذي انطلقت منه تلك العالمية لأنها سرّة الأرض ومحور التفافها، قال تعالى: ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ١٧]. مهما اتسع وبعد فلا بد أن يصل إليه النداء.

- والمسلمون هم السُفراء الذين يُجوبون البلاد جميعها ليواصلوا التبليغ لتلك العالمية وتلك الرسالة الخالدة، وليبعدوا كافة الحواجز التي تمنع وصول هذه الرسالة السمحة، وتعيق تطبيقها لصالح الإنسانية لا لضررها. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والأمة المسلمة بجميع دولها وشعوبها هي وحدها المسؤولة عن سير العالمية الإسلامية وفق القنوات المحددة لها، وهي المشرفة على سلامتها، والمدافعة عن من يقف ضد انتشارها الطبيعي.

ولقد جاءت آيات القرآن الكريم تبين هذه القضية وتوضحها وتجلي حقائقها. قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]

إنه إعلان من الله تعالى بأنه بعث نبيّه محمداً ﷺ إلى الناس كافة، وكلمة ﴿كَافَّةً﴾ في الآية من ألفاظ العموم الدالة على معنى الجمع الكلي، وقُدِّمَتْ ﴿كَافَّةً﴾ في الآية على كلمة ﴿لِلنَّاسِ﴾ للاهتمام والبيان؛ حيث أنها إحدى خصائص الرسول ﷺ من بين الأنبياء ﷺ، فرسالته جاءت شاملة للثقلين الإنس والجن، عالمية الهدف موجهة لكل أبناء البشرية في مشارق الأرض ومغاربها.

لقد أعلنها الرسول الخاتم ﷺ إلى الناس جميعاً لا إلى بعضهم دون بعض كما كان من قبله من الرسل، وعن قتادة يرحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: أُرْسِلَ اللهُ محمداً إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله أطوعهم له<sup>(١)</sup>.

ولأن العقيدة حاجة روحية ضرورية لصالح البشر لا يختص بها فريق من

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/١١٧).

الناس دون غيرهم، فقد كانت الحاجة ماسة إلى دين عالمي يكون دعوة إلى شعوب الأرض قاطبة أبيضها وأسودها وأحمرها، عربها وعجمها، فلا بد أن يكون الدين الجديد عقيدة تصلح لهم جميعاً، وأن تشعر كلاً منهم أن له عقيدة يطمئن إليها، لذا جاء الإسلام ينادي بإنسانية واحدة تتلاشى فيها الفوارق الجنسية والجغرافية وتلتقي في عقيدة واحدة ونظام اجتماعي واحد.

جاء عالمياً لعدم اختصاصه بجنس من الأجناس البشرية، وبعدم تطبيقه في إقليم خاص أو بيئة معينة، وعالمياً بامتداد هدايته أزماناً طويلة، وعالمياً بكونه شريعة للإنسان من حيث هو إنسان بغض النظر عن الفوارق العارضة، وبدون ذلك لا يتحقق معنى العالمية في أي دين.

### مفهوم العالم في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. فالله ﷻ هو رب العالمين، ولفظ العالم جمع لا واحد له من لفظه؛ كالأنام والرهط والجيش ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جماع لا واحد له من لفظه. والعالم اسم لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالم، وأهل كل قرن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان.

والعالم جنس من أجناس الموجودات بنته العرب على وزن فاعل بفتح العين، مشتقاً من العلم، أو من العلامة؛ لأن كل جنس له تميز عن غيره فهو له علامة، أو هو سبب العلم به فلا يختلط بغيره، وهذا البناء مختص بالدلالة على الآلة غالباً كخاتم وطابع وقالب، فجعلوا العوالم كذلك لكونها كآلة للعلم بالصانع.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، الحمد لله الذي له الخلق كله السموات والأرض، ومن فيهن وما بينهن مما يعلم وما لا يعلم<sup>(١)</sup>.

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٩٦/١)، معالم التنزيل للبيهقي (٥٢/١)، المحرر الوجيز لابن عطية (٦٧/١)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٢٨/١)، القرآن العظيم لابن كثير (١٣٢/١)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٨/١).

ولقد وجب أن يكون الإسلام ديناً عالمياً لأنه خاتم الرسالات الإلهية من السماء إلى الأرض، ولأن في طبيعة هذا الدين وهذه الرسالة ما يجعلها حقاً صالحة للإنسانية في كل عصر ومكان، وأن يكون أيضاً في شخصية الرسول ﷺ وسجاياه وأخلاقه ما يجعله الرسول المصطفى ﷺ للعالمين جميعاً.

### أدلة عالمية الإسلام:

إن عالمية الإسلام قضية لا بد لها من أدلة تدعمها وشواهد تثبتها، وهذه الأدلة تعتمد على ما ورد في كتاب الله ﷻ وستة نبيه ﷺ من قوله وفعله.

فأدلة الكتاب جاءت منها آيات مكية تدل على أن وصف العالمية لازم الدعوة الإسلامية من أيامها الأولى، ومنذ أشرقت على الناس، فما أن ظهر الإسلام حتى ظهرت طبيعته «العالمية».

صحيح أن دعوة الإسلام بدأت أولاً محلية، ولكن هذا كان في ترتيب البدء بالدعوة، فقد بدأت أولاً في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٢٤) [الشعراء: ٢١٤]، ثم بقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩٦) [الأنعام: ٩٢]. وعندما استقر الرسول ﷺ بالمدينة كان من أعماله الأولى المؤاخاة التي قام بها بين المهاجرين والأنصار، ومع الزمن كانت الطبيعة العالمية للإسلام تتضح معالمها، وكانت نصوص القرآن صادعة بذلك، وحلت الآيات التي يتصدرها ﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾<sup>(١)</sup> محل الآيات التي توجه للمؤمنين والتي صرّحت بعالمية الإسلام.

### الآيات المكية الدالة على عالمية الإسلام:

ومن الآيات المكية<sup>(٢)</sup> قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٥١) [القلم: ٥٢]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧]، ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ

(١) في هذا نظر، فالآيات التي ابتدأت بـ(يا أيها الناس) كثير منها مكي.

(٢) جميع هذه الآيات المستدل بها مكية، انظر: الإنقان في علوم القرآن للسيوطي (١/٣)، القرآن العظيم لابن كثير (٣/٢٣٧)، (٣/٣٨٧)، (٥/٣٣١)، (٦/٩٢)، (٦/١٣٥)، (٧/١٨٩)، (٨/١٨٤).

هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ [يوسف: ١٠٤]، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٠].

لقد تكرر في القرآن الكريم استخدام كلمة ﴿الْعَالَمِينَ﴾ للدلالة على المحيط الذي سيدعو فيه محمد ﷺ والنوع الذي سيبلغه دعوته، ودلت بمجموعها أن دعوته عالمية تتفجر من مكة، سُرة الأرض، وتسيل أنهاراً على كافة المناحي، من كل جانب وفي كل صوب، وفي اندفاعها الخير ستدعو كل نوع من عرب وعجم، أبيض وأسود، جن وإنس؛ هذا هو محيط دعوته وأؤلئك هم قومه ﷺ.

قال سيد قطب رحمه الله تعالى: «والدعوة في مكة تقابل بذلك الجحود، ويُقابل رسولها بتلك النظرات المسمومة المحمومة، ويرصد المشركون لحربها ما يملكون، وهي في هذا الوقت المبكر، وفي هذا الضيق المستحکم، تعلن عن عالميتها. كما هي طبيعتها وحقيقتها. فلم تكن هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة - كما يدَّعي المفترون اليوم - إنما كانت صفة مبكرة في أيام مكة الأولى. لأنها حقيقة ثابتة في صُلب هذه الدعوة منذ نشأتها. كذلك أرادها الله ﷻ، وكذلك اتَّجهت منذ أيامها الأولى، وكذلك تتجه إلى آخر الزمان، والله ﷻ الذي أرادها هو صاحبها وراعيها، وهو المدافع عنها وحاميها. وهو الذي يتولى المعركة مع المكذبين. وليس على أصحابها إلا الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين»<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠]، وقوله تعالى ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: لينذر هذا القرآن البين كل حيٍّ على وجه الأرض، وكقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. وإنما ينتفع بنذارته من هو حيّ القلب، مستنير البصيرة، كما قال قتادة - يرحمه الله -: «حيّ القلب، حيّ البصر». وقال الضحاك - يرحمه الله -: «يعني: عاقلاً». ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: هو رحمة للمؤمن وحجة على الكافر<sup>(٢)</sup>. وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٦/٣٦٧١).

(٢) القرآن العظيم لابن كثير (٦/٥٩٢).

دليل صريح على عالمية الإسلام، فالقرآن الذي هو منهج التشريع في الإسلام جاء لكل حي على وجه الأرض، وهذا يحتمل المسلمين أمانة عظمى؛ فهم المسؤولون عن متابعة المهمة التي قام بها المصطفى ﷺ لإيصال الدين إلى العالم كله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] بيان على أن الله ﷻ قد أرسل نبيه محمداً ﷺ رحمة لجميع العالم مؤمنهم وكافرهم. فأما مؤمنهم فإن الله ﷻ هداه به وأدخله بالإيمان به وبالعامل بما جاء من عند الله الجنة. وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله<sup>(١)</sup>. وهذا دليل على عالمية الإسلام لأن الله الرحيم قد أرسل رسوله رحمة للعالمين أي لكل العالم. ونلاحظ دائماً تكرار لفظ العالمين، وهو المعنى الواضح للعالمية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِتُذَكِّرَ بِهِ مَنِ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، بيّنت الآية الكريمة علة إنزال القرآن على محمد ﷺ رسول العالمين، وخاتم الأنبياء والمرسلين وهي الإنذار، وحددت الآية الكريمة مساحة هذا الإنذار، مما أثبت عالميته، فلا إنذار أم القرى وَمَنِ بَلَغَهُ مِنَ النَّاسِ غَيْرِهِمْ.

قال مجاهد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: حيثما يأتي القرآن فهو داع وهو نذير، ثم قرأ: ﴿لِتُذَكِّرَ بِهِ مَنِ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِتُذَكِّرَ بِهِ﴾: العرب، ﴿وَمَنِ بَلَغَ﴾: العجم<sup>(٢)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وأم القرى هي مكة المكرمة، وهي قلب الأرض، ومن حولها يشمل كل الناس غير المقيمين فيها، فكل حي على وجه الأرض مقيم حول مكة، فهي مركز الدائرة وقطرها ممتد بين كل نقطتين على المحيط العالمي.

هذه معظم الآيات المكية التي جاء فيها التأكيد الواضح لعالمية الإسلام، ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٠/١٤١).

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (٥/٢١٥).

الَّذِي لَمْ يَلِكْ أَلْسِنَةٌ وَالْأَرْضُ لَأَيْدِيهِ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ  
 النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾  
 [الأعراف: ١٥٨] ، بيان أنها الرسالة الشاملة التي لا تختصُّ بقوم ولا أرض  
 ولا جيل، ولقد كانت الرسائل قبلها رسائل محلية وقومية محدودة، وكانت  
 كل رسالة تتضمن تعديلاً وتحويراً في الشريعة، يناسب تدرُّج البشرية حتى إذا  
 جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة في أصولها وصالحه للتطبيق في كل مكان  
 وزمان، وجاءت للبشر جميعاً لأنه ليست هناك رسائل بعدها، وجاءت وفق  
 الفطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً، ومن ثم حملها النبي ﷺ  
 الأمي حامل رسالة الفطرة للناس جميعاً تعبيراً عن فطرتهم<sup>(١)</sup>.

ويؤكد هذا المعنى أيضاً قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ  
 لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، فهذا النص مكّي وله دلالة على إثبات  
 عالمية هذه الرسالة منذ أيامها الأولى، فهي منذ نشأتها لم تكن رسالة محلية،  
 بل كانت رسالة للعالمين، طبيعتها طبيعة عالمية شاملة، ووسائلها وسائل  
 إنسانية كاملة، وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد، ومن نهج إلى  
 نهج عن طريق هذا القرآن الذي نزله الله ﷻ على عبده ليكون للعالمين  
 نذيراً<sup>(٢)</sup>.

إنَّ الإسلام بتعاليمه السماوية الربّانية إنما جاء منذ بعثة خاتم الأنبياء  
 والمرسلين ديناً عالمياً للناس كافة، فهو وإن كانت نواته الأولى في بقعة  
 اختارها الله ﷻ لتكون مركزاً لانطلاقته ولدى قوم معينين اجتباهم الله ﷻ  
 ليكونوا أهله والقائمين عليه، فهذا لا يعني أنه محصور في حدود تلك الأرض  
 ووقف على أولئك الناس.

إنَّ الإسلام من نشأته إنما جاء للعالم أجمع، وهذا ما نصَّ عليه القرآن  
 الكريم، والسنة النبوية المطهّرة، فمنذ أن أنزله الله ﷻ كانت غايته وهدفه أن  
 يكون نذيراً للعالمين أجمعين، موجّهاً لكل أبناء البشرية في مشارق ومغاربها

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢٩/٩)، في ظلال القرآن لسيد قطب (٢)  
 .(٢٧٩)

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٢٥٤٨).

لأنه يمثل الدين الحق الذي ارتضاه الله ﷻ لخلقه كافة، فالرسالة الإسلامية لم تكن ذات نزعة عنصرية ولا حكرأ على العرب وحدهم بل هي للناس قاطبة عربهم وعجمهم.

### الآيات المدنية الدالة على عالمية الإسلام:

ومن الآيات المدنية<sup>(١)</sup> الدالة على عالمية الإسلام قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ رَبِّي وَمَنِ اتَّبَعْتُ فَلْيُكَلِّمْنَا أَطْرَفًا فَإِنْ أَسَلْنَاكُمْ فَأَجِبْنَا بِالْإِسْلَامِ إِنَّهُ عَنِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ فَاسْتَمِيعُوا لَهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠]، قال الشيخ السعدي يرحمه الله تعالى: «لما بين أن الدين الحقيقي عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب شافهوا النبي ﷺ بالمجادلة، وقامت عليهم الحجة، فعاندوها، أمره الله تعالى عند ذلك، أن يقول ويعلم، أنه أسلم وجهه لله، وأن من اتبعه كذلك، وقد وافقوه على هذا الإذعان الخاص، وأن يقول للناس كلهم: إن أسلمتم، فأنتم على الطريق المستقيم والهدى والحق، وإن توليتم، فحسابكم على الله، وأنا ليس عليّ إلا البلاغ، وقد أبلغتكم، وأقمت عليكم الحجة»<sup>(٢)</sup>.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] حكم الله تعالى بأنه لن يقبل من آدمي ديناً غير الإسلام، وهو الذي وافق في معتقداته دين كل الأنبياء ﷺ، وهو الحنيفية السمحة<sup>(٣)</sup>، وبما أنه لا يقبل غيره من الناس فمعنى ذلك أنه دينهم جميعاً الذي يجب أن يلتزموه ويعتقوه، فهو دين العالم أجمع.

وبمثلته قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]؛ أي: هو الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالبيان الواضح، ودين الحق، وهو الإسلام الذي أرسله داعياً خلقه إليه ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ فليبطل به الملل كلها حتى لا يكون دين

(١) الآيات المستدل بها مدنية، انظر: الإتقان للسيوطي (١/١٦٣)، تفسير القرآن العظيم

لابن كثير (٥/٢)، (١٠١/٤)، (٣٢٥/٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٣٦٧).

(٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١/٤٦٧).

سواه<sup>(١)</sup>، وفي هذا بيان لعالمية الرسالة، ومعنى ليظهره على الدين؛ أي: ليجعله أعلاها وأظهرها وإن كان معه غيره كان دونه، والمراد أن الله ﷻ سيظهر دينه على سائر الأديان كما ثبت في الصحيح عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا)<sup>(٢)</sup>.

وقال قتادة رحمه الله تعالى: الأديان ستة: الذين آمنوا، والذين هادوا، والصابئون، والنصارى، والمجوس، والذين أشركوا. فالأديان كلها تدخل في دين الإسلام، والإسلام لا يدخل في شيء منها، فإن الله قضى فيما حكم وأنزل أن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون<sup>(٣)</sup>.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَدْيَانَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا الْإِسْلَامَ﴾ [آل عمران: ١٩]، يستدل أن الدين ليس إلا الإسلام، وأن كل دين سواه غير مقبول عند الله ﷻ؛ لأنه الدين المتكامل الذي تصلح عليه حياة الإنسان في كل الأحوال والظروف، وذلك لما يتجلى في شريعة الإسلام من الخصائص والمزايا ولما تنبني عليه من المقومات والحقائق بما يجعله المنهج المتكامل المتسق الوحيد الذي يصلح لكل مكان وزمان. وعلى هذا فليس لأحد البتة أن يبتغي غير ملة الإسلام ملة من الملل، ومن يطلب ديناً غير الإسلام ليدين به فلن يقبل الله منه، وهو من الباخسين أنفسهم حظوظها من رحمة الله ﷻ<sup>(٤)</sup>.

### الأحاديث الدالة على عالمية الإسلام:

إذا انتقلنا بعد ذلك إلى السنة النبوية، وجدناها الصدى المتجاوب مع آيات الله ﷻ، فعن جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ)<sup>(٥)</sup>، والمراد

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٤١/١٣).

(٢) صحيح مسلم (١٧٥٤/٤) حديث رقم ٢٨٨٩.

(٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٢٦/٣)، الدر المنثور للسيوطي (٤١٧/٣).

(٤) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٩٥٤/٣)، التفسير الشامل للدكتور عبد العزيز الأمير (٥١٥/١).

(٥) صحيح مسلم (٣١٠/١) حديث رقم ٥٢١.



بالأحمر: البيض من العجم وغيرهم، وبالأسود: العرب لغلبة السمرة فيهم، وقيل المراد بالأسود السودان، وبالأحمر من عداهم من العرب وغيرهم. وقيل الأحمر الإنس والأسود الجن، والجميع صحيح فقد بُعث ﷺ إلى جميعهم (١).  
وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخْتِمَ بِي النَّبِيُّونَ) (٢).

الأدلة والحقائق الواقعية في التعامل الإسلامي الدال على عالمية الإسلام:

لقد نادى الإسلام كل الناس، فكانت العقيدة المذهبية التي وضعها، والمبدأ العام الذي تسير عليه البشرية في تطورها لتصل إلى غايته هو المعبر عنه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، وتكرر استعمال هذه الكلمة الدالة على الجنس البشري نحواً من أربعين ومائة مرة في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلْالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ٢٣].

إنَّ استعمال لفظ «الناس» و«الإنسان» يُرْسِخُ معنى الإنسانية العام ووحدة الجنس البشري، ذلك أنَّ القرآن الكريم لا يخاطب قومية معينة، ولا شعباً معيناً، بل يخاطب الإنسان بوجه عام.

إن العالمية تعني أن الشريعة الإسلامية في أحكامها، ومبادئها، وتوجهاتها ذات صبغة إنسانية عالمية؛ فهي رحمة للعالمين، وهداية للناس كافة، فليست تشريفاً لجنس أو لإقليم، بل هي نظام حياة للإنسان من حيث

(١) انظر: صحيح مسلم شرح النووي (٨/٥).

(٢) صحيح مسلم (٣١١/١) حديث رقم ٥٢٣.

هو إنسان، فلا عنصرية في هذه الدعوة، ولا عصبية في هذا التشريع، ولا طبقية في هذا الدين، وإنما الناس سواء كأسنان المشط، والشعار العام في هذه الصبغة الإنسانية لدعوة الإسلام كما ذكرنا سابقاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

وإذا كانت الرسالة المحمدية تتصف بالعالمية والعموم فإنها جاءت لإصلاح الجميع، فلقد عاملت الأجناس كلها، وعممت فيها أحكامها، وسوّت بينها في المعاملة؛ لأن الطبيعة الإنسانية واحدة مما يستوجب وحدة التكليف والمعاملة.

ومن الحقائق الدالة على عالمية الإسلام: تأكيد النبي ﷺ في أكثر من مناسبة على ذلك، فقد ثبت تاريخياً أنه عليه الصلاة والسلام أرسل إلى الملوك والرؤساء في عصره كالتجاشي وكسرى وقيصر<sup>(١)</sup>، فلو لم تكن دعوته عالمية لما أرسل إلى ملوك الأرض يدعوهم بدعوة الإسلام، ويأمرهم باعترافه، وبهذا يكون الإسلام قد سلك طريقة حضارية سلمية في الدعوة إلى عالميته.

وقد كانت مدرسة الرسول ﷺ دليلاً آخر على عالمية رسالته، وذلك بما كانت تضم من تلاميذ مختلفي القومية والجنس، فهؤلاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير رضي الله عنهم من قريش، وهذا أبو ذر رضي الله عنه من تهامة من قبيلة غفار، وهذا أبو هريرة رضي الله عنه من إحدى قبائل اليمن، وهذا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه من قبيلة الأشعريين من اليمن، وسلمان رضي الله عنه من فارس، وبلال رضي الله عنه من الحبشة - رضي الله عن صحابة رسول الله أجمعين - وهكذا نرى المدرسة المحمدية مفتحة للواردين عليها من كل أمة، ومن شتى طوائف البشر.

ومن الأدلة أيضاً لهذه العالمية: أنّ الحق ﷺ قد حمل المسلمين في كل زمان ومكان أمانة تبليغ الدعوة إلى آفاق الدنيا، ومجاهل الأرض، وأصناف الأمم، ولأجل هذا التكليف استحقوا أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس، قال

(١) انظر: صحيح البخاري، باب دعوة اليهود والنصارى وما كتّب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، والدعوة قبل القتال ص ٥٩٥.

تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]

والباحث في عالمية هذا الدين، يجد أن هذه العالمية نطقت بها آيات القرآن الكريم، وجاءت بها السنة النبوية، وأكدها واقع الدعوة الإسلامية من سرايا، وغزوات، واستقبال للوفود، وكتب للملوك في العالم.

كما أن الخصائص التي تميز بها الإسلام الذي جاء محمد ﷺ في صورته الأخيرة جعلته صالحاً وبدون مناقشة لأن يكون هو الوحيد الذي يستحق لقب العالمية ومن تلك الخصائص:

١ - وفاؤه بحاجة الإنسانية جميعاً فيما يَصُونُ وحدتها ويرعى إنسانيتها ويحمي أفرادها في العاجل والآجل، بالإضافة إلى تشريعاته التي تضمن قيام الإنسانية كلها في محيط واحد لا تنزع معه إلى عصبية دم أو اختلاف لون أو جنس.

٢ - اتساقه مع حقائق الكون وخصائص الوجود بحيث لا يتعارض مع ما يثبت من حقائق العلم أو يختلف مع منطق الفكرة.

٣ - خلوده وبقاؤه: فالإسلام دين خالد يصحب الإنسان في جميع أزماته وعصوره، وفيه بجميع مطالبه المتنوعة المتجددة.

٤ - قيام الإسلام على عناصر متكاملة هي وحدانية الإله، وإنكار تعدد الآلهة، واقتضى هذا العنصر وحدانية الربوبية، ووحداية الإلهية، والأسماء والصفات، والإيمان بكتب الله ﷻ المنزلة على الأنبياء سواء منها ما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على إخوانه الأنبياء السابقين ﷺ. والإيمان أيضاً بجميع الرسل الذين أرسلهم الله ﷻ على الناس من لدن آدم إلى محمد ﷺ. فالإيمان بوحدانية الله ﷻ، والإيمان بكتبه، ورسله هذه جميعها عناصر رئيسة في العالمية التي جاء بها الإسلام.

٥ - وحدة المنهج وسلامته، فقد كان المسلمون يقدمون للبشرية منهجاً واحداً قولاً وعملاً، ويحمل هذا المنهج الصحة والسلامة في العقيدة والشريعة والأخلاق.

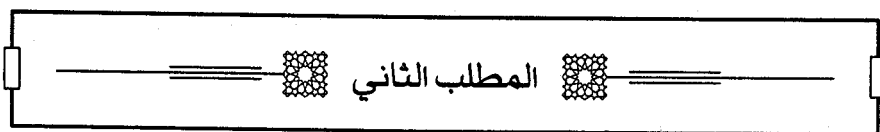
٦ - مخاطبته لما هو مشترك في البشر من حيث الفطرة، فعالمية الإسلام قد خاطبت ما هو مشترك في البشر من حيث الفطرة، والطبيعة الإنسانية، ولهذا قامت عالميته على عالمية مختلفة عن عالميات تقوم لغرض حضارة شعب على الشعوب الأخرى، وهو يختلف عن الحضارات المنعزلة التي حققت مداها في مكان وزمان محددين، ولم تعد قادرة على التجدد والعطاء. فكان هذا من أعظم منافذه نحو العالمية؛ كونه منسجماً مع فطرة الإنسان المتجهة نحو التوحيد، والتوازن، والعدل.

لقد توافرت لهذا الدين القوى المساندة بجميع أسبابها والتي منها قوة أهل الإيمان الذين حققوا الصفات المطلوبة من صحة الاعتقاد، وقوة البصيرة، والعمل بالأسباب المشروعة والصبر والمصابرة والثقة بنصر الله<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]. هذه الآية هي القاعدة التي يُبنى عليها النظام العالمي الذي أراده الله ﷻ، فلن تكون هناك عالمية، ولن تستقر واقعاً في حياة الناس، ولن يكتب لها التمكين لسبب واحد فقط هو قيام العبادة الحققة لله ﷻ وعدم الشرك به، وتبين الآية أنه لا توجد قوة على وجه الأرض تمنع من قيام عالمية الإسلام لأن الله ﷻ تعهد بوجودها إذا قام أصحابها بشرطها.



(١) انظر: هذا هو الإسلام للدكتور أحمد السايح ص ١٠٥، والإسلام بحث في العقيدة والإيمان للدكتور أحمد عطار ص ١١٨، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه للدكتور محمد يوسف موسى ص ٥٥، العولمة للدكتور عابد السفياي ص ١٥٥ بتصرف.



## أهداف عالمية الإسلام

إنَّ العالم اليوم أحوج ما يكون لمفهوم الرحمة، فقد بات يعيش واقعاً مريراً، وليلاً طويلاً في نفق خانق ليس له نهاية يقوده أناس غير مؤهلين لذلك فليس لهم منهج رشيد يسوسون الناس به ولا هم أهل صلاح وخير ليقودوا الناس إليه؛ جاهلون لطريق الحق والهدى، أصحاب قلوب خربة، وأنفس مريضة، وأعين عمياء، وأذان صماء لا يبصرون الطريق ورغم ذلك تنازل من بيدهم النور، وخارطة الطريق، الذين يعلمون كيف يقودون سفينة الحياة، وكانت لهم خبرات سابقة، استقرت فيها الحياة، وشاع الأمن، وانتشر العدل، تنازلوا لهم وسلّموهم دفعة القيادة، ورضوا بأن يكونوا مَقُودِينَ لا قائدين، مأمورين لا أمرين، فلا هم ارتاحوا ولا ذاقت البشرية طعمها، ففي كل جانب لها مصاب، وصدى للألم، وجبال من الهمّ والغمّ والحزن.

بيد أن تلك الطائفة التي سلّمت قيادة البشرية؛ فطنت إلى أن من تنازل لها عن دوره قد يثوب إلى رشده فيطالب به، وتعود له ذاكرته فيعلم أنه دوره، وأنه الوحيد المؤهل لذلك، فوضعت جام غضبها، وكامل قواها، وجميع خططها لتطهير السفينة منهم تطهيراً عرقياً كاملاً جاهلين أن سنة الله تآبى إلا بقاءهم، وأنهم خلّقوا للقيادة والسيادة والريادة وأنهم باقون حتى قيام الساعة، فهم أخرجوا للناس ولخيرهم ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وجعلوا للشهادة عليهم والأخذ بيد الظالم حتى يرجع عن ظلمه، والضعيف حتى يؤخذ له حقه رسالة مضمونها وعنوانها الرحمة. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

أبانت الآية الهدف الأسمى للعالمية الإسلامية هو الرحمة الشاملة التي أحاطت بالبشرية بل بالكون كله، والتي هدفت الرسالة إلى تحقيقها في العالم أجمع.

والآية توضح هذا المعنى وتبينه وتؤكد، فلقد نفت الآية كل الغايات، والأهداف التي جاءت الرسالة المحمدية لتحقيقها في واقع الناس، ولم تؤكد إلا غاية واحدة، كانت هي العنوان والمضمون والخاتمة لهذه الرسالة العالمية، إنها الرحمة للعالم أجمع، دون التدخل في خصوصياتهم، وسلب ممتلكاتهم.

قال ابن القيم رحمته في معنى قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ وجهان:

الوجه الأول: إن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له: فالذين عَجَّلَ قتلهم وموتهم خير لهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر. وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله، وعهده، وذمته، وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهليهم. وأما الأمم النائية عنهم فإن الله تعالى رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

أما الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنين قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردُّوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها<sup>(١)</sup>.

ولقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى بمنهج يسعد البشرية كلها ويقودها إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة، وذلك بتحقيق الأهداف السامية للعالمية والتي منها:

## ١ - حماية العبادة والاعتقاد للناس جميعاً:

وذلك بتعريف الناس بإلههم الواحد، وربهم الحق، وتعبيدهم لربهم وحده، ونبذ ربوبية الخلق؛ وذلك بإسلام العباد لرب العباد، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ذلك أن القاعدة التي يقوم عليها الإسلام هي «شهادة أن لا إله إلا الله» أي: أفراد الله تعالى بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان.

(١) بدائع التفسير لابن قيم الجوزية (١/١٩٨).

ومعنى تقرير هذه القاعدة؛ أن تعود حياة البشر بجملتها إلى الله ﷻ بالرجوع إلى حكمه وإتباعه، وهذا ما أعلنه صحابة رسول الله ﷺ إلى ملوك الأرض عند فتحهم للبلاد، ففي غزوة القادسية لما تواجه الجيشان بعث رستم إلى المسلمين أن يبعثوا إليه برجل عاقل عالم، فجاء المغيرة بن شعبة ﷺ فسأله رستم: ما الأمر الذي جئتم به؟ فقال له المغيرة ﷺ: أما عموده الذي لا يصلح شيء إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله ﷻ، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، والناس بنو آدم إخوة لأب وأم. ثم بعث إليه المسلمون رجلاً آخر هو ربعي بن عامر فأكد ﷺ الهدف الأس لعالمية الدين بقوله: (ابتعثنا الله ﷻ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه، لندعوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله<sup>(١)</sup>).

إذاً إن عالمية الإسلام تهدف إلى حماية العباد واعتقاد الناس جميعاً وذلك باستبعاد عناصر القوة المعادية، وحماية الضعفاء من عسفها، ودفع الظلم عنهم، ومقاومة الشر والفساد بالأرض بحكم الوصاية الرشيدة التي أناطها الله بهذه الأمة، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

## ٢ - تقرير مبدأ الأخوة الإسلامية وإحلالها مقام الجنس والدم والنسب:

فقد التقى في المجتمع الإسلامي العربي والفارسي والشامي، وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي، والحضارة الإسلامية على قدم المساواة وبأصرة الحب وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة وهدف واحد بعيداً عن تلك الحواجز الجغرافية أو العنصرية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠].

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣٩/٧).

فجميع إخوة في الدين كما قال ﷺ في الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ)<sup>(١)</sup>، ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يُرد إلى الأصل فور وقوعه.

### ٣ - تحقيق التواصل الحضاري وتبادل المعارف والاكتشافات وصياغة علاقات تقوم على أساس من الاحترام والحرية:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].  
فعالمية الإسلام تعني الاعتراف بالتبادل، والاعتراف بالأدوار بحيث يكون العالم منفتحاً على بعضه مع الاحتفاظ بتنوعاته، وهذا الهدف هو ما يميز العالمية الإسلامية عن العولمة الغربية. فالإسلام يقرر مبدأ الاعتراف بالآخرين، واحترام الخصوصيات، وهو الأمر الذي أنتج حالة الحوار بين الثقافات والحضارات والدول والشعوب، فالعالمية لا تهدف إلى الهيمنة الاقتصادية أو الثقافية إنما تهدف إلى التنوع وانفتاح الثقافة الخاصة على الثقافات الأخرى. هذه هي العالمية التي دعا إليها الإسلام وحض عليها<sup>(٢)</sup>.

### ٤ - تحقيق السلام العالمي:

إن الإسلام ليس ديناً مغلقاً على شعب واحد، أو أمة واحدة، بل هو دين مفتوح لكل من يطلب الحق، ويؤمن به؛ فهو دين عالمي للناس جميعاً في جميع العصور، ولذلك كان من الطبيعي أن يرعى الإسلام هذه الحقيقة، وأن يعمل على أن يعيش الناس بسلام في جميع أنحاء العالم، وفي كل الأزمان، فهو لا يعادي غير المسلم لأنه مخالف له في عقيدته ما دام لم يقف من المسلمين موقف العدا، بل إنه يرعى المحتاجين منهم، ويُعين العاجزين الذين

(١) صحيح البخاري ص ١٤٦٠ حديث رقم ٦٩٥١.

(٢) معالم في الطريق لسيد قطب ص ٥٩ بتصرف.



يعيشون في بلاد الإسلام، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] (١).

## ٥ - الترقى في مرتبة الكمال الأخلاقي:

هذا ما أعلنته عالمية الإسلام منذ انطلاقة بذرتها الأولى، وهذا ما يشهد به أعداء رسول الله ﷺ، فهذا أبو سفيان بن حرب حينما سأله قيصر الروم عن محمد ﷺ فماذا يأمرهم به؟ فقال أبو سفيان: «يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ» (٢).

إن أخلاق هذا الدين مستمدة من عقيدته التي تتسم بالعمق والثبات والرسوخ مما يُعطي الأخلاق نفسها روح الثبات، والقوة، والشمول، واتصال الأخلاق بالعقيدة يمنحها روح التجرد من المنافع، والتخلص من الرياء الكاذب.

ثم إن كل خلق في الإسلام يرتبط بغايته التي إليها يقصد، وليست للأخلاق إلا غاية واحدة «الإيمان بالله واليوم الآخر»، وهذه الغاية هي التي تحدد الباعث على العمل لتتجه به في طريق مستقيم، ولا يوجد سباج تُصان معه الحقوق - حقوق الأفراد والجماعات - إلا سباج الأخلاق.

## ٦ - تقديم رسالة الحضارة الإسلامية بوصفها ضرباً روحياً وخلقياً ومادياً:

فحضارة الإسلام تتصف بأنها روحية وخلقية ومادية، فهي كاملة تجمع الجوانب الثلاثة، فوصفها هذا لا يتنافى فيه الدنيوي والأخروي تنافياً انقسامياً يجعل الإنسان ممزقاً بين عالمين أحدهما تحكمه القوانين الطبيعية الصماء، وثانيهما تحكمه القوانين الخلقية العزلاء.

(١) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه لمحمد يوسف موسى ص ٢٦٩ بتصرف.

(٢) انظر: صحيح البخاري، حديث رقم ٢٩٤١.

إذا نستطيع القول بأن العالمية تهدف إلى بناء مجتمع العدل والقوة وتحقيق المساواة بين البشر، كما أنها تربي الناس على الإبداع والإلتقان بتفجير الطاقات الإنسانية لمواصلة التقدم والرقي في ظل تذكيرها للبشرية بأصل نشأتها الأولى، وتذكيرها بوحدة الفطرة الإنسانية، وحاجتها للعبادة المبنية على التوحيد الخالص مع تقديم الحلول العملية للمحافظة على مصالح البشرية الدنيوية والأخروية<sup>(١)</sup>.

## ٧ - تبني وتحقيق العدل:

تهدف العالمية الإسلامية إلى تحقيق العدل بين الناس جميعاً، وصيانة دمائهم وأعراضهم وأموالهم وعقولهم، فهدفها الأكبر هو حفظ الضرورات البشرية وكفاية الشر عنهم الذي ينتج بسبب الظلم والبغي والفواحش، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٣﴾ [البقرة: ٢١٣]. فغاية العالمية الإسلامية هو تحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد، دون السعي في تحقيق مصلحة طبقة دون أخرى، ولا جنس دون آخر، ولا أمة دون أمة.

إنّ مراعاة هذه الاعتبارات لا يمكن أن يتحقق بشكل كامل وشامل في أي تشريع بشري، وهذا ما شهد به التاريخ الماضي بأكمله، والواقع الحاضر بأحواله المشاهدة، والتي باتت لا تخفى على عين، والساعون الآن إلى تحقيق العدالة الشاملة الكاملة بين أفراد البشرية أجمع عاجزون تماماً عن تحقيقها؛ لأن التشريع البشري عاجز، والقائمون على تطبيقه غير مؤهلين لسياسة البشرية وقيادتها.

فإذا ما عاد الوضع إلى حالته السليمة بأن يكون التشريع الرباني هو المعمول به والمطبق في حياة الناس، وأن تكون القيادة بيد القواد الحكماء العدول الذين اصطفاهم الله ﷻ لخدمة عباده وإخراجهم من التيه إلى الرشاد،

(١) انظر: مجلة البيان عدد ١٤٥ العولمة بين منظورين للدكتور محمد أمحزون.

ومن العذاب إلى النعيم، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الظلم إلى العدل؛ لأنهم لا يسعون لمصالح شخصية بل هم أناس علّوا على متع الحياة، وقدموا الإقرار بالسلام الشامل والعدل المطلق للبشرية التي ذاقت صنوف العذاب وأنواع البلاء.

إنها الأمة التي أخرجها الله ﷻ للناس تأمر بالخير وتنهى عن الشر، وتسعى لإقرار العدل، ولأن الله ﷻ جعلهم العدول الأخيار، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وحمّلهم مسؤولية الناس ودعوتهم إلى الخير بقوله: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]

وقال ﷻ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فعالمية الإسلام تحمل في جذورها العدل المطلق لكافة الناس، وتحت ظلالها الأمن التام لهم، وهي تقدم ثمار السلام والتأخي والعدل والرفق والسعادة للبشرية كافة.

فمبدؤها ثابت لا يتغير، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْوٍ عَلَآ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، هذه هي خصيصة الشريعة في تحقيقها العدل المطلق لكل من يعيش تحت ظل حكمها ونظامها.





## المبحث الثاني

### العولمة مفهومها وأهدافها والموقف منها

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم العولمة.

المطلب الثاني: مجالات العولمة.

المطلب الثالث: أهداف العولمة.

المطلب الرابع: الموقف الرشيد تجاه العولمة.

## توطئة

إنَّ الصراع بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الانفتاح والانغلاق، وبين القوة والضعف قديم في أعماق التاريخ، يشتد أحياناً ويضعف أحياناً أخرى، وذلك بحسب الفرص والمناسبات، وبما أن المسلمين منذ بزوغ فجر دعوة الإسلام قبل أكثر من أربعة عشر قرناً هم أعلام الحق والإيمان والهدى والنور، والخير والفضيلة والأخلاق، ومقاومة الكفر بمختلف أشكاله، فإنهم كانوا وما يزالون هدفاً لأنصار الباطل والضلالة، وسندة الأهواء والشهوات، والتسلط والشر، والتحلل من القيم العليا، ومحاولة إحباط الوجود الإنساني الكريم.

ومن هنا جاء الحديث عن العولمة<sup>(١)</sup>؛ ذلك أن وسائل الإعلام ومراكز البحوث في العالم تطرح بين فترة وأخرى بعض الشعارات وبعض المصطلحات والتي تحمل في طياتها عقائد وأفكاراً وسلوكيات تكون هي حديث الثقافة، وتردها وسائل الإعلام المختلفة، والمصطلح الذي يغزو العالم اليوم والذي هو حديث رجال الفكر وصنَّاع القرار هو مصطلح «العولمة».

(١) إن العالم الغربي أدرك أهمية القوامة على العالم، والتي اصطفى الله ﷺ الأمة المسلمة لها، فاخترع ما يسمى بالعولمة ليسيطر بها على العالم، وليحارب عالمية الإسلام المنصوص عليها في الكتاب والسنة، وشتان ما بين العالمية والعولمة، شتان ما بين عالمية تسعى للقوامة على العالم لتصلحه وتنشر فيه العدل والخير والسلام، وعولمة تسعى للسيطرة على العالم لصالحها ولامتصاص دماء الشعوب وإذلالهم وإشاعة الدمار والظلم والخراب بينهم، لذا وجدث من المهم الكتابة في هذا الموضوع لبيان الفرق بين المفهومين والهدفين والفرضين، وإن كان من الملاحظ أنه في هذا المبحث قلَّ الاستدلال بالآيات مع ما يناسب طبيعة البحث القرآني، وذلك لأن الحديث عن العولمة كطرح جديد تطلب مني الاستناد إلى الكتب المؤلفة حديثاً والاقْتباس منها، كما أن الآيات التي استندت إليها في بيان العالمية أغنى البحث عن تكرارها هنا.

فما هي العولمة؟

وما هي مجالاتها؟

وما هي أهدافها؟

وما موقف الإسلام منها؟

إن العولمة مخطط يحاول أن يزيل كل شيء موجود بين جميع الدول بحيث تصبح الأخلاق والسلوكيات والأفكار والبضائع والشركات والدين كله سواء، ثم يفتح جميع تلك الأمور على مصراعيها دون أن يوقف هذا الانفتاح والدمج أية خصوصيات بين الناس.

إن العولمة يراد بها أن يتحول العالم كله إلى صالون واحد مفتوح من جميع الجهات؛ الجميع يشاهد الجميع، ولا أحد يستطيع أن يخفي شيئاً عن الجميع، يرافق ذلك كله مؤتمرات تعقد بين فترة وأخرى لتصب في مشروع العولمة، مثل مؤتمرات السكان والتي هي في حقيقتها مؤامرات ضد السكان، وهذه المؤتمرات تسعى إلى إشاعة أنماط من السلوك المخالفة للشريعة الإسلامية من إباحية للجنس، والإجهاض، وتحديد النسل، والاعتراف بالشاذين جنسياً، كل ذلك لعولمة القيم الاجتماعية لسكان العالم أجمع. إن أصحاب العولمة والمروّجين لها يحاربون كل طاهر عفيف يقف حجر عثرة أمام ذلك التيار الجارف الذي يريد نشر قيمه ومبادئه على العالم، وقسر الجميع على العمل بها، بل ويقولون لكل مجتمع يُصر على التمسك بقيمه: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنطَهُرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] فالعولمة تحارب الفضيلة وأهلها، وتعتبرهم أناساً متخلفين لا يواكبون حضارة العصر وتقنية الغرب.

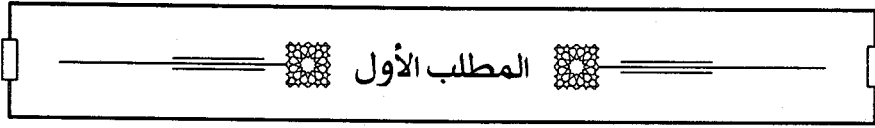
ومع تلك المؤتمرات المشينة لوّحت العولمة بشعارات براققة، تحمل في طياتها الشرّ للإنسان. إن أبرز شعار ترفعه العولمة وتنادي به وتدعيه ما يسمى بحقوق الإنسان، وكان ذلك بعد نهاية الحرب العالمية الثانية التي راح ضحيتها عشرات الملايين من البشر، وانتهكت فيها الإنسانية، فعملت على إعلاء شعار الاهتمام أو الحفاظ على حقوق الإنسان، وهو السلاح الذكي الذي حققت به العولمة أهدافها الاستعمارية الخفية، حيث أنها جعلت لها الحق في اتخاذ

إجراءات تأديبية من خلال هيئة الأمم المتحدة ضدّ من يتناول على هذه الحقوق، ولكن لا بد من التنبيه إلى أن ما يدعيه الغرب من تطبيق حقوق الإنسان ادعاء غير صحيح، حيث أنه يُعمل به لصالح جهة واحدة فقط بدلالة بقاء كثير من الدول المسلمة تحت التعذيب والقتل والإهانة بمرأى ومسمع مُصدّري قرار الحفاظ على حقوق الإنسان دون أن يُحرّك ذلك فيهم شيئاً؛ كما أن هذا الشعار الذي أصبحوا يلوكونه ويتشدقون في الحديث عنه، إنما هو منهج قديم جاء به الإسلام قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، فقد حافظ الإسلام على ما يُسمّى بالكليات الخمس: النفس والمال والدين والعقل والنسل، وهذه الضروريات الخمس هي ما تحتاج إليه البشرية فعلاً، وما جاءت به العولمة من انفتاحية وتحرر وإعطاء الحرية الكاملة للإنسان دون رقابة أسرية ما هو إلا تضييع لهذه الحقوق الخمسة.

إنّ علينا جميعاً إدراك أن العولمة يُراد بها هيمنة الدول صانعة القرار على ما سواها من دول العالم، سواء أقبِلَ العالم ذلك أم لم يقبله. وما العولمة إلا أسلوب ذكي ظهر في صورة جميلة تحفها شعارات براءة تُخفي وراءها أهدافاً غير تلك التي تُظهرها، فرضت نفسها واقعاً على العالم أجمع.







## مفهوم مصطلح العولمة

أولاً: لا بد أن نعلم منشأ كلمة العولمة قبل الحديث عن مفهومها: لقد شاع في الاستعمال حديثاً استخدام كلمة «عولمة» في مقابل (Globalism) ويقصد بها: اتجاه الحركة الحضارية نحو سيادة نظام واحد تقوده في الغالب قوة واحدة، أو بعبارة أخرى استقطاب النشاط السياسي والاقتصادي في العالم حول إرادة مركز واحد من مراكز القوة في العالم والمقصود طبعاً قوة الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن المعروف أن استعمال الكلمات المنتهية باللاحقة (ism) يقصد به تسمية الاتجاهات العامة والمذاهب السائدة والأفكار القائدة مثل (Capitalism) و(Socialism) بمعنى الرأسمالية والاشتراكية.

وكان موقف مجمع اللغة العربية السليم في نقل مفاهيم هذه المصطلحات هو مقابلة اللاحقة (ism) باللاحقة (ية) أو الياء المشددة والتاء لصياغة مصدر صناعي يتضمن المعنى المقصود مثل الرأسمالية والاشتراكية.

وعلى هذا جرى الاستعمال في صياغة كثير من المصادر الصناعية المتخذة قياساً في مثل: الكلاسيكية والرومانسية والشيوعية والناصرية... إلخ.

فأما صيغة الفعللة التي تأتي منها العولمة وإنما تستعمل للتعبير عن مفهوم الإحداث والإضافة، وهي متماثلة في هذه الوظيفة لصيغة (التفعيل) وتستعمل الصيغتان مقابل الكلمات التي تنتهي باللاحقة (ion) لإفادة المعنى نفسه، كما نجد ذلك في كلمات مثل: (Capitalization) وهي الرسملة: الفعللة وتعني إحداث الاتجاه نحو الرأسمالية مثل (Egyptioniation) بمعنى التمسير أي: صبغ الشيء بصبغة مصرية، وتلكم هي القاعدة السليمة في معاملة أمثال هذه الكلمات.

ويشير المدلول اللغوي للعولمة إلى جعل المحلي عالمياً وبمعنى آخر تعميم المحلي أو الوطني ليصير حالة عالمية<sup>(١)</sup>.

والعولمة هي إحدى المفاهيم التي تطلق لوصف عمليات التحول والتغيير في المجالات المختلفة من حيث التعميم والانتشار. فهي عملية مستمرة متحركة يمكن قياسها وتتبع تطوراتها في شتى الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية.

وقد كثرت تعاريف العولمة وتعددت، وهذا التعدد في التعريفات ينبع من اختلاف التوجهات لمستخدمي هذا المصطلح من رجال فكر وسياسة واقتصاد. كل من منطلق اختصاصه.

فيعرف السياسيون العولمة بأنها الدرجة العليا في علاقات الهيمنة، وحددها البعض بالتبعية الكاملة للنظام المسيطر.

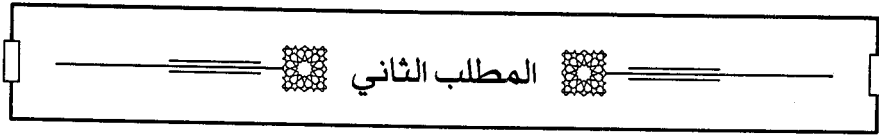
أما الاقتصاديون فيرون في العولمة سيادة للنمط الرأسمالي وتحويل العالم كله إلى سوق مفتوحة دون حواجز وذلك على مستوى التوزيع والإنتاج. أما على المستوى الثقافي فإن العولمة تعني الدعوة إلى تبني أنموذج حضاري غربي يعبد الطريق للهيمنة الكاملة بعد تفريغ الشعوب والدول من أي موروث حضاري يمكن الاستناد عليه والاحتماء به<sup>(٢)</sup>.



---

(١) انظر: المسلمون والعولمة للدكتور يوسف القرضاوي ص ٩، نحن والعولمة، من يربي الآخر؟ عبد الصبور شاهين ص ٣٧.

(٢) العولمة ومستقبل العالم الإسلامي لفتحي يكن ص ٢٢.



## المطلب الثاني

### مجالات العولمة (١)

إن حياة البشر على ظهر الأرض متعددة الجوانب، والعولمة بوصفها تيار أراد لنفسه السيطرة على كافة جوانب الحياة فإنه من المحتم أن تسعى إلى تغطية جميع الجوانب الحيوية والأساسية لدى الشعوب والمجتمعات؛ كالنواحي الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

إن هناك جهوداً جبارة ومحاولات كبيرة ممن يقعون وراء هذا الشعار إلى عولمة كل شيء: الاقتصاد، الاستثمار، وعولمة الشركات، والمعاملات التجارية، وعولمة الأفكار والثقافات، وعولمة المعلومات والاتصالات، وعولمة المشاكل البيئية والمناخية، وعولمة الأمراض والأوبئة المقاومة للصناعة، وعولمة الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، وعولمة الإرهاب، والصراعات السياسية، وأخطر من هذا كله هو محاولة عولمة الدين.

وسوف نقوم بدراسة مختصرة لبعض المجالات الهامة والبارزة في العولمة وهي كالآتي:

(١) مجالات العولمة كثيرة ومتعددة، ولكنني سأقتصر على ذكر مجالين فقط من مجالاتها وهما المجال الاقتصادي لأنه هو الأبرز والأهم، ويمكننا القول أنه الهدف من قيام كل تلك المتغيرات، فالهدف الأس هو السيطرة بطريقة راقية ومهذبة على جميع خيارات الشعوب ومصادرها الاقتصادية، والمجال الثاني الذي تحدثت عنه هو المجال الثقافي بفرعيه الديني والاجتماعي، لأنه أخطرها بالنسبة لنا كمسلمين، فليس الغرض من عولمة الثقافة مجرد نشر ثقافة واحدة للشعوب أو زي مشترك أو طعام واحد أو فكر واحد لا إن خطورتها تكمن في القضاء على الدين الإسلامي والتطهير العرقي لكل من يقول: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) واستئصال موارده من جذورها بشتى الوسائل ومختلف الطرق، لإنشاء أجيال بدون هوية، أو أنها تعزز بحمل هوية الغرب ولغتهم وطريقة حياتهم. [ولا حول ولا قوة إلا بالله].

## أولاً: العولمة الاقتصادية:

وإنما بدأنا بها لأنها من أبرز مظاهر العولمة، بل قد تكون هي الأساس الذي انطلقت منه العولمة، كما يمكن أن تكون النتيجة التي تسعى الدول المصدرة لقانون العولمة إلى تحقيقها.

لقد احتلت عولمة الاقتصاد مساحة واسعة من البحث والتحليل لعدد كبير من الدارسين والمهتمين، بما يتعلق «بعولمة الاقتصاد» نظراً إلى أهميته في العصر الحاضر خاصة، ومدى تأثيره في السياسة المحلية والإقليمية والدولية؛ وتأثير العولمة في الاقتصاد أمر جلي، فهي تؤثر بشكل ملموس على الإنتاج وعلى الاستهلاك وعلى التداول وعلى التوزيع، وهذه العولمة إنما انطلقت مع اقتصاد السوق، وانطلقت منذ أكثر من ثلاثة قرون مع الاقتصادي (آدم سميث) الذي حمل لواء الاقتصاد الحر (حرية السوق) وتحدث عن فطرة التملك الشديدة عند الإنسان، وهذا الدافع للتملك يبعث على كثرة الانتاج فكان الشعار الشهير: (دعه يعمل دعه يمر).

ولقد استخدمت العولمة وسائل وأدوات تستطيع التأثير والضغط بها لتنفيذ غاياتها في بلدان العالم، فقبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها دعت الولايات المتحدة حلفاءها لمؤتمر في مدينة (بريتون وودز) عام ١٩٤٤م، للتفكير في الأسس التي سידار على أساسها النظام الاقتصادي العالمي وقد تمخض هذا المؤتمر عن ميلاد عدد من المؤسسات تشكل في مجملها الركائز التي يقوم عليها النظام الاقتصادي الدولي وهي كالاتي:

### ١ - صندوق النقد الدولي International Monetary Fund:

(القائم بدور الحارس على النظام النقدي العالمي) وهي مؤسسة متعددة الجنسيات أنشئت سنة ١٩٤٧م بعد مؤتمر (بريتون وودز) للإشراف على عمل النظام النقدي الدولي الجديد، نظام سعر الصرف القابل للتعديل. ويسعى الصندوق للحفاظ على تدابير مالية تعاونية ومنظمة بين الدول الأعضاء، بغية تشجيع زيادة التجارة الدولية، وتوازن ميزان المدفوعات، وتنشيط الصندوق في مجالين:

أ - أسعار الصرف .

ب - السيولة الدولية .

٢ - البنك الدولي World Bank (البنك الدولي للإنشاء والتعمير)

: International Bank For Reconstruction and Development

ويعمل على تخطيط التدفقات المالية طويلة المدى، وأنشئ كذلك عام ١٩٤٧م بغرض توفير العون الاقتصادي إلى الدول الأعضاء ولا سيما الدول النامية لتقوية اقتصاداتها. يأتي البنك بأمواله من الدول المتقدمة ويعمل وفق مبادئ الأعمال التجارية فلا يُقرض بأسعار الفائدة التجارية إلا تلك الحكومات التي تجد نفسها قادرة على خدمة الديون وسدادها.

٣ - الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة والتي تعرف اختصاراً باسم:

: General Agreement Of Traiffs And Trade (GATT) (الجات)

وهي معاهدة دولية متعددة الأطراف وقعتها ست وثمانون دولة في عام ١٩٤٨م، هدفت إلى توسيع التجارة الدولية، وتعزيز التنمية الاقتصادية، وتتولى البلدان المشاركة حوالي ٨٠٪ من التجارة في العالم.

ولقد وضع الغرب آليات التحكم في الاقتصاد العالمي بناءً على ثلاثة

معايير:

١ - النظام النقدي العالمي:

من خلال هيمنة الدولار الأمريكي على وسائل الدفع العالمية؛ حيث يمثل وسيلة الدفع العالمية المقبولة التي حلت محل الذهب لتغطية إصدارات معظم عملات الدول، وبخاصة دول العالم الثالث.

٢ - التحكم في حركة رؤوس الأموال:

من خلال أسواق المال العالمية التي تتركز في الولايات المتحدة بالدرجة الأولى وهذه الحركة لرؤوس الأموال تتم السيطرة عليها من خلال السياسات التي تضعها المؤسسات المالية الأمريكية التي تتحكم في المؤسسات المالية من خلال تملكها لمعظم أسهم تلك المؤسسات.

٣ - الشركات متعددة الجنسيات: Multinational Firm

وهي تمثل أهم مظاهر عولمة الاقتصاد، شركة تنتج وتبيع منتجاتها في

عدد من الدول، تمييزاً لها عن الشركة التي تنتج في بلد واحد وتصدر للأسواق الخارجية.

تستثمر الشركات متعددة الجنسيات مباشرة في إنشاء وحدات إنتاج في بلدان خارجية، بسبب ارتفاع فعالية التكاليف والربحية الناشئة عنه.

وخلاصة القول بَعْد بيان بعض المفاهيم الخاطفة عن العولمة الاقتصادية وما أظهرته تلك المفاهيم من أهداف خفية تسعى تلك الدول المسيطرة على النظام العالمي الجديد لتحقيقها لمصالحها الذاتية والتي بنتها على «الأنا» وحب الذات، واحتقار جميع الناس من حولها، مع جَسَع وهَلَع شديدين يُرْكزان على ضرورة سرعة السيطرة ووضع اليد وتملك كل ما لدى الغير، يساعدها على ذلك افتعال أمور كثيرة قد لا تظراً على الأذهان لتتمكّن من خلالها وضع يدها على الموارد الضخمة والطبيعية لدى بقية البلدان؛ بالإضافة إلى كثير من الأمور التي لا خلاف عليها في هذا المجال:

١ - أن العلاقات بين العدل أو الشركات ستكون علاقات تنافس وصراع على اقتناص الأرباح وسَبْق الآخرين.

٢ - أن السَّبْق والغَلَبَة، ومن ثمّ الهيمنة هي للأقوى اقتصادياً، والاندجار ومن ثم الانهيار من نصيب الضعفاء اقتصادياً ومهارة في اللعب التنافسي.

٣ - فتح الأسواق العالمية أمام المُنتَجَات الغربية بدون عوائق أو ضوابط، وعليه فلن تستطيع المنتجات المحليّة مواجهة المنتجات المستوردة ومنافستها، مما يعني تعثر العديد من الأنشطة الاقتصادية الوطنية ويكون البديل المتاح هو: إما الاقتصار على الاستيراد، وهذا البديل قصير الأمد، حيث ستنضب أرصدة السيولة المالية، ويزيد التضخم نتيجة الركود الاقتصادي، وإما بيع الأصول الاقتصادية إلى الشركات العالمية بحجة الإصلاح الاقتصادي واللحاق بركب المنافسة العالمية، وهذا يعني أن العديد من الدول والمجتمعات سوف لن تتمكن من مسايرة هذا التيار الجارف، وبالتالي سوف تختفي تماماً، إما بالاندماج والذوبان في كيانات أكبر وأقوى، وإما بالتحلل والانهيار والتلاشي. وقد لا تشتري هذه الشركات العملاقة أصول الشركات الصغيرة، ولكنها تستغلها لصالحها مع بقاء ملكيتها لأصحابها.

٤ - أن المنافسة الاقتصادية ستكون على حساب البعد الاجتماعي الإنساني الذي ترعاه الدولة حماية العمال، وللشرائح الاجتماعية محدودة الدخل بالضمان الاجتماعي ونحوه، ويقترن بذلك العولمة الاجتماعية: ويراد بها إحلال العادات والتقاليد والأعراف الغربية محل الموروثات الدينية، ولا سيما الإسلامية، فلا قيمة ولا اعتبار لما يسمّى بالعرض، كما يُروج لفردية النظام الأسري وإقرار العلاقات الجنسية الشاذة، وحرية الشهوات بدون ضوابط.

٥ - إن الاقتصاد ليس مجرد تبادلات مادية معزولة عن المشاعر، فحينما يتوحد أناس في ظل منظومة اقتصادية معينة وتتداخل مصالحهم تقوم مشاعر الولاء والامتزاج بالآخر الذي ارتبطت به بعض مصالحهم، حتى ولو كانت مصالح هو المغلوب فيها.

وأخيراً فإن العولمة الاقتصادية التي تدفع إليها الدول، وإن بنيت على اتفاقيات وقرارات إلا أنها تطبيق خاضع للمصالح، مصالح القوى الكبرى، وهذا هو ما يجري بين دول كثيرة كما فعلت الدول الأوروبية مع مصر بدعوى إغراقها السوق الأوروبية بالمنسوجات المصرية، وحدثت أزمة خسرت فيها التجارة المصرية ٤١٪ من صادراتها.

إن آفة اقتصاد العولمة تتمثل في أنه اقتصاد غير عادل، وغير أخلاقي، وأنه يقوم على استلاب جهود الضعفاء لمصلحة الأقوياء، سواء كانوا أفراداً أم شعوباً ودولاً. كما أنه في مجال الإنتاج لا يُعنى بما تحتاج إليه الشعوب من سلع وخدمات، بل يعنى بما يعود عليه من أرباح؟ وقد يعمل على إنشاء مصانع يحظر أن يقيمها ببلده، لما وراءها من أخطار بالغة.

إن اقتصاد العولمة هو امتداد لاقتصاد الاستعمار القديم الذي فرض علينا أن نكون (سوقاً مفتوحة) له، هو ينتج ونحن نستهلك، وأن نشترى منه مقومات حياتنا حتى القمح والخبز والأرز، بل وحتى السلاح الذي ندافع به عن أنفسنا<sup>(١)</sup>.

(١) الحقيقة أن هناك الكثير من الأضرار الناجمة عن عولمة الاقتصاد بدأت تظهر نتائجها في الواقع، ولها من الآثار المدمرة للمجتمعات المسلمة ما يجعلها دائماً في حاجة =

إنه يضمنُ على الدول المستعبدة أن تستقل بنفسها بل يوجب عليها أن تكون تابعة خادمة لاقتصاده، فهو يشتري منها المواد الخام بأرخص الأسعار ليبيعه للمستهلك عنده بأضعاف مضاعفة، كما هو الشأن في النفط، وإذا صنَّع هذه المواد أعاد تصديرها إلينا بأعلى الأسعار.

ومن أكثر الآثار ضراوة هو ضرب دور الدولة الوطنية في المجال الاقتصادي والسياسي؛ حيث أن الشركات المتعددة الجنسيات أدى تطورها وتضخمها إلى تعميق العولمة اقتصادياً، وتعدد أنشطتها في كل المجالات، حتى صارت تؤثر في القرار السياسي والبعد الثقافي والمعرفي.

إن المسلم ليس بإمعة، ولا يصح له أن يسير في ركاب الآخرين دون أن يدري إلى أين يُقاد؛ فالوعي الإسلامي وحده هو الذي يجعلنا - كأمة مسلمة - أكثر انتباهاً لمثل هذه المخاطر من جراء عولمة الصناعة، حيث سيظهر لنا أنواع المخاطر المترتبة على ذلك؛ لذلك فإن العالم الإسلامي لا يصح أن يكون حلقة من ضمن حلقات في نظام يقال أنه عالمي ولكنه حقيقة يقع في نطاق تحكم شركات عملاقة ليست إسلامية لا من جهة هويتها ولا توجهها.

إنَّ أيَّ بلد من البلدان الإسلامية مُطالب بأن يسعى لإقامة الأنشطة الصناعية التي تُلبِّي الاحتياجات الأساسية لسكانه قبل أي شيء آخر، ومطالب بأن يتعاون مع البلدان الإسلامية الأخرى في سبيل كفاية هذه الاحتياجات قبل أن يذهب إلى الارتباط في حلقات إنتاجية عالمية، لا يدري ما نصيبه من مكاسبها، وهذا الوعي الإسلامي لا يعني بالضرورة رفض الارتباط الإنتاجي قبل فهم مضمونه واتجاهه والتعرف عليه ليكون المسلم على وعي بما يناسب

= تلك الدول المسيطرة، وما لم تعمل الدول المسلمة جاهدة لتكوين «سوق إسلامي حر» يعتمد على المواد الضخمة التي ميَّز الله ﷻ بها أراضيه والعمالة المخلصة التي تحتاج إلى الانضمام إلى تلك المؤسسات التجارية؛ ما لم تُكرس الدول المسلمة جهودها للاعتماد على نفسها ثم العمل على زيادة الإنتاج المحلي وتحسينه حتى يُصبح منافساً للإنتاج الخارجي، ومن ثمَّ تأخذ تلك السوق المسلمة مكانتها في مصاف دول العالم فتؤثر إيجابياً ولا تسمح قوتها وتميزها من سيطرة العولمة الاقتصادية الغربية، وهذا العمل وإن احتاج إلى العديد من السنوات إلا أنه لا بد من البدء فيه، وفرض هيمنته على الغير.



مبادئ دينه ثم لما يضمن له سلامة حقوقه<sup>(١)</sup>.

## ثانياً: العولمة الثقافية:

من المعلوم أن لكل ثقافة مسارها، ولا يوجد مساراً واحداً لجميع الثقافات، فالثقافة تعبير عن مرحلة تاريخية بعينها، وتشكّل في إطار الوعي التاريخي لأمة ومن خلاله.

ولكن العولمة الثقافية اليوم تسعى لأن تكون هناك ثقافة مركزية للعالم أجمع تتحكّم فيه الدول المُصدّرة للقرار، وتصبح ثقافات جميع الدول في الأطراف، وكما كان في يوم من الأيام انتقال الخير والروح الحية من الشرق إلى الغرب فإنّ عالم الغرب اليوم يسعى لأن يكون الانتقال عكسياً، وكأنّ تاريخ العالم بدأ فقط منذ ألفي عام منذ ولادة المسيح، وكأنه قبل ذلك لم يكن هناك تاريخ ولا ثقافات ولا شعوب.

والمركز هو الذي يفرض مساره على الأطراف، ويجعل العالم كله يتمثل بمساره هو، ممّا سيجعل الاغتراب الثقافي يزداد عند كل الشعوب، وعندها يتمّ نسيان الماضي وطبي التاريخ وقطع لمداد الجذور، وستبقى الثقافات سجينّة متاحف الحضارات، يسعد بها زائروها ثم تترك لحرّاسها.

فالشعوب تميّز باختلاف ألوانها وألستتها، والأرض التي تسكن فيها، إلا أنّ التمييز الأوسع والأعم هو اختلاف ثقافتها؛ لأن الثقافة هي روح الأمة الذي يضمن لها بقاء هويتها واستقلالها، وإلا ذابت كما يذوب الثلج،

---

(١) العولمة الاقتصادية انظر: الإسلام والعولمة للدكتور مجدي قرر ص ٧٠، المسلمون والعولمة للدكتور يوسف القرضاوي ص ٢٦ وما بعدها، العولمة الغربية والصحة الإسلامية للدكتور الزبيدي ص ٢٥ وما بعدها، ما العولمة؟ د. حسن حنفي د. صادق جلال ص ٢٩٧ وما بعدها، مجلة الدعوة العدد ١٨٧٦ مقال للدكتور الزحيلي ص ٢٨، مجلة البيان العدد ١٤٥، العولمة بين منظورين للدكتور محمد محزون ص ١١٨، مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد ٥٨، دور الإعلام في نشر تيار العولمة بقلم د. هاشم عبده هاشم ص ٢١، مجلة الاقتصاد الإسلامي العدد ٢١٧ مجلد ١٩ ص ١١٨ بعنوان: نحو سياسة اقتصادية موحدة للعالم الإسلامي في مواجهة العولمة للدكتور عبد الرحمن يسري.

وتناثرت كرماد اشتدَّت به الريح، ثم يبقى بعدها أناس من دون هوية، أو أنهم يقبلون الانضمام إلى شعوب حافظت على ثقافتها فترتدي ثيابهم وتمثّل ثقافتهم وتتطبع بأخلاقهم وعندها ستكون كأسد رضي أن يكون حَمَلاً، ومع مرور الأيام نسي قوة الأسد وصلابة عرينه، واقتنع بأنه جَمَلٌ ضعيف، يجب عليه أن يخاف من الأسود.

في الماضي كانت الغلبة العسكرية غالباً ما تنتهي عندما تستنهض تلك الشعوب والأمم قواها بدافع فعاليتها الثقافية وما تعنيه لها من جذور وانتماء وتاريخ، أما في الهيمنة الحديثة فقد ترافقت الهيمنة الاقتصادية والسياسية مع الهيمنة الثقافية من أجل ضمان أكبر نحو استمرارية تلك الهيمنة وتأصلها وتجذرها في الأمم الأخرى.

إن الوحدة الثقافية والمنظومة الفكرية المشتقّة منها هي التي تُميّز أمة عن أخرى، وتبقى هي الملاذ الوحيد في حالات الانكسار والتقهقر، وهي الدافع نحو النهوض والاستقواء من جديد، وتكمن أهمية الثقافة لدى شعب من الشعوب أو أمة من الأمم بأنها تُحدّد المفاهيم والتصورات، وتَضَعُ سُلّمَ القيم الذي يلتزمه المجموع، ويُقيّم الناس من خلاله، وعلى ضوئه تُقيّم السلوكيات والمواقف ويفرّق بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام.

ولو تساءلنا: لماذا الثقافة بالتحديد؟ وما الذي يعنيه ذلك الحيّز في حياة الأمم والشعوب؟

لقد نهضت الدول والشعوب منذ بدايات الخليفة وحتى الآن على نسيج ثقافي يُميِّز كُلاً منها عن الأخرى. وقد لعبت الأديان دوراً أساسياً بارزاً في تشكل الهوية الثقافية لكل المجتمعات.

ورغم كل الحركات الإصلاحية التي ظهرت في القرون المتتالية، وكذلك المحاولات الرامية إلى «التقريب» بين تلك المجتمعات، عبر البحث عن العناصر المشتركة في ثقافة تلك المجتمعات، إلا أنّ النازع الذاتي لكل مجتمع نحو الاحتفاظ بهويته المستقلة، ظلّ أقوى من نازع التّوحد المدفوع بعوامل سياسية واقتصادية قوية.

لكن «العولمة» تقوم أساساً على فكرة التّذويب الكلية أو الجزئية

«المرحلية» للهوية الثقافية شديدة الخصوصية لدى المجتمعات، وبالتالي فإن الكثير من المحاولات «التوفيقية» بين ثقافات «متعارضة» سيؤدي إلى صراعات حادة، وحروب مدمرة، وصولاً إلى فكرة الثقافة المشتركة لكل شعوب الأرض، وهي فكرة لا يبدو أنها ممكنة التحقيق، لا في هذا العصر، ولا في العصور القريبة من عصرنا، لسبب بسيط هو أن تصور العالم بثقافة مجردة، هو خيال أكثر منه واقعاً قابلاً للتطبيق.

صحيح أن المراجعة الجادة من قبل المجتمعات لثقافتها الموروثة، قد توصلها إلى الالتقاء مع بعضها البعض في نواحي معينة، لكنها لا يمكن أن تصل بالإنسان إلى حد التخلي «الطوعي» عن ثقافته الأصلية، مهما أبدى من استعداد ورغبة وجهد علمي حقيقي لغربلة موارثه الثقافية.

وهذا يعني أن العولمة في جانبها الثقافي، سوف تواجه الكثير من المشاكل غير الهينة، في ظل تمسك المجتمعات الشديد بجذورها وعدم تفریطها فيها.

وتبعاً لذلك، فإنَّ العولمة السياسية تصبح بعد ذلك مستحيلة. إنَّ الدول مجتمعة، تدرك أن الخيارات المتاحة أمامها محدودة، وأن الخروج من هذا المأزق مرهون بمدى ما يتوفر لتلك الدول من إرادة حقيقية للبقاء والتوازن، بدلاً من الانهيار والتلاشي. ولا يعني هذا الاستجابة المطلقة لكل الشروط التي تمليها فكرة العولمة، أو تتطلبها في الدول والمجتمعات لكي تكون جزءاً من ركب الحضارة الجديدة، ولكنه يعني توفر إدراك كامل لخطورة ما يحدث، وجدية تامة لإخضاعه لدراسات علمية، يحكمها تفهم علمي موضوعي وإع للأبعاد الكلية لما يجري.

وكلما سارع المجتمع إلى مواجهة المشكلة، وهياً كل الأسباب والوسائل والأدوات الكافية، وعمل بالسرعة الكافية والمطلوبة، فإنه يستطيع أن يعثر على حلول عملية قابلة للحوار مع الآخر، ومن ثم التطبيق الآمن والواثق.

أما المجتمعات التي تقلل من أهمية وخطورة ما يحدث، أو التي لا تعير اهتماماً لما يجري، أو التي لا تمتلك القدرة على التعامل مع هذا المتغير

الضخم، فإنها ستكون أكثر قابلية للتعرض لعملية «الاجتياح» الثقافي «العولمي».

وبدلاً من أن تكون تلك المجتمعات قد وعت الخطر، وتهيأت واستعدت للتعامل معه، أو الحدّ من أخطاره، والتدرّج في حركة التوفيق بين ما هي عليه، وبين تياره الجارف، فإنها تصبح عرضة للاكتساح، بعد أن فرض عليها، وأجهز على مقومات بقائها واستمرارها.

ونحن - كعرب وكمسلمين - مطالبون بأن نتحرك بسرعة، وأن نكرّس جهودنا، لتأكيد ذاتنا بصورة إيجابية.

فنحن نمتلك مقومات البقاء والاستمرار والتطور، وإن ما ينقصنا هو أن نفتح عقولنا، ونعطي الدراسة والبحث العلميين حقهما من الدراسة لمقومات ثقافتنا، وسوف نجد فيها ما يجعلنا الأقوى في ظلّ المواجهة الواعية.

ولكن ما يشاهد اليوم - مع الأسف الشديد - هو مدّ ثقافي باتجاه واحد وهذا ما يتمثل بالعولمة الثقافية الساعية لجعل كل البشر على صورة واحدة للنموذج الغربي، الأمريكي بالتحديد، أو متجاوبة معه وحالمة به، وهذا أحدث أنواع السيطرة وأفعالها وأقدرها على البقاء والاستمرار، وبروز العولمة الثقافية ليس وليد اليوم بل هو حصيلة فترات طويلة من الاستعمار الذي دأب لربط الدول به لغوياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وذلك عبر قوانين وأنظمة وضعتها الدول المستعمرة واستمرت عليها الدول المستقلة لاحقاً.

### مظاهر وأدوات العولمة الثقافية:

إنّ العولمة على الصعيد الثقافي تطمح إلى صياغة ثقافة كونية شاملة تغطي مختلف جوانب النشاط الإنساني، فهناك اتجاه صاعد يضغط في سبيل صياغة نسق ملزم من القواعد الأخلاقية الكونية وتتمثل بعض مظاهر العولمة الثقافية بما يلي:

١ - تغييب الأساسيات الدينية سواء كانت مبادئ إيمانية أو أحكاماً شرعية تحت وطأة الفكر الإلحادي والنظريات المنحرفة عن الحقائق الدينية أو عن طريق الاستخفاف بها وما تمثله من حق مطلق.

٢ - الخروج بالمرأة عن أنوثتها الفطرية الإنسانية باسم الحرية، أو العمل ونحوها وتحويلها إلى سلعة يتاجر بها، ووسيلة جذب في الدعايات، وعلى أغلفة الصحف، وتقديم البرامج الإغرائية في القنوات التلفازية، واختلاطها بالرجال، وتكاليها بما لا يتناسب من الأعمال ودفعها إلى منافسة الرجال على رجولتهم، والتحرر من الالتزامات تجاههم سواء كانوا آباء أو أزواجاً. ومثل ذلك بعض القيم الأسرية، المتمثلة بالجفاف العلائقي الذي ينفي قيم صلة الرحم والبر بالوالدين ونحوه من القيم الاجتماعية الإسلامية، ومن القيم الأسرية التي تروجها العولمة دفع أطراف الأسرة إلى التمرد المتبادل بينهم، والحرية في ممارسة الرذيلة من أي طرف دون حق الاعتراض من الطرف الآخر<sup>(١)</sup>.

٣ - ومن مظاهر العولمة: تحريف المفاهيم المُنبثقة من ثقافة الأمة لتأخذ مسار الوجهة الغربية في النظر إلى الحياة. مثلاً البطولة والنجومية؛ أي: البروز الريادي في المجتمع بما يجعل للشخص مقاماً متفرداً ورؤى للأشياء والأحداث معتبرة، ويجعله مثلاً يقدم لأفراد المجتمع، هذا البروز في المجتمع الإسلامي لا شك أنه للقادة الملتزمين بدورهم الشرعي في المجتمع الإسلامي سواء كانوا من العلماء الربانيين، أو من الحكام الصالحين، فمعيار التفاضل في المجتمع المسلم هو التقوى التي عمادها العلم الشرعي الصحيح، والقيام بالحق، وهذا ما تبرز فيه الفتان السابقتان.

لكن الأمر في كثير من المجتمعات الإسلامية تحوّل إلى العكس - تبعاً للنمط الغربي - فنجوم المجتمع الذين يهتم الإعلام بإبراز شخصياتهم، وترويج صورة حياتهم، وتلقف رؤاهم وأحكامهم هم في الغالب أدنى الناس في العلم الشرعي والتزام سميت الإسلام، لكنهم مشاهير في الرياضة، أو التمثيل والغناء أو ببعض الهوايات الشاذة.

٤ - مظاهر العولمة في اللغة، وذلك بتسييد لغة على حساب اللغات الأخرى، واللغة ليست مجرد ألفاظ جامدة، ولكنها تمثّل في الحقيقة مظهراً

(١) انظر: المسلمون والعولمة للدكتور يوسف القرضاوي ص ٤٦.

ثقافياً لأنها تنقل من خلال مصطلحاتها وتركيباتها وأمثالها قيم أمتها، واللغة الإنجليزية هي اللغة التي تشاع بكافة السبل لتصبح اللغة العالمية، وحسبنا أن نعلم أن ٨٨٪ من معطيات الأنترنت تبث باللغة الإنجليزية.

إنَّ العولمة الثقافية خَطَرٌ على عقائدنا وأدبنا ولغتنا، فلقد حُوربت هذه اللغة على وجه الخصوص؛ لأنها اللغة التي اختارها الله ﷻ لِيُنزل بها أعظم كتبه يريدوننا ألا نعتمد عليها وألا نركن إليها؛ لأنها السبيل إلى فهم شريعتنا وتاريخنا.

٥ - وتمثل الأنماط السلوكية نوعاً من العولمة، وهذه الأنماط المتمثلة بأساليب التعامل والأكل والشرب، وأنماط الأكل ذات الصبغة الغربية، ومثل ذلك ألبسة الشباب والفتيات في تفصيلها وأزيائها، وما تحمله من كتابات غير عربية ومن صور، وكذلك قصص الشعر سواء الذكور أو الإناث وأمثال ذلك كثير.

تريد العولمة أن تشيع فينا (ثقافة الاستهلاك) لما تنتجه العولمة الغربية الأمريكية مما يُؤكل ويُلبس ويُركب، كما تريد أن تشيع (ثقافة الإباحية) التي تحل ما حرّم الله، وتبيح (ثقافة الجنس) المفتوح الأبواب، و(ثقافة الشذوذ) و(ثقافة الإجهاض)، إنها (ثقافة السلام) المزعوم، الذي تمليه إسرائيل بقوتها العسكرية، السلام الذي يحقق لها مصالحها وأمنها بشروطها. إنها (ثقافة التطبيع) أو التميع أو التكريع أو التطويع؛ ثقافة التطبيع التي تريدنا أن نمحو ذاكرتنا، ونلغي تاريخنا.

٦ - السعار المادي الذي أصبحت فيه المنفعة المادية العاجلة هي الهم الأكبر الذي يستحوذ على لب الإنسان، فيضحى في سبيله بقناعته الإيمانية، وبعباداته، وبأخلاقه الإنسانية مع أقاربه وغيرهم إلا ما حقق منها له مصلحة مادية، حتى أصبح التنافس المادي هو الطاغى على حركة الحياة في كل مجالاتها.

٧ - ومن ملامح هذه السمة أيضاً: الانحلال الخلقي الذي كان المجتمع المسلم ينأى عنه بصفته من غرائب مجتمعات الغرب الكافر، فصارت مظاهره تتكاثر في مجتمعات مسلمة، كتخنُّث الشباب، الشذوذ

الجنسي، والوقوع على المَحَارِم، وقتل الزوجة أو أحد الوالدين، وشيوع المخدرات والمسكرات... إلخ.

بالإضافة إلى تلك المظاهر فإن هناك العديد من الوسائل التي استخدمت لاختراق ثقافة المسلمين منها:

١ - الاتفاقيات سواء كانت ثقافية أو اقتصادية أو غيرها، حيث يؤثر الطرف الأقوى على الطرف الأضعف، ويحقق من خلالها مصالحه الثقافية وسيادة قيمه، وسواء كانت هذه الاتفاقيات ثنائية أو كانت من خلال المنظمات الدولية كمنظمة التجارة ومنظمة الأغذية الزراعية ومنظمة العمل الدولية، ومنظمة الصحة العالمية.. الخ، فمعظم الأنشطة الإنسانية بدءاً من مولد الأفراد وشكل المحاضن الاجتماعية لهم وشرعيتها، وتعليمهم وعملهم، والقوانين التي يجب أن يسيروا عليها، والنظام السياسي والاقتصادي الذي ينبغي أن ينخرطوا فيه، والإعلام الذي يوجههم. كل هذا وغيره أصبح موضع اهتمام دولي وإعلامي عالمي، ومنظمات أممية حتى بدا أن هذه المنظمات تعمل بين البشر عمل الوزارات المختلفة بين أبناء الدولة الواحدة.

٢ - المؤتمرات التي تقرر فيها القيم الغربية لتعمم من خلالها على الدول الأخرى، وترتبط المساعدات لهذه الدول بمدى التزامها بهذه القيم، ويذكر هنا تلك المؤتمرات التي ثارت بشأنها ضجة كبيرة في العالم الإسلامي، مثل مؤتمر السكان الذي عُقد بالقاهرة في عام ١٩٩٤م ثم بلاهاي، ومؤتمر المرأة الذي عُقد في بكين عام ١٩٩٥م، ومؤتمر الإسكان في اسطنبول.

٣ - من خلال الحركة التجارية والبضائع في كتالوجاتها وفي الكتابات التعليمية لها أو الكتابات عليها كالتي على الألبسة.

٤ - ومن خلال البوابة الكبرى وسائل الإعلام بكل فنونه وخاصة الحية المباشرة كالفضائيات والإنترنت.

٥ - والنخب المثقفة المتغربة تقوم أيضاً بدورها على الرغم من استغناء الغرب الآن عن كثير من جهودها بحكم مباشرته بأنماط العولمة التي كانت قبل سنوات تنقل باسم الحداثة والتغريب<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: العولمة الغربية والصحة الإسلامية (الموقف الرشيد) للدكتور الزبيدي ص ٣٣، =

## وختلاصة القول:

إنَّ الحديث عن عولمة الثقافة من الأمور الحيوية الهامة والخطيرة جداً في الوقت الراهن حيث بدأت تُربِّي لها أجيالاً تؤمن بمبادئها وهي في محاضن الإسلام، يُطلق عليها اسم المسلمين، ولكنها صورة بائسة مهزوزة لأتباع الإسلام، لجيل بات لا يعرف ربه، ولا أبسط تعاليم دينه، ولا يتذكر هويته. إنه صورة لثقافة الغرب من الخارج، حاوي القلب والعقل والضمير، ريشة في مهب الريح، ليس له وزن ولا ثقل، يضيق ويتذمر، ومع ذلك لا يمكنه تغيير حاله، سريع الانفعال، مهزوز العواطف، مندفع نحو الشهوات، أجوف، عديم الحيلة، رَسمت عليه عولمة الغرب بريشتها صورة جميلة، وتباطأت أيدي المربين عن القيام بدورهم، وسلّموه لتربية المسلسلات المدبلجة، والتي تستمر حلقاتها طوال سنوات لتربي على بطء الفكر الغربي السافر وتنقشه على قلوب وعقول أبنائنا، الذين يقومون بدورهم في تطبيق ما لُقنوه واقعاً اجتماعياً في حياتهم، ومن ثمَّ ضياع الشباب واختلاط الأنساب وكثرة المشاكل والفتن والقلاقل، وحرمان الأمن الاجتماعي.

إن العولمة الثقافية تعني مزيداً من تبعية المسلمين (الذين وُجدوا قائدين لا مقودين) لأعدائهم، ومزيداً من الفرقة بين بلادهم لصالح ثقافة المركز المهيمن على جميع أشكال الثقافة، ومن انحسار الهويات الثقافية الخاصة، بل القضاء عليها تدريجياً، وبطريقة خفية، وتحت الانبهار والافتنان بثقافة المركز يتم استخدام طرق تفكيره ومذاهبه المختلفة، ممَّا يقضي على الخصوصيات تماماً.

ولن يمكننا - كمسلمين - أن ندافع عن موروثنا الثقافي إلا بإعادة تواجده بنفس القوة التي تتواجد بها ثقافة الغرب، وفي نفس القنوات التي تجري فيها، وبنفس الوسائل التي تستخدمها.

ولا بد من عمل برنامج حصاني للجيل المسلم ضد الثقافة الواردة بالتطعيم الوقائي ضدَّ ما لا يمكن منع انتشاره وتواجده رغماً عنَّا، فالعالم

---

= العولمة ومستقبل العالم الإسلامي لفتح يكن ص ٣٤، مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد ٥٨ موضوع دور الإعلام في نشر تيار العولمة بقلم د. هاشم عبده هاشم ص ٢٢.



أصبح - كما يقولون - صالوناً مفتوحاً، الجميع يشاهد الجميع، والجميع يعيش مع الجميع.

كما يجب أن نُعزِّز الجوانب النفسية لدى المسلمين بتاريخهم وبطولات السلف الصالح لكسر حدة الانبهار بالغرب، ولكشف زيف ما ينادون به ومن ثمَّ القضاء على ما يسمى بعولمة الثقافة.

إذا كان الواحد منَّا لا يرضى بأن ينسب لغير أبيه، أو أن يُرمى بأنه لا أب له! فإن أصحاب عولمة الثقافة والناعقين بأهدافها إنما يريدون أن ينسبوا المسلمين إلى غير إسلامهم، وكان السلف الصالح يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم  
وكان الرسول ﷺ يُلقب سلمان الفارسي رضي الله عنه بابن الإسلام.

بل إن الأدهى من ذلك فإنهم يسعون بعد تجريدهم من إسلامهم أن يجعلوهم صورة لثقافتهم الخربة وفكرهم المهزوز.

والجميع الآن في حلبة المنافسة فإما أن ندافع ونعمل لكي نكون وإلا فلن تقوم لنا قائمة، وإن من أهم ما يجب أن نسعى للمحافظة عليه هي تلك الأجيال المسلمة التي كُتب لها أن تكون في هذا الزمن الذي سهل على الأعداء الوصول إليها بثقافته وفكره الذي لا يتماشى مع ثقافة الإسلام وفكره، فلا بد من إحاطته وتحصينه ومتابعته وتوعيته وتعليمه وإرشاده لكل ما يحوم حوله ويحاك له في ظلمات ما يسمَّى بالعولمة.

ومما يدخل في (عولمة الثقافة) أو يترتب عليها (عولمة الدين)، وهي أخطر أنواع العولمة، والتي لا يظهرونها كغيرها من الأنواع، لأنَّ مواجهة هذا النوع من العولمة «صراحة» أو بصورة واضحة لا يأتي بنتيجة لأن الله قد فطر الناس على الدين، ونحن نرى - والحمد لله - عندما يُمسُّ جانب الدين بسوء يُدافع عنه الجميع - إلا ممسوخى الفطرة المتأثرين بحضارات الغرب - سواء أكانوا ملتزمين بتعاليمه أم لا!.

المهم أن أعداء الإسلام أدركوا أن مواجهة الدين الإسلامي بصورة مباشرة لا يُجدي مع أهله لذا لم تعلن عولمة الدين كغيرها، وإنما جاءت مُبطنَةً تحت نداءات خطيرة برّاقة كحوار الأديان وغيرها.

والحقيقة أنني مع البحث لم أجد - والله أعلم - الكثير من الباحثين تعرضوا لهذا النوع الخطير من العولمة وما كتب عنه إلا القلة منهم.

هناك سعي حثيث لعولمة الدين بفرض سيطرة دينية على العالم بعد أن وليَّ عهد السيطرة العسكرية والسياسية القديمة؟ وهذه السيطرة الدينية تستخدم قوة الغرب العسكرية والاقتصادية والسياسية والإعلامية والاتصالية والمعلوماتية لتتخذ منها أدوات جديدة متطورة في تحقيق الغاية المنشودة، وهو تحويل العالم كله إلى (المسيحية).

ولا بد من التنبيه إلى أن التنصير لا يسعى أو يطمع في تحويل المسلم إلى النصرانية صراحة، إنما يكتفي بزعزعة الإسلام في قلوب المسلمين، وتشكيكهم في مسلماتهم، وقد اجتمع - المبشرون -<sup>(١)</sup> لهدف معلن وهو تنصير العالم أجمع. ولقد رصدوا ألف مليون دولار لتنفيذ هذه المهمة.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي الداعية المعروف: «وهذا ما حفزني لإلقاء عدة محاضرات في عدد من الأقطار لأنبه المسلمين على هذا الخطر الذي خطط له، وانتهى ذلك بالدعوة إلى إنشاء (الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية) التي قامت في دولة الكويت الشقيقة، وكان الهدف منها أن تجمع من المسلمين في أنحاء العالم ألف مليون دولار لا لأسلمة العالم، كما ينبغي أن يكون لو كنا مسلمين حقاً، ولكن على الأقل لحماية الوجود الإسلامي من خطر الغزو التنصيري وأمثاله، ولكننا لم نجتمع المبلغ المنشود ولا عشره إلى

---

(١) الكثير من الكُتَّاب يطلق على عمليات التنصير لفظ «التبشير» وعلى المنُصِّرين قول «المبشرين» وأرى - والله تعالى أعلم - أن هذا اللفظ يجب أن لا يطلق عليهم البتة فهل يمكن أن يعتبر هؤلاء مبشرين؟! وهل هم يبشرون بخير كما هو حال الرسل ﷺ الذين جاؤوا «مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ». إن المنُصِّرين هم أعداء الإسلام وأهله ولا يستحقون أن ينسب إليهم هذا الوصف بحال من الأحوال، فما هم إلا مُنصِّرون ومفسدون وطامعون، وحاقدون لهم هدف واحد مستمر عبرت عنه الآية في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِيَارِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] فهم لا يزالون وهم مستمررون حتى النهاية في القتال بشتى صورته لهدف واحد حدده لنا الله ﷻ، وهو رد الأجيال المسلمة عن دينها، فلا ترى إلا صوراً حملت الدين في هويتها وتخلت عنه في واقعها.

اليوم لعدم قدرتنا على الوصول إلى الإنسان المسلم في ديار الإسلام، لتمزُّق الأمة المسلمة وتفترُّقها، وقد قلت في إحدى محاضراتي للمسلمين: إن النصارى لهم بابا يقودهم ويسمعون لكلامه، وينصتون لتوجيهاته، ولكننا - بعد أن فقدنا الخلافة - لم يعد لنا بابا ولا ماما!!<sup>(١)</sup>.

ومن الضروري معرفة قضية هامة جداً وخطيرة، وهي أن عمليات التنصير أو ما سُمِّي (بعولمة الدين) إنما تصبُّ جميعها لصالح اليهودية العالمية، أي: لصالح إسرائيل!!.

ولقد اهتم الغرب بالدين مع أن العولمة التي يسعون لها إنما هي عولمة (علمانية مادية) بحتة، وذلك لأن الدين وبالذات الإسلام هو الحاجز الأعظم ضد اجتياح عولمته لهم، ووجدوا أن الحل لاختراق هذه الثقافة هو إجراء الحوار بين الحضارات، وذلك لاحتواء الاختلافات الموجودة بين الإسلام والثقافة الغربية، وذلك لإذابة مشاعر التقديس لدى المسلم للقرآن والسنة ليصبح فكره ونفسه مفتوحة لتقبل الروح الغربية في معارفها ومناحيها المختلفة. إنَّ الدعوة الغربية لهذه الحوارات بين الأديان إنما تستهدف خدمة خطة العولمة، سواء تمثَّلت في معاهد أو مراكز، أو لقاءات فكرية، وغالباً - مع الأسف الشديد - ما تبدو المشاركة الإسلامية دون المستوى المفترض لأصحاب دين يُمثِّل الدين الحق في صدق كتابه وهَيِّمته على الأديان الأخرى<sup>(٢)</sup>.

كما ينطلق من عولمة الثقافة القبول لما تطرحه العولمة من أنماط سلوكية اجتماعية غريبة على المجتمع الإسلامي، فقد تحدَّدت معالم العولمة الاجتماعية من خلال مؤتمرات دولية كان الغرض منها تأطير الأنماط السلوكية الشاذة التي تتعارض مع الفطرة الإنسانية ونشرها، والتسلل لاحتواء موارد الدول الفقيرة واستغلالها لصالح المؤسسات المالية الغربية، وذلك من خلال استخدام المؤتمرات كأدوات للسيطرة على العالم فكراً واقتصادياً من خلال

(١) المسلمون والعولمة للدكتور يوسف القرضاوي ص ٧٦ باختصار.

(٢) انظر: العولمة الغربية والصحة الإسلامية لأستاذ الدكتور عبد الرحمن الزيندي ص ٣٩.

تأطير السلوك الاجتماعي واستبعاد الجوانب الأخلاقية في السلوك وفق منظور خاص يخدم مصالحها.

ثم إن الإجراءات التنفيذية التي رسمتها تلك المؤتمرات دلت دلالة واضحة على ذلك حيث دعت في بنودها إلى العمل على توفير البنية التي تسمح للاقتصاد الدولي بالنمو والمساهمة في بناء البنية التحتية لمشاريع الإيواء وتكوين المراكز الحضارية؛ وإزالة جميع العوائق الخاصة بتوفير المناخ الملائم لحرية السوق العقاري.

كما عملت على توسيع نظام الإقراض، وتمكين المؤسسات المالية العالمية من التغلغل في دول العالم الثالث من خلال عمل شبكة من البنوك، وربط تمويل توفير المباني والبنية التحتية لمشاريع الإسكان بالإقراض الخارجي، والهدف الرئيس من تلك البنوك هو تمكين مراكز النظام الرأسمالي من إعادة احتواء دول العالم - المتخلفة<sup>(١)</sup> - وإعادة امتصاص قواها طبقاً لمنطق تراكم رأس المال في تلك المراكز، والأخطر من ذلك أن هذه الإجراءات تُؤدّي حتماً إلى تآكل السيادة الوطنية التي تُعدّ عاملاً كبيراً من عوامل تمييز الهوية القومية للشعوب والأمم.

إنّ هذه الأوضاع الجديدة التي تفرضها عولمة المجتمع ستعمّق الهوة بين الفئات الاجتماعية، وتزيد من مُعاناة الفقراء والمُعوزين في مجتمعاتنا؛ لأنّ الفكرة التي تقوم عليها هي [أن من لا يستطيع أن يكسب قوته يجب أن يموت] وهناك أصوات في الغرب تنادي بأنّ المليار من فقراء العالم الثالث زائدون عن الحاجة؛ وعليه فلا مُسوِّغ لوجودهم، ولا حاجة إليهم ضمن مفهوم فلسفة البقاء للأقوى.

---

(١) أرى أن هذا التعبير غير سليم من حيث تعميمه؛ صحيح قد يكون القصد منه التخلف في بعض المجالات، ولكن تعميم هذه الكلمة لا يصح، لأننا إذا عمّمنا ذلك على تلك الدول فسيدخل فيه التخلف الديني، وهذا غير صحيح، فالدول النامية قد تكون متقدمة بل وعلى رأس الدول في بعض المجالات والتي تعتبر أهم بكثير من المجالات الأخرى، فإذا كان يراد تسمية بعض الدول به فلا بد من تحديد المجال الذي تخلفت عنه تلك الدول لا تعميمه.

لذلك فإنَّ الدعوة مستمرة لتغيير مفهوم الأسرة، والدعوة إلى الإجهاض وقتل العَجَزَة، مع توصيات خطيرة تدعو إلى نشر التعليم الجنسي، وإدماج كل أشكال الانحراف من الزنا إلى الشذوذ لتكون أوضاع طبيعية، ولقد أسهمت ثورة الاتصالات والمعلومات والتقدم المتزايد في مجال الإعلام إلى نشر هذه الأنماط السلوكية بصرف النظر عن مدى قبول أو رفض المجتمعات غير الغربية لهذه الأنماط<sup>(١)</sup>.

إنَّ علينا أن ندرك أنه على الرَّغم ممَّا حققته الحروب الصليبية خلال غزواتها المتعددة من خسائر عظيمة لا تُقدَّر في الأرواح، والتراث العلمي الضخم إلا أنها لم تستطع أن تخرب النمط العقدي والفكري والاجتماعي والحضاري ذا الطابع الإسلامي للبلاد.

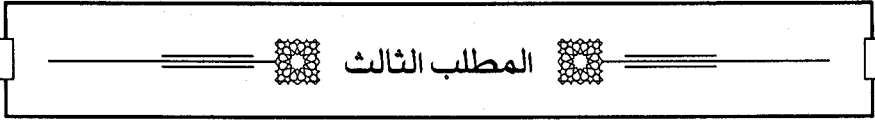
وهذا يعني أن الإسلام حين يبقى في قلوب الناس وفي شرايين حياتهم يُشكِّل حالة مقاومة مستمرة تجعل الاحتلال أمراً مرفوضاً.

وهكذا فإن كل محتل لا بد له من تحطيم مقوِّمات المجتمع الأصلي أولاً لإيجاد بيئة تحمل الرؤيا ذاتها - للعولمة - فيسهل السيطرة عليه.



---

(١) انظر: العولمة في ميزان الفكر للدكتور عاطف السيد ص ٥٩، مجلة البيان العولمة بين منظورين للدكتور محمد أ. محزون ص ١١٨ وما بعدها.



## أهداف العولمة<sup>(١)</sup>

إنَّ الأهداف المراد تحقيقها في أيِّ مجالٍ من المجالات عادة ما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمصلحة القائمين بها ابتداءً، وتنبع من معتقداتهم، وتصوّراتهم، وعليه فإنه عندما يُراد تحديد الأهداف لا بدَّ من النظر أولاً في عقائد القائمين عليها، الموجهين لها، والمحددين لطبيعتها.

كما أنه لا بدَّ من التنبيه على ضرورة الفهم العميق للأهداف المطروحة، وأبعادها، ومَن المستفيد الأول منها، وإن كانت تُظهر أنها تخدم البشريَّة جمعاء كما هو الحال في قضية العولمة.

إنَّ الهدف الظاهر للعولمة هو خدمة البشريَّة وتوحيد مصيرها بإزالة الحواجز بينها، وإشاعة القيم الإنسانية في عالمها، وحماية هذه القيم من إهدارها حتى لو كانت من قبل الدولة، ومقاومة الرقابة التي تحدُّ من حرية الإنسان في حركته الاقتصادية، أو تلقي معلوماته، هذا هو الهدف الظاهر المعلن ولكن السؤال هو:

١ - مَن الذي سيحدد معايير القيم ومواصفاتها؟

٢ - مَن الذي سيرسم مساراتها التنظيمية في الاقتصاد؟

٣ - مَن المؤهل لطرح القضايا الاجتماعية والفكر؟

من التعاريف السابقة عُلِم أن مصدر العولمة هي أوروبا، وبالدرجة الأولى والفاعلة هي أمريكا؛ أي: أنها القوى الكبرى الغربية، وباقي العالم

---

(١) إن الحديث عن أهداف العولمة يستغرق الكثير من الصفحات ولقد أسهب المفكرون الواعون لحقيقتها في ذكر تلك الأهداف ولكنني سأختصرها في البحث خوفاً من الإطالة، ثم لأنني قد ذكرت بعضاً منها في ثنايا حديثي عن مجالاتها فاختصرتها خوفاً التكرار.

سيكون دَوْرُهُ التلقِي، وسيؤثر حتماً على ثقافات الشعوب؛ والتي لا تقاس خساراتها ولا تعوض لأنه دين يذهب، وأخلاق تُفسد، وهوية تُذاب، ومن ثمّ فناء حضاري، حيث تعمل العولمة على تغييب الأساسيات الدينية، سواء كانت مبادئ إيمانية، أو أحكام شرعية، تحت وطأة الفكر الإلحادي، والنظريات المنحرفة عن الحقائق الدينية، أو عن طريق الاستخفاف بها. وما تمثله من حق مطلق فتخرج المرأة عن أنوثتها الفطرية الإنسانية باسم الحرية، ويُزرع الجفاف العائلي المتمثل في فرض بعض القيم الأسرية التي تدعو الأبناء على التمرد والمطالبة بالحرية في ممارسة الرذيلة دون حق الاعتراض من الطرف الآخر<sup>(١)</sup>.

ولقد أسهب كثير من الكتاب المسلمين في بيان الأهداف الحقيقية للعولمة الغربية بعد إزالة القشرة الخارجية عنها، وسلطوا الأضواء على حقيقتها وجوهرها الصحيح، وذكروا من تلك الأهداف ما يلي:

١ - السيطرة على كل المستضعفين في الأرض، وعلى أمة الإسلام بشكل خاص. وإذا كان هذا الهدف هدفاً قديماً فإنهم يعملون على الاستفادة من التطورات العالمية التي حدثت من أجل تحقيقه.

٢ - ضرب أثر الدولة الوطنية في المجال الاقتصادي والسياسي، وضرب الهوية الثقافية للأمة، والتي تحددها ثلاث خصائص: خصوصية الزمان، وخصوصية المكان، والخصوصية الحضارية.

٣ - إزالة الحواجز الزمانية والمكانية والثقافية والاقتصادية بين الأمم والشعوب، وفرض قيم وحضارة الأقوياء، وإخضاع العالم لقوانين مشتركة، والترويج لأنماط معينة في العلاقات الأسرية والاجتماعية والجنسية السائدة في الغرب (المصدر الأول للعولمة).

٤ - القضاء على الخصوصية التي تميز الشعوب، وإعدام الانتماء للأمة والجماعة، وتذويب الفوارق التي تعني الأصالة والحضارة بكل أبعادها

---

(١) انظر: العولمة الغربية والصحة الإسلامية للدكتور عبد الرحمن بن زيد الزبيدي ص ١٨

- ٢٤ باختصار وتصرف.

الأخلاقية والتاريخية. وهي أولاً وأخيراً قدر مفروض على المغلوبين لمصلحة الغالبين.

٥ - صياغة حياة الناس لدى جميع الأمم، ومختلف الدول وفقاً لأساليب ومناهج موحدة بين البشر، وإضعاف الأساليب والمناهج الخاصة، وبالذات ما يخالف تلك الصياغة.

٦ - تحطيم الحدود الجغرافية والجمركية، وتسهيل نقل الرأسمالية عبر العالم كله كسوق كونية، وإزالة الحواجز بين الدول ليكون التبادل شاملاً وعالمياً؛ ليصبح العالم وحدة واحدة وهيمنة أكبر للدول الكبرى على اقتصاديات الدول النامية، وفرض السيطرة الاقتصادية والعسكرية والمالية.

إنَّ فرض العولمة على العالم الإنساني بأسره نابعٌ من نظرة استعلائية فوقية من الغرب باتجاه شعوب العالم كلها، إن الذين يريدون فرض هذا النظام على العالم كله يظنون أنَّ نظامهم قد اكتمل ومن حقِّهم أن يفرضوه على العالم رضوه أو سخطوه.

إنهم يريدون فرضَ نظامهم الذي حكموا به حياتهم، والذي اخترعوه بعيداً عن الدين، فأصبح له قواعد العقدية القائمة على الإيمان بالمادة والمنفعة والمصلحة بعيداً عن حقائق الإيمان بالله واليوم الآخر، حاصرين أنفسهم في إطار الحياة الدنيا، وهذا المبدأ يتناول كلَّ حياة الإنسان، وليس قسراً على جانبٍ من جوانبها، فهم يريدون عولمةَ حقوق الإنسان، كما يريدون عولمة الأخلاق والقيم والتعليم والنظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، ومن جملة ذلك: عولمة المرأة والأسرة والطفل وغير ذلك<sup>(١)</sup>.



---

(١) انظر: الإسلام في عصر العولمة للدكتور محمود زقزوق ص ١٢، الإسلام والعولمة للدكتور مجدي قرقر ص ٧٠، أ. عادل حسين ص ٣٩، نحن والعولمة لعبد الصبور شاهين ص ٤٠، نحو ثقافة إسلامية أصيلة د. الأشقر ص ١٥٨.



## الموقف الرشيد تجاه العولمة

عندما نتكلم عن العولمة وعن موقفنا تجاهها يجب أن نوضح كيف يمكن أن نستفيد من معطياتها لصالح البشرية، وذلك بالقيام بالدور المطلوب منا كمسلمين مكلفين بالقوامة على البشرية.

لقد أرسل الله ﷻ محمداً ﷺ للعالم أجمع ليكون رحمةً مُهداةً للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وفي ذلك بيان لأنفسنا - نحن أمة محمد ﷺ - دعاة عالمية إسلامية بالمعنى النصي، أن نستغل هذه العولمة للدعوة، والنشر لهذا الدين الإسلامي، ونحن عندما نقوم بذلك لا نخاف من غزوٍ قادم لأننا نمتلك ما يرده على أدياره، فديننا قوي، وقادر على مُجابهة الغزو مهما كانت جهته، والتاريخ خير شاهد على قوة الإسلام، وثباته فلقد تعرّضت الأمة لغزو عسكري كبير لمحو الإسلام، ولكن انتصر ديننا انتصاراً عظيماً، فإسلامنا يعلو ولا يُعلى عليه.

وإذا انفتح العالم اليوم انفتاحاً عظيماً، لا يمكن غلقه، فإنّ التحدي القائم الآن هو أن نواجه هذا العالم بأن نكون أو لا نكون. والتعامل مع هذا المد الذي يطرح العولمة كوصف واقعي هو في الأصل منهجنا نحن في التشريع، فقد قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

والشعوب: جمع شعب وهو أعظم ما يوجد من جماعات الناس، ويتلوه القبيلة، وأدناه الأسرة والفصيلة، وهما قرابة الرجل الأذنون، وقيل للأمم التي ليست بعرب: شعوبية، نسبة إلى الشعوب، وذلك أن تفصيل أنسابها خفي فلم يعرف أحدٌ أحداً منهم إلا أن يُقال: فارسي وتركي ورومي فَعُرِفُوا بشعوبهم.

وبينت الآية أن الناس سواء من حيث أنهم مخلوقون وقصدت إلى

التسوية بينهم فلا يتفاخرون إلا بما جعله الله ﷻ سبب التفاخر، وهو التقوى، فجميعهم في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ﷻ، ومتابعة رسوله ﷺ، وفي جعلهم شعوباً وقبائل لأجل التواصل والتعارف فإنه لو استقل كل واحد بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون، والمقصود أن الله ﷻ خلقكم لأجل التعارف والتواصل والتعاون<sup>(١)</sup>.

إذا فعلى المسلمين أن يفتحوا على العالم، وينشروا عليهم دينهم وفكرهم الإسلامي ليُخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وألا ينسوا أن هذه الأمة مكلفة بصفة دائمة، حتى قيام الساعة بتبليغ رسالة الإسلام للعالمين، وهذا يقتضي أن نشبع بروح الدعوة، وأن تفيض قلوبنا بالشفقة والرحمة والحرص على هداية الناس. فالدعوة ليست واجب الأمة فحسب، إنما هي رسالتها الحضارية للبشرية، وهي أدواتها في التمييز بين الأمم، وهي أحد مسوغات وجودها كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

فإذا غاب عن المسلمين هذا الحس، وهذا الفهم، فإننا سنحكم على أنفسنا بالدونية والتهميش، ونتحول إلى أناس لا يحسنون سوى الشكوى - ولا حول ولا قوة إلا بالله - لأننا قادرون بما لدينا من قواعد راسخة، وأصول ثابتة على حل كل مشكلة، والإجابة على كل استفسار، فنحن لا نخاف من العولمة لأنه لا يوجد في الإسلام سؤال بلا جواب، ولأنه لا يوجد في الإسلام ما نود أن نخفيه، بل إبدائه كله فخرٌ لنا، وكل عاقل منصف سيقر بذلك. لهذا فإن الإسلام - بإذن الله ﷻ - هو المنتصر في ظل العولمة؛ لأن الله ﷻ بقوته وعظمته قرّر هذا المبدأ، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِمَّنْ تُوْرِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]. ولقد بيّن القرآن الكريم أن سنة الله ﷻ في خلقه الاختلاف والتنوع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١٥٣/٥)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٨٦/٧)، تيسير الكريم الرحمن للشيخ السعدي (١٣٨/٧).

﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَنَّ لَكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمِينَ ﴿١١٩﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩] فأخبر ﷺ أنه قادر على جعل الناس أمة واحدة، على ملة واحدة، ودين واحد، ولكن لا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقاداتهم ومللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم. وهذا هو المشهور الصحيح فهم لا يزالون مختلفين إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقوهم ففازوا بسعادة الدارين، ولهذا الاختلاف خلقهم فيكون فريق في الجنة وفريق في السعير. قال ابن جرير: «وهو أولى الأقوال بالصواب؛ لأن الله جلّ ذكره، ذكر صنفين من خلقه: أحدهما: أهل اختلاف وباطل، والآخر: أهل حق، ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ صفة الصنفين، فأخبر عن كل فريق منهما أنه مُيسَّر لما خُلِقَ له»<sup>(١)</sup>.

فهم لا يزالون مختلفين في الأديان والآراء والملل، وللأختلاف خلقهم، ذلك أنه مَنَحَهُم العقل والإرادة، فما دام كل واحد منهم يفكر برأسه، ويختار بإرادته فلا بد أن تختلف الأفكار، وتتباين الإرادات، ويتحمّل كل منهم مسئولية نفسه، ومن ثم ينبغي أن يُقرَّ الجميع بهذا الاختلاف، وأن يتعاملوا بينهم على هذا الأساس، وبهذا يتمسك كلُّ بما عنده بما يعتقد أنه حق، فاتحاً باب الحوار مع الآخرين، ونحن المسلمون نرحب بهذا الحوار بل نحن مأمورون به شرعاً لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

لذا فإن ما تدعو إليه العولمة من تزويد الفوارق في كافة المجالات، وجعل الكرة الأرضية كلها شيئاً واحداً، يُخالف سُنَّةَ من سنن الله ﷻ في خلقه، فالله ﷻ يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ بالمضارع المفيد معنى الاستمرار، ثم قال تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: لسبب ذلك خلّقوا؛ ليختلفوا ويتميّزوا ثم يُحاسبوا، كل فريق بما اختار، كما أن الإسلام رسالة عالمية، وهذا ثابت في القرآن الكريم في الكثير من الآيات، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً﴾

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٨٨/٧)، وانظر: معالم التنزيل للبغوي (٢٠٧/٤)، المحرر الوجيز لابن عطية (٢١٥/٠٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٦١/٤)، تيسير الكريم الرحمن للشيخ السعدي (٤٧٠/٣).

لِلْعَلَمِيَّةِ ﴿١٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال ﷺ: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَلَمِيَّةِ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

والأمة المُصْطَفَاة لم توجد ابتداءً للتلقِّي، بل أُخرجت للعطاء. فالأمة المسلمة تكمن قيمتها في عطائها، فإذا توقفت الأمة عن العطاء، بدأت بالأخذ والتلقي من غيرها، ثم التسوُّل على موائد الآخرين؛ أي: أنها أعملت في نفسها سبب فنائها وذوبانها الذي يسير شيئاً فشيئاً حتى تحين وفاتها، ولهذا تتأبى الأمم الواعية عن الاكتفاء بدور الامتصاص، فكما تأخذ تعطي وتبرز هويتها الحضارية من خلال عطائها المميز.

وإذا علمنا أن للناس من العولمة مواقف ثلاثة [طرفان وواسطة] فهي كالاتي:

- الطرف الأول: فهو الطرف المندفع إلى العولمة، المتحمس والمُستسلم لها، المُضْحِي بهُويته الإسلامية في سبيل الاندماج بالحضارة الغربية.

- والطرف الثاني: فهو الطرف الهارب من المواجهة، اللائذ بالصومعة، المتفوق على ذاته.

- والطرف الثالث: فهو الموقف الذي يُمثل المنهج الوسط؛ الذي لا يفرُّ من المواجهة، ولا يخاف من الحوار، الواعي لرسالته، المُتمسك بأصالته، الواقف على أرض صُلبة لا يخاف من الحوار، وينطلق من أفق واسع، يأخذ ويعطي، ويستقبل ويرسل، ذلك أن ثورة الاتصالات وضعت الناس فيما يشبه الخلَّطة الكبيرة، وجعلت الكل يراقب الجميع.

- إذا درسنا المواقف الثلاثة دراسة علمية، وعَرَضْنَاها على النصوص الشرعية التي حدَّدت دور المسلمين في هذه الحياة، تعيَّن منا اختيار الموقف الثالث، بل صياغته إن لم يكن موجوداً أصلاً، فهذا ما يُمليه علينا اصطفاء الله ﷻ لنا كأمة مسلمة مُكلَّفة، وهو ما يمليه عليها دورها المناط بها والموضح في قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

ولقد أعجبني كثيراً ما كتبه رئيس تحرير كتاب المعرفة في تحليله لموضوع التعامل مع العولمة حيث قال: «والذين يبسطون العولمة - من

المثقفين العرب - بأنها قطار الحياة الذي ينبغي أن نركبه . . أو سيمضي ويتركها في العراء! هم يسدّجون مشروع العولمة في مداه المعيشي فحسب، وكان ينبغي أن نتطرح تساؤلات عديدة حول هذا القطار «قطار العولمة»:

- هل كل من أبقى ركوب هذا القطار بالتحديد، سيبقى في العراء حقاً؟! .

- وإذا ركبنا هذا القطار هل سننزوي في أحد كراسيه، ننتظر كي يذهب بنا حيثما وكيفما شاء، لا حيث وكما نشاء نحن؟! .

- وهل كل من يركب هذا القطار ينبغي أن يؤدي دور الراكب البليد، الذي لا يحرك ساكناً في «القاطرة» التي هو فيها على الأقل؟! .

- هل سنظل أمام العولمة كالطفل الصغير، تربي فينا العولمة ما تشاء من أخلاقياتنا السلوكية والاستهلاكية، أم أننا قادرون - رغم ضعفنا - على أخْلَقَةِ العولمة وتربيتها؟! <sup>(١)</sup> .

الواقع أننا لا نملك أن نفر من هذه العولمة، وليس في استطاعتنا رفضها أو الهرب من حصارها وضغطها، كما أنه لا ينبغي لنا أن نتقبلها كما هي ونستسلم لها مطأطي الرؤوس لا بد أن نتحرك وأن نحمي أنفسنا بالتماسك والتناصر وتوعية الشعوب وتحصينها عقائدياً وفكرياً وثقافياً .

إنَّ الموقف اللائق بالأمة الإسلامية هو الموقف الوسط الذي يجتهد أن يستفيد من إيجابيات العولمة وانفتاحها ويأخذ خير ما فيها، ويؤيد صحة هذا الموقف مسلّمات أساسية نطلق منها:

١ - إن الأمة الإسلامية هي أمة دعوة وليست منغلقة على نفسها، قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ [آل عمران: ١٠٤] . فالعولمة تساعدنا على تقديم رسالة الإسلام للناس على نحو لم يسبق له نظير، إذ إن مضمون الدعوة ثابت، ولكن وسائلها وآلياتها تتغير وتتطور بتطور الحياة ومعارف الإنسان، وليس فقط أنه ثابت بل هو ضروري في حياة الناس أجمع .

(١) كتاب المعرفة نحن والعولمة من يربي الآخر ص ١٤ .

٢ - إنَّ حذف الدين من حياة الإنسان غير ممكن؛ لأن الإنسان بغير دين، إنسان بلا جذور ولا أمل ولا غد، إنسان مكشوف مخترق من كل جانب، فاقد اليقين والرضا، يحوطه الشك والسَّخَط، يعيش في الحياة محروماً من سر الحياة وهو الدين.

٣ - إن الذي يميز أمة الدعوة أنها تملك نظام القيم المؤهل لإنقاذ البشرية كلها مما تعانيه في ظل انتشار العولمة، إنها تملك قيم العدل والحرية وحقوق الإنسان التي يُنادي بها مُرَوِّجو العولمة، لكن أخذ هذا الدور يحتاج من الأمة إلى مجهود كبير تتضافر فيه الجهود كي ترد التحديات وتحتل المكانة المناسبة، وفي ذلك مصلحة للبشرية جمعاء<sup>(١)</sup>.

٤ - إن الأمة المسلمة تملك من المُقَوِّمات، والطاقات، والإمكانات الماديَّة والمعنويَّة، ما يجعلها في طليعة الأمم، ويمنحها مكانتها، كما أراد الله ﷻ لها ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠]، ومن هذه المقوِّمات:

#### أولاً: القوة العددية:

فهذه الأمة تملك طاقةً بشريَّةً ضخمةً، وهي أمة خِضْبَةٌ ولوْدٌ، فهي في زيادة وغيرها من الأمم في نقصٍ مستمر؛ ويمكن الاستفادة من القوة البشرية للأمة بحُسن إعدادها، وتعليمها وتربيتها وتوثيق روابطها، وفتح المجالات لها، وربطها بأهداف كبرى تعيش لها وتجاهد في سبيلها فتجد للحياة معنى وطعماً، كما فعلت الأمة في قرونها الأولى.

#### ثانياً: القوة المادية:

وتملك هذه الأمة الطاقة الماديَّة والاقتصاديَّة، فهي تملك مساحات شاسعة صالحة للزراعة لو وجدت من يحسن استغلالها؛ وهناك من المعادن والثروات المدفونة في باطن الأرض وفي قلب البحار والأنهار والبحيرات ما لا يملكه غيرها.

(١) انظر: المسلمون والعولمة للدكتور يوسف القرضاوي ص ١٤٥.

### ثالثاً: القوة الروحية:

وتملك الأمة القوة الروحية المستمدة من الرسالة التي أورثها الله ﷻ إياها، وميزها بها عن سواها ومنحها - وحدها - الوثيقة السماوية الوحيدة، التي تتضمن كلمات الله ﷻ الأخيرة للبشرية؛ القرآن العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. والذي تولى الله ﷻ حفظه. وهذه الرسالة تتميز بالشمول، وتتميز كذلك بالتوازن وبملاءمتها للفطرة السليمة، والعقل الرشيد، ومراعاتها للمصلحة، وتيسيرها على الناس، وتكليفهم ما تسعه طاقتهم، ورفع الحرج عنهم، والبشرية أحوج ما تكون إلى هذه الرسالة الحنيفية السمحة، بعد أن أشقتها المادية، والإباحية، والعصبية.

إذاً إنَّ الأمة المسلمة قادرة على التعامل الإيجابي مع العولمة، ولكن لا بد قبل البدء في ذلك من تحديد بارز لهوية هذه الأمة المسلمة.

إن أهم مسألة في قضية المشاركة هذه هي التحديد الواضح الجلي لتحديد طرفي المعادلة: «نحن» من حيث هويتنا، و«العولمة» من حيث هي وسائل وأهداف.

إنه لا قيمة لتحديد موقف أو إصدار حكم تجاه قضية لم تحدّد حقيقتها وعناصرها وخلفياتها، لهذا كان لا بد من وضع قاعدة خطة التعامل مع العولمة وهو التحديد للعولمة ولشخصية المتعامل معها.

أما الطرف الأول وهو «نحن»: من حيث هويتنا؛ فقد عرفنا فيما سبق أن للأمة الإسلامية هوية بيّنة، ثابتة، حركية، قاعدتها تعاليم الوحي: القرآن الكريم والسنة المطهرة التي تمثل الدين الحق = الإسلام، فهي:

- بينة لوضوح تلك التعاليم - التي تركز عليها - في مبادئها العقدية إيماناً بالله رباً وإلهاً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وقيماً خلقية، وشرائع عملية، فهي واضحة في كليات هذه الأمور لكلّ مسلم صحيح الانتماء لإسلامه أياً كان مستواه الثقافي، وهذا ما يُسمّى «المعلوم من الدين بالضرورة» الذي لا يسع مسلماً جهله.

- وثابتة: لقيامها على تلك المبادئ والأحكام المقررة في الوحي، وهي قيم مطلقة لا يعترها التغيير مهما تغير الزمان أو المكان؛ لأن الله أنزلها لتكون شرعة الدين إلى قيام الساعة.

- وحركية: بمعنى أنها هوية متفاعلة مع الزمن عطاء واكتساباً: لأن إسلامية المسلم بمعنى التزامه بتلك التعاليم يقضي عليه بأن يتحرك بهذه التعاليم في واقع الحياة مصححاً مسار الحياة نحو الحق، ومستثمراً في ضوئها ما ينتجه الجهد البشري من خير وصلاح، سواء أنتجه المسلم نفسه أو أنتجه الآخرون.

ولهذا يمتاز المسلم - الواعي بإسلامه - بالتثبّت أمام ما يعترضه من قضايا فلا يستعجل بالرفض لكونه لم يألفها، ولا ينهر بها فينساق معها دون روية. إنه يشعر أنه يحمل معياراً لا غش فيه ولا شطط، يستطيع به أن يفرز ما أمامه واثقاً بصدق نتيجته؛ هذا المعيار هو تلك التعاليم الإلهية التي لا ينفك عنها في كل أحواله، ولا مجال للتلاعب عليها إلا إذا كان هذا المسلم جاهلاً بدينه، أو كان قد غشيت عقله غواش من الشبهات أو الشهوات التي حجبت إيمانه عن التحكم بشخصه.

الهوية بهذه الصورة وبهذا الوضوح هي التي يشعر بها كل مسلم وينشد إليها ويرتبط مع المسلمين الآخرين بها، حتى وإن ضعف لدى كثير من المسلمين الالتزام العملي بتلك التعاليم بالصورة المثلى المطلوبة شرعاً.

ولكن ينبغي أن نعي أنّ جهوداً حثيثة بذلت خلال عقود كثيرة من السنين من قبل أعداء الإسلام، ومن قبل المتغربين من أبناء المسلمين من أجل زحزحة المسلم عن هذا المستمسك المتين بصرفه عن تلك التعاليم إلى موجّهات أخرى تُنسيه دينه، وبتهوين قيمة تلك التعاليم في نفسه حتى لا يشعر بالخرج من اختراقها، وبيعثرة مفهومه للهوية بربطها باللغة مجردة عن الدين، أو بوطنية ضيقة، أو بتراث قومي جاهلي أو نحو ذلك.

ولهذا ينبغي الاهتمام بالتذكير بالهوية، وربط المسلمين بها في قاعدتها الصحيحة: تعاليم الوحي ربطاً إيمانياً جامعاً بين القناعة العقلية، واليقين القلبي المطمئن، ومقاومة كل الصيغ الفاسدة التي روّجها المستغربون بين المسلمين، وبذلك تتوحد وجهة المسلمين عامة، منطلقاً من تلك التعاليم، محاكمة إليها كل وافد عليها.

إذن فالطرف الأول «نحن» متحدّد الهوية بارتكازه على تلك التعاليم والانطلاق منها.



أما الطرف الثاني، وهو «العولمة» فبناء على ما تبينت لنا به فيما سبق تتمثل في عنصرين: الوسائل، والأهداف.

الوسائل المتمثلة بالمواثيق الدولية، والمعاهدات، والمُنظَّمات العالمية والإقليمية، ووسائل الإعلام والاتصال، والتبادلات التجارية، والثقافية، والسياحية ونحوها.

### والأهداف تنحصر في الآتي:

١ - تحقيق مصالح العالم الغربي، السياسية والحضارية والاقتصادية بإبقاء سيادة حضارته، وقمع أي بروز لقوى منافسة، قد تنازعها مستقبلاً هيمنتها، وأسواق منتجاتها، أو تغير في موقف تبعية العالم الثالث لها.

٢ - مواصلة حركة التغريب، وتعميم الثقافة الغربية والنمط الأوروبي في المجتمعات الأخرى لتتحسر ثقافتها نحو الهامش، أو تبقى متصارعة مع ثقافة العولمة<sup>(١)</sup>.

إذاً لن نستطيع أن نُثبت هذه الأمة وجودها، وتؤدِّي رسالتها، وتتبوأ مكانتها تحت الشمس إلا إذا قامت بتحديد هويتها فلا هوية لها بغير الإسلام، فهو محور حياتها، وروح وجودها، وسر بقائها، وتحديد المرجعية العليا لحياتها العقدية والتشريعية والثقافية والاجتماعية، وما دامت الأمة مسلمة فلا مرجع لها غير الإسلام الذي أنزله الله ﷻ في كتابه العزيز، ودعا إليه رسوله ﷺ وفهمه أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

وهذا يحتم ضرورة الاجتهاد ورفض الجمود والتقليد، فهو وسيلة ضرورية لفهم مقاصد الإسلام ونصوصه، وتنزيلها على وقائع الحياة، ولا توجد أمة حثَّ دينها على الاجتهاد مثل هذه الأمة، حتى إن المجتهد فيها ليُؤجر على خطئه في اجتهاده، كما يتطلب على الأمة تجسيد الإسلام في أخلاقها وأعمالها: فلا يبقى مُجرَّد شعارات ترفع، أو دعاوى تدعى، أو أقوال تقال، فإنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل. وأول هذه الأخلاق: التجرُّد لله ﷻ، والانتصار على شهوات النفس، وثاني هذه الأخلاق أن تخرج

(١) انظر: مجلة الدعوة العدد ١٧٣٦، العولمة في مواجهة الصحوة د. الزيندي ص ٢٢.

الأمة من العزوف الكلي إلى أفق الإنتاج والعمل<sup>(١)</sup>.

إن على الأمة المسلمة أن تعيد قراءة تاريخها، وتستخرج سبب قيامها وعوامل ضعفها، وبالتأكيد فسيوضح وبلا خلاف أنّ الإيمان والاعتقاد الصحيح هو العنصر الفاعل في قيام الإسلام وانتشاره، فلا بد من فهم سنن الله في خلقه، فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [الكهف: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١] فإذا حلَّ السبب حلت معه السنّة الكونية، كما عليها توحيد صفها، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]؛ لأن الأمة المسلمة مُستهدفة من قبل العولمة فإذا ما التفت حول مبادئها ودعوتها وشريعتها، وتلاحمت أوطانها وتراصت صفوفها فإنها ستكون غنيمة باردة لمصدري قرارات العولمة بمختلف مجالاتها.

ويجب أن تضحّ الأمة المسلمة بثرواتها جميعها على أعدائها الذين يتقوون بها عليها؛ بحيث تضع الشروط الحكيمة للشركات التي تستغل تلك الثروات، كما يجب ألا تفكر إلا في مصلحة شعوبها أولاً وأخيراً.

إن في مخيلتنا صورة رائعة رسمها التاريخ لفتوحات إسلامية حملت في طياتها الأمن للبشرية، وعملت بالأدب الإنساني الرائع الذي تمثل في تجنب الجنود للنساء والأطفال والعزّل من الناس، بل وحتى الأشجار والدواب؛ وليس ما نراه من عنفوان وغرور الأعداء والمتمثل في أبشع صور التعامل من الإنسان، لا بد وأن تعود الخلافة الراشدة، وبدونها فلن تنعم أمة محمد ﷺ بالأمن أولاً حتى تُسعد به البشرية ثانياً.

يجب أن تعلم الأمة المسلمة وهي تتعامل مع العولمة أن هناك مُسلّمات لا يمكن أن تتجاهلها وهي أن الأرض التي تعيش عليها ليست مُجرّد تراب، وإنما هي وعاء للذكريات وصفحات للتاريخ وموطن المقدسات، وأن اللغة التي تتحدّث بها ليست كأي لغة أخرى وإنما هي أداة العقيدة والشريعة، إنها روح الأمة المترجم لماهيتها. كما أن العقيدة التي تدين بها إنما هي وحي

(١) انظر: الأمة الإسلامية للدكتور يوسف القرضاوي من ص(٣٩) إلى ص(٤٨) باختصار وتصرف.

السماء، والحق المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنها من الثوابت الراسخة التي لن تتغير ولن يُسمح لأحد بتغييرها مهما بلغ، وإن آثارنا ليست مجرد أحجار للمشاهدة وإنما هي الأمة ذاتها بتاريخها المجيد، وهذه الآثار لا غنى للأمة عنها البتة فهي حضارة الإسلام وجذوره التي تولد القوة الممتدة منذ ذلك الماضي البعيد.

إذاً نحن عندما نتعامل مع العولمة، نتعامل معها على أنها ليست فكرة ولا تياراً ولا أزمة ولا اتجاهًا، بل هي وضعية كونية جديدة تخترق كل مجالات الحياة، وتترك بصماتها على مختلف جوانبها، وهي تمثل بالنسبة للمسلمين - إذا أحسنوا التعامل معها والاستفادة من أهدافها التي تسعى لتحقيقها - مجالاً خصباً لنشر الإسلام؛ إنها دعوة غير مباشرة إلى النهوض، ونفض الغبار، وتحسين الوضع الداخلي والخارجي، وإبراز القدرات واستخدامها للمشاركة في هذه الوضعية الكونية دون شعور بالنقص، أو بأنها ظاهرة مُسلِّم بها، بل هي فرصة عظيمة وضعت بين يدي أمة الدعوة، للوصول إلى كلِّ العالم والدخول إلى كل بيت، والوصول إلى كل عقل وفكر، من هنا تبرز أهمية وخطورة الدور المُناط بأمة الدعوة في استخراج كنوز الشريعة السَّمحة، وإبرازها للعالم أجمع بالصور التي تستوعبها جميع المستويات.

إنها دعوة غير مباشرة للنقد الذاتي لإعادة النظر في أحوال الأمة، وإعادة ترتيب أمرها من جديد، ولقد أشار كثير من الباحثين إلى الطرق السليمة في التعامل مع ظاهرة العولمة، والتي تضمن بقاء الأمة المسلمة في مكانتها قائمة ورائدة، من أبرزها:

#### ١ - نشر الوعي بالعولمة وإعادة توعية الأمة بمكانتها ودورها:

إنَّ مما يفيد في ذلك هو التنبيه إلى أن الأمة الإسلامية أمة حية لا تموت، ولكنها تنام أو تُنَوِّم، فعلياً أن نوقظها من سُباتها، ونُعيد إليها وعيها بذاتها، وبرسالتها، وبدورها المنشود، فهي أمة عالمية لم تُخَرَّجْ لنفسها، وإنما لنفع الناس ولخيرهم ولهدايتهم، ولن تستطيع القيام بتلك الرسالة قبل أن تقدمها لنفسها أولاً فإن إصلاح الداخل مطلوب قبل إصلاح الخارج، وأول خطوة في العلاج أن نعرف الخلل الموجود في الأمة، وأن نعمل جاهدين على

تغييره، وبهذا تتغير أحوالها وفق السنة الإلهية المضطردة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]

إن أول خطوة في طريق التعامل مع العولمة يجب أن تتمثل في توعية الناس بطبيعة العولمة إذ إن هناك جهلاً عظيماً بهذه الظاهرة. وتوفير إطار مرجعي للتعامل الصحيح مع العولمة منبثق من إيمانها بالله ﷻ، واليوم الآخر، والقيم الإسلامية الأساسية، والاحتكام إلى الشريعة الإسلامية.

## ٢ - الاهتمام بالثقافة والتحول من التائر إلى التائير:

نقصد بالثقافة هنا ذلك المركب المتجانس من التصورات والقيم، والرموز والتغيرات والإبداعات والتطلعات التي تُحفظ بجماعة بشرية تُشكّل أمة بهويتها الحضارية.

والثقافة بمعناها العام هي طريقة الحياة الكلية للمجتمع، وهي تتضمن كل ما يتعلق بالحياة مثل اللغة واللهجة وطرق الزواج والزي والأدب وغيرها من صور الحياة والنشاط البشري. إنها ذلك النسيج الكلي من الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد والاتجاهات والقيم وأساليب التفكير والعمل وأنماط السلوك.

وثقافة الأمة في جوانبها المختلفة تشكل أسلوبها في الحياة، فعقيدة الأمة وتاريخها ونظرتها إلى الحياة خاصّة والأفكار والنظريات التي تدور في عقول أبنائها ومفكرها تشترك جميعاً في تحديد الأسلوب الذي يحكم حياة الأمة ويضبط مسارها.

والأفراد في كل مجتمع من المجتمعات يتشربون منذ أن تفتتح عيونهم على الحياة ثقافة الأمة التي يعيشون فيها، وتؤثر هذه الثقافة في تكوينهم الفكري والعقائدي والخلقي ويندمج الفرد بذلك في مجتمعه، وتتكون عاداته وتقاليده شيئاً فشيئاً.

وللدين أثره الذي لا يُنكر في توحيد الثقافة وفي إنمائها، فالثقافة نتيجة من نتائج الدين، وقد قلنا: إن الثقافة تعني «أسلوب حياة الأمة»، وهذا الأسلوب يحدده عند الأمم الأخرى تراثها الفكري والحضاري، أما عند

المسلمين فيحدده الإسلام، بل إن الإسلام في حقيقته «منهج حياة متكامل»، ومحور ثقافة الأمة بناءً على ذلك الإسلام في عقائده وأخلاقه وطرائقه في السلوك والاقتصاد والسياسة والاجتماع والتشريع.

صحيح أننا كأمة مسلمة لا ينبغي لنا أن نعيش بمعزل عن العالم المتحضر، وأنا يجب أن نبني حضارتنا على (تكنولوجيا) العصر وعلى العلوم المكونة لها، ولكن ذلك كله لا ينبغي أن ينسبنا أن الثقافة ليس لها إلا أن تظل مستقلة بالنسبة لنا ما دام أن الإسلام هو منهجها، ولو انمحت الفروق بين ثقافات الأمم لأصبح العالم أمة واحدة، وهذا لن يكون، فإن الثقافة هي صميم الإنسان نفسه. والواقع أن تعدد الثقافات في العالم هو من الأمور المسلم بها، ثم إنه لا ينبغي لنا أن ننسى أن اعتصام المسلمين بثقافتهم وغيرتهم عليها هي التي أصابت هجمات الاستعمار على ديارهم بالبوار، وجعلته يُخفق في غزوه ثقافياً وفكرياً ودينياً<sup>(١)</sup>.

إن الثقافة هي الذات المعنوية، وهي السلاح الذي تستخدمه الأمم في خوض غمار الحياة، وفي الدفاع عن الوجود، وهي ترتكز بشكل أساس على المنح الربانية، فالإسلام لا يرفض ثقافة معينة لمجرد كونها أجنبية، وإنما ينظر فيها بعناية، ويأخذ ما يفيد في مسيرته الحضارية، فهو لا يرفض ثقافة نافعة فيها مصلحة للبشر، فالحقيقة ضالة المسلم أتى وجدها فهو أولى بها، ولا يعني ذلك التفريط في خصوصيات الأمة الإسلامية، والتي تهتدها العولمة بما تنطوي عليه من الترويج لقيم معينة، ولحضارة معينة هي الحضارة الغربية، الأمر الذي يؤدي إلى تهديد الخصوصيات والقضاء عليها.

إن أمام ثقافتنا الإسلامية في عصر العولمة تحديات جسام، في مقدمتها أن تقوى على النهوض، وتنمو نمواً داخلياً، وذلك بالعودة إلى مخزونها الثري فتحياه وتجده دون أن يأخذ ذلك منهج أسر الحاضر في قيود الماضي من جهة، وبالتفاعل الإيجابي مع الثقافات الأخرى تجنباً للانغلاق والتحجر، من جهة أخرى.

(١) انظر: نحو ثقافة إسلامية أصيلة د. الأشقر ص ٢١، المدخل للثقافة الإسلامية د. يعقوب المليجي ص ٢٦ وما بعدها باختصار وتصرف.

وبدل أن تكون العولمة إقراراً لثقافتنا، وعامل تصحُّر لها، فإنه ينبغي لنا أن نغتنم هذه الفرصة - فرصة العولمة - لإقامة حوار حقيقي مع الثقافات الأخرى بما يعرفُ بهويتنا الإسلامية وقيمها النبيلة الخالدة.

ومما يُحسِّن من قدرة ثقافتنا على الصمود في وجه العولمة، إغناء القاعدة الروحية، التي تعمل العولمة على إهمالها وتهميشها، كما أن تيارات الشهوات لا يمكن مقاومتها بالأنشطة العقلانية الفكرية، وإنما بتيار روحي وأحاسيس إيمانية، ومعالجة الخواء الثقافي.

وإذا ما أردنا أن نكسر هجمة العولمة في المجال الثقافي فإن علينا أن نُقلِّبَ النظر في الأوراق الذابلة في ثقافتنا، ونعيد لها التألُّق والحيوية من جديد، كما أن علينا أن ننعش القيم المُثلى في شريعتنا، مثل العدل والنزاهة والدقة والجدية وبذل الجهد اللازم للعمل بها دائماً حتى تكون شعاراً يُعرف به أبناء الإسلام ومؤسساته، وأن نعمل على بناء خطوط متقدمة في ثقافة الآخرين نُبلِّغُ من خلالها رسالتنا ونُضفي على أنفسنا مسحة التألُّق الحضارية، وإن على مثقفينا أن يوضِّحوا للناس ما عليهم فعله في هذه السبيل، فذلك هو جوهر الريادة الاجتماعية وهو سبيل استحقاقها<sup>(١)</sup>.

### ٣ - إيلاء التربية والتعليم مزيداً من العناية والاهتمام:

إنَّ التربية والتعليم عملية متشعبة تشترك فيها عدَّة مؤسسات بدءاً بالأسرة والمدرسة ومؤسسات المجتمع المختلفة. فما هي ملامح النظام التربوي الذي يمكن من خلاله مواجهة العولمة، والحد من أثارها الأمنية؟ وما هي المرتكزات التي يمكن أن يقوم عليها هذا النظام التربوي؟

إن النظام التعليمي الذي نستطيع أن نحافظ به على هويتنا ومكانتنا في عصر العولمة هو التعليم الذي يُعمِّق الهوية ويغرس الانتماء والولاء للأمة. ذلك التعليم الذي يستطيع أن يخرج نخباً فكرية مستنيرة، تستطيع أن تزيل وهم العولمة، وتحمل لواء الممانعة، نخباً تحمل فكرياً مستنيراً مؤمناً و متمسكاً بقيم

(١) انظر: الإسلام في عصر العولمة لحمدي زقروق ص ١٦، والعرب والعولمة لمحمد عابد الجابري ص ٢٩٧، العولمة طبيعتها - وسائلها - وتحدياتها - التعامل معها للدكتور عبد الكريم بكار ص ١١٠ (باختصار وتصرف).

الأمة الحضارية وثوابتها، نُخباً تستطيع أن تفتح على الفكر العالمي انفتاح المحاور لا انفتاح التابع المندمج ولا الرفض المتشرد، وإنما انفتاحاً يقوم على حوار الثقافات الذي يعتمد على الاعتراف المُتبادل، ويؤمن بحق الاختلاف، حوار يجري على قاعدة النُدبة. هذا الجيل لا يمكن له إلا أن يخرج من نظام تعليمي متميز يتعدى في أهدافه القضاء على الأمية الهجائية إلى إنهاء الأمية الحضارية والثقافية وإنهاء الأمية التكنولوجية، هذا التعليم الذي نشده لا بد أن يقوم على عدة مرتكزات منها:

#### أ - تربية الهوية وتعميق الانتماء:

إن الاختراق الثقافي، وتضارب وكالات التنشئة، وتزايد حالة الاغتراب الثقافي التي يعيشها بعض أبناء الأمة، تتطلب من النظام التربوي أن يؤدي دوراً أكثر فاعلية في تعزيز الهوية، وتعميق الانتماء، والاعتداد بثقافة الأمة وثوابتها، وذلك يتطلب من التعليم أن يلتزم بالرؤية الإسلامية للإنسان والكون والحياة، وتأكيد مرجعيتها في العلاقات والقيم والعلم والمعرفة. وبذلك يلزم ترسيخ عقيدة الإيمان بالله، وترسيخ أن الإسلام منهجٌ شامل للحياة في جميع جوانبها، وتربية الناشئة على الإسلام تربية تطبيقية، وربط تعاليم الدين الإسلامي وآدابه بالحياة الاجتماعية.

#### ب - تربية المسؤولية الاجتماعية:

ومن العوامل التي تسهم في تعزيز الهوية والحفاظ عليها، وغرس الانتماء والولاء للأمة والوطن، تعزيز وتنمية شعور الناشئة بالمسؤولية الاجتماعية، وذلك من خلال تنمية حس الفرد، وشعوره وتأكيد دوره ومسؤوليته تجاه المجتمع، مسؤولية ذاتية تحرك الفرد وتدفعه إلى البذل والعطاء، والمسؤولية الاجتماعية تنمو عند الفرد من خلال إدراكه لعقيدة الأمة وتاريخها، ومعرفة نُظمها ومؤسساتها، وتشرب ثقافتها وقيمها، وبذلك يكون التأكيد على تكثيف التربية الإسلامية والمعارف التاريخية والجغرافية من أولويات النظام التربوي لتعزيز ارتباط الفرد العاطفي، ودعم ولائه للأمة، ارتباطاً يدفع الفرد للمشاركة الإيجابية في فهم قضايا المجتمع، والإحساس بهومومته والعوائق التي تعترضه، اهتماماً يولد مشاركة إيجابية في صنع مستقبل

المجتمع وتذليل الصعاب والعقبات التي تعترضه، مسؤولية تؤدي إلى البذل والعطاء والعمل الدؤوب للنهوض بالمجتمع، مسؤولية تجعل الفرد يدرك تأثير أفعاله وسلوكه على المجتمع، مسؤولية اجتماعية تبعث عند الفرد مقاومة كل أشكال الانحراف، والخروج عن قواعد المجتمع ونظمه.

هذه المسؤولية هي جزء من تربيته الإسلامية التي تدعو إلى الخير وتنهى عن كل أشكال الفساد، وقد أكد هذه المسؤولية القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

### ج - الاهتمام باللغة العربية:

إنَّ من لوازم غرس الهوية والاعتداد بها، الحفاظ على اللغة العربية فهي وعاء ثقافة الأمة وجوهر هويتها. وذلك بتطوُّر أساليب تعليمها، وتكثيف استخدامها في الحياة الاجتماعية، وأن تكون لغة العلم والتعلم سواء في مؤسسات التعليم العامة، أو مؤسسات التعليم العالي. إن الاعتناء باللغة هو من عوامل توحد المجتمع وتماسكه وتعزيز ولائه وانتمائه، فاللغة كما أنها تمثل وحدة اللسان تمثل كذلك وحدة الفكر، ووحدة الثقافة، وهي بذلك تُعزِّز الانتماء والولاء وهجرها لحساب لغات أجنبية أخرى يعد نخراً في وحدة الأمة وتماسكها.

### د - تربية الإعداد للحياة:

إنَّ من سمات العولمة التغيُّر السريع في مجال العمل المهني، وسرعة التغيرات الثقافية والتحوُّلات الاجتماعية، وهذا يستلزم مواكبة مستمرة في الإعداد والتدريب، والنظام التربوي المنشود هو الذي يستطيع إعداد الفرد متعدّد المهارات، وإكسابه المهارات والمعارف الفنية والتقنية، ومهارات التعلم الذاتي. وأحسب أنَّ النظام التعليمي الذي يستطيع تخريج شباب على مستوى عالٍ من القدرات والمهارات سوف يحد من البطالة في سوق العمل. إذ البطالة مصدر كثير من المشكلات الأمنية، حيث تؤدي إلى الانحرافات السلوكية، وانتشار المخدرات وشيوع القلاقل والانحرافات.

ومن سمات النظام التربوي الناجح أنه يعد الفرد للتأقلم والتكيف مع



المتغيّرات الثقافية والاجتماعية، والذي يزوّد أفرادها مهارات التفكير المنظم، وأساليب فهم المشكلات وعلاجها، وطرائق تكيف التغير والتكيف معه. وفي العموم الاستثمار في التعليم وتحسين مخرجاته يعد جزءاً وقائياً يوفر على المؤسسات الأمنية كثيراً من طاقاتها ونفقاتها.

#### هـ - تربية الإبداع:

إنّ من شروط بلورة نموذج حضاري مُوازٍ لنموذج العولمة، الاهتمام بالموهوبين والمبدعين وإفرادهم برعاية خاصة وبرامج إضافية، وتوفير البيئة الملائمة من أجل امتلاك المعرفة المتقدمة. فالثورة المعاصرة هي ثورة المعلومات وهي تعتمد على العقول البشريّة المتفوّقة التي تستطيع أن تولد المعلومات حول شؤون الحياة، ودون رعاية هذه العقول وتنميتها لا تستطيع الصمود في عصر العولمة.

#### و - تربية الترابط والتكامل:

إنّ تيار العولمة يعمل على دعم علاقة «الأطراف» بدول «المركز» وتهميش العلاقات البينية بين الدول. وهذا التوجّه يجعل من مهام التربية الناجحة أن تُنمّي وتُعزّز العلاقات والمشاعر، وتدعم المصالح بين الدول العربية والإسلامية، وأن تعمل على تأكيد القواسم المشتركة بين تلك الدول في الدين والتاريخ واللغة، وأن تُعزّز علاقات التكامل والتساند والتآزر بين أبناء الأمة. ومثل هذا الاتجاه يعمل على تعزيز الهوية والاعتداد بها ويحد من آثار العولمة الاقتصادية والثقافية.

#### ز - وحدة المناهج:

إنّ التربية عامل توحيد وتجانس بين أفراد المجتمع، وهذا يستلزم توحيد المناهج التعليمية واتساقها ودفع التيارات الدخيلة في أنماط التعليم مثل المدارس الأجنبية والمناهج الدخيلة، بحيث تسهم هذه المناهج في تخريج أجيال ضعيفة الولاء والانتماء، وقد يكون ارتباطها وولاؤها للثقافة التي نهلتها في المدارس الأجنبية.

وقد أثبتت الأحداث التاريخية في المنطقة أن خريجي المدارس الأجنبية والمناهج الوافدة هم قادة الثورات، وحركات التمرد، وهم الذين يشنون

الحملات على الثقافة الوطنية. فالحد من هذه المدارس، وضبط مسيرتها إذا أقيمت مطلب تربوي لمواجهة أخطار العولمة.

### ح - تربية البحث العلمي:

إنَّ صياغة مشروع حضاري تستلزم من أبناء الأمة القدرة على دراسة المشكلات ومواجهتها في ظل الخصوصية الثقافية لهم. وذلك يعني إعداد أفراد يتقنون مهارات البحث والتَّمحيص، ويُتقنون فن التعامل مع المعلومات وَفْق منهجية علمية تهتدي بالتصور الإسلامي، مما يتطلب قيام النظام التربوي بإعداد الطاقات الفكرية القادرة على دراسة الواقع وتحليل الأحداث واستنباط المعالجات في ضوء الخصوصية الثقافية.

وعليه فإن الاستفادة من إيجابيات العولمة، وتفادي سلبياتها تحقيقاً للتنمية الشاملة وترسيخاً للهوية الإسلامية، وإسهاماً في الحضارة الإنسانية، يتطلب إيلاء التربية والتعليم - بمختلف مستوياتها، وأشكالها - مزيداً من العناية والبذل للارتقاء بهما كمّاً ونوعاً، إذ إنَّ إعداد الناشئة في الغالب يحتاج أن نعيد النظر في أساليب التعليم لنجمع في رحابها بين تلقين المعارف، وبين زرع القيم الأخلاقية والمبادئ السليمة والعقيدة الصحيحة.

إن تطوير التربية والتعليم مرهون بإصلاح عميق شامل طموح يتناول الأهداف فيدققها، والطرائق والأساليب والوسائل فيجددها ويكيفها مع مقتضيات عصر العولمة وضرورة مواكبته، والمحتويات فيحدثها ويجوِّدها، والمعلم فيزيد في تدريبه والرفع من شأنه، والمتعلم فيغرس في ذهنه ووجدانه ضرورة التعلم الذاتي والمستمر مدى الحياة، وفي هذا المجال فإنه لا مناص أيضاً من تعبئة وتهيئة الجهود المجتمعة وضممان مشاركتها الواسعة في محور الأمية وتعليم الكبار، وصولاً إلى المجتمع المتعلم الذي لا يتفاضل فيه الأفراد إلا بما اكتسبوه من علم ومعرفة، وأتقنوه من خبرات ومهارات، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] والمراد بالعلم في الآية: ما أدى إلى معرفة الله ﷻ، ونجاة العبد من سخطه، فالعلم الحق هو المعرفة، وهو إدراك الحق، وتفتح البصيرة، والاتصال بالحقائق الثابتة في الوجود، وليس هو المعلومات المنقطعة التي لا

تؤدي إلى فهم حقائق الكون الكبرى، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس<sup>(١)</sup>.

فلا بد إذاً من أن تُحکم العملية تربوياً، ولا بد من التشديد على تربية الجيل القادم، من خلال تعليم أفضل، وتدريب أرفع مستوى، وبحثٍ علميٍّ أكثر رصانة، ومن خلال تربية أُسريَّة واجتماعية يتعوَّد فيها الفرد على التفكير البنَّاء والعمل الشاق وطول النَّفس في الإنجاز والبناء، فلا خوف من حدوث تشرذم لأن الجيل الذي يتربَّى على أُسس حضاريَّة متينة لا خوف على مصيره لأنه سيحمل في داخله مقوِّمات النقد البنَّاء والمواجهة الفعَّالة<sup>(٢)</sup>.

#### ٤ - التربية الأُسريَّة:

تُشكِّلُ الأسرة المحضن الأساس للأجيال وتكوينها الثقافي، ففي رحابها تتلقى العقيدة والبادئ والقيم، وتتعلّم في ظلها الانتماء، وتتعرف على الهوية الدينية. وتأتي بعدها المدرسة لتكمل المهمة. وفي عصر العولمة تبرز أهمية التربية الأُسرية في تحصين الناشئة وتوجيههم وتهيئتهم للدخول في معترك الحياة الصاخبة.

إنَّ التربية تبني الكيان الإنساني من الداخل، في حين أن السلطات الأخرى تحكّم السلوك الظاهر، ففي الأسرة وخلال السنوات الخمس الأولى تُحفر الخطوط العميقة في شخصية الطفل. فالتربية بوصفها مجموعة من الجهود المربية والمتابعة تحتاج إلى انتظار وصبر لا يعرف النفاذ ولا اليأس ولا العجلة، قال الله ﷻ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّاقِئِ﴾ [طه: ١٣٢].

وتظهر مخاطر العولمة هنا في كونها تسير في تيار مخالف لتيار الأسرة المسلمة؛ فهي تسعى لتهميش دور الأسرة مستخدمة أساليب عدة منها: عقد مؤتمرات دولية بين فترة وأخرى جميعها تصبُّ في مشروع العولمة من أجل شلُّ كل قانون مخالف لقوانين الغرب من إباحة للجنس

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٤٠٢/٧)، في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٤٢/٥٥).

(٢) انظر: نحن والعولمة لعبد العزيز جلال ص ١٤١، مجلة المعرفة العدد (٥٣) التعليم والأمن في عصر العولمة بقلم د. إبراهيم بن محمد آل عبد الله ص ١٠ ما بعدها.

قبل الزواج، وإباحة للإجهاض، وتحديد للنسل، وتكريم للشاذين جنسياً. فإذا أردنا تربية جيل قادرٍ على مواجهة العولمة، فلا بد من أن يكون الجهد التربوي عبارة عن إشعاع يصدر من ذات فاضلة، ولا بد أن تكون الأسرة مؤهلة لتربية الجيل التربية الإسلامية الجيدة والمطلوبة. وبإمكان الآباء والأمهات والمُربِّين كافة أن يكتسبوا المزيد من الخبرة في غرس هذه القيم وتوضيحها للناشئة عن طريق القراءة المركزة، والاطلاع على تجارب الآخرين في هذه القضية.

إن الأسرة المترابطة البنية المتمكنة، والتي تحمل قيماً مرجعية وأخلاقية، قادرة على تربية الناشئة تربية صالحة، كما أنها تعمل على إعطاء المناعة الذاتية الكامنة في عقيدة راسخة قوية، تُمكن الأجيال من النقد والمواجهة لكل المصادر الجديدة المتمثلة في الثورة الإعلامية المنفتحة التي ظهرت مع العولمة لتشارك الإسلام عملية التربية<sup>(١)</sup>.

لقد اشتمل القرآن الكريم على منهج تربوي متكامل هو المعين الذي ينهل منه المربون، ومن هذه الآيات على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿يَبْتَغِي أَعْيُنَ الضَّالِّينَ وَأُمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْدِرَ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٧﴾ وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٨﴾﴾ [لقمان: ١٧ - ١٨].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِينَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَبَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِينُوا كَمَا اسْتَعَاذَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [النور: ٥٨ - ٥٩].

##### ٥ - الاستقلال والتميز:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

(١) العولمة طبيعتها - وسائلها - وتحدياتها - التعامل معها د. عبد الكريم بكار ص ١٢١.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ رَزَى نَفْسُكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْسَكَ قِبَلَهُ تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وليس المقصود بالاستقلال إنشاء نظام معزول عن النظم السائدة بين الناس اليوم، وليس المقصود بالتمييز التَّعَالِي على الآخرين، وإنما المقصود أن نملك إرادة التمتع على الذوبان في تيار العولمة الجارف، وهذا التمتع يرتكز على الاعتقاد بوجود خصوصية ثقافية وحضارية تتمتع بها أمة الإسلام وتملي عليها مسؤوليات كونية خاصة وتلتزم بسلوك مغاير لما عليه الأمم.

وفي قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠]. نص صريح على أن الأمة الإسلامية يجب عليها أن تساعد على إصلاح الآخرين من خلال الدعوة، وتقديم النموذج الإيماني الخاص من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق المفهوم الإسلامي، إنَّ أمة الإسلام ليست مكلفة بإيصال صوت نبيها محمد ﷺ للعالمين فحسب، وإنما هي مؤتمنة على جميع مبادئ التوحيد وجميع القيم التي بلغها الرسول ﷺ إلى جميع الناس من قبل.

إن التمييز تكليف وليس تشريفاً، وهو ليس ترفعاً، وإنما هو مشاركة إيجابية ومساهمة فعالة في إصلاح شؤون الحياة كافة. إنَّ على المسلمين - وهم أصحاب معتقدات صحيحة - أن يقدموا نموذجاً واضحاً على أن العولمة لا تؤدي بالضرورة إلى التَّخْلِي عن الخصوصيات الثقافية، ولا إلى زوال الحدود القومية، بل قد تؤدي إلى ردة فعل للحفاظ عليها<sup>(١)</sup>.

## ٦ - التقدم التقني وتشجيع الأعمال الصغيرة:

ستظل كل جهود العولمة منقوصة وضعيفة الجدوى إذا حَسَّنَ العالم الإسلامي من موقعه على صعيد مواجهة التقنية والصناعة، إنَّ التقدم التقني الذي يحدث اليوم سيهمش عناصر كثيرة، وسيكون له آثار هائلة على العقائد

(١) العولمة طبيعتها - وسائلها - وتحدياتها - التعامل معها للدكتور عبد الكريم بكار ص ١١٢ بتصرف.

والأفكار والأخلاق والسلوك والعلاقات، ولن تستطيع الأمة الإسلامية أن تتقدم تقنياً إذا لم تُحسن أوضاع البحث العلمي لديها، وهذا لا يتم إلا بتغيير المناهج الدراسية، والتحول من الاكتفاء بالتلقين والحفظ إلى الفهم، والبحث والربط بين الظواهر وإجراء التجارب، إلى جانب تزويد المدارس بالورش والمعامل والمختبرات التي تمكن الطلاب من إجراء التجارب العلمية، وتنمية مهاراتهم اليدوية.

والخطوة الثانية تتمثل في وضع قيود على استيراد السلع الكمالية، وتشجيع الانتاج الوطني، وإيجاد صيغ تنظيمية للعلاقة بين مراكز البحوث وبين المصانع والشركات حتى يتم إجراء البحوث التطبيقية في حدود التطوير القائم في المصانع. ولا بد من زيادة الإنفاق على البحث العلمي حتى يتم تنشيطه وتفغيله، وأن تختار الأمة المسلمة بدقة نوعية التقنية التي تناسبها. وبما أن أكبر نشاطات العولمة هي إنجازات الشركات العملاقة، فإن ما نشاهده اليوم هو اضمحلال الورش والمشروعات، وأماكن التسوق الصغيرة، وهذا يعني تراجع الفرص المتاحة للنشاط البشري الفردي لصالح رؤوس الأموال الكبيرة، ومن تلك المشروعات العملاقة تنبعث أكثر ملوثات البيئة كثافة وخطورة.

إنَّ العملاقة المتنامية في كل مكان يصاحبها احتقار للإنسان، ذلك الإنسان الذي كرمه الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]، حيث يتم في الشركات الكبرى توظيف الناس عن طريق الحاسوب، ويتم طردهم أيضاً عن طريقه، لهذا فإن من جملة الأسس العريضة لإعادة بناء ما دمرته العولمة هو السعي لإقامة المشروعات وأماكن التسوق، والورش، والمزارع، والأنشطة الصغيرة لمساعدة البشرية الأضعف في المجتمع، وتستطيع الدولة أن تشجع الأعمال الصغيرة، من خلال منح قطع الأراضي لذوي الدخل المحدود، وعن طريق القروض غير الربوية، كما يمكن للدولة أن تشترط عند ترسية مشروعاتها تخصيص جزء منها لأصحاب الأعمال الصغيرة مساعدة لهم على الاستمرار. وبذا فإن كل الإنجازات في هذا الاتجاه تشكل إجهاضاً لخطوة من خطى العولمة، وعملاً يعوق تقدمها. إن العولمة

عمل ولن تقاوم إلا بالعمل<sup>(١)</sup>.

## ٧ - العمل الإسلامي المشترك:

إن وحدة أمة الإسلام على أيّ مستوى قضية مبدأ وواجب ومصلحة ومصير، والوعي به هو بداية العمل الشاق الذي علينا أن ننجزه، ولا تستطيع العولمة أن تعمل عملها على الوجه الأمثل إلا في عالم مفكك مبعثر تتولى هي صياغته على نحو جديد يخدم مصالحها؛ فالشعوب الفاقدة لهويتها هي مجال العمل المفضّل لقوى العولمة، فلا بدّ من أعمال كثيرة وكبيرة تُوثق الأواصر بين المسلمين، إلى جانب وحدة التحديات، ووحدة المصير المشترك، وينبغي لهذه الجهود أن تقوم بإقناع الناس بكلّ ما يتوفّر من معلومات حول ضرورة التنسيق بين الشعوب الإسلامية عامة وفعاليتها الثقافية والاقتصادية خاصّة، والتشجيع على التعرف على بلدان العالم الإسلامي، وأحوال شعوبها، ويمكن للقنوات الفضائية الملتزمة بالرؤية الإسلامية ان تقوم بهذا الواجب.

إنّ التعاون بين شعوب العالم الإسلامي ممتد الآفاق، واسع الخيارات والإمكانات، ويمكن أن نعد منها:

أ - تفعيل المؤسسات الإسلامية القائمة لتقوم بوظائفها على أكمل وجه، وإنشاء روابط واتحادات ومؤسسات جديدة تهدف إلى زيادة توحيد الرؤى والقوى بين أصحاب الاختصاصات والفعاليات المهنية والتجارية.

ب - بلورة مشروع دعوي لعرض الإسلام على المستوى العالمي.

ج - اعتماد مبدأ الانتماء التكاملي بين الدول الإسلامية على أساس استثمار كل بلد إسلامي للمميزات والخبرات النسبية التي يتمتع بها، ودعم الدول الأخرى له في ذلك مقابل استفادة الجميع منه.

د - إيجاد تعاون مشترك في مجال العلم والتقنية، فالتعاون الإسلامي أيسر إذا توافرت الإرادة الصلبة، حيث يمكن لبلد إسلامي أن يقيم - بدعم من دول أخرى إسلامية - جامعة كبرى في فرع من فروع المعرفة الأساسية، مثل الطب والهندسة والكيمياء والعلوم الإنسانية يتوافد إليها الطلاب من

(١) المرجع السابق ص ١٢٢.

الدول الإسلامية<sup>(١)</sup>.

إنَّ هناك الكثير والكثير ممَّا يمكن عمله على طريق مواجهة العولمة، وتحقيق المصالح الإسلامية إذا نظرنا إلى قضايا الوحدة والتعاون بين المسلمين على أنها تمثل أحد أهم المبادئ التي يقوم عليها النهوض الشامل لأمة الإسلام حيث قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

إن العولمة تتطلب مواجهة بما تمثله من تحديات من جنس حركتها نفسها وتصوراتها، والقضية ليست في تسجيل المواقف، أو تبني توجهه بعينه أو الدخول ضمن جهات النقاش الدائر حول العولمة، إنما القضية هي أن نتعلم أن العمل القليل الدائم هو خير عناصر المواجهة.

فالعولمة من حيث أرادت أن تُفك وتركب، تُوحى للجميع أن يتعلموا كيف يعظمون قوتهم، وأن في تنوعهم رحمة، وفي تكاملهم لُحمة، وفي وحدتهم قوة وقدرة وتمكين وتأثير.

إن أهم درس في العولمة هو معرفة عناصر مناهج التفكير والتسيير والتدبير والتأثير، ولن نفقد القدرة على مواجهة العولمة لو أحسنا التفكير والتدبير وآليات التفعيل والتأثير<sup>(٢)</sup>.

وللتمكين سنن يجب أن نتعلمها ونعمل بها، قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ جَلِيلٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

وقد استحسنت أخيراً ضرورة عرض قرارات وتوصيات مؤتمر مَجْمَعِ الفقه الإسلامي الدولي، المنعقد بالدوحة، في دورته الرابعة عشر بشأن النظام العالمي الجديد والعولمة والتكتلات الإقليمية وأثرها، والذي أوصى فيه المَجْمَعُ بقرارات مُقننة شاملة لو نُفذت لأمكن إقامة عالمية إسلامية قوية - لا أقول تنافس العولمة وإنما تعلق عليها -.

(١) المرجع السابق ص ١٣٠.

(٢) نحن والعولمة لسيف الدين عبد الفتاح ص ١٧١.



## قرار رقم ١٣٤/ (٨/١٤) بشأن النظام العالمي الجديد والعولمة والتكتلات الإقليمية وأثرها:

إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي، المنعقد في دورته الرابعة عشرة، بعد اطلاعه على البحوث الواردة إلى المجمع بخصوص موضوع النظام العالمي الجديد والعولمة والتكتلات الإقليمية وأثرها، وبعد استماعه إلى المناقشات التي دارت حوله، انتهى إلى ما يلي:

### أولاً: ما المقصود بالعولمة والنظام العالمي الجديد؟

العولمة تعني في شكلها ومظاهرها سهولة الانتقال في السلع والأفكار ورفع الحواجز بين الشعوب والأمم، بحيث أصبح العالم أشبه ما يكون بقرية كونية صغيرة، وذلك نتيجة التقدم التكنولوجي المعاصر، وما تمَّ ابتكاره من صيغ للتعامل الدولي التي منها: التكتلات الإقليمية الدولية، ومنظمة التجارة العالمية، والشركات العابرة للقارات.

وقد رافق ذلك استغلال القوى الكبرى ومؤثرات الحضارة الغربية المعاصرة لهذه الإمكانيات المتاحة لمصالحها، ممَّا مكَّنها من السيطرة والهيمنة على كثير من مجالات الحياة الإنسانية، بل أخذت هذه القوى تعمل على قيادة عمليات التقدم التكنولوجي لإيجاد المزيد من الآليات والصيغ التي تمكنها من زيادة قدراتها من ناحية، وزيادة سيطرتها وهيمنتها على آفاق الحياة الإنسانية من ناحية أخرى.

وقد ارتبط بذلك ما يُسمى بالنظام العالمي الجديد الذي يقوم على المنظمات الدولية والمؤتمرات العالمية التي أخذت تتصدى لمختلف القضايا التربوية والاقتصادية والاجتماعية والسكانية والبيئية بنظر يحرص على مصالح القوى الكبرى ويدفع لتعميم مفاهيم الحضارة المادية الغربية المعاصرة.

والعولمة بهذه الصورة تمثل تحدياً صارخاً للأمة الإسلامية بما تحمله من رسالة إلهية، وما أقامته من حضارة إنسانية راشدة، حققت الخير للإنسان في كل آفاق الحياة، مما يحمل علماء الأمة وساساتها ومفكرها وقادتها، في ميادين الحياة السياسية والثقافية والتربوية والاقتصادية والإعلامية وغيرها،

مسؤوليات كبيرة لتحقيق نهضة إسلامية شاملة تدفع الأمة إلى آفاق الازدهار والتقدم.

ويتجلى ذلك في مجالين:

**الأول:** تحصيل أجيال الأمة ومختلف أبنائها في وجه التحديات التي تفرضها ممارسات العولمة المعاصرة والواقعة تحت التأثير الغربي، مما يتطلب جهوداً كبيرة لبناء الشخصية الإسلامية المعاصرة القادرة على مواجهة التحديات عن وعي وبصيرة، وعلى أساس من الفهم العميق للإسلام بوسطية واعتدال وتوازن، بحيث تجمع بين العلم والإيمان، وبين الأصالة والمعاصرة، وبين التمسك بالثوابت والانفتاح على إنجازات العصر، وهذا يُوجب العناية البالغة بمناهج التربية والتعليم، خاصة تقوية المواد الدينية، ورفض أي تدخل فيها من القوى الخارجية.

**الثاني:** الإمساك بزمام المبادرة في التعامل مع أدوات العولمة وآلياتها ووفق خطط شمولية واعية؛ تُخاطب المجتمعات الإنسانية المعاصرة، بالطريقة التي تفهم وباللغة التي تدرك، بعيداً عن الارتجال والسطحية، أو التنظير المحدود القاصر، بما يشمل مجالات الفكر والثقافة والإعلام، ويهدف إلى تحقيق الممارسات الإبداعية والإنجازات العلمية والاقتصادية التنموية التي تؤمن الحياة الكريمة لكل إنسان في المجتمع.

ويوصي المجمع في إطار الخطط الشمولية المشار إليها، ومن منطلق أن الإسلام دينٌ عالميٌّ جاء لتعميم الخير على الناس وإسعادهم في الدنيا والآخرة، وهو خاتمة الأديان فلا يقبل من أحد دين سواه يوصي بما يأتي:

- ١ - التعريف بعالمية الإسلام وما يقدمه من حلول لمشكلات البشرية وفق منهج علمي موضوعي يستخدم كل الوسائل المتاحة لتحقيق ذلك.
- ٢ - تقوية منظمة المؤتمر الإسلامي والمؤسسات التابعة لها وسائر المؤسسات الإسلامية الدولية، وتفعيل دورها بهدف تعميق التكتل الدولي الإسلامي، خاصة في المجال الاقتصادي.
- ٣ - ضرورة العمل الجاد على إقامة الأسواق الإسلامية المشتركة، وتشجيع

المشروعات والاستثمارات الاقتصادية بين الدول العربية والإسلامية.

- ٤ - العمل على إعادة صياغة العلاقة بين العالم الإسلامي والنظام الدولي الجديد بما يؤكد استقلالية الدول الإسلامية واحترام سيادتها وخصوصياتها، بهدف الحفاظ على الهوية الإسلامية لشعوبها.
- ٥ - العمل على الرقيّ بالقدرات العلمية والتكنولوجية في البلاد الإسلامية، والسعي الجاد لتوطينها.
- ٦ - العمل على تقوية العلاقات بين الشعوب الإسلامية، وتحقيق وحدة الصف في مواجهة سائر التحديات.
- ٧ - التأكيد على عُنصري الأصالة والمعاصرة في الخطاب الإسلامي، وتطوير أدواته بما يحقق توعية راشدة لأبناء المسلمين، ويقدم المواقف الإسلامية إلى المجتمع الإنساني على أساس رسالة هذا الدين في تحقيق خير الإنسانية وتقدمها، بعيداً عن الغلو والتطرف من ناحية، والتفريط والتحلل من ناحية أخرى.
- ٨ - العمل على ترسيخ مفاهيم الاجتهاد في مؤسسات التعليم الشرعي في الجامعات والكليات والمعاهد، وفي مجالس الإفتاء والمجامع الفقهية، لتكون الأمة قادرة على مواجهة القضايا الحادثة والمشكلات المستجدة، بنظر فقهي عميق وشامل يقدم الحلول القادرة والمعالجات الناجعة.
- ٩ - الاستفادة مما تتيحه وسائل الاتصال المعاصرة وآلياتها في تقديم المعرفة الإسلامية الراشدة، وإبراز الصورة المشرقة لهذا الدين، خاصة من خلال الفضائيات وشبكة الإنترنت.
- ١٠ - ضرورة التنسيق بين الدول الإسلامية والمنظمات التطوعية فيها عند المشاركة في المنظمات الدولية والمؤتمرات العالمية، لإبراز المواقف الإسلامية المتميزة، لصيانة مسيرة البشرية مما تتعرض له من أخطار وشرور، والله الموفق<sup>(١)</sup>.

(١) مجلة منار الإسلام العدد (٣٣٨) ص ٣٦ - ٣٧، مجلة الدعوة العدد (١٨٧٨) ص ٢٠ -

## ❖ تعقيب ❖

### عالميتنا أم عولمتهم؟؟؟!!!

وبعد بيان عالمية الإسلام، مفهومها وأهدافها، والعولمة المعاصرة، مفهومها وأهدافها، رأيتُ أن أجمع ما تفرق في طيّات الصفحات وبين سطورها من الفروق الأساسية بين (عالميتنا وعولمتهم)، عالميتنا نحن المسلمين، وعولمة الغرب، وأوجزها في الآتي:

١ - العولمة في مفهومها الضمني ومدلولها الاصطلاحي ليست هي «العالمية»، إذ لا يمكن أن تقرن بعالمية الأديان، أو بعالمية بعض المذاهب السياسية والاقتصادية كالاشتركية؛ لأنَّ العالمية مصطلحاً ومضموناً ارتبطت بالأرض والإنسان، أما «العولمة» مصطلحاً ومضموناً فقد ارتبطت بالكونية وأنظمة الإنسان المتنوعة سواء مع الأرض أو في الفضاء<sup>(١)</sup>.

٢ - العولمة (Globalization) تعني إرادة الهيمنة، وبالتالي قمع وإقصاء للخصوصي. أما العالمية (Universalite, Universalism) فهي طموح إلى الارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمي: العولمة احتواء للعالم، والعالمية تفتح على ما هو عالمي وكوني.

فنشدان العالمية في المجال الثقافي، كما في غيره من المجالات طموح مشروع ورغبة في الأخذ والعطاء، في التعارف والحوار. إنها طريق الأنا للتعامل مع «الأخر» بوصفه «أنا ثانية» طريقها إلى جعل الإيثار يحل محل الأثرة. أما العولمة فهي إرادة لاختراق «الأخر» وسلبه خصوصيته، وبالتالي نفيه من «العالم»، العالمية: إغناء للهوية الثقافية، العولمة: اختراق لها وتميع.

ولا بد من التنبيه إلى نقطة هامة جداً، وهي أن الاختراق الثقافي للعولمة يستهدف العقل والنفس، ووسيلتهما في التعامل مع العالم: «الإدراك» ومسح «الوعي»؛ الوعي الديني، الوعي القومي وغيره. في الماضي كان الصراع بين الحضارات يستهدف الوعي، يحاول تزييفه وتغييره. أما العولمة اليوم فهي تستهدف السيطرة على الإدراك، اختطافه ثم توجيهه، وبالتالي سلب الوعي،

(١) العرب والعولمة، تعقيب (٢)، سيار الجميل ص ٤٢.

والهيمنة على الهوية الثقافية الفردية والجماعية، باستخدام الصورة السمعية والبصرية التي تسعى إلى (تسطيح الوعي)، وإلى جعله يرتبط بما يجري على السطح من صور ومشاهد ذات طابع إعلامي إشهاري مثير للإدراك حاجب للعقل.

وبالسيطرة على الإدراك، وانطلاقاً منها، يتم «إخضاع النفوس» وتعطيل فاعلية العقل، والتشويش على نظام القيم، وتوجيه الخيال، وتنميط الذوق وقَوْلبة السلوك. والهدف تكريس نوع معين من الاستهلاك لنوع معين من المعارف والسلع والبضائع: معارف إشهارية تشكل في مجموعها ما يمكن أن نطلق عليه «ثقافة الاختراق».

العولمة نظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى، ويدفع الى التفتت والتشتيت، ليربط الناس بعالم اللاوطن واللامأمة واللاذولة، أو يغرقهم في أتون الحرب الأهلية<sup>(١)</sup>.

٣ - العالمية دعوة خير من الله ﷻ للمجتمع البشري ليلتقي على أسس إلهية في العقيدة والتشريعات والأخلاق، وهي أسس تضمن للإنسان خير الدنيا والآخرة، وفيها مساواة بين البشر دون تعالٍ أو تسلط من جماعة على جماعة، ودون فرض عادات قوم وتقاليدهم على آخرين، بخلاف العولمة فهي تسلط من مجموعة غير مؤهلة لقيادة الناس ليلتقوا على نقاط في السلوك والأخلاق غير سوية، وهي تهوي بالإنسان إلى الجحيم في الدنيا والآخرة ولا يتحقق فيها أي نوع من المساواة.

٤ - تسمح العالمية بوجود فوارق واختلافات في العادات والتقاليد واللباس وغيرها طالما لا تخالف الفكر الإسلامي الذي ارتضاه الله للجميع، وهذا ما نلاحظه في أقطار العالم الإسلامي، فمثلاً فرض الحجاب على نساء الأمة المسلمة فغطت المرأة جسمها ولكن كل حسب زيّه المطروح في بلده.

٥ - العالمية ليس فيها من يشرع من البشر، فالله ﷻ هو المشرع الأعظم، بخلاف العولمة فهي عادات وتقاليد نشأت في دولة معينة (المصدر

(١) العرب والعولمة، العولمة والهوية الثقافية. محمد عابد الجابري ص ٣٠١ وما بعدها.

للقرار) وهي تفرضها بدورها على المجتمع البشري قسراً، وفي سلوكه وعاداته وتقاليده الكثير من الانحرافات التي يرفضها الدين الإسلامي ثم العقل السليم، ومن أمثلة ذلك: الفوضى الجنسية، واضطراب نظام الأسرة وشرب الخمر وغيره<sup>(١)</sup>.

٦ - تحيل العالمية العالم إلى قرية كونية واحدة يتمتع فيها الإنسان بحق الاختيار، ويسود فيها البر والقسط، ويتفياً الإنسان فيها ظلال العدل والرحمة، وتُصان فيها حرمان المخالفين وحقوقهم، أما العولمة فهي تحيله إلى غابة كونية واحدة، يأكل فيها القوي الضعيف بصورة لا تُظهر غوغائيتهم ولا افتراسهم ولا همجيتهم.

٧ - تحمل العالمية مشروعاً حضارياً رائداً، قاعدته: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ تحت خيمة الربانية التي ترعى حقوق الموافقين والمخالفين حتى يتفياً العالم ظلال الرحمة العامة، يفيء إليها من هجير الظلم ورمضاء الأثرة والجشع والأناية، ويجد له موقعاً في سفينة الإسلام التي تمخر به عباب الفتن المتلاطمة حتى ترسو على شاطئ النجاة.

وتحمل العولمة في - إطارها اللاديني - بذور الفشل وعوامل الانهيار لأنه لا دوام للظلم، ولا بقاء لعسف ولا جور وهذه هي سنة الله في الأرض، فكم من حضارات صالت ثم انهارت، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِمَامٌ ذَاتَ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٦ - ٨]<sup>(٢)</sup>.

٨ - العالمية في الإسلام تقوم على أساس تكريم بني آدم جميعاً، وعلى أساس المساواة بين الناس في الكرامة الإنسانية، وفي التكليف والمسئولية، والعبودية لله ﷻ، وفي بُنوتهم لآدم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣] إن القرآن في هذه الآية يقرر المساواة العامة بين الناس دون إلغاء للخصوصيات، أما العولمة فهي فرض لهيمنة الدول المُصدرة للقرار

(١) الفقرات من ٣ - ٥ انظر: المنهل، العولمة وموقف منها، أ. د. أحمد شلبي ص ٥٣.

(٢) مجلة المنار الجديد، العدد العاشر، وحدة العمل الإسلامي في مواجهة أعاصير العولمة، د. صلاح الصاوي ص ٢.

على العالم كله؛ إنها تعني معاملة السادة للعبيد، والعمالقة للأقزام، والمستكبرين للمستضعفين، إن العولمة اسم مهذب للاستعمار في ثوبه الجديد<sup>(١)</sup>.

٩ - العالمية تعني انفتاح الأمم على بعضها في إطار التواصل الحضاري، وتبادل المعارف والاكتشاف، وصياغة علاقات تقوم على أساس من الاحترام والحرية والتعددية، إنها تعني الاعتراف بالتبادل، الاعتراف بالأدوار بحيث يكون العالم منفتحاً على بعضه مع الاحتفاظ بتنوعاته، واحتراف خصوصياته مع إنتاج حالة من الحوار الهادف بين الحضارات، أما العولمة فما هي إلا عصا الإلغاء؛ إلغاء الآخر تماماً وفرض الأنا؛ باستخدام كافة الوسائل الممكنة<sup>(٢)</sup>.

وأخيراً لا بد من القول أن العولمة تخالف سنة ثابتة من سنن الله ﷻ في خلقه وهي الاختلاف، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِيفِينَ ۗ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩] وإن كان الرسول ﷺ في دعوته العالمية لم يُجبر الناس ولم يكرههم على اعتناق الإسلام؛ وهو الحق المنزل من عند الله ﷻ بلا خلاف، فكيف لهؤلاء أن يفرضوا ذلك على الناس عنوة؟!.

ومن العجيب أن الكثير من الدول غير الإسلامية نددت بمشروع العولمة وحاربتة، وأقامت المظاهرات الكبيرة لرفضه لأنها لا تريد أن تخسر ثقافتها، ولا تريد أن يتدخل أحد من الناس في خصوصياتها أو المساس بلغتها.

وبقي أن نقول: إن كل فرد مسلم مسؤول أمام ربه عن هذا الدين الإسلامي، فكل مسلم يقف على ثغرة، إن قام بواجبه تجاهها بأن لا يُؤتى الإسلام من قبله، حُصّن الإسلام وحُوفِظَ عليه وعلى مبادئه، وهذا ما ذكره الرسول ﷺ وبينه في حديث: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)<sup>(٣)</sup>.

(١) المسلمون والعولمة د. يوسف القرضاوي ص ١٢.

(٢) الفقرتان (٨ - ٩) انظر: صراع الأمم بين العولمة والديمقراطية د. أسعد السحمراني ص ١٦، العولمة والعالم الإسلامي تأليف عبد سعيد إسماعيل ص ٦٤.

(٣) صحيح البخاري ص ٥٠٧ حديث رقم ٢٥٥٨.

وقوله ﷺ: (كلكم) تعطي معنى العموم، فليس ممّا من هو ليس بمسئول على اختلاف أعمالنا وأعمارنا ومراكزنا ومَن نعول - فوالله الذي لا إله إلا هو - لو اتّقدت حرارة الإيمان في النفوس، لتحرك أهله بالوقوف وجهاً لوجه مع أي عولمة تفرض علينا قيماً وأخلاقاً وسلوكاً ياباها إسلامنا وتاباها عاداتنا وتقاليدنا؛ نحن أصحاب رسالة، وأصحاب منهج؛ نحن الذين نُذلي برأينا، ونحن الذين نُصوّب مناهج غيرنا، ونحن الذين بأيدينا يُضيء هذا الزمان؛ لأن البشرية كلها في نفق مظلم ولا يملك النور وخارطة الطريق إلا نحن؛ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



## الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ويحوّله وقوته نزول العوائق وتهون الصعاب، وبعد نهاية هذه الرحلة الطيبة المباركة، والتي عشت فيها مع مختارات الله ﷻ، يتّضح وبجلاء أن عبودية الله ﷻ لا تتحقق إلا بمعرفة كل ما اختاره الله ﷻ للعبد مع الرضا التام بتلك المختارات دون حرج أو ضيق، وتعظيمها اعتقاداً، والقيام بواجبها عملاً كما حدد الشارع الحكيم.

وفي ظل الظروف القاسية التي تمر بها الأمة المصطفاة - وهي تعيش فتناً كقطع الليل المظلم وقد تكالب عليها أعداؤها، وعاثوا فيها فساداً ودماراً - ما أحوجها إلى أن تثوب إلى الله ﷻ، وأن تُحيي قرآنها وسنة نبيها في حياتها من جديد، فوالله إنهما لحبل الفلاح وطريق الخروج من تلك الأزمت، وما أحوجها أن تربي جيل محمد ﷺ من جديد ليعيد إليها عزّتها ومجدها من جديد، وليرفع عنها الذل والهوان، ويلبسها ثوب الصفاء، ويتوّجها تاج الاصفاء، ويُعليها عرش الخلافة فتعود الأمور إلى نصابها وتهدأ تلك العواصف الغوغاء التي اضطّنعها أعداؤها للتغريب بها.

وبعد، فما هذا البحث إلا هبة الرب وعطيته، قدّره لي في خيرة أوقاتي، جمعته بحوله وقوته، وكتبته بمعونته وهدايته. سهّل لي بقدرته العسير، وقربّ لي بقوته البعيد، وسخّر لي الخير الكثير.

والآن وبعد الانتهاء من إعداده بتوفيق الله ﷻ، أرى كل حروفه قد تلاحمت لتتنطق بالشكر، وكلماته تراصّت لتعبّر عن عظيم الفضل، وأسطره تتالت لتنشر أهازيج الثناء والمدح، وتسابقت الأبواب وفصولها، والمباحث ومطالبها لتقف خاشعةً ذليلةً منكسرةً تطلب من ربها الرضا والقبول، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

اللهم هذا فضلك وعطاؤك ومنك عليّ، اللهم فكما قدرته لي، فأخْلِصْهُ

لك، وطرهه من شركة غيرك فيه، واقبله خالصاً صافياً لا غلول فيه .  
اللهم وكما قدرته لي بحَوْلِكَ وقوتك فتقبَّله مني، وكما وجَّهتني  
لموضوعه فاجعلني من أهله (أنا ووالديّ ومن قرأه وعمل بما فيه)، اللهم لقد  
فتحت لي باباً للعلم فلا تُغلقه بجهلي، وطريقاً إلى الجنة فلا تقطعه بذنبي،  
ومنبراً للدعوة فلا تنكسه بتقصيري .

هذا وبعد استعانتني بحول الله وقوته فقد قسمت رسالتي إلى ثلاثة أبواب  
الخصها في الآتي :

الباب الأول: اشتمل فصله الأول على معنى الاصطفاء في اللغة، وبيان  
كيفية ورود مادة كلمة الاصطفاء - صَفَوَ - في القرآن الكريم، وعدد مراتها،  
وعلى من وقعت. مع ذكر مرادفات الاصطفاء المختلفة والآيات التي وردت  
فيها، وعلى من وقعت تلك المرادفات بالتفصيل .

وختم الفصل بذكر تعريف جامع حوى أركان الاصطفاء مُستخلصاً ممّا  
سبق بيانه، مع إعطاء المعنى العام لهذه الكلمة .

أما فصله الثاني، فتضمّن ما اصطفاه الله ﷻ من الشرائع والأديان حيث  
تُوجّ الإسلام قَمّة الصفاء بعد تمامه وكماله في هذه الأمة، وتبعه اصطفاء  
حصنه الأمين ودرعه المكين كلام الله ﷻ: القرآن الكريم .

ثم اصطفاء حامله الأمين - روح القدس - جبريل ﷺ، وما تلا ذلك من  
اصطفاء خير البقاع والأزمان والتي ارتبطت خيريتها بنزول النبوات والشرائع .

الباب الثاني: شَعَّ نور فصله الأول بذكر خير الخلق - على الإطلاق -  
الأنبياء ﷺ، وعُظرت صفحاته ببيان خصائصهم التي ميّزتهم عن غيرهم،  
وصفاتهم البارزة التي أهلتهم لأن يكونوا القدوة والمثل الأعلى لغيرهم .

أما فصله الثاني فتواضعت صفحاته معترفة بعجزها عند ذكر اصطفاء  
محمد بن عبد الله ﷺ النبيّ الأمي، النور المبين، والسراج المنير خيرة خلق الله  
أجمعين، صاحب لواء الحمد، فاتح الجنان، وشفيع العباد عند الرحمن .  
وتلألأت بعض صفحاته بذكر أمهات المؤمنين والصحابه المصطفين لصحبة  
سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ .

وبعد تلك الكوكبة الإيمانية المتألقة جاء الفصل الثالث يحمل سيرة من

تبع الرسل في الاصطفاء أولهم من سبقوا بتصديقهم بتلك الكوكبة المتألقة، وحسن عملهم وإيمانهم، فنالوا شرف تلك المكانة العليا. ثم طائفة شهداء الحق والحقيقة المنافحون عن الحق الذي جاء به الأنبياء والمرسلون. وبعدهم الصالحون العاملون بالشرع.

فالمرسلون عليهم الصلاة والسلام والمصدقون بهم والمنافحون عنهم والعاملون بما جاؤوا به، هؤلاء هم المُنعم عليهم من خيرة العباد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

الباب الثالث: فصله الأول كشف اللثام عن أمة الإسلام التي اصطفاه الله من بين الأمم للأمم، ومن بين الناس للناس ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ دينها الإسلام، ودستورها القرآن، ودورها إقامة القسط والعدل بين الناس، تشهد عليهم وتحكم بينهم، قرارها صائب، وقولها حق، جنودها أبطال، وأطفالها رجال، علماؤها أختيار، وعبّادها أبرار، ونساؤها تخرج أجيالاً مؤمنة تتلوها أجيال، أناجيلهم في صدورهم، مُبتلون بمقصريرهم، منصورون بمجاهديهم، تكاليفهم كثيرة، أعباؤهم ثقيلة، راحتهم في قبورهم.

أمة العلم والحلم، عزيزة بدينها ذليلة بتركه، قويّة بربها، واثقة من نصره، فريدة بخصائصها لا تدوب ولا تبيع، بيدها يضيء الكون ويعمّ العدل. وفصله الثاني: أبانَ صفة عالميّة الإسلام وأهدافها العظيمة، كما أظهر الصورة الجديدة للمكايد ضد الإسلام وعالميته وانتشاره، وهذه الصورة متمثلة في العولمة، فأجلى مفهومها واضحاً، وسطر أهدافها، وبيّن كيفية التعامل معها والأسلوب الأمثل في ذلك.

هذا خلاصة بحث كتبه بهمة مُتقدّة، وأمل كبير، ورجاء عظيم أن تثوب الأمة إلى بارئها، وأن يُعاد بناء محاضن الأجيال المسلمة قلباً وقالباً، وأن تُزال الغشاوة من الأعين، والرّين عن القلوب، ويعلّو لواء الإسلام، وتعود الخلافة الراشدة على أيدي المُخلصين المُضطّفين من أبناء هذه الأمة.

وبعد العيش معه وصحبته طول ذلك الوقت خرجت منه بنتائج وتوصيات أخصها في النقاط الآتية:

١ - أن فعل الاصطفاء لم يُنسب في القرآن الكريم إلا إلى الله ﷻ وحده، فهو سبحانه المتفرد به دون غيره، ولا يملك البشر القدرة عليه لأنه فضل يُثبت للمصطفى، لا يُنزع منه، فلا يملك العلم التام بالخير المطلق إلا الله ﷻ وحده.

٢ - الاصطفاء لا يختص إلا بالخير واليمن، ولا يقع لغير ذلك، فلا يصطفي الله ﷻ من مخلوقاته إلا أطيبها وأفضلها على الإطلاق، فالطيب والخير من كل شيء هو مختاره ومصطفاه.

٣ - يمكن استخراج العديد من النتائج من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومَ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ [البقرة: ٢٤٧] ومن ذلك:

أ - لا يحق لأحد من المخلوقين الاعتراض على اصطفاء الخالق؛ لأن الاصطفاء فعل الله ﷻ وأفعاله ﷻ منزّهة عن الخطأ - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - فقولهم في الآية: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ فيه اعتراض على اصطفاء طالوت عليهم، وهو مردود بحُجّة واحدة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ فلا حُجّة أقوى من قولنا: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ، فهو الأعلّم بمن يستحق أن يصطفيه على غيره.

ب - اختلاف ما يهبه الله ﷻ لمن يصطفيه باختلاف الشيء الذي اصطفاه له، وليس للاصطفاء أسباب يمكن أن يقترحها البشر، وإنما علم ذلك إلى الله ﷻ وحده. وبيان ذلك: أن الله ﷻ أتى موسى الرسالة وخصّه بالتكليم بما يناسب ما اصطفاه له، قال ﷻ: ﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَةٍ فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فخص الله ﷻ موسى ﷺ بالرسالة والكلام ليكون رسولاً، وخص طالوت بالبسطة في العلم والجسم ليكون قائداً وإماماً.

ج - ارتباط الاصطفاء بالمشيئة كما رد عليهم في الآية: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي

مَلِكُمْ مَن يَشَاءُ»، وقال ﷺ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُكِ تُوَقِّي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ يَبِيدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ [آل عمران: ٢٦].

٤ - إن الاصطفاء يكون لأداء تكاليف يتعيّن على المصطفى القيام بها، قال ﷺ: ﴿قَالَ يَمْوَسِي إِيَّيْ أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ [الأعراف: ١٤٤].

٥ - فضل كل ما اصطفاه الله ﷻ على غيره من المخلوقات.

٦ - إن اصطفاه الله ﷻ لمخلوقاته يقع على البشر وعلى غيرهم من المخلوقات كالزمان والمكان والأديان إلى غير ذلك.

٧ - إنَّ الإنسان يمكنه أن ينال اصطفاء الله ﷻ إذا أخذ بأسباب ذلك من توبةٍ واستغفارٍ ودعاءٍ وصدقٍ اللجوء إليه، فيختار له الله ﷻ الأنسب ويدخله في زمرة المصطفين الأخيار.

٨ - على المؤمن أن يسأل الله أن يكون من صَفْوَةِ خَلْقِهِ، وأن يستخدمه في المحل الذي يُحِبُّهُ ويرضاه، وهذا ما نراه في خيار أمة محمد ﷺ؛ فاصطفى الله ﷻ منهم العلماء، والحفّاظ، والدعاة، والمجاهدين، والمتصدقين، والقراء وغيرهم.

٩ - جميع مختارات الله ﷻ تعمل على تَقْوِيَةِ إِيْمَانِ الْفَرْدِ الْمُسْلِمِ إِذَا عَظَّمَهَا كَمَا أَرَادَ اللَّهُ ﷻ، كما أن في توزيعها الحكيم على مختلف الأزمنة والبقاع تقويةً للطاقة الروحية، وتنشيطاً للمسلمين على أداء العبادات وباقي المعاملات على الوجه الأكمل.

١٠ - إنَّ مختارات الله ﷻ مجتمعة هي الدرع الحصين الذي يحافظ على عقيدة وتاريخ الأمة المسلمة، كما أنها القوة الحقيقية الثابتة والفاعلة لقيام الأمة المسلمة بتكاليفها التي أمرها الله ﷻ بها.

١١ - إنَّ مختارات الله ﷻ للأمة المسلمة مُسْتَهْدَفَةٌ مِنْ أَعْدَائِهَا مِنْذُ الْقَدِيمِ، وحتى الوقت الحالي، فهم يعملون على محاربة القرآن الكريم، كما يعملون على استبدال العربية الفصحى سرّ القوة وأداة الفهم، وهدم المساجد، والاستيلاء على أولى القبلتين، وقتل المسلمين في الجمع والجماعات.

١٢ - إن اجتماع أفراد الأمة المسلمة - على اختلاف ألوانهم وأجناسهم - لا يكون إلا في هذه المختارات أو حَوْلها، فلا تراهم مجتمعين في زمن مبارك كالحج، أو مكان مبارك كمكة المكرمة والمدينة المنورة، ونرى - مع سوء الأحوال التي تعيشها الأمة المسلمة - أن قوة المسلمين تزداد بعد تلك اللقاءات في تلك الأزمنة والأمكنة، وكأنها المولد المستمر والطاقة الدائمة لزيادة الإيمان وقوته.

١٣ - مختارات الله ﷻ محفوظة من عند الله سبحانه لا تمسها يد بالتحريف أو التبديل، وعلم أعداء الإسلام ذلك فأتجهوا إلى العمل على صرف المسلمين عنها بخطط مدروسة محكمة لتنشئة جيل لا يعرف دينه ولا يريد أن يعرفه، جيل هش البنية ليس له حاضر يُقويه ولا ماضٍ يستند إليه.

١٤ - إنَّ الابتلاء هو طريق الاضطفاء، فالله ﷻ إذا أحبَّ عبدًا ابتلاه، فإنَّ صَبَرَ واحتَسَبَ اضطفاه واجتَباه، وهذه هي سُنَّة الله ﷻ في خلقه، فما اضطفى من عباده إلا بعد ابتلائهم وتمحيصهم، وهذا ما تُؤكده النصوص الصحيحة وكتب السيرة وصفحات التاريخ.

١٥ - تنوع الاضطفاء من حيث أفرادُه، ومن حيث أسبابه؛ أما من حيث أفرادِه فقد وقع على مفردات مختلفة كالدين، والكتاب، والزمان، والمكان، والبشر، والأمم. ومن حيث أسبابه فقد اختلفت. فاضطفاء جبريل ﷺ لحمل الوحي للرسول، واضطفاء الرسل ﷺ للرسالة، واضطفاء مريم ﷺ للحمل بعبسى ﷺ، وطالوت ﷺ للملك والإمرة.

١٦ - وبناءً على ما سبق فتنوع درجات الاضطفاء، فمن اضطفَى للرسالة لا بدَّ وأنه أعلى درجة من غيره، وحتى بين الرسل ﷺ، من اضطفَى ليكون خاتم الرسل وسيد البشرية، وليكون صاحب رسالة عالمية لا بدَّ وأنه أعلى ممن أرسل إلى قوم معينين برسالة محدودة.

١٧ - إنَّ الاضطفاء إذا وُهَبَ فإنه لا يُنزع، بخلاف غيره من مرادفاته، فاختيار بني إسرائيل نُزِعَ منهم عندما أخلُّوا بأسبابه وسلَّم إلى الأمة المسلمة المصطفاة، ولكنه لا يُنزع من الأمة المسلمة لغيرها البتة، ولكن يحرمون أثره

لحين عودتهم إليه، أو أنه يُسند إلى غيرهم، ولكن من نفس أفراد الأمة قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

١٨ - الاضطفاء وإن كان له مرادفات كثيرة إلا أنه يختلف عنها بأمور عديدة: أنه أقواها وأعلاها على الإطلاق، وأنه لا يكون إلا في الخير والمنن، وأنه وإن خصَّ الله ﷻ به شيئاً من مخلوقاته لا يُنزع، ولم يثبت حدوث ذلك، وهذا يُدلل على أنَّ الاضطفاء هو آخر المراحل التي يصل إليها فضل الله ومنته على عباده، وأنه يَعْلُو ولا يُعَلَى عليه، والحمد لله أن جعل أمتنا مُصطفَاةً.



## التوصيات

- ١ - تعريف أفراد الأمة المسلمة - بكافة المستويات - بمختارات الله ﷻ لها وذلك باستخدام جميع الوسائل التقنية الحديثة.
- ٢ - اشتغال مناهج التعليم في الصفوف المبكرة على تعريف بتلك المختارات بصورة ميسرة تجمع بين الصورة المعبرة، والأسلوب القصصي الهادف.
- ٣ - وضع خطة تعليمية تسعى إلى تحقيق أهداف عقديّة وجدانية للأجيال المسلمة، وذلك بغرس حب المختارات الربانية وتعظيمها في نفوس النشء من الصغر.
- ٤ - عمل دورات تنشيطية للعاملين في سلك التعليم للتذكير بكيفية تحقيق الأهداف الوجدانية في كافة المراحل ومختلف التخصصات.
- ٥ - وضع خطط تربوية تجعل تلك المختارات حيّة فعّالة في قلوب الأجيال، مرتبطة بحاضرهم، ومحو ظاهرة شعور الناشئة بأنّ مُختارات الله ﷻ مجرد آثار ماضية ارتبطت بتاريخ بعيد لا يتّصل بالحاضر، وأنها لا يمكن أن تسير التطور السريع الذي يشهده العالم اليوم.
- ٦ - استخدام الإنترنت - وهو الوسيلة الأسرع والأوسع - لعمل برامج تنافس وتزاحم تلك البرامج التي تفسد عقائد وأخلاق الجيل المسلم، وتكون بمستوى عالٍ في الإخراج يناسب عقلية ومتطلباته وحدود تفكيره.
- ٧ - تشكيل أندية دائمة للشباب تعمل على توعية هذه الطبقة، وتنظّم لهم البرامج الحيّة والرحلات المستمرة في الأزمنة المباركة والأماكن المباركة.
- ٨ - استخدام وسائل التقنية الحديثة للتعريف بالمختارات الربانية عن طريق إعداد إعلانات مدروسة مُقنّنة توجد باستمرار في محيط الفرد كالفصائيات، والجرائد والمجلات وإعلانات الطرق إلى غير ذلك.



٩ - إدراج هذه المختارات في المسابقات الدورية التي تقوم بها وزارة المعارف على مستوى المدارس ومختلف المراحل، وطرحها كأبحاث على مستوى المعلمين مع ضرورة دراسة الأهداف المرجو تحقيقها من ذلك.

كما أوصي الباحثين في مختلف التخصصات بعمل دراسات علمية حول المختارات الربّانية، كلُّ فيما يخصُّه؛ لقناعتي التامة بأن هناك أموراً عظيمة ترتبط بتلك المختارات الربّانية وتأثيراتها الفعّالة في مختلف الجوانب، والتي يمكن أن تتّضح وتبرز مع تطوُّر العلوم والتقنيات، وذلك من النواحي الآتية على سبيل المثال:

- دراسات جغرافية تهتمُّ بدراسة جغرافية بعض المختارات الربّانية، لتظهر مدى الإعجاز المرتبط باختيار الله ﷻ الحكيم لأماكنها، وتميز تلك الأماكن عن غيرها، وذلك لقلّة بضاعتي في تلك المجالات، فالله ﷻ عندما اختار بيته العتيق وبوّاً إبراهيم ﷺ مكانه لبيّنه، لا شك أنه المكان الأفضل على الإطلاق. فكلما تعرّفنا على جغرافية هذا المكان زاد ذلك من إيماننا واعتزازنا. كما أنّ تلك الأبحاث تكون - بإرادة الله ﷻ - سبباً لإيمان المنصفين من غير المسلمين، وأرض الشام وموقعها بالنسبة للجزيرة العربية مقر الرسالة الأخيرة فهي بوابتها التي تُطلُّ بها نحو العالم، كل ذلك وغيره من الأمور التي نتمنى أن تُبحث وتُدرس وتُوضّح. كما نحتاج إلى دراسات علمية دقيقة تدرس توزيع المختارات على المكان والزمان وعلاقة ذلك بالدعم النفسي والروحي والإيماني للأمة المسلمة.

- دراسات نفسية تدرس التأثير النفسي للمختارات الربّانية؛ حيث أنه من المؤكد، بل المجرب واقعاً أن النواحي النفسية والروحية تكون في أوجها في الأماكن والزمان التي وقع عليها الاصطفاء، وهذا ما يرويه من يشاهدها لأول وهلة، أو من يأتيها لحاجة كعلاج نفسي وجسدي.

- دراسات كونية تبين أنّ المختارات الربّانية حقّقت الانسجام الكوني بين الإنسان والكون الذي يعيش فيه، كالأفلاك والمجرّات، بل حتى الذرات، فالطواف حول البيت وبهذه الطريقة يتسق وينسجم مع حركة الذرات والتي هي مادة كل الكائنات.

- دراسات دعوية للكشف عن مدى ارتباط المختارات الربّانية لنشر الدعوة الإسلامية وقوة انطلاقتها وتبليغها للعالم بأسره، وكذلك ارتباط المختارات الربانية بعالمية الإسلام وكيف يمكن استخدام تلك المختارات في الدعوة إلى الله ﷻ.

- دراسات تاريخية للمختارات الربّانية من حيث علاقتها وارتباطها بفترات القوة والضعف التي مرت بها الأمة المسلمة.

- دراسات عقديّة تبيّن المسار الصحيح في كيفية الإيمان بمختارات الله ﷻ وكيفية تعظيمها بما شرعه الله سبحانه دون ابتداع ولا تقليد.

نحن نحتاج إلى تلك الدراسات السابقة؛ لنبرز أهمية تلك المختارات وأوجه إعجازها وارتباطها الوثيق برفعتنا وعزّتنا وبقائنا ونصرتنا، ولتعزيز ثقتنا بها، وتنمية الاعتزاز بذلك وعدم التخلي عنها وتفضيل غيرها عليها.

١٠ - إيجاد عالميّة إسلاميّة تسير وفق الخطوط الربّانية، لتحيل العالم إلى أمان واستقرار ولتضمن الحفاظ على ثقافات الشعوب، وعوامل القوة المتاحة لهم.

١١ - تشخيص المرحلة التي تمرُّ بها الأمة المسلمة في وقتها الراهن، ومقارنتها بمراحل الدعوة الإسلامية في زمن الرسول ﷺ، ومن ثمّ العمل بمقتضى تلك الفترة، وهذه الفكرة يطول شرحها، ولكن يجب على المسؤولين الاهتمام بها من حيث معرفة الدور الذي يمكن للأمة أن تقوم به، فهل هي في مرحلة شبيهة بالمرحلة السريّة للدعوة؟ فهنا نحتاج إلى الهدوء والسكينة حتى ننتج القادة والعِتاد ليتمكننا ذلك من الوقوف في وجه القوى المعادية، أم أن الأمة تمرُّ بمرحلة تُشبه المرحلة التي كانت فيها في المدينة المنورة ليتمكنها ذلك من الانطلاق بقوة وبعزمٍ لتحرير العالم من الظلم، وأياً كانت المرحلة التي تقي فيها الأمة المسلمة فإنّ على رجالها مسؤولية عظمى للقيام بما تتطلبه منهم طبيعة الدور الذي يعيشونه.

١٢ - من الهامّ جداً الاهتمام بالمختارات الربّانية والتي يقصدها الناس ليتعرفوا عليها، وهي ما يطلق عليها (اسم المزارات)، فلا بد من الاهتمام بها من حيث مظهرها، بحيث تكون بصورة مثالية مؤثرة لمن يراها، والعمل على

إيضاح فضلها الثابت بالكتاب والسنة، مع بيان طرق العبادة عندها إما بلوحات إرشادية أو بكتيبات مع وجود مسؤولين يقومون بالتعريف بتلك الأماكن وخيريتها ومكانتها.

١٣ - إقامة مواقع إسلامية في الإنترنت للتعريف بالإسلام والمختارات الربانية بمختلف اللغات، وهذه المواقع تكون مزودة بالصور الحية والنصوص الصحيحة لبيان فضائل وبركة تلك المختارات، وما ارتبط بها من أوجه الإعجاز، وأنا أرى - والله أعلم - أن قيام مواقع ضخمة على أيدي علماء أجلاء يربطون بين المختارات وأوجه الإعجاز والتميز المرتبط بها لكفيل بإسلام الكثير من الناس المتلهفين والمتعطشين إلى ذلك، كما يمكن الانضمام إلى مواقع كثيرة جيدة متواجدة الآن منها على سبيل المثال لا الحصر  
www.holyquran.net, www.al-islam.com, www.naseej.com/islamic/ (١) . . . .

١٤ - إقامة المهرجانات الفعّالة القوية بحيث تخدم في كل مرة شيئاً من مختارات الله ﷻ كما في المهرجان الذي أقيم عن الرسول ﷺ والذي كان تحت مُسمّى (مهرجان النور).

١٥ - العمل على خدمة اللغة العربية، والسعي إلى تنشيطها وتفعيلها، وذلك بعمل برامج على كافة المستويات للصغار والشباب والشيوخ، كلُّ بما يناسبه، مع استخدام الوسائل العصرية المتقدّمة حتى لا يُنسب إلى العربية التخلف والرجعية وعدم القدرة على مواكبة العصر.

١٦ - ذكرتُ في المقدمة أنني أتبع طريقة البحث الأفقية لإتمام البحث، غير أننا نحتاج وبشدة إلى قيام دراسات رأسية دقيقة تخدم كل مفردة من مفردات البحث على حدة ودراستها من جميع الجوانب مع تدعيم الدراسة بالعلوم الحديثة والصور والخرائط والنظريات العلمية بحيث يكون بحثاً علمياً شاملاً دقيقاً يبرز كل ما يخص ذلك المختار.

وَقَّ اللهُ طلبة العلم والباحثين والعلماء الأبرار والدعاة وجميع العاملين

(١) انظر: ميسر الاتصال بالمواقع العربية - قسم المواقع الإسلامية ص ١ - ١٣ لعلّي يسلم باحميش.

على خدمة الدين كل في مجاله، وبارك في جهودهم ونصرهم على عدوهم،  
آمين.

وأخيراً فإنني أحمد الله ﷻ على ما سهّل وأعان ويسّر، وأكرمني بالعيش  
مع تلك المختارات الربّانية طوال زمن البحث، وأحمده ﷻ على إتمامه بهذه  
الصورة والتي حرصت على أن تكون نافعةً سهلةً مُيسّرة، كما حرصت على أن  
أجمع فيها المفيد، وأجعله في مكان واحد لتعمّ الفائدة ويحصل المطلوب  
بإذن الله ﷻ، ومع اعترافي بقلّة بضاعتي إلا أنني أحسن الظنّ بالله ﷻ الكريم  
أن يقبل مني هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يبارك فيه إنه  
وليّ ذلك والقادرُ عليه.

وصلّى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحابه، ومن تبعهم وسار على  
هديهم، واقتدى بسنتهم إلى يوم الدين.



## فهرس المصادر والمراجع

### (حرف الألف)

- ١ - الإلتقان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، قدم له وعلق عليه: محمد شريف سكر، راجعه: مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
- ٢ - إتمام النعمة في اختصاص الإسلام بهذه الأمة: جلال الدين السيوطي، شرح وتحقيق: سعيد محمد اللحام، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ٣ - أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة: عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- ٤ - إحياء علوم الدين: لأبي حامد محمد الغزالي الطوسي، اعتنى بتحقيقه وتنقيحه وضبط كلماته وتخريج أحاديثه: عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
- ٥ - الأخلاق الإسلامية وأسسها: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة. ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ٦ - أخلاق المسلم وعلاقته بالخالق: د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
- ٧ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: تفسير أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ط. بدون.
- ٨ - الأذكار من كلام سيد الأبرار: لمحيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، اعتنى به وراجعته: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الجديدة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
- ٩ - أساس البلاغة: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة دون، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- ١٠ - أسباب نزول القرآن: لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق ودراسة: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط بدون، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
- ١١ - أسد الغابة في معرفة الصحابة: عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط بدون، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ١٢ - الإسلام بحث في العقيدة والإيمان: أحمد عبد الغفور عطار، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- ١٣ - الإسلام في الماضي والحاضر، تعريف عام بالإسلام: محمد الزحيلي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ١٤ - الإسلام في عصر العولمة: د. محمود خيرى زقزوق، مكتبة الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- ١٥ - الإسلام مقاصده وخصائصه: د. محمد عقلة، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- ١٦ - الإسلام والعولمة: محمد إبراهيم ميروك وجمال البنا، الدار القومية العربية، الطبعة الثانية.
- ١٧ - الإسلام وحاجة الإنسانية إليه: د. محمد يوسف موسى، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- ١٨ - الإسلام وعالمنا المعاصر دراسة في الدعوة والدعاة: صابر طعيمة، مكتبة المعارف، الرياض، ط بدون، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ١٩ - الإصابات في تمييز الصحابة: لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر النمري القرطبي، دار صادر، مطبعة السعادة بجوار محافظ مصر، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ.
- ٢٠ - أصول الإيمان: محمد بن عبد الوهاب، تحقيق وتعليق: باسم فيصل الجوابرة، الأصالة للتنفيذ والإخراج الفني، الزرقاء، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
- ٢١ - الأصول الثلاثة وأدلتها، القواعد الأربع لشروط الصلاة: محمد بن عبد الوهاب، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٩هـ.
- ٢٢ - أصول الحديث علومه ومصطلحه: دكتور محمد عجاج الخطيب، دار المنارة، جدة، الطبعة السادسة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

- ٢٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط بدون، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- ٢٤ - أضواء على الصلوات بين العروبة والإسلام: رجا عبد الحميد عرابي، دار الخير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- ٢٥ - إعراب القراءات الشواذ: لأبي البقاء العكبري، دراسة وتحقيق: محمد السيد أحمد عزوز، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ٢٦ - الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، ١٩٨٤م.
- ٢٧ - الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل: بهجت عبد الواحد صالح، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- ٢٨ - الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم: د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
- ٢٩ - الأمة القطب نحو تأصيل منهاجي لمفهوم الأمة في الإسلام: منى عبد المنعم أبو الفضل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ٣٠ - الأمة المسلمة مفهومها. مقوماتها. إخراجها: د. ماجد عرسان الكيلاني، دار الاستقامة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- ٣١ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى تفسير البيضاوي: لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر ابن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق وتعليق وإخراج: محمد صبحي بن حسن خلاق، ومحمود أحمد الأطرش، دار الرشيد، دمشق، وبيروت، ط بدون.
- ٣٢ - الارتباط الزمني والعائلي بين الأنبياء والرسل: د. الحاج محمد وصفي، بعناية: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ٣٣ - الاعتداء على بيت الله الحرام: رزق السيد هيبه، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة بدون.
- ٣٤ - اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق وتعليق: ناصر بن عبد الكريم العقل، شركة العيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٣٥ - الإيمان أركانه وثمراته في ضوء الكتاب والسنة: محمد عبد القادر هنادي، دار المجتمع، جدة، الطبعة بدون، ١٤١٠/١٩٩٠م.

### (حرف الباء)

٣٦ - الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث: للحافظ ابن كثير، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

٣٧ - بحر العلوم: تفسير نصر الدين محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٣٨ - البحر الزخار المعروف بمسند البزار: لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٣٩ - البحر المحيط (تفسير): محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

٤٠ - بحوث ومقالات في اللغة/الكتاب الحائز على جائزة آل البصير السعودية العالمية في الدراسات اللغوية: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٤١ - بدائع التفسير الجامع لتفسير: ابن قيم الجوزية، جمع وتخريج: يسرى السيد محمد، دار ابن الجوزية، طبع بإشراف دار الصحابة، بيروت، لبنان، الطبعة بدون.

٤٢ - بدائع الفوائد: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، اعتنى به وراجعه: محمد عبد القادر الفاصلي، أحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٤٣ - البداية والنهاية: لأبي الفداء ابن كثير الدمشقي، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٤٤ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ط بدون.



٤٥ - بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط بدون، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٤٦ - البيان في علوم القرآن مع مدخل في أصول التفسير ومصادره: إعداد سليمان بن صالح القرعاوي ومحمد بن علي الحسن، مكتبة الظلال، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

#### (حرف التاء)

٤٧ - تأملات في سورة آل عمران: د. حسن محمد باجودة، دار البلاد، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٤٨ - تأملات في سيرة الرسول ﷺ: محمد السيد الوكيل، دار المجتمع، جدة، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

٤٩ - تاج العروس من جواهر القاموس: محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، دراسة وتحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة بدون، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٥٠ - التبحير في التفسير: للسيوطي، تحقيق وتقديم: فتحي عبد القادر فريد، دار المنار، القاهرة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٥١ - التحرير والتنوير: محمد الطاهر ابن عاشور، ط بدون.

٥٢ - تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي: لأبي العلى محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، أشرف على تصحيحه: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، الطبعة بدون.

٥٣ - تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق: للربيعي، ومعه مناقب الشام وأهله: ابن تيمية، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

٥٤ - ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام: عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، تحقيق: إياد خالد الطباع، دار المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٥٥ - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف: لأبي محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق وتعليق وشرح: محمد قطب، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٥٦ - التعريفات: للجرجاني علي بن محمد بن علي، تحقيق وتقديم: إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث، الطبعة بدون.

- ٥٧ - تفسير ابن باديس في مجال التذكير من كلام الحكيم الخبير: عبد الحميد بن محمد بن باديس المنهاجي، جمع وترتيب: توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- ٥٨ - التفسير الشامل للقرآن الكريم: أمير عبد العزيز، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- ٥٩ - تفسير القرآن: لأبي المظفر السمعاني منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي المروزي الشافعي، تحقيق: أبي بلال غنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ٦٠ - تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ٦١ - تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين: عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي بن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- ٦٢ - التفسير الكبير: تقي الدين بن تيمية، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة بدون.
- ٦٣ - تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.
- ٦٤ - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: دكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- ٦٥ - تنبيه ذوي النجابة إلى عدالة الصحابة: قرشي بن عمر بن أحمد، تعليق وتخرين: نبيل بن منصور بن يعقوب البصارة، دار الدعوة، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- ٦٦ - تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٣م.
- ٦٧ - تهذيب التهذيب: لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- ٦٨ - تهذيب مدارج السالكين: ابن القيم الجوزية، وهذبه: عبد المنعم صالح العلي العزي، مكتبة السوادى، جدة، دار الخاني، الرياض، ط بدون.

٦٩ - تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير: اختصره وعلق عليه واختار أصح رواياته: محمد نسيب الرفاعي، مكتبة المعارف، الرياض، طبعة جديدة، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

٧٠ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق وضبط وتصحيح: محمد زهري النجار، عالم الكتب، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٧١ - تيسير مصطلح الحديث: دكتور محمود الطعان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة التاسعة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

#### (حرف التاء)

٧٢ - الثقافة الإسلامية: عبد الرحمن حبنكة ومحمد الغزالي، راجعه: محمد إبراهيم علي وحسين حامد حسان، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، الطبعة السابعة عشرة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

#### (حرف الجيم)

٧٣ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٧٤ - الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي: لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط بدون.

٧٥ - الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٧٦ - جمهرة اللغة: لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٤٥هـ.

٧٧ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: لأبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية، تحقيق وتعليق: علي بن حسن بن ناصر، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

٧٨ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن: سيدي عبد الرحمن الثعالبي، تحقيق وتخريج: أبو محمد الغماري الإدريسي الحسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

### (حرف الحاء)

- ٧٩ - حاضر العالم الإسلامي وقضايا المعاصرة: جميل عبد الله محمد المصري، دار أم القرى، عمان، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/١٩٨٩م.
- ٨٠ - حقائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار ﷺ: محمد بن عمر بحرق الحضرمي الشافعي، دار الحاوي، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ٨١ - حقيقة الدعوة إلى الله تعالى وما اختصت به جزيرة العرب وتقويم منهاج الدعوة الإسلامية الوافدة إليها: سعد بن عبد الرحمن الحصين، تقديم: صالح بن عبد الله العبود، وصالح بن سعد السحيمي، الفرقان، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٨٢ - الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى: سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الدار بدون، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- ٨٣ - حمى سنة ٢٠٠٠: نظرات في مسيرة الصراع الديني ضد المسلمين، مؤسسة دار السليم للنشر، الرياض.
- ٨٤ - حياة محمد ﷺ: محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، الطبعة العشرون.

### (حرف الخاء)

- ٨٥ - خاتم النبیین ﷺ: محمد أبو زهرة، دار التراث، بيروت، لبنان، ط بدون.
- ٨٦ - خصائص القرآن الكريم: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، مكتبة العيكان، الرياض، الطبعة التاسعة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ٨٧ - خصائص المصطفى ﷺ بين الغلو والجفاء: الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ٨٨ - خصائص جزيرة العرب: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.

### (حرف الدال)

- ٨٩ - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، التحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- ٩٠ - الدر المنثور في التفسير المأثور وهو مختصر تفسير ترجمان القرآن: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

- ٩١ - دراسات في علوم القرآن الكريم: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة التاسعة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ٩٢ - دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر: د. فتحي الدريني، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ٩٣ - دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ: (من ظلال السيرة الشريفة): محمد رواس قلعه جي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ٩٤ - دراسة في السيرة: عماد الدين خليل، دار النفائس، بيروت، الطبعة الحادية عشر، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ٩٥ - دليل الخير في الإسلام: أحمد الحناوي، مكتبة الصحابة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- ٩٦ - دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين: أ. د. كامل سلامة الدقس، دار عمار، الأردن، عمان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- ٩٧ - ديوان حسان بن ثابت: شرحه وكتب هوامشه وقدم له عبد أ. مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الثانية.

#### (حرف الراء)

- ٩٨ - رحمة رب العالمين: محمد سليمان سلمان المنصورفوري، دار السلفية، بومباي، الهند، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- ٩٩ - الرحيق المختوم: صفي الرحمن المباركفوري، دار مكتبة وليد الكعبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- ١٠٠ - الرسالة القشيرية: لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن ابن عبد الملك بن أبي طلحة القشيري النيسابوري القرشي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- ١٠١ - روح البيان (تفسير): اسماعيل حقي البروسوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة بدون.
- ١٠٢ - روح الدين الإسلامي: عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثلاثون، ١٩٩٥م.
- ١٠٣ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، تصحيح وتعليق: السيد محمود شكري الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط بدون.

### (حرف الزاي)

- ١٠٤ - زاد المسير في علم التفسير: لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، أخرجه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- ١٠٥ - زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

### (حرف السين)

- ١٠٦ - سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- ١٠٧ - سنن أبي داود: لأبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، ضبط وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية، ط بدون.
- ١٠٨ - سنن ابن ماجه: بشرح أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندي، حقق أصوله وخرج أحاديثه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ١٠٩ - سنن النسائي: بشرح جلال الدين السيوطي، تحقيق: مكتبة التحقيق، التراث الإسلامي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- ١١٠ - سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق وإشراف: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- ١١١ - السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون إنسان العيون: علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة، ط بدون.
- ١١٢ - السيرة النبوية: أبو الحسن علي الحسيني الندوي، دار الشروق، جدة، الطبعة الثامنة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ١١٣ - السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق وشرح: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ١١٤ - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة: محمد بن محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

### (حرف الشين)

- ١١٥ - شرح العقيدة الطحاوية: علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، تحقيق وتعليق وتخريج: عبد الله بن عبد المحسن التركي، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ١١٦ - شرح العقيدة الواسطية: ابن تيمية، شرحه: محمد الصالح العثيمين، أخرجه واعتنى به: سعد ابن فواز الصميل، دار الجوزي، الدمام، الطبعة الخامسة، ١٤١٩هـ.
- ١١٧ - الشرح الممتع على زاد المستقنع: محمد بن صالح العثيمين، اعتنى به جمعاً وترتيباً وتصويباً، وعزواً لآياته، وتخريجاً لأحاديثه، وتوثيقاً لنقله، ووضع فهارس مسائله وأشرف على طبعه: سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل، وخالد بن علي بن محمد بن المشيقح، مؤسسة آسام، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
- ١١٨ - شرح ثلاثة الأصول: محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا، المملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- ١١٩ - شرح حياة الصحابة ﷺ: محمد يوسف الكاندهلوي، شرح وتحقيق وتعليق: محمد إلياس الباره بنكوي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الخامسة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ١٢٠ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي ابن القيم الجوزية، اعتنى به خالد عبد اللطيف السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.

### (حرف الصاد)

- ١٢١ - الصاحب في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: لأبي الحسين أحمد بن فارس ابن زكريا الرازي اللغوي، حققه وضبط وقدم له: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ١٢٢ - صحابة رسول الله ﷺ في الكتاب والسنة: عيادة أيوب الكبيسي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- ١٢٣ - الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية: لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: محمد نبيل طريقي وإميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

- ١٢٤ - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ١٢٥ - صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري: لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ١٢٦ - صحيح البخاري: لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ١٢٧ - صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير): محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ١٢٨ - صحيح مسلم: بشرح محيي الدين النووي، شرح صحيح مسلم بن الحجاج، مقدمة: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ١٢٩ - صحيح مسلم: لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- ١٣٠ - صراع الأمم بين العولمة والديمقراطية: د. أسعد السحمراني، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- ١٣١ - صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة: علوي بن عبد القادر السقاف، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
- ١٣٢ - صفة الصفوة: لجمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي، ضبطها: إبراهيم رمضان، وسعيد اللحام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ١٣٣ - الصفوية: أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار الهدى النبوي، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

### (حرف الطاء)

- ١٣٤ - الطبقات الكبرى: لابن سعد، دار صادر، بيروت، ط بدون.
- ١٣٥ - طريق الهجرتين وباب السعادتین: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية، ضبط وتخريج وتعليق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.



### (حرف العين)

- ١٣٦ - العبودية: تقي الدين أحمد بن تيمية، تحقيق وتعليق: خالد عبد اللطيف العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ١٣٧ - عبودية الكائنات لرب العالمين: فريد اسماعيل التوني، مكتبة الضياء، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- ١٣٨ - العرب والعولمة بحوث ومناقشات الندوة الفكرية: السيد ياسين، عزمي بشارة وآخرون، تحرير: أسامة أمين الخولي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٩٨م.
- ١٣٩ - عصمة الأنبياء: محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- ١٤٠ - عظمة محمد خاتم رسل الله مجمع عظمت البشرية: مصطفى أحمد الزرقاء، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ١٤١ - العقيدة الإسلامية وأسسها: لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤١٥هـ.
- ١٤٢ - علوم الحديث ومصطلحه: عرض ودراسة: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة عشرة، ١٩٩١م.
- ١٤٣ - علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازة: عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ١٤٤ - عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم): أحمد بن يوسف ابن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ١٤٥ - عولمة أم أمركة؟: حسن قطامش، مكتب الطيب، مصر العربية، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- ١٤٦ - العولمة الغربية والصحة الإسلامية (الموقف الرشيد): عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، دار إشبيليا، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ١٤٧ - العولمة طبيعتها - وسائلها - تحدياتها التعامل معها: عبد الكريم بكار، دار الإعلام للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

- ١٤٨ - العولمة وخصائص دار الإسلام ودار الكفر، دراسة فقهية مقارنة: د. عابد بن محمد السفيناني، دار الفضيلة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ١٤٩ - العولمة ومستقبل العالم الإسلامي: فتحي يكن ورامز طنبور، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ١٥٠ - عون المعبود شرح سنن أبي داود: لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، ضبط وتحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ١٥١ - العين (سلسلة المعاجم والفهارس): لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، الدار بدون، الطبعة بدون.
- ١٥٢ - عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير: فتح الدين أبو الفتح محمد بن سيد الناس الشافعي، ضبط وشرح وعلق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

#### (حرف الغين)

- ١٥٣ - غرائب القرآن ورجائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، ضبط وإخراج: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

#### (حرف الفاء)

- ١٥٤ - فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد العزيز بن باز، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ١٥٥ - فتح البيان في مقاصد القرآن: لأبي الطيب صديق بن حسن بن علي الحسين القنوجي النجاري، اعنتى وقدم له: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- ١٥٦ - الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني - مع مختصر شرحه بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني: أحمد عبد الرحمن البنا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط بدون.
- ١٥٧ - فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: لأبي يحيى زكريا الأنصاري، تحقيق وتعليق: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- ١٥٨ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: أحمد بن علي بن محمد الشوكاني، تعليق: هشام البخاري، خُضر عكاوي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ١٥٩ - الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية: سليمان بن عمر الحجيلي النافعي، تصحيح وإخراج: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ١٦٠ - فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: فتوى رقم ١٩٤٠٢/في ٢٥/١٤١٨هـ.
- ١٦١ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق وتخريج وتعليق: عبد الرحمن بن عبد الكريم اليحيى، دار طويق، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ١٦٢ - الصحابة والدفاع عن كرامتهم وبيان خطر مبغضهم الطاعنين فيهم: عبد الله عبد القادر التليدي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- ١٦٣ - فضائل مكة الواردة في السنة جمعاً ودراسة: محمد بن عبد الله بن عايض بن عوض الغبان، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ١٦٤ - فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام (وذكر تاريخهما وأحكامهما الفقهية وما يتعلق بهما): سائد بكداش، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ١٦٥ - فقه السيرة النبوية: منير محمد غضاب، مطابع مؤسسة مكة للطباعة والإعلام، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- ١٦٦ - فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة: محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة الحادية عشر، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- ١٦٧ - الفوائد: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية، مكتبة المؤيد، الطائف، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ١٦٨ - الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، تحقيق أصوله: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٦٩ - في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة عشرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

### (حرف القاف)

- ١٧٠ - قادة الغرب يقولون، دمرُوا الإسلام أبيدوا أهله: جلال العالم، مكتبة الصحابة، جدة، الطبعة بدون.
- ١٧١ - قالوا عن الإسلام: عماد الدين خليل، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ١٧٢ - القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة وبإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ١٧٣ - القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين: محمد الصادق إبراهيم عرجون، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- ١٧٤ - قصص الأنبياء: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، تحقيق: عبد الحي الفرماوي، دار اليقين، مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ١٧٥ - قواعد التفسير جمعاً ودراسة: خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ١٧٦ - القواعد الحسان لتفسير القرآن: عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مكتبة الكوثر، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ١٧٧ - القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: محمد بن صالح بن عثيمين، تحقيق وأخرج أحاديثه: أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، مكتبة السنة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.
- ١٧٨ - القول المفيد على كتاب التوحيد: شرح محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- ١٧٩ - القيامة الكبرى: عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

### (حرف الكاف)

- ١٨٠ - كشف اصطلاحات الفنون: محمد علي بن علي بن محمد التهانوي الحنفي، وضع حواشيه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

١٨١ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

١٨٢ - الكعبة مركز العالم: سعد المرصفي، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

١٨٣ - الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١٨٤ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري، ضبطه وفسر غريبه: بكري حياني، صححه ووضع فهارسه ومفتاحه: صفوة السقا.

١٨٥ - كيف نتعامل مع القرآن العظيم: د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

#### (حرف اللام)

١٨٦ - لباب التأويل في معاني التنزيل: (تفسير) علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الخازن، ضبطه وصححه: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

١٨٧ - لباب النقول في أسباب النزول: جلال الدين السيوطي، اعتنى به: عبد المجيد طعمه الحلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١٨٨ - اللباب في علوم الكتاب: لأبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١٨٩ - لسان العرب: محمد بن مكرم، ابن منظور، علق عليه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٩٠ - لطائف المعارف فيما المواسم العام من الوظائف: ابن رجب الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط بدون، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١٩١ - لطائف قرآنية: صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

- ١٩٢ - اللغة العربية أصل اللغات كلها: عبد الرحمن أحمد البوريني، دار الحسن، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ١٩٣ - لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير: محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

### (حرف الميم)

- ١٩٤ - المؤامرة الكبرى على بلاد الشام: محمد فاروق الخالدي، دار الداوي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ١٩٥ - ما العولمة؟: حسن حنفي، صادق جلال العظم، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ١٩٦ - مباحث العقيدة في سورة الزمر: ناصر علي عايض حسن الشيخ، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- ١٩٧ - مباحث المفاضلة في العقيدة: محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الشظيفي، دار ابن عفاف، الخبر، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ١٩٨ - مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة العشرون، ١٩٩٧م.
- ١٩٩ - مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
- ٢٠٠ - مبادئ الإسلام: أبو الأعلى المودودي، دار القرآن الكريم، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ٢٠١ - المبشرات بانتصار الإسلام: يوسف القرضاوي، مكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- ٢٠٢ - متن القصيدة النونية: ابن القيم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مكتبة العلم، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ٢٠٣ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط بدون، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.
- ٢٠٤ - مجمل اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

- ٢٠٥ - مجموع فتاوى: أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي وساعده ابنه محمد، مكتبة ابن تيمية للكتب السلفية، ط بدون.
- ٢٠٦ - محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي، تصحيح وإخراج وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- ٢٠٧ - محبة النبي وطاعته بين الإنسان والجماد: خليل إبراهيم ملا خاطر، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- ٢٠٨ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- ٢٠٩ - محمد رسول الله ﷺ (منهج ورسالة):، بحث وتحقيق: محمد الصادق إبراهيم عرجون، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- ٢١٠ - المحيط في اللغة، كافي الكفاة الصحاح: إسماعيل بن عباد، التحقيق: محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- ٢١١ - محيط المحيط (قاموس مطول للغة العربية): بطرس البستاني، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، الطبعة جديدة، ١٩٩٨م.
- ٢١٢ - مختار القاموس مرتب على طريقة مختار الصحاح والمصباح المنير: الطاهر أحمد الزاوي، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- ٢١٣ - مختصر الشمائل المحمدية، أبي عيسى محمد بن سورة الترمذي صاحب السنن، اختصره وحققه: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، الأردن، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- ٢١٤ - مختصر سيرة الرسول ﷺ: محمد بن عبد الوهاب، مكتبة دار الفيحاء، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- ٢١٥ - المخصص: لأبي الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، قدم له: خليل إبراهيم جفال، اعتنى بتصحيحه مكتب التحقيق بدار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

- ٢١٦ - مدارج العبودية من هدي خير البرية: لأبي أسامة سليم بن عيد الهلالي، دار الصمعي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- ٢١٧ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي): لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تحقيق: يوسف على بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ٢١٨ - مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه: عدنان محمد زرزور، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
- ٢١٩ - مدخل إلى معرفة الإسلام، مقوماته - خصائصه - أهدافه - مصادره: د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ٢٢٠ - المدخل للثقافة الإسلامية: يعقوب المليجي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة بدون.
- ٢٢١ - مراج لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: محمد بن عمر نوي الجاوي، ضبطه وصححه: محمد أمين الحناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ٢٢٢ - مسألة الحسبة: ابن تيمية، تحقيق وتعليق: محمد الحمود النجدي، دار إيلاف الدولية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ٢٢٣ - مسبوك الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب: مرعي بن يوسف الحنبلي الكرمي، تحقيق وتعليق قدم له: نجم عبد الرحمن خلف، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- ٢٢٤ - المستدرك على الصحيحين: لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص: للحافظ الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط بدون.
- ٢٢٥ - المسلمون بين التحدي والمواجهة - مقومات للنهوض بالعمل الدعوي: عبد الكريم بكار، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- ٢٢٦ - المسلمون والعولمة: د. يوسف القرضاوي، مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة. دون، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ٢٢٧ - المسلمون ورسالتهم في الحياة: عبد الكريم الخطيب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ٢٢٨ - مسند الإمام أحمد بن حنبل: وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: دار صادر، بيروت، ط بدون.



- ٢٢٩ - مسند الإمام أحمد بن حنبل: حقق هذا الجزء وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ٢٣٠ - المصباح المنير (معجم عربي - عربي): أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، اعتنى به: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ٢٣١ - مصطلح الحديث: محمد بن صالح بن عثيمين، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
- ٢٣٢ - معارج التفكير ودقائق التدبر (تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج الكتاب): عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، دار القلم، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- ٢٣٣ - معالم التنزيل (تفسير البغوي): محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرس، دار طيبة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ٢٣٤ - معالم في الطريق: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط بدون، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ٢٣٥ - معاني القرآن: لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، بتحقيق: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، دار السرور، ط بدون.
- ٢٣٦ - معاني القرآن الكريم: لأبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، من التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- ٢٣٧ - معاني القرآن وإعراجه: للزجاج أبي إسحق إبراهيم بن السري، بشرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ٢٣٨ - المعجزة الخالدة عظمة معجزات القرآن - شهادة العالم بإعجاز القرآن: حسن ضياء الدين عتر، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ٢٣٩ - معجزة القرآن المجيد/الإسلام والرتق الحضاري: عبد الرحمن عيسى، دار الهجرة، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- ٢٤٠ - معجم ألفاظ العقيدة: لأبي عبد الله عامر عبد الله فالج، تقديم: عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- ٢٤١ - المعجم الكبير: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق وإخراج: حمدي عبد المجيد السلفي، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل، الطبعة الثانية.
- ٢٤٢ - معجم المقاييس في اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- ٢٤٣ - المعجم الوسيط: قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزيات، وآخرون، المكتبة الإسلامية، تركيا، الطبعة الثانية.
- ٢٤٤ - معلمة الإسلام: أنور الجندي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، الطبعة دون، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- ٢٤٥ - مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي، دار الغد العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- ٢٤٦ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإدارة: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي ابن قيم الجوزية، تحقيق: حمدي الدمرداش محمد، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- ٢٤٧ - مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار العلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- ٢٤٨ - المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: محمد عبد الرحمن السخاوي، دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشن، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- ٢٤٩ - مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي: عبد الكريم بكار، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- ٢٥٠ - من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك: سعيد حوى، الدار بدون، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- ٢٥١ - من أجل صحوة راشدة تجدد الدين.. وتنهض بالدنيا: يوسف القرضاوي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- ٢٥٢ - المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم: عبد العليم عبد الرحمن خضر، الدار السعودية، جدة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ٢٥٣ - من هدي سورة آل عمران: حنان لحام، دار الهدى، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ٢٥٤ - من هدي سورة لقمان: حنان لحام، تقديم: أ/جودت سعيد، دار الهدى، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ٢٥٥ - مناهل العرفان: للزرقاني، (دراسة وتقديم): خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ٢٥٦ - المنتقى من جلاء الفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام: ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، علق عليه: محمد بن أحمد سيد أحمد، قدم له: عبد القادر الأرنؤوط، دار الوسيلة، جدة، ط بدون.
- ٢٥٧ - منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ﷺ: عبد الله بن سعيد محمد عبادي اللحجي، دار الحاوي، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- ٢٥٨ - المنهاج في شعب الإيمان: لأبي عبد الله الحسين بن الحسن الحلبي، تحقيق: حلمي محمد فودة، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ٢٥٩ - منهج التربية الإسلامية: محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- ٢٦٠ - المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: أحمد بن محمد القسطلاني، شرح وتعليق: مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ٢٦١ - موسوعة أخلاق القرآن: أحمد الشرباصي، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ٢٦٢ - موسوعة له الأسماء الحسنی ضمیمة إلى أسماء الله الحسنی: أحمد الشرباصي، تقديم: عبد الستار حسين زقوط، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
- ٢٦٣ - موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ: صالح بن حميد عبد الرحمن بن ملوح، دار الوسيلة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٢٦٤ - الموطأ: للإمام مالك بن أنس، حققه وعلق عليه: بشار عواد معروف ومحمود محمد خليل، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

### (حرف النون)

٢٦٥ - النبوات: لتقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية، دراسة وتحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٢٦٦ - نبوة محمد ﷺ في القرآن: حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٢٦٧ - نحن والعولمة من يربي الآخر!: رضوان السيد، عبد الصبور شاهين، وآخرون، وزارة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٢٦٨ - نحو ثقافة إسلامية أصيلة: عمر سليمان الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة العاشرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٢٦٩ - نظرات في مسيرة الصراع الديني ضد المسلمين: عبد العزيز مصطفى كامل، مؤسسة دار السليم للنشر، الرياض.

٢٧٠ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٢٧١ - النكت والعيون: تفسير الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، راجعه وعلق عليه: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط بدون.

٢٧٢ - النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى: محمد الحمود النجدي، مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ.

٢٧٣ - نور اليقين في سيرة سيد المرسلين: محمد الحضري بك، تحقيق: قاسم السماعي الرفاعي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

### (حرف الهاء)

٢٧٤ - هذا القرآن: صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار المنار، عمان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٢٧٥ - هذا هو الإسلام، سماته وحاجة الإنسانية إليه: أحمد عبد الرحيم السايح، مركز الكتاب، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٢٧٦ - هل محمد ﷺ عبقرى مصلح أم نبى مرسل، التأريخ بمولد الرسول ﷺ،  
حتمية المستقبل وتأكيد الذات: محمد سيخانى، دار قتيبة، بيروت، الطبعة  
الثانية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

### (حرف الواو)

٢٧٧ - الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز ومعانيها: لأبى عبد الله الحسين بن  
محمد الدامغانى، دراسة وتحقيق: فاطمة يوسف الخيمى، مكتبة الفارابى،  
دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٢٧٨ - الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز: لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى،  
تحقيق: صفوان عدنان داوودى، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى،  
١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٢٧٩ - الوسطية فى القرآن الكريم: على محمد الصلابى (المصراى)، دار النفائس،  
عمان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٢٨٠ - وظيفة الدين فى الحياة وحاجة الناس إليه: محمد الزحيلى، دار القلم،  
دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٩م.

٢٨١ - الوعد الأخرى شروطه وموانعه: عيسى بن عبد الله السعدى، دار عالم  
الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٨٢ - وقفات تربوية فى ضوء القرآن الكريم، فبهدهم اقتده: عبد العزيز بن ناصر  
الخليل، دار طيبة للنشر، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

### ❖ الدوريات ❖

#### [الصحف والمجلات]

١ - مجلة البحوث الإسلامية: الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء، دار أولى النهى،  
الرياض، الطبعة دون.

٢ - مجلة البيان عدد ١٤٥ فى دائرة الضوء: العولمة بين منظورين، محمد  
أمحزون.

٣ - مجلة الدعوة: أسبوعية، إسلامية، جامعة، تصدر عن مؤسسة الدعوة  
الإسلامية الصحفية، أسسها سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،  
عام ١٣٨٥هـ فى المملكة العربية السعودية، رئيس التحرير: عبد العزيز بن  
عبد الكريم العيسى.

- ٤ - جريدة الشرق الأوسط (جريد العرب الدولية): تصدر في لندن، وتوزع في جميع أنحاء العالم، أسسها سنة ١٩٧٨م هشام ومحمد علي حافظ، رئيس التحرير: عبد الرحمن الراشد.
- ٥ - جريدة عكاظ: تصدر عن مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر، أسسها: أحمد عبد الغفور عطار سنة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، المملكة العربية السعودية، رئيس التحرير: هاشم عبده هاشم.
- ٦ - مجلة المجتمع، إسلامية: أسبوعية، تأسست عام ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، تصدر عن جمعية الإصلاح الاجتماعي الكويت، رئيس التحرير: د. محمد البصري.
- ٧ - مجلة المستقبل الإسلامي: مجلة شهرية، تصدرها الندوة العالمية للشباب الإسلامي، رئيس التحرير: د. صالح بن سليمان الوهيبي، الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي، المملكة المتحدة، تأسست عام ١٣٩٢هـ.
- ٨ - مجلة المعرفة: مجلة شهرية، تصدر عن وزارة المعارف، تأسست عام ١٣٧٩هـ في عهد وزير المعارف صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز، وأعيد إصدارها عام ١٤١٧هـ في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، إدارة النشر: المملكة العربية السعودية.
- ٩ - مجلة منار الإسلام: إسلامية، ثقافية، شهرية، تصدر في غرة كل شهر عربي عن وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف في دولة الإمارات العربية المتحدة، تأسست عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
- ١٠ - مجلة المنار الجديد: تصدر عن التجمع الإسلامي في أمريكا الشمالية بالتعاون مع دار المنار الجديد.
- ١١ - مجلة المنهل، مجلة شهرية للآداب والعلوم والثقافة: صاحب المجلة ورئيس التحرير: نبيه بن عبد القدوس الأنصاري، تصدر في المملكة العربية السعودية، جدة عن دار المنهل للصحافة والنشر المحدودة. أسسها عبد القدوس القاسم الأنصاري عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م.

## فهرس المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
٩	المقدمة
١١	أسباب اختيار الموضوع
١٣	- خطة البحث
١٩	- منهج البحث
٢٢	الدراسات السابقة
٢٧	تمهيد: انفراد الله ﷻ بالخلق

### \* الباب الأول \*

#### تحرير معاني الاصطفاء ومرادفاته، واصطفاء غير البشر

٤٥	الفصل الأول: تعريف الاصطفاء في اللغة والاصطلاح ومرادفاته
٤٧	المبحث الأول: معنى الاصطفاء في اللغة
٥١	المبحث الثاني: إطلاقات مادة الاصطفاء في القرآن الكريم
٦٥	المبحث الثالث: الكلمات المرادفة للاصطفاء
٧٧	المبحث الرابع: تحرير معنى الاصطفاء
٨٣	الفصل الثاني: اصطفاء غير البشر في القرآن الكريم
٨٥	المبحث الأول: اصطفاء الدين (الإسلام)
١٠٧	المبحث الثاني: اصطفاء الكتاب (القرآن)
١٠٨	المطلب الأول: اصطفاء القرآن الكريم
١٢٨	المطلب الثاني: اصطفاء الذكر
١٤٠	المطلب الثالث: اصطفاء اللغة العربية
١٤٥	المبحث الثالث: الملائكة المصطفاة
١٥٩	المبحث الرابع: اصطفاء بعض الأزمنة
١٦٢	المطلب الأول: اصطفاء شهر رمضان المبارك
١٦٩	المطلب الثاني: اصطفاء الأشهر الحرم
١٧٨	المطلب الثالث: اصطفاء يوم الجمعة
١٨٤	المطلب الرابع: اصطفاء ليلة القدر

المطلب الخامس: اصطفاء الليالي العَشْرِ من ذي الحجة .....	١٩١
المبحث الخامس: اصطفاء بعض البقاع .....	١٩٩
المطلب الأول: اصطفاء البلد الأمين «مكة المكرمة» .....	٢٠٦
المطلب الثاني: اصطفاء طابة «المدينة المنورة» .....	٢٢٣
المطلب الثالث: اصطفاء بلاد الشام .....	٢٣٤
المطلب الرابع: اصطفاء المساجد .....	٢٣٩

## \* الباب الثاني \*

## الْمُصْطَفَوْنَ مِنَ الْبَشَرِ

الفصل الأول: منهج القرآن الكريم في الحديث عن اصطفاء الأنبياء ﷺ وبيان

خصائصهم وصفاتهم .....	٢٤٥
المبحث الأول: منهج القرآن الكريم في الحديث عن اصطفاء الأنبياء ﷺ ..	٢٥١
المطلب الأول: درجات الاصطفاء .....	٢٥٥
المطلب الثاني: أركان الاصطفاء .....	٢٦٤
المطلب الثالث: مراحل الاصطفاء .....	٢٦٧
المطلب الرابع: ذكر الْمُصْطَفَيْنِ أفراداً وجمَعاً وبيان اللفظ المعبر به عن الاصطفاء .....	٢٧٥
المطلب الخامس: بيان الشيء الذي اصطفى به الأنبياء .....	٢٧٩
المبحث الثاني: خصائص الأنبياء ﷺ .....	٢٨٥
المبحث الثالث: صفات الأنبياء ﷺ .....	٢٩٣
المطلب الأول: كمال عبوديتهم لله ﷻ .....	٢٩٩
المطلب الثاني: الصُّدُيقِيَّة .....	٣٠١
المطلب الثالث: الصلاح .....	٣٠٣
المطلب الرابع: الدعاء والخشوع .....	٣٠٦
المطلب الخامس: التوبة والأوبة والإنابة .....	٣١٠
المطلب السادس: الصبر والنصر .....	٣١٣
المطلب السابع: أولو العزم .....	٣١٦
المطلب الثامن: أولو الأيدي والأبصار .....	٣١٨
المطلب التاسع: أصحاب الذكر الجميل .....	٣٢٠
المطلب العاشر: المسارعة في الخيرات .....	٣٢٣
المطلب الحادي عشر: الأمانة والقطانة .....	٣٢٥
المطلب الثاني عشر: الرجولة والبشيرة ومزاولة أعمال البشر .....	٣٢٧



- المطلب الثالث عشر: من أهل القرى وبلسان قومهم ..... ٣٣١
- الفصل الثاني: اصطفاء الله ﷺ رسوله محمد ﷺ وما خصه به من خصائص .. ٣٣٣
- المبحث الأول: التهيئة والإعداد التي أولاها الله ﷻ لرسوله محمد ﷺ ... ٣٣٥
- المطلب الأول: المرحلة الأولى: الأمور التي تم إعدادها وتهيئتها  
للمصطفى ﷺ قبل ولادته ..... ٣٤١
- المطلب الثاني: المرحلة الثانية: من الولادة وحتى البعثة ..... ٣٧١
- المطلب الثالث: المرحلة الثالثة: التهيئة والإعداد بعد مبعثه ﷺ ..... ٣٨٢
- المبحث الثاني: خصائص الرسول ﷺ في الدنيا والآخرة ..... ٤٢١
- المطلب الأول: خصائص الرسول ﷺ في الدنيا ..... ٤٢٢
- المطلب الثاني: خصائص الرسول ﷺ في الآخرة ..... ٤٤٨
- الفصل الثالث: اصطفاء الصديقين والشهداء والصالحين ..... ٤٦٣
- المبحث الأول: اصطفاء الصديقين ..... ٤٦٥
- المطلب الأول: تحرير معنى الصديق في اللغة والاصطلاح وأقوال المفسرين ..... ٤٧٦
- المطلب الثاني: صفات الصديقين وخصائصهم ..... ٤٨٠
- المطلب الثالث: الصديقون والصدقات في القرآن والسنة ..... ٤٨٤
- المبحث الثاني: اصطفاء الشهداء ..... ٤٩٧
- المطلب الأول: دلالة القرآن الكريم على اصطفاء الشهداء ..... ٤٩٨
- المطلب الثاني: تعريف الشهيد في اللغة والاصطلاح ..... ٥٠٤
- المطلب الثالث: تربية الأمة على حب الشهادة ..... ٥٠٦
- المطلب الرابع: خصائص الشهداء ..... ٥١٩
- المطلب الخامس: أقسام الشهداء ..... ٥٢٥
- المبحث الثالث: اصطفاء الصالحين ..... ٥٢٩
- المطلب الأول: معنى الصلاح في اللغة والاصطلاح وأقوال المفسرين .. ٥٣٧
- المطلب الثاني: إطلاقات الصلاح في القرآن الكريم والسنة ..... ٥٣٩
- المطلب الثالث: السبيل إلى الدخول في زمرة الصالحين ..... ٥٤٦
- المطلب الرابع: ثمرات الصلاح ..... ٥٥٣
- تعقيب ..... ٥٥٩

## \* الباب الثالث \*

## اصطفاء الأمم

- الفصل الأول: اصطفاء الأمة المسلمة ..... ٥٧١

المبحث الأول: دلالة القرآن الكريم على اصطفاء الأمة المسلمة	٥٧٣
المطلب الأول: الآيات الدالة على اصطفاء الأمة المسلمة	٥٧٤
المطلب الثاني: إشارات حول مفهوم الأمة المسلمة	٥٨١
المطلب الثالث: أوصاف الأمة المسلمة في القرآن الكريم	٥٨٦
المبحث الثاني: خصائص الأمة المسلمة في الدنيا والآخرة	٥٩٥
المطلب الأول: خصائص الأمة المسلمة في الدنيا	٥٩٦
المطلب الثاني: خصائص الأمة المسلمة في الآخرة	٦٢٢
المبحث الثالث: تكاليف الاصطفاء للأمة المسلمة وتعدد أعبائها	٦٣٣
المطلب الأول: إخلاص العبادة لله ﷻ وعدم الإشراك به	٦٣٦
المطلب الثاني: الشهادة على البشرية والقوامة عليها	٦٤١
المطلب الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٦٤٦
المطلب الرابع: الجهاد في سبيل الله ﷻ	٦٥٢
الفصل الثاني: عالمية الإسلام والنداءات المعاصرة	٦٦١
المبحث الأول: عالمية الإسلام، مفهومها، أهدافها	٦٦٣
المطلب الأول: مفهوم عالمية الإسلام	٦٦٤
المطلب الثاني: أهداف عالمية الإسلام	٦٧٧
المبحث الثاني: العولمة، مفهومها، أهدافها والموقف منها	٦٨٥
المطلب الأول: مفهوم مصطلح العولمة	٦٨٩
المطلب الثاني: مجالات العولمة	٦٩١
المطلب الثالث: أهداف العولمة	٧١٠
المطلب الرابع: الموقف الرشيد تجاه العولمة	٧١٣
تعقيب	٧٤٠
الخاتمة	٧٤٥
فهرس المصادر والمراجع	٧٥٧
فهرس المحتويات	٧٨٣

Kingdom of Saudi Arabia  
Ministry of Knowledge  
Girls College Deputy  
High studies & Scientific Research Dean  
Girls college Admin.-Jeddah  
Faculty of Education for girls  
Literal Departments  
Islamic Studies Section

# **Choosing in the Holy Quran**

An Objective study

**Thesis in Interpretation and Quranic studies**

by

**Um Hani Salahudin Fakhry Zeinelabdin**

**Supervisor**

**Dr. Fahad Abdulrahman Suliman Al-Roumi**

Teacher of Quranic studies in teachers' college in Riyadh

1423-1424

2002-2003

# Abstract

All the praises and thanks are to ALLAH (exalted & magnified), who makes everything -by his power- easy and successful.

I pray to him to accept and purify my work.

After the introduction, I divided my thesis into three parts:

**1 - The first part** has two chapters:

- A - The first one is about the meaning of "choosing" given by the Arab linguists; how it occurs in the Holy Quran, how often and on whom.
- B - The second chapter is about the religion that Allah (exalted & magnified) has chosen as the best (Islam) - and about the chosen book (the Holy Quran) then about the one who delivered it to our Prophet Mohammad (Peace be upon him) Ar-Ruh (Jebrael)-pbuh-.

**2 - The second part** contains three chapters:

- A - The first one concentrates on choosing the prophets (Peace be upon them) as the best ones ever created.
- B - The second chapter talks about the best of all messengers, our prophet Mohammad (pbuh). Then it's followed by mentioning his wives, the mothers of all Muslims (blessed by Allah).
- C - The third chapter is about the followers of the messengers, who were first and foremost to believe in them [the Siddigun], and it talks about the Martyrs, then the Righteous.

**3 - The Third part** has two chapters:

- A - The first one is about the Islamic nation which has been chosen by Allah(exalted & magnified) as the best of all nations and peoples, as He said: (you are the best of peoples raised up for mankind).
- B - The second chapter is about the Universalism of Islam.It shows, also, the opposite picture, the Globalization against Islam, with its hostile aims and destructive projects.

## RESULTS

*The results out of this thesis can be:*

- 1 - In the Holy Quran, the verb "choose" belongs only to Allah (exalted & magnified), for no one has the ability to do it.*
- 2 - Allah's choice comes over good things and best people only.*
- 3 - No one has the right to object on Allah's choice, because He never mistakes, and He's All Knower, and every thing is done by His will.*
- 4 - Allah's choosing includes all of His creatures; (mankind, time, place, religions,....etc).*
- 5 - A man can reach Allah's choosing by doing its causes, such as: repentance, asking forgiveness, supplication and asking protection only from Alah (exalted & magnified).*
- 6 - Allah's choice helps the Muslim's faith to increase and his spiritual power to be strong.*
- 7 - Allah's choosing for the Islamic nation is opposed by its enemies all over the world -formerly and recently- but Allah is the one who can keep it out of their reach.*

## Recommendations

- 1 - Explaining Allah's choosing to the whole Islamic nation by using modern techniques as internet, satellites, newspapers magazines and other different means.*
- 2 - Giving a simple definition of this choice in primary schools' books to set a real glorified doctrine in the minds of grown up children.*
- 3 - Organising active courses for the teachers of all grades to know how to fulfill the moral aims.*
- 4 - Planning for educational affairs which make these choices vital,- present, active, and not mere historical ruins.*
- 5 - using the fastest and widest mean - the Internet - to make top programs to defeat the ones that spoil the minds, doctrine and moralities of the Muslim generations.*

6 - *Forming youth clubs to educate them correctly, and organize living programs and continuous trips to the holy places in the holy times.*

7 - *Making competitions on the "choice" between all schools, pupils and teachers, that's by the ministry of knowledge.*

*I recommend the researchers to study the divine choices and do scientific studies about them in different fields such as:*

***Geographical studies.***

***Psychological studies.***

***Cosmic studies.***

***Invocation studies.***

***Historical studies.***

***Doctrinal studies.***

*Because we are in need of such studies. so, I ask Allah (exalted & magnified) to help us to do the best.*